روايات

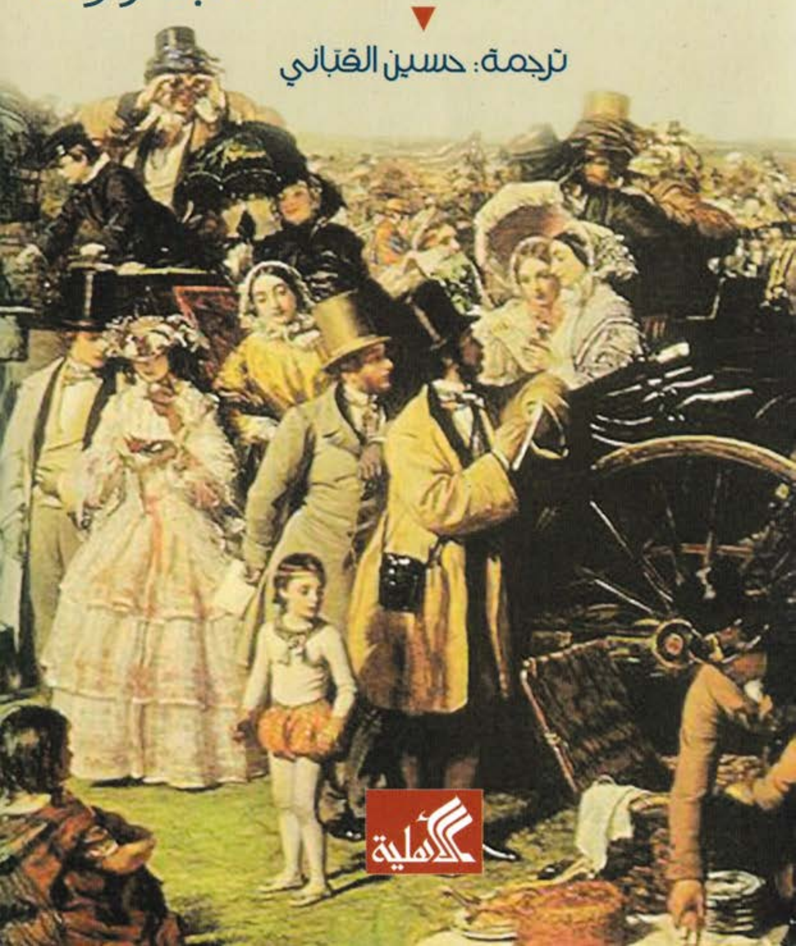
CHARLES DICKENS

تشارلز ديكنز

دوريت الصغيرة

(1) الفقر

ترجمة: حسين القباني



الأهلية



دوريت الصغيرة

(1) الخفر



الأهليّة للنشر والتوزيع
e – mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 00962 6 4638688، فاكس 00962 6 4657445
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردن



دوريت الصغيرة، الجزء الأوّل (الفقر) / رواية إنجليزيّة
تشارلز ديكنز / المملكة المتحدة
ترجمة : حسين القبّاني / مصر
مستشار التحرير: طارق هاشم / مصر

◆

الطبعة العربية الأولى، 2020

◆

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95297109***
®

◆

الصفّ الضوئيّ : **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95349156***

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 6589 - 09 - 859 - 1

روايات



تشارلز ديكنز

دوريت الصغيرة

(1) الفقر

ترجمة: حسين القباني





تصدير

هي رواية متسلسلة للمؤلف شارلز ديكنز والتي تم نشرها بين 1855 و1857. وهو عمل يناقش جوانب القصور من الحكومة والمجتمع في تلك الفترة. تركَّز غضب «ديكنز» في هذه الرواية على المؤسسات المسؤولة عن سجن المدينين والتي يُسجَن فيها الأشخاص المدينين، الذين لا يستطيعون العمل حتى يتمكنوا من تسديد دَيْنهم، وكان سجن «مارشاليزا» هو السجن المسؤول عن هذه الحالات، والذي سُجِن فيه والد المؤلف نفسه. وتتعلق معظم الانتقادات في هذه الرواية بالتحديد على شبكة الأمان الاجتماعي: الصناعة والعلاج وسلامة العُمّال وبيروقراطية وزارة الخزانة البريطانية والتفريق بين الناس استناداً على انعدام التواصل بين الطبقات.

تبدأ الرواية في سجن مارشاليزا قبل ثلاثين عاماً، مع القاتل المشهور بسمعته السيئة «ريجود» حين أخبر زميله بالزنزانة عن قصة قتله لزوجته. عاد «آرثر كلينام» إلى لندن والذي كان قد عاش لعشرين عاماً في الصين لزيارة والدته ليعلمها بوفاة والده. قام والد آرثر وهو على فراش الموت بإعطاء ابنه ساعة تحمل سراً عظيماً، ثم تمتم قائلاً: «أمك». وبطبيعة الحال ظن آرثر بأنه يقصد بكلامه السيدة «كلينام» والتي يعتقد الجميع بأنها أمه. وكان يوجد داخل غلاف الساعة ورقة قديمة مصنوعة من الحرير ومكتوب عليها بحبات الخرز اختصار لكلمة «لا تنسى». قام آرثر

بعرض رسالة والده على السيدة القاسية والحقودة، المتعصبة دينياً «كلينام»، ولكنها رفضت إخباره ما تعنيه هذه الحروف، فأصبحوا كالغرباء.

سُجِن وليام دوريت في لندن بسبب الديون التي عليه، وقد بقي في سجن المدينين «مارشاليزا» لمدة طويلة جداً، حيث ترعرع أبناءه الثلاثة معه في السجن: «فاني» المغرورة، و«إدوارد» الهادئ المشهور باسم «تيب»، و«إيمي» المعروفة باسم «دوريت الصغيرة». بالرغم من أنهم كانوا أحرار في الدخول إلى السجن والخروج منه، كرست إيمي نفسها لوالدها، فقد كانت تدعم عائلتها من خلال القيام بحرفة الخياطة.

ذات يوم في لندن، التقى آرثر بخطيبته السابقة «فلورا فينشنج». والتي أصبحت سمينة جداً وانطوائية.

تقوم السيدة كلينام (المفترض كونها والدته) بإدارة أعمال العائلة بمساعدة خادمها «أرميا فلنتونش» وزوجته المضطهدة «آفري»، على الرغم من كونها مقعدة بسبب إصابتها بالشلل. عندما علم «آرثر» بلطف السيدة «كلينام» الغريب مع «دوريت الصغيرة» بسبب استئجارها لها للعمل لديها بالخياطة، تساءل عما إذا كانت هذه الطفلة لها علاقة بالسر المتعلق بساعة والده. قام «آرثر» باللحاق بـ «دوريت» إلى مارشاليزا بسبب شكه بأن والدته لها علاقة بالمصائب التي حلت بها. حاول «آرثر» التبرع لـ «إيمي» ووالدها وإخوتها في مكتب صاحب الإدارة السيئة، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل في الاستفسار عن مقدار دَيْن «ويليام دوريت». بينما كان في المكتب، التقى بالمخترع المكافح «دانييل دويس» والذي قرر مساعدته بالعمل معه. فشل «آرثر» في تمييز اهتمامات «إيمي» التي وقعت في حبه بشكل كبير، وكان ذلك من سوء حظ ابن السجان «جون شيفري» الذي أحبها منذ الطفولة. اكتشف جامع الدَّيْن «بانكس»

الذي لا يكل بأن «ويليام دوريت» هو الوريث الضائع صاحب الثروة الكبيرة. وقام بمساعدته على دفع الدَّيْن للخروج من السجن في النهاية.

قررت عائلة دوريت المفرج عنهم حديثاً، بأن يقوموا بجولة في أوروبا وأن يبدأوا كعائلة جديدة محترمة. سافرت جميع العائلة ما عدا «إيمي» عبر جبال الألب وأقاموا لبعض الوقت في فينيسيا في جو من الغرور على ثروتهم الجديدة التي حصلوا عليها. في نهاية المطاف، وبعد موجة من الهذيان والتشويش، مات دوريت في روما مما أفجع شقيقه الموسيقي «فريدريك»، صاحب القلب الطيب الذي كان دائماً ما يقف إلى جانب أخيه. بقيت إيمي وحيدة، فعادت إلى لندن للعيش مع أختها التي تزوجت حديثاً «فاني» وزوجها المتأنق «إدموند سباركلر».

المعاملات الاحتيالية التي قام بها السيد «ميردل» زوج والدة «إدموند سباركلر»، أدت به إلى الانتحار بسبب انهيار معاملاته المصرفية وإفلاس البنك والذي يشمل المدخرات التي تخص «دوريت» و «آرثر كلينام»، الذي يعمل حالياً في سجن مارشاليزا حيث أصبح مريضاً ولكنه استطاع التغلب على مرضه بسبب رعاية «إيمي» له. حاول الفرنسي الشرير «ريجود» ابتزاز السيدة «كلينام» بعد اكتشافه إخفائها لحقيقة أن «آرثر» ليس ابنها الحقيقي. كانت والدة آرثر الحقيقية مغنية وشابة جميلة، ولكن والده تركها تحت ضغوطات من عمه الثري للزواج من السيدة «كلينام»، والتي وافقت على تربية «آرثر» بشرط أن لا تراه والدته مجدداً. توفيت والدة آرثر الحقيقية متأثرة بحزنها لانفصالها عنه وعن والده. أحس عم آرثر بالندم بعد وفاتها، فترك وصية لأمه الحقيقية ولابنة سيدها الصغرى، والذي صادف أن يكون عم «إيمي دوريت»، وهو موسيقي لطيف وصديق مخلص لوالدة «آرثر»، يدعى «فريديريك». لم يكن لدى «فريدريك دوريت» أي ابنة، لذلك ورثته الابنة الصغرى لشقيقه الأصغر «ويليام دوريت» (والد إيمي).

خبأت السيدة «كلينام» حقيقة أن «إيمي» هي الوريثة لكل هذه العقارات والثروة الهائلة. غلبت العاطفة على المرأة العجوز، فقررت إخبار إيمي بالحقيقة، ثم نهضت من كرسيها وخرجت من المنزل لتكشف لـ «إيمي» السر الذي خبأته طوال هذه الفترة وتطلب الصفح منها، فقامت «إيمي» صاحبة القلب الطيب بمسامحتها بسهولة. سقطت «إيمي» في الشارع من هول الموقف الذي مر بها وهي ترى المنزل ينهار أمام عينيها ليردي «ريجود» قتيلاً. وبدلاً من أن تجرح آرثر، اختارت إيمي أن لا تبوح بالحقيقة، بالرغم من أن ذلك يعني أن تتخلى عن إرثها.

عندما عاد «دانييل دويس» شريك أعمال «آرثر» من روسيا وقد أصبح رجلاً ثرياً، كان ذلك من حسن حظ آرثر فقد تم الإفراج عنه ومن ثم قام بالزواج من إيمي.

وكالعديد من روايات «ديكنز» تحتوي رواية «دوريت الصغيرة» على العديد من الحبكات الجانبية.



شارلز ديكنز

(1870-1812)

وُلد شارلز جون هوفام ديكنز في بورتسماوث في جنوب إنكلترا. كان أبوه كاتباً في مكتب قسم الرواتب في البحرية الملكية، رجل سليم الطوية لكنه غير مسؤول وسيء جداً في إدارة ماله. أمضى ديكنز بعض سنين طفولته سعيداً في كينت، لكن حين انتقلت العائلة إلى لندن نتجت عن مشاكل أبيه المالية سُجِن أبيه بسبب الدَّين في سجن مارشاليزا، وفي سن الثانية عشرة أُرسِل ديكنز إلى العمل في مصنع أثرت ذكريات مريرة من وقته غير السعيد هذا بعمق على الكثير من كتاباته. فيما بعد كان قادراً على العودة إلى المدرسة لبضع سنين، وبعد مضي بعض الوقت الذي كان يعمل فيه كصبي مكتب، أصبح صحفياً يكتب لصحف مختلفة.

في هذه السنين المبكرة عرف ديكنز لندن جيداً إلى حد مفرط، طرقها السريعة وممراتها، ميادينها وأسواقها وحدائقها، وكانت هذه المعرفة هي التي استعملها استعمالاً جيداً جداً في رواياته.

في 1836، تزوج كاثرين هوجارث، وفي نفس السنة بدأت روايته الأولى، أوراق بيكوك، في الظهور في حلقات شهرية في المجلة. كانت هذه الرواية شعبية جداً، وسرعان ما تبعتها أوليفر تويست وروايات عديدة أخرى. كُتِبت كلها كمسلسلات لمجلات شهرية، ونُشِرت ككتب فيما بعد. استقبل القراء بلهفة كل رواية جديدة، فأصبح ديكنز بسرعة ناجحاً وثرياً.

إضافة إلى كتاباته، وجد ديكنز الوقت لحياة اجتماعية مع عائلته الكبيرة ودائرة واسعة من الأصدقاء لحياته المسرحية، لتحرير مجلات، وللسفر في أمريكا وأوروبا. كان لديه أيضاً اهتمام عظيم في المشاكل الاجتماعية في تلك الأوقات، اهتمام يظهر في كثير من رواياته. ومع هذا أصبحت حياته صعبة إلى حد ما، وانتهى زواجه حين انفصل هو وكاثرين في 1858.

مع هذا استمرت الروايات في الظهور، وقام ديكنز بجولات في بريطانيا والولايات المتحدة، قارئاً للجمهور من أعماله. كانت حياة مليئة لكنها منهكة أيضاً.

عام 1865، تعرض ديكنز لحادث قطار ولم يتعافَ منه كليًا أبدًا. وعلى الرغم من أوضاعه الهشة، استمر بالتجوال حتى عام 1870. وفي التاسع من يونيو عام 1870، أُصيب ديكنز بسكتة دماغية، وتوفي عن عمر ناهز الثامنة والخمسين، في غادس هيل، بلدته الريفية في كينت، إنكلترا.

ودُفن في ركن الشعراء من دير ويستمينستر، وشيَّعه الآلاف من محبيه إلى مثواه الأخير. ووصف الكاتب الاسكتلندي الساخر توماس كارليل وفاة ديكنز بالحدث العالمي، وانطفاء مفاجئ لموهبة فريدة من نوعها. وبوفاة ديكنز، لم تنته آخر رواياته، سر إدوين دروود.

مجّد الناقدان غيورغ غيسنغ وجي.كيه. تشسترتون أستاذية ديكنز النثرية، وابتكاراته المتواصلة لشخصيات فريدة، وقوة حسّه الاجتماعية. لكن زملاءه الأدباء مثل جورج هنري لويس وهنري جيمس وفيرجينيا وولف عابوا أعماله لعاطفيتها المفرطة ومصادفاتها غير المحتملة، وكذلك بسبب التصوير المبالّغ فيه لشخصياته.

بسبب شعبية روايات ديكنز وقصصه القصيرة فإن طباعتها لم تتوقف أبداً. وظهر العديد من روايات ديكنز في الدوريات والمجلات بصيغة مسلسلة أولاً، وكان ذلك الشكل المفضَّل للأدب وقتها. وعلى عكس الكثيرين من المؤلفين الآخرين الذين كانوا ينهون رواياتهم بالكامل قبل نشرها متسلسلة، فإن ديكنز كان غالباً يؤلف عمله على أجزاء بالترتيب الذي يُريد أن يظهر عليه العمل. أدت هذه الممارسة إلى إيجاد إيقاع خاص لقصصه يتميز بتتابع المواقف المثيرة الصغيرة واحداً وراء الآخر ليبقي الجمهور في انتظار الجزء الجديد.


الفقر

شمس وظل

ذات يوم -منذ ثلاثين سنة- كانت مدينة مرسيليا راقدة تتلظى في لهيب الشمس. ولم تكن الشمس المتوقدة في يوم من أيام أغسطس الملتهبة بالأمر النادر جداً في جنوبي فرنسا يومئذ أو في أي وقت آخر سابق أو لاحق. وكان كل شيء في مرسيليا، وعن مرسيليا، قد راح يتوهج في السماء المتلظية، ويتعرض للوهج بدوره، حتى أصبح التوهج ظاهرة شائعة هناك، فوجوه الأجانب كانت تبدو غريبة كالحة أمام توهج البيوت البيض، والجدران البيض، والشوارع البيض، وممرات الطرق الجرد، والتلال التي ذوت عن سطوحها خضرة النبات. والأشياء الوحيدة التي لم تكن تُرى متوهجة أو شديدة السطوع، كانت أعواد الكروم المتدلية تحت أحمالها من عناقيد العنب. هذه فقط كانت تطرف قليلاً بنظراتها كلما حرك الهواء الساخن أوراقها الواهنة في رفق.

ولم يكن ثمة رياح تثير التموجات الصغيرة على سطح المياه النتنة داخل المرفأ أو على صفحة البحر الجميل خارجه. وكان الخط الفاصل بين سواد المياه النتنة، وزرقة مياه البحر، يبين الحد الذي لا تتجاوزه هذه المياه الأخيرة. إلا أنه -أي البحر النقي- كان يبدو هادئاً ساجياً كهذه البركة الكريهة التي لا يمتزج بها قط. وكانت القوارب التي بلا مظلات لا يطاق لمسها لفرط سخونتها. وكانت السفن تتلظى في مراسيها،

وحجارة الأرصفة لا تبرد ليلاً أو نهاراً لمدة أشهر. وكان الهنود والروسيون والصينيون والإسبان والإنكليز والبرتغاليون والفرنسيون وبعض أهالي جنوا ونابولي والبندقية، واليونانيون والأتراك، أي المتحدرون من جميع بناة بابل، والآتون للتجارة في مارسيليا، كان هؤلاء جميعاً سواء في التماس الظل في الالتجاء إلى ملاذ من بحر كانت زرقته الصارخة تجهد النظر، ومن سماء قرمزية الأديم، مرصعة بجوهرة واحدة ضخمة متوهجة اللهب.

كان هذا الوهج العام يوجع العينين. ولكن كان يخفف منه في الواقع بعض غلائل السحب الرقيقة من الضباب المتصاعد برفق من البحر عند الشاطئ الإيطالي البعيد، إلا أن هذا العامل المخفف لم يكن يتجاوز نطاقه المحدود البعيد. وهناك، بعيداً، كانت الطرق المتربة تتوهج من جوانب التلال، ومن الوادي ومن السهل الممتد إلى غاية البصر. وهناك بعيداً كانت أعواد الكروم المكسوة بالغبار تطل من الأكواخ القائمة على جوانب الطرق، وكانت الأشجار الجافة التي بلا ظلال، والتي تقوم على جوانب هذه الطرق الممتدة بلا نهاية، تنوء تحت وقدة الأرض والسماء. وكذلك كان الأمر مع الجياد بأجراسها المتثاقلة التي كانت تجر صفوفاً طويلة من العربات التي تزحف ببطء نحو الداخل. وكان الأمر كذلك مع سائقيها المسترخين إذا كانوا أيقاظاً، وقلما يحدث هذا. ومع العُمّال المرهقين في الحقول. كان كل شيء يحيا أو ينمو يعاني من هذا الوهج المتوقد، ما عدا العظاءة «السحلية» التي كانت تمرق فوق الجدران الصخرية الخشنة، والجنادب التي كانت ترسل صفيرها الجاف الساخن الشبيه بالصرير. وكان التراب نفسه محترق اللون، وفي الجو كان ثمة شيء يرتعد كأنما الهواء نفسه يلهث.

وكانت الستائر والمصاريع الخشبية والسجف والظلل كلها قد أُسدِلت أو أُغلِقت احتماءً من هذا الوهج القاسي الذي كان يتلمس أية

ثغرة أو ثقب مفتاح لينطلق داخلاً كسهم أبيض من الحديد المحمّى. وكانت الكنائس أكثر هذه الأشياء جميعاً تحرراً من ذلك الوهج. فكان الخروج من ظلال أعمدتها وأقواسها المرصعة بالمصابيح الخافتة، المأهولة بظلال آدمية من العجائز النائمين تديناً، أو الباصقين، أو المتسولين، كالقفز في خضم نهر ملتهب، ثم السباحة من أجل الحياة إلى أقرب شريط من الظل. وعلى هذا النحو من الناس المتراخين أو الراقدين حيثما يكون الظل، وعلى هذا النحو من السكون المخيم إلا من بعض الغمغمة أو نباح الكلاب التي كانت تختلط بها بين الحين والآخر صلصلة أجراس الكنائس المتناثرة، وقرع طبول خليعة، كانت مرسيليا ترقد ذات يوم تحت الشمس وهي تغلي غلياناً حقيقياً له رائحة وله مذاق!

وكان في مرسيليا في ذلك اليوم سجن وضيع، وكان ثمة رجلان في غرفة من غرفه المنفِّرة التي كان الوهج المتطفل نفسه يطوف أمامها اشمئزازاً، ويتركها تلتمس لنفسها ما يمكن أن تلتقطه من فضلات الضوء المنعكس. وبجانب الرجلين كان ثمة إفريز ودكّة شوهاء مثبتة بالجدار، حُفِرت عليها بسكين، وبطريقة بدائية لوحة للعب «السيجة» ومجموعة من أحجار «السيجة» المصنوعة من الأزرار القديمة وبقايا العظام، ثم مجموعة من أحجار «الدومينة». ومع هذا كله حصيرتان، وزجاجتان أو ثلاث من النبيذ. كان هذا كل ما في الغرفة إذا استثنينا الجرذان وبعض الحشرات التي لا تُرى، بالإضافة إلى الحشرتين المرئيتين، ونعني بهما الرجلين!

وكانت الغرفة تحظى من الضوء بقدر ما يمكن أن تنال عن طريق كوة ذات قضبان حديدية على شكل نافذة كبيرة يمكن بواسطتها النظر دائماً إلى ما بداخل الغرفة من بئر السلم الظليل الذي تطل عليه الكوة. وكان تحتها ثمة صفة عريضة من الحجارة الصلبة المثبتة في بناء الغرفة، والتي يبلغ ارتفاعها عن الأرضية ثلاث أقدام أو أربع أقدام. وعلى هذه

الصُفَّة كان أحد الرجلين مضطجعاً بين الجلوس والرقاد، وقد جمع ركبتيه وثبت قدميه وكتفيه على الجدارين المقابلين في طرفي الصفة. وكانت الفرجات بين القضبان واسعة بحيث تسمح له بمد ذراعه فيها حتى المرفق. ومن ثم مدّ ذراعه فيها التماساً للمزيد من الراحة.

وكان طابع السجن يخيم على كل شيء بالغرفة، فالهواء الحبيس، والضوء الحبيس، والرطوبة الحبيسة، والرجلان المحبوسان، كل أولئك كان يغلب عليهم طابع الانحلال من الحبس. وكما كان الذبول والإرهاق يبدوان على السجينين، كذلك كان الحديد صدئاً، والحجارة زلقة، والخشب نخراً، والهواء واهناً، والضوء خابياً. وكان السجن كالبئر، كالقبو، كالقبر، لا يعرف ما هو لألاء الضوء في الخارج، وكأنما هو، باحتفاظه بجوّه النتن، جزيرة من جزر البهار في المحيط الهندي.

بل لقد شعر الرجل الراقد على الصفة تحت الكوة بشيء من البرودة؛ فراح بكتفه يضم -بحركة تنم عن السخط والتذمر- أطراف ردائه الثقيل وهو يدمدم قائلاً: «إلى الجحيم بهذه الشمس الخبيثة التي لا تسطع هنا أبداً».

كان ينتظر أن يُطعَم؛ ومن ثم راح يمد عينيه هنا وهناك من خلال القضبان إلى مرمى البصر من السُلم وقد ارتسمت على وجهه الأمارات التي تبدو على الوحش البري في مثل هذه الظروف. ولكن عينيه المتقاربتين جداً لم تكونا في ذلك الوضع الجميل الذي تتميز بهما عينا ملك الوحوش. لقد كانتا حادتين أكثر منهما متألقتين، وكأنما سلاحان مدببان بلا سطح يكشف عنهما. وكانتا أيضاً بلا عمق أو تعبير، وإنما كانتا تلتمعان فقط وهو يغمضهما ويفتحهما. ويمكن القول -إذا استثنينا فائدتهما له- إن أي ساعاتي يستطيع أن يصنع خيراً منهما. وكان له أنف مقوس، جميل بين أنواعه من الأنوف المقوسة، ولكنه مرتفع عن العينين، وربما كان ارتفاعه

بقدر ما بين العينين من ضيق. وفيما عدا هذا فقد كان طويلاً عريضاً، له شفتان رفيعتان يخفيهما شارب غزير، وعلى رأسه كمية من الشعر الجاف لا لون له على وجه التحديد وهو بحالته هذه المشعثة وإن كانت به خصلة من الشعر الأحمر. وكانت يده المنطوية على قضبان الكوة «والتي كان ظاهرها موسوماً بجراح كريهة حديثة الالتئام» صغيرة أكثر مما ينبغي وبضة سمينة كما كانت -لولا قذارة السجن- بيضاء إلى حد غير عادي.

وكان الآخر راقداً على الأرضية الحجرية، ومغطى بسترة خشنة بنية اللون.

ودمدم الأول قائلاً:

- انهض أيها الخنزير، لا تنم حينما أكون جائعاً.

فقال «الخنزير» بلهجة تنم عن الخضوع ولا تخلو من مرح:

- الأمر سواء يا سيد. فأنا أستطيع أن أنام عندما أشاء، وأستطيع أن أصحو عندما أريد، ومن ثم فالأمر سواء.

ثم نهض وهو يقول هذا، ونفض نفسه، وحكّ جسمه، وربط كمي سترته البنية حول عنقه بغير إحكام «وكان قبل ذلك يستعملها غطاءً عند النوم» ثم جلس على الإفريز يتثاءب وقد جعل ظهره إلى الجدار المواجه للكوة.

وقال الرجل الآخر متذمراً:

- أتعرف كم الوقت الآن؟

- إن أجراس الظهيرة سوف تصلصل بعد أربعين دقيقة.

وكان عندما توقف برهة في أثناء الحديث، يتلفت حوله في غرفة السجن كأنما يلتمس معلومات معينة.

– إنك ساعة. كيف تعرف الوقت دائماً؟

– ماذا أقول؟ إنني دائماً أعرف الوقت الذي يمر بي، والمكان الذي أقيم فيه. لقد جيء بي إلى هنا ليلاً، من سفينة. ولكنني أعرف أين أنا. انظر.. ها هو ذا مرفأ مرسيليا.

ثم راح يرسم على الأرضية، وهو راكع على ركبتيه فوق الإفريز خريطة لمرفأ مرسيليا وما حوله بإصبعه السبابة الكبيرة، ثم استطرد يقول:

– وهنا طولون «حيث ترسو الزوارق الكبيرة» وهناك إسبانيا، وهناك الجزائر على الجانب الآخر، وعلى هذا الجانب الأيسر تقع نيس.. وجنوا تقع في هذا المنعطف المار بكورنيش.. جنوا بمينائها وحاجز الموج فيها. وها هي ذي منطقة الحجر الصحي بها. والمدينة هناك.. والحدائق المتدرجة بأزهار البلادونا «ست الحسن» المتفتحة. ثم هنا بورتوفينو، ثم ليجبهورن، وسيفيتافيكشيا، ثم إلى.. ها.. لم يعد ثمة مكان لنابولي.

وكان عندئذ قد وصل إلى الجدار، ومن ثم أردف قائلاً:

– ولكن سيان.. إنها هناك.

وظل راكعاً على ركبتيه، شاخصاً إلى زميله السجين بعينين لا تتفق حيويتهما مع السجن، وكان رجلاً ملوح البشرة، سريعاً خفيف الحركة، رغم ميله إلى الاكتناز. وفي أذنيه السمراوين كان يضع قرطين، كما كانت أسنانه البيض تضيء وجهه الملوح الطريف؛ وكان حول عنقه الأسمر يتناثر شعر أسود غزير، وكان يرتدي قميصاً أحمر بالياً مفتوحاً عند صدره الأسمر.. ثم سراويل فضفاضة بَحْرية الطراز، وحذاءً جيداً، وقبعة طويلة حمراء، وحزاماً عريضاً حول خصره يضع فيه سكيناً.

وعاد يقول:

- انظر بنفسك كيف أعود من نابولي كما ذهبت.. انظر يا سيدي، سيفينافيكشيا، وليجهورن، وبورتوفينو، وجنوا، وكورنيس، ثم.. نيس «التي تقع هناك» ثم مرسيليا؛ ثم أنا وأنت، وهنا حيث أضع إبهامي تقع غرفة السجان ومفاتيحه؛ وهنا عند معصمي يحتفظون بالموسى القومية في غمدها.. أعني بالمقصلة في مكانها المغلق.

وبصق الرجل الآخر فجأة على الرصيف المقابل وقد شعر بغصة في حلقه.

وبعد ذلك فوراً سمعت غصة في حلق قفل باب على السُّلم، ثم صرير الباب وهو يُفتَح، ثم وقع أقدام بطيئة تبدأ في صعود السُّلم، ثم ثرثرة صادرة عن صوت عذب لطفلة صغيرة، كانت -أي الثرثرة- تمتزج بوقع الأقدام، ثم إذا بالسجّان يظهر حاملاً ابنته ذات الأعوام الثلاثة أو الأربعة، وسلة.

وقال:

- كيف حال الدنيا معكما في هذه الظهيرة أيها السيدان؟ إن ابنتي الصغيرة كما تريان تطوف معي لتلقي نظرات مختلسة على طيور أبيها.. تعالي إذن يا صغيرتي، انظري إلى الطيور.. انظري.

وكان هو ينظر بحدة إلى «الطيور» في أثناء رفعه الطفلة إلى الكوّة من الخارج، وكانت نظراته مركزة بصفة خاصة على «الطائر» الأصغر الذي كانت حيويته تثير الريبة. وأخيراً أردف قائلاً - وكان الجميع يتحدثون الفرنسية رغم أن الرجل الصغير كان إيطالياً:

- لقد أحضرت لك الخبز يا سيد جون بابتست. وإذا كان لي أن أنصحك بعدم المغامرة..

فقاطعه جون بابتست قائلاً وقد كشف عن أسنانه وهو يبتسم:

- ولماذا لا تنصح السيد.. !

فقال السجان وهو يلقي على الرجل الآخر نظرة عابرة لا تنم عن الميل:

- ولكن السيد يكسب دائماً وأنت تخسر. وهنا وجه الخلاف. إنك تنال الخبز الكالح والشراب الحامض بسبب هذه الخسارة، بينما يظفر هو بسجق ليون، ولحم الثريد الشهي، والخبز الأبيض، وجبن ستراكينو، والخمر الجيدة، لأنه يكسب. انظري إلى هذه الطيور يا صغيرتي.

فقالت الطفلة:

- مسكينة هذه الطيور!

وكان الوجه الأبيض الصغير يشبه بأطياف انفعالاته القدسية -وهو يختلس النظر في خوف من وراء القضبان- وجه ملاك في السجن. وتحرك جون بابتست نحوه كأنما يجذبه إليه شيء خفي. أما «الطائر الآخر» فقد بقي كما هو إلا من نظرة ملهوفة ألقاها على السكة.

وعاد السجّان يقول وهو يُجلِس ابنته الصغيرة على النتوء الخارجي للكوّة:

- مهلاً! إنها سوف تُطعِم الطيور. هذا الرغيف الكبير للسيد جون بابتست ينبغي أن نكسره لكي يدخل من باب القفص. آه، ها هو طائر أليف يقبّل يد الصغيرة. أما هذا السجق وورق العنب فهما للسيد ريجود. ولحم هذا الثريد الشهي للسيد ريجود أيضاً. ومرة أخرى هذه الأرغفة الثلاثة الصغيرة البيض للسيد ريجود، ومرة أخرى هذا الجبن، وهذه الخمر، وهذا التبغ، كل هذا للسيد ريجود، إنه طائر محظوظ.

وكانت الطفلة تضع هذه الأشياء كلها بين القضبان في اليد الناعمة البضة الجميلة وهي في خوف واضح. وقد سحبت يدها أكثر من

مرة وهي تنظر إلى الرجل وقد ارتسمت على وجهها الرقيق أمارات نصفها خوف، ونصفها غضب. هذا بينما وضعت في ثقة تامة قطعتي الخبز الغليظ في يدي جون بابتست المعقدتين الخشنتين «ولم يكن مجموع ما في أصابعه من أظافر يكاد يوازي ظفراً واحداً في إصبع السيد ريجود». ولما قبّل يدها، مدّتها بنفسها وراحت تمسح بها على وجهه. أما السيد ريجود، الذي لم يحفل بهذه التفرقة، فقد أقبل على الوالد يضحك له، ويومئ برأسه للابنة كلما قدمت إليه شيئاً، وبمجرد أن حصل على جميع ألوان طعامه، وبعد أن وضعها حوله في أماكن مناسبة على الصّفة التي يجلس فوقها راح يتناولها بشهية عارمة.

وعندما يضحك السيد ريجود، كان ثمة تغيير يسترعي النظر يرين على وجهه. فقد كان شاربه يرتفع تحت أنفه، وأنفه يهبط على شاربه بصورة مفزعة قاسية.

وقال السجان وهو يقلب السلة رأساً على عقب لينفض عنها الفتات.

– ها.. لقد أنفقت كل ما أخذت من مال. وها هي ذي قائمة الحساب به، وأرى أننا انتهينا من هذا الأمر. وقد حدث ما توقعت أمس يا سيد ريجود، فإن الرئيس سوف يسره أن يقابلك بعد ساعة من ظهيرة اليوم.

فقال ريجود وقد بدت في يده السكين، وفي فمه شريحة لحم:

– ليحاكمني، هه؟

– لقد قلتها. نعم، ليحاكمك.

فقال جون بابتست الذي شرع يمضغ خبزه في رضا وقناعة:

– ألا من أنباء لي؟

فلما هزّ السجان كتفيه، أردف جون قائلاً:

- ويحي! هل سأبقى هنا طيلة العمر يا أبي؟

فاستدار السجان إليه بتلك السرعة المعروفة عن أهل الجنوب، وصاح قائلاً وهو يلوح بكلتا يديه وبجميع أصابعه وكأنما يهدد بتمزيقه إرباً:

- أنّى لي أن أعرف! كيف أستطيع يا صديقي أن أعلم كم ستبقى هنا. ماذا في وسعي أن أعرف يا جون بابتست كافالليتو؟ ويح عمري! إن لدينا في بعض الأحيان مساجين ليسوا متلهفين هكذا إلى المحاكمة.

ولاحَ أنه يلقي على السيد ريجود نظرة لها دلالتها وهو يقول هذا. ولكن السيد ريجود كان قد استأنف طعامه ولكن بغير تلك الشهية العارمة التي كان يأكل بها من قبل.

وأخذ السجان طفلته بين ذراعيه وراح يقبّلها ويطلب منها أن تقول:

- وداعاً يا طيوري.

وكررت الطفلة العبارة قائلة:

- وداعاً يا طيوري.

وراحت ترنو إليها بوجهها البريء وهي على كتف أبيها الذي راح يبتعد بها وهو يغني لها أنشودة لعب الأطفال:

«من يمر بهذا الطريق ليلا..؟
يا رفاق الماجولين؟
من يمر بهذا الطريق ليلا..؟
يكون دائماً سعيداً..».

ورأى جون بابتست أن من مقتضيات الشرف أن يرد من كوّته بنفس اللحن والإيقاع، وإن كان بصوت غليظ بعض الشيء:

«إنها الزهرة من بين جميع الملوك والفرسان
يا رفاق الماجولين..
إنها الزهرة من بين جميع الملوك والفرسان.
السعيدة دائماً».

وظل ترديده يصاحبها حتى نهاية الدرجات القليلة الشديدة الانحدار حيث اضطر السجان أخيراً للتوقف حتى تسمع طفلته الصغيرة كل الأغنية، وتردد المقطع وهي لا تزال على مرمى النظر. ثم اختفت رأسها، واختفت رأس السجان، ولكن الصوت الصغير ظل مطيلاً لحالة التوتر حتى انصفق الباب.

ولما وجد السيد ريجود صاحبه المستمع جون بابتست في طريقه قبل أن تتلاشى الأصداء «وحتى الأصداء كانت واهنة بسبب الحبس، وقد بدت عرجاء»، فقد نبه بركلة من قدمه إلى أن من الخير له أن يعود إلى مكانه الأكثر ظلمة. وعاد الرجل الضئيل إلى الجلوس على الإفريز بهذه الروح المستهترة التي تنم على طول اعتياده للجلوس على الأفاريز؛ وبعد أن وضع أمامه ثلاث قطع من الخبز الغليظ ممسكاً بالرابعة، بدأ يُعمِل أسنانه -بغبطة ورضا- في الواحدة بعد الأخرى، وكأنما يرى في التهامها لوناً من المباراة.

ولعله أن يكون قد ألقى نظرة على سجق ليون، ولعله أن يكون قد ألقى نظرة على لحم الثريد الشهي، ولكن هذا أو ذاك لم يبقَ مدة طويلة تكفي لأن يسيل له لعابه. ذلك أن السيد ريجود سارع في التهام طعامه رغم الرئيس والمحاكمة، وشرع يلعق أصابعه حتى نظفها بقدر الإمكان، ثم مسحها في ورق العنب. ولما توقف برهة في أثناء شربه للخمر ليأكل صاحبه السجين، إذا بشاربه يرتفع، وإذا بأنفه يهبط وهو يقول:

- كيف تجد الخبز؟

فأجاب جون بابتست مشرعاً سكينه:

- جافاً بعض الشيء! ولكن لدي هنا إدامي القديم.

- أي إدام تعني؟

- أعني أني أستطيع أن أقطع خبزي هكذا.. مثل شرائح البطيخ، أو العجة، أو مثل السمك المقلي، أو مثل سجق ليون.

وكان جون بابتست يوضح على الخبز الذي يمسك به مختلف ألوان القطع وهو يمضغ ببطء ما كان في فمه.

وهتف السيد ريجود قائلاً:

- اسمع. يمكنك أن تشرب. يمكنك أن تشرب هذه البقية.

ولكنها لم تكن هدية عظيمة. لأنه لم يكن قد تبقّى من الخمر غير ثمالة جد ضئيلة، ومع ذلك فقد وثب السيد كافالليتو واقفاً، وتلقف الزجاجة شاكراً، وسكب كل ما تبقى فيها في فمه، ولعق شفتيه.

وقال له ريجود:

- ضع الزجاجة مع أخواتها.

وأطاع الرجل الضئيل أوامره، ووقف مستعداً لإشعال عود ثقاب له، لأنه كان عندئذ يلف سيجار تبغ في ورقة من الأوراق الرقيقة المربعة الشكل التي جاءت مع علبة التبغ.

وقال ريجود مرة أخرى:

- أقبل! يمكنك أن تأخذ واحداً.

فقال جون بابتست بلغة بلادة، وبهذه الروح الودود المعروفة عن أبناء جلدته:

- ألف شكر يا سيدي!

ونهض السيد ريجود، وأشعل سيجاراً، ووضع الباقي من ذخيرته التبغية في حافظة جيب، ثم تمطى وشدّ قامته إلى مداها على الدكّة الخشبية. وجلس كافالليتو على الإفريز ممسكاً بكل عقب من عقبيه بإحدى يديه، ومدخِّناً سيجاره في هدوء.

وكان يلوح أن ثمة شيئاً مزعجاً يجذب عيني السيد ريجود إلى أقرب مكان من الإفريز حيث كان ثمة شعاع ضوئي في استدارة الإبهام ينساب من مسقط نور سابق. وقد ظلت نظراته منجذبة إلى هذا المكان حتى اضطر صاحبه الإيطالي إلى أن يتنقل بعينيه أكثر من مرة مدهوشاً من ذلك المكان إلى وجه ريجود الذي قطع حبل صمت طويل بقوله:

- أي جحر لعين هذا؟ انظر إلى ضوء النهار! النهار! ضوء الأسبوع الماضي، ضوء ستة أشهر خلت، ضوء ستة أعوام مضت.. جو بطيء، ميت.

وكان الضوء الخفيف ينساب واهناً عن طريق مدخنة سدّت بجرمها نافذة في جدار بئر السلّم الذي لم يكن أحد يرى منه السماء قط، أو أي شيء آخر.

وقال السيد ريجود وهو يسحب فجأة نظراته من المدخنة التي كان الاثنان قد ركزوا عيونهما عليها في غير وعي:

- كافالليتو! ألا تعرف أني سيد مهذب!

- طبعاً، طبعاً!

- كم مضى علينا هنا؟

- أنا.. غداً في منتصف الليل أتم أحد عشر أسبوعاً. وأنت، في الخامسة بعد ظهر اليوم، تتم تسعة أسابيع وثلاثة أيام.

- هل رأيتني قمت بعمل هنا قط؟ هل لمست بيدي قط مكنسة أو فرشت حصيراً أو طويته أو بحثت عن أحجار «السيجة»، أو جمعت أحجار «الدومينو»، أو وضعت يدي في أي نوع من أنواع العمل!

- لا، مطلقاً!

- هل خطر ببالك يوماً أن تنتظر مني أن أقوم بأي عمل؟

فأجاب جون بابتست بتحريك سبابة يده اليمنى، وهي حركة تعبر في اللغة الإيطالية عن النفي البات.

وقال ريجود:

- لا! إذن لقد عرفت لأول وهلة منذ رأيتني هنا أني سيد رفيع الشأن!

- ألترو..

قالها جون بابتست وهو يغمض عينيه ويومئ برأسه في قوة وتأكيد. وكانت هذه الكلمة التي تعني في لغة أهالي جنوا، التأكيد، أو التناقض، أو التثبيت أو النفي أو السخرية أو المديح أو المزاح، وخمسين شيئاً آخر، قد أصبحت في هذا الظرف الحاضر تعبر بأقوى ما يمكن التعبير به كتابة المعنى المألوف:

- إنني أصدقك.

- ها ها! إنك على صواب. فأنا سيد مهذب، وسوف أعيش حياتي سيداً مهذباً، وبهذه الصفة سوف أموت. إن هدفي أن أكون سيداً مهذباً، إنها لعبتي المحببة. ويح عمري، إنني أجيد لعبها حيثما أذهب.

وهتف في لهجة المنتصر وهو يغير وضعه ويتخذ سمت الجلوس:

- هأنذا! أتراني! لقد خرجت من صندوق الحظ الذي يحمله القدر إلى صحبة مهرب عادي.. إلى الحبس مع تاجر مهربات فقير ضئيل، يحمل أوراق تحقيق شخصية مزيفة استولى عليها رجال الشرطة، مع استيلائهم على مركبه الذي كان يعبر به الحدود، لتهريب أشخاص يحملون أوراق شخصية مزيفة أيضاً. وهذا الرجل عرف حقيقة مركزي حتى في هذا الضوء الباهت، وفي هذا المكان الحبيس. هذا أمر مدهش بحق السماء! لقد أجدت لعبتي مرة أخرى وربحت.

ومرة ثانية ارتفع شاربه، وهبط أنفه. ثم قال وقد ارتسمت على وجهه أمارات جافة حارة لا يمكن ربطها بأمارات الفكاهة والمرح:

- كم الساعة الآن؟

- النصف بعد الظهيرة.

- حسناً! لسوف يجد الرئيس أمامه سيداً مهذباً بعد فترة وجيزة، هيا، هل أقول لك ما هي تهمتي؟ إما أن أقولها لك الآن، وإما لن أقولها أبداً، لأني لن أعود إلى هنا. نعم، إما أن يطلقوا سراحي وإما أن يضعوا رأسي تحت حد المقصلة. وأنت تعرف أين يحتفظون بها.

وتناول السيد كافالليتو السيجار من بين شفتيه المنفرجتين، وأظهر من الأسى الموقوت أكثر مما كان منتظراً منه.

- إنني.. إنني..

وتوقف ريجود برهة قبل أن يستطرد قائلاً:

- إنني سيد مهذب عالميّ الموطن، ليس لي وطن معين، فأبي كان سويسرياً من مدينة كانتون - دي - ثود. وكانت أمي فرنسية الدم إنكليزية المولد. وقد وُلدت أنا في بلجيكا، ولهذا فإني مواطن للعالم كله.

وكانت لهجته المسرحية وهو واقف وأحد ذراعيه على خصره داخل طيات ردائه، بالإضافة إلى عدم اهتمامه بصاحبه، وإلى توجيه الحديث إلى الجدار المقابل، كان هذا كله ينم -كما يبدو- على أنه يقوم بتجربة للحديث أمام الرئيس الذي كان عليه أن يقف أمامه بعد قليل للمحاكمة، أكثر مما يدل على اهتمامه بشرح الأمر لشخص ضئيل مثل جون بابتست كافالليتو.

واستطرد يقول:

– قل إن عمري خمسة وثلاثون عاماً. لقد رأيت العالم.. عشت هنا وهناك.. عشت كسيد مهذب في كل مكان. الناس في كل مكان يعاملونني باحترام كرجل مهذب. وإذا أردت أن تأخذ على أني عشت معتمداً على ذكائي وبراعتي، فهكذا يعيش المحامون والسياسيون والثوريون ورجال البورصة.

وكان يحرص دائماً على استعراض يده الصغيرة الرقيقة، كأنها الدليل على صدقه، وقد أفادته هذه الحركة كثيراً من قبل.

واستطرد يقول:

– جئت إلى مرسيليا منذ عامين. وأعترف أني كنت فقيراً، وكنت مريضاً. وعندما يمرض المحامون أو السياسيون أو الثوريون أو رجال البورصة دون أن يكون لدى أحدهم مال مدخر، فإنه يغدو فقيراً. وقد أقمت في نزل «الصليب الذهبي» الذي كان يديره السيد هنري باردنيو -وكان في الخامسة والستين من عمره على الأقل- وكانت حالتي الصحية على غير ما ينبغي. وقد أقمت في هذا النزل أربعة أشهر ثم مات السيد هنري باردنيو لسوء حظه وإن لم يكن هذا السوء في الحظ بالأمر النادر على كل حال. وقد حدثت وفاته بلا مساعدة مني..

وكان جون بابتست قد دخّن سيجارته حتى آخر جزء منها، وعندئذ تكرم السيد ريجود فألقى إليه سيجارة أخرى. وأشعل جون هذه من جذوة الأخرى واستأنف التدخين وهو يختلس النظرات إلى صاحبه الذي كان من فرط انشغاله بموضوعه لا يكاد يلتفت إليه.

واستطرد ريجود في الحديث قائلاً:

- وترك السيد باردنيو وراءه أرملة. وكانت في الثانية العشرين من عمرها، وكانت مشهورة بجمالها، وفي الواقع كانت -كما هي العادة- جميلة، وبقيت مقيماً في نزل الصليب الذهبي. وتزوجت السيدة باردنيو. وليس لي أن أقول هل كان في هذا الزواج أي تنافر شديد! فهأنذا، وظلام السجن حولي.. ومع ذلك فمن الممكن أن تراني -كزوج لها- أفضل من زوجها السابق.

وكان يبدو على هيئته وكأنه رجل وسيم، ولكنه لم يكن كذلك، وإنه كريم، وهو لم يكن كذلك. وإنما الأمر كله لم يخرج عن كونه نوعاً من الزهو والتبجح. إلا أن كثرة المباهاة والتظاهر في هذه الحالة، كما هي في حالات كثيرة غيرها، تقوم مقام الدليل الثابت الذي يصدقه نصف الناس في هذه الدنيا.

وعاد يقول:

- وأيّاً ما كان الأمر، فقد قبلتني السيدة باردنيو.. وما أظنها فعلت هذا مجاملة؟

وحدث أن وقعت نظراته -وهو يلقي هذا السؤال- على جون بابتست، فراح هذا يهز رأسه بقوة، ويكرر بصوت خافت «ألترو.. ألترو.. ألترو..» عدداً لا يُحصى من المرات.

- ثم بدأت المصاعب بعد ذلك. فأنا رجل لي كبريائي، ولن أقول شيئاً في الدفاع عن الكبرياء، ولكنني رجل عزيز النفس، ومن طبيعتي

أيضاً أن أحكم وأسيطر. لم يكن في مقدوري أبداً أن أخضع، وإنما يجب أن أحكم، وقد حدث لسوء الحظ أنها ورثت جميع ممتلكات زوجها، وذلك بناءً على وصية حمقاء كتبها. ومما زاد الأمر سوءاً أنه كان لها أقارب، وعندما يكون للزوجة أقارب يتصدون لزوج مهذب كريم المنبت.. لزوج له كبرياؤه، ولا بد أن يكون السيد المطاع، فإن النتائج عندئذ تتعارض تماماً مع الحياة الهادئة المسالمة.. وكان ثمة مصدر آخر للخلافات بيننا، وهو أن السيدة ريجود -زوجتي- كانت لسوء الحظ سوقية الطابع بعض الشيء. وقد حاولت أن أصلح من أخلاقها، وأن أهذب من طبيعتها العامة، ولكنها -بتأييد أقاربها- كانت ترفض محاولاتي. وبدأت المشاجرات تقوم بيننا، وأصبحت هذه المشاجرات، بفضل أقاربها الذين كانوا يؤججونها ويبالغون في نشرها، موضع أحاديث الجيران. ومن ثَمَّ قيل إنني أعامل زوجتي بقسوة، وربما شاهدني البعض وأنا أصفعها، ولكن لا شيء غير هذا، وإن يدي لخفيفة. وإذا كنت قد شوهدت وأنا أقوِّم زوجتي بهذا الأسلوب فإنما كنت أفعل هذا بروح أقرب ما تكون إلى المداعبة.

وإذا كانت ابتسامة السيد ريجود في تلك اللحظة تعبر عن «هذه المداعبة» فربما كان لأقارب زوجته الحق في قولهم إنهم كانوا يفضلون أي شيء لتقويم السيدة المسكينة غير هذه المداعبة!

وعاد ريجود يستطرد في حديثه قائلاً:

- إنني رجل مرهف الإحساس وشجاع. ولست أقول هذا باعتباره ميزة لي، وإنما أنا مرهف الإحساس وشجاع بطبيعتي. ولو أن أقارب زوجتي الرجال قد تصدوا لي علانية، لعرفت كيف أتصرف معهم. وكانوا هم يعرفون ذلك، ومن ثَمَّ كانوا يدبّرون مؤامراتهم سراً. والنتيجة أن الصدام المؤلم كان يحدث كثيراً بيني وبين زوجتي. وقد بلغ الأمر أننا كنا لا ننجو من هذا الصدام حتى عندما كنت أطلب منها

القليل من النقود لمصروفاتي الخاصة أنا.. الرجل الذي يحب الحكم والسيطرة بطبيعته! وقد حدث ذات ليلة أني كنت أتمشى مع زوجتي في مودة وتحاب.. أو يمكن القول كحبيبين، فوق ربوة مطلة على البحر. وشاء سوء الطالع أن تشير زوجتي في حديثها إلى أقاربها. وتحدثت معها بحكمة عن هذا الموضوع، وبيّنت لها أنها تبتعد عن طريق الإخلاص والواجب عندما تسمح لنفسها بالتأثر بكراهيتهم وحسدهم لزوجها. وردت زوجتي عليَّ، ورددت عليها وتحمست في ردِّها، وتحمستُ، ثم أثرتها، وأعترف بهذا، لأن الصراحة جزء من طبيعتي. وأخيراً تعرضت زوجتي لنوبة من الغضب العنيف يرثى لها، وألقت بنفسها عليّ صارخة -ولا شك أن صرخاتها سُمِعت من بعيد- وراحت تمزق ملابسي وشعري وتخدش يدي، وتتمرغ على التراب، ثم إذا هي تقفز ملقية بنفسها إلى الهلاك على الصخور البعيدة الأغوار. هذه هي سلسلة الأحداث التي ضلل بها الأشرار محاولاتي، فزعموا أني كنت أريد إرغامها على التنازل عن حقوقها لي، وأنها حين أصرت على رفض طلباتي، تشاجرت معها.. وقتلتها!

وانحرف سائراً نحو الصُّفة الصخرية التي كانت أوراق العنب لا تزال متناثرة عليها، وجمع ورقتين أو ثلاثاً، وراح يمسح بها يديه، وظهره متجه إلى الضوء.

وقال أخيراً بعد برهة من الصمت:

- حسناً! أليس لديك ما تقول إزاء هذا كله؟

فقال الرجل الضئيل وهو ينهض ويشحذ سكينه على حذائه معتمداً بذراعه على الجدار:

- إنه لأمر كريه!

- ماذا تعني؟

وظل جون بابتست يشحذ سكينه في صمت، فعاد ريجود يقول:

- أتعني أني لم أعرض قضيتي كما ينبغي !

فقال جون بابتست:

- آل.. ترو..

وكان يعني بهذه الكلمة الآن، الاعتذار، أو على الأصح:

- لا لا، طبعاً!

- إذن ماذا؟

- إن الرؤساء ورجال المحاكمات دائماً يتحيزون.

فهتف الآخر وهو يلقي بطرف ردائه على كتفه في قلق، وبعد أن قذف بكلمة سباب:

- حسناً! ليفعلوا أسوأ ما لديهم.

فقال جون بابتست لنفسه وهو يحني رأسه ليضع السكين في غمدها:

- وهذا كما أعتقد يقيناً ما سيفعلون.

ولم يقل أحدهما بعد ذلك شيئاً رغم أنهما شرعا يذرعان الغرفة جيئةً وذهاباً مما يحتم عليهما مواجهة أحدهما الآخر بين لحظة وأخرى. وكان السيد ريجود يبطئ المسير بين الحين والآخر كأنما يهمّ بعرض قضيته من زاوية أخرى، أو يضفي عليها مزيداً من الإيضاح. ولكن السيد كافالليتو استمر في رواحه ومجيئه بتلك الخطوات البطيئة المضحكة الشبيهة بالنواثب، مغضياً بعينيه إلى الأرض.

وشيئاً فشيئاً أخذ صرير المفتاح في القفل يلفت انتباههما معاً. وأعقبت هذا همهمة أصوات ووقع أقدام؛ وانفتح الباب، وصعدت الأصوات والأقدام على الدرجات، وكان الصاعد ببطء هو السجّان متبوعاً بثلة من الحراس.

وقال السجّان وهو يتوقف برهة عند الكوّة والمفاتيح في يده:

- الآن يا سيد ريجود.. أرجو أن تتكرم بالخروج.

- أرى أنني سأخرج في موكب رسمي!

فردّ السجان عليه قائلاً:

- إنك إذا لم تفعل هذا، فربما خرجت ممزقاً إلى قطع صغيرة يصعب جمع شتاتها مرة أخرى، إن في الخارج جمعاً من الناس يا سيد ريجود، وهم لا يحبونك.

ثم غاب عن الكوّة، وفتح القفل ورفع الرتاج عن باب خفيض في ركن الغرفة ثم قال وهو يفتحه ويدخل:

- والآن، هيّا إلى الخارج.

ولم يكن ثمة بياض في أي شيء تحت الشمس مثل البياض الذي ارتسم على وجه السيد ريجود عندئذ. وكذلك لم يكن ثمة أي تعبير على وجه بشري كالتعبير الذي بدا على وجهه. لقد لاح أن القلب المذعور كان ينبض على كل خط مهما صغر في ذلك الوجه. لقد كان كل منهما -الوجه والقلب- في مواجهة الموت. ولكن الاختلاف هو تلك الهوة الواسعة بين معركة انتهت، وبين أخرى في ذروتها.

وأشعل سيجاراً آخر من سيجار صاحبه، ثم وضعه بإحكام بين أسنانه، وغطى رأسه بقبعة لينة مسترخية الحافة، وألقى بطرف ردائه على

كتفه مرة أخرى، وخرج إلى الردهة التي يفضي إليها الباب دون أن يعير السيد كافالليتو أي مزيد من الاهتمام. أما هذا، فقد تركزت كل خلجات كيانه في الاقتراب من الباب والنظر إلى ما وراءه، تماماً كما قد يفعل الوحش السجين حين يفتح باب جبه فيقترب منه ليلقي نظرة إلى معالم الحرية وراءه. وقد أمضى تلك اللحظات في المراقبة والحملقة إلى الخارج حتى أُغلِق الباب عليه.

وكان يقود ثلة الجنود ضابط متين الجرم، خدوم، هادئ الهيئة جداً، مشرع السيف في يده وهو يدخن سيجاراً. وبعد أن وجّه -بعبارات موجزة- السيد ريجود ليتخذ مكانه بين الجنود، وبعد أن وضع نفسه في مقدمتهم بلا مبالاة، أصدر أمره بالسير، فهبط الجميع السلم، ثم أغلق الباب، ودار المفتاح في القفل، ولاحَ كأن ومضة من نور عجيب، ونسمة من هواء عجيب قد مرّتا خلال السجن ثم تلاشت كل منهما في هذه السحابة الواهنة المتصاعدة من السيجارة.

إلا أن السجين الذي تُرِك وحيداً، وثب إلى الصُّفة -كأي حيوان من الحيوانات الدنية أو كأي قرد ملول، أو كأي دب صغير الحجم ثائر- وراح ينظر من الكوّة حتى لا يُحرَم من آخر ومضة في الرحيل. وفيما هو واقف يمسك القضبان بكلتا يديه، إذا به يسمع هدير أصوات يعلو فجأة، وإذا صراخ وصياح وسباب وعبارات تهديد ووعيد.. كلها مفهومة، وإن كان الإنسان «كما هو الشأن في العاصفة» لا يسمع من بعيد إلا هديراً واضحاً.

وبنفس الاهتياج -الذي يشبه إلى حد كبير اهتياج الوحش السجين- في لهفته لمعرفة المزيد مما يجري في الخارج، وثب السجين من الصُّفة إلى الأرضية في خفة، ثم راح يجري في جوانب الغرفة، ثم يثب مرة أخرى في خفة إلى الصُّفة، ثم يقبض على قضبان الكوة ويحاول أن يهزها،

ثم يثب إلى الأرضية ويجري، ثم يقفز إلى الصُّفة ويرهف السمع، ولم يسترح قط حتى ابتعدت الضجة تدريجياً ثم تلاشت. كم من المساجين الذين هم أفضل حالاً قد أذابوا قلوبهم النبيلة على هذا النحو! ودون أن يخطر ببال إنسان ما يعانونه، لا ولا حتى أحب الناس إليهم يدركونه. وإن الملوك والحكام العِظام ليلقون بأعدائهم إلى هذا المصير، ثم يسيرون في ضوء الشمس مختالين ناعمين بهتاف الجماهير لهم. وحتى عندما يموت هؤلاء العظماء المذكورون على فراشهم، مقدمين نهايات نموذجية وخطباً رنانة، فإن التاريخ المهذب الأكثر خضوعاً من جلاديهم، يستمطر عليهم شآبيب الرحمة.

والآن، وقد استطاع جون بابتست أخيراً أن يختار موضعه في محيط هذه الجدران ليدرب قواه العقلية على النوم عندما يريد، ورقد على الدكّة الخشبية متكئاً بوجهه على ذراعيه المعقودتين ثم نام. وقد كان في استسلامه، وفي خفته، وفي طبيعته المرحة، وفي انفعالاته السريعة القصيرة، وفي يسر رضاه بالخبز الغليظ والحجارة الصلدة، وفي استعداده للنوم فوراً، وفي نوباته وثوراته، كان ابناً صادقاً للأرض التي أنبتته.

وأكل الوهج العام بعضه بعضاً، ومالت الشمس إلى المغيب في موكب رائع من الأضواء الحمراء والخضراء والذهبية، وبرزت الأنجم في السماء، وراحت الهوام المضيئة تقلدها في الهواء الأدنى كما يحاول بعض الناس أن يقلدوا في الخير من هم أعظم شأناً. وهجعت الطرق المتربة الطويلة، والسهول الفسيحة الممتدة بينها، وخيَّم البحر سكون بلغ من العمق أن جعله لا يكاد يهمس بالوقت الذي سيلفظ فيه موتاه.



* *

زملاء سفر

– لم يعد ثمة شيء اليوم من ضجيج الأمس يا سيدي؛ أليس كذلك.

– إنني لم أسمع شيئاً.

– إذن فلا شك أنه لم يكن ثمة ضجيج. فعندما يضج هؤلاء الناس، فإنهم يضجون لكي يسمعهم غيرهم.

– معظم الناس يفعلون هذا، على ما أظن!

– ولكن هؤلاء الناس لا يكفون عن الضجيج. إنه مصدر سعادتهم.

– أتعني أهالي مرسيليا؟

– أعني الفرنسيين عامة. إنهم هكذا دائماً. أما عن مرسيليا، فنحن نعرف ما هي مرسيليا. إنها صاحبة أعظم لحن ثائر لم يسمع له العالم مثيلاً. إنها لا تستطيع أن تعيش دون أن تضج وتنتفض لهذا الأمر أو ذاك: للنصر أو للموت أو للثورات أو لأي شيء آخر.

وكان المتحدث ذو الطابع المرح الواضح عليه، ينظر من فوق جدار الحاجز بكل استخفاف إلى مرسيليا، ثم إذا به يتخذ موقفاً ينم عن مزيد من الاعتداد بالنفس فوضع يده في جيبه وراح «يخشخش» بالنقود ويرسل ضحكة قصيرة، ثم يقول:

- إنها تضج وتنتفض حقاً، والواقع أنه من الأنسب لك أن تدع غيرك من الناس يضجون وينتفضون حول شؤونهم المشروعة بدلاً من إيداعهم في منطقة الحجر الصحي.

فقال الآخر:

- إنه شيء مثير للملل طبعاً. ولكننا سنخرج اليوم.

فقال الأول:

- نخرج اليوم؟ إن خروجنا اليوم يكاد يكون تضخيماً للإساءة البالغة التي وُجِّهت إلينا. نخرج؟ ولماذا حجزونا هنا؟

- لا لسبب قوي، كما ينبغي أن أعترف. ولكن بما أننا آتون من الشرق. وبما أن الشرق أرض الوباء..

فقال الآخر:

- وباء! إن من أسباب محنتي أني أصبت بالوباء بصفة دائمة منذ جئت إلى هذا المكان. إنني كرجل عاقل وُضِع في سجن مع المجانين، إنني لا أطيق هذا العذر. لقد جئت إلى هذه المدينة كثيراً، ولكن الاشتباه في أني موبوء قد جعلني أشعر بأني موبوء فعلاً، وقد أصبت بالوباء.. أصبت به تماماً.

فقال المتحدث الآخر باسماً في تهكم:

- إنك تحتمل هذا الوضع كما ينبغي يا سيد بيجلز:

- لا! إنك لو تعرف الوضع الحقيقي للأمور لكانت تلك آخر ملاحظة تخطر لك ببال. إنني أستيقظ الليلة بعد الأخرى وأقول لنفسي: لقد أصبت به.. إنه ينتشر في جسمي الآن.. لقد انتهيت أخيراً. إنهم الآن يتخذون الإجراءات لمنع انتشار العدوى مني إليهم. عجباً! إنني أفضل

ألف مرة أن أرشق بدبوس وأن أعلق في لوحة بين مجموعة من الحشرات، على أن أحيا هذه الحياة هنا.

وعندئذ قال له صوت نسائي على سبيل التخفيف والتشجيع:

- حسناً يا سيد بيجلز. لا داعي لإطالة الحديث في هذا الأمر، لقد انتهى كل شيء الآن.

- انتهى؟

قالها السيد بيجلز الذي كان عندئذ، رغم أنه ليس فظاً بطبعه، في حالة نفسية تجعله يشعر بجرح جديد في إحساساته عند سماع الكلمة الأخيرة في حديث أي شخص. وقد أردف قائلاً:

- انتهى؟ ولماذا لا أطيل الحديث في هذا الأمر لأنه انتهى؟

وكانت السيدة بيجلز هي المتحدثة إلى زوجها السيد بيجلز. وكانت -مثله- وسيمة، وجيدة الصحة، وبوجه إنكليزي لطيف ظل ينظر إلى الحياة الوادعة خمسة وخمسين عاماً أو أكثر مع احتفاظه بأسطع الذكريات عنها.

وعادت هي تقول:

- مهلاً يا سيد بيجلز، لا عليك.. لا عليك. أرجوك أن ترضى بالأمر الواقع من أجل بِيت.

فقال السيد بيجلز بصوته الذي ينم عن الشعور بالمهانة:

- بِيت؟

وفي تلك اللحظة لمست بيت -التي كانت وراءه مباشرة- كتفه. وسرعان ما غفر السيد بيجلز، من صميم قلبه، كل شيء لمرسيليا.

وكانت بيت في العشرين من عمرها. غادة بيضاء البشرة، ذات شعر كستنائي مرسل في حلقات طبيعية الصياغة، وكانت وسيمة، ذات وجه معبر صريح، وعينين رائعتين في رقتهما واتساعهما وتألقهما وكمال وضعهما في رأس جميل كريم. وكانت ملفوفة الجسم ناضرة المحيا، حلوة مدللة. وكان يبدو عليها تلك الهيئة من الوداعة والطفولة التي تعتبر أجمل ألوان الضعف في الدنيا، والذي كان يضفي عليها ذلك الطابع الجذاب الذي لا يمكن -دونه- أن تكون الفتاة جميلة أو لطيفة.

وقال السيد بيجلز بصوت كله الثقة وهو يتراجع إلى الوراء خطوة، ويدفع بابنته إلى الأمام خطوة ليوضح سؤاله الموجه إلى صاحبه:

- إنني أسألك الآن بكل بساطة وبكل ما ينبغي أن يكون بين رجل ورجل: هل سمعت في حياتك عن مثل هذا السخف اللعين الذي يضع فتاة مثل بيت في الحجر الصحي!

- إن نتيجة هذا السخف هي جعل الإقامة حتى في الحجر الصحي ممتعة!

فقال السيد بيجلز:

- أوه، إن هذه مسألة مفروغ منها. وإني أشكر لك هذا الإطراء. والآن هيّا يا عزيزتي بيت، يحسن أن تمضي مع أمك وتستعدي لركوب الزورق. فإني أرى ضابط الحجر الصحي وجماعة من الأفاقين بقبعاتهم ذوات الأعراف، آتين إلينا ليطلقوا أخيراً سراحنا. وهذا يعني أننا -زملاء هذا السجن- أصبحنا جد قريبين من تناول وجبة إفطار لائقة بأناس متحضرين قبل أن يذهب كل منا إلى سبيله. تاتيكورام، إلزمي جانب سيدتك الصغيرة.

وكانت العبارة الأخيرة موجهة لفتاة حسناء ذات شعر أسود وعينين سوداوين جذابتين، وثوب أنيق نظيف. وقد أجابت عليها بانحناءة مهذبة

ثم مضت في ركاب السيدة بيجلز وابنتها. وبعد أن عبر ثلاثتهن الشرفة العارية المتوقدة، اختفين في مدخل معقود السقف أبيض اللون، وظل رفيق السيد بيجلز -وكان رجلاً ملوح البشرة رصين الهيئة في نحو الأربعين من عمره- يحدق النظر إلى ذلك المدخل ذي السقف المعقود الذي اختفين فيه حتى ربت السيد بيجلز ذراعه، فقال له وقد أجفل قليلاً:

- معذرة.

- لا عليك.

وراحا معاً يذرعان المكان جيئةً وذهاباً في ظل الجدار الذي يكوِّن جزءاً من ثكنات الحجر الصحي ناعمين في ذلك المكان المرتفع، بما يصلهما من نسمات البحر المنعشة في هذه الساعة السابعة من الصباح. واستأنف رفيق السيد بيجلز الحديث قائلاً:

- هل يمكن أن أسألك عن اسم..

فقاطعه السيد بيجلز قائلاً:

- تاتيكورام؟ ليس لدي فكرة على الإطلاق.

فقال الآخر:

- لقد ظننت أن.. ظننت أن..

- أن تاتيكورام؟..

- نعم، شكراً. ظننت أن تاتيكورام هو الاسم، وكثيراً ما عجبت من غرابته.

فقال السيد بيجلز:

- عجباً! الواقع أنني - والسيدة بيجلز من الناس العمليين كما ترى..

- هذا ما ذكرته لي كثيراً في أثناء حديثنا الشيِّق الذي تبادلناه معاً ونحن نذرع هذه الأرضية الصخرية جيئةً وذهاباً.

- أناس عمليون. وقد حدث لهذا السبب أننا صحبنا بيت ذات يوم منذ خمسة أو ستة أعوام إلى الكنيسة في حي فاوندلنج، ولعلك سمعت عن مستشفى فاوندلنج في لندن! إنه شبيه بملجأ الأطفال في لندن.

- لقد رأيته.

- حسناً! صحبنا بيت ذات يوم إلى الكنيسة لتسمع الموسيقى. ذلك لأننا -كأي أناس عمليين- نرى من واجبنا أن نطلعها على كل ما يمكن أن يثير بهجتها. وهناك شرعت الأم -وهو الاسم الذي أطلقه على زوجتي عادة- تبكي بحرقة مما أوجب علينا الخروج بها. ولما خرجنا قلت لها: «ماذا جرى أيتها الأم؟ لقد أفزعت بيت يا عزيزتي» فقالت: «نعم. إنني أعلم هذا أيها الأب. ولكن فرط حبي لها هو الذي جعل هذه الفكرة تخطر ببالي» فقلت لها «ما هي هذه الفكرة التي خطرت ببالك أيتها الأم؟» فعادت إلى البكاء قائلة: «أوه، ويحي، ويحي، عندما رأيت كل هؤلاء الصغار المصطفين طبقة بعد طبقة والمبتهلين إلى أب لم يره أحدهم قط في هذه الدنيا إلا الله في السماء، تساءلت في نفسي: ترى هل تأتي الأم البائسة هنا وتبحث بنظراتها بين هذه الوجوه الصغيرة متسائلة عن الطفل المسكين الذي جاءت به إلى هذا العالم الموحش الذي سيعيش فيه كل حياته وهو لا ينعم بحبها، ولا بقبلاتها، ولا برؤية وجهها أو بسماع صوتها بل ولا يعرف اسمها؟» وكان ذلك هو الجانب العملي في الأم. وقد صارحتها بهذا قائلاً:

«أيتها الأم، هذا ما أسميه الجانب العملي في طبيعتك يا عزيزتي».

وأدنى الآخر رأسه دون أن ينفعل، وعاد السيد بيجلز يقول:

– وفي اليوم التالي قلت لها: الآن أيتها الأم إن لدي اقتراحاً أعرضه عليك وأظن أنك ستوافقين عليه. لنأخذ طفلة من هؤلاء الأطفال لتكون وصيفة صغيرة لبيت. إننا من الناس العمليين، ولهذا فلو أننا وجدنا طبعها منحرفاً بعض الشيء، أو سلوكها مختلفاً جداً عن سلوكنا، فسوف نعرف ماذا ينبغي أن نفعل. سوف نعرف أية استدلالات ضخمة يجب الوصول إليها من جميع المؤثرات والتجارب التي تصنعنا.. فلا والدان، ولا أخ أو أخت، ولا شعور بالذاتية الخاصة في البيت، ولا تدليل أو إفراط في الحب.. وعلى هذا النحو عاشت بيننا تاتيكورام.

فقال السيد بيجلز:

– يا للسماء! لقد نسيت موضوع الاسم. لقد كانوا يسمونها في الملجأ هارييت بيدل، وهو طبعاً اسم مستعار. وقد غيرنا نحن هارييت إلى هاتي، ثم حرفناه إلى تاتي لأننا -كأناس عمليين- رأينا أنه حتى اسم التدليل قد يكون شيئاً جديداً عليها، وأنه قد يكون له تأثير رقيق حبيب إلى نفسها. ألا ترى؟ أما اسم «بيدل» فقد رأينا أنه خارج تماماً عن الموضوع. فلو أن هناك أي شيء لا يمكن أن يحتمل، أي شيء -كعفريت العلبة- ينم عن الغرابة والقحة، أي شيء يتمثل في صديري وسترة وعصا كبيرة لا تزال التقاليد الإنكليزية السخيفة تتمسك به بعد أن كشف أمره، فهو البيدل -قواس الكنيسة- أرأيت أحدهم أخيراً؟

– إنني كإنكليزي عاش أكثر من عشرين عاماً في الصين لم أرَ واحداً منهم.

فقال السيد بيجلز وهو يضع سبابته على صدر صاحبه في انتعاش واضح:

– عظيم. لا تدع نظراتك تقع على قواس كنيسة «بيدل» بقدر ما تستطيع. فأنا كلما رأيت واحداً منهم بكل هيله وهيلمانه مقبلاً يوم الأحد

في الطريق على رأس تلاميذ مدرسة خيرية، فإني أضطر للهروب من الشارع وإلا ضربته. وبما أن اسم بيدل قد أصبح غير ذي موضوع، وبما أن منشئ ذلك الملجأ كان إنساناً مباركاً يحمل اسم كورام، فقد أطلقنا اسمه على الفتاة. وهكذا أصبح اسمها حيناً تاتي، وحيناً كورام حتى اعتدنا على مزج الاسمين معاً فأصبح اسمها الدائم الآن هو تاتيكورام.

وبعد برهة من الصمت كان الاثنان خلالها يروحان ويجيئان، وبعد أن توقفا لحظة عند جدار الحاجز يتأملان البحر، استأنفا الحديث، فقال رفيق السيد بيجلز:

- إنني أعرف يا سيد بيجلز أن ابنتك بيت هي وحيدتك، فهل لي أن أسألك، لا بدافع من الفضول السمج، وإنما لإحساسي بالبهجة في صحبتك، ولأنني قد لا أتمكن في هذا العالم الواسع من أن أتبادل معك مرة أخرى مثل هذا الحديث الهادئ مما يجعلني أرغب في الاحتفاظ بذكريات واضحة عنك وعمن معك.. هل لي أن أسألك بعد الذي فهمته من زوجتك الكريمة؛ ألم يكن لك أبناء آخرون؟

فقال السيد بيجلز:

- لا لا.. لم يكن لي أبناء آخرون. مجرد ابنة أخرى فقط.

- آه، أخشى أن أكون قد لمست موضعاً حساساً من نفسك.

فقال السيد بيجلز:

- لا عليك. فإذا كنت حزيناً لهذا السبب، فإن حزني ليس بالغاً، إن الذكرى تؤلمني أحياناً، ولكنها لا تنتزع السعادة من حياتي. كانت لبيت أخت توأم ماتت عندما أصبح في مقدورنا أن نرى عينيها -الشبيهتين تماماً بعيني بيت- عندما كانت تتشبث بطرف المائدة وتشرئب برأسها إلى ما فوق سطحها.

– آه! حقاً! حقاً!

– أجل. ولما كنا من الناس العمليين، فقد كانت النتيجة التي انبثقت تدريجياً، في ذهني وذهن زوجتي، والتي ربما تفهمها، وربما لا تفهمها.. هي أننا لم نعد نستطيع أن نفرق بين بيت وأختها التوأم التي كانت تشبهها تماماً وتكاد تكون طبق الأصل منها. ولهذا فليس ثمة جدوى في أن يقول لنا أحد إن ابنتنا المتوفاة كانت مجرد طفلة. لقد تغيرت نظرتنا إليها طبقاً للتغيرات التي حدثت للابنة التي أبقاها الله لنا، ومن ثم أصبحت دائماً معنا. إنها في أذهاننا تكبر كلما كبرت بيت. وكلما دخلت بيت في طور الأنوثة والنضوج العقلي، كذلك كانت أختها التوأم تدخل في نفس الطور، وبنفس الدرجة. وإنه ليكاد يكون من العسير أن تقنعني –إذا أنا رحلت إلى العالم الآخر غداً– بأنني لن التقي هناك –بإذن الله– بابنة مثل بيت تماماً. إن محاولة إقناعي بغير ذلك كمحاولة إقناعي بأن بيت الحية ليست حقيقية قائمة بجانبي.

فقال الآخر برفق:

– إنني أفهمك.

واستطرد الوالد يقول:

– أما عن بيت.. فإن حرمانها الفجائي من شبيهتها الصغيرة وزميلتها في اللعب وارتباطاتها المبكرة بذلك العالم الخفي الذي مرّ به كل منا في طفولته، والذي لا يبدو دائماً شديد الوضوح في ذهن الطفل، كان له بطبيعة الحال بعض التأثير على طبيعتها. هذا ولم أكن أنا أو أمها في سن الشباب حين تزوجنا، ومن ثم كانت بيت تعيش معنا دائماً في جو من الكبر رغم محاولاتنا لتكييف أنفسنا معها. لقد نصحنا بعضهم أكثر من مرة عندما كانت صحتها تعتلّ أحياناً، أن نغير الجو والهواء من أجلها

بقدر ما نستطيع لا سيما في مثل هذه المرحلة من عمرها.. وأن نحرص على تسليتها والترفيه عنها. ولما كنت الآن في غير حاجة للاستمرار في العمل -هذا وإن كنت أؤكد لك أنني كنت فقيراً في شبابي، وإلا لتزوجت السيدة بيجلز منذ أمد بعيد- فقد بدأنا ننتقل في أنحاء العالم. وعلى هذا النحو وجدتنا ونحن نرنو إلى النيل، ونتفرج على الأهرامات وأبي الهول، ونشاهد الصحراء وما إلى هذا. وإن هذه الرحلات لسوف تجعل من تاتيكورام -في وقت ما- رحالة أكبر من الكابتن كوك.

فقال الآخر:

- أشكرك.. أشكرك من صميم قلبي على هذه الثقة.

فردّ السيد بيجلز قائلاً:

- عفواً. فأنا واثق أنك جدير بها. والآن يا سيد كلينام، أيمكن أن أسألك هل اتخذت أخيراً قراراً بشأن المكان التالي الذي ستمضي إليه؟

- الواقع أني لم أفعل. فأنا إنسان أهيم في أي مكان بحيث يمكن لأي تيار أن يحملني إلى حيث يشاء.

فقال السيد بيجلز في صوت الناصح المخلص:

- إذا غفرت لي حريتي في الحديث معك لقلت إنه لمن الغرابة بمكان، في نظري، أنك لا تمضي رأساً إلى لندن!

- ربما أفعل.

- ولكنني أعني أن تفعل بمحض إرادتك.

- ليست لي إرادة.. أعني أن أقول..

ثم اضطرم وجهه قليلاً وأردف قائلاً:

- أعني أنني بلا إرادة الآن لعمل شيء معين. لقد كانت القوة وحدها هي المدربة لي، فحطمتني بدلاً من أن تصوغني. لقد أُثقِل كاهلي بأشياء لم يستشرني أحد فيها ولم تكن تخصني يوماً. وحُمِلت في سفينة إلى الطرف الآخر من العالم قبل أن أصل إلى سن البلوغ. وبقيت منفياً هناك حتى مات أبي، منذ عام فقط. وهكذا كنت دائماً أشتغل في طاحون لم أكف يوماً عن كراهيته. فماذا ينتظر مني وأنا في منتصف العمر؟ الإرادة، والهدف، والأمل! لقد انطفأت كل هذه الأنوار قبل أن أستطيع النطق بأسمائها.

فقال السيد بيجلز:

- انفخ فيها الحياة مرة أخرى.

- آه! الكلام سهل. إنني يا سيد بيجلز ابن رجل وأم كانا على جانب كبير من الصرامة. إنني الابن الوحيد لأبوين كانا يزنان ويقيسان ويقدِّران كل شيء. وأي شيء ليس له وزن أو قياس أو ثمن لا يعتبر موجوداً في نظرهما. كانا متزمتين جداً، وفقيهين في عقيدة دينية صارمة. وكانت عقيدتهما هذه نفسها تضحية كئيبة دائمة بكل ما يتصل بالذوق واللياقة والمشاركة الوجدانية التي لم تنفعل بها نفوسهما يوماً؛ تضحية يقدمانها كجزء من صفقة يضمنان بها ممتلكاتهما. كانا من ذوي الوجوه الجامدة، والنظام الذي لا يرحم، والإيمان بالبؤس في الدنيا والعذاب في الآخرة.. لا رقة ولا رحمة في أي مكان، وإنما الفراغ الذي يملأ قلبي المتقفض في كل مكان. كانت تلك هي طفولتي إذا كان لي أن أسيء استخدام هذه الكلمة لوصف المرحلة الأولى من حياتي.

فقال السيد بيجلز وقد أزعجت خياله هذه الصورة التي رسمها له صاحبه:

- نعم، حقاً، لقد كانت بداية قاسية. ولكن هيّا.. يجب أن تتعلم وأن تستفيد بكل هذه التجارب كأي رجل عملي.

– إذا كان الناس الذين يقال عنهم إنهم عمليون، يسيرون في اتجاهك العملي..

فقال السيد بيجلز:

– عجباً! إنهم يفعلون!

– أحقاً؟

– أظن هذا..

ثم فكر السيد بيجلز في الأمر ملياً، ثم أردف قائلاً:

– إن الإنسان العملي، لا يسعه إلا أن يكون كذلك. وأنا والسيدة بيجلز لا شيء غير هذا.

وقال السيد كلينام وهو يهز رأسه بابتسامة حزينة:

– لقد وجدت أن طريقي المجهول أسهل وأحفل بالأمل مما كنت أظن يومئذ.. كفي حديثاً عني! ها هو ذا القارب.

وكان القارب ممتلئاً بأصحاب القبعات ذوات الأعراف، الذين لم يكن السيد بيجلز يحمل لهم مودة أو تقديراً. وهبط هؤلاء إلى البر، وصعدوا الدرجات إلى المسافرين حيث جمعوا بعضهم إلى بعض بشيء من العنف، ثم تناولوا كثيراً من الأوراق، ونادوا على كثير من الأسماء وقاموا بأعمال كثيرة في ميدان التوقيع والبصم والختم والتحبير، فكانت النتيجة أشياء مكتوبة معقدة غامضة ملوثة. وأخيراً، وبعد أن تم كل شيء طبقاً للنظم واللوائح، سمح للمسافرين بالانطلاق إلى حيثما يريد كل منهم.

ولم يحفل هؤلاء كثيراً بالوهج وبهر الضوء بسبب فرحتهم الجديدة بالحرية التي استردوها، وإنما انفلتوا على سطح المياه بالميناء في زوارق لطيفة، واجتمعوا مرة أخرى في فندق كبير حيث كانت مصاريعه الخشبية

المزركشة تحجب وهج الشمس عن داخله الظليل، وحيث كانت أرضياته المرصوفة العارية، وأسقفه العالية، ودهاليزه الظليلة تخفف الكثير من شدة الحرارة. وهناك، في غرفة رحيبة، سرعان ما اكتست مائدة كبيرة بألوان شهية من المأكولات. ولم تلبث أماكن الحجر الصحي أن غدت في الواقع مجرد ذكريات بين الأطعمة الفاخرة، والفاكهة الآتية من الجنوب، والخمور المثلجة والزهور المستوردة من جنوا، والثلج المجلوب من قمم الجبال، وجميع ألوان الطيف الشمسي تنعكس من المرايا.

وقال السيد بيجلز:

- ولكنني الآن لم أعد أحمل لتلك الجدران المثيرة للملل أية ضغينة. فالإنسان دائماً يبدأ في نسيان أي مكان بمجرد أن يتركه وراءه. بل يمكن القول إن السجين تبدأ مشاعره تلين نحو السجن بعد أن يخرج منه.

وكانوا في مجموعهم نحو ثلاثين، كلهم يتحدثون، ولكن في مجموعات صغيرة بطبيعة الحال. وكان السيد بيجلز وزوجته يجلسان وابنتهما بينهما في جانب من المائدة وفي الجانب المقابل جلس السيد كلينام وسيد فرنسي طويل القامة بشعر ولحية لونها أسود حالك، وكان رغم مظهره الأنكد المثير للخوف، يلوح أكثر الجميع رقّة ووداعة؛ وسيدة إنكليزية شابة حسناء كانت تسافر بمفردها، وكان لها وجه ينم عن عزة النفس وقوة الملاحظة وكانت في معزل عن الجميع، إما تجنباً منها لهم وإما تجنباً منهم لها، والواقع أن أحداً غيرها لا يستطيع أن يجزم أي الأمرين أصح. أما بقية المجموعة، فكانوا من الطراز العادي: مسافرون للعمل، ومسافرون للمتعة؛ وضباط بالجيش الهندي في إجازة، ورجال يعملون في الميدان التجاري باليونان وتركيا، وقس إنكليزي شاب في ملابس وادعة يقوم مع زوجته الشابة برحلة شهر العسل، وزوجان أصيلان من طبقة النبلاء مع ثلاث بنات يافعات كن يثرن ارتباك الباقين بما يدونه في

مفكراتهن، وسيدة إنكليزية عجوز صماء شديدة التحمل لمتاعب السفر، ومعها ابنتها الشابة التي كانت تعد نفسها للزواج بالطواف حول العالم.

والتقطت السيدة الإنكليزية الحسناء المتحفظة عبارة السيد بيجلز وردت قائلة في صوت بطيء ولهجة تأكيد:

– هل تعني أن السجين يمكن أن يستغفر لسجنه!

– هذا هو ظني يا آنسة ويد، فلست أزعم أني أعرف عن يقين ما هو شعور السجين، فأنا لم أجرب السجن قط.

فقال السيد الفرنسي بلغة بلاده:

– أوَ تشك الآنسة في إمكان الغفران بسهولة؟

– نعم.

وكان على بيت بيجلز أن تترجم هذه العبارة لأبيها الذي لم يحدث أبداً أن استوعب أي شيء من لغات البلاد التي زاروها في أثناء رحلاته وقد قال:

– أوه، ويحي! ولكن هذا شيء يثير الإشفاق. أليس كذلك؟

فقالت الآنسة ويد:

– أتأسى لي لأني لستُ سريعة التصديق لكل ما يقال.

– ليس هذا ما أعني تماماً. وإنما أعني أنك لا تستطيعين أن تؤمني أن من السهولة بمكان أن يغفر الإنسان.

فردت قائلة بهدوء:

– لقد أعانتني تجاربي على تصحيح الكثير من أوجه معتقداتي التي آمنت بها منذ أعوام. وهو مظهر من مظاهر التقدم الطبيعي كما يقولون.

فقال السيد بيجلز بتفاؤل:

- نعم، نعم، ولكن ليس من الطبيعي أن نحمل الضغينة في قلوبنا.

- لو أني سُجِنت في أي مكان لكي أؤذى وأتعذب، لوجب عليّ دائماً أن أكره هذا المكان وأتمنى أن أحرقه أو أسوي به الأرض. ولا يمكن أن يراودني شعور غير هذا مهما يكن الأمر.

فقال السيد بيجلز للسيد الفرنسي، وكانت من بين عاداته أن يخاطب أبناء الأمم الأخرى بلغته الإنكليزية وهو يعتقد تماماً أن المفروض عليهم أن يفهموها على نحوٍ ما:

- تعبير قوي يا سيدي. أظن أنك ستوافقني على أن صديقتنا الجميلة عنيفة إلى حدٍّ ما.

فأجاب الفرنسي في أدب:

- إذا كان هذا يرضيك!

وقد سرّ السيد بيجلز لهذا الجواب وقال في ارتياح:

- إنك على حق، فهذا رأيي أيضاً.

وبدأت عملية تناول الإفطار تبطئ وتتراخى تدريجياً. وألقى السيد بيجلز على زملائه حديثاً كان قصيراً ولطيفاً وصادراً من القلب. وكان مرمى الحديث أنه ما دامت الأقدار قد جمعت بينهم مصادفة، وما داموا جميعاً يحتفظون الواحد منهم للآخر بالمودة والاحترام، وما داموا على وشك الافتراق ومن المحتمل أنهم لن يتلاقوا معاً مرة أخرى؛ فإن أفضل ما يمكن أن يتصوره هو أن يودع بعضهم بعضاً، وأن يتبادلوا كؤوس الشراب معبِّرين لبعضهم البعض عن أطيب الأماني برحلة

موفقة. وقد استجاب الجميع لهذا الرجاء. وبعد أن تصافحوا جميعاً، انفضّ الجمع إلى الأبد.

ولم تكن السيدة الشابة المنطوية على نفسها قد قالت شيئاً آخر في أثناء هذا كله. وإنما نهضت مع الباقين، وانسحبت في سكون إلى ركن ناءٍ في القاعة الرحيبة حيث جلست بمفردها في متكأ عند النافذة، وبدا عليها أنها تتأمل انعكاس الماء وهو يرسم تموجاته الفضية على الشبكة المعدنية للنافذة. وظلت جالسة مولية ظهرها إلى القاعة كلها، كأنها اختارت الوحدة عن ترفّع وكبرياء. ومع ذلك فقد كان من العسير أن يجزم أحد ما إذا كانت هي التي تتجنب الآخرين، أم هم الذين كانوا يتجنبونها.

وكانت الظلال التي جلست فيها، والتي تساقطت على جبينها كقناع قاتم، جد متلائمة مع طبيعة جمالها. وكان من العسير على الإنسان أن يرى ذلك الوجه الساجي المترفّع، المجمّل بحاجبين مقوسين سوداوين، وخصائل من شعر أسود مصفف دون أن يتساءل عن نوع التعبير الذي يرتسم عليه إذا حدث ما يوجب هذا. لقد بدا أنه من المستحيل تماماً أن يرتسم عليه تعبير ينم عن الرقة واللين أياً كان الأمر. ومن ناحية أخرى لاحظ معظم المراقبين أنه أقدر على التعبير عن الغضب والتحدي المطلق إذا لزم الأمر. أما هي فقد جمّلته بلا رغبة في جعله يعبر عن شيء معين. ورغم أنه لم يكن وجهاً واضح التعبير، إلا أنه كان خالياً تماماً من أمارات التكلف والادعاء. كان وجهها يقول للجميع بكل وضوح: إنني إنسانة راضية عن نفسي، معتمدة على ذاتي، لا تهمني آراؤكم، وليس لي أي اهتمام بكم؛ وإني أراكم وأسمعكم دون أن أحفل بما أرى أو أسمع. كان الوجه يقول هذا بالعينين المترفعتين، وبجانبي الأنف المرتفعين، وبالفم الجميل المزموم بشيء من القسوة. ولو أنك غطيت اثنتين من أدوات التعبير الثلاث، لظل الثالث يقول هذا. ولو أنك غطيت الثلاث معاً، لعبّرت هي عن هذا كله بمجرد لفتة صغيرة من رأسها؟

واقتربت بيت منها -وكانت الآنسة ويد موضع تعليقات من والديها والسيد كلينام الذي تخلّف في الحجرة دون الجميع- ووقفت بجانبها ثم قالت:

- هل أنت..

ورفعت الآنسة ويد عينيها ببطء إلى بيت التي ترددت قليلاً قبل أن تستطرد قائلة:

- .. في انتظار أن يقابلك أحد هنا يا آنسة ويد؟

- أنا؟ لا.

- إن أبي سيرسل شخصاً إلى مكتب البريد، فهل تسمحين له بأن يطلب من الرسول أن يسأل عن أية خطابات لك؟

- إنني أشكره، ولكنني أعرف أنه لن يجد خطابات لي هناك.

فقالت بيت برفق وحنان وهي تجلس بجانبها في شيء من الخجل:

- إننا نخشى أن.. أن تشعري بالعزلة التامة عندما نرحل جميعاً.

- أحقاً؟

وأحست بيت بالارتباك من نظرات الآنسة ويد، ومن ثم قالت في لهجة اعتذار:

- ليس هذا بالطبع لأننا كنا رفاقاً لك، أو أنه كان في مقدورنا أن نفعل هذا، أو أننا فكرنا في أنك تريدين أن نكون كذلك.

- إنني لم أقصد قط أن أجعل أحداً يفهم أني أريد هذا.

فقالت بيت بوداعة وهي تلمس يدها المسترخية في سكون على المتكأ بينهما:

- لا، طبعاً. ولكن.. في إيجاز.. ألا يمكن أن تسمحي لأبي أن يقدم إليك أية مساعدة بسيطة.. أية خدمة. إنه سيكون سعيداً جداً بهذا.

وهنا قال السيد بيجلز مقترباً مع زوجته وكلينام:

- سأكون سعيداً جداً لأن أقوم بأي شيء فيما عدا الحديث بلغة أخرى غير الإنكليزية.. إني واثق من هذا.

فردّت الآنسة ويد قائلة:

- إنني شاكرة لك ولكنني رتبت كل أموري، وأفضل أن أمضي في سبيلي على طريقتي الخاصة.

فقال السيد بيجلز لنفسه وهو يتأملها بنظرة تنم عن الحيرة: «أحقاً! حسناً! إن هذا يدل أيضاً على قوة الشخصية».

وبصوت مسموع قال:

- إنني لم أتعود كثيراً على البقاء في حضرة السيدات الشابات، وأخشى ألا أحسن التصرف كما يحسنه غيري في مثل هذه الظروف. أرجو لك سفراً حميداً.. ووداعاً.

وبدا أنها لن تمد يدها لتصافحه، ولكن يد السيد بيجلز الممدودة إليها بوضوح جعلتها لا تستطيع إغفالها. ومن ثم مدّت يدها ووضعتها في يد السيد بيجلز تماماً كما كانت تضعها على المتكأ.

وقال السيد بيجلز:

- وداعاً.. هذا آخر وداع في القائمة. لأنني وزوجتي قد ودعنا السيد كلينام هنا وهو لم يتخلف إلا ليودع ابنتنا بيت. وداعاً.. فإننا قد لا نلتقي مرة أخرى.

فأجابت الآنسة ويد بهدوء واتزان:

- إننا في طريق حياتنا سوف نلتقي بالأشخاص الذين يأتون للقائنا من الأماكن الغريبة، وعن طريق الكثير من السبل الغريبة، وإن ما هو مقدَّر علينا أن نفعله لهم، وإن ما هو مقدر أن يفعلوه لنا، سوف يتم حتماً.

وكان ثمة شيء في لهجة الآنسة ويد وهي تنطق بهذه الكلمات قد ثقل على سمع بيت، فأحست أنها تريد أن تقول إن ما هو مقدَّر علينا لا بد وأن يكون شراً. وقد جعلها هذا الإحساس تهمس لنفسها «أوه، أبتاه»، ثم تنكمش كطفل مدلل وتقترب منه قليلاً. ولم يغب هذا كله عن انتباه الآنسة ويد التي قالت للسيد بيجلز:

- لقد بدأت ابنتك الجميلة تشغل ذهنها بأفكار معينة، ومع ذلك..

ثم ركزت كل نظراتها على بيت وهي تستطرد قائلة:

- فيمكنك أن تتأكدي أن هناك رجالاً ونساءً في طريقهم فعلاً إلى التعامل معك، وسوف يفعلون. إنهم سيفعلون حتماً. قد يكونون آتين من مسافة مئات أو آلاف الأميال عبر البحار ليصلوا إلى هذه المدينة، أو قد يكونون الآن جد قريبين منك. وهم يقصدونك إما لأمر تعلمينه وإما لأمر تعملين للحيلولة دون وقوع شيء يتوقع حدوثه.. من أسوأ مكان في هذه المدينة نفسها.

ثم غادرت الغرفة بعد أن نطقت بأفتر عبارات للوداع، وبعد أن ارتسمت على وجهها الذي لم يعد في ذروة جماله، أمارات تنم عن الإرهاق والشعور بالضياع.

وكان عليها عندئذ أن تعبر كثيراً من الممرات والسلالم في طريقها من القاعة الكبرى بذلك الفندق الواسع، إلى الغرفة المخصصة لإقامتها. فلما أوشكت أن تتم هذه الرحلة، وفيما هي تسير في الردهة التي فيها غرفتها، سمعت غمغمة غضب وصوت بكاء. وكان ثمة باب مفتوح

رأت وراءه وصيفة الفتاة التي افترقت عنها منذ لحظات.. الخادمة ذات الاسم العجيب.

وتسمرت في مكانها لتحدق في تلك الفتاة التي بدت لها حارة العواطف متمردة السمات. وكان شعرها الأسود الغزير يدور حول وجهها، وكان وجهها مضطرباً بالانفعال الشديد، وكانت وهي تبكي في ثورة، وتجرح شفتيها بيد لا ترحم، وكانت تقول وهي تبكي وتزفر بعمق بين الحين والحين:

- الوحوش الأنانيون! إنهم لا يهتمون بأمري. يتركونني هكذا نهباً للجوع والظمأ والتعب لكي أموت جوعاً. وماذا يهمهم؟ الحيوانات! الأبالسة! الأشقياء!

- يا طفلتي المسكينة، ماذا جرى؟

ورفعت الفتاة وجهها، ثم نظرت بعينين محمرتين، وبيدين معلقتين في الهواء كانتا في طريقهما لخدش العنق الذي كان مليئاً فعلاً بالخدوش والكدمات الدامية:

- إنه لا يهمك في شيء ما جرى. إنه لا يهم أحداً قط.

- أوه، بل يهمنا. إنني آسفة إذ أراك هكذا.

فقالت الفتاة:

- إنك لست آسفة، إنك سعيدة، وأنت تعرفين أنك سعيدة فعلاً. وأنا لم أكن على هذه الحال قط إلا مرتين: مرة في أثناء حجزنا في الحجر الصحي هناك وهذه المرة. وقد اكتشفت أمري في كلتا المرتين. إنني خائفة منك.

- خائفة مني؟

– نعم فإنه يلوح لي أنك تفاجئينني كم يفاجئني غضبي.. كما يفاجئني شري.. مثل ما لا أدري ماذا أيضاً، ولكنهم يقسون عليّ.. يقسون عليّ.. يقسون عليّ..

وهنا عادت عيناها إلى البكاء وذرف الدموع من جديد، ويداها اللتان توقفتا في الهواء، عادتا إلى خدش وجهها وعنقها.

ووقفت الآنسة ويد تنظر إليها بابتسامة غريبة وانتباه مركز. كان المنظر عجيباً مدهشاً وهي ترى ثورة هذا الصراع في نفس الفتاة، وهذه المعركة التي تنشبها في جسمها وكأنما راحت تمزقها عفاريت الزمن الغابر.

واستطردت الفتاة تقول:

– إنني أصغر منها بعامين أو ثلاثة، ومع ذلك فأنا التي أرعاها كأني امرأة عجوز، إنما هي التي يدللونها ويسمونها «الطفلة». إنني أشمئز من هذا الاسم، إنني أكرهها، إنهم يفسدونها ويجعلون منها فتاة بلهاء، إنها لا تفكر إلا في نفسها، إنها لا تنظر إليّ إلا كما تنظر إلى جماد أو حجر!

– يجب أن تتذرعي بالصبر.

– إنني لا أريد أن أكون صابرة.

– إذا كانوا يهتمون كثيراً بأنفسهم، ولا يهتمون بأمرك إلا قليلاً، فلا يجب أن تقيمي لهذا وزناً.

– بل سأقيم له كل وزن.

– جين! كوني أعقل من هذا؟ هل نسيت حالتك الاجتماعية؟

– إنني لا أحفل بهذا. لسوف أهرب. لسوف أرتكب الشر. إنني لم أعد أحتمل.. لا أستطيع أن أحتمل هذا. لسوف أموت إذا حاولت أن أحتمله.

ووقفت الآنسة ويد ويدها على صدرها ترقب الفتاة كما يمكن أن يقف إنسان مصاب بمرض في جانب من جسمه ليرقب في فضول انحلال واكتشاف حالة مماثلة له تماماً.

وظلت الفتاة الثائرة على هذا النحو من الصراع العنيف بكل ما لديها من صبا وحيوية حتى شرعت هتافاتها الساخطة تخفت تدريجياً إلى أن غدت غمغمة متكسرة كأنها توجُّع مريض. بنفس هذا التدريج تهاوت على مقعد، ثم على ركبتيها، ثم على الأرض بجانب الفراش مجرجرة معها الغطاء، وكأنما لتخفي -من فرط الخجل- رأسها وشعرها المبلل، من ناحية، أو -كما بدا- كأنما تحتضنه من ناحية أخرى، لأنها لا تجد شيئاً آخر تضمنه إلى صدرها النادم.

وفجأة هتفت قائلة للآنسة ويد:

- ابتعدي عني.. ابتعدي عني! فعندما يثور غضبي أصبح كالمجنونة. وأنا أعرف أنه في مقدوري السيطرة على غضبي هذا لو أني حاولت بما فيه الكفاية. وفي بعض الأحيان كنت أحاول جاهدة، وفي أحيان أخرى لا أحاول، ولا أريد أن أحاول. ماذا تراني قلت! إن كل ما قلته عنهم كذب في كذب! إنهم يعتقدون أنني موضع الرعاية والاهتمام، وأنني أنال كل ما أريد. إنهم في الواقع مثال الطيبة والخير بالنسبة لي. إنني أحبهم بكل كياني، ولا أعتقد أن هناك أناساً يمكن أن يكونوا أكثر شفقة منهم على مخلوقة جاحدة مثلي، اذهبي عني.. إنني خائفة منك، إنني أخاف من نفسي حين أشعر بنوبة الغضب تثور في أعماقي. وإن خوفي منك ليوازي خوفي من نفسي.. اذهبي عني ودعيني أبتهل وأبكي لأكون أحسن من هذا.

وانصرم اليوم، ومرة أخرى أكل وهج الشمس بعضه بعضاً، وهبط على مرسيليا الليل الحار، ومن خلاله راح موكب الشروق يمضي

في مساره المعلوم ويتفرق الجميع في الصباح، كلٌّ إلى سبيله. وهكذا على الدوام، في الليل وفي النهار، وتحت الشمس وفي ظلال النجوم، صاعدين التلال المتربة، كادحين في السهول المتعبة، راحلين عن طريق الأرض، وعن طريق البحر، آتين وذاهبين، نلتقي ونفترق متفاعلين بعضنا ببعض، نمضي نحن الرحالة الذين لا استقرار لنا في موكب الحياة.

* * *

الوطن

كان اليوم مساء أحد في لندن، رطيب خانق، مظلم. وكانت أجراس الكنائس المزعجة بكل مختلف درجات رنينها: الحاد منها والخفيض، الواضح والمتحشرج، السريع والبطيء، ترسل دويّ صداها المروع في كل مكان. وكانت الشوارع الكئيبة المكسوة بأردية الهباب تغمس في سوادها أرواح أولئك الذين حكم عليهم بالنظر إليها من النوافذ في يأس قاسٍ. وفي كل شارع عام، بل وفي كل منعطف كان ثمة أجراس بغيضة تنتفض وتجلجل وتدق كأنما انتشر الوباء بالمدينة وانطلقت عربات الموتى في أنحائها. وكان كل شيء يمكن أن يرفه عن المرهقين بالعمل قد أُغلِق وأُحكِم رتاجه. فلا مسارح، ولا ملاعب للحيوانات العجيبة، ولا معارض للنباتات والأزهار النادرة، ولا عجائب طبيعية أو مصنوعة للعالم القديم، وكان كل شيء موسوماً بذلك النظام الصارم وكأنما عادت آلهة البحار الجنوبية الفظيعة -الموجودة رموزها في المتحف البريطاني- وظنت نفسها مقيمة في وطنها مرة أخرى. ولم يكن ثمة ما يرى إلا الشوارع.. والشوارع فقط، ولم يكن ثمة ما يتنفسه الإنسان إلا الشوارع، والشوارع فقط. لم يكن ثمة شيء ينعش الذهن الكليل أو ينشطه. لم يكن ثمة شيء يفعله الرجل الكادح المرهق إلا أن يفارق الملل المتخلف من اليوم السابع من أيام الأسبوع بملل أيام

العمل الستة، وإلا أن يفكر في لون هذه الحياة المرهقة التي يحياها، لينال منها خير ما فيها أو أسوأ ما فيها، حسب إمكانياته.

في مثل هذا الوقت السعيد المتلائم تماماً مع مبادئ الدين والأخلاق، جلس في نافذة مشرب قهوة في لودجيت هيل المستر آرثر كلينام الذي وصل إلى لندن حديثاً من مرسيليا عن طريق دوفر، ومن دوفر عن طريق مركبة السفر المسماة «بلو آيد ميد» وكان حوله نحو عشرة آلاف منزل متضامنة تطل في جهامة واكتئاب على الشوارع المتكونة منها، وكأنها يقيم في كل منها الشبان العشرة المذكورون في أسطورة كاليندر الذين كانوا يسوِّدون وجوههم، ويندبون سوء حظهم في كل ليلة. وكان حوله أيضاً خمسون ألف حظيرة حيث يعيش فيها الناس عيشة سقيمة وحيث توضع المياه النقية في غرفها المزدحمة يوم السبت مساءً، لتغدو آمنة في صباح يوم الأحد. ومع ذلك فإن العجب قد خامر السيد النبيل الذي يمثلهم في البرلمان حين سمع أنهم عاجزون عن النوم بجانب لحوم جزاريهم! ثم هناك أميال من الآبار المغلقة، وجحور المنازل التي يلهث سكانها التماساً للهواء، كانت تمتد بعيداً بعيداً في كل جهة من الجهات الأربع. وفي قلب المدينة فاضت بالوعة مجارٍ وتدفق ماؤها بدلاً من جدول رقراق عذب النمير. ترى أية رغبات دنيوية يمكن لهذا المليون أو نحوه من هؤلاء الآدميين الذين يكدحون في سبيل الرزق ستة أيام في الأسبوع بين هذه المعالم المدفونة ودون أية نجاة من هذا الملل العذب الذي يلاحقهم من المهد إلى اللحد. أقول أية رغبات دنيوية يمكن أن يستمتعوا بها في اليوم السابع؟ الواضح أنهم لا يريدون شيئاً إلا شرطياً ضيق الصدر.

جلس السيد آرثر كلينام في نافذة مشرب القهوة بمنطقة لودجيت هيل يحصي دقات أحد الأجراس المجاورة، مكوناً الجمل وترجيعات الأغاني منه على الرغم من نفسه، متسائلاً عن عدد الأشخاص المرضى

الذين قد يموتون بسببه من فرط الضيق والملل على مدار العام. وكان الجرس يغير توقيت نغماته إلى السرعة التدريجية التي تزيد الشعور بالضيق والتوتر كلما مرّ الوقت. وقبل الموعد بربع ساعة اشتد رنين دقاته بشكل رهيب وهو يحث الأهالي بطريقته الرنانة هذه الإسراع إلى الكنيسة.. الإسراع إلى الكنيسة. وقبل الموعد بشعر دقائق أحس الجرس بأن الجمع في الكنيسة سيكون قليلاً، ومن ثم راح يدق ببطء وبروح معنوية هابطة: إنهم لا يأتون.. إنهم لا يأتون.. إنهم لا يأتون. وبعد خمس دقائق فَقَد الأمل وراح يهز كل بيت في المنطقة المجاورة لمدة ثلاثمائة ثانية مرسلاً في كل ثانية دقة نكراء الرنين كأنها آهة يأس.

وقال كلينام لنفسه عندما دقت الساعة وتوقف رنين الجرس: «حمداً لله».

ولكن رنينه بعث من عالم الذكريات موكباً طويلاً من أيام الآحاد البائسة، ولم يتوقف الموكب مع توقف الرنين وإنما استمر في الزحف. وقال كلينام لنفسه: «ليغفر الله لي وللذين ربوني.. ما أشد كراهيتي لهذا اليوم».

إنه لا ينسى يوم الأحد ذاك الكئيب في عهد الطفولة عندما جلس ويداه أمامه والفزع يكاد يقتله من الكتاب الديني الذي بدأ عمله مع الطفل المسكين بتوجيه هذا السؤال إليه، بوساطة عنوانه: لماذا أنت ذاهب إلى الجحيم؟ وهو سؤال لم يستطع أن يجيب عنه بطبيعة الحال بزيه المدرسي، كما لم يستطع في مستقبل أيامه أن يتحرر منه كلما قرأ في الكتاب المقدس. ثم هناك أيضاً يوم الأحد ذاك الوخيم في صباه عندما كان يدفع به -كجندي هارب- إلى الكنيسة مع لفيف من المدرسين ثلاث مرات في اليوم، مقيداً -روحياً- مع غلام آخر، وعندما كان يقبل راضياً أن يزدرد وجبتين من المواعظ العسيرة الهضم نظير أن يزيدوه مقدار أوقية أو أوقيتين من لحم الضأن الرخيص في وجبة غدائه الضئيلة. وكان هناك

أيضاً يوم الأحد ذاك الممل الطويل في شبابه قبل بلوغ الرشد، عندما كانت أمه بوجهها الصارم وقلبها الذي لا يلين، تجلس طيلة ذلك اليوم وأمامها الكتاب المقدس -الصارم التكوين مثلها- والمغلف بأشد أنواع الغلافات جفافاً وجموداً لا تزينه إلا زخرفة ملونة كأنها آثار سلسلة مجرورة، وإلا نقط صارخة من لون أحمر على حافات أوراقه، وكأنما هو دون الكتب جميعاً الحصن المنيع بين أعذب الطبائع، والعواطف الطبيعية، والعلاقات الرقيقة. وهناك أيضاً يوم الأحد ذاك البغيض، بعد ذلك بقليل عندما كان يجلس مكتئباً محنقاً طيلة ذلك اليوم الممل يخامر قلبه إحساس بالغضب والاستياء دون أن يشعر بأية قيمة حقيقية لجدوى تعلّم تاريخ العهد الجديد، وكأنما هو في هذا الإحساس قد وُلد بين عُبّاد الأصنام. نعم، كانت هناك سلسلة لا تنتهي من أيام الآحاد المليئة بالمرارة، والكبت، تمر في بطء أمام بصيرته.

وأفاق من تأملاته على صوت مضيف المشرب النشط وهو يمسح المائدة قائلاً له:

– معذرة يا سيدي، أتحب أن ترى غرفة نومك؟

– نعم. لقد قررت الآن أن أفعل هذا.

فقال مضيف المشرب لزميلة له:

– تشابميد! إن النزيل رقم سبعة يريد أن يرى غرفته.

فقال كلينام وهو يزداد تنبّهاً:

– انتظر. إنني لم أكن أعني ما أقول. لقد أجبتك بطريقة آلية. إنني لن أنام هنا. لسوف أعود إلى بيتي.

– أحقاً يا سيدي؟ حسناً يا تشابميد! إن النزيل رقم سبعة لن ينام هنا، انصرفي.

وظل جالساً واليوم ينصرم تدريجياً، متأملاً البيوت المواجهة، قائلاً لنفسه: لو أن أرواح سكانها السابقين التي صعدت إلى السماء ترى هذه البيوت وتشعر بها، أما كانت ترثي لنفسها بسبب إقامتها في أثناء الحياة في هذه السجون؟ وبين الحين والحين كان ثمة وجه يبدو وراء الزجاج المعتم لإحدى النوافذ، ثم يغيب في ظلمتها وكأنها قد رأى ما يكفي من الحياة ثم اختفى منها. وشرع المطر بعد قليل يتساقط في خطوط مائلة بنية، وبين هذه البيوت، أخذ الناس يتجمعون للاحتماء منه تحت ظلة عامة في الجانب المواجه، ويتطلعون بقلق إلى السماء والمطر يزداد غزارة وسرعة. ثم بدأت المظلات المبللة تظهر مع وحل الطرقات، وأطراف الأثواب الملوثة به. ترى من يستطيع أن يقول لنا ماذا كان هذا الوحل يفعل قبل سقوط المطر، ومن أين جاء؟ لقد لاحَ أنه تجمع في لحظة كما يتجمع الناس، ثم إذا هو في خمس دقائق ينتثر على جميع أبناء وبنات آدم!

وفي تلك اللحظات كان وقاد المصابيح يقوم بجولته وكان كلما انبثق ضوء مصباح تحت لمسته، خيل للإنسان أنها انتفاضة دهشة من الضوء لاضطراره إلى التلألؤ والسطوع في مثل هذه الأمكنة الكئيبة.

وتناول السيد آرثر كلينام قبعته، وزرّر سترته، وانصرف. وكان يعرف أن المطر في الريف سوف يبعث في الجو آلافاً من نفحات الشذى المنعش.. وأن كل قطرة منه سيكون لها اتصال بديع بلون من ألوان النمو أو الحياة. أما في المدينة، فإنه لا يبعث في الجو إلا الروائح الكريهة، ولا يضيف إلى مجاريها غير المزيد من الماء النتن الراكد الملوث.

وعبر ميدان سانت بول، واستمر في مسيره، ثم انعطف في اتجاه ممتد حتى كاد أن يصل إلى حافة الماء، وقد اخترق في أثناء هذا الطريق عدداً من الشوارع المنحدرة المعرجة «التي كانت تبدو عندئذ أشد تعرجاً وضيقاً» والتي تقع بين منطقة شيبسايد والنهر. وكان حيناً يمر على كنيسة

اجتمع فيها بعض العابدين المتبتلين، وحيناً آخر على نوافذ مضاءة لكنيسة لا يجتمع فيها أحد، وكأنما هي في انتظار بعض الأثريين المغامرين ليكشفوا عن تاريخها. وكان يمر أيضاً بالمخازن والمستودعات المخيم عليها السكون، وبأرصفة الميناء، ثم يخترق هنا أو هناك منعطفاً ضيقاً يؤدي إلى النهر حيث وجد إحدى هذه اللافتات البائسة المكتوب عليها «وُجد غريقاً» ملقاة تبكي على العشب المبلل بجوار جثة غريق. وأخيراً وصل إلى البيت الذي كان يبحث عنه. وكان بيتاً قديماً من الآجر، قاتم الواجهة، قائماً بذاته وراء بوابة.

وكان يقع أمامه فناء مربع الشكل تقوم فيه شجيرة أو اثنتان، ورقعة من العشب، الذي كان يرسل من رائحة العفن بقدر ما يعلو السياج المحيط به وبالشجيرتين من صدأ.

ومن وراء السياج كان ثمة خليط من جذور النباتات. وكان منزلاً مزدوجاً بنوافذ طويلة ضيقة غليظة الأطر. وكان منذ أمد بعيد قد خطر له أن يتهاوى على الجانبين ولكنه ظفر، على كل حال، بعملية ترميم، وأصبح يعتمد على نصف دزينة من العكازات الضخمة التي اتخذتها قطط الحي ملعباً، والتي لم يعد أخيراً –بعد أن سودها الدخان ونخرها الطقس وركبتها أعواد العشب– يمكن الاعتماد عليها كثيراً.

وقال السيد كلينام لنفسه وهو يتوقف ويتأمل ما حوله:

– لم يتغير شيء.. وإنما الظلام والبؤس يخيمان على كل شيء كالمعتاد. وفي نافذة غرفة أمي أرى ذلك الضوء الذي يبدو لي أنه لم ينطفئ أبداً منذ كنت أعود إلى البيت مرتين في العام جارّاً صندوقي على هذا الإفريز نفسه. حسناً، حسناً.

ومضى إلى الباب الذي كانت له ظلة خارجة محفور عليها زخارف تمثل رؤوس أطفال يتناثر فوقها الماء، وكان هذا النوع من الزخارف

مشهوراً في وقتٍ ما. وطرق عليه. وسرعان ما سمع خطوات متعثرة لشخص يسير على الأرضية الحجرية للصالة، ثم فتح الباب رجل عجوز جاف العود محني القامة، ولكنه حاد النظرات.

ورفع القنديل الذي كان يحمله عالياً ليزيد من حدة نظراته، ثم قال بلا أي انفعال:

- آه، السيد آرثر! أخيراً جئت. ادخل.

ودخل السيد آرثر وأغلق الباب. واستدار العجوز ليتأمله وقد رفع الضوء مرة أخرى ثم قال وهو يهز رأسه:

- لقد امتلأ جسمك واشتد عودك. ولكنك في رأيي لم تأتي لترى أباك أو أمك.

- كيف حال أمي؟

- إنها كما هي دائماً. لا تكاد تبرح غرفتها حتى عندما لا تلازم فراش المرض. إنها لم تخرج من عزلتها يا آرثر أكثر من خمسة عشرة مرة في مثل هذا العدد من السنين.

وكان الاثنان قد تقدما إلى غرفة للطعام، واسعة قليلة الأثاث. وهناك وضع الرجل العجوز القنديل على المائدة، واعتمد بمرفقه الأيمن عليها، وراح بيده اليسرى يتحسس جانبي وجهه المعروق وهو يتأمل الزائر. ومد هذا يده، فتناولها العجوز ببرود وقد لاح أنه يفضل عليها جانبي وجهه الذي أعاد إليه يده بأسرع ما استطاع.

وقال الرجل العجوز وهو يهز رأسه:

- أشك في أن أمك سوف ترضى بعودتك إلى البيت في يوم أحد!

- أتريد مني أن أرحل مرة أخرى؟

– أوه! أنا؟ أنا؟ إنني لست هنا السيد. إن هذا ليس ما أريده. لقد وقفت بين أبيك وأمك عدداً من السنين؛ ولست أزعم الآن أني أقف بينك وبينها.

– هل تسمح وتخبرها أني قد عدت إلى البيت!

– أجل يا آرثر أجل؛ بكل تأكيد. لسوف أقول لها إنك عدت إلى البيت، أرجوك أن تنتظر هنا. ولسوف تجد أن هذه الغرفة لم يتغير فيها شيء.

ثم تناول شمعة أخرى من خزانة وأشعلها، وترك الأولى في قنديلها على المائدة، ومضى إلى مهمته، وكان هذا الرجل العجوز قميئاً أصلع، يرتدي سترة سوداء عالية الكتفين، وصدرية، وسراويل صوفية رمادية، وجرموقا «جيتر» طويلاً من الصوف أيضاً. وكان يلوح من ملابسه أنه إما أن يكون خادماً وإما أن يكون كاتب حسابات. والواقع أنه كان يجمع بين العملين. ولم يكن يتزين بشيء إلا بساعة جيب كان يدليها في أعماق جيبه بشريط أسود قديم. وكان في أعلى الساعة مفتاح من النحاس اللامع ليدل على المكان الموضوعة فيه.

وكان رأسه مائلاً، وهو يسير بطريقة زاحفة منحرفة وكأنما قد تداعى كيانه في نفس الوقت الذي تداعى فيه المنزل، ومن ثم أصبح هو أيضاً في حاجة إلى عملية ترميم مماثلة.

وقال آرثر كلينام لنفسه بعد انصراف العجوز:

«ما أضعفني وأنا أرى من المحتمل أن أذرف الدموع لهذا الاستقبال! هذا أني لم ألقَ شيئاً غير هذا قط، ولم أنتظر شيئاً غير هذا أبداً».

وبكى فعلاً. وكانت تلك إحدى لحظات الضعف في طبيعته التي طالما سخط عليها منذ بدأ يعي ما حوله، إلا أنه لم يفقد بعد آماله في كل ما تصبو إليه نفسه. وبعد أن هدأت مشاعره، تناول القنديل وراح يفحص

الغرفة: كانت قطع أثاثها القديمة لا تزال في أماكنها السابقة. وكان على الجدران أطر زجاجية فيها صور بعض مناظر الأحياء الشعبية في مصر، ثم خزانة فارغة مبطنة بصفائح الرصاص كأنها نوع من أنواع التوابيت في مثاباتها. وكان ثمة مقصورة مظلمة قديمة فارغة كان هو في كثير من الأوقات ساكنها الوحيد عقاباً له على ذهابه بمفرده إلى النهر. ورأى في الغرفة أيضاً ساعة الحائط تلك الكبيرة الموضوعة على خزانة جانبية، وذات الوجه الصارم الذي طالما رآه ينظر إليه بملامحه المرقمة في شماتة وحشية كلما وجده متأخراً في دروسه، وكثيراً ما سمعها، عندما كانت تملأ بمفتاح حديدي مرة كل أسبوع، وهي ترسل دقاتها وكأنها هي تدق بوحشية في انتظار ما سوف تجلبه عليه من ألوان البؤس والشقاء. ولكن ها هو ذا الرجل العجوز يعود قائلاً:

- آرثر؛ لسوف تقدمك لأضيء لك الطريق.

وتبعة آرثر إلى درجات سلم قصير أدت بهما إلى غرفة نوم معتمة، كانت أرضيتها قد تهاوت تدريجياً واستقرت بحيث غدت مدفأتها قائمة فيما يشبه الأخدود. وفي هذا الجحر، وعلى أريكة سوداء شبيهة بتابوت الموتى، ذات مسند خلفي من الجلد الأسود المحبب، جلست أمه في ملابس حدادها.

كانت هي وأبوه على خلاف دائم منذ أن عرف ما هي الحياة. وكانت أهدأ أوقات طفولته هي الأوقات التي كان يجلس فيها بينهما، ويتنقل بنظراته من وجه معرض إلى وجه أكثر إعراضاً، والصمت التام يخيم الجميع. وبعد أن طبعت على جبينه قبلة جامدة باردة، أنهت استقبالها له بتقديم يدها ذات الأصابع الأربعة المتصلبة الملفوفة في نسيج صوفي. وجلس قبالتها في الجانب الآخر من المائدة الصغيرة الموضوعة أمامها؛ وكانت النار تضطرم في المدفأة كالمعتاد ليلاً ونهاراً منذ خمسة عشر عاماً.

وكانت الغلاية الصغيرة في موضعها على سخان المدفأة كما كان العهد بها ليلاً ونهاراً منذ خمسة عشر عاماً. وكان ثمة كومة صغيرة من الرماد الرطيب فوق النار، وكومة أخرى صغيرة متجمعة تحت الشبكة الحديدية كما كان الشأن بهذه وتلك ليلاً ونهاراً منذ خمسة عشر عاماً. وكان ثمة رائحة للصبغة السوداء المنتشرة في الغرفة الراكدة الهواء من تأثير النار على ملابس الأرملة السود ومن الأريكة الشبيهة بتابوت الموتى، كل هذا منذ خمسة عشر عاماً.

وقال كلينام:

- أماه! إن هذه الحياة تختلف عن حياتك السابقة الموفورة النشاط!

فأجابت الأم وهي تدير نظراتها في جوانب الغرفة:

- لقد ضاق العالم حتى لم يعد يتجاوز هذه الأبعاد، وإنه لمن الخير لي أني لم أدع قلبي يهفو إلى ملذاته الجوفاء.

وبلغ من تجمع قوة تأثيرها مع صرامة صوتها حول ابنها، أنه بدأ يشعر بهذا الإحساس من الرعدة والخوف والتحفظ الذي كان يستبد به في عهد طفولته وعاد يقول لها:

- ألا تغادرين غرفتك هذه قط يا أماه!

- إنني بسبب الإصابة بالروماتزم وملحقاته من العجز وضعف الأعصاب فقدت القدرة على استخدام أطرافي. إنني لا أغادر غرفتي ألبتة. إنني لم أخرج إلى ما وراء هذا الباب منذ.. منذ.. قولي له منذ متى..

قالت العبارة الأخيرة وهي تستدير برأسها قليلاً؛ وعندئذ أجاب صوت متحشرج من الظلام الخلفي:

- منذ اثنتي عشر سنة تقريباً.

وهنا قال كلينام ملتفتاً إلى مصدر الصوت:

– أهذه آفري؟

فقال الصوت المتحشرج إنها هي آفري. ثم تقدمت امرأة عجوز إلى الضوء الخافت في الغرفة، وقبّلت يدها مرة، ثم انسحبت إلى مكانها المعتم.

وقالت السيدة كلينام -الأم- وهي تشير بيدها الملفوفة في النسيج الصوفي إلى مقعد بعجلات كان بجوار خزانة للكتب مغلقة:

– إنني بهذا المقعد أستطيع أن أقوم بعملي هنا، وإني أحمد الله على هذا الفضل، فهو فضل عميم. ولكن ليس هناك ما أعمله اليوم. إن الليلة رديئة الجو، أليس كذلك؟

– أجل يا أماه.

– هل يتساقط الجليد؟

– أيتساقط الجليد يا أماه ونحن في شهر سبتمبر؟

فقالت في صوت من الزهو الكئيب:

– إن الفصول جميعاً بالنسبة لي سواء. فأنا لا أعرف، في عزلتي هذه، شيئاً عن الصيف أو الشتاء. لقد شاءت إرادة الله أن تريحني من هذا كله.

وكانت بعينيها الرماديتين الباردتين، وشعرها الرمادي الجاف، ووجهها الذي يشبه في جموده غطاء رأسها المتحجر.. وبكيانها البعيد عن تقلبات الفصول، كانت بهذا كله تلوح بعيدة أيضاً عن كل تقلبات عاطفية.

وكان على المائدة الصغيرة أمامها كتابان أو ثلاثة، ومنديل، وزوج من النظارات الحديدية الإطار، وساعة ذهبية عتيقة الطراز في غلاف سميك مزدوج وكانت نظرات الابن عندئذ مركزة على هذه القطعة الأخيرة.

وقال:

- أرى أنك تلقيت بسلام الطرد الذي أرسلته إليك عند وفاة أبي يا أماه.

- نعم، كما ترى.

- إنني لم أرَ أبي قط شديد اللهفة على أي شيء مثل لهفته على إرسال هذه الساعة إليك مباشرة.

- إنني أحتفظ بها هنا كتذكار لوالدك.

- إنه لم يعرب عن رغبته هذه إلا في آخر لحظة، وذلك عندما استطاع فقط أن يضع يده عليها وأن يقول لي بكل وضوح «أمك». وكنت قبل ذلك بلحظة أحسبه يهذي كما كان الأمر معه منذ ساعات كثيرة. وكنت أظن أنه لا يشعر بالألم خلال فترة مرضه القصيرة. وذلك حين رأيته يستدير في فراشه ويحاول أن يفتحها.

- ألم يكن والدك في حالة هذيان عندما حاول أن يفتحها؟

- لا، بل كان متمالكاً لكل قواه العقلية.

وهزّت السيدة كلينام رأسها، ولم يعرف أحد هل هزّته لتطرد التفكير في زوجها عن ذهنها، أم كانت تعد نفسها للاعتراض على رأي ابنها.

وعاد آرثر كلينام يقول:

- وبعد وفاة أبي. فتحت غلاف الساعة وأنا أظن أنني قد أجد فيها شيئاً تذكارياً. ولكنني على كل حال لست بحاجة يا أماه لأن أقول لك إنني لم أجد غير بطانة ساعة قديمة من الحرير المطرز بالخرز؛ ولا شك أنك وجدتها حيث رأيتها بين الغلافين.

فأومأت السيدة كلينام برأسها، ثم أضافت قائلة:

- كفى حديثاً اليوم.

ثم أردفت قائلة لآفري:

- آفري إن الساعة الآن التاسعة.

وعندئذ رفعت المرأة العجوز ما على المائدة الصغيرة، ثم غادرت الغرفة، ولم تلبث أن عادت بصينية عليها صحن من الفطائر الصغيرة وشرائح متساوية من الزبدة الباردة البيضاء الدسمو. أما الرجل العجوز الذي ظل واقفاً بالباب طيلة هذه الزيارة، والذي كان يتأمل الأم العجوز في غرفتها العليا، كما تأمل ابنها في الغرفة السفلى، فقد انصرف في الوقت نفسه، ثم عاد بعد فترة حاملاً الجزء الأكبر من زجاجة خمر -وكانت أنفاسه اللاهثة تدل على أنه أتى بها من بيت المؤونة- ومع الخمر ثمرة ليمون، وإناء سكر وبهارات. وضع من هذه المواد مع كمية من الماء الساخن من الغلاية مزيجاً فوّاح الرائحة وضعه في كوب بعد أن أجاد تحديد المقادير والمزيد وكأنه صيدلي بارع. وفي هذا المزيج غمست السيدة كلينام بعض الفطائر الصغيرة وراحت تأكلها، بينما كانت العجوز آفري تدهن قطعاً أخرى بالزبدة لكي تؤكل على حِدة. ولما فرغت السيدة كلينام من تناول جميع قطع الفطائر ومن شرب المزيج كله، رُفِعت الصينيتان وأعيدت الكتب والمنديل والنظارات والقنديل والساعة إلى مكانها من المائدة. وعندئذ وضعت النظارة على عينيها، وراحت تقرأ بصوت مرتفع فقرات معينة من كتاب.. مبتهلة بكل صرامة وعنف وغضب أن يلقى أعداؤها -الذين لا شك قد اكتسبت عداوتهم بتصرفاتها ولهجة حديثها- القتل بحد السيف، والحرق بالنار، والموت بالطاعون والبرص، وأن تنسحق عظامهم تراباً، وأن يتلاشوا تماماً من الوجود. وخيل إلى ابنها وهي تقرأ، أن الأعوام تتراجع كأخيلة الحلم، وأن ذكريات الفزع الذي كان يستبد به وهو يستعد للنوم طفلاً بريئاً، حلّت تظلله.

وطوت الكتاب، وبقيت فترة من الوقت ووجهها مظلل بيدها. وكذلك بقي الرجل العجوز الذي لم يغير وقفته، ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك مع المرأة العجوز آفري في ركنها المعتم. وعندئذ أعلنت السيدة المريضة أنه قد حان موعد نومها.

وقالت لابنها:

- طابت ليلتك يا آرثر. لسوف تشرف آفري على إعداد فراشك للنوم. عندما تصافحني، المسني فقط، لأن يدي واهنة رقيقة.

ولمس يدها الملفوفة في الصوف.. ولم يكن في هذا جديد. فلو أن أمه كانت مغلفة بدروع من النحاس لما كانت أبعد عنه عندئذ مما هي الآن. وتبع الرجل العجوز والمرأة إلى الطابق الأدنى.

وسألته المرأة العجوز عندما هبطوا معاً إلى الظلال المتكاثفة بقاعة المائدة ما إذا كان يريد طعام عشاء، فردّ قائلاً:

- لا يا آفري. لا أريد عشاء.

فقالت:

- إن شئت عشاء فسوف أقدمه إليك. ففي خزانة الطعام يوجد الطعام الذي سيُعَد لها غداً. وسوف نتناول منه لأول مرة في هذا العام. إذا شئت أعددته لك الليلة.

فقال لها إنه تناول وجبة الغداء متأخراً، ومن ثم لا يستطيع أن يأكل شيئاً، فقالت:

- إذن لتشرب شيئاً، يمكنك أن تشرب قليلاً من زجاجة خمرها إذا شئت لسوف أخبر أرميا أنك أمرتني بإحضار الزجاجة إليك.

فقال إنه لا يريد هذا أيضاً.

فانحنت المرأة العجوز عليه وقالت هامسة:

- إن خوفي يا آرثر منهما لن يمنعني من أن أذكر لك الحقيقة. إن لك الحق في نصف ممتلكات أبيك، أليس كذلك؟

- أجل، أجل.

- حسناً إذن. لا تتخاذل أو تخف. إنك رجل بارع يا آرثر، أليس كذلك؟

وأومأ برأسه حين بدا له أنها تنتظر منه رداً يؤيِّد رأيها. وعندئذ عادت تقول:

- إذن تَصَدَّ لهما. إنها بارعة جداً، ولن يستطيع أن يتحداها إلا رجل بارع. وهو أيضاً شديد الذكاء والبراعة.. نعم.. إنه لكذلك. وهو لا يتردد في أن يتصدى لها كلما عَنَّ له هذا. نعم إنه يفعل.

- أيفعل هذا زوجك؟

- يفعله؟ إنه يجعلني أرتعد من قمة رأسي إلى قدمي وأنا أراه ينهال عليها بلسانه. إن زوجي، أرميا فلنتونش يستطيع أن يهزم حتى والدتك. ولو لم يكن بارعاً لما استطاع أن يفعل هذا.

ولما سمعا وقع أقدامه المتثاقلة وهو يقترب منهما، أسرعت آفري إلى الجانب الآخر من الغرفة. ورغم أنها كانت عجوزاً طويلة صلبة العود -لو التحقت في شبابها بالحرس الملكي لما اكتشف حقيقتها أحد- إلا أنها كانت تنهار أمام زوجها العجوز ذي النظرات النافذة والمشية الزاحفة المائلة.

وقال الزوج:

- آفري، ماذا تفعلين الآن أيتها المرأة؟ ألا يمكنك أن تقدمي للسيد آرثر شيئاً يأكله؟

فكرر السيد آرثر رفضه تناول أي شيء.

وهنا قال العجوز:

- حسناً إذن، أعدّي فراشه، وتحركي.

وكانت رقبته معوجة بحيث لم تعد عقدة ربطة عنقه تُرى إلا تحت أذنه دائماً. وكانت حيويته الطبيعية ونشاطه يصطدمان دائماً مع شعوره المستمر بالكبت، مما جعل ملامح وجهه تبدو منتفخة ومربدة. وبالإجمال كان له منظر الرجل الذي شنق نفسه مرة، وراح يمضي في الحياة بعد إنقاذه -وحبل الشنق لا يزال في عنقه- وآثار الاختناق لا تزال تبدو عليه!

وقال العجوز أرميا:

- غداً يا آرثر ستتبادلان عبارات قاسية، أنت ووالدتك، فإن تركك أعمال أبيك بعد وفاته لن يمر معها بسهولة.. إن أحداً لم يخبرها بهذا بعد، ولكنها تستنتجه.

فقال آرثر:

- لقد ضحيت بكل شيء في الحياة من أجل هذا العمل. وقد آن لي أخيراً أن أضحي بهذا أيضاً.

فصاح أرميا قائلاً:

- حسناً!

ولكنه في الواقع كان يعني عكس معنى هذه الكلمة. ثم أردف قائلاً:

- حسناً جداً. ولكن لا تنتظر مني أن أقف بينك وبينها يا آرثر. لقد وقفت كثيراً بينها وبين والدك، مدافعاً عن هذا أو مبرراً ذاك، إلا أني كنت أُطحَن وأنسحق بينهما. وقد نفضت يدي من مثل هذه المهمة.

- إنني لن أطلب منك أبداً يا أرميا أن تعود إلى هذه المهمة من أجلي.

- حسناً! إني سعيد إذ أسمع هذا، لأني كنت سأضطر إلى رفض طلبك لو أنك فعلت. إن في هذا الكفاية -كما تقول والدتك- بل أكثر من الكفاية في معالجة مثل هذه الأمور في يوم الأحد. آفري، أيتها المرأة، ألم تجدي بعد ما تبحثين عنه.

وكانت آفري عندئذ تجمع بعض المفارش والبطانيات من خزانة، وقد سارعت بجمعها وهي تقول:

- أجل يا أرميا.

وعاونها آرثر كلينام في حمل ما معها، ثم تمنى للرجل العجوز ليلة طيبة، وصعد مع آفري إلى أعلى البيت.

وظل يصعد معها في الجو الخانق لبيت مغلق قليل الاستعمال حتى وصلا إلى عِلِّيَّة للنوم واسعة. وكانت -كبقية غرف البيت- قليلة الأثاث صغيرة، بل لعلها أكثر الغرف قبحاً وكآبة لكونها المكان الذي تُخَزَّن فيه قطع الأثاث القديمة البالية. وكانت القطع المتحركة فيها مقاعد قديمة قبيحة الشكل متآكلة الحشايا، ومقاعد قديمة قبيحة الشكل بلا حشايا، وسجادة بالية حائلة اللون، ومائدة مشوهة، وخزانة ثياب عرجاء، ومدفأة من الأسياخ كأنها هيكل جسم مريض، وحوض للغسيل بدا كأنه ظل أحقاباً تحت سيل من الأقذار، وسرير بأربعة أعمدة عارية بأطراف مدببة كأنما وُضِعت لتكون تحت تصرف النائمين عليه الذين قد يفضلون الانتحار بالخازوق على الإقامة في هذه الغرفة. وفتح آرثر النافذة المستطيلة الواطئة وراح يطل على هذه الغابة من المداخن القديمة المتآكلة السوداء، وعلى هذا الوهج القديم الأحمر في السماء، الذي كان قد لاح له ذات يوم كأنه انعكاس ليلي للجو الناري الذي ملأ عليه أحلام طفولته، والذي كان يراه أينما توجّه بنظراته.

وتراجع برأسه عن النافذة، وجلس بجانب السرير، وراح ينظر إلى آفري فلنتونش وهي تعدّ له الفراش.

وأخيراً قال لها:

- آفري. إنك لم تكوني متزوجة عندما رحلت عن هذه البلاد.

فَلَوَت شفتيها في هيئة الذي يريد أن يقول «نعم» ثم هزّت رأسها وأخذت تضع الوسادة في كيسها.

وعاد هو يقول:

- وكيف حدث هذا؟

فقالت وطرف كيس الوسادة بين أسنانها:

- عجباً! إنه أرميا طبعاً!

- طبعاً هو الذي عرض عليك الزواج. ولكن كيف حدث هذا؟ لقد كنت أظن أن كلّاً منكما لن يتزوج أبداً، وكان آخر شيء يخطر ببالي أن يتزوج كل منكما بالآخر.

فقالت السيد فلنتونش وهي تُحكِم الكيس على الوسادة:

- ولا أنا أيضاً.

- هذا ما أعنيه. فمتى بدأت تغيرين فكرك؟

فقالت السيدة فلنتونش:

- إنني لم أبدأ تغيير فكري قط.

ولما رأت -وهي تهدهد الوسادة على المسند- أنه لا يزال ينظر إليها كأنما ينتظر بقية إجابتها، ضربت يدها بعنف في وسط الوسادة وسألته قائلة:

- ماذا كان في وسعي أن أفعل؟

- ماذا كان في وسعك أن تفعلي لتجنب الزواج؟

فقالت السيد فلنتونش:

- طبعاً. إن ما حدث لم يكن بيدي. إنني لم أكن أفكر في ذلك قط. لقد كان لدي الكثير مما أعمله دون حاجة إلى التفكير في هذا الأمر. وكانت هي «وهو أيضاً» يزيدان أعباء العمل على كاهلي عندما تخرج من البيت. وكانت تستطيع أن تخرج يومذاك.

- وبعد؟

فقالت السيد فلنتونش مرددة:

- نعم وبعد! هذا ما قلته لنفسي. وبعد! ما جدوى التفكير والتروّي في هذا الأمر. إذا كان هذان الشخصان البارعان قد قررا هذا الأمر، فماذا كان في مقدوري أن أفعل؟ لا شيء.

- هل كان هذا مشروع أمي؟

فهتفت آفري قائلة بصوتها الخفيض الذي تتحدث به دائماً:

- ليبارك الله فيك يا آرثر، وليغفر لي خطاياي! إذا لم يكن الاثنان متفقين في هذا الأمر، فكيف أمكن أن يتم. إن أرميا لم يغازلني أبداً، ولم يكن ثمة احتمال في أن يفعل هذا بعد أن عاش معي يصدر الأوامر إليّ كل هذه السنوات في البيت. وقد قال لي ذات يوم «آفري. إنني سأقول لك الآن شيئاً، ما رأيك في اسم فلنتونش؟» فقلت: «لماذا تسألني عن رأيي فيه؟» فقال: «لأنك سوف تحملينه» فقلت: «أحمل اسمك يا أرميا؟ أوه»، نعم، إنه رجل بارع.

وراحت السيدة فلنتونش تبسط الملاءة العليا على الفراش، ثم المفرش فوقها في هيئة الذي انتهى من عمله ومن حديثه معاً.

وقال كلينام مرة أخرى:

- وبعد!

فعادت السيدة فلنتونش تقول مرددة:

- وبعد؟! ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لقد قال لي: «آفري.. أنت وأنا يجب أن نتزوج. وسوف أقول لك لماذا. إن صحتها تسوء، ومن ثم فهي ستحتاج إلى من يرعاها دائماً في أثناء بقائها في الغرفة؛ وسوف نبقى معها كثيراً، ولن يكون في بقية أنحاء البيت أحد إلا أنا وأنت عندما نتركها في غرفتها. ومن ثم فمن الأنسب أن نكون زوجين. وهي توافقني على هذا الرأي. ولهذا عليك أن تستعدي في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين المقبل لكي نذهب ونعقد الزواج».

وعاد آرثر يقول وهي تسوي سطح الفراش:

- وبعد!

وقالت السيد فلنتونش:

- نعم وبعد! لقد كان هذا رأيي أيضاً. وقد جلست وقلت له هذا. فقال: «أما عن الفطائر، فسوف نصنع في يوم الأحد المقبل لثالث مرة (لأني كنت قد أجّلت الزفاف مرتين في أسبوعين)، وهذا ما جعلني أحدد يوم الاثنين موعداً للزواج. وسوف نتحدث معها بنفسها في هذا الشأن، وعليك أن تكوني على أتم الاستعداد يا آفري» وفي ذلك اليوم نفسه تحدثت معي، فقالت لي: «آفري لقد فهمت أنك وأرميا ستتزوجان؛ وإني لسعيدة لهذا السبب، وأنت كذلك ولك الحق. وإنه لأمر طيب جداً بالنسبة لك، وإني لأرحب به كل الترحيب في مثل هذه الظروف، وإنه

لرجل حكيم جدير بالثقة وأمين ومتدين» فماذا كان بوسعي أن أقول إزاء هذا كله؟ عجباً! لو كان الأمر يتعلق بالخنق بدلاً من الزواج..

ثم ارتسم الندم والألم على وجه السيدة فلنتونش لهذا الأسلوب في التعبير قبل أن تستطرد قائلة:

- لما أمكنني أن أتفوه بكلمة اعتراض واحدة ضد هذين الشخصين البارعين.

- إنني أرجو أن تكوني سعيدة في حياتك.

- وهذا ما أرجوه لك يا آرثر.

- آفري، من هي الفتاة التي كانت في غرفة أمي وأنا معها؟

فهتفت السيدة فلنتونش بصوت حاد بعض الشيء:

- فتاة!!

- لا شك أنها كانت فتاة تلك التي رأيتها بالقرب منك، تكاد تكون مختفية في الركن المظلم.

- أوه، أتعني.. أتعني دوريت الصغيرة، إنها لا شيء.. إنها مجرد نزوة من نزواتها..

وكان من غرائب السيدة فلنتونش أنها لا تتحدث قط عن السيدة كلينام باسمها. وقد استطردت تقول:

- ولكن هناك نوعاً آخر من الفتيات غير هذه! أنسيت حبيبتك القديمة، وأظن أن ذلك كان منذ زمن بعيد.. بعيد.

- يكفيني ما عانيت من ذكريات تفريق أمي بيني وبينها. نعم، إنني أتذكرها تماماً.

- هل أحببت غيرها؟

- لا.

- إذن فإن لديّ أنباء سارة لك. إنها الآن سيدة ثرية، وأرملة، وإذا كنت تحب الزواج بها، فسيكون هذا ممكناً.

- ومن أين عرفت هذا يا آفري؟

- إن هذين الشخصين البارعين كانا يتحدثان عن هذا الأمر.. آه، ها هو ذا أرميا صاعداً..

وانصرفت آفري في لحظة.

وكانت السيدة فلتونش قبل انصرافها قد وضعت في النسيج الذي كان عقله مشغولاً بنسجه في ذلك المصنع القديم الذي قام فيه منسج شبابه، الخيط الأخير المطلوب لإتمام الزخرفة. كانت الحماقات العذبة لغرام صبي قد وجدت طريقها حتى إلى ذلك البيت؛ وكان هو معذَّباً بسبب ما كان في ذلك الحب من ألوان اليأس، وكأنما كان ذلك المنزل قلعة خيالية من قلاع الحب البائس. وقبل أسبوع بقليل، عندما كان في مرسيليا، أثار وجه تلك الفتاة الحلوة التي افترق عنها آسفاً، اهتماماً كبيراً في أعماق نفسه، وترك في قلبه تأثيراً رقيقاً بسبب ذلك التشابه -سواء كان حقيقياً أم وهمياً- بينه وبين ذلك الوجه الأول الذي حلّق بعيداً عن حياته المظلمة إلى هالات الخيال المشرقة. واتكأ على قاعدة النافذة المستطيلة المنخفضة، وراح يطل مرة أخرى على هذه الغابة السوداء من المداخن وبدأ يحلم. ذلك أن القالب الذي صبّت فيه حياة هذا الرجل.. المحرومة من الكثير مما يمكن التفكير فيه، ومن الكثير مما كان في الإمكان توجيهه نحو آفاق أسعد، قد جعلت منه إنساناً حالماً.

* * *

السيدة فلنتونش ترى حلما



عندما كانت السيدة فلنتونش تحلم، فإنها -في العادة- كانت تحلم وعيناها مغمضتان بعكس ما يفعله ابن سيدتها العجوز. وقد رأت في تلك الليلة حلماً عجيباً شديد الوضوح. وقد حدث هذا قبل أن تنصرف عن ابن سيدتها العجوز، بعدة ساعات، والواقع أن ما رأت لم يكن يشبه الحلم إطلاقاً، وإنما كان حقيقة في كل جانب من جوانبه. وقد حدث على هذا النحو:

كانت غرفة النوم الخاصة بالسيدة والسيد فلنتونش على مسافة خطوات قليلة من الغرفة التي لزمت فيها السيدة كلينام الفراش كل هذه المدة الطويلة ولكنها لم تكن في نفس الطابق، وإنما كانت غرفة في جانب المنزل يمكن الوصول إليها بسلم شديد الانحدار مكوَّن من درجات قليلة متفرعة عن السلم الرئيسي المقابل لباب غرفة السيدة كلينام. وليس من الممكن القول إن تلك الغرفة كانت على مدى السمع، لأن جدرانها وأبوابها والألواح المبطنة للجدران كانت كلها سميكة صماء. ولكنها كانت جد قريبة عند الضرورة في أية ساعة بالليل وفي أية حالة جوية. وكان عند رأس السرير، وعلى مسافة قدم من حيث تضع السيدة فلنتونش رأسها ثمة جرس طرفه الآخر في متناول يد السيدة كلينام. وكلما صلصل هذا الجرس، نهضت السيدة فلنتونش، وأسرعت إلى غرفة سيدتها المريضة قبل أن تفيق تماماً من نومها.

وبعد أن وضعت سيدتها في الفراش، وأضاءت لها المصباح، وتمنّت لها ليلة طيبة، مضت إلى فراشها لتهجع كالمعتاد قليلاً حتى يقبل سيدها. وكان سيدها هذا -بعكس كل ما يقوله الفلاسفة عن كون الزوج آخر شيء تفكر فيه الزوجة- هو محور أحلامها.

وخُيِّل إليها أنها استيقظت -بعد أن نامت بضع ساعات- دون أن تجد أرميا قد آوى إلى فراشه بعد؛ وأنها نظرت إلى الشمعة التي تركتها مشتعلة لتعرف الوقت.. كما كان يفعل الملك الفريد الكبير بوساطة الجزء المذاب منها، وقد عرفت بهذه الطريقة أنها نامت فترة طويلة بعض الشيء، وأنها نهضت -من ثَمَّ- ولفَّت نفسها بغطاء ولبست حذاءها، واتجهت إلى السلم مدهوشة، لتبحث عن أرميا، وكانت درجات السلم من الخشب ومن الصلابة بقدر ما ينبغي أن يكون وقد راحت آفري تهبط الدرجات دون أية ظاهرة من الظواهر المعروفة عن الأحلام. إنها مثلاً لم تحلق فوقه، وإنما هبطت عليه مستعينة على تحديد اتجاها بـ «الدرابزين» لأن شمعتها انطفأت، وكان في ركن من أركان الصالة، وراء باب الخروج، غرفة للانتظار تشبه فوهة بئر، ولها نافذة ضيقة كأنها ثقبت في جدارها. وفي هذه الغرفة التي لم تُستعمَل قط، كان ثمة ضوء مشتعل.

وعبرت السيدة فلتونش القاعة وهي تحس ببرودة أرضيتها بقدميها العاريتين من الجوارب، ثم اختلست النظر من خصاصة محور الباب الصدئ، وكان الباب مفتوحاً بعض الشيء، وتوقعت أن ترى السيد فلتونش مستغرقاً في النوم أو غائباً عن وعيه سُكراً، ولكنها رأته جالساً في هدوء، على مقعد، في تمام اليقظة وفي حالته الصحية المعتادة. ولكن، ما هذا، عجباً! ليغفر الله لنا! لقد غمغمت آفري بكلمات في هذا المعنى، وأحست بالدوار.

ذلك أنها رأت السيد فلتونش المستيقظ جالساً يرقب السيد فلتونش النائم. كان جالساً إلى جانب من مائدة صغيرة يحدق النظر إلى

نفسه وهو جالس في الجانب الآخر من المائدة وقد غاصت ذقنه في صدره وهو يغط في نومه.

وكان فلتونش المستيقظ جالساً في وضع أمامي تجاه السيدة فلتونش، أما فلتونش النائم فكان في وضع جانبي بالنسبة لها.

وكان فلتونش المستيقظ هو الأصل، والآخر النائم هو نسخة منه. وقد عرفت كيف تفرِّق بينهما كما يفرِّق الإنسان بين الشيء الملموس وبين خياله في المرآة. وكانت آفري قد عرفت هذا الفارق ورأسها لا تكف عن الدوران.

ولو أن أية بادرة من الشك قد خامرت نفسها في أنه زوجها أرميا، لزالت هذه البادرة وهي ترى كيف ضاق صدره فجأة. ولقد رأته يتلفت حوله باحثاً عن سلاح مؤذٍ، ثم إذا هو يلتقط المقراض الذي تُسوَّى به فتائل الشموع، ويندفع نحو النائم كأنما سيطعنه به.

واستيقظ النائم هاتفاً:

– من هذا، ماذا حدث؟

وحرَّك السيد فلتونش المقراض كأنما يهمّ أن ينفذ به إلى حلقه ليرغمه على التزام الصمت، هذا بينما تنبّه صاحبه تماماً وعاد يقول وهو يفرك عينيه:

– لقد نسيت أين أنا!

فقال أرميا مكشراً عن أنيابه وهو ينظر في ساعة جيبه:

– لقد كنتَ نائماً مدة ساعتين. وسبق أن قلت إنك ستنال كفايتك من الراحة إذا غفوت قليلاً.

فقال الشبيه:

- لقد نمت قليلاً.

فغمغم أرميا قائلاً:

- الساعة الآن الثانية والنصف بعد منتصف الليل. أين قبعتك، أين سترتك، أين الصندوق.

فقال الشبيه وهو يلف بعناية مطرفاً حول عنقه.

- كلها هنا. انتظر لحظة. أمسك لي الكم، لا ليس هذا، وإنما الكم الآخر. آها! إنني لم أعد شاباً كما كنت.

ثم أردف قائلاً بعد أن عاونه السيد فلنتونش -بحنق شديد- على ارتداء سترته:

- لقد وعدتني بكأس آخر بعد أن أستريح.

فقال أرميا:

- اشربه واختنق به -لقد كنت أنوي أن أقول- ولكن هيّا اشرب.

ثم تناول زجاجة الخمر المعلومة، وملأ منها كأساً!

وقال الشبيه متذوقاً الخمر على مهل كأنه على رصيف الميناء في إجازة بضع ساعات:

- هذا نبيذ بورت.. في صحتها.

ثم رشف منه قليلاً وأردف قائلاً:

- وفي صحتك.

وعاد يقول وهو يرشف منه مرة أخرى:

- وفي صحته.

ورشفة أخرى قال بعدها:

- وفي صحة جميع الأصدقاء حول كنيسة سانت بول.

ثم أفرغ بقية الكأس في جوفه، وبعد أن أعاده إلى موضعه، تناول الصندوق الذي كان مصنوعاً من الحديد، ومساحته لا تزيد على قدمين مربعين، ومن ثم حمله تحت ذراعه بسهولة، وكان أرميا ينظر إليه في اهتمام شديد وهو يحكم وضع الصندوق تحت ذراعه، ولم يكتف بهذا، بل مدّ يديه وتحسس الصندوق ليطمئن على إحكام وضعه، ثم قال له إن حياته متوقفة على ما سوف يفعل، ثم سار على أطراف أصابعه ليفتح له الباب، وتوقعت آفري الحركة الأخيرة، فانسحبت إلى السلم، وكان كل شيء قد بلغ من الوضوح في نظرها أنها استطاعت، وهي في وقفتها تلك، أن تسمع الباب يُفتَح، وأن تشعر بهواء الليل البارد، وأن ترى النجوم في الخارج.

ولكن حدث هنا أغرب جانب من الحلم، إذ بلغ شعورها بالخوف من زوجها أنها وهي واقفة عند السلم، لم تعد قادرة على الرجوع إلى غرفتها -وكان هذا في مقدورها بسهولة قبل أن يُحكِم إغلاق الباب- وإنها ظلت واقفة تحملق، وكانت النتيجة أنه التقى بها حين بلغ أولى درجات السلّم في طريقه إلى غرفة نومه ونظر إليها بدهشة دون أن ينطق بكلمة، واستمر يحملق فيها وهو يقترب، بينها أخذت هي -وقد أصبحت تحت سيطرته تماماً- تتراجع أمامه، وعلى هذا النحو من السير هي إلى الوراء وهو إلى الأمام، بلغا غرفتها، وما أن أغلق الباب عليهما حتى أمسك السيد فلنتونش بخناقها وراح يهزها بعنف حتى اربدّ وجهها وهو يهتف قائلاً:

- آفري، أيتها المرأة، آفري، أي حلم هذا الذي تعيشين فيه، استيقظي استيقظي، ماذا بك.

فقالت آفري لاهثة وهي تدير عينيها الجاحظتين:

- ماذا بي، يا أرميا.

- عجباً يا آفري، أيتها المرأة؟ لقد تركت فراشك وأنت تحلمين يا عزيزتي، وقد صعدت أنا بعد أن استغرقت في النوم حيناً بالطابق الأسفل، فوجدتك متشحة بهذا الغطاء تعانين من كابوس.

ثم أردف قائلاً وقد ارتسمت ابتسامة ودية على وجهه:

- آفري، أيتها المرأة، إذا حلمت مرة أخرى بهذا الشكل، فسأعرف أنك في حاجة إلى طبيب. وسوف أعطيك جرعة دواء، ويا لها من جرعة!

وشكرته السيد فلنتونش، وعادت إلى فراشها.

*　　*　　*

شؤون عائلية

بينما كانت الساعة تدق التاسعة صباح يوم الاثنين، مضى أرميا فلنتونش بالسيدة كلينام على مقعدها المتحرك إلى المقصورة العالية لمكتبها. وبعد أن فتحت الباب المغلق بالرتاج وجلست إلى مكتبها، انسحب أرميا -كالمعتاد- ووقف على أهبّة الاستعداد خارج الباب. ثم دخل الابن قائلاً:

- هل أنت أحسن حالاً يا أماه؟

فهزت رأسها وقالت بنفس اللهجة المترفة التي تحدثت بها الليلة السابقة عن الجو:

- إنني لن أكون في يوم ما أحسن حالاً. ومن الخير لي يا آرثر أن أعلم هذه الحقيقة وأحتملها.

وكانت وهي جالسة إلى المكتب، مريحة يديها على سطحه، والمقصورة ترتفع فوقها عالية، تبدو كأنها تعزف على أرغن كنيسة أبكم. هكذا كان يفكر ابنها -وكانت تلك فكرة قديمة لديه- وهو يتخذ مجلسه بجوارها.

وفتحت درجاً أو اثنين، ونظرت في بعض الأوراق الخاصة بالأعمال، ثم أعادتها إلى مكانها. ولم يكن في وجهها الصارم أية ومضة من الرفق يستطيع الباحث عن طريقها أن يتلمس طريقه في أعماق أفكارها المظلمة.

وقال آرثر:

- هل أتحدث عن شؤوننا يا أماه؟ ألديك ميل للحديث عن العمل؟

- ألدي ميل يا آرثر؟ طبعاً، طبعاً. لقد مات والدك منذ عام أو أكثر، وبقيت أنا منذ ذلك الحين في انتظار تشريفك لنا بالحضور.

- لقد كان ثمة أعمال كثيرة يجب الانتهاء منها قبل أن أرحل، ولما رحلت، تجولت قليلاً هنا وهناك للراحة والاستجمام.

واستدارت بوجهها نحوه كأنها لم تسمع أو تفهم كلماته الأخيرة:

- للراحة والاستجمام!

وتلفتت في أنحاء الغرفة الكئيبة وقد بدا من خلجات شفتيها أنها تردد هذه الكلمات لنفسها وكأنها تجعلها تشهد على مدى حرمانها من أسباب الراحة والاستجمام.

وعاد الابن يقول:

- وعداً هذا يا أماه، فأنت المنفذة الوحيدة لوصية أبي، وصاحبة السلطة في إدارة الممتلكات. ومن ثم فلم يكن لي شيء تقريباً أقوم به قبل أن يتاح لك الوقت الكافي لترتيب شؤونك كما تحبين.

فقالت:

- لقد فرغت من جميع الحسابات. وها هي دفاترها هنا. وقد تم فحص جميع المستندات والتأكد من صحتها ثم الموافقة عليها. ويمكنك أن تفحصها عندما تريد يا آرثر.. الآن إذا شئت.

- يكفيني يا أماه أن أعلم أن هذه الإجراءات قد تمت. هل أبدأ في الحديث الآن؟

فقالت بلهجتها الجامدة:

- ولِمَ لا؟

- لقد ظلت الأحوال في بيتنا التجاري يا أماه تنحدر من سيء إلى أسوأ، واستمر الهبوط التدريجي في معاملاتنا، لأننا لم نكن نولي الناس ما ينبغي من الثقة، ولم نكن ندعو أحداً إلى موائدنا، ولم نحاول أن نوثق علاقاتنا بأحد. وكان المنهج الذي سرنا عليه يختلف تماماً عن المنهج السائد في هذه الأيام. ولهذا تخلفنا كثيراً عن غيرنا. ولن أطيل الحديث في هذا الأمر يا أماه، لأنك ولا شك على علم به.

فقالت بصوت الإنسان الملم بأعماله:

- نعم، أعرف ماذا تعني.

واستطرد الابن يقول:

- حتى هذا البيت العتيق الذي نتحدث فيه الآن، يصلح أن يكون مثلاً لما أقول. لقد كان في العهد الأول لأبي، وفي عهد عمّه، بيتاً من بيوت الأعمال، ومركزاً تجارياً هاماً. أما الآن فقد غدا شيئاً تافهاً لا يتفق مع العصر الحاضر، ولا يفي بأي غرض. لقد انتقلت جميع توكيلاتنا إلى أصحاب بيت روثنجهام، الوسطاء التجاريين ورغم كل مواهبك العملية التي كرستها في خدمة أبي لمنافسة هؤلاء الوسطاء، فقد استطاعوا أن ينتصروا عليك. ومع ذلك فقد كان من الممكن أن تؤثري بمواهبك هذه على مقدرات أبي حتى وأنت تعيشين بمفردك في بيت خاص.. أليس كذلك؟

فقالت دون أن تجيب عن سؤاله:

- أترى يا آرثر أن هذا المنزل لا يفي بأي غرض رغم أنه يؤوي أمك المريضة العاجزة.

- إنني أتحدث فقط من الوجهة العملية.

- وما هو الهدف.

- هذا ما سوف أوضحه.

فردت قائلة هي تركز نظراتها عليه:

- إنني أعرف سلفاً ما ستقول. ولكن حاشا لله أن أيأس أمام أية كارثة. إنني بخطايا أستحق كل ما يصيبني من غم مرير، وإني لأتقبله بنفس راضية.

- يحزنني يا أماه أن أسمعك تتحدثين هكذا، رغم أني كنت أتوقع أنك ستفعلين.

فقاطعته قائلة:

- كنت تعرف هذا؟ إنك تعرفني؟

فصمت ابنها برهة وقد أدرك أنه أثارها بعنف، ومن ثم اندهش.

ولكنها لم تلبث أن عادت إلى جمودها وقالت:

- حسناً. استمر. دعني أسمع ما تريد أن تقول.

- لقد كنت تتوقعين يا أماه أنني سأقرر من جانبي أن أنفض يدي من العمل، وهذا ما فعلت. وأنا لن أتكفل بتقديم النصيحة لك: ذلك لأني أرى أنك ستواصلين هذا العمل. ولو كان لدي أي تأثير عليك، لاستغللته في تخفيف حكمك عليّ لما أثرته في نفسك من السخط والشعور بخيبة الأمل، ولكي أوضح لك أنني عشت نصف حياة كاملة دون أن أتحدى إرادتك أبداً. ولا يمكنني القول إنني استطعت يوماً أن أكيّف نفسي، قلباً وروحاً، مع مبادئك. ولا يمكنني القول إني أعتقد أن سنواتي

الأربعين كانت بهيجة أو مفيدة لي أو لأي شخص آخر. وإنما تعودت دائماً على الخضوع؛ وأنا أرجوك فقط أن تتذكري هذا.

الويل للمتوسل -إن وجد واحد من هذا النوع- الذي يرجو أن يجيب توسلاته ذلك الوجه الجامد الرهيب في مقصورة المكتب. والويل للمتهم الذي يضع التماسه بين يدي قاضٍ له مثل هاتين العينين الرهيبتين. وما أعظم حاجة هذه السيدة المتحجرة إلى إيمانها الباطني المغلف في طيات الظلام، المحجوب وراء سحب سوداء تومض فيها بروق اللعنات والثأر والدمار. إن هذا الدعاء «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا» يعتبر في نظرها ضعفاً واستخذاءً أما هي فتقول: إسحق يا إلهي المسيئين إلينا، اقضِ عليهم، حطِّمهم. افعل بهم ما يمكن أن أفعله أنا لو استطعت، وعندئذ أعبدك. ذلك هو سلّم الإيمان الذي تصنعه من الصخر لكي ترقى به إلى السماء.

– هل انتهيت يا آرثر، أم هل لديك المزيد مما تريد أن تقوله لي. أعتقد أنه لم يعد لديك ما تقول. فقد كنتَ دائماً مقلّاً في الحديث، مكثراً في التفكير.

– لا يزال لديّ يا أماه ما أريد أن أقولك لك. لقد ظلّ يراود ذهني ليلاً ونهاراً مدة طويلة. وإن التحدث به أشق عليّ كثيراً مما سبق أن قلت. لأن حديثي حتى الآن كان عن نفسي، أما ما سأقوله فهو عنا جميعاً.

– عنا جميعاً؟ من تعني؟

– أنت وأنا وأبي المتوفى.

فسحبت يديها من سطح المكتب، وعقدتهما في حجرها، وجلست تنظر إلى ميزان المدفأة بذلك الاستغلاق المعروف عن تماثيل قدماء المصريين.

استطرد هو يقول:

- لا شك أنك تعرفين أبي أكثر جداً من معرفتي به. وكان تحفظه معي يقابله استجابته لك. وكنت أنت الأقوى جداً يا أماه، فكان قياده في يديك، وكنت وأنا طفل أعرف هذا كما أعرفه الآن. وكذلك كان استعلاؤك عليه السبب في رحيله إلى الصين ليشرف على العمل هناك، بينما بقيت أنت للإشراف عليه هنا -هذا رغم أني لا أعرف حتى الآن ما إذا كانت تلك هي الشروط الحقيقية للانفصال التي وافقت عليها أم لا- وأنها كانت رغبتك أنت في أن أبقى معك حتى أبلغ العشرين من عمري، ثم أرحل إلى أبي كما حدث. وأرجو ألا تغضبي وأنا أتذكر هذا كله بعد عشرين عاماً.

- إنني في انتظار أن أسمع لماذا تتذكر هذا كله.

فخفض صوته وهو يقول في هيئة الذي يتحدث رُغماً عنه وعلى غير إرادته:

- أريد أن أسألك يا أماه ألم يخطر ببالك أبداً أن ترتابي..

وعند كلمة «ترتابي» أدارت نظراتها على ابنها لحظة وقد زوت ما بين حاجبيها. ثم تركت النار تندلع من عينيها كما حدث من قبل، ولكن مع التجهم المعقود فوقهما، وكأنما تعمد التمثال المصري القديم أن يحفر على الحجر هذه الأمارات من التجهم لتبقى أجيالاً بعد أجيال.

واستطرد هو في الحديث قائلاً:

- في أنه كانت له ذكريات سرية أشاعت الاضطراب في نفسه من فرط الندم؟ ألم تلاحظي أي شيء في تصرفاته توحي بذلك؟ أو ألم تتحدثي معه إطلاقاً في هذا الشأن، أو ألم يلمِّح هو قط إليك بشيء كهذا؟

فردت قائلة بعد برهة صمت:

- إنني لا أفهم أي نوع من الذكريات السرية التي تعني بها في حديثك إلى أن أباك كان ضحية له. إنك تتحدث في غموض شديد.

فمالَ ابنها إلى الأمام ليكون أقرب إليها وهو يهمس لها بالحديث واضعاً يده المضطربة على سطح المكتب:

- أيمكن يا أماه.. أيمكن أن يكون -لسوء الحظ- قد أذنب في حق أحد دون أن يكفِّر عن ذنبه!

فراحت تحملق فيه بغضب شديد وهي تتراجع في مقعدها لتظل بعيدة عنه، ولكنها لم تردّ عليه.

واستطرد هو في الحديث قائلاً:

- إنني مدرك كل الإدراك يا أماه أنه إذا كانت هذه الفكرة لم تخطر ببالك قط، فلا شك أن إشارتي إليها -حتى فيما بيننا فقط- تبدو مني أمراً قاسياً وغير طبيعي. ولكنني لا أستطيع أن أتحرر منها. إن الزمن وصروف الحياة لم يفعلا شيئاً للتخفيف منها رغم كل ما بذلت من محاولات. تذكري، لقد كنت مع أبي. تذكري، لقد رأيت وجهه حين وضع الساعة في عهدتي باذلاً جهده ليعرب لي أنه يريد أن يرسلها إليك كرمز سوف تفهمينه. تذكري، لقد رأيته أخيراً والقلم في يده الواهنة يحاول أن يكتب إليك كلمات تقرئينها، ولكنه لم يستطع أن يخط هذه الكلمات بشكل مقروء. وكلما بدا لي هذا الشك بعيداً وقاسياً، ازددت إحساساً بقوة الظروف التي تجعل ما أشك فيه أكثر احتمالاً. وإني أناشدك الله أن توافقيني على البحث الجدي عما إذا كان أبي قد أراد أن يعهد إلينا أن نكفر عن ذنب ارتكبه. فليس هناك من يستطيع أن يعاون في هذا الأمر إلا أنت يا أماه.

وكانت في تكوّمها على نفسها فوق المقعد ذي العجلات الذي راح يتحرك قليلاً تحت ضغط ثقلها، تبدو كشبح رهيب المظهر ينطلق

بعيداً عنه. وكانت قد رفعت ذراعها اليسرى واعتمدت بمرفقها على المائدة، وجعلت ظاهر يدها نحو وجهها في وضع يجعلها -أي اليد- بينها وبين ابنها، ثم راحت تحملق في وجهه في سكون تام.

وعاد آرثر يقول:

- لقد بدأت أفكر، ولا بد لي من التفكير في مثل هذه الأمور يا أماه، في أن أبي في أثناء تكالبه على المال، واندفاعه وراء الصفقات، ربما ارتكب في حق أحد خطأً جسيماً أدى إلى خراب بيته. وقد كنتِ أنتِ القوة المحركة لجميع شؤونه العملية قبل أن أولد. وقد ظلت روحك القوية هي العامل المسيطر على جميع معاملات أبي أكثر من عشرين عاماً. وأرى أن في مقدورك الآن أن تضعي حداً لشكوكي بالمعاونة على الوصول إلى الحقيقة. فهل ستفعلين يا أماه!

وأمسك عن الحديث وهو يأمل أن يسمعها تتحدث. ولكن شعرها الرمادي المفروق نصفين لم يكن أثبتَ في جموده من شفتيها المزمومتين.

ومضى في حديثه قائلاً:

- لو أمكن أن نعوِّض أحداً أو نعيد إلى أحد حقوقه، فدعينا نعرف هذا ونفعله، بل لو كان هذا في حدود قدرتي المالية الخاصة فدعيني يا أماه أقم به بمفردي. لقد رأيت بنفسي أية سعادة تافهة يمكن أن يجلبها المال. إن ما جلبه المال من شقاء على هذا البيت، وعلى كل من ينتمي إليه، جعلني أدرك أن قيمته بالنسبة لي أصبحت أقل كثيراً مما هي بالنسبة لغيري. إنه لا يأتيني إلا بالندم والألم طالما يأكلني الشك في أنه أشقى ساعات أبي الأخيرة بالندم ووخز الضمير، وفي أنه ليس لي بطريق الأمانة والشرف.

وكان ثمة سلك جرس معلق على الجدار المبطن بألواح خشب، على مسافة ياردتين أو ثلاث من مقصورة المكتب. وبحركة سريعة مفاجئة

من قدمها، دفعت السيدة العجوز بالمقعد المتحرك إلى الوراء نحو الجرس وجذبته بشدة وهي لا تزال ترفع يدها كالدرع بينها وبين ابنها كأنما هو يهم بضربها، وكأنما هي تدفع الضرب عن نفسها.

وأقبلت إلى الغرفة فتاة مسرعة خائفة؛ فقالت لها السيدة كلينام:

- أرسلي فلنتونش إليّ.

وفي لحظة كانت الفتاة قد انسحبت، وكان العجوز فلنتونش قد أصبح داخل الغرفة يقول وهو يمسح على وجهه ببرود:

- أوه، لقد أمسك كل منكما بخناق الآخر فعلاً كما أرى. لقد توقعت هذا، وكنت جد واثق منه.

فقالت الأم:

- فلنتونش، انظر إلى ابني.. انظر إليه.

فقال فلنتونش:

- حسناً.. إنني ناظر إليه.

وهنا بسطت يدها التي كانت تحمي بها نفسها، ثم أردفت قائلة وهي تشير إلى هدف غضبها:

- إنه في ساعة وصوله، بل وقبل أن يجف الوحل عن حذائه، يحاول أن يلوّث ذكرى أبيه في ذهن أمه! إنه يطلب من أمه أن تغدو معه جاسوسة على معاملات أبيه في أثناء حياته! إنه مليء بالشكوك في أن أطايب الحياة التي جمعناها بالعرق في الشباب وفي الشيخوخة، والتي سكبنا فيها الكثير من الجهد والدموع والكفاح وإنكار الذات، ليست إلا غنائم وأسلاباً، ومن ثم يطلب مني أن أدلّه على الأشخاص الذين يجب تعويضهم وردّ الحقوق إليهم والتكفير عن أخطائنا في حقهم.

ورغم أنها كانت تتحدث في غضب هائل إلا أن صوتها في أثناء الحديث كان أبعد ما يكون عن الانفعال، بل كان أكثر انخفاضاً عن المعتاد، ولكنه كان يتميز مع ذلك بوضوح شديد.

وعادت تقول:

- تكفير! نعم، حقاً! إن من السهل عليه أن يتحدث عن التكفير وهو الذي جاء أخيراً بعد التجول والتنقل في البلاد الأجنبية حيث كان يحيا حياة البطالة والترف. ولكن لينظر إليّ، وأنا هنا أسيرة السجن والقيود. إنني أتحمل هذا بلا أقل شكوى، لأنه مُقدَّر عليّ أن أكفِّر عن سيئاتي. تكفير! أليس في هذه الغرفة شيء منه! هل كان هنا شيء آخر غيره طوال خمسة عشر عاماً!

هكذا كانت تسوِّي معاملاتها دائماً مع مملكة السماء، فتودع أرباحها لحسابها، وتحتفظ برصيدها بلا هوادة، وتطالب بكل مستحقاتها. وكانت بارعة في هذا كل البراعة لما تبذله في هذا السبيل من جهد وإصرار، وإن هناك في الحياة آلافاً بعد آلاف من الناس يفعلون هذا كل يوم بوسائلهم المختلفة.

- فلنتونش.. أعطني هذا الكتاب.

وناولها الرجل العجوز الكتاب من فوق المائدة، ووضعت هي إصبعين بين أوراقه، وأغلقته عليهما، ورفعته على ابنها في هيئة تهديد وهي تقول:

- في الأيام السوالف يا آرثر، ورد في هذا الكتاب التفسيري ذكر رجال أتقياء مقربين إلى الله، كان من الممكن أن يلعنوا أبناءهم بسبب إساءة أقل من إساءتك هذه إليّ؛ كان من الممكن أن يحرموهم، ويحرموا جميع من ينصرهم أو يؤيدهم، من رحمة الله والناس حتى يهلكوا، وحتى

لو كان بين هؤلاء الأبناء أطفال رُضّع ولكنني فقط أقول لك إنك إذا تحدثت معي يوماً في هذا الموضوع مرة أخرى فسوف أبرأ منك، سوف أطردك من هذا الباب طرداً يجعلك تتمنى لو أنك عشت بغير أم منذ ولادتك. إنني عندئذ لن أراك أو أعرفك بعد ذلك قط وإذا حدث مع هذا كله أنك جئت إلى هذه الغرفة المعتمة لتكون بجانبي وأنا على فراش الموت، فإن جسدي سوف ينزف دماً -إذا استطعت أن أجعله ينزف- عندما تقترب منه.

ثم أعادت الكتاب إلى الرجل العجوز والتزمت الصمت وقد هدأت نفساً بهذا التهديد من ناحية، ومن ناحية أخرى لشعورها بأن ما فعلته يدخل في نطاق الإجراءات الدينية - رغم ما في هذا الشعور من وحشية.

وقال أرميا:

- هل تسمحان لي أن أسأل الآن -على أساس أني لا أتدخل بينكما وإنما على أساس استدعائي وجعلي ثالثكما- ما معنى هذا كله؟

فقال آرثر حين وجد أن عليه هو أن يجيب:

- دع الأمر يقف عند هذا الحد حتى لا تنال نصيبك من أمي. إن ما قلته قد قلته لأمي فقط.

فردّ العجوز قائلاً:

- أوهٍ من أمك؟ أنال نصيبي من أمك؟ حسناً. ولكن أمك ذكرت في حديثها أنك ترتاب في أبيك. وهذا لا يليق يا آرثر، وإلا فمن يا ترى سوف ترتاب فيه بعد ذلك.

فقالت السيدة كلينام وقد أدارت وجهها حتى أصبح مقابلاً لوجه الرجل العجوز فقط:

- كفى حديثاً عن هذا الموضوع.

فردّ العجوز بإصرار:

- أجل. ولكن مهلاً.. مهلاً. لنحدد موقفنا أولاً، هل قلت للسيد آرثر إنه لا ينبغي أن يسيء إلى ذكرى أبيه، وإنه لا حق له في أن يفعل هذا، وأن ليس ثمة أساس قط لما يقول؟

- إنني أقول له هذا الآن.

فقال الرجل العجوز:

- آه، تماماً. إنك تقولين له هذا الآن. لأنك لم تقولي له هذا من قبل، وإنما تقولينه له الآن. أجل، أجل! هذا صحيح. إنك تعلمين كم وقفت بينك وبين زوجك، وإنه ليخيل لي أن الموت لم يغيِّر من الأمر شيئاً، وأنني ما زلت أقف بينكما. وهذا ما سأفعله، وهذا ما يحق لي أن أطالب به. آرثر، يحسن بك أن تسمع أنه ليس لك أي حق في أن ترتاب في والدك، وأنه ليس هناك أي أساس يبرر هذا الارتياب.

ووضع يديه على مقبضي المقعد الخلفيين، وغمغم لنفسه وهو يدفع بسيدته ليعيدها إلى غرفة نومها؛ ثم قال لها بعد أن وقف وراءها:

- والآن، أرى أنكما تحدثتما عن نصف الموضوع فقط.. وقد أنصرف الآن ثم أُدعى عندما تثورين في أثناء الحديث عن النصف الآخر. ألم يخبرك آرثر عما ينوي أن يفعل بشأن العمل.

- لقد نفض يديه منه.

- لا لفائدة أحد كما أظن.

فنظرت السيدة كلينام إلى ابنها الذي كان معتمداً إلى إحدى النوافذ. ولما لمح نظرتها إليه، قال:

- لقد تركت شؤون العمل لأمي طبعاً، ويمكنها أن تفعل ما يسرّها.

فقالت بعد برهة صمت:

- إذا كان ثمة سرور يمكن أن ينبع من خيبة أملي في ابني الذي كنت أتوقع أن يجدد بشبابه، شباب العمل، وأن يبعث فيه القوة، وأن يرتفع به إلى مناطق النفوذ والإثراء، فإنما هو سرور الاستعانة بخادم عجوز مخلص. أرميا، لقد تخلى الربان عن سفينته، ولكننا -أنت وأنا- سوف نقودها إما إلى النجاة وإما نغرق معها.

وأبرقت عينا أرميا كأنما وقعت نظراته على مال كثير وهو يرسل فجأة نظرة خاطفة إلى الابن وكأنما يقول له: «إنني لا أدين لك بأي فضل في هذا الشأن لأنك لم تفعل شيئاً في هذا السبيل». ثم قال للأم إنه يشكرها، وإن آفري تشكرها، وإنه لن يتخلى عنها أبداً، وإن آفري لن تتخلى عنها أيضاً. وأخيراً أخرج ساعته من أعماقها وقال:

- الحادية عشرة. موعد وجبتك من المحار.

وبهذا التغيير في الموضوع الذي لم يشمل أي تغير في السلوك أو التعبير، صلصل الجرس.

ولكن السيدة كلينام -وقد قررت أن تقسو على نفسها لاتهام ابنها لها بأنها لا تعرف معنى التكفير- أبت أن تأكل المحار عندما قُدِّم إليها. وكانت حبات المحار الثماني تبدو شهية مغرية وهي موضوعة في شكل دائرة على طبق أبيض فوق صينية مغطاة بمفرش أبيض، تحيط بها شرائح من الخبز الفرنسي المدهون بالزبد، وكأس من البلور بها مزيج مثلج من الماء والخمر. ولكنها رفضت كل هذه المغريات، وأعادتها، مضيفة بهذا العمل المزيد من الحسنات في رصيدها يوم الحساب.

ولم تكن هذه الوجبة من المحار قد قُدِّمت وأُعيدت على يدي آفري، وإنما على يدي الفتاة التي أقبلت حين صلصل الجرس. إنها نفس

الفتاة التي لمحها في الركن المعتم بالغرفة في الليلة السابقة. أما وقد أتيحت له الفرصة الآن أن يراها بوضوح، فقد وجد أن جسمها الضئيل، وملامحها الدقيقة، وثوبها الفضفاض قليلاً، كل هذا قد جعلها تبدو أصغر سناً مما هي في الواقع. إنها في الواقع فتاة ناضجة -قد لا يقل عمرها عن اثنين وعشرين عاماً- ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يحسبها الإنسان وهي تسير في الشارع صبية في نصف هذا العمر. ولا يعني هذا أن وجهها كان يبدو صغيراً جداً، بل كان في الواقع ينم عن أمارات من الاهتمام والقلق أكثر مما يتفق وطبيعة هذه المرحلة من عمرها. وقد بلغ من صغر حجمها، وخفة حركتها، وسكونها وحيائها، وعدم إحساسها بشذوذ وضعها بين هؤلاء العجائز الثلاث، أن تجمعت فيها كل مظاهر الطفلة الهادئة الرقيقة.

أما السيدة كلينام فقد كانت ترعى هذه الفتاة بطريقة جافة هي مزيج من العناية والضغط، وكانت عواطفها نحوها كقطرات الماء المنسابة من صنبور عليه ضغط مائي عنيف، وحتى عند لحظة دخولها بعد أن صلصل الجرس بعنف شديد، وعندما كانت الأم لا تزال ترفع يدها أمامها كأنها تحمي نفسها من ابنها، فقد أطلت من عيني السيدة كلينام نظرات ذات معانٍ خاصة كأنها مختزنة للفتاة فقط. وكما يوجد في أصلب المعادن درجات مختلفة من الصلابة، وفي السواد نفسه ألوان متدرجة من السواد. كذلك كان الحال مع السيدة كلينام في صرامتها بالنسبة للناس جميعاً من جهة وبالنسبة للصغيرة دوريت من جهة أخرى، كان ثمة درجات دقيقة جداً في هذه الصرامة.

وكانت دوريت الصغيرة تكسب رزقها من الحياكة وشغل الإبرة. وكانت تؤجر نفسها لهذا العمل كل هذا الوقت الطويل -أو القصير- الذي يبدأ من الثامنة وينتهي في الثامنة. وكانت دقيقة في مواعيدها، تظهر في اللحظة المحددة، وتختفي في اللحظة المحددة. أما ما تفعله دوريت الصغيرة فيما بين الثامنة والثامنة، فهو سر لا يعرفه أحد.

وثمة ظاهرة مادية في حياة دوريت الصغيرة. فبجانب أجرها المالي، كان عقد عملها اليومي يشمل وجبات الطعام، وكان لديها نفور شديد من تناول الطعام مع غيرها. وما كانت لتتناوله مع أحد قط لو أمكنها ذلك. ومن ثم كانت تعتذر دائماً بأن لديها هذا الجزء من العمل لتبدأه أولاً، أو ذاك الجزء لتفرغ منه أولاً، وكانت دائماً تفكر وتدبر بلا دهاء شديد كما يلوح أنها لم تكن تخدع أحداً لكي تتناول الطعام بمفردها. فإذا نجحت في هذا، حملت طبق طعامها وهي سعيدة إلى أي مكان لتعمل من حِجْرها مائدة، أو من صندوق، أو من الأرض، بل كانت -في بعض الظن- تقف على أطراف أصابعها وتتناول طعامها في تواضع بعد أن تضعه على رف المدفأة. فإذا فرغت من هذا شعرت أن أشد ما يقلقها طيلة اليوم قد زال.

ولم يكن من السهل أن تتبين تماماً وبكل وضوح ملامح دوريت الصغيرة. فقد كانت تحرص دائماً على أن تعمل بشغل الإبرة في عزلة وفي الأركان البعيدة، وإذا التقت فجأة بشخص ما على السلّم، جفلت بشكل واضح. إلا أن وجهها كان يبدو شاحباً شفافاً سريع التعبير؛ ولم يكن جميل الملامح فيما عدا العينين الرقيقتين العسليتين. وكانت دوريت الصغيرة في مجموعها وهي جالسة إلى عملها عبارة عن رأس صغيرة رقيقة منحنية، وجسم صغير، ويدين عاملتين سريعتي الحركة، وثوب رث -ولا بد أن يكون كذلك بسبب ظروفها المادية- ولكنه نظيف.

كان آرثر كلينام يدين بمعرفة كل هذه المعلومات الدقيقة أو العامة عن دوريت الصغيرة إلى ما شاهده بعينيه طيلة اليوم، وإلى لسان السيدة آفري. ولو كانت للسيدة آفري أية إرادة قوية أو أسلوب خاص في الحياة، لكان ذلك في غير مصلحة دوريت الصغيرة على الأرجح. ولكن بما أن «هذين الشخصين البارعين» -كما تشير السيدة آفري دائماً إلى زوجها

وسيدتها اللذين ذابت شخصيتها فيهما تماماً- قد وافقا على تقبّل دوريت الصغيرة كشيء طبيعي، فلم يكن أمامها إلا أن تحذو حذوهما ولم يكن الحال ليختلف لو أن هذين الشخصين البارعين قد اتفقا على قتل دوريت الصغيرة حرقاً بالقنديل، فإنها ما كانت لتتردد عن أن تمسك لهما القنديل بيديها إذا طُلِب منها ذلك.

وكانت السيدة آفري قد أدلت بتلك المعلومات السابق ذكرها في الفترات الواقعة بين قيامها بشوي طائر البارتريدج لسيدتها المريضة وبين إشرافها على صنع طاجن من اللحم البقري مع صنف من الحلوى لغرفة الطعام في البيت. وكانت بين الحين والآخر تطل عليه برأسها من الباب وتحثه على مقاومة هذين الشخصين البارعين والتصدي لهما. وكان يلوح أنه قد استبدّ بالسيدة فلنتونش إحساس عنيف يدفع بها إلى العطف على هذا الابن الوحيد ضد هذين الاثنين.

وفي أثناء ذلك اليوم أيضاً، جاس آرثر خلال البيت كله. وقد وجده مظلماً مثيراً للملل. وكانت الغرف الواسعة المهجورة سنوات بعد سنوات تبدو كأنها استغرقت في سبات كئيب لا يمكن أن تصحو منه بعد ذلك. والأثاث الذي كان قليلاً مهملاً، بدا كأنه مخبوء في الغرف بدلاً من أن يكون مفروشاً فيها. ولم يكن ثمة لون في كل أنحاء البيت. وإذا كان هذا اللون موجوداً فيما مضى من الزمن الغابر، فلا شك أنه رحل مع ضوء الشمس المفقود، وربما ترك نفسه يتحلل ويتحول إلى أزهار أو فراشات أو ريش طيور أو أحجار كريمة أو ما إلى هذا. ولم يكن في المنزل كله من أساسه إلى سطحه طابق واحد على استواء. وكانت ذرات الغبار والدخان قد رسمت في أسقفه زخارف وتهاويل عجيبة بحيث قد تستطيع العجائز من النساء أن يقرأن فيها الطالع أفضل مما يقرأن في بقايا الشاي. ولم يكن في المدافئ الباردة الخامدة أية آثار تنم عن أنها أُضرِمت

ألبتة، وإنما كانت بها فقط أكوام صغيرة من الرماد المتساقط من المداخن، وكانت هذه الذرات من الرماد تتناثر وتتجمع في أركان الغرف كلما هبّت عليها لفحات من الهواء عندما يفتح هذا الباب أو ذاك. وفي الغرفة التي كانت فيما مضى مخصصة للاستقبال تجد فيها مرآتين عجفاوين تدور بإطار كل منهما تماثيل صغيرة لشخوص آدمية تحمل أكاليل سوداء من الزهر. حتى هذه التماثيل كانت تنقصها الرؤوس والسيقان. وكان أحدهما -الذي يرمز لكيوبيد- قد دار على محوره وانقلب رأساً على عقب، بينما سقط آخر تماماً. وقد ظلت الغرفة التي كان والد آرثر المتوفى يدير منها أعماله -كما كان يذكر في طفولته- دون أن يتغير فيها شيء بحيث يمكن أن يتخيل الإنسان أنه لا يزال مقيماً فيها بروحه، كما تقيم زوجته في غرفتها العليا بجسمها، وأن أرميا لا يزال يعمل حلقة اتصال بينهما. وكانت صورته القاتمة الكئيبة المعلقة على الجدران في سكون وصمت، المطلة بنظراتها على الابن كما كان يفعل الوالد قبل مفارقته الحياة، تبدو كأنها تستحثه للاستمرار في أداء المهمة التي حاول القيام بها مع أمه. ولكنه لم يعد يأمل قط في أن تلين أمه أو تستجيب لرغبته، كما أنه لا يعرف وسيلة أخرى يستطيع بها أن يضع حداً لشكوكه، ومن ثم فقد فَقَد الأمل في هذا الأمر منذ فترة طويلة. وفي أقبية المنزل وغرف التخزين، كما هو الشأن في الغرف العليا، كانت الأشياء القديمة التي يتذكرها بوضوح لا تزال باقية في أماكنها القديمة وإن كان الزمن قد ترك آثاره عليها. حتى دنان الجعة الفارغة المكسوة بنسيج العناكب، وزجاجات الخمر الفارغة التي تكاد أن تختنق بالنباتات الفطرية المتكاثرة في حلوقها. وهناك أيضاً، بين فتاحات الزجاجات المهملة، وخيوط الضوء الشاحب المتسلل من الفناء، كانت الخزانة الحديدية المحتوية على دفاتر الحسابات، تتصاعد منها روائح العفن والنتن وكأنما يعمل في موازنة أرقامها، في الليل البهيم، كُتّاب حسابات بُعِثوا من عالم الموتى!

وبعد أن تم طهو طاجن اللحم، وُضِع على قطعة قماش منكمشة فوق طرف المائدة في تمام الساعة الثانية بعد الظهر. ولما فرغ آرثر من تناول الغداء مع السيد فلنتونش -الشريك الجديد- أخبره هذا أن أمه قد استعادت هدوء نفسها، وأنه لم يعد ثمة ما يخشاه منها بسبب ما حدث بينهما في الصباح ثم أضاف أرميا إلى هذا قوله:

- ولكن لا تسيء مرة أخرى إلى ذكرى والدك يا مستر آرثر. لتكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة؛ ولنعتبر هذا الموضوع منتهياً.

وكان السيد فلنتونش قد بدأ يعيد ترتيب وتنظيف غرفة مكتبه الصغيرة كأنما يعدّها لشرف منصبه الجديد. وقد استأنف هذه العملية بعد أن شبع من اللحم البقري، وبعد أن جمع بقايا الدهن من جوانب الطاجن الداخلية وأكله وبعد أن شرب الكثير من الجعة الخفيفة من دن صغير في المخزن. وعلى هذا النحو من الامتلاء والانتشاء، شمّر أكمامه وعاد إلى العمل مرة أخرى. ولما رآه آرثر على هذه الحال أدرك أن الحديث معه قد يجدي إذا أجدى الحديث مع صورة أبيه أو مثواه.

ولما لمح فلنتونش زوجته تعبر الصالة، قال لها:

- آفري أيتها المرأة. إنك لم تكوني قد أعددت بعد فراش السيد آرثر عندما رأيت غرفته آخر مرة. هيا تحركي بنشاط.

ولكن السيد آرثر وجد المنزل كئيباً مملاً، وبما أنه لم يكن راغباً في أن يعاون على استجابة السماء لدعاء أمه على أعدائها -ولعله يكون منهم- لكي يصيبهم الموت والدمار، فقد أعلن عن رغبته للإقامة في مشرب القهوة حيث ترك متاعه، ولم يجد في تحقيق هذه الرغبة أي مشقة، لأن السيد فلنتونش رحَّب بفكرة التخلص منه ولم يكن يهم أمه إلا اعتبارات التوفير في نفقات المنزل المتعلقة بكل ما هو خارج حدود غرفتها. وتم الاتفاق على تحديد ساعات العمل اليومي التي ستكرسها أمه والسيد فلنتونش

وهو للعمل معاً على مراجعة الحسابات والمستندات التي لا مناص من مراجعتها. وهكذا غادر البيت الذي اهتدى إليه أخيراً، بقلب حزين.

ولكن ماذا عن دوريت الصغيرة!

لقد استمرت ساعات العمل خمسة عشر يوماً. وكانت تبدأ من العاشرة صباحاً حتى السادسة مساءً، تتخللها فترات كانت السيدة كلينام تتناول فيها وجبات خفيفة من المحار ومن البارتدريج، وكان آرثر يقضيها في التجول قليلاً خارج البيت. وكانت دوريت الصغيرة أحياناً تقوم بشغل الإبرة، وأحياناً لا تعمل، وفي بعض الأحيان تبدو كزائرة متواضعة، وذلك في الأوقات التي يحضر فيها آرثر إلى البيت. وقد ظل فضوله بشأنها يزداد يوماً بعد يوم وهو يترقبها، سواء رآها أو لم يرها، دون أن يكف عن التفكير في أمرها. وقد تعوّد أخيراً –بسبب الفكرة المتسلطة عليه بشأن ماضي أبيه وما قد يكون فيه من أخطاء– أن يحدِّث نفسه عن احتمال وجود علاقة ما بين هذه الفكرة وبين دوريت الصغيرة. ومن ثم قرر أن يزداد إلماماً بقصة حياتها.

* * *



والد سجناء مارشاليزا



كان سجن مارشاليزا يقوم -منذ ثلاثين عاماً- في دائرة ساوثوورك الانتخابي، على الجانب الأيسر من الطريق المؤدي إلى الجنوب، وعلى مسافة يسيرة قبل كنيسة القديس جورج. وكان يقوم قبل ذلك بأعوام كثيرة، وظل قائماً بعد ذلك بضعة أعوام. ولكنه زال الآن، ولم يخسر العالم بزواله شيئاً ذا بال.

كان كتلة مستطيلة من البناية الشبيهة بالثكنات العسكرية. مقسَّماً إلى منزلين أغبرين متدابرين، ومن ثم لم يكن لأحدهما غرف خلفية. ويحيط به فناء ضيق يدور حوله سور من الجدران الغبراء المدببة من أعلى بأسياخ الحديد. وكان السجن في ذاته معقلاً حصيناً لسجن المدينين، ويضم في داخله سجناً للمهربين، أما المخالفون للقانون العام، والمتمردون على النُّظم والتقاليد الذين حُكِم عليهم بالغرامة وعجزوا عن الدفع، فكان المفروض أن يُسجَنوا وراء باب مصفح بالحديد، داخل سجن آخر يحتوي على زنزانة أو اثنتين، يفصله عن السجن العام الذي يجتر فيه المدينون آلامهم ممر مسدود لا يزيد اتساعه على ياردة ونصف ياردة.

نقول كان المفروض أنهم مسجونون هناك -لأن الزمن في الواقع- كان قد أناخ على الزنزانتين والممر المسدود، ومن ثم أصبح هذا

السجن الداخلي رديئاً بعض الشيء من الوجهة العملية، وإن كان من الوجهة النظرية على خير ما ينبغي دائماً.

ولعلنا نلاحظ مثل هذه الحالة الآن في الزنزانات الأخرى التي ليست جد محصنة، وفي الممرات الأخرى المسدودة التي ليست جد محكمة. ومن هنا كان المهربون يختلطون بالمدينين -الذين كانوا يستقبلونهم بالعناق- فيما عدا بعض الفترات المعينة التي يُقبِل فيها شخص ما لعمل إداري، ويجري نوعاً من التفتيش عن شيء لا هو يعرفه ولا يعرفه أحد غيره. وفي تلك المناسبات البريطانية الصميمة، يتظاهر المهربون -إن كان هناك أحد منهم- بالتمشي في زنزانتهم الحصينة أو في الممرات المسدودة بينما يتظاهر ذلك الشخص بأداء ذلك الشيء، ثم يخرج -حقاً هذه المرة- بمجرد أن يفرغ مما لم يقم به مسروراً بجودة الأعمال الإدارية في جزيرتنا هذه الصغيرة المحكمة.

وفي ذات يوم، أودع في سجن مارشاليزا هذا رجل مدين، له علاقة بهذه القصة قبل أن تشرق الشمس -بزمن طويل- على مرسيليا في ذلك اليوم الذي بدأت فيه قصتنا هذه.

كان في ذلك الحين رجلاً مهذباً متوسط العمر، لطيفاً جداً ووديعاً جداً وواثقاً جداً أنه سوف يخرج من السجن بعد دخوله فوراً. وكان لا بد أن يخرج فوراً لأن باب سجن مارشاليزا لم يكن يُغلق على رجل مدين ليس في الواقع مديناً. وكان قد أحضر معه حقيبة ملابس رأى أن الأمر لا يستحق أن يفتحها. إذ كان يرى أنه من الواضح جداً -كما كان غيره يرون هذا على حد قول السجّان- أنه سوف يخرج فوراً.

وكان رجلاً خجولاً عزوفاً عن الناس، وسيماً وإن كان لوسامته طابع نسائي، رقيق الصوت، مموج الشعر، غير ثابت اليدين، يزين الأصابع بالخواتم كما كانت العادة في تلك الأيام. وكانت يداه هاتان، في

نصف الساعة الأولى من دخوله السجن قد رفرفتا في قلق إلى شفتيه المرتعدتين نحو مائة مرة، وكان أشد ما يقلقه هو التفكير في زوجته.

وسأل السجّان قائلاً:

– أتعتقد يا سيدي أن الصدمة ستكون شديدة عليها إذا اضطرت للحضور إلى بوابة السجن في صباح الغد؟

وكان السجان قد عرف بالخبرة أن بعض الزوجات يصدمن، وبعضهن لا، وكانت الأكثرية في جانب «لا». ومن ثم قال ملتزماً جانب الحكمة:

– إن الأمر يتوقف على طبيعتها كما ترى.

– إنها رقيقة جداً، وقليلة الخبرة بالحياة في الواقع.

فقال السجان:

– إن هذا في غير مصلحتها.

فقال المدين:

– إنها قلما خرجت بمفردها. وهذا ما يحيرني كلما فكرت في كيف سيمكنها الحضور إذا كان عليها أن تحضر ماشية.

فقال السجان بفطنة:

– لعلها ستتخذ مركبة.

ورفرفت اليدان المضطربتان إلى الشفتين المرتعدتين وقال المدين:

– ربما. أرجو أن تفعل، فإنها قد لا تفكر في هذا.

فقال السجان وهو يقدم آراءه من فوق قمة مقعده الخشبي المرتفع العتيق كما لو كان يقدمها إلى طفل أثار كوامن عطفه وإشفاقه:

- وربما طلبت من أخيها أو أختها الحضور معها.

- ليس لها أخ أو أخت.

- ابن عم أو بنت خال، أو خادمة أو جارة شابة أو بائع الخضار.. أي واحد من هؤلاء.

قال السجان هذا حتى يمنع -مقدَّماً- أي اعتراض على آرائه.

وقال المدين:

- أخشى.. أعني أرجو أن تسمح لوائح السجن بحضورها مع الأولاد.

فقال السجان:

- الأولاد؟ واللوائح؟ يا للعجب، وليحفظك الله. إن لدينا هنا ملعباً للأطفال. عجباً! إن الملعب مليء بهم. كم عدد أبنائك؟

فقال المدين وهو يرفع يديه المضطربتين إلى شفته مرة أخرى وهو يدخل السجن:

- اثنان.

وتعقبه السجان بعينيه وهو يقول لنفسه: «وأنت الثالث، وأراهن أنك تعول زوجة أيضاً، وهذا يجعلكم أربعة وأراهن بنصف ريال على أن هناك آخر في الطريق، ومن ثم تكونون خمسة. وأراهن مرة ثالثة بسبعة شلنات ونصف على أن أحداً لن يعرف أيكما أضعف من الآخر، أنت أم الطفل الذي في الطريق!».

وكان السجان صادقاً في كل تفصيلات استنتاجه. فقد جاءت الزوجة في اليوم التالي ومعها طفل في الثالثة من عمره، وطفلة في الثانية، كما ثبت استنتاجه عن الابن الذي في الطريق.

وبعد أسبوع أو اثنين قال السجان للمدين:

- لقد صارت لك غرفة أليس كذلك؟

- أجل. وهي غرفة جيدة جداً.

- وهل سيرسلون إليك بعض الأثاث البسيط لفرشها؟

- إنني أتوقع أن أستلم من الحمّال بعض الأثاث الضروري بعد ظهر اليوم.

فسأله السجان قائلاً:

- وهل ستأتي الزوجة والطفلان للإقامة معك؟

- آه. نعم أعتقد أنه من الأفضل ألا نتشتت ولو لبضعة أسابيع.

- ولو لبضعة أسابيع.. طبعاً.

قالها السجان وهو يشيعه بنظراته مرة أخرى، ثم يومئ برأسه بضع مرات عندما غاب عنه.

إن ما أصاب هذا المدين من عناء كان بسبب شركة لا يعرف من أمرها شيئاً أكثر من أنه استثمر فيها مبلغاً من المال. ولما لم يستطع أن يوضح موقفه كشريك، بسبب بعض الإجراءات القانونية لإثبات الحقوق والاتفاقيات، وبسبب التسويات القانونية هنا وهناك، وبسبب الشكوك التي أحاطت ببعض الضمانات غير القانونية، وبسبب اختفاء بعض أموال الشركة بوسائل غامضة، وبسبب أنه لا يوجد على وجه الأرض أحد غير المدين يستطيع أن يوضح شيئاً واحداً من هذه الارتباطات المالية المتراكمة؛ بسبب هذا كله أودع الحبس مع المحاسبين والمراجعين الدهاة الخبيرين بألاعيب عمليات الإفلاس والعجز عن الدفع ليتلقى أسئلتهم بالتفصيل، وليحاول أن يوفّق في إجاباته. ولكن

كانت النتيجة أن الأمر ازداد غموضاً وارتباكاً. ومن ثم كانت رفرفة الأيدي المضطربة تزداد في حركاتها إلى الشفتين المضطربتين كلما حاول الإجابة عن شيء حتى يئس من أمره المراجعون الدهاة.

وقال السجان لنفسه: «يخرج! إنه لن يخرج أبداً إلا إذا مسك الدائنون بكتفيه ودفعوا به إلى الخارج».

وفي ذات يوم -بعد خمسة أو ستة أشهر- أقبل ذلك المدين مسرعاً إلى السجان وقال له بوجه شاحب وأنفاس لاهثة إن زوجته على وشك الولادة، فقال له السجان:

- هذا ما كان يتوقعه أي إنسان.

فقال المدين:

- لقد كنا ننوي أن نسافر غداً إلى مسكن في الريف. فماذا أفعل الآن، يا إلهي، ماذا أفعل الآن؟

فقال السجان الواقعي وهو يمسك بذراعه:

- لا تضيِّع وقتك في شبك يديك والعض على أصابعك. هيا تعالَ معي.

ومضى الحارس به، وهو يرتعد من قمة رأسه إلى قدميه ويهتف لنفسه هامساً: «ماذا أفعل يا إلهي» بينما أصابعه المضطربة تمسح الدموع عن وجهه، إلى أحد سلالم السجن، حيث صعدا إلى باب طابق المراقبة. ولما نقر الحارس على الباب، سمع صوتاً من الداخل يقول بحدة:

- ادخل.

وفتح الحارس الباب عن غرفة صغيرة حقيرة كريهة الرائحة، جلس فيها إلى مائدة تتأرجح على قوائمها الأربع رجلان يدخنان ويشربان الخمر.

وقال الحارس لأحدهما:

- دكتور. إن زوجة هذا السيد في حاجة إليك. بلا أدنى تأخير.

وكان صاحب الطبيب، من الوجهة الموضوعية، غليظاً، متأففاً، مربد الوجه، ممتلئاً بالتبغ والخمر والأقذار، وكان الطبيب من الوجهة المقارنة أكثر غلظة وتأففاً واربداد وجه، وامتلاء بالتبغ والخمر والقذارة. وكانت ملابسه تثير العجب برثائتها. إذ كان يرتدي سترة بحرية كالحة ممزقة ومرقعة، قصيرة الأكمام، مقطعة الأزرار. وكان في يوم ما الجراح البارع في سفينة ركاب، وكانت سراويله البيضاء أقذر سراويل يمكن أن تقع عليها عين بشرية، وفي قدميه «شبشب»، وليس ثمة ما يدل على وجود ملابس داخلية تحت السترة والسراويل.

قال الطبيب:

- أهي على وشك الولادة! إذن فأنا لها.

ثم تناول مشطاً من مدخنة المدفأة. ومشّط به شعره إلى الوراء، وكان يبدو أنه يعتبر هذه العملية بديلاً من غسيل اليدين والوجه، ثم تناول حقيبة طبية ذات منظر كريه من خزانة كان يضع فيها فنجانه وطبقه ونصيبه من الفحم، وبعد أن لفّ عنقه وذقنه بمطرقة القدر، أصبح في عالم الطب أقرب ما يكون إلى الأشباح!

وانطلق المدين والطبيب يهبطان السلم مسرعين تاركين الحارس ليعود بمفرده إلى مكانه في طريقهما إلى غرفة المدين. وكانت جميع النساء في السجن قد سمعن النبأ، فخرجن إلى الفناء. وكان بعضهن قد أخذن الطفلين فعلاً ورحن يحملهما بعيداً عن غرفة الأم، وتطوعت أخريات بتقديم بعض الكماليات البسيطة من ذخيرتهن القليلة على سبيل الإعارة والقرض، بينما اكتفت الباقيات بتقديم عطفهن في عبارات لا نهاية لها. أما

المسجونون الرجال، فقد آثروا حين وجدوا أنه لا شأن لهم بأمر كهذا أن ينسحبوا -ولا نقول- يتسللون إلى غرفهم. وقد وقف بعضهم في النوافذ يمتدحون الطبيب بالصفير وهو يمر بجوارهم، بينما أخذ آخرون، وهم الذين كانوا على مسافة عدة طوابق، يتبادلون بعض التعليقات اللاذعة على هذا الحدث.

وكان يوماً من أيام الصيف القائظ جعل غرف السجن الواقعة بين الجدران العالية كالفرن. وفي غرفة حبس المدين، كانت السيدة بانجام الخادمة الجوالة التي لم تكن مسجونة -رغم أنها كانت كذلك ذات يوم- وإنما كانت واسطة الاتصال العام بين المقيمين بالسجن والعالم الخارجي، قد تطوعت بخدماتها لصيد الذباب وللدعاية العامة. وكانت جدران الغرفة وسقفها مكسوة بالذباب. وكانت السيدة بانجام البارعة في المفاجآت تروِّح على المريضة بورقة كرنب، وتضع بيدها الأخرى فخاخ الذباب المصنوعة من السكر والخل في قنينات من الفخار. وفي الوقت نفسه كانت تصوغ عبارات لها طابع التشجيع والتهنئة الملائمة لمثل هذه المناسبة.

قالت السيدة بانجام:

- إن الذباب يضايقك يا عزيزتي، أليس كذلك؟ ولكن لعله يشغل تفكيره عما أنت فيه؛ وهذا لفائدتك. والواقع أن ذباب مارشاليزا يكبر ويسمن بسبب وفرة ما يتغذى به في أرض المقبرة، وفي حانوت البقالة، وفي مرابط الخيل، وتجارة الفضلات. ومن يدرينا! فلعله أُرسِل إلينا عزاءً لنا! كيف حالك الآن يا عزيزتي؟ لا تحسُّن؟ لا، فإن التحسُّن غير منتظَر يا عزيزتي. لسوف تزداد الحالة سوءاً قبل أن تتحسني، وأنت تعرفين هذا، أليس كذلك؟ نعم؟ حسناً جداً آه؟ من كان يظن أن يولد طفل صغير لطيف داخل جدران السجن؟ أليس هذا أمراً طريفاً يجعلك تتحملين آلام الولادة حتى النهاية؟ أجل. إنه لم يحدث أمر كهذا هنا منذ زمن بعيد لا أذكره. أوه، أوَتبكين أيضاً..

واستمرت السيدة بانجام تقول للمريضة لتزيد من مواساتها:

- تبكين وأنت ستصبحين مشهورة، والذباب يتساقط في المصيدة بالعشرات، وكل شيء يسير كما ينبغي! ثم هاهو ذا يقيناً..

قالت السيدة بانجام العبارة الأخيرة عندما فُتِح الباب، ثم استطردت قائلة:

- زوجك مع الدكتور هاجيدج. والآن أعتقد أن كل شيء قد أُعِدَّ على أكمل وجه.

ولم يكن للطبيب بأي حال ذلك المظهر الذي يثير في نفسية المريض الشعور بأن كل شيء قد تم إعداده. ولكن عندما أعرب عن رأيه «بأننا على خير ما يمكن أن نكون يا سيدة بانجام، ولسوف نخرج من هذا كما يخرج الناجون من منزل يحترق» وعندما شرع هو والسيدة بانجام في السيطرة على الزوجين المستسلمين كما كان يفعل بهما دائماً كل إنسان أو أي إنسان، فإن الأمور في مجملها بدت كأحسن ما يمكن أن تكون. وكانت الوسيلة الرئيسية لعلاج الدكتور هاجيدج لهذه الحالة هي إصراره على أن يصل بالسيدة بانجام إلى حافة السُّكْر، ومن ثم قال قبل أن يمضي على بقائه في الغرفة عشرين دقيقة:

- سيدة بانجام، اذهبي وابحثي عن قليل من الخمر، وإلا فسوف نضطر إلى علاجك من الانهيار.

فقالت السيدة بانجام:

- شكراً يا سيدي. ولكن لن يكون هذا على حسابي.

فردّ الطبيب قائلاً:

- سيدة بانجام. إنني الآن قوم بواجبي الطبي نحو هذه السيدة. ولهذا لا يجوز أن تسمحي لنفسك بمناقشتي. اذهبي وابحثي لنفسك عن قليل من الخمر وإلا فإني أتنبأ لك بانهيار عصبي.

فقالت السيدة بانجام وهي تنهض:

- على أن أطيعك يا سيدي. وإذا كنت تنوي أن تشرب معي، فأعتقد أن حالتك لن تزداد سوءاً أكثر مما هي الآن يا سيدي.

فردّ الطبيب قائلاً:

- سيدة بانجام! إنني لست في خدمتك وإنما أنت في خدمتي. شكراً. وأرجوك ألا تهتمي بأمري، إن ما عليك أن تفعليه، هو أن تنفذي ما يُطلَب منك. والآن اذهبي وافعلي ما أمرت به.

وأطاعت السيدة بانجام أمر الطبيب الذي شرب من الخمر نصيبه بعد أن أعطاها نصيبها. وكرر هذه الطريقة في العلاج بمعدل مرة كل ساعة بعد أن حزم أمره مع السيدة بانجام. وانصرمت ثلاث أو أربع ساعات. وتساقط الذباب في المصائد بالمئات. وأخيراً خرجت إلى الوجود حياة صغيرة لا تكاد تكون أقوى كثيراً من حياة الذباب المتساقط والذي لم يتساقط بعد.

وقال الطبيب:

- إنها طفلة جميلة صغيرة حقاً.. صغيرة ولكنها متكاملة. ماذا بك يا سيدة بانجام؟ إنك في حالة غير طبيعية. هيا أسرعي في هذه اللحظة وآتي بمزيد من الخمر وإلا فسوف تنهار أعصابك.

وخلال هذه الفترة كانت الخواتم قد بدأت تتساقط من أصابع المدين المضطربة، كما تتساقط أوراق الشجر في الشتاء. ولم يبقَ منها واحد في تلك الليلة وهو يضع أشياء لها خشخشة النقود في يد الطبيب القذرة. وفي الوقت نفسه كانت السيدة بانجام قد أُرسِلت في مهمة خاصة إلى مؤسسة مجاورة للاتجار في المصوغات الذهبية، وكانت معروفة هناك لكثرة ترددها عليها.

وقال الطبيب للمدين:

- شكراً لك.. شكراً. إن زوجتك الآن في حالة طبيعية، وهي تتحسن باستمرار.

فقال المدين:

- إنني شاكر جداً وسعيد جداً إذ أعرف هذا. ولكنني ما كنت أظن أن..

فقاطعه الطبيب قائلاً:

- أن تولد لك طفلة في مكان كهذا! وماذا في هذا يا سيدي؛ ما دلالته؛ إن كل ما تحتاج إليه هي رقعة صغيرة جداً في هذه الغرفة. نحن هنا في هدوء. لا يزعجنا أحد. وليس بالباب مطرقة يا سيدي يدق عليها الدائنون الذين يجعلون قلب المدين يقفز إلى فمه. ليس هنا من يأتي ليسأل هل صاحب المسكن موجود، ثم يقف على عتبة الباب حتى يعود. ليس ثمة من يكتب خطابات تهديدية بشأن المال في هذا المكان. إنها الحرية يا سيدي، الحرية. لقد مارست الطب هنا، وفي الخارج، وفي الجيش الزاحف، وعلى ظهور السفن. وسوف أقول لك هذا: إني لم أشعر بالهدوء والراحة يوماً في أثناء ممارستي عملي كما شعرت بهما اليوم هنا. إن الناس في الأماكن الأخرى متململون، قلقون، متعجلون للأمور، يتلهفون إلى الاهتمام بشيء ما، ثم يتلهفون إلى الاهتمام بشيء آخر. أما هنا، فلا شيء من هذا كله يا سيدي، لقد مررنا بكل هذا، وعرفنا أسوأ ما في الأمر. لقد وصلنا إلى القاع، فلم يعد ثمة مجال لمزيد من السقوط. فماذا وجدنا؟ السلام. هذه هي الكلمة الحقيقية.. السلام.

بمثل هذا الرأي اليقيني، عاد الطبيب المخمور أكثر من المعتاد وفي جيبه من النقود مبلغ غير عادي إلى صاحبه في الخلطة، وفي التأفف، وفي

اربداد الوجه وفي الامتلاء بالتبغ والقذارة والخمر. وكان الطبيب سجيناً قديماً، ومدمناً على الخمر.

أما المدين فكان شخصاً يختلف تماماً عن الطبيب. إلا أنه بدأ يسير -عن طريق القطاع المضاد في الدائرة- إلى هذا المستوى. فبعد أن كان يشعر بالدمار والانهيار تحت وطأة السجن، إذ سرعان ما وجد فيه لوناً من الراحة الممتزجة بالخمول. لقد كان محبوساً وراء باب مغلق، ولكن هذا الباب المغلق كان يحميه من متاعب كثيرة في الخارج. فلو أنه كان رجلاً يتمتع بإرادة قوية لمواجهة هذه المتاعب والتغلب عليها، لكان من الممكن أن يمزق هذه الشبكة التي تحيط به، أو يحطم قلبه. أما وهو كما هو، فقد راح ينزلق باضطرار وبطء على المنحدر الأملس دون أن يحاول قط أن يتقدم خطوة إلى أعلى.

وبعد أن استراح من معالجة هذه الشؤون المالية المربكة التي لم يكن ثمة قوة يمكن توضيحها، وهي الشؤون التي توالت وتراكمت عليه بوساطة نفر من العملاء والوكلاء المتابعين الذين لم يستطيعوا أن يعرفوا لها أو له بداية أو وسطاً أو نهاية وجد في هذا المكان التعس ملاذاً أكثر راحة مما كان يظن. وكان قد فتح حقيبة ملابسه وأخرج ما فيها منذ مدة طويلة، وإن طفليه الأكبرين يلعبان الآن بانتظام في الفناء، وكل من في السجن غدا يعرف بأمر الوليدة الجديدة ويطالب بنصيبه في ملكيتها.

قال له صديقه السجان ذات يوم:

- عجباً! إنني بدأت أفخر بك، لأنك عما قريب ستغدو أقدم نزيل هنا. إن سجن مارشاليزا لن يبقى على حاله إذا رحلت عنه أنت وأسرتك الصغيرة.

وكان السجان فخوراً به حقاً، ويتحدث عنه بعبارات الإعجاب والزهو مع النزلاء الجدد، من وراء ظهره. فكان يقول للنزيل الجديد مثلاً:

- هل لاحظت ذلك الذي خرج من غرفته الآن!

ويجيب النزيل، في أكبر الظن، بكلمة «نعم» وعندئذ يستطرد السجان قائلاً:

- لقد نشأ كإنسان مهذب، نعم، كأحسن ما يكون الإنسان المهذب. ونالَ من العمل بقدر ما يسمح به الثراء الوافر. وقد ذهب ذات مرة إلى بيت المارشال ليجرب له البيانو الجديد. ثم عزف عليه -كما فهمت- أجمل عزف. أما عن اللغات فهو يتحدث بكل لغة. لقد عاصر هنا رجلاً فرنسياً. وفي يقيني أنه يتقن الفرنسية أكثر من الرجل الفرنسي نفسه، وكذلك عاصر هنا رجلاً إيطالياً، وقد ألجمه وأفحمه في نصف دقيقة. إنك قد تجد بعض الشخصيات في سجون أخرى. وأنا لا أنكر هذا، ولكن إذا أردت أن تعرف أعظمهم شأناً في هذه المسائل التي ذكرتها لك، فيجب أن تأتي إلى مارشاليزا.

ولما بلغت صغرى أطفاله الثامنة من عمرها، ذهبت زوجته لزيارة صديقة فقيرة كانت مربيتها القديمة، في الريف، وماتت هناك. وكانت الزوجة قد أخذت طيلة مدة السجن تذوي تدريجياً بسبب ضعف صحتها الوراثي، وليس بسبب إقامتها في هذا المكان الذي لم يزعجها أو يزعج زوجها. وقد ظل بعد وفاتها معتزلاً الحياة في غرفته بالسجن أسبوعين. وقد تولى أحد معاوني المحامين أمره، وكان يقوم بالأعمال اللازمة في قضايا الإفلاس بالمحاكم، وتبنى مشروعاً لإصدار قرار بالعفو عنه وإطلاق سراحه، وجعل جميع المسجونين يوقعون عليه بالموافقة، فلما خرج من عزلته كان أكثر شيباً وكان شعره قد بدأ يشيب فعلاً. ولاحظ السجان أن يديه عادتا ترفرفان إلى شفتيه المرتعدتين مرة أخرى كما كان شأنهما عندما جاء أول يوم. إلا أنه تغلب على أحزانه خلال شهر أو شهرين؛ وخلال هذا كله كان أبناؤه يلعبون كالمعتاد في الفناء، مرتدين ملابس الحداد.

ثم حدث أن السيد بانجام -واسطة الاتصال المعروفة منذ مدة طويلة بين المسجونين والعالم الخارجي- أن فقدت زمام أعصابها، وأصبح كثيراً ما يعثرون عليها غائبة عن وعيها سُكْراً فوق الرصيد وسلّة مشترياتها مقلوبة، وباقي نقود عملائها ناقص. ومن ثم بدأ ابنه يخلف السيدة بانجام هذه، ويقوم بمهامها بطريقة واعية تجعله في داخل السجن سجيناً، وفي الشارع طليقاً.

ومرت الأيام والسنون، وبدأت صحة السجان تضعف، وتورم صدره، وتخاذلت ساقاه، ولهثت أنفاسه. وغدا مقعده الخشبي القديم المرتفع بعيداً عن متناوله كما كان يقول شاكياً، فكان من ثم يجلس في مقعد وثير له مسندان وَحَشْية، وكان في بعض الأحيان يلهث بأنفاسه فترة طويلة بحيث يعجز عن إدارة المفتاح في القفل إذا أراد أن يفتح الباب. وكان المدين عادة يفتحه له كلما اعتصرته إحدى هذه النوبات.

وفي ذات ليلة شتوية، قال السجان للمدين وهما جالسان في غرفة السجان التي كانت ممتلئة بالمسجونين، والتي كانت النيران في المدفأة تملؤها بالدفء:

- أنت وأنا أقدم النزلاء هنا. لقد سبقت إلى هنا بما يقرب من سبعة أعوام. ولن أبقى طويلاً. فإذا رحلت عن هذه البوابة إلى الأبد، فسوف تكون أنت والد سجن مارشاليزا.

وخرج السجان من سجن الحياة الدنيا في اليوم التالي، وترددت كلماته هذه في مجال الذكريات عنه وتكرر ترديدها. وتواترت الأقوال جيلاً بعد جيل -وقد يكون عمر الجيل في سجن مارشاليزا ثلاثة أشهر فقط- بأن ذلك المدين العجوز البائس ذا الأخلاق الوادعة والشعر الأبيض هو والد سجن مارشاليزا.

وصار يفخر باللقب. ولو أن مدعياً ظهر وراح يدعي ملكية هذا اللقب، لذرف المدين الدمع حزناً على محاولة حرمانه من حقوقه. وبدأ النزلاء يلاحظون فيه ميلاً إلى المبالغة في عدد السنين التي قضاها هناك. كان المفهوم بوجه عام أن عليك أن تختصر بعض سنوات مما يقول، لأنه أصبح مغروراً كما يقول أجيال المدينين العابرين بالسجن.

وكان جميع الوافدين الجدد يقدمون إليه. وكان هو شديد الحرص على اتباع هذا التقليد بدقة. وكان الأذكياء في السجن يقومون بمراسم التقديم في إسراف من الأبهة والأدب العميق، ولكنهم لم يكونوا بمستطيعين مهما حاولوا أن يفسدوا جو الوقار المحيط به. وكان يستقبلهم في غرفته المتواضعة، إذ كان يكره أن تجري عملية التقديم في الفناء بغير مراسم، لأن هذا من الممكن أن يحدث لأي شخص آخر. وكان يخلع عليهم نوعاً من العطف ويعرب لهم عن ترحيبه بهم في مارشاليزا. نعم.. لقد كان والد السجن حقاً، هكذا ترفق العالم وأطلق عليه هذا اللقب. وهكذا كان اللقب من حقه إذا احتاج هذا الحق إلى عشرين سنة لكي يثبت لصاحبه. وكان الأمر يبدو بسيطاً في البداية، ولكن كان في السجن صحبة طيبة من بين خليط النزلاء وفي مثل هذا المكان لا مناص من أن يكون هناك خليط، وكانت لهذه الصحبة الطيبة حسناتها.

ومن ثم لم يكن أمراً غير مألوف على مرّ الأيام أن تدفع الخطابات في بعض الليالي من تحت باب غرفته، وقد انطوت على ريال أو ريالين بين الحين والآخر، بل وربما على نصف جنيه في بعض الأحيان «إلى والد مارشاليزا مع تحيات زميل في طريقه إلى الخروج» وكان يتلقى هذه الهدايا كتقدير من معجبين إلى شخصية معروفة، وكان هؤلاء المرسلون يوقعون عباراتهم أحياناً بأسماء وهمية مثل: بريك، وبيلوز، وأولد جوزيري، ودايداويك، وسنوكز، وموبس، وكاتاواي، ودرجميث مان. ولكنه كان يعتبر هذا فساداً في الذوق، وكان يتألم منه بعض الشيء.

ولما بدأ هذا اللون من الرسائل يخف تدريجياً مع مرور الزمن، لأن بعض الخارجين كانوا -كما يلوح- يتعجلون الخروج قبل أن يبذلوا بعض الجهد ليتساووا مع غيرهم في أداء هذا الواجب، فقد وضع تقليداً يقضي بوقوف بعض الزملاء النزلاء في مكان معين من البوابة لكي يودعهم الخارج من السجن وكان هذا الخارج -المفرج عنه- بعد أن يصافح «الملاحظ»، يستدير قليلاً ويغلف شيئاً في قطعة ورق، ثم يعود ويهتف عليه، فيقول له هذا باسماً وهو يصطنع الدهشة:

- تناديني؟!

ثم يمضي «الملاحظ» إليه ويضيف قائلاً في لهجة أبوية:

- هل نسيت شيئاً؟ ماذا يمكن أن أصنع لك؟

وهنا يقول الزميل الخارج عادةً:

- لقد نسيت أن أترك هذا لوالد سجن مارشاليزا.

وعندئذ يرد الزميل «الملاحظ»:

- يا سيدي الكريم، لسوف يكون شاكراً لك جداً.

وتظل يد المدين المضطربة داخل جيبه إلى النهاية بعد أن يضع فيه النقود خلسة، ثم يدور في الفناء دورتين أو ثلاثاً حتى لا يدرك بقية النزلاء شيئاً مما حدث.

وقد حدث في ذات يوم بعد الظهر أن التقى بعد عودته من عملية «تكريم وتشريف» عدد كبير من الزملاء الخارجين، بزميل من الفقراء كان قد دخل السجن قبل ذلك بأسبوع من أجل مبلغ قليل من المال، وكان قد سوى الموضوع خلال ذلك اليوم بعد الظهر، وتقرر خروجه أيضاً. وكان مجرد عامل من عُمّال الطلاء في ملابس العمل، وكانت زوجته معه، وحزمة ملابسه في يده، وروحه المعنوية عالية جداً.

قال هذا الرجل وهو يمر أمام والد سجن مارشاليزا:

- ليبارك الله فيك يا سيدي.

فردّ الوالد قائلاً في مودة:

- وفيك.

وبعد أن ابتعد كل منهما عن الآخر مسافة طويلة ليمضي كلٌّ في سبيله، إذا بعامل الطلاء يقول وهو يعود:

- اسمع يا سيدي..

ثم أردف قائلاً وهو يضع في يده مجموعة من النقود الصغيرة التي لا تزيد قيمتها على نصف قرش:

- إنه مبلغ زهيد، ولكنني أقدمه بكل إخلاص ومودة.

ولم يكن والد سجن مارشاليزا قد تلقى من قبل «هدية» من النقود النحاسية وكان أولاده في معظم الأحيان -وبموافقته التامة- يشترون اللحم الذي كان يأكله، والخمر التي كان يشربها، ولكن لم يحدث أبداً أن تقدم إليه عامل طلاء بملابس ملوثة بالجير ليقدم إليه نصف قرش. ومن ثم قال بصوت واهن وقد انفجر باكياً:

- كيف تجرؤ على هذا؟

وهنا أداره العامل نحو الجدار حتى لا يرى أحد وجهه، وكان رقيقاً في هذه الحركة بحيث تأثر والد مارشاليزا وشعر بالندم، وبالغ في طلب الصفح بحيث لم يستطع أن يقول أكثر مما يلي:

- أنا أعرف أنك لم تقصد إلا الخير. فلا تقل شيئاً أكثر من هذا.

فقال عامل الطلاء بحماسة:

- ليبارك الله روحك يا سيدي. هذه هي الحقيقة، وسوف أفعل أكثر مما فعل غيري. أعتقد هذا.

- وماذا ستفعل؟

- لسوف أعود لزيارتك بعد الإفراج عني.

فقال المدين بحماسة ولهفة:

- إذن أعد النقود إليّ. وسوف أحتفظ بها، ولن أنفقها أبداً، وشكراً على هذا، شكراً. هل سأراك مرة أخرى؟

- بعد أسبوع إن عشت.

وتصافحا وافترقا. واجتمع زملاء السجن في ندوتهم بالاستراحة في تلك الليلة وقد أدهشهم ما حدث لوالدهم. ذلك لأنه كان يتمشى حتى ساعة متأخرة من الليل في ظلال الفناء، وقد بدت عليه سمات الكآبة والحزن.

* * *

ابنة سجن مارشاليزا

إن الطفلة التي امتزجت أول أنفاسها من الهواء بأنفاس الدكتور هاجيدج المخمورة، أصبحت في نظر نزلاء السجن شيئاً يحرصون عليه حرصهم على تقاليدهم الموروثة. وكانت منذ مراحل حياتها الأولى تتلقفها أيديهم بالمعنى الحرفي لهذه العبارة. بل أصبح من تقاليد الإقامة للنزيل الجديد أن يقوم بدوره في تعهد هذه الطفلة التي وُلِدت في ذلك المكان.

إن حارس السجن علق بقوله حين قُدِّمت إليه أول مرة:

- إن من حقي أن أكون أباها الروحي.

وفكر المدين في تردد برهة ثم قال:

- لعلك لا تعارض حقاً في أن تكون والدها الروحي.

فأجاب الحارس قائلاً:

- أوه! إنني لا أعارض، إذا لم يكن لديك مانع.

وهكذا حدث أن عُمِّدت في ذات يوم أحد بعد الظهر عندما فرغ السجان من نوبة حراسته للبوابة، فذهب معها إلى نبع العمودية في كنيسة القديس جورج وتعهد وأقسم أن يرعاها -كما ذكر بنفسه بعد عودته- «كوالد طيب».

وقد أدى هذا إلى شعوره بأن له نصيباً جديداً في ملكية الطفلة، عدا نصيبه الرسمي الآخر بصفته حارس السجن. ولما بدأت تمشي وتتكلم ازداد حباً لها، واشترى من أجلها مقعداً وثيراً صغيراً ووضعه بجوار السياج المرتفع المحيط بالمدفأة في غرفته الخاصة. وكان يحب صحبتها له عندما يقوم بنوبة حراسته للبوابة، كما اعتاد أن يغريها بالدمى الزهيدة لكي تأتي وتتحدث معه. وسرعان ما أخذت الطفلة -من جانبها- تزداد تعلقاً بالحارس بحيث كانت تأتي من تلقاء نفسها في أية ساعة من النهار لتزوره في غرفته الخاصة. وعندما يغلبها النوم على أمرها وهي جالسة على مقعدها الوثير الصغير بجوار سياج المدفأة، كان الحارس يغطيها بمنديل جيبه. وعندما تجلس لتخلع الملابس عن عروستها أو تضعها عليها - وكانت العروسة قد غدت بسرعة لا تشبه العرائس خارج السجن، وإنما أصبحت قريبة الشبه بالسيدة بانجام والعياذ بالله- كان هو يتأملها من قمة مقعده المرتفع في حنان شديد. وكان النزلاء حين يرون هذا كله يقولون إن هذا الحارس -الأعزب- خُلق ليكون رب أسرة بطبيعته. وكان هو يشكرهم قائلاً:

- لا، حسبي على العموم أن أرى أبناء غيري من الناس.

وكان من العسير أن نعرف على وجه التحديد في أية مرحلة مبكرة من مراحل حياة هذه المخلوقة الصغيرة أمكنها أن تدرك أنه ليس من المعتاد أن يعيش جميع الناس مسجونين في أفنية صغيرة تحيط بها الجدران العالية ذات الأسياخ المدببة في أطرافها. إلا أنها كانت مخلوقة صغيرة -صغيرة جداً في الواقع- عندما استطاعت أن تدرك، على نحو ما، كيف تطلق يدها الممسكة بيد أبيها عندما يُفتَح الباب الكبير حيث يمكنها هي أن تخرج منه بحرية، بينما لا يمكن لأبيها أن يتخطاه. ولعل مما يدل على إدراكها لهذه الحقيقة تلك النظرات الحزينة المشفقة التي أخذت توجهها إليه وهي لا تزال جد صغيرة.

هذه الطفلة، ابنة سجن مارشاليزا، وابنة والد سجن مارشاليزا، كانت في الواقع، خلال الأعوام الثمانية الأولى من حياتها، تنظر إلى كل شيء بهذه النظرات الحزينة المشفقة التي كان فيها شيء آخر نحو أبيها فقط يشبه الرغبة في حمايته، كلما جلست بجانب صديقها السجان في غرفته الخاصة، وكلما رتبت شؤون غرفة الأسرة، وكلما تجولت في فناء السجن. وبمثل هذه النظرات الحزينة المشفقة كانت تنظر إلى أختها العنيدة المشاغبة، وإلى أخيها الخامل، وإلى الجدران العالية الصماء، وإلى جمهرة النزلاء المضعضعين المسجونين بينها، وإلى ألعاب أطفال السجن الذين كانوا يتصايحون ويجرون، ويلعبون «لعبة الاستخفاء» وقد جعلوا «الأم» - أو «مكان الأمان» القضبان الحديدية للبوابة الداخلية.

وفي الجو الصائف كانت تجلس أحياناً بجوار السياج المرتفع في غرفة الحارس تتطلع، في حزن وتساؤل، إلى السماء من خلال قضبان النافذة وتظهر من خلالها قضبان من الضوء، وعندئذ تستدير بعينيها إلى صديقها السجان فيخيل إليها أنها تراه أيضاً من وراء قضبان.

وقال لها السجان ذات مرة بعد أن راقبها:

- إنك تفكرين في الحقول. أليس كذلك؟

فسألته قائلة:

- وأين هي؟

فقال الحارس وهو يشير بمفتاحه في اتجاه غير واضح:

- عجباً! إنها.. إنها هناك، يا عزيزتي، في هذه الناحية.

- وهل ثمة من يفتحها ويغلقها.. هل تقوم عليها بوابة؟

فقال الحارس وهو يشعر بالارتباك:

- لا.. ليس بوجه عام.

- وهل هي جميلة يا بوب؟

وكانت تناديه بكلمة «بوب» بناءً على تعليماته ورغبته الخاصة.

- أجل. جميلة.. مليئة بالأزهار.. فإن فيها زهور شقائق النعمان وعباد الشمس، و.. و..

وتردد الحارس قليلاً لعدم إلمامه الواسع بأسماء المملكة النباتية، ثم استطرد قائلاً:

- وهناك أيضاً زهور الدفلى وكل أنواع الحيوانات.

- هل الإقامة فيها حلوة يا بوب؟

- جداً.

- هل رآها أبي يوماً؟

فتنحنح السجان وقال:

- إه، أجل. رآها أحياناً.

- وهل هو حزين لأنه لا يراها الآن؟

فقال السجان:

- لـ.. ليس إلى حد كبير.

فقالت وهي ترنو بنظراتها إلى جمهرة النزلاء الآخرين وقد بدا عليهم القلق.

- ولا واحد من هؤلاء. أوه! هل أنت واثق ومتأكد تماماً من هذا يا بوب؟

ولم يسع بوب إلا أن يستسلم عند هذه النقطة الحساسة من المحادثة فغيَّر مجراها إلى موضوع آخر. وقد اعتاد أن يفعل هذا دائماً كلما ضيقت عليه صديقته الصغيرة الخناق في موضوع سياسي أو اجتماعي أو ديني. ولكن هذه الأحاديث كانت السبب في سلسلة من النزهات كان يقوم بها هذان الصديقان العجيبان في أيام الآحاد. فقد اعتادا أن يغادرا غرفة الحراسة بعد ظهر الأحد كل أسبوعين، ويتجها في جد بالغ نحو بعض المراعي والمزارع الصغيرة التي يحددها السجان خلال الأسبوع. وهناك كانت تقطف الأعشاب والأزهار لتعود بها، بينما يجلس هو يدخن تبغه. وبعد ذلك كان يمضي بها إلى الحدائق حيث يتناولان الشاي والحلوى والجمبري والبيرة، ثم يقفلان عائدين، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر، إلا إذا غلبها التعب والنوم فإنه كان يحملها على ذراعه.

في تلك الأيام الأولى، بدأ السجان يفكر في موضوع هام جداً تفكيراً أضنى ذهنه، وجعله يعجز عن اتخاذ قرار فيه حتى يوم وفاته. كان قد قرر أن يوصي لهذه الابنة الروحية بكل ممتلكاته ومدخراته البسيطة. ولكن النقطة التي شغلت ذهنه هي كيف «يحكم صياغة» الوصية بحيث لا يستفيد منها أحد إلا هي فقط! وكانت تجاربه كحارس لبوابة السجن قد جعلته على وعي تام بضخامة مشكلة «إحكام الصياغة» بحيث تستعصي على التأويل والتخريج. ومن ثم ظل سنوات وهو يعرض هذه النقطة المعقدة على كل خبير قانوني أو مندوب قضائي جديد يمر ببوابته داخلاً أو خارجاً.

وكان يقول شارحاً موضوعه وهو يداعب بمفتاحه صديرية أحد هؤلاء الخبراء القانونيين:

- لنفرض أن رجلاً يريد أن يوصي بممتلكاته لشابة صغيرة، ويريد أن يحكم نصوص الوصية بحيث لا يستطيع أحد أن يجد فيها ثغرة للنافذ منها. فكيف يمكن الوصول إلى هذا؟

وهنا تكون إجابة الخبير القضائي البسيطة:

- اكتب هذه الممتلكات باسمها رسمياً.

فيقول السجان:

- ولكن اسمع، لنفرض أن لها -مثلاً- أخاً أو قل.. والداً، أو.. زوجاً، وأن أحد هؤلاء قد يستطيع أن يظفر بالتركة عندما تمتلكها.. فما العمل هنا؟

- إنها ستكون المالكة لها. ولن يستطيعوا هم -أو أنت- أن يطالبوها بشيء قانوناً.

- انتظر لحظة. لنفرض أنها رقيقة العاطفة، ومن ثم استطاعوا أن يؤثروا عليها، فكيف يكون موقف قانونكم في هذه الحالة!

وكان أعمق الخبراء القانونيين خبرة يعجز عن الإجابة عن مثل هذا السؤال. وهكذا ظل السجان يشغل فكره بهذا الموضوع طيلة حياته إلى أن مات بلا وصية مكتوبة.

ولكن كان موته بعد ذلك بمدة طويلة، أي بعد أن تجاوزت ابنته الروحية السادسة عشرة من عمرها. وكانت قد أتمت النصف الأول من هذه المرحلة من حياتها عندما رأت بنظراتها الحزينة المشفقة أباها وقد ترمّل. ومنذ ذلك الحين تحولت الرغبة في حمايته، التي تطل من نظراتها هذه، إلى تفكير عملي. وآلت طفلة سجن مارشاليزا على نفسها أن تتخذ نحو أبيها وضعاً جديداً.

ولم يكن يسع مثل هذه الطفلة الصغيرة في أول الأمر إلا أن تجلس معه، متخلية عن مكانها الأثير بجوار سياج المدفأة، لترقبه في هدوء. ولكن هذا الوضع زاد من شعوره بالحاجة الشديدة إليها بحيث أصبح جوارها له عادة مسيطرة عليه، ومن ثم بدأ يشعر بافتقادها كلما غابت

عنه. ومن خلال هذه النافذة الصغيرة خرجت من طفولتها إلى العالم المثقل بالأعباء.

فماذا رأت نظراتها الحزينة المشفقة، ذلك الوقت المبكر من حياتها، في أبيها، وفي أختها، وفي أخيها، وفي السجن. كم من الحقائق المؤلمة شاءت إرادة الله أن توضحها لها! إن هذا كله ظل مطوياً بين الكثير من الأسرار. يكفي القول إنها أُلهِمت لأن تكون شيئاً يختلف عما عليه غيرها، وأن تكون ذلك الشيء -المختلف المكافح- لمصلحة هذا الغير. أهي ألهمت، أجل. أترى الإلهام وقفاً على الشاعر أو رجال الدين دون أن يسطع في قلب مليء بالحب وبالرغبة في تكريس النفس للقيام بأصغر عمل في أحقر منهج للحياة!

وهكذا بدأت طفلة سجن مارشاليزا حياتها كأنثى دونها صديق يمد لها يد العون ودونها مخلوق يهتم بزيارتها فيما عدا ذلك الشخص الذي قسم لها، وبلا أية معرفة حتى بالأصوات والتقاليد والعادات اليومية للأشخاص العاديين في المجتمع الحر خارج أسوار السجن. لقد وُلِدت ونشأت في ظروف اجتماعية لا يمكن قط مقارنتها بأسوأ الظروف خارج هذه الأسوار؛ وشربت منذ طفولتها من بئر لمياهها مذاقها الخاص.. مذاقها غير الطبيعي، وغير الصحي.

ومهما يكن ما مرت به من أخطاء وما تعرضت له من تثبيط وما أحاطها من سخرية بشبابها وجرمها -وإن لم تكن صادرة عن قسوة، إلا أنها كانت تحز في نفسها- وما استقر في وعيها عن وضاعة طفولتها وهزالها وقلة جهدها حتى في القدرة على رفع الأشياء وحملها، ومهما يكن ما تجرعته من تبرم بالحياة ويأس منها وما ذرفته من دموع خفية عن الناس، مهما تكن هذه المتاعب التي لم تكن تعني أحداً فقد كدحت وسارت في طريقها متحاملة على نفسها حتى اعترف بها كعضو نافع بل لا

غنى عنه - لقد جاء هذا الوقت الذي أصبحت فيه كبرى إخوتها الثلاثة في كل شيء إلا في التقدم عليهم، لقد أصبحت رأس هذه الأسرة المتهاوية ومن ثم حلت في أعماق قلبها كل همومها وبلاياها.

وفي الثالثة عشرة من عمرها كان في مقدورها أن تقرأ أو تحسب. أي كان في مقدورها أن تكتب بالكلمات والأرقام كم تتكلف حاجات أفراد الأسرة الضرورية التي يريدونها، وما هي أقل قيمة يمكن الشراء بها. وكانت قد استطاعت أن تختطف من وقتها أسابيع قليلة ترددت خلالها على مدرسة ليلية خارج السجن، واستطاعت أن تلحق أخاها وأختها بمدارس نهارية حيث بدآ التردد عليها في فترات متقطعة في أول الأمر، ثم استمرا فيها نحو ثلاث أو أربع سنوات ولم يكن ثمة تعليم أو توجيه يمكن أن يتلقياه في «البيت». ولكنها كانت تعرف -وهي خير من يعرف- أن أباهم الذي انهار حتى أصبح أباً لسجن مارشاليزا، لا يمكن أن يصلح راعياً لأبنائه.

واستطاعت أيضاً أن تضيف إلى هذه التحسينات البسيطة التي أدخلتها على حياتهم، تحسيناً جديداً بفضل مجهودها. فقد حدث أن ظهر بين هذا الحشد غير المتجانس من نزلاء السجن معلم رقص. وأعربت أختها عن رغبتها الشديدة في أن تتعلم فن الرقص، وبدا أنها على شيء من الموهبة فيه، ومن ثم قدمت طفلة سجن مارشاليزا -وهي لا تزال في الثالثة عشرة من عمرها- نفسها إلى معلم الرقص حاملة في يدها حقيبة صغيرة، وعرضت إلمامها المتواضع قائلة:

- أتسمح يا سيدي، إنني مولودة هنا.

فقال معلم الرقص وهو يتأمل وجهها المرفوع إليه جسمها الضئيل:

- أوه. إنك السيدة الصغيرة، أليس كذلك؟

- أجل يا سيدي.

- هل من خدمة أؤديها لك!

فقالت وهي تفك رباط حقيبتها الصغيرة في قلق:

- إنها ليست لي يا سيدي، شكراً. ولكن إذا أمكن أن تتكرم وتعلِّم أختي الرقص في أثناء وجودك هنا بأجر..

فقال معلم الرقص وهو يغلق لها حقيبتها:

- لسوف أعلمها بلا أجر يا طفلتي.

وكان معلماً سمح النفس لطيفاً، فبرّ بوعده لها. ولا عجب أن أحرزت تلميذته تقدماً رائعاً في هذا الفن، بسبب اجتهادها في التعلم من جهة، وبسبب كثرة أوقات الفراغ التي كرسها المعلم لتعليمها، ذلك لأنه لم يستغرق غير عشرة أسابيع في تسوية أموره مع الدائنين، وفي التخلص من المحاسبين والمراجعين، وفي العودة إلى ممارسة مهنته. وقد بلغ من زهوه بتلميذته، ومن رغبته الشديدة في عرض براعتها على بعض أصدقائه المختارين من بين النزلاء، أن حقق هذه الرغبة في الساعة السادسة من ذات صباح جميل، بالفناء -لأن غرف السجن لم تكن تتسع لحركات الرقص- وكان ثمة جانب كبير من الفناء مرصوفاً، وهكذا بلغت التلميذة من البراعة في الرقص وخفة الحركة حتى فاقت أستاذها.

وكان نجاح هذه البداية، التي جعلت معلم الرقص يوالي دروسه لتلميذته حتى بعد الإفراج عنه، قد شجع الطفلة المسكينة إلى بذل محاولة أخرى. فراحت تنتظر شهوراً لكي تتعرف بمعلمة خياطة وتفصيل. وأخيراً جاءت إلى السجن صانعة أزياء، فمضت الصبية تلتمس منها خدمة خاصة.

قالت لها وهي تطل عليها في حياء من باب الغرفة حيث رأتها في السرير تذرف الدموع:

– معذرة يا سيدتي.. إنني مولودة هنا.

ولاحَ لها أن كل شخص قد سمع عنها بمجرد وصوله، ذلك لأن صانعة الأزياء انتصبت جالسة في سريرها، وكفكفت دموعها، وقالت كما قال معلم الرقص تماماً:

– أوه؟ إنك الطفلة؟ أليس كذلك؟

– أجل يا سيدتي.

قالت صانعة الأزياء وهي تهز رأسها:

– يؤسفني أنه ليس لدي ما أقدمه لك.

– ليس هذا ما أريده يا سيدتي، وإنما أريد أن أتعلم شغل الإبرة.

فردّت صانعة الأزياء قائلة:

– ولماذا تتعلمين هذا؟ ألا ترينني أمامك هنا؟ إن هذا التعليم لم يفدني كثيراً.

فقالت الصبية بكل بساطة:

– يبدو أنه لا شيء –أياً كان– قد أفاد كثيراً أي واحد من الذين جاؤوا إلى هنا. ولكني مع هذا أريد أن أتعلم.

فاعترضت السيدة قائلة:

– أرى أنك أضعف من أن تقومي بعمل كهذا. ألا ترين؟

– لا أعتقد أنني ضعيفة يا سيدتي.

فعادت السيدة تعترض قائلة:

– وأنت ضئيلة.. ضئيلة جداً. ألا ترين؟

فقالت طفلة سجن مارشاليزا:

- نعم، إنني ضئيلة جداً في الواقع.

ثم شرعت تذرف الدموع على هذا النقص المعيب الذي كان يقف دائماً في طريقها. وتأثرت صانعة الأزياء التي لم تكن قاسية أو متحجرة القلب في الحقيقة، ولكنها أصيبت أخيراً بالإفلاس فأثّر ذلك في نفسها. وهكذا أقبلت على تعليمها برغبة خالصة ووجدتها من أشد التلميذات جدّاً وصبراً، فأصبحت بمرور الزمن من أبرع المشتغلات بهذا الفن.

ومع مرور الزمن.. مع نفس مرور هذا الزمن، اكتسب والد سجن مارشاليزا صفة أخلاقية جديدة. فكلما زادت أبوّته بالنسبة لسجن مارشاليزا، واعتماده على مساعدات أسرته المتطورة ازداد تعلقه بما كان له من ماضٍ مجيد في سالف الأيام. فكان بنفس اليد التي يدس بها في جيبه منذ نصف ساعة، نصف ريال من أحد زملائه، يروح يمسح دموعه التي تنحدر بغزارة على وجهه إذا أشار أحد إلى اضطرار ابنيه لأن تكسبا رزقهما بعرق الجبين. ومن ثم كان من أهم الأعباء اليومية لابنة سجن مارشاليزا، حرصها الدائم على إيهام أبيها بأنهم جميعاً يعيشون كالسادة العاطلين!

وأصبحت الأخت راقصة. وكان ثمة عم مضمضع الحال في محيط الأسرة -أصابه التلف بسبب أخيه والد سجن مارشاليزا، دون أن يعرف أكثر من أخيه، سر أو سبب ما أصابه من تلف، ودون أن يسعه إلا أن يرضخ للحقيقة الواقعة، وعلى عاتق هذا العم المفلس وَقَع عبء حماية ابنة أخيه الراقصة. وكان بطبيعته رجلاً بسيطاً منطوياً على نفسه لم يعرب عن شعوره بما أصابه من دمار عند إصابته بالكارثة، إلا بالإقلاع تماماً عن الاستحمام عقب إذاعة الخبر. ولم يعد منذ ذلك الحين يستمتع بهذا الترف. وكان في أيام رخائه هاوياً موسيقياً إلى حد ما. فلما أصابه الإفلاس مع أخيه -لجأ من أجل العيش- إلى العزف على آلة كلاريونيت لا تقل عنه

قذارة في فرقة موسيقية صغيرة بأحد المسارح. وفي هذا المسرح نفسه اشتغلت ابنة أخيه راقصة. وكان قد هبط، قبل التحاقها بمدة طويلة، إلى أحد أفراد الطاقم الموسيقي الذي لا يعرفون إلا أنه تقبل مهمة خدمتها ورعايتها وحراستها تماماً كما لو كانت ميراثاً أو نازلة، أو مسغبة أو أي شيء مقدَّر، إلا الصابون.

وكان على ابنة سجن مارشاليزا أن تستخدم الحيلة مع أبيها حتى تتيح لأختها الراقصة أن تكسب أجرها الأسبوعي الضئيل من الشلنات.

- إن «فاني» يا أبي لن تقيم معنا الآن كثيراً. إنها حقاً ستبقى بيننا فترة طويلة في أثناء النهار، ولكنها سوف تعيش مع عمها في الخارج.

- أنا مندهش من هذا الكلام..! ولِمَ هذا التغير؟

- أعتقد أن عمي في حاجة إلى أنيس يقيم معه يا أبي. يجب أن نرعاه ونعني به.

- أنيس؟ إنه يقضي معظم أوقاته هنا. وأنت تعنين به وترعينه هنا يا إيمي أكثر جداً مما ستفعل أختك معه. إنكم جميعاً تكثرون من الخروج.. تكثرون من الخروج.

كان يقول هذا ليحافظ على المظاهر، وليبقي على تصنّعه بأنه لا يعرف قط أن إيمي نفسها تخرج نهاراً لتعمل.

- ولكننا نشعر جميعاً بالسعادة عند عودتنا إليك يا أبي، أليس كذلك؟ أما عن أختي فاني ربما كان من الأفضل لها -فضلاً عن إقامتها مع عمي ورعايتها له- ألا تعيش هنا بصفة دائمة. إنها لم تولد هنا مثلي كما تعلم يا أبي.

- حسناً يا إيمي، حسناً. إنني لا أفهمك تماماً، ولكنني أعتقد أنه من الطبيعي أن تؤثر فاني الإقامة في الخارج، بل ويجب أيضاً أن يكون

هكذا الأمر معك أحياناً. إذن فأنت وفاني وعمك، يا عزيزتي، سوف تنفّذون مشروعكم. حسناً، حسناً، إنني لن أتدخل، ولا تبالوا بأمري.

ولكي تبعد أخاها عن السجن، وعن خلافته للسيدة بانجام في إنجاز الأعمال للنزلاء من الخارج، وعن تبادل العبارات المبتذلة، رأت أن تقوم بواجبها نحوه، ولكنها كانت مهمة من أشق المهام التي أدتها، ذلك أن أخاها كان على استعداد منذ بلغ الثامنة عشرة أن يستمر حتى الثمانين من عمره وهو يعيش لقمة بلقمة وقرشاً بقرش وساعة بساعة، ولم يستطع قط أن يكتسب من أي شخص دخل السجن أية فائدة أو منفعة، كما أنها لم تجد له صديقاً وراعياً إلا صديقها وأباها الروحي العجوز.

قالت له ذات مرة:

- يا عزيزي بوب، ما المصير الذي ينتظر المسكين تيب؟

وكان اسمه إدوارد، وتحولت كلمة تيد إلى تيب داخل جدران السجن.

وكان للسجان آراء خاصة يؤمن بها فيما سينتهي إليه المسكين تيب، وقد حاول من جانبه أن يغير هذا المصير، فتحدث مع الشاب عن إمكان هربه إلى إحدى المستعمرات حيث يستطيع أن يخدم وطنه، ولكن تيب شكره، وقال إنه لا يهتم كثيراً بخدمة وطنه.

وقال السجان لإيمي:

- أجل يا عزيزتي. ينبغي أن نفعل شيئاً له. لنفرض أنني أستطيع إلحاقه في أحد الأعمال القانونية.

- سيكون هذا جميلاً منك يا بوب.

وأصبح للسجان عندئذ موضوعان يعرضهما على رجال القانون الذين يمرون به داخلين أو خارجين. وقد ظل يعرض موضوعه الثاني

بإلحاح وإصرار، حتى أمكنه أن يهيئ لتيب عملاً بأجر اثني عشر شلناً في الأسبوع في مكتب أحد المحققين بالدار الكبرى للقضاء الأهلي المسماة «قصر القضاء»، وكان في ذلك الحين أحد الأبنية الضخمة التي ترمز لأمن المواطن العادي، والتي زالت مع مرور الزمن.

وتحمل تيب عمله هذا ستة أشهر، وفي نهاية هذه المدة، عاد ذات ليلة متثاقلاً ويداه في جيبيه، وقال لأخته -عرضاً- إنه لن يعود إلى مقر عمله ثانيةً.

فقالت ابنة مارشاليزا الصغيرة الملهوفة التي كانت دائماً تفكر وتدبر من أجل تيب وتضعه في مقدمة أعبائها:

- لن تعود ثانية؟

- لقد سئمت هذا العمل، ولن أعود إليه.

وكان تيب يسأم كل شيء. ففي فترات تسكعه في سجن مارشاليزا، وفي أثناء خلافته للسيدة بانجام، كانت «أمه» الضئيلة تستعين بصديقها الوفي السجان على إلحاقه بمخزن بضائع، ثم بحديقة سوق، ثم بتجارة حشيشة الدينار، ثم بالمحكمة مرة أخرى، ثم في مكتب دلّال في المزادات، ثم في مصنع للبيرة، ثم في مكتب سمسار، ثم في المحكمة مرة ثالثة، ثم في مكتب نقل عمومي، ثم في مصنع تقطير ثم في المحكمة مرة أخرى، ثم في متجر أصواف، ثم في متجر للسلع الجافة، ثم في تجارة الأسماك، ثم في تجارة الفواكه المستوردة، ثم في أعمال الميناء. ولكن أينما ذهب تيب، كان يعود ملولاً قائلاً إنه لن يذهب إلى العمل ثانيةً. كان هذا الضائع تيب يبدو أينما ذهب كأنما يأخذ معه جدران السجن، ويقيمها في العمل الذي التحق به، ثم يدور في نطاقها متسكعاً، عاطلاً، بلا هدف حتى تنجح جدران السجن الحقيقية في إغرائه إليها مرة أخرى، فيهرع عائداً نحوها.

ومع هذا كله، فإن تلك المخلوقة الضئيلة الباسلة كانت قد عقدت العزم على إنقاذ أخيها، بحيث راحت -في أثناء التحاقه بتلك الأعمال المختلفة- تكد وتكدح حتى ادخرت ما يكفي لإبحاره إلى كندا. ولما سئم بطالته، ورأى أن يخرج حتى من هذه البطالة، تنازل ووافق على الذهاب إلى كندا. وهنا امتزج في صدرها الحزن على فراقه مع بهجة الأمل في أنه أصبح أخيراً في الطريق المستقيم.

- ليبارك الله فيك يا عزيزي تيب. لا تجعل كبرياءك تمنعك من الحضور لزيارتنا عندما تجمع ثروة طائلة.

فقال تيب:

- حسناً..

ثم ذهب.

ولكنه لم يذهب إلى كندا، وإنما في الواقع لم يتجاوز ليفربول. فبعد أن قام بالرحلة إلى هذا الميناء من لندن، وجد نفسه يحس بشعور قوي ليمتنع عن ركوب الباخرة، والعودة ماشياً إلى مارشاليزا. وخضع لهذا الشعور، وعاد بعد شهر في ملابس مهلهلة، حافي القدمين، أشد إحساساً بالسأم من ذي قبل.

وأخيراً وبعد فترة أخرى كان خلالها يعمل خليفة للسيدة بانجام، وجد العمل الذي يتفق مع رغباته، فأعلن عنه قائلاً:

- إيمي، لقد وجدت عملاً.

- أحقاً وصدقاً يا تيب؟

- أجل. وسوف أقوم به من اليوم. فلا داعي لأن تشعري بالقلق من أجلي بعد ذلك يا فتاتي.

– ما هو هذا العمل يا تيب؟

– أتعرفين سلينجو إذا رأيته؟

– أليس هو الرجل الذي يسمونه السمسار؟

– إنه هو، وسوف يخرج يوم الاثنين، وسيلحقني بالعمل معه.

– وماذا يبيع يا تيب؟

– جياداً! ما رأيك؟ لسوف أصلح هذه المرة يا إيمي.

وغاب عن ناظريها بعد ذلك عدة شهور. ولم تتلقَّ رسالة منه إلا مرة واحدة. وسرى الهمس بين النزلاء الكهول في السجن بأنه شوهد في مزاد وهمي ببلدة مورفيلدز متظاهراً بشراء الأدوات المطلية المزيفة على أنها من الفضة الخالصة ويدفع فيها أوراقاً نقدية كبيرة بسخاء شديد. ولكن هذه الهمسات لم تبلغ قط أذنيها. وفي ذات مساء كانت تعمل بمفردها وهي واقفة إلى النافذة لتستفيد من آخر أضواء الشفق المتلكئ في أعلى الجدران عندما فتح الباب ودخل.

وقبّلته ورحّبت به، ولكنها خشيت أن توجه إليه أي سؤال، ولاحظ هو مدى ما ارتسم على وجهها من قلق ووجل، فبدا حزيناً من أجلها وهو يقول:

– أخشى أن تستائي مني هذه المرة حقاً يا إيمي، أقسم لك.

– يؤسفني أن أسمع منك هذا يا تيب. هل عدت؟

– طبعاً. نعم!

– لأنك لم تتوقع هذه المرة أيضاً أن العمل الذي وجدته لم يتفق مع رغباتك. إنني هذه المرة أقل حزناً ودهشة عما كان يمكن أن أكون يا تيب.

- آه. ولكنك لم تسمعي أسوأ ما في الأمر.

- أسوأ ما في الأمر؟

- لا تراعي هكذا. لا يا إيمي لم تسمعي بعد أسوأ ما فيه، لقد جئت هذه المرة.. أوه، لا تفزعي هكذا.. لقد جئت هذه المرة فيما يمكن أن يقال إنه وضع جديد. إنني الآن لم أعد مقيماً في السجن تطوعاً، بل أصبحت واحداً من النزلاء العاديين.

- أوه! لا تقل إنك سجين يا تيب! لا.. لا..

فردّ قائلاً في صوت ينم عن الضيق والامتعاض:

- أوه، إنني لا أريد أن أذكر ما حدث. ولكن إذا كنت لا تستطيعين أن تفهمي الأمر دون أن أذكره، فماذا في وسعي أن أفعل؟ إنني مدين بأربعين جنيهاً.

ولأول مرة خلال هذه السنوات الطوال، انهارت إيمي تحت ثقل أعبائها. فانفجرت في البكاء وهي تشبك يديها وترفعها فوق رأسها قائلة إن هذا الخبر سوف يقتل أباها لو علم به، ثم ألقت بنفسها عند قدمي تيب.

وكان أسهل على تيب أن يعيد إليها صوابها، من أن تجعله هو يدرك أن أبا سجن مارشاليزا سوف يثور ويغضب حين يعلم الحقيقة. إن تيب لا يستطيع أن يفهم هذا الوضع ويراه مجرد نزوة خيال من إيمي. لقد استجاب لرغبتها على هذا الأساس فقط عندما خضع لتوسلاتها التي أيّدها فيها عمه وأخته. ولم يكن ثمة حاجة إلى التمهيد لأبيه ليسمع خبر عودته، فقد كان الوالد يتوقع هذه العودة كالمعتاد. أما النزلاء، فقد أيدوا إيمي في موقفها وهم أكثر فهماً وأحسن إدراكاً للموقف من تيب.

كانت تلك هي حياة ابنة سجن مارشاليزا وكان ذلك تاريخها وهي في الثانية والعشرين من عمرها. إنها لا تزال حتى الآن على علاقة

بذلك الفناء البائس ومجموعة المباني التي وُلدت بينها، ولكنها تدخل إليها وتخرج منها في وجل وخجل وقد غدت تحس بغريزتها الأنثوية أن الجميع يعرفون حقيقتها. ومنذ أن بدأت تعمل خارج جدران السجن، رأت أنه من الضروري أن تخفي مكان إقامتها، وأن تروح وتغدو بقدر ما تستطيع من السرية بين المدينة خارج السجن وبين البوابة الحديدية التي لم تنم خارج قضبانها ليلة واحدة في حياتها. ونَما خوفها الأساسي مع الحرص على هذه السرية، وأصبحت تتجنب بخطواتها الخفيفة وجسمها الضئيل الشوارع المزدحمة عند مرورها بها.

وكانت فيما عدا حاجتها إلى ضروريات الحياة، بريئة من كل شائبة. كانت بريئة في ذلك الضباب الذي ترى من خلاله أباها، والسجن ونهر الحياة العكر الذي ينبع منه ويفيض عليه.

كانت تلك هي حياة دوريت الصغيرة وكان ذلك هو تاريخها وهي عائدة الآن ذات مساء كئيب من شهر سبتمبر، عندما رآها من بعيد آرثر كلينام. وكانت تلك حياة دوريت الصغيرة وكان ذلك تاريخها وهي تنعطف في نهاية جسر لندن ثم تعبره، ثم تعود منه مرة أخرى مجتازة كنيسة سان جورج، ثم وهي تستدير إلى الوراء مرة أخرى على حين غرّة، ثم تنفلت عبر البوابة الخارجية المفتوحة إلى الفناء الصغير لسجن مارشاليزا.

* * *

البوابة



وقف آرثر كلينام ينتظر في الشارع ليسأل أحد المارة عن أي مكان هذا الذي دخلته دوريت. واحتمل مرارة الانتظار حتى لا يسأل المارة القلائل الذين كانت وجوههم الجهمة لا تشجع على توجيه السؤال إليهم، وظل ينتظر حتى مرّ به رجل عجوز ودخل إلى الفناء.

وكان ذلك الرجل محني القامة إلى حد كبير، وكان متثاقلاً في مشيته بطريقة تنم عن انشغال باله مما يجعل شوارع لندن المائجة مكاناً غير آمن عليه. وكان رثّ الملبس، يرتدي معطفاً بالياً كان فيما مضى أزرق اللون، يصل إلى كعبيه، ومزرراً حتى ذقنه حيث يختفي طرفه الأعلى في بقية من بقايا مخمل أحمر اللون كالح. وثمة قطعة من قماش أحمر تجلدت من كثرة استعمال هذا الشبح الآدمي لها، كانت مدلاة من طرف حول العنق ويبرز طرفها الآخر عند مؤخرة الرأس تحت كتلة من الشعر الأشعث الأشيب الجاف المنتصب حتى ليبدو وكأنه يرفع القبعة من فوق الرأس. وكانت قبعة قذرة غير منتظمة الشكل، منحدرة على عينيه، وذات حافة مكسرة، ويتدلى من تحتها بقايا منديل جيب، وكانت سراويله طويلة جداً وفضفاضة جداً، وكان حذاؤه غليظاً ضخماً يسير به متثاقلاً كالفيل. ومن ثم لم يكن أحد يدري هل كان ينقل خطواته وهو يسير أم يجرجر قدميه الموضوعتين في قماش وجلد. وكان يحمل تحت إحدى ذراعيه حقيبة بالية

عتيقة تحتوي على آلة زامرة، وبنفس اليد كان ممسكاً بها يساوي قرشاً من السعوط «النشوق» في لفافة صغيرة من الورق الأبيض المتسخ، وكان عندما لمحه آرثر كلينام، يمتع أنفه البائسة العجوز الزرقاء بتنشيقة طويلة.

وفضّل آرثر أن يستفسر عن بغيته من هذا الرجل العجوز الذي كان يعبر الفناء، فمضى إليه، ووضع يده على كتفه، فتوقف العجوز والتفت وراءه وقد ارتسمت في عينيه الرماديتين الخابيتين، نظرات الرجل الذي تحلق أفكاره بعيداً جداً، والذي كان أيضاً ثقيل السمع.

وأعاد آرثر السؤال قائلاً:

– من فضلك يا سيدي.. ما هذا المكان؟

فقال العجوز وقد أوقف يده بالنشوق عن الوصول إلى أنفه وأشار بها إلى المكان دون أن يلتفت إليه:

– آه! هذا المكان؟ إنه سجن مارشاليزا يا سيدي.

– سجن المدينين؟

فقال الرجل في هيئة الإنسان الذي لا يجد ثمة ضرورة لتأكيد هذا المعنى:

– أجل يا سيدي سجن المدينين.

ثم استدار ليمضي في سبيله، ولكن آرثر أوقفه مرة أخرى قائلاً:

– معذرة يا سيدي. أرجو أن تسمح لي بسؤال آخر. هل يستطيع أي شخص أن يدخله!

فقال العجوز:

– يستطيع أي شخص أن يدخله.

ثم أضاف قائلاً في لهجة تأكيد لها دلالتها:

- ولكن ليس في مقدور كل شخص أن يخرج منه.

- معذرة مرة أخرى، هل تعرف هذا المكان معرفة دقيقة.

فقال العجوز وهو يضغط على لفافة النشوق في يده، ويستدير إلى السائل في هيئة الذي آلمته كثرة الأسئلة:

- أجل يا سيدي.

- أرجو المعذرة، إنني لست فضولياً لجوجاً، وإنما أبغي هدفاً حميداً. هل تعرف أحداً باسم دوريت هنا؟

فباغته الرجل قائلاً:

- إن اسمي يا سيدي هو: .. دوريت.

فرفع آرثر قبعته تحيةً له وقال:

- اسمح لي بشرف الحديث معك قليلاً جداً. إنني لم أكن أتوقع أبداً هذه الإجابة، وأرجو أن يكون هذا التأكيد اعتذاراً كافياً عن حديثي معك بهذه الحرية. لقد عدت منذ عهد قريب إلى الوطن بعد غيبة طويلة في الخارج. وحدث أن رأيت في بيت أمي السيدة كلينام -بالمدينة- شابة تعمل في شغل الإبرة سمعت الناس يخاطبونها ويتحدثون عنها باسم دوريت الصغيرة. وقد أحسست -بكل إخلاص- باهتمام شديد نحوها، وبالرغبة الأكيدة في معرفة المزيد عن أحوالها. ورأيتها قبل أن تصل أنت بلحظة وهي تدخل من تلك البوابة.

وأمعن العجوز النظر إليه بانتباه ثم سأله قائلاً:

- هل أنت بحّار يا سيدي؟

ولاحَ عليه الاستياء حين رأى الآخر يهز رأسه نفياً، ثم قال مردفاً:

- لست بحّاراً! لقد ظننتُ من وجهك الملوح أنك قد تكونه. هل أنت شديد الاهتمام بهذا الأمر يا سيدي؟

- أؤكد لك أنني كذلك يا سيدي، وأرجوك كل الرجاء أن تثق فيما أقول بأنني شديد الاهتمام بالأمر جداً.

فردّ الآخر قائلاً بصوته الواهن المختلج:

- إنني لا أعرف عن هذا العالم إلا القليل جداً يا سيدي. وما أنا إلا مجرد عابر سبيل فيه، كالظل المتحرك على المزولة. ومن ثم فالأمر لا يستحق من أي إنسان أن يتعب نفسه بخداعي. ولو أنه فعل، لكان نجاحه في هذا سهلاً ورخيصاً جداً. إن الشابة التي رأيتها تدخل هنا هي ابنة أخي الذي اسمه ويليام دوريت، واسمي فريدريك. وأنت تقول إنك رأيتها في بيت والدتك «وأنا أعرف أن أمك ترعاها»، وأنك شديد الاهتمام بأمرها وتريد أن تعرف ماذا تفعل هنا. إذن تعال وانظر.

واستأنف سيره، ومضى آرثر معه.

وعند الدرجة الأولى من السلّم، توقف العجوز مرة أخرى واستدار ببطء ليواجه آرثر قائلاً:

- إن أخي عاش هنا سنوات كثيرة، ونحن نخفي عنه الكثير مما يحدث في الخارج، بل ومما يحدث بيننا لأسباب كثيرة لا داعي للحديث عنها الآن. ولكن أرجو أن تتكرم فلا تحدّثه بشيء عن عمل ابنته بشغل الإبرة. أرجو أن تتكرم فلا تقول شيئاً يخرج عن نطاق ما نقوله نحن له. فإذا بقيت داخل هذا النطاق، فلن نخطئ، والآن.. تعال لترى.

وتبعه آرثر إلى مدخل ضيق في نهايته مفتاح دار في قفله وفتح باب حديدي من الداخل واجتازاه إلى دهليز أو ردهة سارا عبرها إلى باب آخر

دخلا منه إلى بوابة حديدية ثم إلى السجن. وأخذ العجوز الذي كان دائماً يسير متثاقلاً في المقدمة يستدير ببطء عندما وصلا إلى السجان المناوب وكأنما يقدم إليه صاحبه، وأومأ السجان برأسه، ومرّ آرثر دون أن يسأله أحد. من يكون أو ماذا يريد.

وكان الليل مظلماً؛ ومن ثَمَّ كانت المصابيح في فناء السجن والشموع في نوافذ غرفه ترسل أضواءها الخافتة من وراء ألوان وأشكال كثيرة من الستائر العتيقة البالية مما يحرم هذه الشموع من الهواء الذي يساعدها على توهج ضوئها. وكان ثمة عدد من النزلاء في الفناء يتسكعون، أما الجانب الأكبر منهم فكانوا داخل غرفهم. وبعد أن سار العجوز مسافة على الجانب الأيمن انحرف، إلى المدخل الثالث أو الرابع، ثم بدأ يصعد سلّماً وهو يقول:

- إن الظلام شديد هنا يا سيدي، ولكنك لن تتعثر في شيء في أثناء صعودك.

وتريّث برهة قبل أن يفتح باباً في الطابق الثاني. ولكنه ما إن أدار المقبض حتى رأى الزائر دوريت وحتى عرف سر حرصها الشديد على تناول الطعام بمفردها في بيت أمه.

كانت قد أحضرت معها اللحم الذي كان ينبغي أن تأكله هي، وكانت قد فرغت لتوها من تسخينه فوق المدفأة من أجل أبيها المرتدي ثوباً رمادياً قديماً وقلنسوة سوداء، والذي كان جالساً إلى المائدة ينتظر عشاءه. وكان على المائدة مفرش نظيف فوقه الشوكة والسكين والملعقة والملاحة والفلفل والكوب وقدح البيرة. ولم يكن ينقصه بعض المشهيات مثل زجاجة خاصة من الفلفل الأحمر، وما يساوي بنساً من البصل المخلل الموضوع في طبق.

واضطربت دوريت بعنف، وارتفعت الدماء الفانية إلى وجهها، ثم انحسرت عنه. أما الزائر فقد رجاها بنظراته -أكثر مما فعل بحركة يده المفاجئة- أن تطمئن وأن تثق فيه.

وقال العم:

- لقد وجدت يا ويليام هذا السيد، السيد كلينام، ابن صديقة إيمي، عند البوابة الخارجية، وقد رغب، في أثناء مروره، أن يقدم إليك تحياته، ولكنه كان متردداً. أقدم لك يا سيدي أخي ويليام.

فقال آرثر وهو لا يدري على وجه التحديد ماذا يقول:

- أرجو أن يكون في احترامي لابنتك ما يفسر ويبرر رغبتي في التعرف بك يا سيدي.

فنهض الآخر قائلاً وهو يرفع قلنسوته عن رأسه في كف يده متأهباً لإعادتها إلى مكانها مرة أخرى:

- سيد كلينام. إنك تشرفني، وإني أرحب بك يا سيدي.

ثم أردف قائلاً وهو ينحني قليلاً:

- فريدريك.. قدِّم إليه مقعداً.. أرجوك أن تجلس يا سيد كلينام.

وأعاد إلى رأسه قلنسوته السوداء مرة أخرى، ثم جلس على مقعده الخاص، وكانت تصرفاته تنم عن روح عجيبة من الطيبة والذوق السليم. وكانت تلك هي المراسم التي يستقبل بها زملاءه.

وعاد يقول:

- مرحباً بك في سجن مارشاليزا يا سيدي. لقد رحبت بالكثيرين من السادة داخل هذه الجدران، ولعلك تعرف أو ربما ذكرت لك ابنتي إيمي أنني أب لهذا المكان.

فقال آرثر مؤكداً بحماسة:

- آه.. هذا ما فهمته.

- ولعلك تعلم أيضاً أن ابنتي إيمي وُلدت هنا، إنها فتاة طيبة يا سيدي، فتاة عزيزة، وطالما اعتمدت عليها وسعدت بها. هات هذا الطبق هنا يا عزيزتي إيمي. ولا شك أن السيد كلينام سيلتمس لنا العذر وهو يرى تصرفاتنا البدائية التي نضطر إليها هنا. إنه ليسرني أن أطلب منك أن تشرفني يا سيدي و..

فردّ آرثر قائلاً:

- شكراً يا سيدي.. لا أستطيع.

وأحس بالحيرة البالغة إزاء سلوك هذا الرجل الذي بدا على الأرجح أنه لا يعلم شيئاً عن حرص ابنته على إخفاء تاريخ الأسرة عن المجتمع في الخارج.

وملأت له الكوب، ووضعت في متناول يده كل المطالب الصغيرة، ثم جلست بجانبه في أثناء تناوله للعشاء. ويلوح أنها -بناءً على التقليد الليلي- اضطرت إلى وضع شيء من الخبز أمامها، وإلى لمس كوبه بشفتيها. ولكن آرثر لاحظ أنها شديدة الاضطراب، وأنها لم تتناول شيئاً، أما أشد ما أثّر في نفسه ونفذ إلى الصميم من قلبه فكانت نظراتها إلى أبيها التي امتزجت فيها مشاعر الإعجاب والفخر به، مع إحساسات الخجل من أجله، فضلاً عن الشعور بحبه والتفاني فيه.

وتنازل أبو سجن مارشاليزا ووجّه الحديث إلى أخيه، كما يفعل إنسان كريم لطيف مع شخص لم يصل بعد إلى مستواه؛ فقال له:

- فريدريك، أعلم أنك تناولت عشاءك مع فاني في مسكنك الليلة. فأين هي، ماذا فعلت بفاني يا فريدريك؟

- إنها تتمشى مع تيب.

فوجَّه الرجل الحديث إلى كلينام وقال:

- إن تيب، إذا كنت لا تعرف، هو ابني يا سيد كلينام. لقد كان جامحاً بعض الشيء، ومن العسير عليه أن يستقر. إلا أن الظروف التي أحاطت بمقدمه إلى هذا العالم..

وهزّ الرجل كتفيه وتنهد خفيفاً وهو يتلفت في جوانب الغرفة قبل أن يردف قائلاً:

- سيئة غير مواتية تماماً. هذه زيارتك الأولى لهذا المكان يا سيدي.

- أجل.

- لو أنك جئت قبل ذلك، حتى وأنت في مرحلة الصبا، لعلمت بمجيئك. فإنه من النادر جداً أن يأتي أي شخص، مهما تكن منزلته، دون أن يُقدَّم إليّ.

فقال فريدريك وقد أضاء وجهه شعاع خفيف من الزهو:

- إن الذين يقدَّمون إلى أخي كل يوم قد يبلغون أربعين أو خمسين شخصاً.

فوافق أبو مارشاليزا على هذا بقوله:

- أجل. بل قد يزيد هذا العدد أحياناً. وقد حدث في ذات يوم أحد مشرق أن بلغ عدد المقدَّمين إليّ من الكثرة ما خُيِّل للكثيرين أننا في يوم عيد.. يوم عيد يا عزيزتي إيمي، إنني أحاول طيلة نصف هذا اليوم أن أتذكر اسم ذلك السيد الذي وفد من كامبريل، والذي قُدِّم إليّ في أسبوع الاحتفال بعيد الميلاد الماضي. وكان الذي قدّمه إليّ ذلك الرجل اللطيف، تاجر الفحم الذي حُكِم عليه بالسجن هنا ستة أشهر.

- إنني لا أتذكر اسمه يا أبي.

- أتذكر أنت اسمه يا فريدريك؟

وقال فريدريك إنه يرتاب في أنه سمع عنه إطلاقاً. ولم يكن ثمة من يشك في أن فريدريك هو آخر إنسان على وجه الأرض يمكن أن يجيب عن سؤال كهذا.

وقال أخوه:

- أعني ذلك السيد الذي قام بذلك العمل الكريم بتلك الرقة البالغة. ها! ويحي! لقد غاب الاسم عن ذاكرتي. سيد كلينام. ما دمت قد تحدثت عن ذلك العمل الكريم الرقيق، فربما.. أعني لعلك تريد أن تعرف ما هو..

فقال آرثر وقد سحب نظراته عن رأس إيمي الرقيقة التي بدأت تنحني، وعن الوجه الشاحب الذي تسللت إليه أمارات من الجزع والإشفاق.

وعاد الرجل يقول:

- لقد كان عملاً كريماً ينم عن أرق المشاعر بحيث لا أكاد أجد مفراً من أن أشيد به. وقد قيل في ذلك الحين إنني دائماً أذكر هذا العمل في كل مناسبة دون مراعاة لحساسيتي الخاصة. آه.. حسناً.. لا جدوى من إخفاء الحقيقة ويجب أن تعلم يا سيد كلينام أنه قد يحدث في بعض الأحيان أن الأشخاص الذين يأتون هنا يرغبون في أن يقدموا -بعض الإكراميات- لأبي هذا المكان.

وكان منظراً مؤلماً أن ترى يد إيمي وهي تضعها على ذراع والدها في شبه ابتهال صامت، وجسمها الصغير الوجل وهو ينكمش مستديراً عنه.

واستطرد والدها قائلاً بصوت خافت منفعل وهو يتنحنح بين الحين والحين:

- في بعض الأحيان، أقول.. إن هذه الإكرامية في بعض الأحيان تتخذ هذا المظهر أو ذاك، ولكنها تكون عادة مالاً.. وفي الغالب تكون هذه الإكرامية أقول.. تكون.. مقبولة. وذلك السيد الذي أشرت إليه يا سيد كلينام، قدم إليّ بطريقة مرضية جداً لمشاعري، وقد تحدث إليّ بكل أدب ولطف فضلاً عن علمه الغزير.

وكان خلال هذا الوقت كله، ورغم أنه فرغ من عشائه، يحرك الشوكة والسكين في جوانب صحنه بحركة عصبية، وكأنها لا يزال فيه بقايا من طعام. وقد استطرد يقول: «وكان يبدو من حديثه أن لديه حديقة، وأذكر أنه كان لبقاً في الإشارة إليها في أول الأمر باعتبار أن الحدائق لا أستطيع بلوغها ولكن الحديث عنها نبع من إعجابي بباقة جميلة جداً من زهور الجيرانيا، وكانت بالتأكيد باقة جميلة جداً من هذه الزهور، كان قد جاءني بها من مشتله. ولما أعربت عن إعجابي بألوانها البديعة، أطلعني على ورقة ملفوفة حولها ومكتوباً عليها «مهداة لأبي مارشاليزا» ثم قدّمها إليّ. ولكن لم يكن هذا كل شيء. لقد ألحّ عليّ في الرجاء، وهو ينصرف، لكي أرفع الورقة من البطاقة بعد نصف ساعة. وهذا.. وهذا ما فعلته، و.. وجدت أنها تنطوي على.. جنيهين. أؤكد لك يا سيد كلينام أنني تلقيت الكثير من الإكراميات بأساليب مختلفة، وذات قِيَم مختلفة، وكانت كلها -للأسف الشديد- مقبولة. ولكنني لم أسعد في حياتي كما سعدت بهذه الإكرامية الخاصة.

وفيما كان آرثر يقول ما ينبغي أن يقال في مثل هذا الموضوع، بدأ جرس ما يصلصل ثم اقترب وقع أقدام من الباب، ثم دخلت فتاة جميلة لها جسم أجمل كثيراً، وأكثر امتلاءً ونمواً من دوريت الصغيرة وإن كان

وجهها بالمقارنة مع وجه دوريت يبدو أصغر سناً. ولكنها توقفت في مدخل الغرفة عندما رأت الزائر الغريب، وتوقف أيضاً الشاب الذي كان معها.

وقال أبو مارشاليزا:

- أقدم لكِ يا فاني السيد كلينام. وأقدم إليك يا سيد كلينام ابنتي الكبرى وابني. إن صلصلة الجرس هي إعلان للزائرين بالانصراف. وقد جاءا لتحيتي قبل أن ينصرفا، ولكن لا يزال هناك متسع من الوقت.. متسع من الوقت. إن السيد كلينام يا ابنتي سوف يقدر ظروف قيامكما بأي عمل منزلي هنا. فإنه يعرف -كما أظن- أننا لا نقيم إلا في غرفة واحدة.

فقالت فاني:

- إنني أريد فقط ثوبي النظيف من إيمي يا أبي.

وقال تيب:

- وأنا كذلك أريد ملابسي.

وفتحت إيمي درجاً في قطعة أثاث كانت عبارة عن خزانة أدراج في أعلى، وسرير في أسفل، ثم أخرجت صرتين صغيرتين، أعطتهما لأخيها وأختها التي قالت بصوت هامس سمعه كلينام:

- هل أعددت كل شيء!

فأجابت إيمي بقولها:

- أجل.

وكان قد نهض عندئذ، وانتهز الفرصة ليدور بنظراته في جوانب الغرفة، فرأى جدرانها العارية مطلية باللون الأخضر، بيد -كما يلوح- غير مدربة، ومزينة ببعض الرسوم البدائية الرخيصة، وكانت على النافذة ستارة، وعلى الأرضية سجادة، وعلى الجدران أرفف ومشاجب وما إلى

هذه الأدوات التي تجمّعت على مر السنين. كانت غرفة ضيقة محكمة وضيعة الأثاث، مدفأتها كثيرة الدخان، والحاجز الصفيحي في أعلاها لا لزوم له، ولكن العناية الدائمة به جعلته صالحاً ومريحاً إذا قورن بمثيله.

وكان الجرس طيلة هذه المدة لا يزال يصلصل، وأعرب العم عن لهفته للانصراف بقوله وهو يضع حقيبة آلته الموسيقية العتيقة تحت ذراعه:

- هيّا يا فاني.. هيّا.. البوابة يا طفلتي البوابة.

وتمنت فاني لأبيها ليلة طيبة، ثم انصرفت برشاقة، وكان أخوها يهبط السلّم مسرعاً، وقال العم الذي كان يهرع بدوره إلى الخارج ملتفتاً إلى السيد كلينام:

- أسرع يا سيد كلينام.. أسرع.. البوابة يا سيدي.. البوابة.

وكان على السيد كلينام أن يقوم بأمرين قبل أن ينصرف: أن يقدِّم إكراميته أولاً إلى أبي سجن مارشاليزا دون أن يجرح شعور دوريت الصغيرة، وثانياً أن يقول لها شيئاً.. كلمة واحدة يشرح لها سبب حضوره.

وقال الوالد:

- اسمح لي أن أصحبك إلى الفناء.

وكانت دوريت الصغيرة قد انفلتت خارجة وراء الباقين ومن ثَمَّ أمسيا منفردين في الغرفة، فقال كلينام بسرعة:

- لا، لا.. مطلقاً.. اسمح لي أن أقدم..

ثم رنين نقود تنتقل من يد إلى يد، وقال الوالد:

- سيد كلينام.. إنني أعرب عن عميق.. عميق..

ولكن السيد كلينام كان قد ضمّ يده على النقود حتى تكف عن الرنين، ثم انصرف يهبط السلم بسرعة بالغة.

ولم يرَ في طريقه دوريت الصغيرة، ولم يرها أيضاً في الفناء، وإنما رأى اثنين أو ثلاثة من الزائرين المهرعين إلى البوابة، وفيما هو يتبعهم، لمحها واقفة في باب البناء الأول من ناحية المدخل، فتريث وقال لها وهو يستدير بسرعة إليها:

- أرجوكِ أن تغفري لي حديثي معك هنا. بل أرجوك أن تغفري لي حضوري إلى هذا المكان. لقد تبعتك الليلة، وفعلت هذا لكي أستطيع أن أقدم إليك وإلى أسرتك بعض الخدمات. وأنت تعلمين العلاقات القائمة بيني وبين أمي، ولعلك لا تدهشين إذا علمت أنني كنت حريصاً على التباعد عنك في بيتها حتى لا أثير -بغير قصد- غيرتها وسخطها عليك مما قد يسيء إلى مكانتك في نظرها. وإن ما رأيته هناك في هذا الوقت القصير زاد إلى حد كبير رغبتي القلبية في أن أكون صديقاً لك. وإذا أنت حققت أملي في وضع ثقتك بي، فسوف تعوِّضين الشيء الكثير مما شعرت به من ألم واستياء هنا.

وفزعت في أول الأمر، ولكنها أخذت تسترد شجاعتها في أثناء حديثه معها، وأخيراً أجابت عليه قائلة:

- إنك لطيف جداً يا سيدي، وأشعر أنك جاد في حديثك كل الجد. ولكنني كنت أتمنى لو أنك لم تراقبني.

وأدرك هو سر الانفعالات التي أملت عليها هذه العبارة الأخيرة، إنها الانفعالات الناشئة عن حالة أبيها. وقد احترم شعورها من ثَمَّ، والتزم الصمت.

وعادت هي تقول:

- لقد أسدت السيدة كلينام إلينا خدمات جليلة، ولست أدري ماذا كنا نفعل لو لم تستخدمني لديها. وأخشى أن أكون ناكرة لفضلها إذا

أنا تحدثت من ورائها بشيء. ولا أستطيع أن أزيد الليلة عن هذا يا سيدي، ولكنني واثقة أنك تريد بي خيراً، فشكراً لك.. شكراً لك.

– دعيني أوجه إليك سؤالاً واحداً قبل أن أنصرف. هل تعرفين أمي منذ أمد طويل؟

– أعتقد منذ عامين يا سيدي. لقد انقطعت صلصلة الجرس.

– كيف عرفتها في أول الأمر؟ هل أرسلت إليك؟

– لا. إنها حتى اليوم لا تعرف أني أقيم هنا. إن لنا -أبي وأنا- صديقاً من العُمّال الفقراء، ولكنه من أصدق الأصدقاء. وقد كتبت إعلاناً عن رغبتي في القيام بشغل التطريز والإبرة، وذكرت عنوانه هو في الإعلان. وأخذ هو يعرض هذا الإعلان حيث لم يكن يكلف شيئاً. وهكذا عرفت السيدة كلينام بأمري، فأرسلت تدعوني. إن البوابة تُغلَق يا سيدي.

وكانت شديدة الاضطراب والانفعال، وكان هو قد بلغ من العطف عليها والتأثر العميق بقصتها أن شق عليه انتزاع نفسه من أمامها. إلا أن انقطاع صلصلة الجرس، والهدوء الذي خيّم على السجن كانا نذيراً له بالإسراع إلى الانصراف. وبعد كلمات رقيقة قليلة، تركها تعود إلى أبيها.

إلا أنه كان قد تأخر أكثر مما ينبغي. إذ وجد البوابة الداخلية قد أُغلِقت وبعد أن طرق عليها بيده على غير جدوى، وقف وراءها وقد خامره يقين مؤلم بأن عليه أن يبقى في السجن طيلة الليل، وفجأة سمع صوتاً وراءه يقول:

– وقعت في الفخ! هه، إنك لن تستطيع الخروج إلا في الصباح. أوه، أهذا أنت يا سيد كلينام؟

وكان المتحدث هو الشاب تيب. ووقف الاثنان يتبادلان النظرات في فناء السجن وقد أخذ المطر يتساقط.

وعلّق تيب على الموقف بقوله:

- لقد فعلتها يجب أن تكون أكثر حذراً في المرة التالية.

فقال آرثر:

- ولكنك احتُجِزت أيضاً.

فقال تيب في لهجة تهكمية:

- أعتقد هذا. ولكن الأمر مختلف معي، فأنا سجين هنا، وكل ما في الأمر أن من رأي أختي ألا يعرف أبي هذا أبداً. ولست أدري لماذا؟

فقال آرثر:

- هل أجد مثوى هنا؟ ما هو خير ما يمكن أن أفعله؟

فقال تيب في لهجة الذي يجد أن إيمي تستطيع أن تحل كل مشكلة:

- يجب أولاً أن نخطر إيمي.

- إنني أفضِّل أن أتمشى في الفناء طيلة الليل، وليس هذا بالشيء الكثير، على أن أثقل عليها بهذه المشكلة.

- إنك لن تضطر إلى هذا إن لم تمانع في دفع أجر سرير. فإذا لم تمانع، فإنهم سيعدّون لك سريراً على مائدة غرفة الاستراحة بسبب هذه الظروف الطارئة وإذا جئت معي الآن، فسوف أقدمك إليهم.

وفيما هما يعبران الفناء، رفع آرثر عينيه إلى نافذة الغرفة التي غادرها منذ وقت قصير، فرآها لا تزال مضاءة، وقال تيب، وهو يتعقب نظراته.

- أجل يا سيدي.. هذه غرفة أبي. إنها ستجلس معه نحو ساعة أخرى تقرأ له صحيفة الأمس أو شيئاً من هذا القبيل، ثم تخرج كشبح صغير، ثم تختفي بلا صوت.

- إنني لا أفهمك.

- إن أبي ينام في الغرفة. أما هي فإن لها مكاناً في مسكن السجان، وهو أول بيت هناك..

وأشار بيده إلى باب البيت الذي التجأت إليه، وأردف قائلاً:

- إنه البيت الأول، وهي تقيم في غرفة بالسطح تدفع فيها ضعف أجر الإقامة في غرفة أفضل منها مرتين في الخارج، لكي تلازم أبي ليلاً.

وكانا عندئذ قد وصلا إلى بناء حانة السجن بالجانب الأقصى حيث كان النزلاء انصرفوا من فورهم عنها ليعقدوا ندوتهم الليلية في الاستراحة. وكانت الشقة التي في الطابق الأرضي من هذه البناية، هي التي تعقد فيها هذه الندوة، وهي نفسها الاستراحة المذكورة. وكانت منصة رئيس الندوة، وأقداح البيرة، والأكواب والمنابع، ورماد التبغ، وغير هذا من مخلفات النزلاء، لا تزال كما هي منذ الاجتماع السابق لأعضائها الصاخبين. وكانت المشروبات التي تقدَّم في هذه الاستراحة ذات خاصيتين في ميدان السُّكْر لا تصلحان للسيدات.. وهما الحرارة والقوة. ولكنها -أي الاستراحة- كانت من ناحية أخرى لا تصلح مسرحاً للسكارى لأنها صغيرة وضيقة.

وكان طبيعياً أن يفترض الزائر الغريب الذي لم يألفها، أن كل من فيها مسجونون: مدير الحانة، وعامل البار، والمناول والخادم وغيرهم. ولكن لا يعرف أحد إن كانوا كذلك أم لا. إلا أنه كان لهم جميعاً ذلك الطابع السقيم. وكان بائع الشموع في الغرفة الأمامية هو الذي يعد الأسِرَّة للزوار الغرباء، وهو الذي ساعد في إعداد سرير لآرثر. وكان في سابق عهده خياطاً للملابس، وكان يمتلك -على حد قوله- مركبة خاصة. وهو يزهو دائماً أنه شاغب كثيراً لمصلحة السجن. إذ كانت لديه

أفكار غير محددة، ولا يمكن تحديدها بأن مدير السجن يحرم النزلاء من «رصيد» هو من حقهم. وكان يجب أن يصدق هذا الزعم، ويحاول دائماً أن يؤثر -بشكواه المزعومة- هذه في الغرباء والنزلاء الجدد، وذلك برغم أنه لا يستطيع بأي حال أن يشرح ماذا يعني بكلمة «الرصيد» أو كيف انغرست هذه الشكاوى المزعومة في أعماق نفسه. وكان مع هذا قد أقنع نفسه تماماً بأن نصيبه في هذا «الرصيد» هو ثلاثة شلنات وثلاثة أرباع الشلن في الأسبوع. وأنه -كواحد من النزلاء- يروح كل يوم اثنين ضحية احتيال مدير السجن. ويبدو أنه يحرص على المساعدة في إعداد الأسِرَّة للزوار الغرباء حتى لا تفلت منه فرصة الحديث عن هذا الموضوع. وبعد أن يفرغ ذات نفسه، وبعد أن يعلن -كعادته دائماً كما يلوح، ودون أن يفعل أبداً- أنه سيكتب خطاباً إلى الصحف ليكشف أمر مدير السجن، يشترك في المناقشات المتعددة مع الباقين. وكان الواضح من الاتجاه العام للجميع أنهم أصبحوا ينظرون إلى «حالات الإفلاس» على أنها هي الحالة الطبيعية للإنسان، وأن تسديد الديون مرض يظهر بين الحين والحين.

في هذا الجو العجيب، وفي هذه المناظر الغريبة التي كانت تمر به راح آرثر كلينام ينظر إلى عملية إعداد السرير وكأنه في حلم. وعدا هذا كان تيب الدارس لهذا الجو منذ أمد بعيد، والمبتهج بموارد الاستراحة، يشير إلى نيران المطبخ العام الذي يشترك الأعضاء في نفقاته، وإلى سخان الماء الذي يخضع لهذا الاشتراك التعاوني أيضاً، وإلى غير هذا من المعالم التي يرى بوجه عام أنها ستجعل من سجن مارشاليزا مكاناً صحياً موفور الرخاء.

ووضعت المائدتان -بالطول- جنباً إلى جنب في ركن من الغرفة، فأصبحتا سريراً لا بأس به. وترك الزائر بمفرده أخيراً مع مقاعد وندسور، ومنصة الرئاسة، والجو المخمور، ونشارة الخشب على الأرضية، ونفاية

المتابغ والمباصق... والنوم. ولكن هذا الصنف الأخير استغرق مدة طويلة، طويلة، طويلة، قبل أن ينضم إلى الأصناف الأخرى، ذلك أن جدة المكان، والدخول فيه بلا استعداد، والشعور بالحبس فيه، والتفكير في غرفة بالطابق الأعلى حيث يقيم أبو مارشاليزا، وفي الأخوين، وفي الفتاة الضئيلة المستكينة في غرفتها الخاصة والوجه الذي ينم عن أن صاحبته عاشت سنوات وسنوات في حرمان وسوء تغذية.. كل هذا جعله يأرق ويأسى.

وأيضاً أخذت التأملات التي تدور حول السجن، ودائماً عن السجن، تعصف بذهنه كالكابوس، وهو رافد مؤرق. كان يتساءل: هل هناك توابيت معدَّة للذين قد يموتون في هذا السجن، وأين تُحفَظ، وكيف تُحفَظ، وأين يُدفَن الذين يموتون في السجن وكيف يُشيَّعون، وما هي المراسم التي تُتَّبع في هذه الحال، وهل يمكن لدائن عنيد أن يقبض على المدين الميت؛ وماذا عن الهرب، ما هي الفرص المتاحة في هذه الناحية؟ هل يستطيع السجين أن يتسلق الجدران بالحبال والخطاطيف؟ وكيف يستطيع أن يهبط من الناحية الأخرى، وهل يمكن أن يهبط على سطح منزل، ثم على السلم، ثم من الباب الخارجي، ثم يتوه في زحام الناس، أما عن اشتعال النار في السجن؛ ماذا لو حدث حريق في أثناء وجوده فيه.

كل هذه التهاويل الخيالية اللاإرادية لم تكن، مع هذا كله، إلا إطاراً لصورة ثبت فيها أمام مخيلته ثلاثة أشخاص. والده بنظراته الثابتة التي مات بها وقد بدا في الصورة تحت غلالة من الظلام، وأمه وهي ترفع ذراعها لتحمي نفسها من شكوكه، ودوريت الصغيرة بيدها الموضوعة على ذراع الرجل المنكسر وبرأسها المنحنية المستديرة بها بعيداً.

ماذا لو كانت لأمه بواعث قديمة تعرفها جيداً وتجعلها ترق لهذه الفتاة! ماذا لو أن ذلك السجين النائم الآن في هدوء - وليحقق الله هذا!

استطاع في نور عدالة يوم الحساب أن يحمّلها مسؤولية سقوطه ومأساته؟ ماذا لو أن بعض تصرفاتها أو تصرفات أبيه -مهما كانت بعيدة- هي التي وضعت رأس هذين الشقيقين في الرغام!

ومرّت فكرت خاطفة بذهنه: ترى هل تجد أمه نوعاً من التوازن بين هذا السجن الطويل هنا، وبين انطوائها الطويل على نفسها في غرفتها هناك؟ «أعترف أنني أحد الذين عانوا بسبب سجن هذا الرجل. لقد تعذبت لهذا السبب بطريقة ما. لقد تحلل هو في سجنه، وتحللت أنا في سجني. وهكذا دفعت الثمن».

ولما تلاشت جميع الأفكار الأخرى، استغرقته هذه الفكرة الأخيرة واستبدت بذهنه. وهكذا عندما استغرق في النوم، جاءته على مقعد متحرك لتدافع عن نفسها بمثل هذا التبرير. ولما استيقظ وثب في خوف لا مبرر له، كانت هذه الكلمات ترن في أذنيه، وكأنما صوتها قد تحدث بها في بطء عند وسادته لكي تقطع عليه راحته:

«إنه يذوي في سجنه، وأنا أذوي في سجني، وهكذا تحققت العدالة المحتومة فهل بقي ثمة ذنب عليّ».

* * *

الأم الصغيرة



كان ضوء الصباح متمهلاً في تسلق جدران السجن والنفاذ من خلال نوافذ الاستراحة. فلما وصل أخيراً، كان من الممكن أن يلقى ما ينبغي من الترحيب لو أنه جاء بمفرده بدلاً من أن يجلب معه وابلاً من المطر. ولكن العواصف المدارية كانت تهب على البحر، وأبت الرياح الجنوبية الغربية المعتدلة في أثناء فرارها أن تنسى المرور حتى على حي مارشاليزا الضيق. وفيما كانت تعصف خلال أبراج كنيسة القديس جورج، وتلعب بنفايات المداخن في الطرقات المجاورة، اندفعت لتسوق أمامها الدخان المتجه جنوباً إلى السجن، ثم تغوص داخل مداخن نزلائه القليلين الذين بكّروا في النهوض وأضرموا النيران، حتى كادت تخنق أنفاسهم.

وكان آرثر كلينام يود لو استطاع أن يتلكأ قليلاً في سريره رغم حالته البدائية، ومن ثم لم يحفل كثيراً بعملية إزالة بقايا نيران اليوم السابق، وإضرام النيران تحت سخانات النزلاء في هذا اليوم، وملء الدلاء من المضخة المائية البدائية وكنس أرضية غرفة الاجتماع وإعادة فرشها بنشارة الخشب، وما إلى هذا من الترتيبات. ورغم أنه لم يسترح في أثناء الليل إلا قليلاً، إلا أنه شعر بالابتهاج القلبي حين رأى ضوء الصباح، فانفلت من سريره بمجرد أن استطاع أن يتبين الأشياء حوله وراح يتمشى في الفناء لمدة ساعتين ثقيلتين قبل أن تفتح البوابة.

وكانت الجدران جد متقاربة بعضها من بعض، والسحب العنيفة تندفع فوقها بسرعة بالغة بحيث كان النظر إلى السماء المكفهرة يجعله يشعر ببوادر تشبه دوار البحر. وكانت الأمطار المنهمرة في وضع مائل بسبب هبات الرياح تغلّف بالسواد ذلك الجانب من البناء الرئيسي الذي زاره في الليلة الماضية، ولكنها أي الأمطار، تركت مكاناً جافاً بجانب الجدار الذي راح يتمشى ذهاباً وجيئةً تحته بين أخلاط من القش والتراب والأوراق والقطرات الساقطة من مضخة الماء وأوراق الشجر المتساقطة في اليوم السابق. وكان المنظر بوجه عام من أبغض المناظر التي يضطر الإنسان إلى رؤيتها.

وربما ازداد إحساساً بذلك الشعور الثقيل لعدم رؤيته تلك المخلوقة الصغيرة التي جاءت به في اليوم السابق إلى ذلك المكان. لعلها انفلتت من غرفتها إلى حيث يقيم أبوها، عندما كان معرضاً بوجهه. إنه على أية حال لم يرها. ولم يكن يتوقع أن يرى أخاها في مثل هذا الوقت المبكر. لأنه يكفي أن يراه الإنسان مرة واحدة حتى يدرك أنه من النوع الخامل الذي لا ينهض بسهولة من فراشه المريح حيث رقد طوال الليل. وهكذا راح آرثر كلينام -وهو يتمشى في الفناء انتظاراً لفتح البوابة- يفكر في المستقبل أكثر من تفكيره في الحاضر ليصل إلى خير وسيلة لمتابعة اكتشافاته.

وأخيراً فُتِحت البوابة، واستعد السجان الذي وقف يمشط شعره على أول درجة من السلم، أن يطلق سراحه. واجتاز البوابة يخامره إحساس بهيج بالخلاص، ووجد نفسه في الفناء الصغير الخارجي الذي تحدث فيه مع الأخ في الليلة السابقة.

وكان ثمة مجموعة من الناس قد أخذوا يتزاحمون للدخول، ولم يكن من الصعب أن يعرف أحد أنهم السعاة الذين يصلون بين نزلاء السجين والحياة الخارجية، والذين يؤدون لهم بعض مطالبهم من الخارج.

وكان بعضهم قد وقفوا ينتظرون تحت وابل المطر ميعاد فتح البوابة. وكان غيرهم -الذين أحسنوا تحديد الموعد- قد بدؤوا يتوافدون الآن، داخلين بحمولتهم من أكياس الورق المقوى المليئة بأنواع البقالة وأرغفة الخبز وقطع الزبدة، والبيض، واللبن، وما إلى هذا. وكانت رثاثة هؤلاء السعاة الخادمين، وفقر هؤلاء الخدم المفلسين الخاوين، من المناظر التي تستحق أن تُرى. وأكبر الظن أنه لم يشاهد قط في أي سوق للملابس المستعملة مثل تلك السترات والسراويل البالية، ولا مثل تلك المطارف والأثواب المهلهلة، ولا مثل أغطية الرأس تلك الكالحة، ولا مثل تلك الأحذية أو المظلات أو العصي القديمة..! كانوا جميعاً يرتدون الملابس التي سبق أن استعملها غيرهم من الرجال والنساء. وكانوا جميعاً يحملون رقعاً وسمات غيرهم من الشخصيات بحيث فَقَد كل منهم كل سمة خاصة من السمات الذاتية. وكانت مشيتهم، مشية جنس مختلف. وكانت لهم طريقتهم الخاصة في حرصهم الشديد على التسكع حول الأركان وكأنهم في طريق دائم إلى مكتب الرهونات. وإذا سعلوا، فإنهم يسعلون كأشخاص تعودوا أن يُترَكوا مهملين على عتبات الأبواب، وفي الممرات المعرضة للتيارات الهوائية في انتظار الإجابة عن رسائل مكتوبة بمداد باهت تثير في أذهان المرسل إليهم اضطراباً وتفكيراً مرهقاً. وكانوا وهم يرمقون هذا الغريب، يرمقونه بعيون محملقة جائعة حادة تتوقع -مما يبدو عليه من رقة وترف- أن تستفيد منه بشيء ما. وكانت روح التسول تبدو في أكنافهم المتهدلة، وفي أرجلهم المضطربة كما كانت مغلفة وراء أزرارهم، ومثبتة ومرفية في أطمارهم، ومطلة من عرى أزرارهم، ومنسابة من أجسادهم في قطرات قذرة متواصلة، وتفوح من أفواههم في أنفاس مخمورة.

وفيما كان هؤلاء الناس يمرون به وهو واقف في الفناء الخارجي لا يريم، وفيما كان أحدهم يستدير ويسأله إن كان في حاجة إلى مساعدة، خطر ببال آرثر كلينام أنه يستطيع أن يتحدث مع دوريت مرة أخرى قبل

أن ينصرف، لا شك أنها تمالكت نفسها بعد المفاجأة الأولى، ومن المحتمل أن تستريح من ثَمَّ إليه. وهكذا سأل ذلك العضو من تلك الجماعة -وكان يحمل سمكتي رنجة حمراء في يده، وتحت ذراعه رغيف وفرشاة سوداء- أين يوجد أقرب مقهى من المكان فأجاب ذلك النكرة إجابة مُرْضية وصحبه إلى مقهى في الشارع على مرمى حجر من السجن.

وسأل العميل الجديد ذلك النكرة قائلاً:

- هل تعرف الآنسة دوريت؟

وكان ذلك النكرة يعرف اثنين بهذا الاسم: واحدة وُلدت في السجن، فلا شك أنها هي.. لا شك أنها هي. إن هذا النكرة يعرفها منذ سنوات.. أما فيما يختص بالآنسة دوريت الأخرى، فإن هذا النكرة يقيم معها ومع عمها في بيت واحد.

وغيّر هذا الوضع الخطة التي كانت تختمر في ذهن العميل الجديد للبقاء في المقهى حتى يحمل إليه ذلك النكرة نبأ خروج دوريت من بوابة السجن. لقد رأى، بدلاً من هذا، أن يعهد إليه بحمل رسالة خاصة إليها، مؤداها أن الزائر الذي تشرَّف برؤية أبيها في الليلة الماضية، يرجو أن تسمح له بالتحدث معه في مسكن عمها. وكان قد حصل من نفس المورد على عنوان البيت الذي كان بالفعل قريب. وبعد أن صرف النكرة مانحاً إياه نصف ريال، وبعد أن انتعش بقدح من القهوة، انطلق مسرعاً إلى مسكن العم عازف الكلاريونيت.

وكان في البيت عدد كبير من السكان بحيث بدت أجراس الباب الخارجي المتصلة بالمساكن من الكثرة بما يجعلها تشبه مفاتيح أرغن الكنيسة. وفيما كان واقفاً لا يدري أي جرس من هذه الأجراس متصل بمسكن عازف الكلاريونيت، إذا بدمية طائر تطير من نافذة الغرفة الأمامية وتحط

على قبعته. ولاحظ عندئذ أن لنافذة تلك الغرفة ستارة تحمل هذه العبارة «معهد المستر كريبلز» وتحتها هذه العبارة أيضاً «دروس مسائية» ومن وراء الستارة بدا وجه أبيض صغير لصبي في يده قطعة خبز بالزبدة وبعض الحلوى. ولما كانت النافذة قريبة من المدخل، فقد أطل إلى الداخل من وراء الستارة، وأعاد دمية الطائر وسأل الصبي عن السيد دوريت.

وأجاب الصبي -الذي كان تلميذاً للسيد كريبلز - قائلاً:

- دوريت؟ السيد دوريت؟ الجرس الثالث. دقة واحدة.

ويبدو أن تلاميذ السيد كريبلز كانوا يتخذون من باب البيت كراسة للكتابة، لأنه كان ممتلئاً كتابة بالقلم الرصاص. وكانت كثرة كتابة «دوريت العجوز» و«ديك القذر» دليلاً على اهتمام تلاميذ السيد كريبلز بهذه الشخصية. وفيما كان آرثر كلينام يلاحظ هذا، إذ بالباب يُفتح ويظهر منه العجوز المسكين نفسه.

قال وقد تذكر آرثر ببطء:

- آه! هل أغلقت دونك البوابة في الليلة الماضية!

- أجل يا سيد دوريت. إنني آمل أن أقابل ابنة أخيك هنا بعد قليل.

فقال الرجل مفكراً:

- أوه! بعيداً عن أخي؟ حسناً. أتسمح بالصعود وانتظارها؟

- شكراً.

وراح يستدير بنفس البطء الذي يقلب به في ذهنه كل ما سمعه أو يقوله، ثم مضى يصعد سلّماً ضيقاً. وكان البيت خانق الجو جداً، تفوح منه رائحة ضارة. وكانت نوافذ بئر السلم الصغيرة، تطل على النوافذ الخلفية

لبيوت لا تقل في اختناق أجوائها عن هذا البيت، وقد برزت منه القوائم الخشبية والحبال المعلقة عليها ملابس داخلية كريهة المنظر. وكأنها هي صنارات نصبها السكان لصيد الملابس، فجاءت بصيد حقير لا يستحق الاهتمام. ووصلا إلى غرفة خلفية في السطح.. غرفة غير صحية، فيها سرير تكومت عليه بسرعة بعض الأغطية والبطاطين حتى بدا كخزانة مفروشات قديمة مفتوحة الغطاء، ونصف طعام إفطار من الخبز المحمر والقهوة لشخصين ملقاً كيفما اتفق على مائدة قديمة متأرجحة.

ولم يكن ثمة أحد فيها. ومن ثم غمغم الرجل لنفسه -بعد شيء من التفكير- قائلاً إن فاني غادرتها، ثم ذهب إلى الغرفة المجاورة ليعيدها. ولاحظ أنها راحت تقاوم باب الغرفة المجاورة عندما أخذ العم يدفعه ليفتحه وهي تهتف بحدة:

- ارجع أيها الأحمق.

وكان ما بدا من ساقها العارية، وسقوط بعض ملابسها الداخلية على الأرضية أنها خالعة ملابسها، ودون أن يبدو على العم أنه استنتج من هذا الوضع شيئاً، عاد بخطواته المتثاقلة إلى غرفته، وجلس في مقعده، وأخذ يدفئ يديه على النار، ولم يكن يفعل هذا لأن الجو كان بارداً، أو لأن لديه أية فكرة عما إذا كان الجو بارداً أم لا.

ولما أدرك، تدريجياً سخافة ما يفعل، رفع يديه، ومدّهما إلى رف المدفأة حيث تناول حقيبة آلته الموسيقية وسأل آرثر قائلاً:

- ما رأيك في أخي يا سيدي؟

فقال آرثر في ارتباك شديد، لأن أفكاره عندئذ كانت مركزة على هذا الأخ الجالس أمامه:

- لقد سررت جداً حين رأيته على هذا النحو من الصحة والبشاشة.

فغمغم العجوز قائلاً:

- ها! نعم، نعم، نعم.

وتساءل آرثر في نفسه عما يمكن أن يرغب فيه هذا الرجل من حقيبة الآلة الموسيقية. إنه لم يكن يريدها ألبتة. ويبدو أنه اكتشف في الوقت المناسب أنها ليست ورقة النشوق -التي كانت أيضاً على رف المدفأة- فأعادها إلى مكانها مرة أخرى، وتناول بدلاً منها ورقة النشوق. ورفّه عن نفسه بالقليل منه. وكان في عملية تنشيقه للسعوط بطيئاً، واهناً، متمهلاً كشأنه في كل شيء آخر. إلا أن لمحات صغيرة محددة من الاستمتاع كانت في هذه الحالة تتراقص على أعصابه المتهادية، وتبدو عند أركان فمه وعينيه!

وعاد يقول:

- وإيمي يا سيد كلينام! ما رأيك فيها؟

- لقد أثّرت فيّ كثيراً جداً يا سيد دوريت بما رأيته منها، وما وقر في ذهني عنها.

- لولا إيمي لضاع أخي تماماً. بل لضعنا كلنا تماماً لولاها. إن إيمي فتاة طيبة جداً، إنها تؤدي واجبها.

وخيّل إلى آرثر أنه يسمع في هذا المديح نفسه الطابع التقليدي الذي سمعه في الليلة الماضية من الوالد، والذي كان ينطوي على نوع من الاعتراض وإحساس داخلي بالعداء، ولا يعني هذا أنهم كانوا مقتصرين في مدحها أو جاهلين بما تقدمه لهم وإنما كانوا بدافع الكسل قد اعتادوا عليها، كما اعتادوا على كل شيء في حالتهم الراهنة. وتراءى له أنهم، رغم رؤيتهم كل يوم لأسباب المقارنة بينها وبين كل واحد منهم على حدة، وبينها وبينهم جميعاً، فقد استمروا يعتبرونها في مكانها الحتمي الذي

يجعلها تقف منهم جميعاً هذا الموقف الطبيعي الخاص بها، مثل اسمها، وعمرها. تراءى له أنهم لا ينظرون إليها على أنها نبعت من جوف السجن، وإنما منتسبة فقط إليه، وأن عليها أن تحقق لهم ما ينتظرونه منها، ولا شيء آخر.

واستأنف عمّها تناول طعام الإفطار، فراح يمضغ الخبز المحمر، ويشرب القهوة غير حافل بالزائر. وفجأة صلصل الجرس الثالث. فقال إنها إيمي، ثم هبط ليُدخِلها، تاركاً الزائر مع صورة له واضحة تماماً في ذهنه عن يديه المغبرتين ووجهه المضيم القذر، وجسمه المتداعي، حتى لكأنه لا يزال متهالكاً في مقعده.

وأقبلت وراءه في ثوبها العادي المألوف، وهيئتها الطبيعية التي تنم عن الوجل، وكانت شفتاها مفترتين قليلاً كأنما قلبها كان ينبض بأسرع من المعتاد.

قال عمها:

- إن السيد كلينام هنا يا إيمي ينتظرك منذ مدة.

- لقد تجرأت وبعثت إليك برسالة.

- وصلتني هذه الرسالة يا سيدي.

- هل ستذهبين إلى بيت أمي في هذا الصباح؟ لا أعتقد، لأن موعد ذهابك قد فات.

- لا، ليس اليوم يا سيدي، لأنها لا تريدني اليوم.

- أتسمحين لي بالسير معك قليلاً في أية جهة تكونين ذاهبة إليها؟ إنني عندئذ أستطيع أن أتحدث إليك في أثناء سيرك، فلا أعطلك هنا، ولا أبقى دخيلاً على هذا المكان أكثر من هذا أيضاً.

وبدا الارتباك عليها، ولكنها لم ترفض. وتظاهر هو بالبحث عن عصاه حتى يتيح لها فرصة ترتيب سرير عمها، وإجابة نقرات أختها المتوالية على الجدار الفاصل بين الغرفتين، وتوجيه كلمة إلى عمها بصوت خفيض. وبعد أن وجدها، هبط مع إيمي التي تقدمته أولاً وهو وراءها، بينما وقف عمها على رأس السلّم ناسياً -على الأرجح- كل شيء عنهما قبل أن يغيبا عن ناظريه.

وفي هذا الوقت كان تلاميذ مدرسة السيد كريبلز قد فرغوا من فسحتهم الصباحية وتوقفوا عن ضرب بعضهم البعض بالحقائب المدرسية والكتب، وأخذوا يتوافدون، ولكنهم تسمروا في أماكنهم وشرعوا يحملقون بكل عيونهم إلى هذا الغريب الذي جاء لزيارة «ديك القذر». وتحملوا هذا المنظر في سكون حتى إذا ابتعد هذا الزائر الغريب مسافة ما عنهم، انفجروا يتقاذفون ويتصايحون، وراحوا يرقصون ويصيحون ويشقون السكون بصيحات وصرخات وحشية.

وفي غمرة هذا الاحتفال الصاخب، قدم السيد كلينام ذراعه إلى دوريت الصغيرة، فتقبّلتها بلا ممانعة، وعندئذ قال لها:

- هل ستذهبين عن طريق أيرن بريدج حيث ثمة مهرب من ضوضاء الشارع؟

فأجابت دوريت قائلة: «إذا سمحت». ثم تجرأت بعد قليل وأعربت عن أملها في ألا يلقى كبير بال لتلاميذ السيد كريبلز، لأنها نفسها تلقت تعليمها -أياً كان نوع هذا التعليم- في القسم المسائي بمعهد السيد كريبلز؛ فأجاب بكل روح طيبة بأنه غفر لتلاميذ السيد كريبلز كل شيء من أعماق قلبه. وهكذا أصبح السيد كريبلز -دون أن يشعر- محور الرسميات بينهما، وقد قرب أحدهما إلى الآخر بطريقة طبيعية أكثر مما كان

يفعل الملك «بوناش» لو أنهما عاشا في عهده الذهبي، حتى لو اضطر إلى الترجل عن مركبته الذهبية بجيادها الستة لهذا الغرض.

وظل الصباح مكفهراً، والشوارع موحلة بشكل مزعج، إلا أنه لم يكن ثمة مطر يتساقط في أثناء سيرهما نحو «أيرن بريدج». وكانت المخلوقة الضئيلة تبدو في عينيه صغيرة بحيث كانت تأتي عليه لحظات وهو يفكر فيها -إن لم يتحدث إليها- على أنها طفلة. وربما كان يبدو عجوزاً في عينيها بقدر ما كانت هي تبدو طفلة في عينيه.

- إنني جد آسفة يا سيدي لما أصابك الليلة الماضية من ضيق بسبب إغلاق البوابة عليك. لقد كان هذا من دواعي الأسف الشديد.

فقال إنه لم يكن في الأمر ما يسبب ضيقاً، وإنه نام على سرير جيد جداً. وعندئذ قالت بسرعة:

- أوه، نعم، نعم، أظن أن في مقهى السجن أسِرّة ممتازة.

ولاحظ أن مقهى السجن كان في نظرها فندقاً فاخراً، وأنها تزهو بشهرته. وعادت تقول:

- أعتقد أن المبيت فيه غالي الثمن جداً.

ثم أردفت قائلة في إشفاق:

- وقد أخبرني أبي أن الإنسان قد يجد فيه وجبات غداء ممتازة مع خمر فاخرة.

- هل ذهبت إلى هناك مرة؟

- أوه، لا. ذهبت فقط إلى المطبخ لآتي ببعض الماء الساخن.

واشتد تأثر كلينام وهو يرى أمامه إنسانة تنشأ وهي تشعر بالرهبة النابعة من فخامة حانة داخل سجن مارشاليزا. وأخيراً قال لها:

- لقد سألتك أمس كيف تعرفت بوالدتي. هل سبق أن سمعت باسمها قبل أن تُرسِل لاستدعائك!

- لا يا سيدي.

- أتظنين أن أباك سمع باسمها من قبل؟

- لا يا سيدي.

وتلقى نظراتها حين رفعت عينيها إليه وقد امتلأتا بالكثير من العجب والتساؤل، وكانت قد فزعت حين دار الحديث عن هذا الموضوع، وانكمشت في نفسها مرة أخرى، ومن ثَمَّ أحس أن عليه أن يقول:

- إن لي باعثاً على هذا السؤال لا أستطيع أن أشرحه تماماً الآن، ولكن يجب -مهما يكن الحال- ألا تظني أن لهذا السبب علاقة تؤدي إلى الإضرار بك أو إثارة انزعاجك على الأقل. بل على العكس تماماً. وأنت تظنين أن اسمي، كلينام، لم يكن مألوفاً لأبيك في أي وقت من أوقات حياته؟

- لا يا سيدي.

وأحس من نبرات صوتها الذي تتحدث به أنها كانت ترفع نظراتها إليه بهاتين الشفتين المرتعشين، ومن ثم حرص على أن ينظر قدماً أمامه بدلاً من أن يجعل قلبها يزداد خفقاناً بإثارة ارتباكها من جديد.

وهكذا وصلا إلى طريق «أيرن بريدج» الذي بدا هادئاً بعد ضجيج الشوارع وكأنما هو طريق في منطقة ريفية. وكانت الرياح تهب في عنف، وهبات العاصفة المعولة الليلية تتجاوزهم مدمدمة وتعبر البرك الصغيرة في الطريق وعلى الأرصفة وتفرغ مطرها في النهر، وكانت السحب تتسابق في اهتياج على صفحة السماء القاتمة، ومن ورائها تتسابق الأدخنة والضباب، كما كانت مياه النهر المربدة تندفع كالمد، بقوة وعنف في نفس الاتجاه. وفي هذا الجو العاصف بدت دوريت أقل وأهدأ وأضعف مخلوقات الله.

وقال آرثر:

- دعيني أستأجر لك مركبة.

وكاد أن يضيف إلى هذا قوله:

- يا طفلتي المسكينة.

إلا أنها رفضت بسرعة قائلة إنه لا فرق كبير لديها بين الرطوبة والجفاف، لأنها اعتادت أن تخرج في كل الحالات الجوية، وكان يعرف أن هذه هي الحقيقة، ومن ثم شعر بالمزيد من العطف والرثاء وهو يفكر في هذه المخلوقة الصغيرة التي بجانبه وهي تشق طريقها في الليل عبر شوارع رطيبة مظلمة مزعجة لتصل إلى مكان إقامتها في السجن.

وقالت له:

- لقد كنت جد شفيق في حديثك معي في الليلة الماضية يا سيدي، كما عرفت فيما بعد أنك كنت بالغ الكرم مع أبي، ومن ثَمَّ لم أستطع أن أرفض رسالتك ولو لكي أشكرك فقط، لا سيما وقد كنت شديدة الرغبة في أن أقول لك..

وهنا ترددت وارتعدت وطفرت إلى عينيها الدموع، دون أن تتساقط.

- أن تقولي لي..؟

- إني أرجو ألا تسيء فهم أبي. لا تحكم عليه يا سيدي كما تحكم على غيره من الذين يعيشون خارج السجن. لقد عاش هناك طويلاً، ولم أره في حياتي يغادره، إلا أني أستطيع أن أدرك أنه تغير في بعض النواحي منذ إقامته.

- إن أفكاري نحوه لن تكون أبداً ظالمة أو قاسية. صدقيني.

فقالت في صوت أكثر زهواً خشية أن تبدو في نظره أنها تخلت عن تأييد أبيها:

- إنه لم يدخل السجن لشيء يدعوه إلى الخجل أو يجعلني أشعر بالخجل من أجله. إنه في حاجة فقط إلى أن يفهمه الناس، وكل ما أطلبه له أن يذكره الناس بالخير، وإن كل ما قاله كان صدقاً، إذ أنه ذكر ما حدث تماماً بلا تحريف. وهو موضع الاحترام الكامل من الجميع، وإن كل من يأتي إلى السجن يسرّه أن يتعرف به، وإن الجميع يجاملونه ويقدِّرونه أكثر مما يفعلون لغيره. بل إنهم يحترمونه أكثر جداً من مدير السجن نفسه.

إذا أمكن أن تكون الكبرياء بريئة، فإن براءتها تمثلت في دوريت الصغيرة حين أخذت تزهو بأبيها.

- لقد قيل كثيراً إن تصرفاته تنم عن أنه إنسان مهذب كريم الأصل ومثقف. وأنا لم أرَ مثل تصرفاته في ذلك المكان، إلا أن الجميع قد اعترفوا بأنه ممتاز عنهم. وهذا هو السبب الذي جعلهم يقدِّمون إليه الهدايا لأنهم يعلمون أنه في أشد الحاجة. وليس ثمة ما يُلام عليه بسبب هذه الحاجة، أبي الحبيب المسكين. إذ أين هذا الذي يقضي في السجن ربع قرن ثم يكون ميسور الحال.

أي حب في كلماتها، وأي حنان في دموعها المكبوتة، وأي روح من الوفاء تكمن في أعماقها، وأي نور حقيقي يكسف كل ضوء زائف حولها.

- وإذا كنت قد آثرت أن أخفي مكان إقامتي عن العالم الخارجي، فإني لم أفعل هذا خجلاً منه. حاشا لله! لا ولا خجلاً من المكان نفسه كما قد يظن البعض. لقد رأيت كثيراً من الناس الكرام الطيبين الأمناء يأتون إلى ذلك المكان بسبب سوء الحظ. وهم جميعاً يعاملون بعضهم بعضاً في مودة وعطف. وإنه ليكون جحوداً مني لو نسيت أنني استمتعت بساعات كثيرة هناك من الراحة والهدوء، وأني ظفرت بالكثيرين من الأصدقاء

الممتازين الذين كانوا يحبونني حقاً وأنا طفلة صغيرة، وأني قد تعلمت هناك واشتغلت هناك، واستغرقت هناك في نوم مريح. وإني لا أعتقد أن الأمر لن يخلو من القسوة والضعة إذا لم أشعر بشيء من الألفة لذلك المكان، رغم كل شيء.

وهكذا أفرغت ما في قلبها الوفي بكلمات رقيقة وديعة شاخصة بعينيها في شيء من الابتهال إلى صديقها الجديد. وقد استطردت قائلة:

- إنني لم أكن أعني أن أقول كل هذا. كما أنني لم أتحدث في هذا الموضوع من قبل غير مرة واحدة. ولكن يلوح لي أن هذا الحديث قد صحح الأوضاع أكثر مما كانت عليه في الليلة الماضية. وقد قلت إني تمنيت لو أنك لم تتبعني يا سيدي. ولكني لم أعد متشبثة بهذه الأمنية الآن كثيراً -إلا إذا رأيت- أعني أنني لم أكره في الواقع تتبعك لي إلا خوفاً من أن أرتبك في الحديث معك فلا تكاد تفهم حقيقة ما أعني، وهذا ما أخشى أن يكون حدث.

فأكد لها في صدق تام أن هذا لم يحدث إطلاقاً، وكان وهو يتحدث يضع نفسه بينها وبين الرياح والمطر حتى يحميها منهما بقدر ما يستطيع. وأخيراً قال:

- أشعر أنه مباح لي الآن أن أستزيد منك القليل من المعلومات فيما يختص بوالدك. هل دائنوه كثيرون؟

- أوه كثيرون جداً.

- هل تستطيعين أن تذكري لي -وفي مقدوري أن أعرف هذا من مصدر آخر إذا لم تستطيعي- من هو أكثر الدائنين نفوذاً؟

فقالت دوريت -بعد برهة من التفكير- إنها اعتادت أن تسمع منذ أمد بعيد أن لرجل اسمه تايت بارناكل نفوذاً ضخماً في هذا الشأن.

لقد كان مندوباً أو عضو مجلس إدارة، أو حارساً أو شيئاً من هذا القبيل. وكان يعيش -كما أتذكر- في حي جروفنر سكوير أو في مكان قريب جداً منه. وكان موظفاً حكومياً ذا مركز كبير في إدارة الشؤون العامة. وبدا أنه ترسب في نفسها -منذ طفولتها- إحساس عميق بقوة وسطوة هذا السيد تايت بارناكل الضخم المقيم في حي جروفنر أو في مكان قريب منه، والموظف الكبير بإدارة الشؤون العامة بحيث تهاوت نفسها تماماً بمجرد الحديث عنه.

وفكر آرثر في نفسه قائلاً: «لن يكون ثمة ضرر لو أني قابلت هذا السيد تايت بارناكل».

وما كادت هذه الفكرة تستقر في ذهنه بهدوء حتى اعترضتها بذكائها اللماح قائلة وهي تهز رأسها في هيئة الذي عاش حياته في يأس مخيف.

- آه. لقد فكر الكثيرون في العمل على إخراج أبي، ولكنك لا تعرف أية عقبات تعترض التنفيذ.

ونسيت خجلها في تلك اللحظة وهي تتحمس وفي تحذيره من الحطام الغارق الذي يحلم بانتشاله. ورفعت إليه نظرات لم يكن من الممكن -وهي تطل من الوجه الصبور، والجسم الضئيل، الثوب العادي، والريح والمطر- أن تثنيه عن عزمه لمساعدتها.

وعادت هي تقول:

- وحتى لو أمكن إخراجه -وإن كان هذا لم يعد ممكناً الآن- فأين سيعيش أبي، وكيف يستطيع أن يعيش؟ لقد فكرت كثيراً في أنه لو حدث أي تغيير في مجرى حياته، فمن المحتمل ألا يكون ذا فائدة له الآن. لعله لن يلقى من تقدير واحترام الناس خارج السجن ما يلقاه في داخله. ولعله لن يجد في الخارج من رفق المعاملة ما يجده الآن، ولعله نفسه لم يعد يصلح للحياة خارج أسوار السجن كما يصلح لها في داخله.

وهنا لم تستطع لأول مرة أن تتمالك دموعها من الانحدار. أما يداه النحيلتان اللتان طالما راقبهما، وهي تعمل في شغل الإبرة، فقد أخذتا ترتعدان وكل منهما تقبض على الأخرى بعنف.

- بل إن حزناً جديداً سيضاف إلى أحزانه إذا علم أني أشتغل في سبيل الرزق وأن فاني تشتغل أيضاً. إنه ليشعر بأقسى القلق علينا -كما ترى- وهو يشعر بالعجز داخل السجن. فما أطيبه وأكرمه من والد!

وانتظر حتى تهدأ ثورتها العاطفية الصغيرة قبل أن يجيب. وسرعان ما هدأت؛ لأنها لم تتعود أن تفكر في نفسها، أو تثقل على أحد بانفعالاته النفسية. ولم يكن عليه إلا أن يستدير بوجهه نحو أكوام أسقف المنازل وما يتخللها من مداخن كان الدخان يتصاعد منها كثيفاً، وإلى هذه البراري من الصواري على النهر، وإلى هذه البراري من الأخلاط على الشاطئ، ممتزجة بعضها ببعض في اضطراب عاصف، لم يكن عليه إلا أن يفعل هذا إلى أن تعود إلى هدوئها الذي طالما رآها عليه وهي تعمل في شغل الإبرة بمنزل والدته.

- سيسرك أن يطلق سراح أخيك بلا شك؟

- أوه، يسرني جداً.. جداً يا سيدي.

- حسناً. لنوجه آمالنا إليه على الأقل. لقد تحدثت معي في الليلة الماضية عن صديق لك.

فقالت دوريت الصغيرة إن اسمه بلورنيش.

وأين يقيم بلورنيش؟ إن بلورنيش يقيم في «حوش هارت بليدنج» وإنه ليس إلا «نقّاشاً» كما قالت دوريت الصغيرة لتحذِّر آرثر من تكوين فكرة كبيرة عن لورنيش هذا، وكان يعيش في آخر بيت بـ «حوش هارت بليدنج» وإن اسمه مكتوب على بوابة صغيرة.

وكتب آرثر عنوان الرجل، وقدّم إليها عنوان إقامته هو؛ وشعر أنه الآن قد فرغ في الوقت الحاضر مما كان يريد أن يفعله إلا في أن يجعلها، قبل أن ينصرف عنها، تعتمد عليه وأن يظفر منها بوعد للموافقة على هذا. ومن ثم قال وهو يعيد مفكرته إلى جيبه:

- إن لك الآن صديقاً آخر.. وفي أثناء عودتي بك، إنك تريدين العودة أليس كذلك؟

- أوه، نعم، إلى البيت مباشرة.

فاستطرد يقول وقد حزّت في نفسه كلمة «البيت».

- في أثناء عودتي بك، أرجوك أن تقنعي نفسك بأنه قد صار لك صديق آخر، وأنا لن أطالب بشيء، ولن أزيد على هذا القول شيئاً.

- إنك يا سيدي شفيق بي بالفعل، وأنا بالتأكيد لا أحتاج إلى أكثر من هذا.

وقفلا عائدين خلال شوارع موحلة قذرة، وبين حوانيت حقيرة، ويتدافعان بين جماهير من الباعة الجائلين القذرين الذين يكثرون في الأحياء الفقيرة. وبالإجمال لم يكن ثمة شيء يسر إحدى الحواس الخمس. إلا أن الأمر بالنسبة لكلينام لم يكن عادياً وهو يسير في ظروف عادية من المطر والوحل والضجيج، وقد وضع تحت حمايته هذه المخلوقة الصغيرة الرقيقة الحذرة. ولكن لم يكن يهمه كثيراً في تلك اللحظة أو في ذلك المكان مدى الفارق بين عمره وعمرها، أو نوع السر الذي يربط بينهما في أول هذه الحبكة التي صنعها القدر لقصتيهما. وإنما راح يفكر فيها -هي التي وُلدت ونشأت بين هذه المناظر- ولكنها تشمئز منها لأنها لا تنتمي إليها وإن عاشت فيها. وراح يفكر في طول عهدها بأتفه ضروريات الحياة، وفي براءتها، وفي احتياجها السابق إلى غيرها، وفي سنوات عمرها القليلة، وفي هيئتها الطفولية.

ولما وصلا إلى شارع «هاي ستريت» حيث يقوم السجن، سمعا صوتاً يهتف «أيتها الأم الصغيرة.. الأم الصغيرة» وتوقفت دوريت والتفتت وراءها حيث رأت فتاة مهتاجة المشاعر تتواثب نحوها وهي لا تزال تهتف: الأم الصغيرة، ثم تسقط ويتناثر من سلتها الكبيرة محتوياتها من البطاطا في الوحل.

وقالت دوريت:

- أوه، ماجي! يا لك من طفلة بليدة.

ولم تصب ماجي بضرر، وإنما نهضت وشرعت -بمساعدة دوريت وآرثر- في جمع البطاطا. والتقطت ماجي عدداً قليلاً جداً من البطاطا مع كمية كبيرة من الطين. إلا أن حبات البطاطا جُمِعت كلها وأعيدت إلى السلة. وبعد أن حاولت ماجي إزالة الطين عن وجهها بطرف شالها، رفعته إلى آرثر كأنموذج من النقاء، ولكي يرى ما هي عليه من شكل.

كانت في نحو الثامنة والعشرين من عمرها، هيكلها ضخم، وتقاطيعها كبيرة، ضخمة الأطراف، ضخمة العينين، صلعاء. وكانت عيناها الكبيرتان شفافتين بلا لون تقريباً. وبدا عليهما أنهما لا تتأثران، إلا قليلاً، بالضوء، وأنهما غير طبيعيتين في ثباتهما. وكان على وجهها أيضاً سمة الرغبة في الإنصات بانتباه كالتي تبدو عادة على وجوه العميان؛ ولكنها لم تكن عمياء، لأن إحدى عينيها كانت تستطيع بها قضاء حاجتها. ولم يكن وجهها دميماً جداً فقد كانت تطبع عليه ابتسامة أنقذته منها، وكانت ابتسامة لطيفة في ذاتها، تنم عن طيبة القلب، إلا أنها غدت -بوجودها دائماً على شفتها- مثيرة للإشفاق. وكان على رأسها قلنسوة بيضاء واسعة ذات أهداب كثيرة قائمة كانت تهتز حول رأسها وتعتذر عن صلعتها، وتجعل من العسير على قبعتها السوداء أن تستقر على رأسها، ومن ثم كانت تتدلى من عنقها إلى ظهرها كما تفعل الغجرية في حملها لطفلها. وكان الأمر

يحتاج إلى بعثة من تجار «الخردوات» ليذكروا من أي صنف أو نوع صُنِعت الأجزاء الباقية من ملابسها المتواضعة. إلا أنه كان ثمة تشابه كبير بينها وبين حشائش البحر، مع وجود ورقة شاي ضخمة هنا أو هناك، وكان شالها على وجه خاص يشبه ورقة شاي بعد كثرة استعمالها.

ونظر آرثر كلينام إلى دوريت في سمت الذي يقول: «هل يمكن أن أسأل من تكون هذه؟». وأجابت دوريت بالكلمات ويد ماجي تداعب يدها وهي لا تزال تناديها بعبارة «الأم الصغيرة».

- هذه ماجي يا سيدي.

وكانوا واقفين في مدخل بيت حيث تناثرت معظم حبات البطاطا. وردّت الفتاة التي قدمتها دوريت:

- ماجي يا سيدي.

- وهذه أمي الصغيرة..

وقالت دوريت:

- إنها حفيدة..

فردت ماجي:

- حفيدة.

- مربيتي العجوز التي ماتت منذ مدة طويلة. ماجي، كم عمرك الآن؟

فقالت ماجي:

- عشرة يا أماه.

وقالت دوريت في حنان بالغ:

- إنك لا تستطيع أن تتصور إلى أي حد هي طيبة يا سيدي.

فردت ماجي قائلة، وهي تحول الضمير في الحديث من نفسها إلى أمها الصغيرة بأسلوب مؤثر:

– ما أشد طيبتها يا سيدي.

وقالت دوريت:

– أوه، ما أبرعك؟ إنها تقوم على خدمة نزلاء السجن كأي إنسان آخر.

وضحكت ماجي، بينما استطردت دوريت تقول:

– ومضمونة أمينة مثل بنك إنكلترا.

وضحكت ماجي؛ وقالت دوريت:

– وهي تكسب بعرق جبينها رزقها كله يا سيدي..

وفي صوت هامس ينم عن الزهو، أكدت دوريت العبارة الأخيرة بقولها:

– حقاً. هذا حق كله يا سيدي.

فسأل كلينام قائلاً:

– ما هو تاريخ ميلادها؟

وقالت دوريت وهي تتناول يدي ماجي الكبيرتين وتصفق إحداهما بالأخرى:

– تصوري يا ماجي! إن هذا السيد الذي جاء من مسافة آلاف الأميال يريد أن يعرف تاريخ ميلادك؟

فهتفت ماجي قائلة:

– تاريخ ميلادي أنا يا أمي الصغيرة؟

وقال دوريت في شيء من الارتباك:

- إنها تعرب بهذه العبارة عن شدت تعلقها بي. ولم تكن جدتها حانية عليها كما ينبغي أن تكون. أليس كذلك يا ماجي؟

وهزت ماجي رأسها، واتخذت من كفها اليسرى ما يشبه إناء شراب ورفعتها إلى شفتيها وهي تقول:

- شراب الجن.

ثم راحت تمثل ضربها لطفل وهمي وأردفت قائلة:

- بمقابض المكانس وأسياخ المدفأة.

وقالت دوريت وهي ترقب وجه ماجي في أثناء الحديث:

- عندما بلغت ماجي العاشرة من عمرها، أصيبت بحمى خبيثة يا سيدي ومن ثَمَّ لم تكبر، عقلياً، عما هي عليه الآن.

وأومأت ماجي برأسها ورددت قائلة:

- في سن العاشرة، ولكن يا له من مستشفى لطيف، ومريح غاية الراحة، أليس كذلك؟ أوه، ما كان ألطفه؟ كان جنة.

واستدارت دوريت نحو آرثر برهة وقالت بصوت خافت:

- إنها لم تشعر في حياتها بالدعة والهدوء، ولهذا لا تنسى قط أيامها في المستشفى.

وصاحت ماجي:

- ما أجمل الأسِرَّة هناك، وما أجمل شراب الليمون، والبرتقال، وما ألذ الحساء، والخمر! وما أشهى الدجاج! أوه، ألم يكن مكاناً جميلاً يذهب إليه الإنسان ويبقى فيه!

وقالت دوريت في صوت الذي يحكي قصة من قصص الأطفال. وكانت قد اتخذت هذا الصوت لأذن ماجي:

- وبقيت ماجي في المستشفى أطول مدة ممكنة. ولما لم يعد في إمكانها أخيراً إطالة مدة البقاء، خرجت. ثم لم يعد في إمكانها بعد ذلك أن تفكر بعقلية تزيد على عقلية طفل في العاشرة مهما طال بها العمر.

ورددت ماجي العبارة الأخيرة قائلة:

- مهما طال بها العمر.

- وبما أنها كانت ضعيفة جداً، بل بلغ بها الضعف أنها كانت حين تضحك لا تستطيع أن تتوقف عن الضحك، للأسف الشديد..

وهنا ارتسم الحزن العميق فجأة على وجه ماجي.

- فإن جدتها لم تعد تعرف ماذا تفعل بها، ومن ثم عاملتها بضع سنوات بلا رحمة. وأخيراً، ومع مرور الزمن، بدأت ماجي تهتم بتحسين حالتها، وبأن تكون شديدة الانتباه والبراعة. وهكذا سُمِح لها تدريجياً بالخروج والدخول كلما شاءت، وتوافر لها من العمل ما يجعلها تعتمد على نفسها في معاشها، وهذا ما يحدث فعلاً.. وهذا..

وراحت دوريت تصفق إحدى يدي ماجي الكبيرتين بالأخرى وهي تختم حديثها قائلة:

- تاريخ ميلادها، كما تعرفه ماجي.

آه، ولكن آرثر استطاع من تلقاء نفسه أن يدرك تتمة القصة حتى ولو لم يسمع عبارات: الأم الصغيرة، ولو لم يرَ مداعبة اليدين الكبيرتين لليدين الصغيرتين، ولو لم يلحظ الدموع التي طفرت الآن في العينين الباهتتين، ولو لم يسمع شهقة البكاء التي أوقفت الضحكة الغليظة. إن

المدخل القذر الذي وقفوا فيه، والذي كانت الرياح والأمطار تصفر فيه، والسلة ذات البطاطا الموحلة التي تنتظر أن تُقلَب مرة أخرى أو تُحمَل.. كل هذا لم يعد كما كان من قبل عندما راح آرثر يعيد النظر إليه في هذا الوضع الجديد أبداً، أبداً.

إنهم الآن يقتربون من نهاية المطاف، ومن ثم خرجوا من مدخل البيت ليبلغوا غايتهم. ولم يعد هناك ما يرضي ماجي إلا أن يقفوا أمام واجهة متجر للبقالة على مسافة يسيرة من غايتهم، لكي تبين لهما مدى علمها. وكانت تستطيع أن تقرأ على نحوٍ ما، وأن تلتقط الأرقام الكبيرة في تذاكر الأسعار الموضوعة على السلع، وتقرأها صحيحة غالباً. وكانت أيضاً تتعثر -ولكنها توازن عثراتها بما يقابلها من نجاح- وهي تقرأ الدعوات «الكريمة» التي يكتبها صاحب المتجر على مختلف بضائعه «جرِّب مزيجنا للشراب» و«جرِّب مربتنا المنزلية» و«جرِّب مذاق فطيرنا ذي النكهة البرتقالية» و«نتحدى بشاينا العاطر كل أنواع الشاي الأخرى» ثم مختلف التحذيرات الموجَّهة للجمهور ضد المتاجر المزيفة، والسلع الرديئة المقلَّدة. ولما رأى آرثر كيف كان وجه دوريت يتورد بالبهجة كلما نجحت ماجي في القراءة، أحس أن في مقدوره البقاء أمام واجهة متجر البقالة متفرساً حتى تَهِن قوى الرياح والمطر.

واستقبلهم فناء السجن أخيراً، وهناك ودّع آرثر دوريت الصغيرة، ورغم ضآلة حجمها كما كان يراها عادة، فقد بدت أضأل وأصغر حجماً وهي في طريقها إلى الفناء الداخلي لسجن مارشاليزا. أم صغيرة في رعاية طفلتها الكبيرة.

وفُتِحت البوابة الداخلية، حتى إذا رفرف إلى الداخل الطائر الأليف الصغير الذي عاش حياته في الأسر، رأى آرثر البوابة وهي تُغلَق مرة أخرى، فاستدار وانصرف.

إحاطة بفن الحكم



كانت إدارة الشؤون العامة -كما يعرف كل إنسان دون حاجة إلى إرشاد- أهم الإدارات الحكومية جميعاً. فما كان ليمكن قط أن يتم عمل من الأعمال العامة أياً كان نوعها دون موافقة إدارة الشؤون العامة. كان إصبعها يمتد إلى كل صغيرة وكبيرة من شؤون الصالح العام. وعلى هذا النحو كان من المستحيل أن يمارس الإنسان أوضح الحقوق أو يكف عن القيام بأبسط الأعمال الخاطئة دون تصريح من إدارة الشؤون العامة. ولو حدث أن وضعت قنبلة لتدمير البرلمان كما حدث في «مؤامرة البارود» التي اكتُشف أمرها قبل إشعال الفتيل بنصف ساعة فليس من حق أحد أن ينقذ البرلمان قبل تدخّل بضعة أشخاص من أعضاء الإدارة، ونصف كيلة من محاضر الجلسات، وبضعة أكياس من المذكرات الرسمية، وملء خزانة من المراسلات الركيكة الأسلوب تقوم بها إدارة الشؤون العامة.

هذه الإدارة الرائعة كانت من أولى الإدارات في ميدان الحكم، أي عندما اكتشف رجال الحكم والسياسة بوضوح القاعدة الأساسية في هذا الفن الصعب، فن حكم البلاد. وكانت هذه الإدارة أول من تصدى لدراسة هذا الاكتشاف الساطع، وأول من طبقه تطبيقاً لامعاً في جميع الإجراءات الرسمية، ومهما كان نوع العمل الذي يجب أن يعمل، فإن إدارة الشؤون العامة كانت تسبق جميع الإدارات العامة الأخرى في فهم وتطبق هذه القاعدة الفنية «كيف تعطل الأعمال».

وعن طريق هذا الإدراك الدقيق، وعن طريق التحايل في استخدام هذه القاعدة الفنية، وعن طريق العبقرية التي يتم بها التطبيق دائماً، أصبحت إدارة الشؤون العامة على رأس جميع الإدارات العامة، وأصبحت الحالة عامة على ما هي عليه!

حقاً إن قاعدة «كيف تعطل الأعمال» كانت الموضوع الأساسي والدراسة الهامة لجميع الساسة المحترفين المحيطين بإدارة الشؤون العامة. وصحيح أن كل رئيس وزارة جديد، وكل حكومة جديدة تأتي إلى الحكم لأن لديها أهدافاً معينة لا بد أن تحققها، لا يلبث أعضاؤها -بمجرد استلامهم زمام الحكم- أن يركزوا كل مواهبهم في اكتشاف هذه القاعدة «كيف تعطل الأعمال». وصحيح أنه بعد انتهاء الانتخابات العامة، أن كل ناجح في الانتخاب ممن كانوا يصيحون ويضجون بالشكوى في أثناء المعركة، لأن الأعمال تُعطَّل، والذين كانوا يسألون أصدقاءهم الموقرين من الحزب المعارض في لهجة استنكار، لماذا تُعطَّل الأعمال، ومن الذين كانوا يأخذون على عاتقهم إنجاز الأعمال، بدؤوا هم أنفسهم يتعنتون في ابتكار الوسائل التي تعطِّل الأعمال. صحيح أن المناقشات التي كانت تدور في جلسات البرلمان طيلة فترة انعقاده انصرفت كلها عمداً إلى التباحث الطويل المدى في «كيف تعطِّل الأعمال»، وصحيح أن افتتاح البرلمان كان يبدأ دائماً بهذه العبارات: «أيها اللوردات والسادة، إن أمامكم أعمالاً كثيرة في انتظار أدائكم لها. ولسوف يكون من دواعي السرور أن تجتمعوا في غرفكم الموقرة لتتناقشوا في كيفية تعطيلها». وصحيح أن الخطبة البرلمانية في نهاية الدورة، تقول بالفعل: «أيها اللوردات والسادة، لقد أمضيتم شهوراً كثيرة من العمل المضني وأنتم تناقشون -بإخلاص عظيم ووطنية صادقة- مبدأ: كيف تعطل الأعمال. وقد وصلتم إلى خير الوسائل لتحقيق هذا الهدف العظيم، ومن ثم فإني -بعد أن أحمد الله على هذا المحصول «الطبيعي لا السياسي» أعلن فض الدورة الآن». إن هذا كله صحيح،

ولكن إدارة الشؤون العامة فاقته بمراحل. ذلك لأن إدارة الشؤون العامة تمضي في تطبيق هذه القاعدة بلا توقف، لأنها تعمل من أجلها بطريقة آلية، مع الحرص على بقاء عجلتها ذات الكفاءة العجيبة في دوران دائم. وذلك لأن إدارة الشؤون العامة تمسك بخناق كل موظف حكومي تحدِّثه نفسه بأن يفعل هذا الأمر أو ذاك، أو يبدو أنه بمصادفة من أعجب المصادفات عرضة لأن يفكر، مجرد تفكير، في أنه سيفعل، وتظل تحيطه باللوائح والتعليمات حتى تقضي عليه. إن هذه الروح من الكفاءة القومية المتغلغلة في إدارة الشؤون العامة هي التي أدت بها تدريجياً لأن يكون لها يد في كل شيء: إن الفنيين، والفلاسفة الطبيعيين، والجنود، والبحارة، وذوي المطالب، والكتبة العموميين، وأصحاب المظالم، والذين يريدون منع المظالم، والذين يريدون التعويض عما لحقهم من مظالم، والنفعيين، وضحايا النفعيين، والذين لم يُثابوا على كفاءتهم والذين لم يُعاقَبوا على تقصيرهم - هؤلاء جميعاً يجب أن ينطووا تحت لواء إدارة الشؤون العامة.

وثمة طوائف من الناس ضاعوا في إدارة الشؤون العامة. إنهم البؤساء الذين أخطؤوا في أن تكون لهم مشروعات عامة «ويا ليتهم كانوا قد أخطؤوا فعلاً، فذلك خير لهم من أن يتعرضوا لهذه الخطة الإنكليزية المريرة التي لا بد أن تنطبق عليهم»، والذين استطاعوا بعد الجهد الجهيد والوقت المديد أن ينفذوا بسلام من الإدارات الحكومية الأخرى، والذين بعد أن تعرضوا -طبقاً للقاعدة العامة- لغلظة هذا، ومراوغة ذاك، أحيلوا أخيراً إلى إدارة الشؤون العامة، فلم يخرجوا منها قط في ضوء النهار، ذلك أن مطالبهم تكون قد مرّت على المجالس الإدارية، وقيدت لها محاضر على أيدي أمناء السر. والمندوبون قد تناقشوا حولها والكتبة سجلوها وفحصوها، ثم صرفوها، وهكذا تتلاشى. وبالإجمال فإن جميع شؤون الدولة كان يجب أن تمر بإدارة الشؤون العامة فيما عدا الشؤون التي لا تخرج منها، وهي المسماة: الفرقة.

وفي بعض الأحيان تتطاول الألسنة على إدارة الشؤون العامة، وذلك لأنه يحدث في بعض الأحيان أن تتعرض لها الأسئلة البرلمانية، لأن الأمر لا يخلو أحياناً من وجود بعض القادة المضللين الجاهلين الذين يظنون أن مهمة الحكومة هي العمل على «كيف تنجز هذا»، هؤلاء القادة يتعرضون أحياناً للاستجوابات عن إدارة الشؤون العامة. وعندئذ هل يسمح اللورد الموقر أو النائب المحترم الذي يقع عليه عبء الدفاع عن إدارة الشؤون العامة أن يتقدم ويديرها معركة حامية بهذه المناسبة؟ هل يتقدم العضو المحترم إلى منبر الخطابة في القاعة ويضرب المنضدة بيده، ويواجه صاحب الاستجواب المحترم مواجهة الند للند؟ وهل يكون هناك من يقول للعضو المحترم إن إدارة الشؤون العامة لا لوم عليها قط في هذا الأمر وإنما يجب أن يزجى إليها الشكر في هذا الأمر وأن يُرفَع ذكرها إلى السماوات بسبب هذا الأمر؟ وهل يكون هناك من يقول للعضو المحترم إن إدارة الشؤون العامة على الرغم من أنها على صواب، وأنها دائماً على صواب، لم تكن في يوم ما أكثر صواباً منها في معالجة هذا الأمر؟ ثم هل يكون هناك من يقول للعضو المحترم إنه كان أدعى لوقاره، وأدعى لجدارته، وأدعى لحسن ذوقه، وأدعى لسلامة تصرفه، وأدعى لتجنب العبارات الرخيصة لو أنه ترك إدارة الشؤون العامة وشأنها ولم يحاول التعرّض لها إطلاقاً؟ ثم هل يضع عينه على واحد من مندوبي إدارة الشؤون العامة الجالسين في مقاعد المتفرجين لكي يحطم ويفحم العضو المحترم الذي تعرض لإدارة الشؤون العامة. ورغم أن واحداً من أمرين يحدث دائماً: أي إما أن تكون إدارة الشؤون العامة ليس لديها ما تقوله، فتقوله، وإما أن يكون لديها ما تقوله ولكن العضو المحترم المدافِع عنها يذكر في تلعثم نصف ما لديها من أقوال، وينسى النصف الآخر، وفي كلا الحالين تخرج إدارة الشؤون العامة من عملية التصويت طاهرة الذيل بأغلبية ملائمة.

وهكذا كانت تلك الإدارة منبتاً للساسة ورجال الحكم الذين أصبحوا لطول عهدهم بهذا النوع من العمل أشهر السادة الكبراء بالبراعة والمنقطعة النظير في ميدان الأعمال لأنهم تمرّنوا فقط في أثناء رئاستهم لإدارة الشؤون العامة على «كيف تعطل هذا». أما صغار الكهنة والشمامسة في ذلك المعبد، فإن نتيجة هذا كله أدت إلى تقسيمهم إلى فريقين يصل كل منهما إلى أصغر ساعٍ في الإدارة. أحدهما يؤمن بأن إدارة الشؤون العامة معهد أرسلته السماء إلى الأرض، وأن لها كل الحق في أن تفعل ما تشاء. والآخر يجنح إلى الكفر بها ويعتبرها إدارة ثقيلة مزعجة.

وقد ساعدت أسرة بارناكل فترة من الوقت في إدارة هذه الإدارة الخاصة بالشؤون العامة، والواقع أن فرع أسرة تايت بارناكل تعتبر نفسها بوجه عام ذات حقوق في هذه الناحية، وإنه ليسوؤها جداً لو أن أية أسرة ادَّعت مثل هذه الحقوق. وكان آل بارناكل أسرة رفيعة جداً، وكبيرة جداً. وكان أفرادها متناثرين في مختلف الإدارات الحكومية، ويحتلون مختلف المناصب العامة. ومن ثَمَّ فإن الأمة إما أن تكون مدينة جداً بالفضل لأسرة بارناكل أو أن أسرة بارناكل مدينة جداً بهذا الالتزام نحو الأمة ولم ينعقد إجماع الناس على أيهما أصح. ومن ثم فإن لآل بارناكل رأيهم، وللأمة رأيها في هذا الشأن.

إن هذا السيد تايت الذي كان في تلك الفترة التي نتحدث عنها يدرب المدير الجديد ويحشو رأسه بالأفكار، والذي كان جالساً يتململ عندئذ بسبب تعريض إحدى الصحف به، كان -أي السيد تايت- أكثر امتلاءً بالشحم واللحم منه بالمال. وكان -كفرد في أسرة بارناكل- يملأ مركزه في هذه الإدارة، وهو مركز لا شك محترم. وكان -كفرد في أسرة بارناكل- قد وضع، بطبيعة الحال، ابنه بارناكل الصغير في منصب بهذه الإدارة. ولكنه كان قد ارتبط عن طريق الزواج بفرع من أسرة ستلشنوكنج التي كانت هي أيضاً تتمتع بالتهور والاندفاع أكثر مما تتمتع بالمال

والعقار. وقد نتج من هذا الزواج بارناكل الصغير وثلاث بنات شابات. وكانت مطالب هؤلاء الأبناء الأربعة ترهق الوالدين إرهاقاً شديداً بحيث كانا يعيشان بفارغ الصبر من يوم الربع إلى يوم الربع[1]. وكان السيد تايت يُرجِع هذا الإرهاق المالي الشديد إلى تقتير الحكومة.

وقد سأل آرثر كلينام للمرة الخامسة عن السيد تايت بارناكل هذا في إدارة الشؤون العامة، وكان قد راح ينتظره على التوالي في ردهة، ثم في غرفة زجاجية، ثم في غرفة انتظار، ثم في ممر محصن ضد الحرائق حيث كان يبدو أن مكاتب الإدارة تقع وراءه. وفي المرة الأخيرة لم يكن السيد تايت بارناكل مشغولاً مع النابغة العظيم الذي يرأس الإدارة كما كان الحال من قبل. إلا أنه كان غائباً. وعلى أية حال فقد قيل له إن بارناكل الصغير موجود، وإنه إذا كان أقل سطوعاً من أبيه، فهو على كل حال من النجوم المتألقة في سماء الإدارة.

وأعرب آرثر عن رغبته في عرض موضوعه على بارناكل الأصغر، فلما دخل عليه وجده يعرض باطن ساقيه للنار، معتمداً بسلسلته الفقرية على رف المدفأة. وكانت الغرفة وثيرة مفروشة بذوق رسمي رفيع وفي بذخ واضح، وتنم بدلائل فخامتها عن انتمائها إلى بارناكل الغائب، وذلك بسجادتها السميكة، وبمكتبها المكسو بالجلد المخصص للجلوس إليه، ومكتبها المكسو بالجلد المخصص للوقوف إليه، ومقعدها الوثير الخضم، وسجادة المدفأة، والساتر الأنيق، وسجلات الأوراق، وصناديق السجلات ذات البطاقات الصغيرة البارزة منها، مثل بطاقات زجاجات الأدوية، ورائحة الجلد وخشب الموجنة ثم الجو المفعم بقاعدة كيف تعطل هذا.

(1) يوم الربع: هو اليوم الأول من ربع السنة، حيث كانت تصرف مكافآت إضافية للموظفين في ذلك العهد.

وكان بارناكل الأصغر الواقف ممسكاً ببطاقة السيد آرثر كلينام، له مظهر الشباب وسوالف صغيرة أقرب ما تكون إلى زغب الطير. وكان ثمة ندفة من هذا الشعر الزغبي على ذقنه الجرداء، فبدا كأنه فرخ لم يكتمل نمو ريشه؛ وقد يظن الإنسان القوي الملاحظة أن بارناكل الأصغر هذا لو لم يعرض ساقيه من خلاف إلى الدفء، لمات من شدة البرد. وكان ثمة عدسة تتدلى على صدره من رباط حول عنقه، ولكن كانت محاجر عينيه -لسوء حظه- مسطحة، وأجفانه مسترخية، حيث لم يكن في مقدوره أن يثبت العدسة على عينيه، ومن ثم كانت لا تلبث أن تسقط بين الحين والآخر وتصطدم بأزرار صدريته في صرير يزعجه كثيراً.

قال بارناكل الأصغر هذا:

- أوه، اسمع. إن أبي ليس هنا، ولن يكون هنا اليوم. فهل ثمة ما يمكن أن أقوم به من أجلك؟

وتسقط العدسة مُحدِثة ذلك الصرير الخفيف، ويتلفت بارناكل الأصغر في خوف محاولاً، على غير جدوى، أن يعرف مصدر هذا الصرير.

وقال آرثر كلينام:

- أشكرك أجلّ الشكر، ولكنني أريد أن أقابل السيد بارناكل.

فقال بارناكل الأصغر:

- ولكن اسمع.. أنت تعرف أنك لم تحدد معه موعداً للمقابلة.

وكان عندئذ قد اكتشف أمر العدسة وأعادها إلى عينه.

وقال آرثر كلينام:

- أجل. وهذا ما أريد أن أفعله.

فسأل بارناكل الأصغر قائلاً:

- ولكن اسمع. هل يتعلق الموضوع بشأن من الشؤون العامة؟

وسقطت العدسة مرة أخرى مُحدِثة ذلك الصرير. وانشغل بارناكل في البحث عن مصدر الصوت بحيث رأى آرثر أنه لا جدوى من الإجابة حتى يلتفت إليه.

وعاد بارناكل الأصغر وقد لاحظ بشرة الزائر الملوحة.

- هل الموضوع يتعلق بشيء عن.. عن الحمولة والشحن أو ما إلى هذا؟

وفيما كان ينتظر الإجابة، فتح عينيه اليمنى بيده وثبت بها العدسة بهذه الطريقة المثيرة للالتهاب، مما جعل عينه تدمع بشكل مزعج.

وقال آرثر:

- لا. ليس الأمر متعلقاً بالشحن والحمولة.

- إذن اسمع، هل هو أمر خاص.

- إنني في الواقع غير متأكد، إنه يتعلق بالسيد دوريت.

- اسمع، سأقول لك ما يحسن أن تفعله. يحسن أن تمضي إلى بيتنا إن كنت في طريقك إليه، إنه رقم 24 شارع ميوز ستريت جروفنر سكوير. إنه يعاني من حالة نقرس خفيفة، وملازم للبيت لهذا السبب.

وكان الواضح أن بارناكل الأصغر المخدوع في أمر العدسة سوف يفقد إبصاره لهذا السبب. ومع ذلك يخجل من أن يغير أسلوبه في تثبيت العدسة على عينه.

وقال آرثر:

- شكراً لك. لسوف أذهب الآن، طاب صباحك.

وبدا الضيق على بارناكل الأصغر وكأنها لم يكن يتوقع أن يراه ينصرف بهذه السرعة. ومن ثم نادى عليه حين وصل إلى الباب، وكأنها يكره أن يتخلى عن الفكرة النيِّرة التي لاحت في ذهنه، وقال:

- هل أنت متأكد تماماً أن الأمر ليس له علاقات بعمليات الحمولة والشحن؟

- أجل متأكد تماماً.

ومضى آرثر كلينام بعد هذا التأكيد، يواصل بحثه وهو يعجب في نفسه ماذا كان يمكن أن ينتهي إليه الأمر لو أن الموضوع يتعلق فعلاً بعمليات الحمولة والشحن.

ولم يكن شارع ميوز ستريت في حي جروفنر سكوير نفسه، وإنها قريب جداً منه. وكان شارعاً نظيفاً صغيراً تحفّ به الجدران الصماء، ومرابط الخيوط والمزابل ذات طوابق فوق مخازن المركبات، حيث تقيم فيها عائلات سائقيها الذين يشغفون بتجفيف ملابسهم على الحبال الخارجية وتزيين قواعد نوافذهم ببوابات لولبية.

وكانت مخلفات المداخن والمدافئ تقوم في الطرف المغلق من هذا الشارع، ويقع في هذا الطرف نفسه متجر يتردد عليه العملاء في بكور الصباح لشراء زجاجات الخمر وحاجات المطبخ. وكانت آلات صناعة الأحذية من مخارز ومثاقب موضوعة بجوار الجدران الصماء بينها ذهب أصحابها لتناول طعام الغداء في مكان آخر. أما كلاب الناحية فكانت تتواعد على اللقاء في الشارع نفسه. مع ذلك فقد كان في مدخل شارع ميوز ستريت منزلان أو ثلاثة -مختنقة الجو أيضاً- تؤجر بإيجار ضخم لأنها قريبة من حي راقٍ. وكلما عرض أحد هذه المنازل الرهيبة للإيجار - وقلما يحدث هذا لأنها لا تخلو إلا نادر جداً- فإن السمسار يعلن عنه على

أنه مسكن لرجل أرستقراطي في أكثر أحياء المدينة أرستقراطية حيث لا يقيم فيه إلا القلة المختارة من شخصيات المجتمع الراقي.

ولو لم يكن هذا السكن الأرستقراطي في ذلك الوسط المحدود من الأمور الضرورية لآل بارناكل، لأمكن لهذا الفرع من العائلة أن يجد ما يريد من مساكن مختارة من بين عشرة آلاف منزل، أفضل مما هو فيه خمسين مرة، بثلث الإيجار فقط. أما وهذا هو الحال، فإن السيد تايت بارناكل كان يرى أن هذا السكن الأرستقراطي وملائم له، وعزيز عليه جداً، كما كان يحمِّل الدولة بصفته أحد كبار موظفيه مسؤولية اضطراره إلى دفع هذا الإيجار الضخم، ويعتبر هذا الموقف أيضاً من المواقف التي تنم عن تقتير الدولة على مستخدميها.

ووصل آرثر كلينام إلى منزل محصور بين غيره من المنازل، له واجهة متفككة سهمية الطراز، ونوافذ قذرة، وفناء صغير رطيب مظلم مثل جيب صدريته. وقد وجد آرثر أن هذا المنزل يحمل رقم 24 شارع ميوز ستريت حي جروفنر. وكان المنزل بالنسبة لحاسة الشم يشبه زجاجة مليئة بمحلول قوي من روائح القطط والطيور وعندما فتح الخادم الباب، فكأنما رفع السدادة عن هذه الزجاجة.

ورغم أن الخادم كان من النوع الذي يرتدي حلّة رسمية، إلا أنه كان بالنسبة لهذا النوع من الخدم في جروفنر سكوير، كالمنزل بالنسبة لمنازل ذلك الحي. وكان رائعاً في أسلوبه، وأسلوبه أبعد ما يكون عن أساليب هذا النوع من الخدم الراقين ولم تكن بزّته الملونة تخلو من القذارة، أما هو فكان يبدو -شكلاً وموضوعاً- أنه يعاني الكثير من ضيق المكان المخصص له. ومن ثم كان الشحوب والإعياء من السمات التي وضحت عليه وهو يرفع السدادة -أعني يفتح الباب- ويقدم الزجاجة إلى أنف السيد كلينام.

- أرجو أن تتكرم وتحمل هذه البطاقة إلى السيد تايت بارناكل، وقل له إنني جئت توّاً من لدن السيد بارناكل الأصغر الذي أوصاني بالحضور إلى هنا.

ووقف الخادم -الذي كانت جيوب بزته محلاة بعدد كبير من الأزرار العريضة التي تحمل شعار آل بارناكل وكأنه خزانة الأسرة التي تحتوي على تحفها وجواهرها- برهة يفكر وهو يتأمل البطاقة، ثم قال: «ادخل». وقد احتاج الأمر إلى بعض الحكمة والحذر، وإلى تفادي الكثير من الارتباك والاضطراب حتى لا يصطدم آرثر بالباب الداخلي، أو يتعثر في سلّم المطبخ. وهكذا استطاع أخيراً أن يصل بسلام إلى عتبة الباب الداخلي.

وظل الخادم يقول «ادخل» فتبعه إلى الداخل، وكان الخادم حين فتح الباب الداخلي للردهة، فكأنما رفع سدادة زجاجة أخرى. يلوح أن هذه الزجاجة الأخرى كانت مليئة برائحة مركّزة لمواد التخزين وبقايا من مخلفات المطبخ. وبعد جولة قصيرة في ممر ضيق، فتح الخادم -في وثوق بالنفس- باب غرفة المائدة الكريهة، حتى إذا رأى -لجزعه- شخصاً آخر فيها، تراجع بغير انتظام إلى الوراء آخذاً معه، بظهره السيد آرثر حيث تركه في غرفة خلفية ضيقة. وقد وجد آرثر في هذه الغرفة مزيجاً من رائحتي الزجاجتين، كما شاهد على مسافة ثلاث أقدام من نافذتها جداراً أصم آخر فراح يفكر في عدد فروع أسرة بارناكل التي لا تزال على قيد الحياة، والتي تقيم في مثل هذه الحواصل بمحض اختيارها!

إن السيد بارناكل على استعداد لأن يقابله، فهل يتكرم بالصعود إليه؟

نعم، إنه يتكرم، ويفعل. وهناك، في غرفة استقبال، رأى السيد تايت بارناكل الذي كان جالساً مريحاً قدميه على وسادة، وكأنه صورة حية ناطقة لقاعدة كيف تعطل هذا.

وكان هذا السيد بارناكل قد شاهد أياماً أفضل، عندما لم تكن الدولة شديدة التقتير، وعندما لم تكن إدارة الشؤون العامة مزدحمة كما هي الآن. وكان يلف حول عنقه طيات بعد طيات من رباط عنق طويل، تماماً كما يلف حول عنق الدولة طيات بعد طيات من الملفات والأضابير. وكانت ياقة قميصه وأساور أكمامه ضيقة، وكذلك كان صوته وتصرفاته تنم عن الضيق. وكان يتزين بسلسلة ساعة ضخمة تتدلى منها مجموعة من الأختام، ويرتدي سترة محكمة الأزرار، وصدرية محكمة الأزرار، وسراويل محكمة الكي، وحذاء محكماً صلباً. وكان في مجموعه مهيباً، ضخماً، شامخاً، مترفعاً، وكان يبدو كأنما عاش حياته كلها جالساً في وضع معين أمام رسام عالمي مثل السير توماس لورانس.

قال السيد بارناكل:

– السيد كلينام! تفضل بالجلوس.

وجلس السيد كلينام. وعاد السيد بارناكل يقول:

– لقد فهمت أنك ذهبت لمقابلتي في إدارة الشؤون العامة..

وكان ينطق اسم الإدارة في تمهل ويضغط على حروفها كما لو كانت مكونة من خمسة وعشرين مقطعاً. وقال آرثر:

– أجل. سمحت لنفسي بهذا.

فأومأ السيد بارناكل برأسه في وقار وفي هيئة الذي يقول: «أنا لا أنكر أنك سمحت لنفسك بهذا، وعليه استمر واسمح لنفسك مرة أخرى وعرفني بالغرض من زيارتك».

– اسمح لي بالقول بأني أمضيت في الصين عدة سنوات حتى أصبحت غريباً عن وطني؛ ومن ثم ليس لي باعث شخصي في الموضوع الذي جئت لأتحرى عنه.

وراح السيد بارناكل ينقر بأصابعه على المنضدة وقد بدا كأنه يجلس الآن في وضع للرسم أمام فنان جديد غريب، كما لاح كأنما يقول للزائر «سوف أكون شاكراً لو أنك راعيت أمارات الترفع التي تبدو على وجهي الآن».

- لقد وجدت مديناً في سجن مارشاليزا يسمى دوريت، عاش هناك سنوات كثيرة. وأحب أن أتحرى أعماله المرتكَبة حتى أتأكد عما إذا كان في الإمكان، رغم مرور كل هذا الزمن الطويل، إصلاح ظروفه البائسة. وقد بلغني أخيراً أن اسم السيد تايت بارناكل يمثل نفوذاً ضخماً لمصالح الدائنين. فهل صحيح ما بلغني في هذا الشأن؟

وكان من المبادئ الأساسية السائدة في إدارة الشؤون العامة ألا يعطي أحد كبار موظفيها -مهما يكن الأمر- إجابة صريحة. ومن ثم قال السيد بارناكل:

- ربما.

- وهل يهدف نفوذكم هذا في الموضوع لمصالح الدولة أم لمصالح خاصة؟

فأجاب السيد بارناكل قائلاً:

- من المحتمل يا سيد، وأقول من المحتمل، أن تكون إدارة الشؤون العامة للدولة قد أيدت مطالب الدائنين ضد حالة إفلاس إحدى الشركات أو المؤسسات المساهمة التي ربما كان ذلك الشخص أحد مؤسسيها. ومن الممكن أن يعرض هذا الأمر -بالطريق الرسمي- على إدارة الشؤون العامة لإبداء الرأي. وفي هذه الحال ستضع الإدارة مذكرة توضح بها هل هي طرف أصيل في الموضوع، أم مجرد عامل تأييد.

- إذن عليّ أن أفترض أن يكون الأمر كما تقول.

فقال السيد بارناكل:

- إن إدارة الشؤون العامة غير مسؤولة عن افتراض أي إنسان.

- هل يمكنني أن أسأل عن كيفية الحصول على معلومات رسمية عن الوضع الحقيقي لهذا الموضوع؟

فقال السيد بارناكل:

- إن من حق أي فرد من الشعب...

وكان ينطق هذه العبارة عن «الفرد المجهول» في الشعب في تململ وكأنه شخصية معادية بطبيعتها:

- أن يتقدم بطلباته إلى إدارة الشؤون العامة. أما الإجراءات اللازمة لتقديم الطلبات، فمن الممكن الاطلاع عليها في القسم الخاص بها في الإدارة.

- وما هو هذا القسم الخاص؟

فقال السيد بارناكل وهو يدق الجرس:

- يجب أن أحولك إلى إدارة الشؤون العامة نفسها للحصول على الإجابة الرسمية عن هذا السؤال.

- أرجو أن تسمح لي أن أذكر...

فقال السيد بارناكل:

- إن أبواب الإدارة مفتوحة للشعب...

وتوقفت الكلمة الأخيرة في حلقه برهة كالمعتاد لما لها من دلالة تافهة في نظره:

– إذا عرف... الشعب كيف يتقدم إليها طبقاً للإجراءات الرسمية. فإذا لم يتقدم... الشعب إليها طبقاً للإجراءات الرسمية، فلا يلومن... الشعب إلا نفسه.

وانحنى السيد بارناكل إليه بشدة كما يفعل الرجل الكريم الأصل المتألم، وكما يفعل الرجل الكبير المكانة المتألم، وكما يفعل الرجل المتألم المقيم في سكن أرستقراطي، كلهم جميعاً قد امتزجوا في شخص السيد بارناكل. وردّ آثر على تحية السيد بارناكل بمثلها، ثم خرج إلى شارع ميوز ستريت، وسمع الخادم التشريفاتي وهو يغلق الباب وراءه.

وبعد أن وصل إلى هذه المرحلة، قرر -لكي يتمرن على الاحتمال والصبر- أن يأخذ بعضه مرة أخرى ويمضي إلى إدارة الشؤون العامة، وأن يحاول قضاء حاجته هناك. وهكذا عاد إلى إدارة الشؤون العامة، وأرسل مرة أخرى بطاقته إلى السيد بارناكل الأصغر على يد ساعٍ ساءه جداً أن يرى آرثر يعود مرة أخرى. وكان عندئذ يأكل بطاطا مهروسة وصلصة، وراء ستار بجانب مدفأة الردهة.

وأُدخِل ثانيةً إلى حضرة السيد بارناكل الأصغر، حيث وجد ذلك السيد الشاب يدفئ هذه المرة ركبتيه، ويحاول أن يشغل وقته كيفما يكون حتى تأزف الساعة الرابعة.

وقال السيد بارناكل الأصغر وهو يتلفت من وراء كتفه:

– اسمع... إنك تطاردنا كالشيطان.

– إنني أريد أن أعرف...

فردّ بارناكل الأصغر وهو يستدير ويضع العدسة على عينه:

– اسمع.. لا يجب قط -بحق الله- أن تأتي هنا وتقول إنك تريد أن تعرف.

فقال آرثر كليننام الذي كان قد قرر أن يركز إصراره في عدد قليل من الكلمات:

- أريد أن أعرف على وجه التحديد ما هو موقف الحكومة من دَيْنها على المدين المسجون الذي يدعى دوريت.

فقال بارناكل الأصغر في لهجة الرجل الذي وجد الأمور تتطور بخطورة:

- اسمع. لقد زدتها معنا أكثر مما ينبغي، ثم إنك بحق الله لم تحضر الآن بناءً على موعد سابق.

فقال آرثر:

- أريد أن أعرف...

ثم كرر عرض الموضوع على بارناكل الأصغر.

وراح هذا يحملق النظر إليه حتى سقطت العدسة فأعادها إلى مكانها، وعاد يحملق فيه حتى سقطت مرة أخرى. وأخيراً قال بصوت ينم عن التخاذل:

- ليس لك أي حق في الحضور إلينا على هذا النحو ولهذا السبب. اسمع ماذا تعني؟ إنك لم تخبرني ما إذا كان لهذا الموضوع علاقة بالصالح العام أم لا.

فقال آرثر مؤكداً:

- لقد تأكدت الآن أن له علاقة بالصالح العام... وأريد أن أعرف..

ثم عاد وكرر عرض الموضوع بطريقته الرتيبة الآلية.

وكان تأثير هذا على بارناكل الصغير أن جعل يكرر القول في تخاذل:

- اسمع! لا ينبغي بحق الله أن تأتي إلى هذا المكان وتقول إنك تريد أن تعرف...

وكان تأثير هذا على آرثر أن جعله يكرر عرض موضوعه بنفس الكلمات وبنفس الصوت كما فعل من قبل. وكان تأثير هذا على بارناكل الأصغر أن جعل منه صورة عجيبة للاستسلام والتخاذل. وأخيراً قال وهو يمضي إلى جرس ويدقّه:

- اسمع ما سوف أقوله لك. يحسن أن تعرض الأمر على قسم السكرتارية.

ولما أقبل الساعي الذي كان يأكل البطاطا المهروسة، قال له:

- جنكنسون.. إلى السيد وبلر.

وشعر آرثر كلينام أنه الآن كرّس نفسه لاقتحام معقل إدارة الشؤون العامة وأن عليه أن يواصل هذه العملية، وبهذا الشعور مضى مع الساعي إلى طابق آخر من البناية حيث أشار ذلك الساعي إلى غرفة السيد وبلر. ولما دخلها وجد فيها رجلين جالسين وجهاً لوجه إلى مكتب ضخم خفيض، وكان أحدهما يلمع فوهة غدّارة بمنديل جيبه، بينما كان الآخر يبسط طبقة من المربى على قطعة خبز بفتاحة أوراق.

وتساءل آرثر قائلاً:

- السيد وبلر؟

والتفت الرجلان إليه وقد لاحت عليهما الدهشة لما يبدو عليه من ثقة بالنفس.

وقال الرجل الممسك بالغدّارة في بطء وتمهل مستأنفاً حديثاً كان قد انقطع:

– وهكذا مضى إلى بيت ابن عمه، وأخذ الكلب بالحلقة. وكان كلباً لا يُقدَّر بثمن. إذ هاجم الرجل الذي حمله إلى قفص الكلاب، وهاجم الحارس الذي أخرجه منه، وطارد بعضاً من الناس إلى مخزن محصولات، وقتل عدداً كبيراً من الجرذان. نعم كان كلباً رائعاً. ولما رأى الكلب على مثل هذه المقدرة الرائعة، أدخله السباق، وراهن عليه بمبلغ كبير. وفي موعد السباق، استطاع أحدهم أن يرشو أحدهم، ومن ثم أسكر الكلب يا سيدي، وخرج كلب رئيسي من المباراة.

وتساءل آرثر كلينام:

– السيد وبلر؟

وقال السيد الذي كان يبسط المربى على الخبز دون أن يرفع عينيه عما هو مشغول به:

– وماذا سمى الكلب؟

فقال السيد الآخر:

– سماه لافلي. قال إن الكلب صورة طبق الأصل من عمته العجوز التي يتوقع أن يرث ثروتها. وقد وجده يشبهها بوجه خاص وهو في حالة السُّكْر.

وقال آرثر كلينام:

– السيد وبلر؟

وضحك السيدان برهة. وبعد أن فحص السيد الغدارة واطمأن إلى أنها في حالة طيبة، عرضها على الآخر، حتى إذا أكد له هذه الحقيقة، أعادها إلى مكانها في الحقيبة الموضوعة أمامه، ثم تناول حزام الذخيرة وراح يلمعه وهو يصفر بخفوت.

وقال آرثر كلينام:

- السيد وبلر؟

وهنا قال السيد وبلر وفمه ممتلئ بالخبز والزبدة:

- ماذا بك؟

- أريد أن أعرف...

ثم راح آرثر كلينام مرة أخرى يعرض الموضوع الذي جاء من أجله بطريقته الآلية.

فقال السيد وبلر وكأنه يتحدث إلى الطعام الموضوع أمامه:

- لا أستطيع أن أدلك. لم أسمع بهذا الموضوع من قبل ولا بشيء يتعلق به ألبتة. يحسن أن ترى السيد كلايت؛ الباب الثاني على اليسار في الممر التالي.

- ربما أعطاني نفس الإجابة.

فقال السيد وبلر:

- هذا محتمل جداً. فأنا لا أعرف أي شيء عن هذا الموضوع.

واستدار آرثر كلينام وكاد أن ينصرف من الغرفة عندما هتف به السيد ذو الغدارة قائلاً:

- اسمع يا هذا..

فلما التفت آرثر إليه، قال له:

- أغلق الباب وراءك، إنك بفتحه تُدخِل علينا تياراً بارداً لعيناً.

وبعد خطوات قليلة وصل آرثر إلى الباب الثاني في الممر التالي، وفي هذه الغرفة رأى ثلاثة من السادة: السيد رقم واحد لم يكن يفعل شيئاً

معيناً، ورقم اثنين لم يكن يفعل شيئاً معيناً، ورقم ثلاثة لا شيء معين يفعله. ومع هذا فقد لاحوا أكثر من غيرهم اهتماماً وانشغالاً في تطبيق القاعدة الأساسية الخاصة بالإدارة وذلك لأنه كان ثمة باب داخلي ضخم من النوع المزدوج، يجتمع وراءه -كما يبدو- حكماء إدارة الشؤون العامة في مؤتمر خطير، لأن ثمة أوراقاً مهولة كانت تخرج، وأوراقاً أخرى مهولة كانت تدخل في حركة لا تكاد تنقطع. وكان ثمة سيد آخر -رقم أربعة- هو الذي يقوم بهذه الحركة الدائبة.

- أريد أن أعرف..

ومرة أخرى راح آرثر كلينام يعرض موضوعه بنفس الصوت الآلي الرتيب. وقد أتيح له أن يكرر عرض الموضوع ثلاث مرات عندما حوّله السيد رقم واحد إلى زميله رقم اثنين، ثم عندما حوّله هذا إلى زميله رقم ثلاثة. كل هذا قبل أن يحولوه إلى الزميل رقم أربعة الذي عرض آرثر عليه الموضوع للمرة الرابعة.

وكان رقم أربعة شاباً وسيماً أنيقاً لطيفاً مرحاً. وكان من أسرة بارناكل، إلا أنه من نوعها الأكثر حباً للمرح. وقد قال لآرثر بغير تكلف:

- أوه. في رأيي أنه يحسن بك ألا تشغل نفسك بهذا الموضوع.

- لا أشغل نفسي به؟

- أجل! إنني أنصحك ألا تشغل نفسك به.

وكانت هذه وجهة نظر جديدة وجد آرثر كلينام نفسه في حيرة إزاءها.

واستطرد الشاب رقم أربعة قائلاً:

- إنك تستطيع إذا شئت. وأنا أستطيع أن أعطيك عدداً كبيراً من الاستمارات لتملأها. فإن لدينا هنا كميات ضخمة منها. ويمكنك أن

تأخذ منها عشرة إذا شئت، ولكنك لن تستطيع أبداً أن تستمر في بحث هذا الموضوع.

- إلى هذا الحد يبدو هذا العمل ميؤوساً منه؟ معذرة. فأنا غريب في إنكلترا.

فأجاب رقم أربعة بابتسامة صريحة:

- أنا لم أقل إنه عمل ميؤوس منه. بل أنا لم أعرب عن رأيي في هذا. وإنما أنا أعربت عن رأيي بشأنك أنت. فأنا أعتقد أنك أنت، لا تستطيع أن تستمر في بحث هذا الموضوع. ومع ذلك فيمكنك، طبعاً، أن تفعل ما يحلو لك. وأنا أعتقد أن هناك ثغرة في تنفيذ العقد أو شيئاً من هذا القبيل. أليس كذلك؟

- إنني في الواقع لا أدري.

- حسناً! هذا ما يمكنك أن تعرفه، ثم عليك أن تعرف بعد ذلك الإدارة التي فيها العقد، وعندئذ يمكنك أن تعرف كل شيء عنه.

- أرجوك المعذرة. ولكن كيف سأستطيع أن أعرف هذا كله؟

- عجباً! إنك سوف... سوف تسأل حتى يخبروك. ثم عليك أن تتقدم بطلب إلى تلك الإدارة «طبقاً للإجراءات الرسمية التي ستعرفها» لكي تصرح لك بتقديم طلب إلى هذه الإدارة. فإذا حصلت على التصريح «الذي قد يستغرق بعض الوقت» فيجب أن ترسله إلى تلك الإدارة، لكي تبعث به للتسجيل في هذه الإدارة، ثم يرد لكي توقع عليه تلك الإدارة، ثم يعود لكي تؤيد هذه الإدارة ذلك التوقيع، وعندئذ يصبح صالحاً للعرض أمام تلك الإدارة. وسوف تعرف متى يمر الموضوع بكل مرحلة من هذه المراحل عن طريق سؤال الإداريين حتى يدلوك.

ولم يسع آرثر إلا أن يقول:

- ولكن ليست هذه -بالتأكيد- الطريقة التي تدار بها الأعمال.

وكان لهذا الشاب الهوائي بارناكل العذر إذا ظنّ لحظة.. بسبب بساطته، أن هذه هي الطريقة. وكان هذا الشاب الخفيف اليد، بارناكل، يدرك تماماً أن هذه ليست الطريقة. وكان هذا الشاب السريع الحركة بارناكل، قد أصبح على استعداد -في أثناء اشتغاله بالسكرتارية الخاصة للإدارة- أن يستفيد من كل ما يُعرَض له بعد أن أيقن تماماً أن الإدارة ليست إلا آلة دجل سياسي دبلوماسي لمساعدة العاجزين على حماية أنفسهم من الشخصيات المتشامخة؛ وبالإجمال فإن هذا الشاب الجريء المندفع، بارناكل، سوف يصبح -على الأرجح- من رجال الدولة، وسوف يغدو شخصية كبيرة.

واستطرد هذا الشاب المرح في حديثه قائلاً:

- وعندما يصبح الطلب صالحاً للعرض -أياً كانت طبيعته- أمام تلك الإدارة، فيمكنك أن تتابعه من حين لآخر في أثناء وجوده في تلك الإدارة. فإذا أصبح صالحاً للعرض أمام هذه الإدارة، فعليك أن تراقبه بين حينٍ وآخر في أثناء وجوده في هذه الإدارة. لأننا سوف نضطر إلى تحويله ذات اليمين وذات الشمال، وعندما تحوله إلى أي مكان فعليك أن تتابعه فيه. فإذا عاد إلينا في أي وقت، فيحسن بك أن تأتي إلينا وتطمئن على وصوله. وإذا حدث وتوقف في مكانٍ ما، فعليك أن تحركه؛ وعندما تكتب بشأنه إلى إدارة أخرى، ثم إلى إدارتنا هذه دون أن تتلقى عنه ما يرضيك، فعليك طبعاً أن تواصل الكتابة.

وارتسمت أمارات الارتياب على وجه آرثر كلينام إلا أنه قال:

- إنني على كل حال أشكر لك دماثتك في الحديث معي.

فأجاب ذلك الشاب الجذاب بارناكل:

- عفواً. حاول القيام بهذا، ثم انظر كيف يكون شعورك نحوه. وسوف يكون في مقدورك أن تنفض يديك منه في أي وقت إذا ضقت به. ويحسن بك أن تأخذ معك مجموعة من الاستمارات.

ثم التفت إلى السيد رقم اثنين وأردف قائلاً:

- أعطه كمية من الاستمارات.

وبعد أن أصدر هذا الشاب المتألق بارناكل تعليماته هذه إلى رقم اثنين، تناول من رقم واحد، ومن رقم ثلاثة بعض الأوراق ودخل بها إلى المحراب، ليقدمها إلى صنم الرئاسة في إدارة الشؤون العامة.

ووضع آرثر كلينام الاستمارات في جيبه وهو على شيء غير قليل من الاكتئاب، ثم سار في طريقه عبر الممر الحجري الطويل، ثم هبط السلم الحجري الطويل، حتى وصل إلى الأبواب المتحركة المؤدية إلى الشارع، وراح ينتظر -في شيء غير كثير من الصبر- اثنين كانا بينه وبين هذه الأبواب، حتى يخرجا فيستطيع أن يخرج وراءهما، وعندئذ سمع صوت أحدهما، فوجده مألوفاً لأذنه، فلما نظر إلى المتحدث عرف أنه السيد ميجلز. وكان السيد ميجلز شديد الاحمرار في الوجه -أكثر احمراراً مما فعل به السفر- وكان ممسكاً بخناق رجل قصير معه ويقول له:

- اخرج أيها الوغد، اخرج.

وقد فوجئ السيد كلينام بما سمع، كما فوجئ أيضاً برؤية هذا المنظر الذي لم يتوقعه.. منظر السيد ميجلز وهو يقتحم الأبواب المتحركة ويخرج إلى الشارع بذلك الرجل القصير الذي كان يبدو وادع المظهر، إلى حد أنه -أي السيد كلينام- وقف في مكانه «متسمّراً» يتبادل نظرات الدهشة مع البواب. إلا أنه أسرع وراءهما، حيث رأى السيد ميجلز

يمضي في الشارع وغريمه بجانبه. ثم سرعان ما لحق بزميله القديم في السفر، ولمس ظهره. وهنا انبسط وجه السيد ميجلز المتجهم المربد حين التفت وراءه وشاهد السيد كلينام ومدّ يده بمودة قائلاً:

- كيف حالك؟ كيف الحال؟ لقد وصلت من الخارج منذ عهد قريب. وإني مسرور برؤيتك.

- وأنا سعيد برؤيتك.

- شكراً.. شكراً.

- والسيدة ميجلز وابنتك...

فقال السيد ميجلز:

- في أحسن حال كالعهد بهما. كنت فقط أريد أن تلتقي بي وأنا في حالة أهدأ من هذه.

ورغم أن الجو لم يكن حاراً قط، إلا أن السيد ميجلز كان في حالة من التوقد والاضطرام لفتت أنظار المارة إليه، لا سيما حين اعتمد بظهره إلى سياج حديدي، وتناول قبعته، وربطة عنقه، ثم راح يمسح بحماسة رأسه ووجهه المتفصد بالعرق، وعنقه وأذنيه المحمرتين، دون أدنى مبالاة بالرأي العام.

وقال السيد ميجلز وهو يُصلِح من شأنه مرة أخرى:

- ها! هذا أدْعَى إلى الراحة، إنني الآن أهدأ حالاً.

- يبدو أنك تعرضت لإزعاج شديد يا سيد ميجلز، ماذا حدث؟

- انتظر لحظة، وسوف أخبرك. ألديك فسحة من الوقت لنتمشى في الحديقة؟

- إنني طوع أمرك.

- هلم إذن.. آه، انظر إلى هذا جيداً.

وكانت نظرات آرثر قد وقعت على المذنب الذي كان السيد ميجلز ممسكاً بخناقه في غضب؛ وقد أردف قائلاً:

- أليس شيئاً يستحق النظر إليه، هذا المخلوق.

ولم يكن في الرجل ما يلفت نظر أحد إليه، لا من حيث الحجم، ولا من ناحية الملبس. ذلك أنه كان مجرد رجل قصير القامة عملي المظهر، وخطّ الشيب رأسه، وترك الزمن على وجهه وجبيه خطوطاً عميقة من التأمل والتفكير حتى لكأنها محفورة في خشب صلب. وكانت ملابسه محترمة سوداء قديمة بعض الشيء؛ وكان له مظهر الأستاذ الحكيم في فن من الفنون اليدوية، وكان يمسك بيده كيس نظارة يدبره ويقلبه -وهو في ذلك الوضع- مستعمِلاً في الحركة إبهاماً لا يمكن أن يُرى إلا في يد تعوَّدت على استعمال الآلات.

وقال له السيد ميجلز في لهجة تهديد:

- عليك أن تبقى معنا. وسوف أقدمك بعد قليل. والآن، تعال.

وتساءل كليننام في ذات نفسه -وهم يتخذون أقرب طريق إلى الحديقة العامة- عما قد يكون فعله هذا الرجل المجهول -الذي كان يبدو ألطف إنسان- ولم يكن مظهره يبرر إطلاقاً أي شك في أنه قد يكون مد يده في جيب السيد ميجلز، أو أنه من ذوي الطبيعة المشاغبة العنيفة، بل كان شخصاً هادئاً، بسيطاً رزيناً، لم يبذل أية محاولة للهرب، وإنما بدا على شيء من الاكتئاب في غير خجل أو ندم. فلو أنه كان حقاً مجرماً، لكان من أكبر المنافقين، وإذا لم يكن كذلك، فلماذا أمسك به السيد ميجلز في إدارة الشؤون العامة؟ ولاحظ كليننام أن الرجل لم يكن موضع تفكيره هو قط،

وإنما كان أيضاً موضع تفكير السيد ميجلز. ذلك لأن أية محادثة دارت بينهما في أثناء مسيرهما القصير إلى الحديقة، كانت تضطرب وتنقطع لأن السيد ميجلز كان دائماً يرتد بنظراته إلى ذلك الرجل حتى وهو يتحدث عن شيء لا يتعلق به.

ولما وقفوا أخيراً بين أشجار الحديقة، توقف السيد ميجلز وقال:

- سيد كلينام، هل تسمح وتجاملني بالتطلع إلى هذا الرجل. إن اسمه دويس، دانييل دويس. إنك لن تظن أبداً أنه مجرم مشهور. أتظن هذا؟

وكان السؤال مثيراً للحرج حقاً وهو يلقى أمام الرجل. وقال آرثر:

- لا، لا طبعاً.

- لا؟ لا تظن هذا؟ كنت أعرف أنك لن تظن. إنك لا تظن أنه مجرم من أعداء المجتمع. أليس كذلك؟

- أجل. لا أظن.

- لا؟ ولكنه كذلك. إنه من أعداء المجتمع. أتسأل ما هي جريمته؟ القتل، الذبح، الحرق، التزييف، الاحتيال، السطو، قطع الطريق، السرقة، التآمر، النصب. أية جريمة من هذه الجرائم تظن أنه ارتكبها؟

فقال آرثر كلينام وقد لاحظ على وجه دويس ابتسامة خفيفة:

- ولا واحدة منها في رأيي.

فقال السيد ميجلز:

- صدقت. ولكنه نابغة، وقد كان يحاول أن يكرس عبقريته لخدمة بلاده، وهذا ما جعله فوراً من أعداء المجتمع يا سيدي.

ونظر آرثر إلى الرجل نفسه الذي لم يفعل شيئاً أكثر من أن هز رأسه، هذا بينما استطرد السيد ميجلز قائلاً:

- إن دويس هذا حداد ومهندس، وهو لا يقوم بأعماله على نطاق واسع ولكنه معروف جيداً بأنه رجل عبقري. فمنذ اثني عشر عاماً استكمل اختراعاً «ينطوي على سلسلة تركيبات سرية غريبة» وعظيم المنفعة لبلاده وإخوانه في الإنسانية. وأنا لن أقول كم أنفق من مال، أو كم ضيع من سنوات عمره في هذه السبيل. ولكن المهم أنه استكمل هذا الاختراع منذ اثنتي عشرة سنة ألم تكن اثنتي عشرة سنة!

قال السيد ميجلز هذه العبارة الأخيرة لدانييل دويس ثم أردف قائلاً:

- إنه رجل ليس له مثيل في العالم في الصبر، إنه لا يشكو أبداً.

وأجاب دانييل دويس قائلاً:

- نعم، وأحسن من اثنتي عشرة سنة.

فقال السيد ميجلز:

- أحسن؟! إنك تعني أسوأ؛ حسناً يا سيد كلينام. ثم تقدم باختراعه إلى الحكومة. وفي اللحظة التي تقدم فيها للحكومة، أصبح عدواً للمجتمع يا سيدي!

واستطرد السيد ميجلز قائلاً وهو يقترب من خطر الغضب والانفعال مرة أخرى:

- لقد توقف عن أن يكون مواطناً بريئاً، وغدا مجرماً آثماً. ومنذ تلك اللحظة وهو يعامَل كرجل ارتكب جرماً كبيراً. لقد أصبح رجلاً يجب تجنبه والابتعاد عنه، والنفور منه، والسخرية به، وتحويله من أيدي هؤلاء السادة الشبان أو الكهول المترفعين المتشامخين، إلى أيدي هؤلاء السادة الشبان أو الكهول المترفعين المتشامخين ثم يعود فيحول من هؤلاء إلى هؤلاء. وإنه رجل لم يعد له حقوق في وقته أو ممتلكاته، وإنما مجرد

خارج على القانون من الواجب التخلص منه بأية وسيلة.. رجل يجب العمل على القضاء عليه بكل الوسائل الممكنة.

ولم يكن ما يراه السيد ميجلز في هذا الشأن بالشيء الذي يعسر على آرثر تصديقه بعد تجربة الصباح.

وصاح السيد ميجلز قائلاً:

- لا تقف هكذا يا دويس تدير كيس نظارتك بين أصابعك بلا نهاية، ولكن هيّا أخبر السيد كلينام بما اعترفت لي به.

فقال المخترع:

- لقد جعلوني بلا أدنى شك أحس كأني ارتكبت جرماً. ففي أثناء ترددي على جميع مكاتب الإدارة، كانوا يعاملونني دائماً على أن هذا الجرم الذي ارتكبته جرم خطير جداً. وكثيراً ما كنت أجد نفسي في حاجة إلى التفكير -لتقوية روحي المعنوية- على أني في الحقيقة لم أفعل شيئاً يدفع بي إلى أبواب سجن تيوجيت، إنما أردت فقط أن أنفع المجتمع نفعاً كبيراً.

وقال السيد ميجلز:

- لعلك قد رأيت بنفسك ما إذا كنت قد بالغت أم لا. والآن سوف تستطيع أن تصدقني عندما أسرد عليك باقي القصة.

واستطرد السيد ميجلز، بعد هذه المقدمة، في سرد القصة. القصة المألوفة، القصة التي أصبحت مثيرة للملل، القصة العادية التي نعرفها جميعاً عن ظهر قلب.

فذكر كيف أن أقطاب الإدارة -بعد أن عرّضوا «المذنب» للكثير جداً من الإهانات والتجاهل والتعريض- واتفقوا أخيراً على كتابة المذكرة رقم ثلاثة آلاف وأربعمائة واثنين وسبعين، يسمحون فيها «للمذنب» أن

يجري تجارب معينة على اختراعه على نفقته الخاصة. وكيف أن هذه التجارب أُجريت أمام لجنة من ستة أعضاء في مجلس اللوردات وبينهم اثنان مسنان لا يكادان يبصران ما يجري أمامهما، واثنان آخران مسنان لا يكادان يسمعان ما يجري حولهما وواحد مسن أعرج لا يستطيع الاقتراب من مكان التجربة مسافة كافية، وكان العضو المسن الأخير أكثر عناداً من أن يسمح لنفسه بالنظر إلى التجربة. ثم ذكر كيف مضت سنوات أخرى كثيرة، وكيف تعرض المخترع «المذنب» للمزيد من الوقاحة والتجاهل والإهانة، ثم كيف كتب سادتنا الأقطاب في مجلس اللوردات مذكرة أخرى رقم خمسة آلاف ومائة وثلاثة، وحولوا بها الموضوع كله إلى إدارة الشؤون العامة، وكيف تناولت إدارة الشؤون العامة الموضوع -على مر الزمن- باعتباره موضوعاً جديداً حدث بالأمس فقط، ولم يسمع به أحد قط من قبل، ثم راحت تقلبه، وتلفه، وتخضخضه وتلقي به من هذا المكتب إلى ذاك؛ وكيف استمرت عمليات تعريض المخترع «المذنب» للوقاحة والإهمال والإهانة على نطاق واسع، وكيف عرض الاختراع على ثلاثة من أسرة بارناكل وواحد من أسرة ستلستوكنج الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عنه، والذين كان من المستحيل أن يدخل أي مفهوم عنه في رؤوسهم، والذين شعروا بالملل منه، فكتبوا عنه تقريراً مؤداه أن هناك استحالات مادية تجعله غير صالح. ثم كيف كتبت إدارة الشؤون العامة المذكرة رقم ثمانية آلاف وأربعمائة وأربعين التي تقول فيها إنها «ترى أن ليس هناك ما يدعو إلى نقض القرار الذي اتخذه السادة أعضاء مجلس اللوردات» ثم كيف أن إدارة الشؤون العامة -حين قيل لها إن السادة اللوردات لم يتخذوا في هذا الأمر قراراً معيناً- عمدت إلى حفظ الموضوع. ثم كيف تم اجتماع نهائي مع مدير إدارة الشؤون العامة في هذا الصباح نفسه، وكيف تحدث ذلك المدير العنيد الجامد، وكيف انتهى الموضوع برمته وتحت جميع الظروف، ومع النظر إليه من جميع الزوايا

ووجهات النظر، إلى أحد أمرين: إما أن ينفض المخترع يديه منه نهائياً، أو يعيد عرضه من جديد.

واختتم السيد ميجلز حديثه قائلاً:

- وبناءً على هذا، وبما أني رجل واقعي، أمسكت بخناق دانييل دويس أمام الجميع هناك، وقلت له إنه كما وضح لي وغد سيء السير، ومعكر خطير لأمن وسلام الحكومة، وانصرفت به. لقد خرجت به من باب الإدارة وأنا ممسك بخناقه حتى يعرف البواب أنني رجل عملي واقعي مقر برأي الإدارة الرسمي في أمثال هؤلاء الناس. وها نحن الآن كما ترى.

لو كان الشاب الهوائي بارناكل هناك، لأخبرهم بصراحة أن إدارة الشؤون العامة ربما أثبتت وجودها في هذا الأمر، وأن مهمة آل بارناكل هي البقاء في سفينة الإدارة أطول مدة ممكنة، وأنهم إذا نظفوا السفينة وهذبوها وأضاءوها، فسوف يُطرَدون منها، وما دام الطرد لا يكون إلا مرة واحدة، فمن الأفضل لهم أن يغرقوا معها إذا لم يكن من الغرق بد.

وقال السيد ميجلز في النهاية:

- لقد عرفت الآن كل شيء عن دانييل دويس إلا شيئاً واحداً -وهو ما يزيدني ضيقاً وسخطاً- أعني به أنه حتى هذه اللحظة لا يشكو أو يتذمر.

فقال آرثر كلينام وهو ينظر إلى الرجل في شيء من الدهشة:

- لا بد أن لديك مقدرة ضخمة على الصبر وقوة الاحتمال.

فردّ الرجل قائلاً:

- لا. ليس لدي من المقدرة في هذا الشأن أكثر مما لدى غيري.

فصاح السيد ميجلز قائلاً:

- أقسم أن لديك من هذه المقدرة أكثر مما كنت أظن.

وابتسم دويس وهو يقول لكليننام:

- أترى! إن تجاربي في هذه الأمور لم تبدأ معي بالذات، وإنما أتيح لي في حياتي أن أعرف بعض الشيء عنها بين الحين والآخر. وليس ما حدث لي شيء شاذ. ومن ثم فأنا لست أسوأ حالاً من المئات غيري الذين وضعوا أنفسهم في هذا الموقف.

- لو كنت في مكانك لما وجدت في هذا عزاء أو مواساة، ولكنني سعيد إذ ترى الأمر على هذا النحو.

فأجاب الرجل قائلاً بأسلوبه الثابت الرصين وهو ينظر إلى الأفق البعيد كأنما يقيس المسافة إليه بعينيه الرماديتين:

- أرجوك أن تفهمني... إنني لم أقل إنني أجد في هذا عزاء عن أمل الإنسان وكفاحه وكدحه. ولكنني أجد نوعاً من الراحة كلما فكرت في أنه كان ينبغي أن أوقع شيئاً من هذا القبيل.

وكان يتحدث بهذه الطريقة الهادئة المتزنة، وبذلك الصوت الخفيض الذي كثيراً ما نلاحظه في حديث الميكانيكيين الذين يحسنون فحص الآلات وإتقان تصليحها. وكانت هذه الصفة لاصقة به مثل مرونة إبهامه، وطريقته الخاصة في زحلقة قبعته إلى مؤخرة رأسه بين الحين والآخر وكأنما يتأمل عملاً قام به ولم يتم، فراح يفكر في أمره.

واستطرد في حديثه وهو يسير بينهما تحت الأشجار:

- هل أنا مستاء؟ نعم، لا شك في أنني شديد الاستياء. متألم؟ نعم، لا شك في أنني متألم. فهذا أمر طبيعي. ولكن الذي أعنيه من قولي إن الناس الذين يجتمعون في موقف معين، يعامَلون بنفس الطريقة..

فقاطعه السيد ميجلز قائلاً:

- في إنكلترا..

- آه، طبعاً، في إنكلترا. لأن الأمر يختلف معهم إذا هم أخذوا مخترعاتهم إلى بلاد أخرى. وهذا هو السبب في ذهاب الكثيرين إلى تلك البلاد.

وكان السيد ميجلز قد اشتعل غضبه جداً مرة أخرى، أما دويس فاستطرد قائلاً:

- إن ما أعنيه هو أنه أياً كان الرأي في الإجراءات الحكومية عندنا، فتلك هي إجراءاتها التقليدية. هل سمعت قط عن صاحب مشروع أو اختراع لم يجد في طريقه إلا كل هذه العقبات، ولم يلقَ غير هذه المعاملة السيئة وعدم التشجيع؟

- لا أستطيع أن أقول إني رأيت غير هذا.

- هل عرفت يوماً أنهم على استعداد لاحتضان أي شيء مفيد، أو أنهم ضربوا المَثَل على أي شيء نافع؟

وهنا قال السيد ميجلز:

- إنني أكبر سناً من صديقي، ويمكنني أن أجيب عن هذا السؤال بالنفي القاطع.

وقال المخترع:

- ولكننا نحن الثلاثة -كما أظن- قد عرفنا حالات كثيرة جداً عن إصرار الحكومة الشديد لتكون متخلفة عنا أميالاً بعد أميال، وأعواماً بعد أعوام؛ وعن اعتراضاتها الدائمة في استخدام أشياء أصبحت متخلفة جداً، رغم وجود أشياء أخرى أصلح كثيراً، وأعم استعمالاً بعد ثبوت فائدتها.

ووافقه الآخران على هذا. وعندئذ تنهد دويس واستطرد قائلاً:

- حسناً جداً، وكما أني أعرف كيف يستجيب هذا المعدن مثلاً تحت هذه الحرارة المعينة، أو كيف يكون هذا الجسم تحت ذلك الضغط، فكذلك يمكن أن أعرف -إذا فكرت جيداً- كيف سينظر هؤلاء العظماء والسادة إلى موضوع مثل موضوعي. ومن ثم فليس لي أن أدهش، ما دام لي رأس ولي ذاكرة، إذا أنا اتخذت مكاني في صفوف جميع الذين سبقوني. كان ينبغي أن أنفض يدي من هذا الأمر، لأني، بالتأكيد، رأيت ما يكفي لأن أبقى على حذر.

ثم وضع كيس نظارته في جيبه واستطرد قائلاً لآرثر كلينام:

- وإذا كنت لا أشكو يا سيد كلينام، فإن في مقدوري أن أعترف بالجميل وأؤكد لك أني معترف بجميل صديقنا المشترك. فقد وقف يؤيدني بكل وسيلة، مضحياً بالكثير من وقته.

فقال السيد ميجلز:

- لا، لا.. لا تردد مثل هذا الكلام.

ولم يسع آرثر إلا أن يرمق دويس خلال الصمت الذي أعقب هذا. وقد لاحظ أنه على الرغم مما يبدو على شخصيته، ومن احترامه وتقديره الخاص لموضوعه، ما يجعله ينأى عن اللغو الفارغ؛ إلا أنه كان قد غدا، بوضوح أكبر سناً، وأشد صرامة، وأرق حالاً بسبب محاولاته الكثيرة التي بذلها في هذا السبيل. ولم يسع آرثر إلا أن يفكر في أنه كم يكون جميلاً لو أن هذا الرجل قد تلقى درساً من هؤلاء السادة الذين يتكرمون بخدمة الدولة في تعلم قاعدة «كيف تعطل هذا».

وكان السيد ميجلز قد اضطرب واضطرم لمدة خمس دقائق، ثم بدأ يهدأ ويستعيد طبيعته، ثم يقول:

– هيا، هيا.. إننا باكتئابنا لن نحسِّن الأمور. إلى أين أنت ذاهب يا دان؟

فأجاب دانييل قائلاً:

– سأعود إلى المصنع.

فقال السيد ميجلز في استبشار:

– حسناً إذن، لسوف نمضي جميعاً إلى المصنع، أو في نفس اتجاهه. ولا أظن أن السيد كلينام سيمانع إذا علم أنه في حوش بليدنج هارت.

فقال كلينام:

– حوش ليدنج هارت؟ إنني أريد الذهاب إلى هذا المكان.

فهتف السيد ميجلز:

– عظيم جداً. هيا بنا إذن.

وفي أثناء مسيرهم، كان أحدهم، بالتأكيد، وربما أكثر من واحد منهم، يرى أن حوش بليدنج هارت ليس نهاية المطاف الملائمة لرجل كان في إدارة الشؤون العامة مع أقطابها وآل بارناكل فيها، ولعله قد يتوهم أيضاً أن بريطانيا نفسها قد تضطر ذات يوم تعس إلى البحث عن مسكن لها في حوش بليدنج هارت إذا هي أسرفت في إرهاق إدارة الشؤون العامة.

* * *

إطلاق السراح



كان الليل ينسدل ذات مساء في أواخر الخريف على نهر سوان. وكانت صفحة النهر -كمرآة غبراء الأديم في مكان معتم- تعكس السحب المتكاثفة والضفاف الخفيضة تطل هنا وهناك وكأنها خامرها شيء من الفضول وشيء من الخوف، لترى صورها القاتمة المنعكسة على الماء، وأرض الريف الممتدة في منطقة شالونز تنبسط في شريط طويل يرتفع فيه بين الحين والآخر صف من أشجار الحور يحجب الشمس الغاربة الحانقة. وكان الجو على ضفاف نهر سوان، في جملته موحشاً، كئيباً، رطيباً، وسجف الليل تتكاثف بسرعة.

ولم يكن يرى في هذا المنظر غير جرم رجل واحد فقط يسير ببطء في اتجاه شالونز. وكان هذا الرجل أشبه بقابيل، يبدو من هيئته إنساناً وحيداً منعزلاً وهو يحمل على ظهره غرارة قديمة من فراء الغنم، ويمسك في يده عصا خشنة مقطوعة من غصن شجرة؛ وكانت قدماه موحلتين مرهقتين بسبب تآكل حذائه، وكان شعره أشعث ولحيته مهوشة، والرداء الذي يحمله على كتفه، والملابس التي يرتديها كدرة مبللة، وكان يعرج في مشيته بصعوبة وألم ويبدو كأنها السحب تهرب مسرعة منه، وكأنها عويل الرياح ورعشة الأعشاب موجَّهة إليه، وكأنها ذلك الخرير الخفي للمياه ينبح في وجهه وكأنها هذه الليلة المظلمة من ليالي الخريف قد تعكر صفوها بسببه.

وكان يقلب النظر هنا، وهناك، في سخط وانكماش. وفي بعض الأحيان كان يقف، ويستدير ويتلفت حوله؛ ثم يعاود السير وهو يغمغم ويتذمر متحاملاً على نفسه.

- ليأخذ الشيطان هذا السهل الذي لا نهاية له! ليأخذ الشيطان هذه الأحجار التي تقطع قدمي كالسكاكين! ليأخذ الشيطان هذا الظلام البغيض الذي يلتف حول الإنسان بالبرد! إني أكرهك!

وكان يتمنى لو استطاع أن يسكب كراهيته على كل شيء حوله تقع عليه نظارته المكفهرة. وسار مسافة أخرى بإعياء، ثم راح يرنو إلى المرحلة الباقية أمامه، ثم توقف مرة أخرى.

إنني جائع، وظمآن، ومرهق. أيها السفهاء المقيمون في تلك الأضواء هناك. إنكم تأكلون وتشربون وتدفئون أنفسكم أمام المدافئ. لشد ما أتمنى لو كان لي الحق في سلب مدينتكم؛ لسوف أجازيكم أيها الأولاد.

ولكن الأنياب التي كشر عنها للمدينة، واليد التي لوّح بها مهدداً، لم تزد المدينة قرباً منه. وهكذا كان أشد جوعاً وظمأً وإرهاقاً عندما لمست قدماه أحد أرصفتها الوعرة، حيث وقف ينظر حوله.

وكان هناك الفندق ببوابته، وبرائحة طعامه الشهية؛ وكان هناك المقهى بنوافذه المضيئة وكركرة زهر النرد، وكانت هناك المصبغة بملابسها الملونة المنشورة في مدخلها وكان هناك صائغ الفضة بما لديه من أقراط وحلي النذور للكنائس. وكان هناك بائع التبغ بعملائه من الجنود الخارجين وفي أفواههم السجائر، وكانت هناك الروائح الكريهة للمدينة، والمطر، ومخلفات الأوجار والمرابط، والمصابيح الخافتة المعلقة عبر الشوارع، والمخزن الكبير بما فيه من أكوام البضائع والمفروشات، والجياد الرمادية الستة ذات الذيول المعقودة، وقد وقفت على استعداد أمام مركبة المخزن. ولكن لم يكن على مرمى النظر حانة صغيرة تصلح لإيواء مسافر مرهق أملق؛ فكان

عليه أن يبحث عن مثل هذا المكان في أحد المنعطفات المظلمة، حيث تكثر أوراق الكرنب الملقاة تحت وطأة الأقدام حول صهريج الماء الذي كانت النسوة لا يتوقفن قط عن حمل الماء منه. وهناك، في ذلك الشارع الخلفي وجد بغيته.. حانة «بريك أوف داي». ورغم أن الستائر كانت تحجب ما وراء نوافذ هذه الحانة، إلا أنها بدت له وضيئة دفيئة، وكما أنها كانت تعلن على مدخلها بخط واضح، وبالرسم الذي يرمز للعبة «البلياردو»، أن في حانة «بريك أوف داي» يستطيع الإنسان أن يلعب «البلياردو»، وأن يجد حاجته من اللحم، والشراب، والمأوى سواء جاء راجلاً أم راكباً، وأن لديها أنواعاً من النبيذ الجيد، والمشروبات الكحولية الأخرى مثل البراندي. أدار الرجل مقبض باب الحانة ودخل يعرج.

ورفع يده ولمس قبعته التي حالَ لونها عندما دخل ورأى في الغرفة عدداً قليلاً من الرجال. وكان اثنان منهم يجلسان إلى مائدة صغيرة ويلعبان «الدومينو»، وثلاثة أو أربعة جالسين حول مدفأة يدخنون ويتبادلون الحديث. أما مائدة «البلياردو» في وسط الغرفة فكانت مهجورة في تلك اللحظة. وكانت صاحبة الحانة جالسة وراء منصتها الصغيرة تشتغل بالتطريز بين زجاجات الشراب المغبرة، وسلال الفطائر، والإناء المعتم الذي تملأ منه الكؤوس.

ولما سار نحو مائدة صغيرة في ركن الغرفة، وراء المدفأة، وضع غرارته ورداءه على الأرض. وفيما هو يرفع رأسه بعد أن فعل هذا، وجد صاحبة الحانة بجواره، فقال لها:

- أيستطيع الإنسان أن يقضي ليلة هنا يا سيدتي؟

فقالت صاحبة الحانة في صوت مرتفع منغم متفائل:

- طبعاً.

- حسناً. وهل يستطيع أن يتناول الإنسان غداءه أو عشاءه هنا؟

فهتفت السيدة كما فعلت من قبل:

- طبعاً.

- إذن أرجوك يا سيدتي أن ترسلي إليّ بأسرع ما تستطيعين شيئاً يؤكل، وبعض الشراب في الحال. فأنا مرهق جداً.

فقالت السيدة:

- إن الجو رديء جداً يا سيدي.

- إنه جو لعين.

- والطريق طويل جداً..

- إنه طريق لعين.

وخذله صوته الأجش، فوضع رأسه بين يديه حتى جيء بزجاجة خمر إليه من المنصة. وبعد أن شرب كأسين صغيرتين منها، وبعد أن أكل طرفاً من الرغيف الكبير الذي وُضِع أمامه مع الفوطة والمفرش وصحن الحساء والملح والفلفل والزيت، تراجع يريح ظهره في ركن الجدار، وجعل من الدكة التي جلس عليها أريكة تراخى فوقها وراح يلوك قطعة الخبز حتى يتم إعداد الطعام الذي سيُقدَّم إليه.

وكان قد حدث ذلك التوقف المؤقت في الحديث الدائر حول المدفأة، وتلك الحالة الموقوفة التي يشرد فيها بعض المتحدثين عن بعض عند مجيء أحد الغرباء. وانتهى هذا كله في حينه، وفرغ الرجال من النظر إليه، واستأنفوا الحديث مرة أخرى.

قال أحدهم يختتم قصة كان يسردها عليهم:

- كان ذلك هو السبب الحقيقي الذي أدى -على حد قولهم- إلى إطلاق سراح الشيطان.

وكان المتحدث ذلك السويسري الطويل المنتمي إلى الكنيسة، وكان قد أضفى شيئاً من هيبة الكنيسة على الحديث، لا سيما عندما جاء ذكر الشيطان.

وكانت صاحبة الحانة قد عادت إلى تطريزها وراء المنصة بعد أن أصدرت تعليماتها بشأن الضيف الجديد إلى زوجها الذي كان يعمل طاهياً في حانة «بريك أوف داي». وكانت سيدة صغيرة الجسم، ذكية، نظيفة، مشرقة الوجه، تغطي رأسها بقبعة كثيفة، وتكسو ساقيها بجوارب كثيرة، وكانت تشترك في الحديث بضحكات وإيماءات كثيرة من رأسها دون أن ترفعها عن قطعة التطريز في يدها.

قالت:

- آه، يا للسماء! عندما جاءت السفينة من ليون حاملة الأنباء بأن الشيطان قد انطلق من عقاله في مرسيليا، صدق بعض البسطاء هذه الأنباء، أما أنا.. فلا.

فردّ السويسري الطويل قائلاً:

- سيدتي، إنك دائماً على صواب. ولا شك أنك كنت شديدة السخط والغضب على ذلك الرجل يا سيدتي.

فهتفت صاحبة الحانة قائلة وهي ترفع عينيها عن عملها وتوسع ما بين أجفانها وتميل برأسها جانباً:

- أجل، أجل، طبعاً.

- كان رجلاً رديئاً.

فقالت صاحبة الحانة:

- كان شريراً شقياً، ولا أدري أي حظ حسن هذا الذي جعله ينجو؛ إنه لأمر سيء.

فرد السويسري قائلاً وهو يحرك السيجار في فمه:

- مهلاً يا سيدتي. ربما كان في نجاته هذه المرة مصيره التعس. ولعله إن كان ضحية المقادير؛ فمن الممكن دائماً أن يكون في أعماقه ومضة خير تحتاج لمن يعرف كيف يعثر عليها. إن مذهب الفلسفة الإنسانية يقول...

وغمغمت بقية الجماعة الملتفين حول المدفأة بعبارات الاحتجاج على هذا التعبير الخطر، حتى اللذان كانا يلعبان «الدومينو» رفعا رأسيهما عن اللعب وكأنما يحتجان أيضاً على ذكر مذهب الفلسفة الإنسانية في حانة «بريك أوف داي».

- قف عندك أنت وفلسفتك الإنسانية، واسمع. إنني امرأة، أجل، ولا أعرف شيئاً عن الفلسفة الإنسانية. ولكنني أعرف ما أراه بعيني، وما يبدو على الوجوه أمامي، هنا في هذه البيئة التي وجدت نفسي فيها. وهذا ما أقوله لك يا صديقي، وهو أن هناك أناساً «من الرجال والنساء للأسف» ليس فيهم ومضة خير على الإطلاق. بتاتاً. وأن هناك أناساً لا بد لك أن تحتقرهم بلا قيد أو شرط، وأن هناك أناساً لا بد أن تعاملهم على أنهم أعداء للجنس البشري. وأن هناك أناساً ليس بين جوانحهم قلوب إنسانية، ومن ثم ينبغي سحقهم على اعتبار أنهم وحوش كاسرة يجب القضاء عليها. وهؤلاء كما أرجو قليلون.

ولكنني رأيت في بيئتي هذه التي وجدت نفسي فيها -بل وفي هذه الحانة الصغيرة- أناساً من هذا النوع. ولست أشك في أن ذلك الرجل -أياً كان اسمه الذي نسيته- واحد منهم.

ونال حديث السيدة المفعم بالحيوية من الإعجاب في «حانة بريك أوف داي» أكثر مما قد ينال حديث أحد أولئك السادة الظرفاء المحبين للخير -الذين تعترض هي عليهم بلا مبرر- من إخوانه في بريطانيا.

وعادت السيدة تقول وهي تضع قطعة التطريز جانباً وتنهض لتأخذ حساء النزيل الغريب من زوجها الذي ظهر به عند باب جانبي:

- ويحي! لو أن فلسفتك الإنسانية تضع أي شخص تحت رحمة أمثال هؤلاء الناس مهما تكن الشروط والاتفاقيات، نظرية أو عملية، فاحملها بعيداً عن حانة بريك أوف داي. إنها هنا لا تساوي فلساً.

وفيما كانت تضع الحساء على مائدة النزيل الجديد، غيَّر هذا وضعه فجلس، وأنعم النظر في وجه السيدة ثم ارتفع شاربه إلى ما تحت أنفه، وهبط أنفه فوق شاربه.

وقال المتحدث السابق:

- حسناً! لنعد إلى موضوعنا الأول. فإذا تركنا هذا كله جانباً أيها السادة، علمنا أن الناس في مرسيليا قالوا إن الشيطان أُطلِق سراحه لأن ذلك الرجل أُفرِج عنه بعد المحاكمة. على هذا النحو بدأت تلك العبارة تنتشر. فماذا تعني؟ لا شيء أكثر من هذا!

وقالت صاحبة الحانة:

- ماذا يسمونه؟ بيرود، أليس كذلك.

فردّ السويسري الطويل:

- ريجود يا سيدتي.

- ريجود، بكل تأكيد.

وأعقب حساء الضيف طبق من اللحم، ثم آخر من السمك والخضر. وأكل كل ما قُدِّم إليه، وأفرغ زجاجة الخمر، وطلب كأساً من الروم، ودخّن سيجارته مع فنجان القهوة. وبعد أن انتعش، أصبح مستعداً للمشاركة في الحديث، فتحدث مع الموجودين حديثاً قليلاً أوضح فيه كأنما هو في الواقع أعلى مكانة مما يبدو عليه.

وكان للحاضرين اهتمامات أخرى، ولولا هذا لشعروا أنهم قد يكونون أقل شأناً منه. إلا أنهم، على أية حال، أخذوا يتفرقون دون أن يحل غيرهم محلهم، وهكذا تركوا النزيل الجديد بمفرده في حانة بريك أوف داي إذ كان صاحبها مشغولاً بعمله في المطبخ، وصاحبتها تعمل في قطعة التطريز بين يديها، ومن ثم بقي النزيل المنتعش جالساً يدخن بجانب المدفأة، ويدفئ قدميه على نارها.

قال لصاحبة الحانة:

– معذرة يا سيدتي... إن بيرود هذا...

– تعني ريجود يا سيدي!

– ريجود.. معذرة مرة أخرى، قد أثار استياءك منه، فكيف حدث هذا؟

وخطر ببال صاحبة الحانة، التي كانت ترى في ذلك الوقت أن هذا النزيل الجديد رجل وسيم حيناً، وأنه دميم الشكل حيناً آخر، ولاحظت أن أنفه يهبط وشاربه يرتفع ومن ثم مالت إلى الاحتمال الثاني، وقالت له إن ريجود مجرم أثيم قتل زوجته.

– أجل، أجل، ويحي! إنه مجرم حقاً. ولكن كيف عرفت هذا عنه.

– إن الدنيا كلها تعرف هذا!

- هاه! ومع ذلك فقد أفلت من العدالة.

- سيدي، لم يستطع القانون أن يوفر الأدلة على إدانته. هكذا قالت العدالة. ومع ذلك فإن الدنيا كلها تعرف أنه ارتكب الجريمة. بل إن الناس كانوا واثقين من إدانته بحيث أرادوا أن يمزقوه إرباً.

فقال النزيل:

- لأن هذا يلائم أمزجة زوجاتهم تماماً.. هاها..

ونظرت صاحبة الحانة إليه مرة أخرى، وشعرت أنها تكاد تستقر على رأيها الأخير في دمامته. ومع هذا فقد كانت له يد جميلة يجب دائماً أن يستعرضها. ومن ثم فقد بدأت مرة أخرى تظن أنه ليس دميماً رغم كل شيء.

- هل ذكرت يا سيدتي.. أو ذكر أحد السادة الذين كانوا هنا شيئاً عما حدث له بعد ذلك.

وهزت السيدة رأسها، وكانت في أول مرحلة من الحديث، قد توقفت فيها برهة عن الإيماء برأسها، ولكنها لم تلبث أن استأنفت هذه العادة فراحت تومئ برأسها إيماءً توقيعياً مع الحديث. وقد قالت إنه ذكر في حانة بريك أوف داي، بناءً على أقوال الصحف، أنه أودع السجن حرصاً على سلامته. ولكنه مع هذا هرب من المحسنين إليه لسوء حظه.

وجلس النزيل ينظر إليها وهو يدخن سيجارته الأخيرة، وكانت هي جالسة مطرقة برأسها مستغرقة في عملها، وقد ارتسمت على وجهها أمارات تنم عن أنها قد تصل في النهاية إلى قرار فيما يتعلق بشكوكها عن موضوع وسامته أو دمامته لو أنها أعادت النظر إليه. ولما رفعت عينيها كانت تلك الأمارات قد اختفت، وكانت يده الناعمة تمسح على شاربه الكث.

- هل يمكن أن أسأل عن الطريق إلى الفراش.

وهنا أخذت صاحبة الحانة تتحدث بصوتها المنغم وهي تهتف على زوجها بكلمة «هوللا» التي كانت توجهها إلى الباب الجانبي، وقد قالت: «أجل، بكل سرور أيها السيد.. هوللا زوجي.. إن زوجي سوف يصحبك إلى الطابق الثاني.. وهناك نزيل واحد.. نائم، أوى إلى فراشه في ساعة مبكرة حقاً لأنه كان متعباً جداً، ولكنها غرفة نوم كبيرة ذات سريرين، وتتسع لعشرين نائماً».

وأجاب «الزوج» أخيراً:

- هأنذا يا زوجتي..

ثم تقدم بقلنسوة المطبخ على رأسه، وحمل المصباح ليضيء للمسافر طريقه في أثناء صعودهما السلّم الضيق الشديد الانحدار؛ وكان النزيل قد حمل غرارته الفرائية ورداءه وحيّا السيدة مُعرِباً عن أمله في أن يظفر بمتعة رؤيتها في صباح اليوم التالي. وكانت الغرفة كبيرة، ذات أرضية خشنة غليظة، وسقف من عروق الخشب غير المكسو بالملاط، وسريرين في جانبين متقابلين. وهنا وضع «الزوج» المصباح الذي كان يحمله، ثم وجّه إرشاداته للضيف مختلساً إليه النظر وهو ينحني على غرارته قائلاً: «سريرك هو الأيمن» ثم انصرف عنه. وكان صاحب الحانة قد قرر في ذات نفسه - سواء كان من علماء الفراسة أم لا - أن ذلك النزيل رجل بغيض الشكل.

ونظر النزيل في ازدراء إلى السرير النظيف الخشن الذي أُعِدَّ له، وبعد أن جلس على المقعد المصنوع من القش الموضوع بجانبه، أخرج نقوده من جيبه واستعرضها في يده وقال لنفسه «على الإنسان أن يأكل» ولكن عليّ بحق السماء أن آكل غداً على حساب أحد آخر.

وفيما هو جالس يفكر ويزن النقود في يده بطريقة آلية، سمع الأنفاس الرتيبة العميقة للنزيل الآخر النائم وهي تتساقط على أذنيه مما لفت نظره إلى ذلك الاتجاه وكان الرجل مستدفئاً تحت الغطاء، واضعاً

الملاءة البيضاء على رأسه، ومن ثم لم يكن يرى منه شيء. ولكن الأنفاس الرتيبة العميقة ظلت تتردد عندما أخذ النزيل الجديد يخلع حذاءه، وعندما راح يضع جانباً معطفه ووشاحه، ومن ثم اضطرم في نفسه الفضول والرغبة في أن يرى لمحة من وجه النائم.

وهكذا راح النزيل المستيقظ يقترب شيئاً فشيئاً، ثم يزداد اقتراباً، ثم يمعن في الاقتراب نحو سرير النزيل النائم، إلى أن وقف بجانبه. وحتى عندئذ لم يستطع أن يرى وجهه، لأنه كان يغطيه بالملاءة. وظلت الأنفاس الرتيبة تتردد بانتظام، فوضع يده الناعمة البيضاء «وكانت يداً تبدو خداعة غادرة وهي تمتد منه» نحو الملاءة وترفعها برفق.

وهمس قائلاً وهو يتراجع مندهشاً:

- ويحي، هذا هو كافالليتو.

وتوقف الإيطالي الضئيل الجسم عن التنفس المنتظم، وكأنما شعر في نومه بذلك الواقف المتلصص بجانب سريره، ثم تنهد بعمق وفتح عينيه. ولم ينتبه من نومه رغم فتحة عينيه، وإنما ظل لحظات يحملق بجمود إلى رفيقه السابق في السجن، ثم إذا به يطلق صيحة خوف ودهشة وهو يثب من فراشه فوراً.

وهتف الآخر قائلاً في صوت مكبوت:

- سكوتاً! ماذا بك؟ اهدأ. إنه.. أنا.. ألا تعرفني.

ولكن جون بابتست بعينيه المحملقتين وصوته المغمغم بعبارات غامضة وجسمه المرتعد المتراجع إلى ركن الغرفة، وتعثره في بنطلونه وربطه السترة حول عنقه من كميها، كان بهذا يعبر تماماً عن رغبته الواضحة في الهرب من الباب بدلاً من تجديد المعرفة بصاحبه القديم هذا. ولما رأى صاحبه القديم ذلك، أسرع إلى الباب ووضع ظهره إليه قائلاً:

- كافالليتو! استيقظ يا ولدي، افرك عينيك وانظر إليّ ولا تنادني بالاسم الذي كنت تناديني به من قبل. سمِّني لانبير، نعم، لانبير.

وأخذ جون بابتست -وهو يحملق فيه بعينين متسعتين إلى مداهما- يحرك سبابة يده اليمنى في الهواء بذلك الأسلوب المعروف للجميع وكأنما يدل على أنه قرر -مقدماً- أن ينكر طول حياته كل ما سيقوله الآخر له.

- كافالليتو! أعطني يدك. أنت تعرف لانبير الإنسان المهذب. صافح يد إنسان مهذب!

وأخضع كافالليتو -أي جون بابتست- نفسه لذلك الصوت القديم الآمر، وتقدم على ساقين لا تزالان ترتعدان، ووضع يده في يد صاحبه القديم. وضحك السيد لانبير، وضغط قليلاً على اليد، ودفع بها إلى أعلى وأطلقها، بينما قال جون بابتست متلعثماً:

- إذن فأنت لم...!

فصاح لانبير قائلاً وهو يدير عنقه:

- لم أُعدَم بالمقصلة.. لا. وها هي ذي عنقي ثابتة على كتفي مثل عنقك.

وتلفت جون بابتست -وهو يرتعد قليلاً- فيما حوله في جوانب الغرفة كأنما يريد أن يتذكر أين هو. وانتهز صاحبه هذه الفرصة فأغلق الباب من الداخل بالمفتاح، ثم جلس على فراشه قائلاً وهو يتناول حذاءه:

- انظر؟ إن هذا لا يليق برجل مهذب كما سوف تقول. ولكن لا بأس لسوف نرى كيف أصلح أمري في أسرع وقت. تعال واجلس أرضاً.. اتخذ مكانك القديم.

وجلس جون بابتست وهو أشد ما يكون ارتياباً، على الأرضية بجانب السرير مركِّزاً نظراته على صاحبه الكبير طيلة الوقت.

وهتف لانبير قائلاً:

– هذا حسن. والآن يمكننا أن نشعر كأننا في ذلك الجحر اللعين القديم مرة أخرى. متى خرجت منه!

– بعدك بيومين يا سيدي.

– كيف جئت إلى هنا؟

حذروني من البقاء هناك، ومن ثم غادرت المدينة فوراً. ومنذ ذلك الحين وأنا أهيم هنا وهناك. وقد اشتغلت بأعمال مختلفة في مدن أثينون وأسبريت وليون وعلى نهري السين والسوان.

وكان، وهو يتحدث، يرسم بسرعة وبيده السمراء خريطة الأماكن التي يتحدث عنها، على الأرضية.

– وإلى أين ستذهب؟

–أذهب يا سيدي؟

– أجل!

وبدا على جون بابتست أنه راغب في الهرب من السؤال دون أن يدري كيف، وأخيراً قال وكأنما هو مرغم على الاعتراف:

– بحق الشيطان! إنني أفكر في الذهاب إلى باريس، وربما إلى إنكلترا.

– كافالليتو! إن ما سأقوله لك سر بيني وبينك. إنني أيضاً ذاهب إلى باريس، وربما إلى إنكلترا. وسوف نذهب معاً.

وأومأ الرجل الضئيل الحجم برأسه، وابتسم. ولكن بدا عليه، مع هذا، أنه غير مقتنع تماماً بأن هذا البرنامج باعث على أشد الرضا.

وعاد لانبير يقول:

- لسوف نذهب معاً. وسترى كيف أفرض على نفسي الظهور بمظهر السيد المهذب. وسيعود هذا بالفائدة عليك. اتفقنا؟ أليس كذلك؟

فقال الرجل الضئيل الحجم:

- بكل تأكيد.. بكل تأكيد!

- إذن سوف تسمع قبل أن أنام -وفي كلمات معدودة لأني أريد النوم- كيف ظهرت أمامك، أنا، لانبير.. لا الآخر.. تذكر هذا.

- أجل.. أجل.. لاباريـ..

وقبل أن ينطق جون بابتست بالاسم، كان صاحبه قد مدّ يده إلى ذقنه وأغلق فمه بعنف وهو يقول:

- ويحك! ما هذا الذي تفعله؟ أتريد أن أُداس بالأقدام وأُرجَم بالحجارة! أتريد أن تُداس أنت أيضاً بالأقدام وتُرجَم بالحجارة! هذا ما سوف يحدث لك. لا تظن إطلاقاً أنهم سيحملون عليّ ويتركون صاحبي في السجن يفر! لا تظن هذا.

وكانت الأمارات التي ارتسمت على وجهه -وهو يرفع يده على فك صاحبه- تجعل هذا الصاحب يدرك تماماً أن الأمور إذا تطورت إلى رجم بالحجارة ودوس بالأقدام، فإن السيد لانبير لن ينسى قط أن يجعله ينال نصيبه الكامل من هذا التطور. إنه يتذكر إلى أي حد يتمسك السيد لانبير بـ«المساواة» في هذه الشؤون، وإلى أي حد يكره التفرقة فيها!

وقال السيد لانبير:

- إنني رجل أساء المجتمع إليه أبلغ إساءة منذ أن رأيتني آخر مرة. وأنت تعرف أنني مرهف الشعور وباسل، وأحب السيطرة بطبعي.

فكيف احترم المجتمع هذه الصفات التي أتمتع بها؟ لقد تعرضت لصيحات الناس وصرخاتهم في الشوارع. لقد سرت في الشوارع في حراسة رجال الشرطة خوفاً من الناس -لا سيما النساء- الذين كانوا ينطلقون نحوي مسلحين بأية أسلحة يمكن أن تصل أيديهم إليها. وقد أودعت السجن لأكون فيه آمناً، كما حرصت السلطات على إبقاء مكان سجني سراً خوفاً من أن يقتحمه الناس ويمزقوني باللكم والركل. وقد أخرجت من مرسيليا في عربة مقلقة سارت بي في الليل البهيم فراسخ كثيرة وأنا مخبوء بين أكوام القش. ولم يكن في مقدوري أن أقترب من بيتي آمناً. وهكذا سرت، وفي جيبي القليل جداً من المال خلال طرق موحلة وجو لعين حتى دُمِيَت قدماي. انظر إليها.. هكذا كانت أنواع الإهانات التي صبّها المجتمع عليّ رغم تمتعي بتلك الصفات التي ذكرتها والتي تعرف أنت أنني أتمتع بها. ولكن هذا المجتمع سوف يدفع الثمن.

قال هذا كله في أذن صاحبه، واضعاً يده أمام شفتيه. وعلى هذا النحو نفسه استطرد قائلاً:

– وحتى هنا، في هذه الحانة الحقيرة، يطاردني المجتمع. إن صاحبة الحانة تغامزت عليّ؛ وكذلك فعل نزلاؤها. إنهم يفعلون هذا بي أنا، السيد المهذب ذي الصفات والمزايا الرفيعة القادر على القضاء عليهم. ولكنني سوف أختزن في صدري هذه الإساءات التي كدسها المجتمع فوقي.

وكان جون بابتست ينصت بانتباه إلى الرجل الذي كان يقول هذا كله بصوته الهامس الأجش، ثم يردد بين الحين والآخر «بالتأكيد، بالتأكيد» وهو يهز رأسه ويغمض عينيه كأنما يرى في وضوح تام أن صاحبه على حق تماماً فيما يقول.

واستمر لانبير في الحديث قائلاً:

- ضع حذائي هناك. وعلّق ردائي ليجف، هناك بجانب الباب، وخذ قبعتي..

وأردف قائلاً بينما كان الآخر يطيع أوامره:

- وهذا هو الفراش الذي خصصه المجتمع لي؟ أليس كذلك هاه! حسناً جداً.

وتذكر جون بابتست بوضوح وهو يراه ممدداً على الفراش ومنديله الرث حول رأسه الخبيث، ورأسه الخبيث هو الذي يبدو فقط من تحت الغطاء، تذكر ذلك الحدث الذي كاد أن يطيح بهذا الرأس ويقضي على تلك البسمة التي يرتفع لها الشارب ويهبط لها الأنف كما هو حادث الآن.

وعاد يقول:

- هه! لقد رمتني الأقدار مرة أخرى إلى جانبك! يا للسماء! إن هذا لفائدتك ولا شك. لسوف تستفيد من هذا. وسوف أحتاج إلى راحة طويلة. دعني أنم في الصباح.

وأجاب جون بابتست أن عليه أن يطيل في النوم كما يشاء، وبعد أن تمنى له ليلة سعيدة، أطفأ القنديل. وكان المنتظر أن تكون الخطوة التالية أن يخلع الإيطالي ملابسه، ولكن فعل العكس تماماً، إذ ارتدى جميع ملابسه فيما عدا الحذاء. وبعد أن فرغ من هذا، رقد على السرير وجعل عليه بعض الغطاء وقد أعدّ سترته حول عنقه ليخرج بها في الليل.

ولما نهض كان الفجر يتسلل إلى المكان، فغادر فراشه، وتناول حذاءه في يده وأدار المفتاح في قفل الباب بحذر شديد، وزحف هابطاً على السلّم دون أن يتحرك شيء فيما عدا رائحة القهوة والخمر والتبغ والمشروبات، وبدت له منصة صاحبة الحانة كريهة المنظر إلى حد كبير؛ ولكنه كان قد دفع حساب إقامته في الليلة السابقة، ومن ثم لم يشأ أن يرى

أحداً، ولم يكن يرغب في شيء إلا أن يرتدي حذاءه، ويحمل حقيبة زاده ويفتح الباب ويهرب.

ونجح في تحقيق غرضه، فلم يسمع صوت أو حركة وهو يفتح الباب. ولم يطل عليه من نافذة الطابق الأعلى رأس خبيث مربوط بمنديل رث. وعندما ارتفع قرص الشمس فوق خط الأفق وراح يرسل اللهب من أرضية شارع طويل مرصوف تحف به شجيرات صغيرة، كان ثمة بقعة سوداء تتحرك على الطريق وتخوض البرك الصغيرة الملتهبة المتخلفة من مياه الأمطار. ولم تكن هذه البقعة السوداء غير جون بابتست كافالليتو الهارب من صاحبه الكبير.

* * *

ساحة القلب الدامي

في قلب لندن، وفي الطريق القديم المهمل المؤدي إلى ضاحية كانت ذات شأن في عهد ويليام شكسبير الكاتب والممثل المسرحي، كما كانت مثابة لاستراحات ملكية للصيد، نجد الآن مكاناً لم يعد يصلح إلا لصيد الناس، ألا وهو المسمى حوش «بليدنج هارت» أو «القلب الدامي». إنه مكان لا يزال يحتفظ ببعض سمات مجده القديم رغم التغييرات الشديدة التي طرأت عليه من ناحيتي المظهر والمخبر. ومن المعالم التي أصبحت من سمات الحوش قاعدتان ضخمتان أو ثلاث من القواعد الحجرية للمداخن، وبضع غرف رحيبة معتمة نجت من عملية تقسيمها إلى غرف صغيرة. وكان مأهولاً بسكان فقراء استقروا بين أمجاده الضائعة كما يفعل بعض أعراب البدو حين ينصبون خيامهم بين الصخور المتساقطة من الأهرامات. ولكن كان ثمة شعور عائلي يسود الحوش بأن له طابعه الخاص.

وكأنما شمخت المدينة النامية حوله بنفسها على الأرض القائمة فوقها، فإذا هذه الأرض ترتفع بها بحيث أصبح لزاماً عليك أن تهبط بضع درجات -لم تكن من معالم مدخله سابقاً- لكي تدخله؛ فإذا خرجت منه، فإنما عن طريق بوابة خفيضة تؤدي إلى شوارع حقيرة والتي تدور بك وتدور في صعود تدريجي حتى تصل إلى مستوى أرض المدينة. وعند هذا الطرف الأخير من الحوش، وبعد البوابة بقليل، نجد مصنع

دانييل دويس الذي تعلو في جوفه دائماً ضربات المطرق كأنها قلب من الحديد الدامي الذي يصلصل عليه المعدن فوق المعدن.

وتنقسم آراء سكان الحوش إلى قسمين بشأن المصدر الذي استمد الحوش منه هذا الاسم «القلب الدامي». فسكانه الواقعيون العمليون يؤمنون أن هذا الاسم مستمد من جريمة قتل قديمة. أما سكانه الخياليون الأكثر رقة ورهافة حس –ومنهم جميع الجنس اللطيف– فيؤمنون بالأسطورة التي تقول إنه كان في ذلك المكان شابة حسناء سجنها أبوها القاسي في غرفتها الخاصة لأنها بقيت وفية لحبيبها، رافضة الزواج بالشخص الذي رشّحه أبوها لها. وتذكر الأسطورة كيف أن الناس يشاهدون تلك الشابة الحسناء وراء قضبان نافذتها وهي تترنم بأغنية حب ذات مقطع مكرر «القلب الدامي.. القلب الدامي.. مات منزوف الدم» حتى قضت نحبها. ويعترض جماعة «الجريمة» على هذا بقولهم إن المقطوعة التي تتردد بين الحين والحين ليست إلا من بنات خيال عانس عاطفية المزاج، تشتغل بصناعة الدفوف، ولا تزال مقيمة بالحوش. ولكن لما كانت الأساطير بوجه عام لا بد أن تستهوي عواطف الكثيرين، ولما كان عدد الذين يحبون أكثر جداً من الذين يُقتَلون –وهذا ما نرجو أن يستمر، رغم شرورنا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها– فإن أنصار الأسطورة «القلب الدامي.. القلب الدامي.. مات منزوف الدماء» غدوا على مرّ الأيام غالبية كبرى. ولم يحاول كل من الفريقين أن ينصت إلى أساتذة التاريخ القديم الذين يلقون المحاضرات العلمية في المناطق المجاورة مبينين فيها أن حوش «بليدنج هارت» «القلب الدامي» استمد اسمه هذا التقليدي المعروف من شعار أسرة قديمة كان الحوش من ممتلكاتها. فإذا وضعنا في الاعتبار أن الساعة الزجاجية الرملية التي يقلبها سكان الحوش من العام للعام، كانت ممتلئة بأحط وأبخس أنواع الرمال، لالتمسنا لهم العذر في رفضهم لكل ما يفسد تلك الجنة الشاعرية الذهبية الصغيرة الوحيدة التي تتألق فيها.

وإلى هذا الحوش، وعن طريق السلالم الهابطة، أقبل دانييل دويس والسيد ميجلز والسيد كلينام. وبعد المرور فيه، بين أبواب المنازل المفتوحة على الجانبين حيث يلعب أمامها الكثير من الأطفال، وصل الثلاثة إلى الطرف المقابل، حيث البوابة. وهنا توقف آرثر كلينام ليتلفت حوله باحثاً عن محل إقامة المدعو بلورنيش، النقاش، الذي لم يسمع دانييل دويس أوير -طبقاً لعادة اللندنيين- اسمه قط حتى هذه اللحظة.

ولكن الأمر، مع هذا، كان شديد الوضوح كما ذكرت دوريت الصغيرة. ذلك أن كلينام رأى تحت بوابة صغيرة مطلية بالجير، في الركن، بعض أدوات العمل التي يستعملها بلورنيش، كالسلم وبرميل أو اثنين. وكان البيت الأخير في حوش بليدنج هارت، الذي قالت دوريت الصغيرة إن بلورنيش يقيم فيه، بيتاً كبيراً مؤجراً لكثير من السكان المختلفين. ولكن بلورنيش كان يشير -ببراعة- إلى الغرفة التي يسكنها، وذلك برسم يد تحت اسمه يشير إصبعها السبابة «الذي زينه بخاتم وبظفر بالغ الجمال والرقة» إلى هذه الغرفة.

وبعد أن اتفق كلينام مع المستر ميجلز على موعد آخر للقاء، مضى بمفرده إلى البيت، وطرق على باب غرفة بلورنيش بجمع يده؛ ولم تلبث أن فتحته امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها وتحاول أن تسوي بإحدى يديها الجزء الأعلى من ثوبها. وكانت هذه هي السيدة بلورنيش، وكانت تصرفاتها التي تنم عن الأمومة هي في الواقع نفس التصرفات التي تشغل الجانب الأكبر من أعمالها اليومية.

- هل السيد بلورنيش بالبيت؟

وأجابت السيدة بلورنيش بصوت يدل على أنها إنسانة رقيقة:

- حسناً يا سيدي! لكيلا أخدعك أقول إنه خرج يبحث عن عمل. وعبارة «لكيلا أخدعك» هي إحدى لوازم السيدة بلورنيش في

الحديث، والواقع أنها، مهما تكن الظروف والأحوال، لا نقبل أن نخدعك في قليل أو كثير. إلا أنها اعتادت على تضمين هذه العبارة في إجاباتها ببراعة.

- أتظنين أنه سيعود سريعاً، إذا أنا جلست في انتظاره؟

فقالت السيدة بلورنيش:

- منذ نصف ساعة وأنا أتوقع حضوره في أية لحظة. تفضل بالدخول يا سيدي.

ودخل آرثر غرفة معتمة بعض الشيء، خانقة الجو -وإن كانت رحبة- وجلس على المقعد الذي أعدته له. بينما قالت هي:

- لكيلا أخدعك يا سيدي، لقد لاحظت الأمر، وأعتبر هذا لفتة كريمة منك.

ودفعها ما ارتسم على وجهه من أمارات الحيرة وعدم الفهم إلى أن تفسر له الأمر بقولها:

- إن الذين يتنازلون ويرفعون قبعاتهم عند دخولهم هذا المكان المتواضع ليسوا كثيرين يا سيدي. ولكنهم يقدرونه بعد ذلك أكثر مما يظن الناس.

وأجاب كلينام إن الأمر أبسط من أن يستحق كل هذا الاهتمام، ثم انحنى وقرص خد طفل آخر كان يجلس على الأرضية ويحملق فيه، وقد سأل السيدة بلورنيش عن عمر هذا الطفل اللطيف! فأجابت قائلة:

- أتم منذ عهد قريب أربع سنوات يا سيدي. إنه شخصية لطيفة صغيرة، أليس كذلك يا سيدي؟ ولكن هذا الآخر عليل بعض الشيء...

ثم ضمت في حنان الطفل الذي بين ذراعيها وأردفت قائلة:

- أرجو ألا تجد بأساً إذا سألتك هل جئتك لتكلف زوجي بعمل ما يا سيدي؟

وكانت تلقي هذا السؤال بلهفة جعلته يقول لنفسه لو أن لديه غرفة تحتاج إلى طلاء، لجعل بلورنيش يطليها بسُمك قدم حتى لا يقول لها: «لا» ولكنه كان مضطراً لأن يجيب بكلمة «لا». ورأى لمحة من خيبة الأمل تطوف بوجهها وهي تكتم زفرة في صدرها وترنو إلى النار الخافتة. ثم رأى أيضاً، أن هذه السيدة بلورنيش امرأة شابة تركت الفاقة عليها وعلى ما لديها طابع القذارة. كما أن هذه الفاقة نفسها اتحدت مع تربية الأبناء لتحفر في وجهها الكثير من الغضون.

وعادت هي تقول:

- يبدو لي أن كل شيء في نطاق العمل قد اختفى تحت الأرض.. نعم.

وكانت تقصد بحديثها أعمال الطلاء دون أن تشير إلى إدارة العلاقات العامة أو أسرة بارناكل.

وسألها آرثر كلينام قائلاً:

-هل الحصول على عمل عسير إلى هذا الحد؟

فأجابت قائلة:

- هذا ما يراه بلورنيش. إنه سيء الطالع.. إنه كذلك حقاً.

إنه كذلك حقاً؟ إنه أحد أولئك الكثيرين من الجوابين في طريق الحياة، الذين يبدو أنهم أصيبوا بخصائص غير طبيعية تجعلهم عاجزين عن الوقوف حتى على قدم المساواة مع منافسيهم الضعفاء. إن بلورنيش الطيب القلب اللين العريكة الراغب في العمل، المجد، يتقبل حظه بقدر ما يستطيع من البساطة والاستسلام. إلا أن حظه هذا كان على شيء من

القسوة؛ ذلك أنه كان من النادر جداً أن يحتاج إليه أحد. وإذا حدث أن احتاج إلى إمكانياته أحد كان ذلك في حكم الاستثناء الذي لا يستطيع عقله الغائم أن يفهم كيف حدث. ومن ثم تراه يتقبل الأشياء كما هي، وهكذا يتعثر واقعاً في مختلف المشكلات، ثم يتعثر خارجاً منها، وهو في تعثره هذا على طريق الحياة، يصيب نفسه بالكثير من الجراح والكدمات.

وعادت السيدة بلورنيش تقول:

- إن المشكلة لا ترجع إلى إهمال زوجي في البحث عن الأعمال، إني واثقة من هذا.

ثم رفعت حاجبيها ونظرت إلى نيران المدفأة من وراء قضبانها كأنما تبحث فيها عن حل، ثم أردفت قائلة:

- ولا إلى عدم رغبته في العمل إذا وجد العمل. وما أظن أن هناك من سمع عن زوجي أنه شكى من العمل قط.

وكانت هذه، على نحو ما، الحالة العامة التي يعاني منها سكان حوش بليدنج هارت. فبين الحين والآخر كانت الشكوى العامة تنتشر بين المواطنين بسبب ندرة الأعمال. وكان بعضهم ينظرون إلى هذه الحالة نظرة خطيرة جداً وكأنما يرون أن من حقهم أن تيسر لهم الأعمال بشروطهم الخاصة. وكانت حالة حوش بليدنج هارت في هذا المضمار لا تقل سوءاً عن بقية «الأحواش» في بريطانيا. وكانت تلك الأسرة الرفيعة، أسرة بارناكل، أكثر انشغالاً بالمبدأ الخطير «كيف تعطل هذا» من أن تبحث عن حل لهذه المشكلة. والواقع أن هذه المشكلة لم يكن لها علاقة بأعمالها الخاصة بالاستعلاء على بقية الأسر العريقة الرفيعة فيما عدا أسرة سلستوكنج.

وفيما كانت السيدة بلورنيش تتحدث على هذا النحو عن سيدها الغائب، إذا بسيدها يحضر؛ وكان رجلاً ناعم الوجه ناضر البشرة، أصفر

الشعر في الثلاثين من العمر. وكان طويل الساقين مع انثناء عند الركبتين، ينم وجهه عن الغباء، ويرتدي سترة ملوثة بالطلاء الجيري.

وقالت الزوجة:

- هذا بلورنيش يا سيدي.

وقال كلينام وهو ينهض واقفاً:

- لقد جئت راجياً أن تتكرم بالحديث معي قليلاً عن موضوع يخص عائلة دوريت.

وارتسم الشك على وجه بلورنيش، وبدا كأنه يشم رائحة دائن، وقال:

- آه، نعم. حسناً! ماذا يمكن القول عن هذه الأسرة الآن؟

فابتسم كلينام قائلاً:

- إنني أعرفك أكثر مما تظن.

فقال بلورنيش -دون أن يبتسم- إنه لم يتشرف بعد بمعرفة ذلك السيد. وهنا قال آرثر:

- لا. إنني أعرف من مصدر أكيد الخدمات التي أديتها لهذه الأسرة وأعني بهذا المصدر دوريت الصغيرة.. أقصد الآنسة دوريت.

- إنك المستر كلينام. أليس كذلك؟ لقد سمعت عنك يا سيدي.

- وأنا سمعت عنك.

فقال بلورنيش وهو يتناول مقعداً.

- تفضل بالجلوس يا سيدي واعتبر نفسك في بيتك.. نعم.. نعم.

ثم رفع ابنه الأكبر ووضعه على ركبتيه ليستعين به على الحديث مع رجل غريب من فوق رأسه، ثم قال مستطرداً:

لقد أمضيت فترة داخل ذلك السجن، وهذا هو السبب في معرفتي بالآنسة دوريت. لقد تعرفنا -زوجتي وأنا- بها...

وهتفت السيدة بلورنيش قائلة:

- معرفة وطيدة.

وكانت المرأة شديدة الزهو بهذه المعرفة، بحيث أثارت بعض المرارة في محيط الحوش عن طريق تضخيم الدَّيْن الذي من أجله أودع والد دوريت السجن. وكان سكان الحوش يضيقون من ادعائها معرفة أناس لهم هذه المكانة الرفيعة.

فقال بلورنيش بطريقة تكرارية:

- لقد تعرفت بأبيها أولاً. وعن طريق معرفتي بأبيها، تعرفت -كما ترى- بها هي.

- مفهوم.

- نعم. وقد لمست فيه أخلاقاً.. ولمست فيه تهذيباً.. ورأيت كيف يبقَ الرجل المهذب في السجن حتى يتعفن. عجباً! ولعلك لا تدري..

ثم خفض من صوته وراح يتحدث بإعجاب ملتو يتضمن الرثاء والاحتقار:

- لعلك لا تدري أن الآنسة دوريت وأختها لا تجرؤان على إخباره بأنهما تعملان في سبيل الرزق. لا؟!

ثم عاد يقول وهو يلقي نظرات الزهو على زوجته أولاً، ثم فيما حوله:

- لا تجرؤان على إخباره! نعم. لا تجرؤان.

وقال كليننام بهدوء:

- إنني لا أعجب به من أجل هذا، وإنما أشعر بالأسف من أجله.

وبدا أن هذه الملاحظة أوحت إلى بلورنيش، لأول مرة، أن ما يعرفه عن السيد دوريت لا ينم عن أخلاق كريمة قط. وأخذ يفكر في هذا الاحتمال برهة، ثم هزّ كتفيه، واستأنف الحديث قائلاً:

- إن السيد دوريت كان وديعاً معي، شخصياً بقدر ما كنت أتوقع. وإني واثق من هذا. ومما زادني إعجاباً به، أنه كان يعاملني بهذه الوداعة رغم ما بيننا من فوارق واختلافات. ولكنها الآنسة دوريت نتحدث عنها.

- حقاً. والآن أرجوك أن تخبرني كيف قدمتها للعمل في مسكن أمي؟

والتقط السيد بلورنيش شريحة ليمون من العصارة، ووضعها بين شفتيه وراح يديرها بلسانه كأنها قطعة سكر، وبعد أن تأمل الأمر قليلاً، وجد نفسه ليس أهلاً لأن يقوم بمهمة الشرح والتفسير، فلجأ إلى زوجته وقال لها:

- سالي، لعلك أقدر على معرفة كيف حدث هذا.

فقالت سالي وهي تهدهد طفلها ليسكت، واضعة ذقنها على يده التي كان يحاول بها أن يعبث مرة أخرى بأعلى ثوبها:

- لقد جاءت الآنسة دوريت إلى هنا ذات يوم بعد الظهر ومعها ورقة صغيرة مكتوبة وذكرت لنا كيف أنها تريد أن تقوم بأعمال التطريز وشغل الإبرة، وسألتنا هل يكون من عدم اللياقة إن جعلت عنوانها لدينا.

وهنا راح بلورنيش يكرر عبارة -عنوانها لدينا- كأنما يؤمن على دعوات في الكنيسة.

واستطردت السيدة بلورنيش قائلة:

- وقلنا لها، بلورنيش وأنا، كلا.. يا آنسة دوريت، ليس من عدم اللياقة «وهنا كرر بلورنيش عبارة: ليس من عدم اللياقة» أن تجعلي عنوانك لدينا. ولما كتبته قلنا لها، بلورنيش وأنا: اسمعي يا آنسة دوريت «وكرر بلورنيش: اسمعي يا آنسة دوريت» ألم تفكري في أن تنسخي عنوانك في ثلاث أو أربع ورقات حتى نجعله معروفاً في أكثر من مكان واحد، فقالت الآنسة دوريت: لا، لم أفكر في هذا، ولكني سأفعل. ثم كتبته، على هذه المائدة نفسها، وبخط جميل، وقد أخذه بلورنيش إلى حيث كان يعمل، وكان لديه يومذاك عمل «وكرر بلورنيش قولها: وكان لديه يومذاك عمل» وكذلك حمل العنوان إلى مالك الحوش الذي استطاعت الآنسة دوريت عن طريقه أن تجد عملاً لدى السيدة كلينام. «وكرر بلورنيش العبارة الأخيرة».

ولما فرغت السيدة بلورنيش تظاهرت بأنها تعض أصابع طفلها الصغير وهي تقبّلها.

وتساءل آرثر قائلاً:

- مالك الحوش.. ها هو..

فقال بلورنيش:

- إنه السيد كاسبي.. هذا اسمه. وهناك السيد بانكس، الذي يحصل الإيجارات. وهذا..

ثم أردف السيد بلورنيش قائلاً بعد تفكير بطيء، وبكلمات لا تكاد تكون لها علاقة بالموضوع الرئيسي للحديث:

– وهذا هو شأنهما، صدقني أو لا تصدقني، حسبما يتراءى لك.

وقال كلينام وهو يستغرق في التفكير بدوره:

– وكاسبي أيضاً؟ إنه صديق لي قديم.. عرفته منذ مدة بعيدة.. جداً.

ولم يستطع السيد بلورنيش أن يجد أمامه ما يعلق به على هذه الحقيقة، فلم يقل شيئاً. ولما رأى آرثر كلينام أن الرجل ليس له في الواقع أية منافع خاصة في هذا الشأن، قرر أن يتحدث عن الموضوع الرئيسي الذي دفعه إلى هذه الزيارة، وهو استخدام بلورنيش أداة للإفراج عن الشاب تيب -شقيق دوريت- مع الحرص على عدم الانتقاص -بقدر الإمكان- من شعور الشاب بالثقة في النفس وبالاعتماد عليها، على فرض أنه لا يزال يتمتع ببقية من هذه الصفات. ولا شك أنه فرض مبالغ فيه إلى حد كبير. ولما كان بلورنيش قد عرف من تيب نفسه السبب الذي أدى به إلى السجن، فقد استطاع أن يذكر شيئاً عن المدعي الدائن للسيد كلينام، فقال إنه يشتغل «سمساراً» لا في سوق الأنغام والألحان، وإنما في سوق الجِياد. وأن في مقدوره هو «بلورنيش» أن يسوي الدَّيْن على أساس تسديد عشرة شلنات عن كل جنيه، وأن هذه تعتبر تسوية مُرْضية جداً، وأن أكثر من هذا يعتبر تبديداً للمال. وهكذا مضى كلينام وبلورنيش معاً في مركبة إلى مرابط الجياد في هاي هولبورن حيث رأيا جواد سباق جميلاً رمادي اللون يساوي على الأقل خمسة وسبعين جنيهاً -دون أن نحسب ثمن العقاقير التي أُرغِم على ابتلاعها لتجميل منظره- وكان قد تقرر بيعه بعشرين جنيهاً، بسبب فشله في السباق مع جواد زوجة الكابتن برباري المقيم بشلتنام، وهو جواد أقل كفاءة منه. ولهذا السبب أصر صاحبه -احتقاراً له- على بيعه بهذا الثمن البخس العجيب؛ أو بمعنى آخر، أصرّ على التخلي عنه. وترك بلورنيش كلينام في الخارج؛ ومضى إلى الساحة التي تتوسط المرابط حيث رأى سيداً في سراويل مشدودة على ساقيه،

وقبعة قديمة، وعصا معقوفة بعض الشيء، وحول عنقه منديل أزرق اللون، وكان هو نفسه الكابتن مارون من جلوستر والصديق الشخصي للكابتن بارباري. وكان قد جاء إلى هذا المكان، بصفة ودية، بعد أن علم بالظروف التي أدت إلى بيع الجواد الرمادي الجميل؛ كما كان بطبيعته خبيراً بالجِياد الأصيلة، وبارعاً في التقاط الأشياء النادرة التي يقرأ عنها في الإعلانات. وقد حدث أن هذا الكابتن نفسه كان هو الدائن والمدعي في قضية تيب. فلما حدّثه بلورنيش عن الموضوع، طلب -أي الكابتن- منه أن يتصل بمحاميه الخاص، ورفض أن يتعامل مع بلورنيش شخصياً، بل رفض أن يحتمل وجوده في الساحة ما لم يكن معه عشرون جنيهاً على الأقل. وفي هذه الحالة فقط، فإن الكابتن سوف يستدل من المظاهر أنه جاد في مهمته، وأنه من ثم قد يرضى بالتفاوض معه. وبناءً على هذا، عاد بلورنيش إلى كلينام وتشاور معه، ثم رجع إلى الكابتن ومعه المبلغ المطلوب وهنا قال الكابتن مارون:

- والآن، كم يلزمك من الوقت لكي تأتي بالجنيهات العشرين الأخرى؟ لسوف أستمهلك شهراً.

ولما لم يجد هذا، عاد الكابتن مارون يقول:

- اسمع: لسوف أقول لك ماذا سأفعل معك. أعطني صكاً بالجنيهات العشرين الأخرى قابلاً للصرف في أي بنك خلال أربعة أشهر.

ولما لم يجد هذا أيضاً عاد الكابتن مارون يقول:

- انتبه! هذا آخر ما أعرضه عليك. أعطني عشرة جنيهات أخرى وأنا أوقّع على مخالصة بالدَّيْن كله.

ولما لم يجد هذا أيضاً. عاد الكابتن مارون يقول:

- اسمع. لسوف أعرض عليك آخر شيء عندي، ولا شيء بعد ذلك. لقد أساء إليّ إلى حد كبير، ولكنني سأفرج عنه إذا دفعت خمسة جنيهات أخرى وزجاجة شراب. فإذا أعجبك هذا، فقل، وإلا فامضِ إلى سبيلك.

وأخيراً قال الكابتن عندما لم يجد هذا أيضاً:

- هاك العشرين جنيهاً..

وتم الاتفاق على العرض الأول، وقدم الكابتن إيصالاً بالمخالصة وبإطلاق سراح السجين.

وقال آرثر لبلورنيش:

- سيد بلورنيش، إنني أثق فيك، ولهذا أرجوك أن يبقى ما حدث سراً بيننا. فأنت حين تمضي وتجعل الشاب يعلم أنه مُطلَق السراح، وأنك في غير حل لأن تذكر اسم الشخص الذي دفع الدَّيْن عنه، فإنك بهذا لن تخدمني فحسب، بل وربما تخدمه وتخدم أخته أيضاً.

فقال بلورنيش:

- إن السبب الأخير يعتبر مبرراً كافياً. ولسوف أحترم من ثم رغبتك.

- يمكنك إذا شئت أن تقول إن صديقاً له استطاع أن يحصل من أجله على أمر بالإفراج عنه؛ وأن هذا الصديق يرجو أن يحسن استخدام حريته من أجل أخته إن لم يكن من أجل أحد آخر.

- إن رغباتك يا سيدي سوف تُحترَم.

- وإذا شئت أن تزيد من فضلك، وأن تستخدم معرفتك الطيبة بالأسرة فتتصل بي دائماً وتشير إليّ عن الوسائل التي يمكن أن نساعد بها دوريت الصغيرة، فإني سأكون شاكراً لفضلك.

فقال بلورنيش:

- عفواً يا سيدي. إن هذا أيضاً ليسرني.. إن هذا أيضاً ليسرني. وإنني..

ولما وجد السيد بلورنيش نفسه عاجزاً عن الاستطراد بعد أن قام بمحاولتين في هذا السبيل، رأى من الحكمة أن يصمت. ثم تناول من كلينام بطاقته وهو يتمم بعبارات الثناء المناسبة.

وكان متحمساً لأن يفرغ من مهمته فوراً، وكذلك كان كلينام. ومن ثم عرض هذا عليه أن يحمله في المركبة إلى بوابة سجن مارشاليزا. ومضيا في الطريق إلى السجن عن طريق جسر بلاك فرايرز. وفي أثناء الطريق استطاع آثر أن يستقي من صاحبه الجديد موجزاً مضطرباً عن الحياة داخل حوش بليدنج هارت. وقد قال السيد بلورنيش إن سكانه جميعاً في حالة من الفقر المدقع بل كانوا على وجه اليقين في حالة غير عادية من الفقر. حسناً: إنه لا يستطيع أن يصف هذه الحالة، بل ولا يعرف أحداً يستطيع أن يصفها، وكل ما يعرفه عنها أنها كما قال عنها. والحق أنه عندما يشعر الإنسان من ظهره أو من بطنه أنه فقير، فإن هذا الإنسان -في يقين السيد بلورنيش- يعرف تماماً أنه فقير على هذا النحو أو ذاك، ومن ثم فأنت لا تستطيع أن تجعله يصف نوع فقره لأنه لن يفهم، إذا حاولت هذا معه، شيئاً من حديثك. ولكن هناك، طبعاً، سكاناً أحسن حالاً من غيرهم بعض الشيء. وإن عدداً كبيراً من هؤلاء يعيشون على حافة الفقر، أو فوقها بقليل، ومثل هؤلاء، كما سمع، يقال عنهم «السفهاء» -وهو تعبير محبوب بين سكان الحوش- فإذا حدث مثلاً أن شاهد السكان رجلاً يذهب مع زوجته وأولاده في مركبة إلى حي هامتون كوارت -وربما في كل عام مرة واحدة- فإنهم يقولون له «هاللو أيها الصديق، لقد كنا نظنك فقيراً، فإذا أنت سفيه». يا إلهي. ما أقسى الفقر على الإنسان؟ وماذا في وسع الإنسان أن يفعل؟ إنه لا يستطيع أن يجعل الأفكار السوداء تذهب بعقله، وحتى لو أنه فعل فلن يكون أحسن حالاً مما كان. بل إن السيد بلورنيش يرى أنه

سيكون في حالة أسوأ، ومع ذلك فإن الحياة تبدو كأنها تريد أن تجعل الأفكار السوداء تذهب بالعقول. إنها دائماً هكذا، فإن لم يكن بيدها اليمنى، فبيدها اليسرى. ماذا يفعل السكان في الحوش؟ عجباً! ألقِ عليهم نظرة وسوف ترى. إن هناك البنات وأمهاتهن يعملن في الحياكة أو إصلاح الأحذية أو صناعة الصدريات، وهن يعملن ليلاً ونهاراً، ونهاراً وليلاً دون أن يحصلن على ما يكفي ليقيم أودهن. وهناك أشخاص يحسنون أنواعاً لا تُحصى من المهن والأعمال وكلهم يريدون أن يعملوا، ومع ذلك لا يستطيعون الحصول على العمل. وهناك أناس عجائز أمضوا كل حياتهم في العمل، ثم انتهى بهم الأمر إلى الحياة في ملاجئ حقيرة ضيقة سيئة التغذية أقامها أصحاب المصانع -أو على حد تعبير السيد بلورنيش- أصحاب المطامع، حيث لا يكاد النزيل فيه يجد مكاناً يتحرك فيه. أما عن المسؤول عن هذا كله، فإن السيد بلورنيش لا يعرف من هو المسؤول عنه. إنه يستطيع أن يخبرك عن الذين يعانون ويتألمون، ولكنه لا يستطيع أن يعرف من المسؤول عن هذا. فليس من مهمته أن يعرف من هو المسؤول، ولو أنه عرفه، فلن يجد من ينصت إليه باهتمام. إنه يعرف فقط أن الأمور ليست كما ينبغي بذاتها، وأن القائمين عليها لا يحسنون القيام بمهمتهم. وإن آراءه المنطقية في إيجاز هي أنك إذا لم تكن تستطيع أن تفعل له شيئاً، فلا تأخذ منه شيئاً مقابل عدم استطاعتك هذه ذلك هو كل ما يمكن أن يفهمه في هذا الشأن. وعلى هذا النحو من الحديث والجدل المتصل الذي يتصف بالغباء، راح السيد بلورنيش يلف ويدور داخل شبكة معقدة من الآراء، كأنه أعمى يتخبط على غير هدى. وظلا هكذا حتى بلغا بوابة السجن، وهناك ترك كلينام بمفرده، فمضى هذا إلى سبيله وهو يتساءل في نفسه عن عدد الآلاف من أمثال بلورنيش الذين قد يلتقي بهم الإنسان في يوم أو يومين يقضيهما في التردد على إدارة الشؤون العامة؛ والذين لا تكاد تختلف أحاديثهم عن هذه النغمة التي لا تصل إلى آذان هؤلاء السادسة الكبار في تلك الإدارة المجيدة.

البطريرك



لقد حرك اسم السيد كاسبي في ذهن كلينام جذوة من فضول واهتمام زادتها ضراماً السيدة فلينونش في ليلة وصوله. لقد كانت فلورا كاسبي حبيبة عهد الصبا. وهي الابنة الوحيدة لرجل عجوز غني يدعى كريستوفر، هكذا كان يناديه بين الحين والآخر بعض أصحابه القدامى الذين كانوا يتعاملون معه، والذين ارتفعت بينه وبينهم أسباب الكلفة. وكان هذا الرجل معروفاً بالثراء وبوفرة إيراده الأسبوعي المتحصّل من أملاكه، وبقدرته على استغلال حتى الحجارة في الأزقّة والحواري التي لا يُرجى من ورائها أي نفع.

وبعد بضعة أيام من البحث والتحري، أصبح كلينام يؤمن بأن حالة والد مارشاليزا ميؤوس منها حقاً، ومن ثم لم يجد بُدّاً من أن يتخلى -آسفاً- عن فكرة معاونته على استرداد حريته. ولم يجد أيضاً ثمة ما يبشر بالأمل في حالة دوريت الصغيرة. إلا أنه حدَّث نفسه أن من المحتمل -وكل شيء يراه على وجه الاحتمال- أن يكون ذا فائدة للفتاة المسكينة إذا هو جدّد معرفته بالمدعو كريستوفر كاسبي. ولا حاجة بنا للقول بأنه مما لا شك فيه أنه ما كان ليذهب إلى بيت السيد كاسبي لو لم تكن دوريت الصغيرة في الوجود. لأننا جميعاً نعلم كيف نخدع أنفسنا -أو على

الأصح- كيف أن الناس بوجه عام -فيما عدا أنفسنا الموقرة- يخدعون أنفسهم عن الدوافع الحقيقية لتصرفاتهم.

وبهذا الشعور المريح -وهو شعور صادق بطبيعته- النابع من إدراكه بأنه لا يقوم بهذه المهمة إلا من أجل دوريت الصغيرة التي لا تعرف شيئاً عن هذا كله، وجد نفسه بعد ظهر يوم في طرف الشارع الذي يقع فيه بيت السيد كاسبي. وكان كاسبي يقيم في شارع بحي جراي إينرود، وهو شارع يتفرع من ملتقى عدة طرق لينطلق في امتداد واحد إلى الوادي، ومنه يعود صاعداً إلى قمة تل بنتونفيل، ولكن أنفاسه انقطعت بعد انطلاقه عشرين ياردة فتوقف منذ ذلك الحين في مكانه لا يريم. ولا يوجد الآن مثل هذا المكان، إلا أنه كان قد بقي في مكانه ذاك سنوات كثيرة ينظر بوجه متجهم إلى البراري الممتدة أمامه حيث كانت تتخللها رقع من حدائق غير مثمرة، وتتناثر فوقه -كالبثور- الدارات الصيفية التي أقيمت بصفة مؤقتة.

وقال كلينام لنفسه وهو يعبر الممر إلى الباب: «لم يطرأ على المنزل إلا تغيير بسيط كما هو الشأن في بيت أمي. بل إنه يكاد يبدو كئيباً مقبضاً مثله. إلا أن التشابه ينتهي عند المظهر الخارجي لأني أعرف ما ينطوي عليه من راحة وأمن في الداخل. وإني لأكاد أشم الآن شذى الرياحين وأوراق الورد القديمة التي تملأ الأوعية بداخله».

ولما طرق على الباب بالطراقة النحاسية اللامعة التي بَطُل استعمالها إذا بخادمة تفتحه له، وإذا بذلك الشذى الخفيف -في الواقع- يرحب به وكأنه أنفاس الشتاء التي لا تزال تتردد فيها ذكريات الربيع المنصرم. وتقدم إلى داخل البيت الهادئ الساكن الراكد الهواء، حتى ليكاد يخيل للإنسان أنه يدخل بيتاً من بيوت الأمراء في الشرق القديم. وعندما أغلق الباب مرة أخرى، بدا كأنه حجب عن البيت كل نأمة أو حركة في

الخارج. وكان الأثاث من النوع الرسمي الوقور مما يستخدمه طائفة الكويكر، ولكن كان موضع عناية دائمة كما كان له ذلك المظهر الأخاذ الذي يدل -من وجهة نظر الإنسان إلى الأثاث الخشبي- على أنه صُنِع ليحتمل الكثير، وحُفِظ للاستعمال القليل. وكان ثمة ساعة حائط وقور تدق من مكان ما في الطابق العلوي، كما كان ثمة طائر يغرد في مكان ما أيضاً في نفس الاتجاه وينقر أسلاك قفصه كأنه هو الآخر ساعة دقاقة. وكانت النيران في مدفأة البهو تئز فيُحدِث أزيزها صوتاً كدقات الساعة ولم يكن هناك إلا رجلاً واحد واقف على سجادة المدفأة ودقات الساعة في جيبه تُسمَع بوضوح.

وأعلنت الخادمة حضور السيد كلينام بصوت كدقات الساعة أيضاً قائلة:

- السيد كلينام.

وكان صوتها ناعماً لا يكاد يُسمع..

ومن ثم فقد ظل هو واقفاً وراء الباب الذي أغلقته لا يراه أحد. ودبت الحياة في الرجل الواقف فتحرك إلى الأمام وقد بدا كأن حواجبه الناعمة تتراقص على وهج النيران المتساقط عليها، ثم جلس على مقعد وثير، وحذاؤه على السجادة، وإبهاماه يدوران ببطء الواحد حول الآخر، وكان ذلك الرجل هو العجوز كريستوفر كاسبي -الذي يُعرَف لأول وهلة- والذي لم يطرأ عليه أي تغيير خلال العشرين عاماً وما فوقها، شأنه في ذلك شأن أثاث بيته المتين، والذي لم يلمسه مر الأيام وكرّ الأعوام إلا لمسات خفيفة كما فعلت بأوراق وروده ورياحينه القديمة الموضوعة في الأوعية الخزفية.

ولعل من أشد المتاعب في هذا العام المحير أن يتصور الإنسان كيف كان الرجل، أي رجل، يبدُ في طفولته. ومع هذا فإن كريستوفر لم

يتغير -من ناحية الشكل- إلا قليلاً جداً في أثناء تقدمه في طريق الحياة، وكانت تقع في مواجهته وفي الغرفة الجالس بها، صورة صبي يمكن لكل من يراها أن يعرف أنها صورة السيد كريستوفر كاسبي عندما كان في العاشرة من عمره، وكانت الصورة تمثله وهو متنكر في زي فلاح وبيده مذراة التبن كأنما هي أداة كان في وقت ما يحبها ويستعملها كما يستعمل القدامى ناقوس الغوص. وكان يجلس على إحدى ساقيه على ضفة من أزهار البنفسج وقد استغرق في تأملات أثارها برج كنيسة القرية. وكانت الصورة تكشف عن نفس الوجه الأملس، والجبين، والعينين الهادئتين الزرقاوين، والهيئة اللطيفة. أما الرأس الصلعاء اللامع الذي كان يبدو كبيراً جداً بسبب شدة لمعانه، وأما الشعر الرمادي الطويل على الجانبين والخلف الذي بدا كأنه طرفة من الحرير أو خيوط منسوجة من الزجاج والذي كان يلوح كريماً جداً لأنه لم يحلق أبداً. أما هذا كله فلم يكن مرئياً في صورة الصبي كما هو مرئي في الرجل. ومع هذا فقد كان يبدو بوضوح على ذلك المخلوق الملائكي الممسك بمذراة التبن جميع المعالم الأساسية التي يتسم بها ذلك البطريرك الوقور.

إن «البطريرك» كان الاسم الذي يحب كثير من الناس أن ينادوه به. وكان عدد كبير من النساء العجائز في المناطق المجاورة يتحدثن عنه كأنه آخر البطارقة. وقد كان بشيبته، وهدوئه، ووداعته، ورزانته، وضخامة رأسه أنسب ما يكون للاسم الذي أُطلِق عليه. وكان الناس يحبونه في الطريق، ويطلبون منه في احترام أن يكون أنموذجاً للبطريرك أمام الرسامين والمثالين لأنه إذا لم يفعل، فسوف تضيع مع الزمن السمات الحقيقية للبطريرك الحقيقي، وقد يعجز الفنانون فيما بعد عن تخيلها. وكان أهل البر من الجنسين يتساءلون عنه حين يرونه، فإذا قيل لهم إنه «العجوز كريستوفر كاسبي الوكيل السابق للورد ديكيموس تايت بارناكل» صاحوا في موجة من الاستياء «أوه، عجباً! ألا يكون الرجل الذي له هذا

الرأس أنموذجاً طيباً لبني جنسه من البشر؟ أوه عجباً! ألا يكون الرجل الذي له هذا الرأس والداً لكل يتيم، وصديقاً لكل وحيد؟» ولكن العجوز كريستوفر كاسبي، مع هذا، ظل برأسه هذا، كما هو معروف لدى العامة بأنه من ذوي الأملاك العقارية؛ وبنفس هذا الرأس جلس الآن في البهو الساكن. والواقع أنه ليس من المعقول إطلاقاً أن نتوقع أن نراه جالساً هناك دون هذا الرأس.

وتحرك آثر كلينام ليلفت نظره، واستدارت نحوه الحواجب الرمادية، وهنا قال له كلينام:

– معذرة يا سيدي. أخشى ألا تكون سمعت الخادمة وهي تعلن حضوري.

– لا يا سيدي، لم أسمعها. أتريد أن تراني يا سيدي؟

– أريد أن أقدم إليك تحياتي.

وطافت على وجه السيد كاسبي ومضة خفيفة سريعة من الاستياء عند سماعه الكلمة الأخيرة؛ ولعله كان قد أعدّ نفسه لأن يكون للزائر أهداف أخرى غير مجرد تقديم التحية. ثم استطرد يقول:

– هل كان لي الشرف يا سيدي.. آه.. تفضل بالجلوس.. هل كان لي الشرف يا سيدي، آه، حقاً، أجل. أعتقد أنه كان لي هذا الشرف. أعتقد أنني لستُ مخطئاً في ظني أني رأيت هذه الملامح من قبل؟ وأظن أني أتحدث الآن إلى سيد عرفت نبأ عودته إلى هذه البلاد من السيدة فلينونش.

– إنه هو يا سيدي.

– أحقاً؟ السيد كلينام؟

– لا أحد غيره يا سيد كاسبي.

– سيد كلينام؟ إني سعيد برؤيتك. كيف كان حالك منذ افترقنا آخر مرة!

ورأى كلينام أن الأمر لا يستحق أن يذكر هذا التوعك البسيط الذي كان يعانيه بين الحين والآخر في صحته البدنية والنفسية خلال ربع قرن من الزمان، ومن ثم قال بوجه عام إنه في أحسن حال، أو شيئاً من هذا القبيل، ثم راح يصافح «صاحب هذا الرأس» وهو يشع عليه بأضوائه القدسية البطريركية.

وقال كريستوفر كاسبي:

– لقد كبرنا يا سيد كلينام.

– نعم. لم نعد صغاراً.

وبعد هذه العبارة البارعة، شعر كلينام أنه استنفد لباقته في الحديث، وأن أعصابه بدأت تتوتر.

وقال السيد كاسبي:

– ووالدك المحترم؟ لم يبقَ على قيد الحياة؛ لشد ما حزنت حين سمعت النبأ؟ نعم لشد ما حزنت يا سيد كلينام.

وأجاب آرثر –كالمعتاد– أنه شاكر له هذا الشعور الطيب.

وعاد السيد كاسبي يقول:

– لقد أتى علينا وقت لم نكن فيه –والداك وأنا– على علاقة طيبة. كان بيننا سوء تفاهم عائلي بسيط. ولعل والدتك المحترمة كانت على شيء من الغيرة من ابنها. وأنا حين أقول ابنها، فإنما أعني شخصك المحترم.. شخصك المحترم.

وبدا وجهه الناعم مزدهراً، كثمرة ناضجة فوق سور بستان. وكان يلوح بوجهه المزدهر، وبهذا الرأس، وبعينيه الزرقاوين كأنه لا ينطق إلا الفضيلة والحكمة النادرة. وعلى هذا النحو كان يبدو على وجهه ما يعمر به قلبه من طيبة وخير. وما كان في مقدور أحد أن يعرف أين تكمن الحكمة فيه أو أين تكمن الفضيلة أو الطيبة والخير، وإنما يبدو أن هذه السمات كلها ترفرف حوله.

واستطرد السيد كاسبي قائلاً:

- على أن تلك الأوقات قد راحت وانقضت.. راحت وانقضت. وإني بين آنٍ وآخر أسعد نفسي بزيارة والدتك المحترمة، وبالإعجاب بقوة ومناعة عقلها اللتين تحتمل بهما محنتها.. تحتمل بهما محنتها..

وعندما كان يضطر إلى هذا التكرار البسيط في حديثه وهو جالس ويداه معقودتان في حجره، كان يفعل هذا ورأسه مائل على أحد الجانبين وعلى فمه ابتسامة رقيقة وكأنما في ذهنه أفكار أرق وأجمل من أن يعبر عنها بالكلمات. أو كأنما ينكر على نفسه متعة النطق بها خشية أن تحلق عالياً، ومن ثم فهو يفضل هذه الهيئة الوادعة التي لا تعبر عن شيء.

وقال آرثر وهو ينتهز هذه الفرصة السانحة له:

- لقد سمعت أنك في مناسبة ما تكرمت وزكيت دوريت الصغيرة للعمل في بيت أمي.

- الصغيرة! الصغيرة؟ أهي الخياطة التي حدثني عنها أحد صغار السكان في ممتلكاتي؟ أجل.. أجل.. دوريت! ذلك هو الاسم. آه.. أجل.. أجل! أتسميها دوريت الصغيرة؟

ولم يستطع آرثر أن يجد في هذا الحديث منفذاً للإجابة أو للاستطراد في الموضوع الذي جاء من أجله. ومن ثم أردف السيد كاسبي قائلاً:

- إن ابنتي فلورا كانت قد تزوجت، كما لعلك سمعت يا سيد كلينام، واستقرت في الحياة منذ سنوات كثيرة. وقد شاء سوء الحظ أن تفقد زوجها بعد الزواج بأشهر قليلة. وقد عادت للإقامة معي. وسوف يسرها أن تراك إذا سمحت وجعلتني أعرِّفها بأنك هنا.

فأجاب كلينام قائلاً:

- بكل تأكيد. وقد كنت أرجو أن أبدأ بهذه الرغبة لولا أنك تكرمت وسبقتني إليها.

وعلى هذا نهض السيد كاسبي، وسار بخطوات بطيئة ثقيلة -إذ كان من أصحاب الوزن الثقيل- وتقدم نحو الباب. وكان يرتدي رداء واسع الذيل أخضر اللون، وسراويل خضراء، وصدرية خضراء. مع أن البطارقة القدامى لم يكونوا يرتدون ملابس خضراء، فإن السيد كاسبي ظل بطريرك الهيئة رغم ملابسه الخضراء هذه.

وما كاد يغادر الغرفة ويتسمع دقات الساعة مرة أخرى، حتى فتح مزلاج الباب الخارجي بسرعة، ثم أغلقه بسرعة، ثم سرعان ما أقبل إلى الغرفة رجل قصير أسمر اللون سريع الحركة ظل يتقدم بسرعة حتى أصبح على مسافة قدم واحدة من كلينام قبل أن يستطيع التوقف. ثم قال:

- هاللو!

ولم يجد كلينام أي سبب يمنعه من أن يقول «هاللو» أيضاً.

وعاد الرجل القصير الأسمر يقول:

- ماذا حدث؟

فردّ كلينام قائلاً:

- إنني لم أسمع عن شيء قد حدث.

فسأل الرجل القصير الأسمر وهو يتلفت حوله:

- أين السيد كاسبي؟

- لسوف يكون هنا حالاً إذا كنت تريده.

فقال الرجل القصير الأسمر.

- إنني أريده، ألا تريده أنت؟

وقد أدى هذا إلى أن شرح كلينام الأمر بعبارة أو اثنتين كان الرجل القصير الأسمر خلالها ينظر إليه وهو يكتم أنفاسه. وكان مرتدياً ملابس سوداء حال لونها بعض الشيء، وفي وجهه عينان صغيرتان سوداوان، ولحية صغيرة مغبرة، وينتصب على رأسه شعر أسود جاف كالأسلال أو كدبابيس الشعر، وكان لون بشرته قاتماً بالطبيعة أو قذراً بفعل صاحبه. أو ربما كان هذا وذاك معاً. وكانت يداه قذرتين، وأظافره مكسرة قذرة، وكأنما كان يضعها في كومة فحم. وكان العرق يتفصد من جبينه، كما كان ينفخ وينخر ويلهث ويفح وكأنه آلة بخارية صغيرة دائرة.

وبعد أن أخبره آرثر عن كيف جاء إلى هنا، قال:

- أوه، حسناً جداً.. عظيم. هل تسمح وتقول له، إذا سأل عن بانكس، إن بانكس قد حضر؟

وبهذا انطلق من الغرفة عن طريق باب آخر وهو ينفخ وينخر.

وفي هذه اللحظة شعر آرثر أن بعض الشكوك التي كانت تخامره في العهود الماضية عن «آخر البطارقة» قد عادت بطريقة ما إلى مجال وعيه ومشاعره. لقد عاد يحس بوجود ندف وذرات من الشك راح يرى خلالها السيد كريستوفر كاسبي كأنه لافتة لاستراحة في الطريق بلا استراحة؛ ودعوة إلى الاستراحة والشعور بالرضا والعرفان بينما لا يوجد في الواقع مكان

للراحة، ولا ما يدعو إلى الرضا والعرفان. بل كان يعرف أن بعض ندف هذا الشك كانت تكشف عن قدرة كريستوفر في الاحتفاظ داخل «هذا الرأس» بأهداف معينة، وبأنه رجل يحسن الادعاء والتظاهر. وثمة ذرات أخرى من الشك كانت تكشفه باعتباره رجلاً ثقيل الظل أنانياً، إمعة عند اصطدامه وتعثره بغيره من الناس في طريق الحياة، وأن خير وسيلة تيسر له طريق العيش أن يمسك لسانه، وأن يجعل صلعته دائمة البريق، وأن يترك شعره بلا حلاقة؛ وقد أدرك بدهائه أن هذه الطريقة مجدية، فاستمسك بها.

وقد قيل إن اختياره ليكون وكيل أعمال اللورد ديكيموس نايت بارناكل في المدينة لم يتم بناءً على كفاءته إطلاقاً، وإنما لأن منظره الخادع الذي ينم عن القداسة والرحمة لا يجعل أحداً يظن قط أن من الممكن أن تتم عمليات السرقة والنهب والسلب في ممتلكات الغير عن طريق رجل كهذا. ولمثل هذه الأسباب أيضاً أصبح يظفر من إيجار ممتلكاته الحقيرة -بلا منازع- بأكثر مما يظفر أي شخص آخر ليس له هذه الهيئة الخادعة، أو تلك الصلعة البراقة. وعلى وجه عام فإن هذا يدل -هكذا حدّث كلينام نفسه في البهو المليء بالدقات- على أن الكثيرين من الناس يختارون نماذجهم كما يفعل الفنانون في معظم الأحوال. ومن ثم فإنك قد ترى في الأكاديمية الملكية صورة صعلوك شرير حقير يرمز للفضائل المشعة من رجل دين، لمجرد أن لديه الملامح المناسبة من أهداب أو ذقن أو ساقين، «ومن ثم تنبت أشواك الحيرة والارتباك في صدور أكثر الناس دراسة للطبيعة»، وهكذا نرى في معرض الحياة أن الناس ينخدعون بالمظهر ولا يقدِّرون الجوهر.

وشعر آرثر وهو يدير هذا كله في عقله، ويضع بانكس مكانه بين هذه الأفكار، بالميل إلى هذا الرأي في يومه ذاك، ودون أن يصمم عليه، وهذا الرأي هو أن آخر البطارقة ليس غير الصعلوك التافه المذكور أعلاه،

مع الإصرار على بقاء صلعته شديدة البريق. ومثله في هذا مثل سفينة ضخمة يمكن في بعض الأحيان أن ترى في نهر التايمز تمخر ببطء مع المد، ومقدمتها في الأمام، وكل شيء فيها على ما يرام، وكل سمت من سماتها وهي ماخرة يتم عن حُسْن قيادتها، ثم إذا بصندل صغير قذر ينفض عليها فجأة، ويشد إليها؛ ثم يروح يجرها معه. وعلى هذا النحو نرى البطريرك الفاخر يقع في قبضة بانكس النافخ وينقاد وراءه انقياد السفينة العظيمة للصندل الحقير.

ووضعت عودة السيد كاسبي مع ابنته فلورا حداً لهذه التأملات. إذ ما كادت نظرات كلينام تقع على مناط حبه القديم حتى ارتعشت وتفرقت شعاعاً.

كثير من الناس يرون في تمسكهم بفكرة قديمة وإيمانهم بها مظهراً من الإيمان بأنفسهم، هذا المظهر لا يدل بحال على النفاق والتلون. وإنما قد يكون العكس. هو الصحيح، لا سيما إذا كانت الفكرة التي يتشبثون بها لا تُجاري الواقع. وكان نقيضه صدمة قاتلة لها. وهذا ما حدث لكلينام. فقد هامَ في شبابه حباً بهذه السيدة، وأضفى عليها كل ذخيرته من العواطف والخيال. وكانت هذه الذخيرة، في حياته الموحشة، مثل نقود روبنسون كروزو، ليس هناك من يبادله إياها وإنما بقيت ملقاة في الظلام لتصدأ حتى سنحت الفرصة ليفرغها بين يديها، وقد ظل منذ تلك اللحظة التي لا تُنسى، حتى ليلة وصوله، وهو يبعدها تماماً عن كل علاقة بحاضره ومستقبله وكأنها كانت ميتة «ولو أنها ماتت فعلاً في تلك السنوات لما عرف أو اهتم». أما أطياف الماضي القديم فقد بقيت كما هي، في مكانها المقدس من نفسه.

والآن، وبعد هذا كله، فإن آخر البطارقة قد شرع يتقدم بهدوء في الغرفة وكأنما يقول له «يحسن أن تبسط أمامك أطياف الماضي وترقص معها. فهذه هي فلورا».

وكانت فلورا -الطويلة دائماً- قد أصبحت عريضة أيضاً، ولاهثة الأنفاس ولكن هذا لم يكن ليعني في الأمر شيئاً مذكوراً، كذلك أصبحت فلورا التي تركها زهرة رقيقة، أشبه بجذع شجرة. وهذا أيضاً لم يكن يعني في الأمر شيئاً مذكوراً، أما أن فلورا التي كانت تبدو ساحرة في كل ما تقول أو تفكر، قد أصبحت خابية حمقاء. فهذا قد أصبح يعني شيئاً كثيراً وأما أن فلورا التي كانت مدللة وخاملة في صباها، قد أصرت على أن تبقى حتى الآن مدللة وخاملة جداً. فتلك هي الضربة القاسمة والصدمة القاتلة.

هذه هي فلورا!

وقالت فلورا وهي تتهاتف ضاحكة وتلقي برأسها إلى الوراء بطريقة صبيانية شوهاء:

- إنني واثقة بأني سأشعر بأشد الخجل حين يراني السيد كلينام كيف أصبحت مخيفة المنظر. أنا أعرف أنه سيراني قد تغيرت إلى حد مزعج. فقد أصبحت في الواقع امرأة عجوزاً. وإنها لصدمة للإنسان أن يدرك هذه الحقيقة.. أجل، إنها صدمة حقيقية.

فأكد لها أنها لا تزال تماماً كما كان يتوقع أن يراها، وأن الزمن لم يمر عليها إطلاقاً. وهنا صاحت قائلة:

- أوه، ولكن الأمر يختلف جداً مع سيد مثلك، فإنك تبدو رائعاً بحيث لا يحق لك أن تقول عني ما قلته الآن. أما أنا، فإني كما ترى، فظيعة.

ووقف البطريرك -الذي لم يكن كما يبدو فاهماً شيئاً مما يجري على المسرح أمامه- متألقاً بوقار أجوف.

وعادت فلورا إلى الحديث، وبدا أنها لا تعرف كيف تتوقف عندما تبدأ حديثاً معيناً؛ إذ استطردت قائلة:

- وما دمنا نتحدث عن التغيير، فانظر إلى أبي. أليس يبدو تماماً كما تركته عندما رحلت! أليس من القسوة والعجب أن يظل أبي محتفظاً بشباب؛ لأن الأمور إذا جرت على هذا النحو فإن الذين لا يعرفوننا سوف يبدؤون الظن بأنني أم أبي.

وقال آرثر لنفسه إن هذا سوف يحتاج إلى وقت طويل.

وعادت فلورا تقول:

- أوه، سيد كلينام، يا أقل الناس وفاءً! أعتقد أنك لم تفقد بعد طريقتك القديمة في الإطراء والمديح، طريقتك القديمة التي اعتدت أن تزعم بها أنك وقعت صريع الهوى.. إنني لا أعني هذا في الواقع.. أوه، إنني لا أعرف ماذا أعني!

وهنا ضحكت فلورا بارتباك وهي ترسل إليه إحدى نظراتها القديمة.

وهنا أيضاً نهض البطريرك وكأنما أدرك أن دوره في هذا المشهد هو أن يترك خشبة المسرح بأسرع ما يستطيع، ومضى إلى الباب الذي اختفى منه بانكس، ثم نادى ذلك الصعلوك باسمه. ولما سمع الرد عليه، اختفى عن الأنظار فوراً.

وقالت فلورا حين رأت آرثر ينظر إلى قبعته وهو لا يدري ماذا يفعل من فرط إحساسه بالاستياء:

- لا ينبغي أن تفكر في الانصراف الآن. إنك لن تبلغ من القسوة حد التفكير في الانصراف الآن يا آرثر.. أعني السيد آرثر، أو كما أعتقد أنه الأنسب، يا سيد كلينام. ولكنني واثقة بأني لا أعرف ماذا أقول الآن، ودون أية إشارة إلى الأيام الحلوة الماضية التي ذهبت إلى الأبد، وعلى كل حال فإني حين أفكر فيها، أستطيع القول إنه يحسن بنا جداً ألا نتحدث عنها،

لأنه من المحتمل إلى حد كبير أن تكون قد وفقت إلى حياة زوجية راضية، ولهذا أرجو أن أكون آخر من يحاول التدخل في أمر كهذا وذلك رغم أنه جاء وقت كنت فيه.. ولكن يبدو أنني أعود إلى التخريف مرة أخرى.

أمن الممكن أن فلورا كانت ثرثارة على هذا النحو في تلك الأيام التي نتحدث عنها؟ أيمكن أن يكون هناك ما هو أبعد من هذه الثرثارة المخرفة عن ذلك الخيال الجميل الذي أسر عواطفه يوماً ما.

واندفعت فلورا في الحديث بسرعة مذهلة دون أن تتوقف إلا قليلاً جداً.

- الواقع أنني لا أشك كثيراً في أنك قد تزوجت بإحدى السيدات الصينيات بعد أن أمضيت كل هذه السنوات الطوال في الصين حيث كنت تقوم بأعمالك وترغب بطبيعة الحال في الاستقرار وفي الارتباط بالعملاء، ومن ثم فليس هناك ما هو أكثر احتمالاً من أنك عرضت الزواج على سيدة صينية، وليس هناك ما هو أكثر احتمالاً -في يقيني- من أن السيدة الصينية قبلت العرض وهي تعتقد أنها سعيدة الحظ. إنني فقط أرجو ألا تكون من نسل الباغوديين.

فابتسم آرثر رغماً منه وقال:

- إنني لست متزوجاً بأية سيدة يا فلورا.

فأرسلت فلورا ضحكة بلهاء وقالت:

- أوه، ويحي! أرجو ألا تكون قد أضربت عن الزواج كل هذه المدة الطويلة بسببي. ولكنك طبعاً لم تكن تفعل قط ما ينبغي أن تفعله. أرجوك ألا تجيب. إنني لا أدري إلى أي اتجاه يجري حديثي. أوه، أرجوك أن تحدثني عن السيدات الصينيات وهل عيونهن حقاً ممطوطة وضيقة مما يجعلني دائماً أتذكر السمكة الصدفية في أثناء لعب الورق، وهل لهن حقاً

ذيول في ظهورهن، ومضفرة أيضاً أم هذا يقتصر على الرجال فقط، وعندما يشدون شعورهن بقسوة عند الجباه، ألا يؤذين أنفسهن، ثم لماذا يضعون الأجراس الصغيرة دائماً عند الجسور وفي المعابد والقبعات وغيرها، أم أنهم حقاً لا يفعلون هذا.

ثم أرسلت فلورا إليه مرة أخرى إحدى نظراتها القديمة، ثم استدرجت في حديثها قائلة وكأنها تلقت إجابته.

- إذن فإنهم حقاً يفعلون هذا؟ يا إلهي الرحيم يا آرثر! أرجوك أن تعذرني فإنها عادة قديمة.. إن مناداتك بـ «السيد كلينام» أنسب كثيراً. ما أعجب ذلك البلد الذي عشت فيه طيلة هذه المدة؟ ما أعجبه بكل ما فيه من مصابيح كثيرة، ومظلات أيضاً فلا شك أن الجو هناك قاتم جداً وممطر دائماً، وما أكثر الأرباح التي لا بد أن يظفر بها المشتغل بهاتين التجارتين: المصابيح التي يعلقها الناس هناك في كل مكان، والمظلات التي يحملونها دائماً معهم. ثم الأحذية الصغيرة أيضاً، والأقدام التي لا تزال محتفظة بحجمها الطفولي الصغير، شيء مدهش.. فأي رحالة أنت؟

وتلقى كلينام، وهو في هذه الحالة من الأسى والارتباك، نظرة أخرى من نظراتها القديمة دون أن يعرف بأي حال ماذا يفعل بها.

وقالت فلورا:

- ويحي! ويحي! تصور مدى اختلاف الحياة هنا في وطنك يا آرثر.. أوه إنني لا أستطيع التغلب على هذه العادة، إنها تبدو طبيعية جداً.. ولكن سيد كلينام أنسب جداً بعد أن ألفت العادات الصينية واللغة الصينية التي أعتقد أنك تتحدثها كأهلها إن لم يكن أحسن لأنك كنت بارعاً وذكياً دائماً وذلك رغم صعوبتها بلا شك. وأنا واثقة أن طريقة صنع الشاي هناك كافية وحدها لأن تقتلني لو حاولت استخدامها في

شربه .. نعم ما أكثر التغييرات التي حدثت يا آرثر..، أوه، إنني أقولها مرة أخرى.. ولكنها تبدو طبيعية جداً وإن لم تكن مناسبة أبداً. ومن هذه التغيرات ما طرأ على السيدة فينشنج؛ فمن ذا يصدق أن تصبح السيدة فينشنج على هذا النحو إذا كنت أنا نفسي لا أصدق!

وهنا سألها آرثر قائلاً وقد شعر في خضم هذا كله بالتأثر مما لمسه من حرارة العاطفة التي كانت تبدو في نبرات صوتها كلما أشارت -بذلك الأسلوب الغريب- إلى علاقتهما السابقة أيام الشباب:

- أكان اسمك في أثناء الزواج السيدة فينشنج؟

- فينشنج! آه أجل. أليس اسماً فظيعاً! ولكن كما قال لي السيد «ف» عندما عرض الزواج عليّ سبع مرات قائلاً بلباقة إنه ظل يحبني نحو اثني عشر شهراً، إنه غير مسؤول عن اختيار هذا الاسم، وإنه لا حيلة له في حمله، أليس كذلك، كان رجلاً ممتازاً، ليس مثلك طبعاً، ولكنه كان ممتازاً!

وكانت فلورا عندئذ قد استنفدت أنفاسها في الحديث بحيث احتاجت إلى الراحة لحظة، لحظة واحدة فقط، لأنها لم تلبث أن استردت أنفاسها في أثناء رفعها طرف منديل يد صغير إلى عينيها إعراباً عن حزنها على السيد فينشنج الراحل، ثم عادت إلى الحديث قائلة:

- لا يستطيع أحد أن يجادل يا آرثر -يا سيد كلينام- في أنه من الصواب تماماً أن تتسم علاقتنا الودية الآن بالرسميات بسبب تغير الظروف الحاضرة، والواقع أن الأمر لا يمكن إلا أن يكون كذلك. وأنا أعتقد على الأقل أنك لا يجب أن تعلم، ولكنني لا أملك نفسي من أن أذكر أنه جاء علينا وقت كانت الأمور مختلفة فيه جداً.

فعاد آرثر يقول وقد تأثر مرة أخرى بالعاطفة المنطوية في صوتها:

- يا عزيزتي السيدة فينشنج..

- أوه، لا تنادني بهذا الاسم الفظيع، قل فلورا.

- فلورا. أؤكد لك يا فلورا أنني سعيد برؤيتك مرة أخرى وبالتأكد من أنك -مثلي- لم تنسي تلك الأحلام الصبيانية القديمة عندما كنا نرى كل شيء أمامنا في ضوء شبابنا وآمالنا.

فقالت فلورا وهي تلوي شفتيها:

- هذا ما لا يبدو عليك. إنك تنظر إلى هذا كله بهدوء وبرود. وعلى أي حال فأنا أعلم أن ظنك خاب فيّ. وأعتقد أن السيدات الصينيات -أو القهرمانات إذا شئت أن تسميهن- هن السبب، أو ربما كنت أنا السبب، فالأمر سواء.

فقال كلينام برجاء:

- لا، لا، لا تقولي هذا.

فقالت فلورا في صوت إيجابي:

- أوه، أنت تعرف أن هذا ما يجب أن أقول. لأن من الغباء أن نخفي الحقائق، فأنا أعرف أنني لست كما كنت تتوقع. أنا أعلم هذا تماماً.

لقد استطاعت في خضم حديثها المتصل السريع أن تعرف هذه الحقيقة بوعي امرأة أكثر ذكاءً. وكانت الطريقة المشوشة المضطربة التي تواصل بها الحديث والتي كانت تحاول بها دائماً أن تربط علاقاتها القديمة أيام الشباب بلقائها الحاضر قد جعلت كلينام يحس أن رأسه يدور.

ولشدة ما فزع كلينام حين رأى فلورا -فجأة وبلا أي إنذار- تقول بصوت الحبيبة العاتبة:

- هناك ملاحظة واحدة أحب أن أبديها. إيضاح واحد أحب أن أقدمه؛ فعندما جاءت والدتك هنا وأثارت فضيحة مع أبي، وعندما

استدعيتُ إلى غرفة المائدة الصغيرة حيث كانا جالسين وجهاً لوجه -ومظلة والدتك على مقعدين بينهما- ويتبادلان النظرات النارية كثورين مجنونين- عندما حدث هذا كله، ماذا كان في وسعي أن أفعل.

فقال كليئام بلهفة:

- يا عزيزتي السيد فينشنج.. لقد مضى على هذا كله أمد بعيد، وانتهى كل شيء، فهل ترين أن الأمر يستحق بصفة جدية أن..

فردت فلورا قائلة:

- إنني لا أستطيع يا آرثر أن يقال عني في كل أنحاء المجتمع الصيني أني فتاة بلا قلب دون أن أدافع عن نفسي عندما تتاح لي هذه الفرصة لأن أفعل هذا. وأنت تعلم تمام العلم أن رواية «بول وفرجينيا» التي كان لا بد أن تعيدها إليّ، قد عادت إليَّ دون أية ملاحظة أو تعليق، ولستُ أعني بهذا أنه كان في مقدورك أن تكتب إليّ رغم وجود تلك الحراسة التي كانت مضروبة حولي، ولكن لو أنك أعدت الرواية فقط وعلى غلافها شارة حمراء لأدركت ماذا تعني ولأسرعت إليك حينما كنت في بكين أو نانكين أو المدينة الأخرى الثالثة وأنا حافية القدمين.

- يا عزيزتي السيد فينشنج، ليس عليك أي لوم فيما حدث، وأنا لا ألومك. لقد كنا صغاراً، وكنا ضعافاً لا حيلة لنا إلا أن نقبل الفراق الذي فُرِض علينا.. أرجوك أن تتذكري كم مضى على هذا من زمن بعيد.

فاستطردت فلورا قائلة بسرعة لم تبطئ:

- وهناك ملاحظة أخرى أحب أن أذكرها.. إيضاح آخر أحب أن أقدمه. لقد أمضيت خمسة أيام والبرد يملأ رأسي من فرط البكاء في غرفة الجلوس الخلفية التي اعتزلت فيها الحياة هذه الأيام الخمسة. ولا تزال غرفة الجلوس الخلفية قائمة في الطابق الأول، وهي لا تزال في خلف

المنزل لتثبت أقوالي. ولما انتهت هذه الفترة الموحشة، أخذت السنوات المملة تمر تباعاً حتى تعرّف بنا السيد فينشنج في بيت صديق مشترك. وقد اهتم بي أشد الاهتمام وزارنا في اليوم التالي، وسرعان ما أخذ يتردد علينا ثلاث مرات في الأسبوع حيث كان يقضي السهرة بعد أن يرسل هذه الأشياء الصغيرة اللازمة للعشاء. ولم يكن الحب هو عاطفة السيد «ف» وإنما الإعجاب والتقديس. وقد عرض السيد «ف» الزواج عليَّ فوافق أبي كل الموافقة، فما كان في وسعي أن أفعل.

فقال آرثر بصوت كله رضا وحماسة:

- لا شيء إطلاقاً إلا ما فعلت. اسمحي لصديق قديم أن يؤكد لك عن إيمانه العميق بأنك أحسنت الصنع تماماً.

فاستطردت فلورا قائلة وهي تطوح بيدها كل ما ينم عن العلاقة العادية بينهما:

- وهناك ملاحظة أخيرة أحب أن أذكرها.. إيضاح أخير أحب أن أقدمه. لقد كان هناك الوقت الذي لم أكن أستطيع أن أخطئ فيه إدراك حقيقة مشاعري قبل أن يتقدم إليّ السيد «ف». ولكن هذا كله قد مضى وانقضى. وأنت الآن يا عزيزي السيد كلينام حر تماماً إذ لا تضع حول عنقك ذلك القيد الذهبي، ولهذا أرجو أن تكون سعيداً.. ها هو ذا أبي المتعب دائماً الذي يضع أنفه دائماً حيثما لا يراد لها أن توضع.

وبهذه الكلمات المصحوبة بإشارة تحذير سريعة خائفة! إشارة طالما تعودت عليها عينا آرثر في العهود الماضية، تركت فلورا نفسها بعيداً عند سن الثامنة عشرة وتوقفت تماماً عن الحديث.

أو لعلها، على الأصح، تركت نصف نفسها عند سن الثامنة عشرة وصنعت من الجزء الباقي أرملة للسيد «ف» الراحل. وهكذا جعلت من

نفسها صورة حية لحورية البحر، وأخذ ذلك الذي كان حبيبها في الصبا يتأملها بمشاعر امتزجت فيها إحساسات الأسى بالفكاهة.

أو، على سبيل المثال، كأنما هناك تفاهم سري مشترك بينها وبين كلينام من نوع مثير، أو كأنما وقفت على مقربة من بابها أول مركبة سفر مقفلة بجيادها الأربعة من سلسلة مركبات تمتد إلى اسكتلندا، أو كأنما هي لا تستطيع «أو لا تريد» أن تسير معه إلى كنيسة الأبرشية تحت مظلة الأسرة وبركات أبيها القدسية على رأسها مع كل دعوات الجنس البشري. لقد أخذت فلورا تسرّي عن نفسها بعذابات الإشارات السرية المؤلمة التي تعبِّر بها عن خوفها من افتضاح أمرهما. وكان كلينام في الوقت نفسه يرى -ورأسه يزداد دواراً- أرملة السيد «ف» الراحل وهي تمتِّع نفسها بأغرب وسيلة، وذلك بإعادته معها إلى عهدهما القديم، وقيامها معه بلعب أدوارهم القديمة ولكن على مسرح أصبح الآن مكسواً بالتراب، وبعد أن بهتت مناظره، ومات ممثلوه الشبان، وخلا مكان الفرقة الموسيقية من العازفين وأُطفِئت الأنوار. ومع ذلك، وخلال هذا البعث الغريب للذكريات القديمة، لم يكن يسعه إلا الشعور بأن ذكرياتها هذه لم تبعث إلا عند رؤيتها له، وأن في هذه الذكريات لمسات من الرقة والحنان.

وأصر البطريرك على بقائه لتناول العشاء، وأشارت فلورا إليه سراً لكي يقبل، وكان كلينام يتمنى لو استطاع أن يفعل أكثر من مجرد البقاء لتناول العشاء، كان يتمنى من صميم قلبه لو أنه وجد فلورا التي كانت -أو التي لم تكن أبداً- بحيث رأى أن أقل ما ينبغي أن يعوِّض به ذلك الاستياء الشديد الذي أحس به، وخَجِل منه، هو أن يحقق رغبة الأسرة، ومن ثم بقي لتناول العشاء.

وتعشى بانكس معهم. وكان هذا قد شرب قليلاً قبل العشاء، ومن ثم انقض على السيد كاسبي، الذي حدث أن كان يتحدث عن

إيجار ممتلكاته في حوش بليدنج هارت فناداه بصوت عالٍ متجهاً نحوه وهو يقول:

- حوش بليدنج هارت؟ إنها ممتلكات متعبة. إن الإيجار لا بأس به، ولكن عملية تحصيله مرهقة. إن ما نعانيه من متاعب في هذا الحوش يزيد على كل ما نعانيه من متاعب في إدارة ممتلكاتك الأخرى جميعها.

وكما تبدو السفينة الضخمة موضع أنظار الجميع دون الجرار الصغير الذي يجرّها، فكذلك كان الحال مع البطريرك السيد كاسبي بالنسبة لبانكس الذي كان خير ما يقوله يعود إلى الأول.

وقال كلينام رداً على هذا الحديث، ولكن الرد كان موجَّهاً إلى صاحب الصلعة البراقة.. إلى السفينة الكبيرة لا إلى الجرار الصغير:

- أحقاً؟ هل بلغت الفاقة بسكان حوش بليدنج هارت هذا الحد؟

فقال بانكس وهو ينخر ويخرج إحدى يديه القذرتين من جيب سترته السوداء الكالحة ويقرض أظافره -إن وُجد شيئاً منها- ويدير عينيه الصغيرتين إلى مخدومه السيد كاسبي:

- إن الإنسان، كما ترى، لا تستطيع أن يعرف ما إذا كانوا فقراء أم لا. إنهم يقولون إنهم كذلك، ولكنهم جميعاً يقولون هذا. وعندما يقول شخص ما إنه غني، فالمعتاد أنك تتأكد أنه ليس كذلك. وعدا هذا، فإذا كانوا فقراء حقاً فماذا في وسعك أن تفعل. لسوف تغدو أنت أيضاً فقيراً إذا لم تحصل على حقوقك.

فقال آرثر:

- هذا صحيح تماماً.

واستطرد بانكس قائلاً:

- ثم إنك لن تفتح بيتك لإيواء جميع فقراء لندن. إنك لن تعمل على إسكانهم دون مقابل، إنك لن تفتح بوابتك على مصراعيها وتدعهم يدخلون. إنك حين تعرف هذه الحقائق، فلن تفعلها.

وهز السيد كاسبي رأسه في شيء من الأريحية والكرم بينما استطرد بانكس قائلاً:

- إذا استأجر شخص ما غرفة منك بربع جنيه في الأسبوع ثم عجز عن دفع الإيجار في نهاية الأسبوع، فإنك تقول له: لماذا إذن استأجرت الغرفة؟ إذا كنت لا تملك الإيجار، فلماذا تستأجر الغرفة؟ ماذا فعلت بنقودك؟ وماذا تقصد بعملك هذا؟ وماذا تنوي أن تفعل؟ هذا هو ما تقوله لرجل من هذا النوع، فإذا لم تفعل هذا له فلا تلومن إلا نفسك.

وهنا أرسل بانكس صوتاً فريداً مفاجئاً من منطقة أنفه عندما راح يطلقها بقوة، وكانت النتيجة مجرد صوت فقط.

وقال كلينام وهو لا يدري إلى أي منهما يوجِّه الحديث:

- أعتقد أن لك بعض الممتلكات في المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية.

فقال بانكس:

- أوه، ليس من المهم أين تقع ممتلكاتك على وجه التحديد، فإن أية جهة من الجهات الأربع تفي بالغرض، وإنما المهم هو حُسْن الاستثمار وسرعة الربح. وعليك أن تظفر بهذا حيث تجده. وليس من الضروري أن تركز اهتمامك على جهة معينة..

وكان ثمة شخصية رابعة قد ظهرت تحت خيمة البطريرك قبل العشاء. وكانت هذه الشخصية العجيبة لامرأة عجوز صغيرة الجسم لها وجه كوجه دمية خشبية رخيصة تحملق عيناها بحيث لا تعبِّران عن

شيء، وقد حطت على رأسها شعر مستعار «باروكة» أصفر جاف مشعث وكأنما الطفل الذي يملك الدمية قد دسّ فيه مسماراً حيثما اتفق، لا يكاد يثبت في موضعه. وكان ثمة شيء آخر يلفت النظر إلى هذه السيدة العجوز الصغيرة، وكأنما ذلك الطفل نفسه قد شوّه وجهها في موضعين أو ثلاثة بأداة كليلة شبيهة بالملعقة. وكان وجهها ولا سيما طرف أنفها يرمز لشيء تعرض لضربات كثيرة، وكذلك كان ثمة شيء يثير الانتباه إلى تلك السيدة العجوز الصغيرة وهو أنها لم يكن لها اسم غير «عمة السيد ف».

لقد وقعت أنظار الضيف عليها في هذه الظروف التالية: قالت فلورا بعد أن وُضِع الطبق الأول على المائدة لعل السيد كلينام قد سمع أن السيد «ف» ترك لها إرثاً؟ فأعرب كلينام بدوره عن أمله في أن يكون السيد «ف» قد أغدق على زوجته التي كان يقدسها بالجانب الأكبر من تركته إن لم يكن بها كلها. فقالت فلورا أجل، أجل، إنها لم تكن تعني هذا، فإن السيد «ف» قد كتب فعلاً وصية طيبة، ولكنه ترك لها عمته. ثم غادرت الغرفة لتعود بالتركة. ولما عادت قدمت إليه، في شيء من الزهو: «عمة السيد ف».

وكانت الخصائص الأساسية التي اكتشفها آرثر في عمة السيد «ف» هي القسوة العنيفة والتحفظ المزعج الذي كانت تخرج عنه بين الحين والآخر بالحديث في صوت عميق منذر، حيث كانت تنطق بعبارات لا معنى لها، ولا تتناسب مع موضوع الحديث. ولعل عمة السيد «ف» كانت تلقي بهذه العبارات لأغراض خاصة بها كانت تتسم بالذكاء والدهاء، ولكن المفتاح الذي يفسرها لم يمكن موجوداً.

وكان طعام العشاء الجيد الطهو المقدَّم بنظام -وكان كل شيء في بيت السيد كاسبي يهدف إلى الجودة والبساطة- قد بدأ ببعض الحساء، ثم ببعض سمك موسى المشوي، ثم بطبق من حساء الجمبري المُعَدّ بالزبدة،

ثم طبق من البطاطا. وكانت المحادثة لا تزال تدور حول تحصيل الإيجارات. وبعد أن رمقت عمة السيد «ف» الجميع بنظرات حادة مدة عشر دقائق، ألقت بالعبارة العجيبة التالية:

- عندما كنا نعيش في منطقة هنلي، سرق المسكريون المتجولون ذكر أوز بارز.

وأومأ بانكس برأسه في بسالة وقال: «حسناً يا سيدتي..» ولكن كلينام شعر بالرعب وهو يسمع هذه الملاحظة الغامضة. وكان ثمة شيء آخر يثير الفزع في نفسه من هذه السيدة العجوز. ذلك أنها كانت تحملق دائماً فيما أمامها دون أن يبدو عليها أنها تعرف أحداً. وكان كلينام الرقيق المهذب يرجو -مثلاً- أن يتعرف على مدى ميلها إلى نوع من الطعام، كالبطاطا مثلاً. ولكن سؤاله كان يضيع معها هباءً ثم لا يدري بعد ذلك ماذا يستطيع أن يفعل. إذ ليس هناك إنسان يستطيع أن يقول: «هل تسمحين لي يا عمة السيدة ف..» إن أي إنسان لا يسعه في هذه الحالة إلا أن يتحفّظ وينطوي على نفسه معها كما فعل كلينام.

وكان ثمة لحم ضأن مع العشاء وشرائح لحم مشوي، وفطيرة تفاح -أي لم يكن ثمة شيء له أدنى علاقة بذكور الإوز- واستمرت وجبة العشاء كأنها حفلة مثيرة للضجر، وكانت في الواقع كذلك. وقد حدث ذات يوم أن جلس كلينام إلى هذه المائدة نفسها لا يهمه شيء إلا فلورا. أما الآن فإن اهتمامه الأساسي بفلورا كان مركّزاً -رغماً منه- على ما يلاحظه من شدة شغفها بالخمر، وعلى أنها كانت تمزج شرابها بالعواطف، وأن بدانتها قامت على أساس مادي. ذلك أن آخر البطارقة كان دائماً محباً للأكل، وكان يلتهم كميات ضخمة من الطعام بنفس الروح الطيبة التي يُطعم بها رجل كريم جائعاً. أما السيد بانكس الذي كان يبدو دائماً متعجلاً، والذي كان يستشير بين الحين والآخر مفكرة صغيرة قذرة

موضوعة بجانبه «ولعلها كانت تحمل أسماء المذنبين الذين كان ينوي أن يحلّي بهم» فقد كان يتناول طعامه وكأنه يقذف بكميات الفحم في الأتون، وكانت هذه العملية مصحوبة بشيء كثير من الجلبة، وبشيء كثير من الفتات المتناثر منه، هذا عدا النفخ والنخير اللذين كانا يصدران بين الحين والآخر وكأنه حقاً بخار يوشك أن ينطلق.

وكانت فلورا طيلة العشاء تمزج بين شهيتها الحاضرة في الطعام والشراب وبين شهيتها السابقة في الحب الشاعري، وذلك بطريقة جعلت كلينام يخشى أن يرفع عينيه عن الأطباق الموضوعة أمامه ما دام لا يستطيع أن ينظر إليها دون أن يتلقى منها نظرة خفية تنطوي على معنى خاص أو تحذير وكأنهما متآمران على شيء. وكانت «عمة السيد ف» جالسة في صمت تحدجه بنظرات مليئة بالتحدي والمرارة الشديدة، وظلت هكذا حتى رُفِع الطعام وجيء بالشراب. وعندئذ عرضت نفسها للملاحظة جديدة منه عندما اندفعت في حديث مفاجئ كدقة الساعة دون أن تستشير أحداً.

وكانت فلورا قد قالت:

- هل تسمح يا سيد كلينام أن تعطيني كأس شراب لعمة السيد «ف»!

وهنا قالت تلك السيدة فوراً:

- إن النصب الموجود بجوار جسر لندن أقيم بعد حريق لندن الكبير، وحريق لندن الكبير لم يكن هو الحريق الذي أتى على مصانع عمك جورج.

وقال السيد بانكس ببسالته السابقة:

- أحقاً يا سيدتي؟ حسناً!

ولكن يبدو أن ثمة شعوراً خفياً بالمعارضة أو بسوء المعاملة خامر ذهنها، وجعلها، بدلاً من أن تلتزم الصمت، تضيف إلى حديثها هذه العبارة:

- إنني أكره الشخص الأحمق.

وكان قد أطلقت هذا الحكم، النهائي تقريباً، والمنطوي على الإهانة الشخصية، فوق رأس كلينام، مما جعل من الضروري إخراجها برفق من الغرفة. وقد قامت فلورا بهذه العملية بهدوء، ولم تحاول عمة السيد «ف» أن تقاوم، وإنما تساءلت قائلة وهي تخرج بصوت ينم عن العداء الشديد:

- لماذا إذن جاء؟

ولما عادت فلورا، قالت إن «ميراثها» سيدة عجوز بارعة، ولكنها تبدو أحياناً شاذة الطباع، «كارهة» لبعض الناس بغريزتها. وهي خصائص كان يبدو على فلورا أنها أقرب إلى الإعجاب بها منها إلى أي شيء آخر. ولما وضحت طبيعة فلورا الطيبة في هذه الحالة، فإن كلينام لم يجد ما يؤاخذ به المرأة العجوز في إظهار هذه الناحية، لا سيما وقد استراح من وجودها المزعج، مما أتاح لهم أن يتناولوا كؤوس الشراب مرة أو مرتين في أمان. ولما أدرك كلينام أن بانكس سوف يتأثر بالشراب بعد قليل، وأن البطريرك سوف يمضي لينام، أعرب عن حاجته الشديدة لزيارة والدته، وسأل السيد بانكس عن الاتجاه الذي سيمضي فيه، فقال هذا له:

- في اتجاه المدينة.

فقال آرثر:

- هل نمضي معاً؟

- بكل سرور.

وخلال هذا كانت فلورا تهمس في أذنه بعبارات خاطفة قائلة إنه مرّ على فراقها وقت طويل، وإن الماضي أصبح على كل حال كهاوية

فاغرة الفم، وإنه لم يعد مقيداً بالسلسلة الذهبية، وإنها تحترم ذكرى «السيد ف» الراحل، وإنها ستكون في البيت في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم التالي، وإن أحكام القدر أصبحت أمنع على الذكريات، وإنها ترى أن أبعد شيء عن اللياقة حضوره إلى حي جراي إينز جاردنز في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر. وحاول وهو ينصرف أن يبين لها، بصراحة أنه يصافح فلورا الحاضرة لا فلورا الماضية، ولا حورية البحر. ولكن فلورا لم تقبل هذا، ولم تستطع أن تقبل هذا، وإنما بينت له أنها عاجزة تماماً عن فصل نفسها ونفسه عن شخصيتهما السابقتين. وانصرف عن البيت وهو أشد ما يكون تعاسة، كما كان رأسه يدور أكثر من أي وقت مضى، ولولا أنه كان -لحُسْن حظه- مقوداً بشخص آخر، لهامَ على وجهه، في أي مكان، خلال ربع الساعة الأولى من انصرافه.

ولما بدأ يثوب إلى نفسه في الهواء الرطب، وفي غيبة فلورا، وجد بانكس منطلقاً به في سرعة بالغة وهو لا يكف عن قضم أظافره، ولا عن النخير بين الحين والآخر، هذا بالإضافة إلى وضع إحدى يديه في جيبه، ووضع القبعة على رأسه وقد جعل مؤخرتها إلى الأمام، وكان ذلك من سمات استغراقه في التفكير والتأمل.

وقال آرثر:

- ليلة منعشة.

فقال بانكس موافقاً:

- أجل. منعشة جداً. ويمكن القول أنك -كوافد جديد على البلاد- أكثر إحساساً بالجو مني، والواقع أنني لا أجد متسعاً من الوقت يكفي لهذا الإحساس.

- أحياتك مشغولة إلى هذا الحد؟

- أجل. إن لدي دائماً ما أبحث عنه أو ما أرعاه. ولكنني أحب العمل.

ثم أردف قائلاً وهو يزداد سرعة:

- وإلا فلماذا خُلِق الإنسان؟

فقام كلينام:

- لا لشيء غير هذا.

وهنا وجّه بانكس هذا السؤال المضاد:

- وأي شيء هناك غير هذا؟

وأضاف هذا السؤال، في أضيق نطاق، شيئاً مما يثقل على حياة كلينام.

وقال بانكس:

- هذا ما أسأله لسكاننا. وإن أثار في بعضهم الامتعاض وهم يجيبون قائلين: إننا رغم ما تراه من فقرنا أيها السيد لا نكف عن العمل والكدح والكد في كل لحظات صحونا. وعندئذ أقول لهم: لأي شيء غير هذا خُلِقنا؟ وهنا يُفحَمون. لأنهم لا يجدون ما يجيبون به عليّ. لأي شيء غير هذا خُلِقت؟ هذا هو جماع الأمر.

فتنهد كلينام قائلاً:

- نعم، نعم..

وقال بانكس مستأنفاً حديثه عن مناقشاته مع المستأجرين:

- هأنا أمامكم! لأي شيء تظنون أني خُلِقت؟ لا لشيء غير العمل. إنني أقفز من الفراش في بكور الصباح لأعمل، وأظل أعمل بلا انقطاع فيها عدا اللحظات التي أختطفها للطعام. فما دمت أنا أعمل،

فسوف تعملون أنتم أيضاً، وسوف يعمل غيركم دائماً، وهكذا. ذلك هو الواجب الأكمل للإنسان الذي يعيش في بلد تجاري.

وبعد أن سارا قليلاً معاً في صمت، قال آرثر كلينام:

- ألا تتذوق شيئاً آخر يا سيد بانكس.

فردّ بانكس قائلاً بجفاف:

- ما هو هذا التذوق؟

- لنقل ميولاً مثلاً.

- إن لي ميل الحصول على المال يا سيدي إذا بيّنت لي الطريق إلى هذا.

ثم أطلق أنفه مرة أخرى بذلك الصوت الأجوف مما جعل كلينام يرى لأول مرة أن هذه هي طريقته في الضحك. وكان رجلاً فريداً في جميع النواحي، إنه قد لا يكون بالغ الهمّة حقاً، ولكن طريقته السريعة الجادة التي يطلق بها هذه الشذرات من المبادئ، وكأنما هي تنطلق من آلة قاذفة، تبدو غير قابلة للتعريض والسخرية.

وقال كلينام:

- أعتقد أنك لا تهوى القراءة؟

- إنني لا أقرأ شيئاً غير الأرقام والحسابات، ولا أهوى جمع شيء إلا الإعلانات العائلية. فإذا كان هذا نوعاً من الهواية، فليكن. إنك يا سيد كلينام لست من آل كلينام المقيمين في كورنوال؟

- إنني لم أسمع بهم من قبل.

- إنني أعرف هذا. لقد سألت والدتك يا سيدي، فإن لها من قوة الشخصية ما يجعلها لا تفلت فرصة كهذه.

- ولنفرض أنني من آل كلينام المقيمين في كورنوال.

- في هذه الحالة كنت ستسمع شيئاً في صالحك.

- أحقاً؟ إنني لم أسمع شيئاً في صالحي منذ أمد بعيد.

فقال بانكس وهو يتناول من جيب صدريته مفكرة راح ينظر فيها:

- إن هناك أملاكاً يا سيدي تنتظر فرداً من أسرة كلينام الكورنوالية ليطالب بها.

ثم أعاد المفكرة إلى جيبه وأردف قائلاً:

- لسوف أفترق عنك في هذا المنعطف. أتمنى لك ليلة طيبة.

فقال كلينام:

- طابت ليلتك.

ولكن بانكس، وقد تخفف فجأة من قيادته لكلينام، اندفع في طريقه بسرعة كبيرة اندفاع القاطرة التي تنفصل عن المركبات فجأة. ومن ثم سرعان ما غاب عن النظر.

وكانا قد عبرا منطقة سميث فيلد معاً، ثم وجد كلينام نفسه وحيداً في منعطف شارع باربيكان. ولم يكن ينوي أن يذهب إلى أمه في غرفتها الكئيبة في تلك الليلة، وفي الوقت نفسه كان يخامره شعور بالعزلة والانقباض، ما كان يخامره لو أنه في أكثر الأماكن وحشة وانعزالاً. واستدار وسار ببطء في شارع آلدرسجيت، ومضى متأملاً في الطريق نحو كاتدرائية سانت بول قاصداً الوصول إلى أحد الشوارع الرئيسية الكبيرة حيث الأضواء وضجيج الحياة وحيث أخذ جمع من المارة يتدفق في مواجهته على نفس الجانب مما جعله يقف بظهره جانباً إلى أحد المتاجر ليسمح لهم بالمرور؛ ولما اقترب الجمع تبين أنهم متحلقون حول شيء محمول على

أكتاف بعض الرجال. ثم سرعان ما رأى أنها محفة صُنِعت بسرعة من مصراع باب أو من شيء كهذا، وفوقها شخص راقد، وشذرات من الأحاديث تتطاير من الجمع، وصرّة قذرة موحلة يحملها رجل، وقبعة قذرة موحلة يحملها آخر مما جعله يدرك أن حادثة ما قد وقعت. وتوقفت المخفة برهة تحت مصباح ريثما يستعيد حاملوها الستة توازنها، وتوقف الجمع أيضاً، ومن ثم وجد كلينام نفسه في وسط الجميع.

وسأل رجلاً عجوزاً كان يقف بجانبه ويهز رأسه في دعوة إلى الحديث:

- أهو حادث في الطريق إلى المستشفى؟

فقال الرجل:

- أجل. وسببها مركبات البريد. يجب أن يحاكَم سائقوها ويعاقَبوا، سائقو هذه المركبات. لقد انحدرت من شارعي لاولين ورد ستريت بسرعة اثني عشر أو أربعة عشر ميلاً في الساعة. نعم، هذا ما فعلته هذه المركبات. وأعجب شيء أن الناس لا يموتون كثيراً تحت عجلاتها. هذه المركبات.

- أرجو ألا يكون هذا الشخص قد قُتِل!

فقال الرجل:

- إنني لا أدري. إذا لم يكن قد مات، فسوف يكون هذا خارج إرادة هذه المركبات.

وعقد المتحدث ذراعيه على صدره، ووقف مسترخياً يلعن بحديثه مركبات البريد إلى كل جمع من المارة يحبون أن ينصتوا إليه. وقد راح كثيرون منهم يؤيدونه بدافع من العطف على المصاب. قال أحدهم لكلينام: «إن مركبات البريد هذه من المزعجات العامة يا سيدي». وقال

آخر: «لقد رأيت إحداها تقف على بُعد بوصة واحدة من طفل أمس مساء» وقال ثالث: «ورأيت إحداها تدوس قطة يا سيدي، وقد كان من المحتمل أن تكون أمك» وكانوا جميعاً يريدون منه -تضميناً- أن يبذل نفوذه -إن كان من ذوي النفوذ العام- ضد مركبات البريد هذه.

وقال الرجل العجوز الأول مناقشاً الأمر:

- عجباً! إن المواطن الإنكليزي يعرف أن حياته في خطر كل ليلة من هذه المركبات، وهو يعرف كيف يتجنبها حتى لا تمزقه إرباً وهي تندفع مسرعة من المنعطفات. ولكن ماذا يفعل الأجنبي المسكين الذي لا يعرف عنها شيئاً؟

فقال كلينام وهو يمد رأسه ليرى الراقد على المحفة:

- هل المصاب أجنبي؟

وفي وسط الإجابات التي انطلقت حوله «إنه فرنسي يا سيدي»، «إنه برتغالي يا سيدي»، «إنه هولندي يا سيدي» وغير هذا من الشهادات المتناقضة، سمع كلينام صوتاً واهناً يطلب باللغتين الإيطالية والفرنسية قليلاً من الماء. ولم يفهم أحد من الجمع شيئاً مما قال وإنما تداولوا فيما بينهم هذه العبارة: «آه يا للمسكين! إنه يقول إنه لن يعيش.. ولا عجب في هذا». والتمس كلينام منهم أن يسمحوا له بالمرور لأنه فهم ما يريده المصاب المسكين. وسرعان ما أُفسِح له المجال ليتحدث معه.

وتلفّت حوله وقال:

- إنه يريد أولاً بعض الماء.

وبعد أن انطلق نحو عشرة من الناس الطيبين ليأتوا بالماء، التفت إلى الجريح وقال له باللغة الإيطالية.

- هل إصابتك بالغة يا صديقي؟

- أجل يا سيدي.. أجل.. أجل.. أجل. إنها ساقي ولكن يسرني أن أسمع أنغام لغتي رغم سوء حالي.

- إنك رحالة! انتظر. ها هو الماء، دعني أقدم لك شيئاً منه.

وكانوا قد أراحوا المحفة على كومة من حجارة الرصيف، وكانت على ارتفاع مناسب من الأرض، ومن ثم استطاع كلينام، بالانحناء، أن يرفع رأس الجريح قليلاً بيد، وأن يقدم إلى شفتيه بالأخرى كوب الماء. وكان المصاب رجلاً ضئيل الجسم، مفتول العضلات، ملوح البشرة، أسود الشعر، أبيض الأسنان. وكان وجهه كما يبدو موفور الحيوية، كما كان يضع الأقراط في أذنيه.

وعاد كلينام يقول:

- حسناً جداً. إنك رحالة؟

- أجل يا سيدي.

- وغريب في هذه المدينة؟

- أجل يا سيدي، أجل. تماماً. لقد وصلت في هذه الليلة التعسة.

- من أي بلد؟

- من مرسيليا.

- عجباً! اسمع! إنني كذلك! إنني هنا أكاد أكون غريباً مثلك. وقد جئت من مرسيليا منذ مدة وجيزة. لا تحزن!

وكان المصاب قد راح ينظر إليه في ابتهال وهو ينهض عنه بعد أن مسح وجهه وأعاد برفق السترة التي كانت تغطي جسمه المتفض. وأردف كلينام قائلاً:

- إنني لن أتركك حتى تصبح موضع الرعاية الحسنة. تجلّد، لسوف تتحسن حالتك كثيراً بعد نصف ساعة.

وصاح الرجل الضئيل المسكين بصوت ينم عن شيء من عدم التصديق.

- آه، حسناً.. حسناً.

وفيما كانوا يعودون إلى حمله، بسط يده اليمنى وراح يلوح في الهواء بإصبعه السبابة.

واستدار كلينام، وسار بجانب المحفة وهو يشجعه بين الحين والآخر ببضع كلمات، حتى وصلوا إلى مستشفى سانت بارنلوميو القريب. ولم يسمح لأحد من المتجمهرين بدخول المستشفى إلا حاملي المحفة وكلينام. وسرعان ما وضع المصاب على منضدة الفحص برفق وهدوء، وقام بفحصه في عناية أحد الجراحين الذين كانوا على استعداد لمثل هذه الطوارئ. وقد قال له كلينام:

- إنه لا يكاد يعرف كلمة إنكليزية واحدة. هل إصابته خطيرة؟

وقال الجراح وهو مستمر في عملية الفحص بطريقة جادة:

- يجب أولاً أن نفرغ من الفحص قبل أن نعرف حقيقة الأمر.

وبعد أن راح يفحص الساق بإصبع واحد، ثم بإصبعين، ثم بيد واحدة، ثم باليدين، وبعد أن فحصها من أعلى ومن أسفل، ورفعها وخفّضها وأدارها في هذا الاتجاه، ثم في ذاك، وبعد أن تحدث بلهجة تنم عن الرضا إلى سيد أقبل وانضم إليه، بعد هذا كله ضرب الجراح على كتب المصاب وقال له:

- إن الإصابة ليست بالغة. ولسوف تتحسن حالته سريعاً. حقاً إن الأمر لا يخلو من صعوبة، ولكننا لا نريد أن نحرمه من ساقه هذه المرة.

وترجم كلينام هذا للمصاب الذي أعرب عن عرفانه وشكره بطريقة عملية، إذ قبّل يد كل من المترجم والجراح بضع مرات.

وقال كلينام:

- أعتقد أنه جرح خطير؟

فقال الجراح في ابتهاج الفنان الذي يتأمل عمله الموضوع على الحامل:

- أجل! إنه خطير جداً. فهناك كسر مضاعف فوق الركبة، وخلع أسفلها، وكلا الإصابتين من طراز مدهش.

ثم ربت بمودة كتف المصاب مرة أخرى وكأنما يشعر حقاً أنه إنسان ممتاز جداً في الواقع وأنه جدير بكل ثناء لإصابة ساقه بكسور لها أهميتها من الوجهة العلمية.

وسأل الجراح قائلاً:

- هل يتحدث الفرنسية؟

- آه، أجل. إنه يتحدثها.

- إنه لن يتعب إذن هنا.

ثم أردف قائلاً للمصاب باللغة الفرنسية:

- ما عليك يا صديقي إلا أن تحتمل قليلاً من الألم كأي إنسان شجاع ثم تحمد الله لأنك ستعود كما كنت. نعم، ستتحقق لك معجزة المشي الطبيعي بعد الشفاء. والآن هيا بنا نرى هل ثمة إصابات أخرى، ولنعرف كيف حال الضلوع.

ولكنه لم يجد أية إصابات أخرى، كما وجد الضلوع سليمة. وظل كلينام باقياً حتى تم للمصاب -في إتقان وعناية- كل ما يمكن أن يتم له من إجراءات.

وكان الجوالة الوحيد المسكين في بلد غريب قد رجاه بلهجة مؤثرة أن يقدم له هذا الصنيع، ومن ثم ظل كليناام باقياً بجانب السرير الذي حُمِل إليه المصاب في الوقت المناسب، حتى استغرق في النوم. ولم يكتفِ بهذا، بل كتب بعض كلمات على بطاقته الشخصية واعداً بالعودة في اليوم التالي، ثم تركها لتُقدَّم إليه حين يستيقظ.

واستغرقته كل هذه المشاغل لوقت طويل حتى إن الساعة دقت الحادية عشرة وهو يخرج من المستشفى. وكان قد استأجر في ذلك الوقت مسكناً في حي كوفنت جاردن واتخذ سبيله إليه من أقرب الطرق ماراً بشارع هل وشارع هولبورن.

ولما انفرد بنفسه مرة أخرى بعد هذه الانفعالات التي سببتها له مغامرته هذه الأخيرة، استغرق في التأمل والتفكير. والحق أنه لم يكن يستطيع أن يستمر في السير مفكراً عشر دقائق دون أن يتذكر فلورا. ذلك أنها كانت على وجه اليقين تعيد إلى ذاكرته حياته بكل ما فيها من ضلال وسعادة قليلة.

ولما عاد إلى مسكنه، جلس أمام المدفأة التي بدأت نارها تخبو، وإن موقفه هذا أشبه بموقفه في غرفته القديمة وقد وقف ينظر من النافذة إلى غابة المداخن السوداء وما لبث أن ارتد بخياله إلى تلك المرحلة الكئيبة من حياته التي انتهت به إلى هذه الحال التي هو عليها الآن. لقد كانت مرحلة طويلة، خاوية جدباء.. لم يكن فيها طفولة، ولا شباب، وإنما مجرد ذكرى واحدة. وقد ثبت في يومه هذا أن هذه الذكرى لم تكن إلا قطعة من السخف.

لقد كان ما حدث في هذا الشأن يعتبر كارثة بالنسبة له وإن بدا شيئاً تافهاً بالنسبة لغيره. ذلك أنه على حين ظلت كل ذكرياته الأخرى العنيفة القاسية باقية على حقيقتها، لا يلين من قسوتها وجهامتها شيء مهما يكن سواء باللمس أو النظر فإن هذه الذكرى الوحيدة الرقيقة لم تقوَ على

احتمال هذا الاختبار، وتلاشت أمامه. لقد تنبأ بهذا في الليلة السابقة عندما راح يحلم وعيناه مفتوحتان، ولكنه لم يشعر بكل هذا عندئذ وإنما شعر به الآن.

لقد كان من ذوي الأحلام التي من هذا النوع، لأنه كان رجلاً في أعمق أعماق نفسه إيمان بكل ما كان محروماً منه من خير ورِقّة في الحياة. وكانت نشأته في بيئة من البخل والضعة وسوء المعاملة قد أنقذته من ألا يكون رجلاً مبسوط اليد نبيل الفكر. وكانت نشأته في جو من القسوة والتجهم قد أنقذته من ألا يكون صاحب قلب موفور العاطفة والحنان. وكانت نشأته في بيئة دينية قَدَرية أشد غموضاً من أن يفهمها، وإن استطاع أن يفهم أنها تنطوي على نظرية متناقضة تقول إن الإنسان قد خُلِق على صورة خالقه، ورغم تعرضه لارتكاب الأخطاء والذنوب قد أنقذته من ألا يقسو في الحكم على غيره، وأن يكون متواضعاً كريماً، وأن تمتلئ نفسه بالأمل والرحمة.

والأهم أن هذا أنقذه من أن يكون ضعيف النفس كثير الشكوى أنانياً يكره أن يرى أسباب السعادة والخير التي حُرِم منها تتوافر لغيره من الناس. إن لديه حقاً عقلية تشعر بالاستياء من الحياة، ولكنها أقوى وأسلم من أن يفسدها ما مرّ بها من سوء. إنها عقلية تستطيع -وهو يعيش في الظلام- أن ترتفع إلى النور وأن تراه وهو يتألق على الآخرين، وأن تسعد به.

ومن ثم جلس أمام المدفأة التي كانت نارها تخبو، يفكر في أسف في الطريق الذي انتهى به أخيراً إلى هذه الليلة، ومع ذلك لم يخطر بباله قط أن ينثر السموم في طريق الآخرين. إنه فقط يشعر بالأسى لأنه حُرِم الكثير في حياته، وأنه وقد أصبح في هذه المرحلة من العمر، يجد نفسه مضطراً إلى البحث عن أي شيء يتكئ عليه ليصبحه ويبهج الجزء الباقي

من حياته. وراح ينظر إلى النار التي خبا ضرامها، وتلاشى الوهج، وتحولت بقاياها إلى رماد، وتساقط منها الغبار، ثم قال لنفسه: «ما أسرع ما سوف أتعرض أنا أيضاً لهذه المراحل، ثم أختفي».

وكان وهو يستعرض حياته كمن يقترب من شجرة خضراء مثمرة مزهرة ثم إذا هو يرى، كلما اقترب منها، أغصانها تذوي ويتساقط الواحد منها تلو الآخر.

وقال آرثر كلينام: «ما الذي وجدته منذ أيام طفولتي المليئة بالكبت والقسوة، ومنذ حياتي التي عشتها في بيت كئيب، ومنذ رحيلي، ومنفاي، وعودتي، واستقبال أمي لي وحديثي معها، ثم لقائي بعد ظهر اليوم مع فلورا.. ما الذي وجدته بعد هذا كله..».

وفتح الباب برفق، ثم فوجئ بسماع هذه الكلمات وكأنها إجابة على حديثه:

- دوريت الصغيرة.

* * *

حفلة دوريت الصغيرة



نهض آرثر كلينام بسرعة ورآها واقفة بالباب. ويبدو أن هذه القصة لا بد أن ترى الأمور أحياناً من وجهة نظر دوريت الصغيرة، ومن ثم سوف نبدأ هذه القصة برؤيتها له.

لقد نظرت دوريت الصغيرة في غرفة خابية الضوء، لاحت في نظرها واسعة وفاخرة الأثاث. وكانت صور المجتمع الراقي في حي كوفنت جاردن باعتباره مكاناً تكثر فيه المقاهي المشهورة التي كان يتعارك ويتبارز فيها السادة ذو الملابس المذهبة الأكمام والسيوف، والصور الفاخرة عن حي كوفنت جاردن باعتباره مكاناً تباع فيه الزهور شتاءً بسعر الواحدة بضعة جنيهات والأناناس بسعر الرطل بضعة جنيهات، والبازلاء بسعر المكيال بضعة جنيهات، والصور الباهرة عن حي كوفنت جاردن باعتباره مكاناً لمسرح ضخم فاخر كان يعرض المناظر الرائعة المدهشة على سادة وسيدات في أفخر الحلل، كما كان أبعد منالاً من أختها المسكينة فاني أو عمها البائس، والصور الموحشة عن حي كوفنت جاردن باعتباره مكاناً ينطوي على مداخل أزقة يعيش فيها أطفال بؤساء في هيئات بالية كانت قد مرت لتوها بينهم، وكأنهم جرذان نافرة مستخفية، تعيش على الفتات، وتتكوم معاً التماساً للدفء، وتتعرض للمطاردة «انظروا يا آل بارناكل إلى هذه الجرذان، صغيرها وكبيرها، لأنهم بحق الله

يأكلون الأساسات مما سيجعل الأسقف تهوي فوق رؤوسنا»، والصور المتوالية عن حي كوفنت جاردن باعتباره مكاناً للماضي والحاضر، للغموض والهوى، والهجر والرغبة والجمال والقبح والحدائق الفسيحة والأزقة القذرة، كل هذه الصورة التي اختلط بعضها ببعض قد جعلت الغرفة تبدو أثر قتامة مما هي في عيني دوريت الصغيرة وهي واقفة في الباب تنظر إليها في رهبة.

لقد رأت أولاً على المقعد أمام المدفأة التي انطفأت نيرانها السيد الذي جاءت تبحث عنه وقد استدار نحوها في دهشة لرؤيته لها. إنه نفس السيد الملوح البشرة الوقور الذي يبتسم بلطف، والذي كان في تصرفاته صريحاً مجاملاً، ومع ذلك كان لا يخلو من الهيئة الجادة التي تذكّرها أحياناً بوالدته مع الفارق الكبير بين جدّها المنطوي على الغلظة وبين جدّه المنطوي على الرقة. وها هو الآن يتأملها بتلك النظرات الجادة المتسائلة التي كانت ترغم عيني دوريت الصغيرة على الإغضاء دائماً، والتي ترغمها عليه الآن.

– يا طفلتي الصغيرة! هنا في منتصف الليل؟

– لقد قلت: دوريت الصغيرة يا سيدي لكي أنبهك إلى وجودي. فقد كنت أعرف أنك سوف تدهش جداً.

– هل أنت بمفردك؟

– لا يا سيدي، إن ماجي معي.

واعتبرت ماجي أن ذكر اسمها يعني السماح لها بالدخول، فتقدمت من المنبسط الخارجي إلى الغرفة وعلى وجهها تلك البسمة البلهاء الواسعة. إلا أنها لم تلبث أن زمت شفتيها بسرعة، واتخذت هيئة الجد والوقار.

وقال كلينام:

- وليس في المدفأة نار، وأنتما..

وكاد أن يقول إنهما ترتديان ملابس خفيفة، ولكنه أمسك عن الحديث عما قد يشير إلى فقرهما، قائلاً بدلاً من هذا:

- وأنتما لا شك تشعران بالبرد الشديد.

وبعد أن قرب المقعد الذي نهض عنه من المدفأة، جعلها تجلس عليه، ثم أسرع باستحضار الفحم وخشب الوقود وكومة في قاع المدفأة وأضرم فيه النار.

وحدث أن لمست يده قدم دوريت الصغيرة وهو راكع على ركبته يعمل في إضرام النار:

- إن قدمك باردة كالرخام يا صغيرتي. قرّبيها من الدفء.

وشكرته دوريت بسرعة، وشاع الدفء في الغرفة، الدفء الشديد وأحس كلينام بالمرارة وهو يرى كيف تحاول دوريت أن تخفي عن عينيه حذاءها البالي.

ولم تكن هي خجلى من حذائها الحقير. إنه يعلم قصتها، ومن ثم فهي لا تخفي حذاءها لهذا السبب. إن دوريت الصغيرة تخشى أن ينحى باللوم على أبيها إذا هو رأى حذاءها.. تخشى أن يفكر في نفسه «لماذا تناول عشاءه الليلة تاركاً هذه المخلوقة الصغيرة لرحمة الصخور الباردة» إنها لم تكن تؤمن أن في مثل هذه الخواطر شيئاً من الإنصاف. وكانت ببساطة تعلم -عن خبرة- أن مثل هذه الأوهام تخامر عقول الناس أحياناً. وإنها لتعتبر حدوثها نوعاً من سوء حظ أبيها.

وجلست دوريت الصغيرة أمام النار الهادئة، ورفعت مرة أخرى عينيها إلى الوجه الذي تناسقت فيه أمارات الاهتمام، والعطف، والرعاية

مما جعله يبدو غامضاً إلى حد ما عن فهمها، مرتفعاً عن مستوى إدراكها، ثم قالت:

- قبل أن أتحدث عن شيء، هل تسمح لي أن أقول شيئاً يا سيدي؟

- أجل يا طفلتي.

وطافت بوجهها سحابة من الحزن لمناداته لها دائماً بكلمة طفلة. وقد دهشت حين رأت أنه لاحظ حزنها أو فكر في أمر بسيط كهذا. ولكنه قال:

- إنني أريد أن أناديك بكلمة رقيقة، ولست أجد كلمة أخرى. وما دمت قد ذكرت الآن اسمك الذي أطلق عليك في بيت أمي، وما دام هذا هو الاسم الذي أذكرك به دائماً، فدعيني أنادك بدوريت الصغيرة.

- شكراً يا سيدي، وينبغي أن أحبه أكثر من أي اسم آخر.

- دوريت الصغيرة.

وهنا قالت ماجي التي كان النوم يغالبها وكأنما تصحح شيئاً:

- الأم الصغيرة.

فردت عليها دوريت قائلة:

- سيان يا ماجي. سيان.

- هل الأمر سيان يا أماه!

- أجل.. كلا الاسمين سواء.

وضحكت ماجي وأردفت ضحكتها بصيحة. وكان شكل ماجي الغريب وصوتها الشاذ في عيني دوريت الصغيرة وأذنيها كألطف ما يكون. وكان وجهها يتألق بشيء من الزهو بطفلتها الكبيرة عندما التقت عيناها مرة أخرى بعيني السيد الوقور الملوح البشرة. وكانت تتساءل في

نفسها عما يدور بذهنه وهو ينظر إلى ماجي وإليها. وخطر لها أنه من الممكن أن يكون خير أب يرعى ابنته بمثل هذه النظرات الحانية العطوف.

وقالت دوريت الصغيرة:

- إن ما أردت أن أقوله لك يا سيدي هو أن أخي أصبح مطلق السراح.

وأعرب آرثر عن سروره بهذا النبأ، وعن أمله في أن ينصلح حاله.

وعادت دوريت الصغيرة تقول والرعدة تسري في كل جسمها الضئيل وفي صوتها:

- وإن ما أردت أن أقوله لك يا سيدي هو أنه فرض عليّ ألا أعرف من هو هذا الإنسان الكريم الذي أطلق سراحه، وألا أسأل عنه قط، لأنني لن أعرفه أبداً، ومن ثم فلن تتاح لي إطلاقاً فرصة أشكر فيها ذلك السيد من كل قلبي المفعم بالعرفان.

وقال كلينام: إن من المحتمل أن ذلك السيد لا يريد أن يُشكَر، وأنه ربما يكون شاكراً لله «وله الحق» الذي هيأ له أسباب تقديم هذه الخدمة إلى إنسانة جديرة تماماً بها.

وقالت دوريت الصغيرة وهي تزداد ارتعاداً:

- وإن ما أردت أن أقوله لك يا سيدي، هو أنني إذا عرفته، وهذا قد يحدث، فسوف أقول له إنه لن يستطيع أبداً، أبداً، أن يدرك مبلغ عرفاني وعرفان أبي بجميله. وإن ما أردت أن أقوله يا سيدي هو أنني إذا عرفته -وقد يحدث هذا- ولكنني لا أعرفه، ولا ينبغي أن أفعل، لأني أعلم هذا تماماً! فسوف أقول له إنني لن آوي إلى فراشي أبداً دون أن أدعو الله ليباركه ويحسن له الجزاء. وإذا عرفته، وقد يحدث هذا، فسوف أركع

أمامه، وأتناول يده وأقبّلها، وأطلب منه ألا يسحبها، وإنما يدعها، أوه، يدعها لمدة لحظة، حتى تتساقط عليها دموع شكري، لأني لا أملك غير هذه الدموع أقدمها إعراباً عن شكري.

وكانت دوريت الصغيرة قد رفعت يده إلى شفتيها، وكادت أن تركع أمامه، إلا أنه منعها برفق، وأعادها إلى مقعدها. وكانت نظراتها ونبرات صوتها قد عبّرت عن شكرها بأعظم مما خطر لها. ولم يستطع أن يجعل صوته هادئاً متزناً كالمعتاد وهو يقول لها:

- كفى كفى أيتها الصغيرة دوريت.. كفى. لسوف نفترض أنك تعرفين هذا السيد، وأنك قد تقومين نحوه بهذا كله، وأنك قد قمت به فعلاً. والآن أخبريني -وأنا لست هذا الإنسان إطلاقاً- وإنما مجرد الصديق الذي طلب منك أن تثقي به، لماذا خرجت في منتصف الليل، ومن الذي دعاكِ إلى السير كل هذه المسافة في مثل هذه الساعة المتأخرة يا...

وكاد أن يقول «يا طفلتي» إلا أنه أسرع قائلاً بدلاً منها:

- أيتها الصغيرة الرقيقة دوريت!

فقالت وقد استردت هدوءها بتلك البساطة الطبيعية فيها:

- لقد ذهبت مع ماجي إلى المسرح الذي تعمل فيه أختي الليلة.

وهنا قالت ماجي التي بدا أن لها القدرة على الاستغراق في النوم واليقظة منه وقتما تريد:

- أوه، ما أجمله من مكان! لقد كان جميلاً كمستشفى، ولكنه يخلو من الإهانات.

ثم تمطت واستغرقت مرة أخرى في النوم.

وقالت دوريت الصغيرة وهي تنظر إلى عهدتها:

- لقد ذهبنا إلى هناك لأني أحب أحياناً أن أعرف -لكي أطمئن- أن أختي ناجحة في عملها. ومن ثم أحب أن أراها هناك، بعيني هاتين دون أن تشعر هي أو عمي، بوجودي. والواقع أنني قلما أستطيع أن أفعل هذا، لأني إذا لم أكن في عملي، أكون مع أبي، وعندما أكون في عملي، فإني أسرع إليه بعد الانصراف منه ولكنني الليلة زعمت له أنني مدعوة إلى حفلة.

وفيما هي تدلي بهذا الاعتراف في تردد وادع، رفعت عينيها إلى وجهه، وقرأت بوضوح ما ارتسم عليه من انفعالات وتساؤل أجابت عنه قائلة:

- أوه، لا طبعاً. إنني لم أحضر حفلة قط في حياتي.

وتوقفت برهة عن الحديث أمام نظراته المركّزة عليها، ثم أردفت قائلة:

- أرجو ألا يكون فيما فعلت أي ضرر. فإنني أشعر أنني لن أستطيع أن أقدم أية خدمة لأحد؛ ما لم أزعم مثل هذا بين الحين والآخر.

وخشيت أن يكون في دخيلة نفسه عاتباً عليها بسبب إمعانها في العمل من أجلهم والتفكير في شأنهم، وبذل الرعاية لهم، ودون علم منهم أو انتظار لشكرهم، بل واحتمال تقريعهم لها عندما يظنون أنها تهملهم. أما الذي كان يشغل تفكيره عندئذ، فهو ذلك الجسد الصغير المفعم بتلك الإرادة القوية، وذلك الحذاء القديم البالي، والملابس القليلة، والتظاهر بالبهجة والسرور. وسألها أين تلك الحفلة المزعومة؟ فأجابت دوريت الصغيرة -بوجه مضطرم- إنها زعمت أنها في البيت الذي تعمل فيه، وقالت إنها لم تذكر عن هذه الحفلة إلا كلمات قليلة جداً لتريح ذهن أبيها الذي لم يصدق أنها حفلة فاخرة طبعاً، وإن كان من المحتمل أن يصدق هذا. ثم أرسلت نظرة عابرة إلى مطرفها الذي تضعه على كتفيها.

وقالت دوريت الصغيرة:

– هذه أول ليلة أبتعد فيها عن البيت. وإن لندن لتبدو ضخمة جرداء موحشة.

وكان اتساع المدينة تحت السماء المظلمة يبدو في عيني دوريت الصغيرة رهيباً. ومن ثم سرت في بدنها رعدة وهي تنطق بتلك الكلمات.

وأضافت قائلة وهي تتمالك نفسها بتلك البساطة:

– ولكن ليس هذا ما جئت لأزعجك من أجله يا سيدي. لقد تعرفت أختي بصديقة.. بسيدة حدثتني عنها وأثارت في نفسي القلق عليها وكان هذا هو السبب الأول لابتعادي الليلة عن البيت. وبسبب هذا الابتعاد، وبسبب مروري «عن قصد» على هذا المكان الذي تقيم فيه في أثناء عودتي، ولما رأيت الضوء في نافذتك...

لا.. لم تكن تلك أول مرة، لا.. ليست هذه هي المرة الأولى. فإن نظرات دوريت الصغيرة كانت تنم عن أن ذلك الضوء المنساب من النافذة كان بالنسبة لها كالنجم الهادي في ليالٍ أخرى غير هذه. لقد أجهدت نفسها بالابتعاد عن خط سيرها –رغم شعورها بالتعب والقلق– لكي تنظر إلى النافذة، وتتساءل في نفسها عن ذلك السيد الوقور الملوح البشرة، الذي وفد من بلاد بعيدة.. بعيدة، والذي تحدث معها كصديق وراعٍ.

وقالت دوريت الصغيرة:

– كان ثمة أشياء ثلاثة فكرت في أن أحدثك عنها إذا كنت بمفردك، وإذا كان لي أن أصعد إليك. وأولها هو ما حاولت أن أقول، ولكنني لم أستطع، ولن..

فقاطعها كلينام قائلاً وهو يبتسم ليخفف من اضطراب مشاعرها، تاركاً وهج نيران المدفأة يتألق عليها، واضعاً أمامها على المائدة الشراب والفطائر والفاكهة:

- كفى، كفى، لقد فرغنا من الحديث في هذا الأمر.. فلنتحدث عن الأمر الثاني.

فقالت دوريت الصغيرة:

- أعتقد، وهذا هو الأمر الثاني يا سيدي، أعتقد أن والدتك السيدة كلينام لا بد قد عرفت سري، لا بد قد عرفت المكان الذي آتي منه أو أعود إليه، أعني المكان الذي أقيم فيه.

فقال كلينام بسرعة:

- أحقاً؟

ثم سألها بعد برهة من التفكير عن السبب الذي جعلها تظن هذا. فقالت دوريت الصغيرة:

- أظن أن السيد فلنتونش لا بد قد راقبني.

وعاد كلينام يفكر مرة أخرى وهو يدير عينيه إلى المدفأة ويزوي ما بين حاجبيه، قبل أن يسألها عن السبب الذي جعلها تظن هذا.

- قابلته مرتين.. وفي كلتا المرتين بالقرب من السجن.. وفي كلتا المرتين ليلاً في أثناء عودتي إليه.. وفي كلتا المرتين ظننت -وذلك رغم أني قد أكون مخطئة- أن هذا اللقاء لا يكاد يبدو مصادفة أبداً.

- هل قال شيئاً؟

- لا. إنه كان يومئ لي برأسه فقط، ثم يميل بها إلى أحد الجانبين.

فقال كلينام لنفسه وهو لا يزال ينظر إلى نيران المدفأة:

- ليأخذ الشيطان رأسه. فإنه دائماً يميل إلى أحد الجانبين.

ثم أفاق وراح يقنعها لكي تتناول بعض الطعام والشراب، وكانت عملية الإقناع عسيرة لأنها كانت على جانب كبير من الخجل والحياء، ثم عاد يقول مفكراً:

- هل تغيرت معاملة أمي لك؟

- أوه، لا مطلقاً. إنها تماماً كما هي. وإني لأتساءل: أليس من الأفضل أن أحدثها بحقيقة أمري. ومن ناحيتك هل ترى.. أعني هل تريد أن أحدثها بهذا. إنني لا أدري..

ثم رفعت عينيها إليه في وداعة، ولكنها لم تلبث أن راحت تسحب نظراتها تدريجياً حين نظر إليها، وأردفت قائلة:

- لا أدري هل يمكن أن تنصحني بما ينبغي أن أفعل؟

فقال كلينام بادئاً حديثه بعبارة «أيتها الصغيرة دوريت» التي بدأت تنطوي على مئات من المعاني الرقيقة المختلفة باختلاف مناسبة الحديث وعلاقته بالموضوع:

- أيتها الصغيرة دوريت: لا تفعلي شيئاً. ولسوف أتحدث قليلاً مع صديقتي القديمة السيدة آفري. نعم.. لا تفعلي شيئاً أيتها الصغيرة دوريت إلا أن تتناولي شيئاً مما أقدمه إليك.. إنني أرجوك أن تفعلي.

فقالت دوريت الصغيرة وهو يقرِّب كأسها نحوها في رفق:

- شكراً لك. إنني لست جوعى.. ولا ظمأى ولكن أظن أن ماجي قد تحب أن تأكل شيئاً.

فقال كلينام:

- لسوف نجعلها تعد جيوبها لتحمل كل ما هو موضوع هنا. ولكن قبل أن نوقظها، أرى أن تتحدثي عن الأمر الثالث.

– أجل! ولكن ألن تستاء مني يا سيدي؟

– أعدك دون أن أي تحفظ ألا أستاء.

فقالت دوريت الصغيرة وقد عاودها الانفعال والاضطراب بشكل متزايد:

– إن ما سأقوله قد يبدو غريباً. ولست أدري كيف أبدأ الحديث، وأرجو ألا تظن أنني جاحدة أو ناكرة لفضلك.

– لا لا لا. إنني واثق أن ما ستقولينه سيكون طبيعياً ومعقولاً. وتأكدي أنني لن أسيء فهمه أياً كان أمره.

– شكراً. هل ستعود لزيارة أبي مرة أخرى؟

– أجل.

– لقد كنت كريماً ومجاملاً في كتابتك رسالة إليه تقول فيها إنك ستزوره غداً.

– أوه! إن هذا شيء بسيط! وبعد؟

فأمسكت دوريت الصغيرة إحدى يديها بالأخرى في قوة وراحت تنظر إليه في لهفة وقد أطلت كل روحها من نظراتها المركزة عليه، ثم قالت:

– هل تستطيع أن تستنتج ما سوف أرجو منك ألا تفعله؟

– أعتقد أني أستطيع هذا. ولكنني قد أكون مخطئاً!

فقالت دوريت الصغيرة وهي تهز رأسها:

– لا، إنك لست مخطئاً. ولكن إذا احتجنا بحكم الضرورة القصوى إلى إعانة مالية منك بحيث لا تستطيع أن تعيش دونها، فدعني أطلبها منك بنفسي.

- سأفعل هذا.. سأفعله.

- لا تشجعه على طلب الإحسان منك، ولا تسيء الظن به إذا سألك إياها. ولا تعطه شيئاً. اعذره واصفح عنه بسبب هذه العادة، وفي هذه الحالة سوف يحسن ظنك به.

فقال كلينام -في شيء من الاضطراب وهو يرى الدموع تتألق في عينيها القلقتين- إن رغبتها ينبغي أن تكون مقدسة.

وعادت هي تقول:

- إنك لا تعرفه.. لا تعرف حقيقة أمره. وكيف يمكن أن تعرف الحقيقة عنه وقد رأيته هناك فجأة، وليس كما رأيته أنا تدريجياً.. يا لأبي العزيز الحبيب. لقد كنت معنا كريماً، ومجاملاً، وصادق العطف بحيث أريد منه أن يبدو في عينيك أفضل مما يبدو في عيني أي إنسان آخر..

ثم صاحت قائلة وهي تحجب دموعها بيديها:

- وأنا لا أستطيع أن أحتمل مجرد التفكير في أن تراه أنت -دون الناس جميعاً- وهو في لحظاته المهينة الذليلة.

فقال كلينام:

- أرجوك، لا تحزني إلى هذا الحد. أرجوك.. أرجوك.. أيتها الصغيرة دوريت؛ لقد أصبح هذا مفهوماً الآن تماماً.

- شكراً لك يا سيدي، شكراً لك. لقد حاولت كثيراً أن أمنع نفسي من أن أقول هذا لك. وقد فكرت في هذا الأمر ليالي وأياماً، ولكن عندما أيقنت أنك ستزوره مرة أخرى عزمت على أن أتحدث معك. وليس هذا لأني أشعر بالخجل منه..

وهنا كفكفت دموعها بسرعة وأردفت قائلة:

– وإنما لأني أعرفه أكثر من أي إنسان آخر.. ولأني أحبه وفخورة به.

وبعد أن تخففت دوريت الصغيرة من هذا العبء النفسي، بدت متلهفة على الانصراف بسرعة. وكانت ماجي التي استيقظت عندئذ تماماً، قد بدأت تلتهم في شهية ما على المائدة من فاكهة وفطائر وهي ترسل ضحكات قصيرة بلهاء؛ وبذل كلينام جهده ليجعل الأمر يبدو طبيعياً، فراح يملأ لها كأساً من الشراب، وسرعان ما أخذت تشربه وهي تمصمص بشفتيها بصوت مرتفع، وتضع يدها على قصبتها الهوائية بعد كل رشفة قائلة بأنفاس لاهثة ونظرات جائعة: «أليس هذا كرماً؟» ولما شربت وأكلت، طلب كلينام منها أن تملأ سلّتها –ولم تكن سلّتها تفارقها أبداً– بكل ما تبقى من طعام على المائدة دون أن تترك نزراً يسيراً منه. وكانت بهجة ماجي وهي تفعل هذا ثم بهجة «الأم الصغيرة» وهي ترى بهجة ماجي تعتبر تعويضاً كافياً عن الحزن الذي شعرت به دوريت في أثناء حديثه الأخير.

وهنا قال كلينام فجأة وقد تذكر شيئاً:

– ولكن بوابة السجن لا بد قد أُغلِقت منذ مدة طويلة الآن. فإلى أين تذهبين؟

فأجابت دوريت الصغيرة قائلة:

– سأذهب إلى مسكن ماجي وسوف أكون فيه بمأمن، وفي أحسن حال من الرعاية.

– إذن يجب أن أصحبكما إليه. لا أستطيع أن أدعكما تذهبان بمفردكما.

فقالت دوريت الصغيرة في رجاء:

- لا، أرجوك أن تدعنا نمضي بمفردنا. أرجوك.

وكانت شديدة اللهفة في رجائها بحيث وجد كلينام أن ليس من اللائق أن يقحم نفسه عليهما، ولا سيما وقد أمكنه أن يدرك أن مسكن ماجي على جانب كبير جداً من الحقارة.

وقالت دوريت الصغيرة في سرور:

- هيا يا ماجي.. إننا نعرف طريقنا جيداً الآن يا ماجي، وسوف نعرف كيف نصل بسلام.

وضحكت ماجي قائلة:

- أجل، أجل يا أيتها الأم الصغيرة.. إننا نعرف الطريق.

وانصرفتا معاً، ولكن دوريت الصغيرة تريثت عند الباب واستدارت قائلة:

- ليباركك الله.

قالتها بصوت خافت جداً، ولكن، من يدري، لعله ارتفع إلى السماء، وكأنما هو غناء وابتهالات المجموعة في كاتدرائية.

وتركهما آرثر كلينام حتى انعطفتا في منحنى الشارع قبل أن يتبعهما من بعيد، لا بقصد أن يعرف سر دوريت الصغيرة كما حدث من قبل، وإنما ليطمئن على سلامتها في تلك المنطقة التي اعتادت السير فيها. ولشد ما كانت تبدو في ذلك الجو المظلم الرطيب رقيقة عزلاء وهي تنطلق في طريقها بجوار ماجي المتعثرة الخطوات، بحيث شعر، في خضم عاطفته، وفي تعوّده على النظر إليها كطفلة مسالمة في عالم صاخب قاسٍ كأنما يسره أن يأخذها بين ذراعيه، وأن يحملها إلى غايتها.

ووصلت مع مرور الوقت إلى الشارع الرئيسي الذي يقع فيه سجن مارشاليزا وهنا رآهما تبطئان السير قبل أن تنعطفا إلى شارع جانبي.

وتوقف وقد شعر أنه لا حق له في متابعها أكثر من هذا، ومن ثم تركهما وانصرف ببطء ولم يخامره الشك في أنهما قد تبقيان بلا مأوى حتى الصباح، ولم يعرف هذه الحقيقة إلا بعد أمد طويل، طويل..

ولكن دوريت الصغيرة قالت لماجي عندما توقفت أمام بيت حقير في الظلام ولم تسمع وراء بابه صوتاً:

– سوف تجدين هنا مأوى طيباً يا ماجي، وعليك أن تكوني مؤدبة. وسوف ندق عليه مرتين فقط، ودون عنف، فإذا لم يستيقظ أحد ليفتح لنا فيجب أن نتجول في المدينة حتى الصباح.

وطرقت دوريت الصغيرة على الباب بحذر مرة واحدة وأرهفت السمع. ثم طرقت دوريت الصغيرة على الباب مرتين وأرهفت السمع. فلما ظل الباب مغلقاً قالت لماجي:

– ماجي، يجب أن نبذل خير ما نستطيع أن نبذله لمواجهة الأمر يا عزيزتي يجب أن نتذرع بالصبر وننتظر إسفار الصباح.

وكانت الليلة مظلمة باردة تهب فيها رياح مفعمة بالرطوبة عندما عادتا مرة أخرى إلى الشارع الرئيسي وسمعتا الساعة تعلن الواحدة بعد منتصف الليل. وهنا قالت دوريت الصغيرة لماجي:

– بعد خمس ساعات ونصف ساعة سيمكننا العودة إلى البيت.

وكان طبيعياً أن تتحدث عن «البيت» –وهو قريب منها– وأن تمضي لتلقي نظرة عليه. وقد ذهبتا إلى البوابة المغلقة، واختلستا النظر إلى الفناء، وقالت دوريت الصغيرة وهي تلثم أحد قضبان البوابة:

– أرجو أن يكون مستغرقاً في النوم، فلا يفتقدني.

وكانت البوابة تبدو كشيء أليف حبيب، أو كصديق، بحيث وضعت دوريت سلة ماجي في ركن منها واستخدمتها كمقعد جلست

عليه بجوار ماجي للراحة بعض الوقت. وكانت دوريت الصغيرة تشعر بالأمن وهي ترى الشارع خالياً ساكناً، ولكنها كانت تجفل كلما رأت ظلاً يتحرك بين مصابيح الشارع أو سمعت من بعيد وقع أقدام، وعندئذ كانت تهمس قائلة:

- ماجي، إني أرى أحداً.. تعالي بعيداً.

وتستيقظ ماجي متململة في قليل أو كثير، ثم تتجولان بعض الوقت قبل أن تعودا إلى مكانهما مرة أخرى.

وكانت ماجي لا تبالي شيئاً طيلة استمتاعها بالطعام ولكن بعد أن شبعت وبعد أن فقد الطعام جدته، انقلبت إلى التذمر من البرد، فراحت ترتعد وتعول. وكانت دوريت الصغيرة تقول لها في تجلّد:

- لسوف ينتهي كل هذا سريعاً يا عزيزتي.

وكانت ماجي ترد قائلة:

- إن هذا كله حسن بالنسبة إليك أيتها الأم الصغيرة ولكنني مخلوقة بائسة في العاشرة من عمرها فقط.

وأخيراً، في بهيم الليل، وعندما أمست الشوارع ساكنة تماماً، أرقدت دوريت الصغيرة رأس ماجي الكبير على صدرها، وراحت تهدهدها حتى نامت وهكذا بقيت جالسة بجوار البوابة وكأنها بمفردها. وكانت تتطلع إلى النجوم فترى السحب تمر بها في قرارها السريع، وكأنما هي ترقص في حفلة دوريت الصغيرة.

وقالت لنفسها مرة وهي جالسة على هذا النحو:

- لو أنها كانت حفلة جميلة حقاً! لو أنه كان لنا بيت حقاً، مليء بالضوء والدفء، وأبي سيد فيه، بدلاً من سجنه بين هذه الجدران، ولو أن

السيد كلينام كان بين المدعوين، وكنت أرقص معه على النغمات الموسيقية العذبة، ولو كنا جميعاً سعداء متفائلين كما ينبغي أن يكون الناس، لست أدري ماذا كنت أفعل..

وظل هذا التساؤل يتراقص أمامها وهي جالسة تتطلع إلى النجوم في حيرة كاملة، حتى استيقظت ماجي وعادت إلى تذمرها وإلى رغبتها في النهوض والتجول.

وأعلنت الساعة الثالثة، ثم الثالثة والنصف بعد أن اجتازتا جسر لندن. وكانتا قد سمعتا هدير أمواج المد ضد العوائق في طريقها، ونظرتا -في رهبة- من خلال الضباب المتصاعد من النهر، ورأتا نقطاً صغيرة من المياه المضيئة التي كانت تنعكس عليها مصابيح الجسر فتبرق كأنها عيون مردة تطل منها تلك الجاذبية الرهيبة التي تغري بالذنب، ثم تنتهي بالبؤس. وكانتا قد مرتا بحذر بجوار أشخاص مشردين راقدين مكومين في بعض المداخل. وكانتا قد هربتا من السكارى، وراغتا من الأشخاص المشبوهين الذين كانوا يتبادلون الصفير والإشارات عند الأركان. وكانت دوريت الصغيرة خلال هذا كله تتظاهر بالتعلق والاعتماد على ماجي. وكثيراً ما كان يرتفع صوت من بين جماعة من المتحفزين المتصدرين في الطريق قائلاً للباقين «دعوا المرأة والطفلة تمران بسلام».

وهكذا سارت «المرأة والطفلة» في الطرقات ظلتا تسيران، حتى أعلنت ساعات أبراج الكنائس الخامسة. وفيما كانتا تسيران نحو الشرق، وتتوقعان أن تريا أولى خيوط النهار، إذا بسيدة تقبل وراءهما قائلة لماجي:

– ماذا تفعلين بهذه الطفلة.

وكانت المتحدثة صغيرة السن، أصغر من أن تكون في الشارع في تلك الساعة، علم الله! وكذلك لم تكن قبيحة الشكل أو شريرة المظهر.

وكانت تتحدث بغلظة، ولكن صوتها لم يكن غليظاً بطبيعته، بل لقد كانت فيه نبرة موسيقية.

وردت ماجي عليها بلهجة الذي لا يعرف بماذا يجيب:

– وماذا تفعلين أنت هنا؟

– ألا تعرفين دون أن أخبرك؟

فقالت ماجي:

– لا.. لا أستطيع أن أعرف.

– إنني أقتل نفسي. وهأنا قد أجبت عليك، فأجيبي أنت عليّ. ماذا تفعلين بهذه الطفلة؟

وكانت «الطفلة المزعومة» قد أبقت رأسها منحنية، ومستخفية بجانب ماجي وعادت السيدة تقول:

– يا للمسكينة. أليس في قلبك رحمة حتى تجعليها في مثل هذا الوقت تهيم في الشوارع؟ أليست لك عينان يمكن أن ترى بهما إلى أي حد هي رقيقة وصغيرة؟ أليس لك إدراك –ويبدو أن هذا لا يتوافر فيك– حتى لا تشعرين بالرحمة على هذه المخلوقة الصغيرة المقرورة!

وتقدمت السيدة نحو دوريت وتناولت يدها الباردة المرتعدة بين يديها لتبعث فيها الدفء، ثم قالت وهي تنحني عليها بوجهها:

– يا عزيزتي إنك مخلوقة مسكينة ضائعة، قولي لي إلى أين ستمضي بك.

ولما استدارت دوريت الصغيرة نحوها، تراجعت السيدة في دهشة قائلة:

- يا إلهي! عجباً! إنك امرأة!

وقالت دوريت الصغيرة وهي تمسك بإحدى يدي السيدة:

- لا عليك من هذا. إنني لست خائفة منك.

فأجابت السيدة قائلة:

- بل يحسن أن تفعلي. أليس لك أم؟

- لا.

- ولا أب؟

- لي أب.. أب عزيز جداً.

- عودي إليه إذن، وخافي مني. دعيني أنصرف. طابت ليلتك.

- يجب أن أشكرك أولاً، ودعيني أتحدث إليك وكأني طفلة حقاً.

فقالت السيدة:

- إنك لا تستطيعين أن تفعلي هذا. إنك حقاً كريمة نقية، ولكنك لا تستطيعين أن تنظري إليّ بعيني طفلة. وما كان ينبغي أبداً أن ألمسك، ولكنني ظننت أنك طفلة.

ثم انصرفت بعد أن أطلقت صيحة غريبة شاذة.

ولم يكن في السماء ما ينم عن النهار بعد، ولكن النهار كان يقعقع في أحجار الشوارع، في العربات والمركبات، وفي العُمّال الذاهبين إلى مختلف أعمالهم، وفي افتتاح المتاجر المبكرة، وفي ضجيج الحركة بالأسواق، وفي النشاط الذي عمّ على شاطئ النهر، وكان النهار المقبل يبدو في أضواء المصابيح التي بدأ ضوءها يخبو أكثر منه في أي وقت آخر، وفي ازدياد لذعة البرد في الهواء، وفي أنفاس الليل المختنقة!

وعادتا مرة أخرى إلى البوابة، عازمتين على الانتظار حتى تفتح، ولكن الهواء كان من البرودة والعنف بحيث اضطرت دوريت الصغيرة التي كانت تقود ماجي النائمة، أن تبقى سائرة متحركة، حتى إذا وصلت إلى الكنيسة، رأت فيها الأنوار، والباب مفتوحاً، فصعدت الدرجات، ونظرت إلى الداخل.

وصاح رجل كبير الجسم، عجوز كان يضع على رأسه قلنسوة النوم وكأنما كان في طريقه إلى النوم في قبو:

– من هناك.

فقالت دوريت الصغيرة:

– لا أحد بالذات يا سيدي.

فصاح الرجل:

– انتظري. دعيني ألق عليك نظرة.

واضطرت وهي في طريقها إلى الانصراف أن تتوقف وأن تستدير إليه وتقدم نفسها وماجي أمامه. وهنا قال:

– هذا ما خطر لي. إنني أعرفك.

فقالت دوريت الصغيرة وهي تعرف ذلك الشماس أو خادم الكنيسة أو ما إلى هذا:

– لقد رأى أحدنا الآخر كثيراً عندما كنت أتردد على هذه الكنيسة.

– وأكثر من هذا. فإن لدينا شهادة ميلادك في سجلاتنا كما تعلمين، والواقع أنك إحدى عجائبنا.

فقالت دوريت الصغيرة:

- أحقاً؟

- بكل تأكيد، وذلك باعتبارك ابنة. وبهذه المناسبة، كيف خرجت في مثل هذه الساعة المبكرة؟

- لقد أغلقت البوابة أمس قبل أن نتمكن من الدخول فأخذنا ننتظر فتحها.

- أهكذا الأمر؟ ومع ذلك فلا يزال باقياً على فتحها ساعة كاملة. تعالي إلى غرفة المجمع. لسوف تجدين النار مضرمة في مدفأة المجمع انتظاراً للنقاشين وأنا أيضاً في انتظارهم، وإلا لما كنت موجوداً الآن هنا، ثم إنه لا ينبغي أن تشعر أعجوبتنا بالبرد ما دام في مقدورنا أن نقدم إليه الدفء والراحة. تعالي إلى الداخل.

وكان رجلاً عجوزاً على جانب كبير من طيبة القلب. وقد راح بعد أن حرك النار في مدفأة غرفة المجمع، يتلفت إلى أرفف السجلات باحثاً عن سجل معين. ولما عثر عليه، تناوله وراح يقلب صفحاته ثم قال:

- ها هو ذا.. إنك هنا سوف تجدين نفسك ضخمة كالحياة: إيمي ابنة ويليام وفاني دوريت. ولدت بسجن مارشاليزا، التابع لأبرشية سانت جورج. وسوف نقول للعالم إنك عشت هناك دون أن تغيبي عنه يوماً واحداً. أليس هذا حقاً؟

- أجل. إلا أمس.

- عجباً.. !

ثم أردف قائلاً وهو يرمقها بنظرة لا تخلو من الإعجاب بذكائها:

- يؤسفني، مع هذا، أن أراك على هذا النحو من الإرهاق والشعور بالبرد، انتظري لحظة. لسوف آتي ببعض الوسائد والحشايا من

داخل الكنيسة ويمكنك أن ترقدي عليها مع صديقتك أمام المصطلى. واطمئني إلى أنك ستعودين إلى أبيك بمجرد أن تفتح البوابة. لسوف أوقظك عندئذ.

وسرعان ما أحضر الوسائد والحشايا ونثرها على الأرضية وهو يقول:

- عظيم جداً، ورائع كالحياة. أوه، لا داعي للشكر. إن لدي بنات مثلك، ورغم أنهن لم يولدن في سجن مارشاليزا، إلا أنه كان من الممكن أن يحدث هذا لو أني تصرفت في الحياة كما تصرف والدك. انتظري لحظة، يجب أن أضع شيئاً تسندين عليه رأسك. ها هو ذا سجل الوفيات.. إنه جد مناسب! إن اسم السيد بانجام الراحلة في هذا السجل. إلا أن الشيء الذي يجعل مثل هذا السجل مثيراً ليس ما فيه من أسماء، وإنما ما سوف يسجل فيه من أسماء. من سيأتي عليه الدور، ومتى! هذا هو السؤال المثير.

وبعد أن ألقى نظرة إلى السجل الذي جعل منه مسنداً للرأس، انصرف عنهما لتناما ساعة. وكانت ماجي قد أخذت تغط فعلاً، وسرعان ما استغرقت دوريت الصغيرة في النوم أيضاً ورأسها مسندة على ذلك السجل المغلق، سجل القدر، دون أن يزعجها ما فيه من صفحات لا تدري ما خبئ لها فيها! تلك كانت حفلة دوريت الصغيرة التي كانت عناصرها؛ العار، والعزلة، والبؤس، والتشرد في المدينة الواسعة، ثم الرطوبة والبرد والساعات البطيئة، والسحب الهاربة والليل الكئيب، هكذا كانت الحفلة التي انصرفت عنها دوريت الصغيرة عائدة إلى بيتها في السجن، مرهقة، مع أولى طلائع نهار مكسو بالضباب والمطر..

*　*　*

السيدة فلنتونش ترى حلما آخر



كان البيت القديم الهزيل في قلب المدينة، المكسو برداء من السناج، والمتساند بكل ثقله على دعامات شاركت في هزاله وبليت معه، لم يشهد في حياته فترة بهيجة ممتعة أياً كانت صروف الحياة. وإذا كانت الشمس تلمسه يوماً، فإنها تلمسه بشعاع باهت لا يلبث أن يختفي بعد نصف ساعة، وإذا كان ضوء القمر ينساب عليه، فإنها ليضيف إلى كسائه القذر بعض الرقع لكي يبدو أشد بؤساً وتعاسة. وكانت الأنجم، على وجه اليقين، ترقبه ببرود في الليالي التي تصفو من سحائب الدخان، أما جميع أنواع الطقس الرديء، فكانت تقف بجانبه في إخلاص نادر، ومن ثم فلا بد لك أن ترى ألواناً من المطر والبلل والصقيع والثلوج لا تزال تتلكأ في داخله الكئيب عندما تختفي من الأماكن الأخرى. بل يمكنك أن ترى ندف الثلوج باقية فيه لمدة أسابيع بعد أن تتحول من الصفرة إلى السواد وهي تذيب بالدموع حياتها القذرة، ولم يكن إلى جوار هذا المكان أي مكان آخر. أما ضجيج الشوارع وقعقعة عجلات المركبات التي تنفلت في الحارة أمام البوابة في رواحها وغدوّها، فكانت تجعل مربية البيت السيدة آفري التي ترهف السمع دائماً كأنها صماء، تسترد قدرتها على السمع في لحظات خاطفة. وكذلك كان الأمر مع الصفير والغناء والحديث والضحك وجميع الأصوات الإنسانية البهيجة. لقد كانت هذه كلها تسمع لحظة، ثم تمضي في طريقها.

وكان اختلاف الضوء بين نيران المدفأة ونور الشموع في غرفة السيدة كلينام هو التغير الوحيد الذي يخفف من الرتابة القاتلة في محيط الغرفة. وكان ضوء نيران المدفأة يسطع في تمرد على النافذتين الضيقتين المستطيلتين ليلاً ونهاراً بلا انقطاع. وفي أحيان نادرة كان يثور فجأة بعنف، كما تفعل هي؛ ولكنه في معظم الأحيان كان مكبوتاً -مثلها- يجتر نفسه في بطء واطراد. وفي أثناء ساعات كثيرة من نهار الشتاء القصير، عندما ينتشر شفق الغروب مبكراً، كنت ترى على الجدار القائم بجوار البوابة، خيالات ملتوية للسيدة كلينام وهي على مقعدها المتحرك، وللسيد فلنتونش بعنقه المائل، ولزوجته آفري وهي تروح وتجيء، وكأنها، أي هذه الخيالات، ظلال منسابة من مصباح سحري. على أن هذه الخيالات لا تلبث حتى تتلاشى تدريجياً عندما تتأهب المريضة السجينة في غرفتها للنوم. وكان خيال آفري المكبَّر هو الذي يتلاشى في النهاية دائماً حتى يختفي تماماً في الهواء وكأنها انطلقت هي في رحلة مسحورة. وعندئذ يظل نور القنديل مضاء في وحدته طيلة الليل، حتى يشحب قبيل الفجر. ثم يموت تحت أنفاس آفري عندما يسقط ظلها عليه بعد عودتها من منطقة النوم السحرية.

ترى لو أن نيران المدفأة في غرفة المريضة القعيدة كانت في الواقع ناراً هادية، تضيء الطريق لشخص ما، ولعله آخر شخص ينتظر وصوله، إلى تلك البقعة من العالم؛ ولو أن النور في غرفة المريضة القعيدة، كان في الواقع نور فنار، يضيء المكان، في كل ليلة حتى يقع الأمر المقدر له الوقوع، فمن يكون من بين هذا الحشد الكبير من الرحالين المسافرين تحت الشمس والنجوم، الصاعدين التلال المغبرة، الكادحين سيراً في السهول المرهقة، المسافرين عن طريق البر، وعن طريق البحر، الغادين والرائحين ليتلاقوا، وليتعامل بعضهم مع بعض.. فمن من بين هذا الحشد هم المتجهون نحو ذلك المكان دون أن يدروا شيئاً عما ينتظرهم في نهاية الرحلة!

لسوف يكشف لنا الزمن هذا. سوف يكشف لنا الزمن بمفارقاته العجيبة مصير كل مسافر من هذا الحشد على الطريق العام الطويل، وسيبيّن من منهم سيصل إلى مركز الشرف، أو إلى مركز العار، إلى منصب القيادة، أو منصب الطبال، إلى رفعة الشأن بحيث ينصب له تمثال في مقابر العظماء بدير وستمنستر أو يواتيه الموت في عرض البحر لتلقى جثته في جوفه، إلى صولجان الحكم أو المصنع، إلى منصة القضاء أو إلى المشنقة، إلى العرش أو المقصلة...

وعند غروب ذات يوم شتاء، رأت السيدة فلنتونش -التي كان النوم يغالبها طيلة اليوم- هذا الحلم:

لقد خيل إليها أنها في المطبخ تعد إبريق الشاي، وتدفئ نفسها وقد جعلت قدميها على سياج المدفأة، وشمرت أطراف ثوبها قليلاً فوق النار الخابية في وسط المدفأة وقد أحاط بها على الجانبين مجريان من الرماد الأسود المتخلف. وظنت أنها، وهي جالسة هكذا تفكر في هذا السؤال: أليست الحياة تبدو في رأي بعض الناس مملة مضجرة، قد فزعت من صوت مفاجئ وراءها؛ وظنت أنها قد شعرت بخوف مماثل ذات مرة في الأسبوع السابق، وأن الصوت كان من لون خفي -صوت ضعيف مصحوب بثلاث أو أربع ضربات متتابعة كأنها خطوات سريعة، وشعرت بقلبها عندئذ ينتفض أو يرتعد وكأنما هذه الخطوات قد هزت الأرضية، بل وكأنما لمستها يد رهيبة. وخطر لها أن هذا قد أثار في قلبها المخاوف القديمة من أن يكون البيت مسكوناً، ومن ثم انطلقت صاعدة على سلم المطبخ -دون أن تدري كيف فعلت هذا- حتى تأتنس بقرب أحد.

وظنت آفري أنها رأت -حين بلغت الردهة- باب مكتب زوجها وسيدها مفتوحاً والغرفة خالية، وأنها سارت إلى النافذة القائمة في الغرفة الصغيرة المجاورة للباب، لتهدئ من مخاوفها عن طريق النظر من خلال

زجاجها إلى المخلوقات الحية التي تسير خارج البيت المسكون، وأنها رأت -على الجدار المواجه القريب من البوابة -خيالي الاثنين البارعين: سيدتها وزوجها- وهما مستغرقان في الحديث بالطابق العلوي؛ وأنها صعدت السلم وحذاؤها في يدها لكي تحتمي بهما من الأشباح من جهة، ولتسمع ما يقولان من جهة أخرى.

قال السيد فلتونش:

- كفى لغواً معي، إنني لم أعد أحتمل هذا منك.

وحلمت السيد فلتونش أنها كانت واقفة وراء الباب المنفرج وأنها سمعت من ثم بوضوح زوجها وهو ينطق بهذه الكلمات الجريئة.

وردت السيدة كلينام بصوتها القوي الخفيض المعتاد:

- فلتونش! إن شيطان الغضب يتقمصك، فكن على حذر منه.

فقال فلتونش:

- لا يهمني إن كان يتقمصني شيطان واحد أو عشرة.

وكانت لهجة صوته وهو يستطرد في الحديث تنم عن أنه كلما زاد عدد الشياطين في نفسه كان ذلك أقرب إلى الحقيقة:

- ولو كان يتقمصني خمسون، فإنهم سوف يقولون لك كفى لغواً معي، فإني لا أحتمل هذا منك، سأجعلهم يقولون هذا سواء أرادوا أم لم يريدوا.

فقالت بصوتها العنيف:

- ماذا فعلت، أيها الرجل الغضوب!

- فعلت؟ لقد انقضضت عليّ.

- إذا كنت تعني أني احتججت عليك..

فقال فلنتونش مصرّاً على عبارته البلاغية بعناد:

- لا تضعي في فمي كلاماً لم أقله. إنني أعني أنك انقضضت عليّ.

فعادت تقول:

- لقد احتججت عليك لأنك..

فصاح فلنتونش قائلاً:

- إنني لا أقل هذا. قلت إنك انقضضت عليّ.

- حسناً، انقضضت عليك أيها الرجل غير المهذب.

وهنا ضحك فلنتونش لأنه أرغمها على التزام عبارته في الحديث، بينما قالت هي مستطردة:

- لأنك كنت متجاوباً في الحديث مع آرثر في ذلك الصباح. ومن حقي أن أحتج على شيء أكاد أعتبره خيانة، وإن كنت طبعاً لم تعن.

فقاطعها فلنتونش المعارِض في جرأة:

- إنني لا أقبل هذا. بل كنت أعني ما قلت.

فقالت بعد برهة بدت فيها غاضبة:

- أعتقد أنه ينبغي أن أدعك تتحدث مع نفسك إذا أردت. إذ لا جدوى من الحديث مع رجل عجوز متهور عنيد مصمم على ألا يسمعني.

- وهذا أيضاً لا أقبله منك، لأنني لا أقصد هذا. وقد ذكرت لك أنني أعني ما قلت. أتريدين أن تعرفي لماذا عنيت هذا أيتها المرأة العجوز المتهورة العنيدة!

فقالت وهي تحاول أن تكبت شعورها بالاستنكار:

- إنك على كل حال تردد كلماتي. حسناً.. لماذا؟

- هذا هو السبب. لأنك لم تبرئي أباه في نظره، وهذا ما كان ينبغي أن تفعلي. كان يجب قبل أن تثرثري عن نفسك..

فصاحت السيدة كلينام بصوت متغير:

- اضغط لسانك يا فلنتونش، حذار أن تزيد كلمة.

وبدا أن ذلك كان رأي الرجل العجوز أيضاً. وساد الصمت برهة، وغيَّر الرجل مكانه في الغرفة، ولما عاد إلى الحديث، كان صوته أكثر رقة:

- كنت أنوي أن أخبرك لماذا. لأنه كان ينبغي عليك -في رأيي- أن تدافعي عن والد آرثر قبل أن تدافعي عن نفسك. والد آرثر! إنني لا أحمل لوالده حباً خاصاً! لقد خدمت عم والد آرثر عندما كان والد آرثر في هذا البيت لا يزيد عليّ شيئاً. بل كان أشد فقراً مني باعتبار ما في الجيب، وعندما كان من الممكن أن أكون وريثاً لعمه، كما كان هو. وكان هو يكاد يموت جوعاً في غرفة الجلوس، وكنت أنا أكاد أموت جوعاً في المطبخ، وكان ذلك هو الفارق الأساسي بيننا. أما سباتنا على السلّم، فكان الفرق بيننا لا يزيد على قيد شعرة؛ والواقع أنني لم أكن أحبه كثيراً في تلك الأيام، بل إنني لم أحبه كثيراً في يوم ما. لقد كان شاباً ضعيفاً متردداً لا شيء في حياته أكثر من أنه عاش يتيماً. ولما جاء بك إلى هنا، أنت الزوجة التي اختارها له عمه، لم أكن بحاجة لكي أعرف من النظرة الأولى إليك - وقد كنت فتاة جميلة يومذاك من منكما سيكون السيد المطاع. لقد اعتمدت على قوتك منذ ذلك الحين، ويجب أن تعتمدي عليها الآن، ولا حاجة بك لأن تعتمدي على الموتى..

- إنني لا أعتمد، كما تقول، على الموتى.

فغمغم فلنتونش قائلاً:

– كان في نيتك أن تفعلي لو أني وافقتك. وهذا ما جعلك تنقضين عليّ لأنك لا تنسين أنني لم أوافقك. وأعتقد أنك دهشت حين رأيتني أهتم بإنصاف والد آرثر، هه! لا يهم كثيراً أن تجيبي لأني أعرف، وأنت تعرفين، أن هذه هي الحقيقة. اسمعي إذن، لسوف أوضح لك الأمر، إنني قد أكون غريب الطباع، ولكن هذا شأني. إنني لا أستطيع أن أترك أحداً يفعل كل ما يريد. وأنت سيدة قوية الإرادة، وذكية، وإذا رأيت الهدف واضحاً أمامك، فلا شيء يثنيك عنه. وليس هناك من يعرف هذا أكثر مني.

– لا أحد يستطيع أن يثنيني عن هدف أعتقد أن له ما يبرره في نظري يا فلنتونش. لا تنسَ هذا.

– له ما يبرره في نظرك؟ لقد قلت إنه لا يوجد على وجه الأرض امرأة أقوى إرادة منك –أو هذا ما أردت أن أقول– وإذا أصررت على أن تبرري في نظرك شيئاً، فلا شك أنك ستفعلين.

فصاحت قائلة في تأكيد عنيف وهي تضرب المائدة بكل ثقل ذراعها:

– إنني أبرر تصرفاتي يا هذا بقوة هذه الدفاتر والسجلات.

فردّ فلنتونش بهدوء:

– لا عليك من هذا. إننا لن نبحث هذا الموضوع في الوقت الحاضر. وأياً كان الأمر، فإنك تحققين أغراضك، وتحطمين كل شيء في طريقها. وأنا لن أتحطم الآن في هذا السبيل. لقد عشت مخلصاً لك، ونافعاً، ومتعلقاً بك. ولكنني لا أقبل، ولا أستطيع أن أقبل، ولن أقبل، ولا يمكن أن أقبل أن تضيعيني أو تأكليني؛ ابتلعي كل شخص آخر؛ وهنيئاً لك، فإن من غرابة طبيعتي أني لا أؤكل حياً!

ولعل أن يكون هذا هو أساس التفاهم المشترك بينهما، ولعل السيدة كلينام، وقد استشعرت قوة شخصية السيد فلنتونش قد رأت أن الوضع جدير بالاتحاد معه.

وقالت هي باكتئاب:

- كفى حديثاً عن هذا الموضوع.

فردّ فلتونش العنيد قائلاً:

- ما لم تنقضّ عليّ مرة أخرى، فلن أعيد الحديث في هذا الموضوع.

وحلمت آفري أن سيدها، بدأ عندئذ، في ذرع الغرفة جيئةً وذهاباً كأنما ليهدئ من أعصابه الثائرة، وإنها من ثم انطلقت عائدة. ولكن عندما رأت وهي واقفة في الردهة القاتمة ترتعد وتسمع برهة أنه لم يخرج من الغرفة، عادت وصعدت متسللة مرة أخرى يحفزها إلى ذلك الخوف من الأشباح، وحب الاستطلاع. وهكذا وقفت مرتعدة مرة أخرى وراء الباب.

وكانت السيدة كلينام تقول له بصوت يدل على رغبتها للعودة إلى الحالة الطبيعية بينهما:

- أرجوك أن توقد القنديل يا فلتونش لقد اقترب موعد الشاي، وإن دوريت الصغيرة في طريقها إلينا ولا ينبغي أن ترى الغرفة مظلمة.

وأوقد فلتونش القنديل بسرعة ونشاط ووضعه على المائدة قائلاً:

- ماذا تنوين أن تفعلي بدوريت الصغيرة، هل ستستمر في حضورها للعمل هنا إلى ما لا نهاية؟ هل ستستمر في الحضور لشرب الشاي هنا إلى ما لا نهاية؟ هل ستظل تأتي وتتصرف هكذا إلى ما لا نهاية؟

- كيف تتحدث عن ما لا نهاية له مع مخلوقة مشوهة الخلقة مثلي؟ ألم نقطع جميعاً كما يقطع العشب من الحقل؟ ألم تحصدني الحياة بمنجلها منذ أمد بعيد؟ منذ متى وأنا مكوّمة هنا في انتظار أن أودع في المخزن؟

- أجل، أجل.. ولكن منذ أن رقدت هنا -وأنت أبعد ما تكونين عن الموت- فإن الحياة حصدت وقضت على كثير جداً من الأطفال

والصغار والنساء في زهرة العمر، والرجال الأقوياء، وغيرهم، ومع ذلك فأنت لا تزالين كما أنت، بلا تغيير، وقد تمتد الحياة أمامي وأمامك كثيراً رغم كل شيء وأنا حين أقول، ما لا نهاية، فإنما أعني «رغم أني لست شاعرياً» طيلة حياتنا.

قال السيد فلتونش هذا بهدوء شديد، وبنفس هذا الهدوء راح ينتظر الإجابة.

– لسوف تستمر دوريت الصغيرة في الحضور إلى هنا ما دامت لطيفة بارعة في عملها، محتاجة إلى هذه المساعدة اليسيرة التي نقدمها إليها.. نعم ستستمر في الحضور على ما أعتقد إلا إذا امتنعت من تلقاء نفسها.

فقال فلتونش وهو يمسح على فمه وذقنه:

– ولا شيء أكثر من هذا؟

فتساءلت بلهجتها التي تمتزج فيها الدهشة بالحزن:

– ماذا هناك أكثر من هذا؟ ماذا يمكن أن يكون أكثر من هذا؟

وحلمت السيدة فلتونش أن فترة مقدارها دقيقة أو اثنتين مرت وهما يتبادلان النظر والقنديل بينهما، وأنها شعرت أن كلًّا منهما يحملق في وجه الآخر بثبات وتركيز.

وسأل زوج آفري بصوت أكثر خفوقاً، ولكنه مفعم أكثر مما ينبغي بمعانٍ لا تتفق مع هذه الكلمات البسيطة:

– هل حدث أن علمت يا سيدة كلينام أين تقيم؟

– لا.

فقال فلتونش فجأة وكأنما هو ينقض عليها:

- أتحبين.. أتحبين الآن أن تعرفي؟

- ولو كان يهمني أن أعرف، لعرفت فعلاً. أليس في مقدوري أن أسألها في أي وقت.

- إذن فلا يهمك أن تعرفي؟

- لا.

فقال السيد فلتونش بلهجة تأكيد وهو يطلق نَفَساً عميقاً له دلالته:

- لقد عرفت أنا، مصادفةً، أين تقيم.

فقالت السيدة فلتونش بصوت جاف ثابت، وبكلمات واضحة متباعدة وكأنما هي تقرأ على مهل في كتاب:

- أياً كان المكان الذي تقيم فيه فقد احتفظت بسره، وسوف تحتفظ به دائماً دوني.

فقال فلتونش بلهجة ملتوية، وكأنما خرجت الكلمات من شفتيه على هيئته العجفاء الملتوية:

- لعل من الأفضل ألا تعرفي الحقيقة على أي حال.

فقالت السيدة كلينام في تحفز مفاجئ جعل آفري تجفل:

- فلتونش! لماذا تستفزني؟ انظر إلى جوانب هذه الغرفة: إذا كان هناك أي تعويض عن عزلتي هذه الطويلة بين هذه الحدود الضيقة دون أن أشكو؛ وإذا كان هناك أي تعويض عن سجني الطويل في هذه الغرفة محرومة من كل مباهج الحياة.. فإنه جهلي ببعض الأشياء التي قد لا أريد أن أعرف عنها شيئاً. فلماذا تستكثر أنت.. دون الناس جميعاً، هذا عليّ؟

فردّ فلتونش قائلاً:

- إنني لا أستكثره عليك.

- إذن لا تزد في القول.. لا تزد في القول. دع دوريت الصغيرة تحتفظ بسرّها دوني، واحتفظ أنت به دوني أيضاً. دعها تأتِ وتتصرف دون أن يلحظها أحد أو يسألها أحد. دعني أعان، ودعني أنعم بهذا التفريج الذي يمكن أن أنعم به في حالتي هذه. هل هذا كثير حتى تعذبني هكذا كأنك روح شريرة!

- لقد وجهت إليك سؤالاً، هذا هو كل شيء.

- وقد أجبت، فلا تزد في القول.. لا تزد في القول.

وهنا سمعت حركة عجلات المقعد على الأرضية، ثم أعقبها رنين جرس آفري الذي راح يتردد بعنف وسرعة.

وزحفت آفري بعيداً وهي تشعر بالخوف من زوجها أكثر من اهتمامها برنين الجرس الخفي في المطبخ، وكانت تمضي بسرعة وخفة بقدر ما تستطيع ثم هبطت سلم المطبخ بنفس السرعة التي صعدت بها عليه، ثم استأنفت جلوسها أمام المدفأة وقد شمرت أطراف ثوبها مرة أخرى، وأخيراً ألقت بمريلتها فوق رأسها. وصلصل الجرس مرة أخرى، وظل يصلصل، ولكن آفري بقيت مختبئة وراء مريلتها، رغم نداءات الجرس الآمرة. تحاول أن تسترد أنفاسها اللاهثة.

وأخيراً أقبل السيد فلنتونش بخطواته المتثاقلة إلى الصالة وهو يغمغم منادياً طوال المسافة «آفري أيتها المرأة». ثم راح يهبط متعثراً على سلّم المطبخ وآفري لا تزال مختبئة وراء مريلتها، ودخل هو أخيراً والشمعة في يده، ووقف بجانبها، وأزاح المريلة عن رأسها، وأيقظها وعندئذ هتفت قائلة وهي تستيقظ:

- أوه، يا أرميا لقد أزعجتني.

وسألها أرميا فلنتونش قائلاً:

- ماذا كنت تفعلين يا امرأة؟ لقد دقّ جرسك هنا خمسين مرة.

فقالت آفري:

- أوه، يا أرميا، لقد كنت أحلم.

وفيما كان فلنتونش يتذكر حلماً لها سابقاً، رفع الشمعة فوق رأسها وكأنما يفكر في إشعالها هي ليضيء لها المطبخ كله. وأخيراً قال آمراً بابتسامة خبيثة وهو يلكز بقدمه إحدى قوائم مقعد آفري:

- ألا تعرفين أن هذا هو موعد تناولها الشاي؟

- أرميا! موعد الشاي! إنني لا أعرف ماذا دهاني، ولكنني فوجئت بأشياء يا أرميا، قبل أن.. أن أحلم، بحيث أظن أن الأمر كذلك..

فقال السيد فلنتونش:

- تنبهي أيتها الخاملة النعسانة، عن أي شيء تتحدثين!

- عن صوت عجيب، وعن حركة عجيبة، هنا في المطبخ يا أرميا.. هنا.

فقال أرميا:

- فئران، وقطط، وماء أنابيب مثقوبة.

وكانت آفري تنفي كل احتمال من هذه الاحتمالات بهزة من رأسها قائلة:

- لا يا أرميا لقد أحسست بهذا من قبل، وشعرت به في الطابق العلوي، وعلى السلّم ذات مرة وأنا أخرج من غرفتها إلى غرفتنا في سكون الليل، صوت خفيف، ولمسة مرتعدة ورائي.

فقال السيد فلتونش في حزم بعد أن وضع أنفه عند شفتيها ليعرف هل تفوح رائحة الخمر من فمها أم لا:

- آفري يا امرأتي. إذا لم تبادري بإعداد الشاي حالاً، فسوف تشعرين بحفيف وبلمسة تجعلك تطيرين إلى الطرف الآخر من المطبخ.

ودفع هذا التهديد السيدة فلتونش إلى الحركة والنشاط، وإلى الإسراع نحو غرفة السيدة كلينام، ولكنها مع هذا كله بدأت تقتنع تماماً بأن ثمة شيئاً ما رهيباً في البيت، ولهذا لم تعد تشعر قط بالأمن فيه بعد غروب الشمس كما أنها لم تعد تصعد قط السلم أو تهبط عليه دون أن تغطي رأسها ووجهها بمريلتها خشية أن ترى شيئاً.

وكان اجتماع مخاوفها من الأشباح مع أحلامها سبباً لأن تعاني في تلك الليلة لوناً من الفزع العقلي الذي قد تنصرم فترة طويلة قبل أن تكشف هذه القصة أية وسيلة لشفائها منه. وقد بدأت، بسبب عوامل الغموض والإبهام النابعة من تجاربها ومفهوماتها الجديدة، والتي غلفت كل شيء حولها بالغموض والإبهام، أن تغدو هي أيضاً غامضة أمام الآخرين، وأن تصبح معقدة في نظر غيرها ما دامت قد وجدت البيت وما فيه معقداً في نظرها.

ولم تكن قد فرغت بعد من إعداد شاي السيدة كلينام عندما سمعت هذه الطرقة الخفيفة على الباب التي تعلن وصول دوريت الصغيرة.

وأخذت آفري ترنو إلى دوريت الصغيرة وهي تخلع قبعتها اللطيفة في الردهة، وإلى السيد فلتونش وهو يحك فكيه ويتأملها في صمت وكأنما هو يتوقع حدوث شيء عجيب يؤدي إلى فزعها فزعاً شديداً يُخرجها عن طورها، أو ينقض عليهم، هم الثلاثة، فيمزقهم إرباً.

وبعد الشاي، سمعوا على الباب طرقة أخرى تعلن وصول آرثر. وهبطت آفري لتفتح له الباب؛ ولما دخل، قال لها:

- آفري، إنني سعيد إذ أراك على انفراد، فإني أريد أن ألقي عليك سؤالاً.

فأجابت آفري فوراً:

- أرجوك بحق الله ألا تسألني عن شيء يا آرثر! فإني أكاد أفقد نصف حياتي خوفاً، وتكاد الأحلام المزعجة تفقدني النصف الآخر. فلا تسألني عن شيء، لأني لا أعرف هذا من ذاك، ولا هاتيك من تلك.

ثم بادرت بالابتعاد، ولم تحاول الاقتراب منه بعد ذلك.

ولم يعد لآفري ميل إلى القراءة، وكان الضوء الخافت في الغرفة لا يتيح لها العمل في شغل الإبرة على فرض أن لها رغبة فيه، ومن ثم شرعت في كل ليلة تجلس في ذلك الجو الخافت الضوء، الذي خرجت منه مؤقتاً في ليلة وصول آرثر من الخارج، وكان ذهنها في أثناء جلوسها يزدحم بمختلف التصورات والشكوك عن سيدتها وزوجها والأصوات الخفية في البيت. عندما تستبد بها المخاوف، توجه هذه التصورات أنظارها نحو الباب، وكأنها تتوقع ظهور شبح أسود في تلك اللحظات العصيبة لكي يزيد عدد الموجودين في البيت واحداً.

وفيما عدا هذا، كانت آفري حريصة على ألا تقول أو تفعل شيئاً يلفت انتباه الاثنين البارعين إليها بأي شكل، وذلك فيما عدا بعض المناسبات المعينة التي تقع، عادة، في وقت الاستعداد للنوم، وذلك عندما كانت تنفلت فجأة من ركنها المظلم وتهمس بوجه كله الفزع لزوجها السيد فلتونش الجالس يقرأ صحيفة بجوار مائدة السيدة كلينام.

- ها هو ذا يا أرميا، الآن؟ ما هذا الصوت؟

وعندئذ يختفي الصوت، إن كان قد حدث صوت حقاً، ويكشر السيد فلتونش عن أنيابه وهو يستدير نحوها وكأنها انقضت عليه في تلك اللحظة على حين غرة منه، ثم يقول:

- آفري، أيتها المرأة العجوز، لسوف أعطيك جرعة منومة، أيتها المرأة العجوز، جرعة منومة كبيرة! إذ يبدو أنك تحلمين مرة أخرى.

* * *

ليست ضعفا من أحد

عندما حان الوقت لتجديد التعرف بآل السيد ميجلز، قرر السيد كلينام حسب الاتفاق الذي تم بينه وبين السيد ميجلز داخل حوش «بليدنج هارت» أن ييمم وجهه -في يوم سبت- شطر توتيكنهام حيث كان السيد ميجلز يقيم في دار صغيرة يمتلكها. ولما كان الجو لطيفاً صافياً، ولما كان السير في الطرقات الإنكليزية يعتبر متعة بعد غيبته الطويلة، فقد أرسل حقيبة سفره في مركبة، ومضى هو إلى غايته سيراً على الأقدام. وكان المسير في ذاته متعة بالنسبة له، وشيئاً قلما أسعد حياته منذ أمد بعيد.

وسار عن طريقي فولام وبونتي التماساً لبهجة المشي في المروج. وكان الجو صافياً مشرقاً هناك، حتى إذا رأى أنه قد قطع مسافة طويلة في الطريق إلى توتيكنهام، وجد نفسه يمر على كثير من الاستراحات اللطيفة المقامة في الهواء الطلق، وكانت تظهر أمامه متتابعة سريعة في أثناء سيره الممتع البهيج. كما أنه لم يكن من السهل على الإنسان أن يسير بمفرده في طريق زراعي طويل دون أن يفطر في شيء ما. وكان لديه كثير من الأمور التي لم يستقر رأيه على شيء منها، والتي يمكن أن تدور حولها أفكاره رغم أنه كان في طريقه إلى آخر الأرض!

وكان الأمر الأول الذي لم يكن يغيب عن ذهنه قط يدور حول هذا السؤال. ماذا سوف يفعل منذ الآن في الحياة؟ وأي عمل ينبغي أن

يكرس نفسه للقيام به، وفي أي مكان يحسن أن يبحث عنه. إنه أبعد ما يكون عن الثراء، وإن الأيام التي يقضيها في التردد والتعطل تجعل ميراثه سبباً من أسباب شعوره الدائم بالقلق، وكان كلما فكر في كيفية تنمية هذا الميراث، أو في المحافظة عليه، خامره الشعور بأن هناك إنساناً مظلوماً يطالبه بالإنصاف. وكان ذلك وحده موضوعاً يمكن أن يشغل تفكيره أطول مسافة ممكنة. ثم هناك موضوع علاقته بأمه التي أصبح يراها بضع مرات في الأسبوع بعد أن استقرت العلاقة بينهما على أسس من المهادنة والسلام وإن بقيت أبعد ما تكون عن الثقة المتبادلة. وكانت دوريت الصغيرة موضوعاً هاماً أساسياً. إذ أن ظروف حياته هذه، مع امتزاجها بقصة حياتها قد جعلت الصغيرة الإنسانة الوحيدة التي تجمع بينه وبينها روابط من الاعتماد البريء عليه من ناحيتها والرعاية العطوف لها من ناحيته! أو بمعنى آخر، روابط من الحنان والاحترام والاهتمام والعطف والعرفان بالجميل. وكان وهو يفكر فيها، وفي احتمال خروج أبيها من السجن على يد الموت، يرى أن التغيير الوحيد الذي يمكن أن يتنبأ به، والذي قد يمكنه من أن يحيطها بهذا اللون من الصداقة التي يريدها، هو أن يبدل طريقة حياتها كلها، وأن يمهد لها الطريق، وأن يعد لها بيتاً؛ إذ كان يراها من هذه الناحية كطفلة تبناها، وهيأ لها -وهي ابنة سجن مارشاليزا- المأوى الذي تستقر فيه أخيراً. وإذا كان تبقى أمر أخير يشغل أفكاره ويدور حول توتيكنهام، فإنه يبدو أكثر غموضاً في ذلك الأفق الذي تسبح فيه الموضوعات الأخرى أمام بصيرته.

وكان قد عبر منطقة المروج وخلفها وراءه عندما لحق بشخص أن يتقدمه بعض الوقت، وكان يعتقد، عندما اقترب منه، أنه يعرفه. وكان قد استمد هذا الاعتقاد من شيء في استدارة رأسه، وفي حركاته التي تنم عن الحذر في أثناء سيره الخبب. ولكن عندما دفع الرجل -إذ كان رجلاً-

بقبعته إلى مؤخرة رأسه، ووقف يتأمل شيئاً ما أمامه، عرف كلينام أنه دانييل دويس، فقال له وهو يلحق به:

- كيف حالك يا سيد دويس. إني سعيد إذ أراك مرة أخرى، وفي مكان ألطف من إدارة الشؤون العامة.

فقال دانييل -المجرم في نظر إدارة الشؤون العامة- وهو يفيق من بعض العمليات الذهنية التي كان مشغولاً بها، باسطاً يده للمصافحة.

- ها! صديق السيد ميجلز! إني سعيد برؤيتك يا سيدي. وإني لجد آسف إذ نسيت اسمك.

- لا عليك. إنه ليس اسماً مشهوراً. ليس من أسماء آل بارناكل.

فقال دانييل ضاحكاً:

- لا لا. إنني الآن أتذكره. إنه كلينام. كيف حالك يا سيد كلينام؟

وفيما هما يسيران معاً، قال آرثر:

- إنني آمل أن نكون سائرين إلى مكان واحد يا سيد دويس.

فردّ دانييل قائلاً:

- أتعني توتيكنهام؟ إنني سعيد بهذا.

وسرعان ما جمعت بينهما الألفة التي أضاءت طريقهما بألوان مختلفة من الأحاديث. وكان السيد دويس رجلاً عظيم التواضع، موفور الحكمة، ورغم أنه كان يبدو إنساناً عادياً، إلا أنه اعتاد كثيراً أن يجمع بين كل مفهوم أصيل مبتكر مع كل ما يحتاج إلى الدقة والصبر عند التنفيذ، بحيث أصبح في الحقيقة أبعد ما يكون عن الإنسان العادي. وكان من العسير في أول الأمر إغراءه بالحديث عن نفسه، وقد استجاب لرغبات

آرثر في هذه الناحية بقوله في تواضع إنه، نعم، قد فعل هذا، أو فعل ذاك وأن هذا الشيء من صنعه وأن ذاك الشيء الآخر من اختراعه؛ ولكن هذه كما ترى مهنته.. مهنته! وظل هكذا حتى تأكد، تدريجياً، من أن صاحبه مهتم حقاً بأمره، فراح يتحدث عن نفسه بصراحة ووضوح. وهنا تبين أنه ابن حداد من أحد الأقاليم الشمالية، وأن أمه الأرملة ألحقته للعمل مع صانع أقفال ليتتلمذ على يديه، وأنه استطاع أن «يبتكر بعض التحسينات الطفيفة» في صناعة الأقفال مما أدى به إلى التحرر من ربقة العقد الذي يربطه بمعلمه، والحصول على مكافأة مالية أتاحت له الفرصة ليرضي رغبته العارمة لكي يلتحق بالعمل تحت إشراف مهندس. وقد ظل سبع سنوات وهو يكدح في العمل، ويكدح في التعليم، ويكدح في سبيل العيش. ولما انتهت هذه الفترة، اشتغل فترة أخرى مقدارها سبع أو ثماني سنوات في «داخل المصنع» نظير أجر أسبوعي. وبعد ذلك التحق بمصانع وشركات كلايد حيث استزاد من العمل، عملياً ونظرياً، لمدة ست أو سبع سنوات أخرى. وهناك عرض عليه أن يذهب إلى ليون، فقَبِلَ العرض، ثم التحق بعد ليون بالعمل في ألمانيا؛ وهناك عرض عليه أن يعمل في مدينة بطرسبرج الروسية التي أحسن فيها العمل حقاً، وبلغ فيها ما لم يبلغه من قبل، ولكنه مع هذا كان يفضل بطبيعة الحال، أن يعمل في وطنه، وأن يرتفع شأنه فيه، وأن يؤدي له ما يمكن من خدمات كان يؤديها في أماكن أخرى. وهكذا عاد للعمل في وطنه، وظل يخترع، وينفذ اختراعاته ويواصل العمل حتى أدرج اسمه -بعد اثنتي عشرة سنة- في قائمة الشرف البريطانية؛ وهي نفسها قائمة المطرودين من رحمة إدارة الشؤون العامة. كما نال وسام الجدارة البريطاني، وهو نفس الوسام الذي يثبت عدم جدارة آل بارناكل وآل ستلستوكنجز.

وقال السيد كلينام:

- إنه من دواعي الأسف الشديد يا سيد دويس أن تضطر للالتجاء إلى تلك الإدارة.

- أجل يا سيدي، أجل.. هذا حق. ولكن ماذا في وسع الإنسان أن يفعل إذا شاء سوء حظه وابتكر شيئاً نافعاً لبلاده، فلا مناص له من مواصلة الجهاد في سبيله.

فسأله كلينام قائلاً:

- ألم يكن من الأفضل أن ينفض يده منه؟

فهز السيد دويس رأسه وقد ارتسمت على فمه ابتسامة تفكير:

- إنه لا يستطيع. إن الاختراع لم يولد في ذهنه لكي يُدفَن فيه. لقد وُلِد في ذهنه ليكون نافعاً. لقد وهبنا الحياة لكي نستميت في الدفاع عنها وعلى هذا النحو يستميت كل مخترع في الدفاع عن اختراعه.

فقال آرثر وهو يزداد إعجاباً بصاحبه الرزين:

- هذا يعني أنك لم تيأس حتى الآن.

فردّ الآخر قائلاً:

- ليس من حقي أن أيأس حتى لو خطر اليأس لي.

ولما سارا بعض الوقت في صمت، رأى كلينام أن يغير موضوع الحديث، ولكن تدريجياً، فسأل السيد دويس ما إذا كان لديه شريك يخفف عنه بعض متاعبه، فردّ صاحبه قائلاً:

- لا، ليس الآن. لقد كان لي في أول الأمر، وكان شريكاً طيباً. إلا أنه مات منذ سنوات. لما لم يكن من السهل أن أجد غيره بعد أن فقدته، اشتريت حصته لنفسي، وحملت العبء كله بمفردي، ثم هناك أمر آخر.

ثم توقف برهة وقد أطلت من عينيه ضحكة مرحة، ووضع قبضة يده اليمنى بإبهامه العجيب في مرونته على ذراع كلينام وقال:

- والمعروف أن المخترع لا يستطيع أن يكون رجل أعمال في نفس الوقت.

فسأله كلينام قائلاً:

- أحقاً؟

فأجاب دويس وهو يستأنف المسير ضاحكاً:

- أجل! هكذا يقول رجال الأعمال. ولست أدري لماذا ينظر إلينا نحن المخلوقات البائسة على أننا نفتقر إلى التفكير السليم. ولكن هكذا يأخذون الأمر قضية مسلَّمة بصفة عامة. بل إن أعز صديق لي في الحياة، وهو صديقنا المقيم هناك.

ثم أشار دويس نحو توتيكنهام وأردف قائلاً:

- يبسط عليّ نوعاً من الحماية، كما تعلم، وكأنما أنا إنسان عاجز عن حماية نفسي.

ولم يتمالك آرثر نفسه من الاشتراك معه في ضحكة مرحة، لأنه أدرك مبلغ ما في أقواله من حقيقة.

واستطرد دويس قائلاً وهو يرفع قبضته ويمر بيده على جبينه:

- ولهذا ينبغي أن أبحث عن شريك يكون من رجال الأعمال، ولا يكون موصوماً بالقدرة على الاختراع. وأريد هذا فقط مجاراة للرأي العام؛ وليتولى استثمار الاختراع. وأعتقد أنه لن يجد في قيامي بعمليات التنفيذ أي ارتباك أو اضطراب أو خطأ. ولكن هذا شأنه هو -أياً كان أمره- ليدلي برأيه في الموضوع، وليس شأني.

- كأنك لم تختره بعد؟

- لا يا سيدي، لا. إنني انتهيت فقط إلى قرار بالبحث عن شريك. والواقع أن الأعمال التي تنتظر قيامي بها أكثر مما كانت من قبل. بل إنها تزداد كثرة كلما ازددت عمراً. فهناك الكتب؛ والرحلات إلى الخارج والمراسلات التي لا بد لها من رأس مال. وأنا لا أستطيع أن أقوم بهذا كله. وسوف أتبادل الحديث عن خير طريقة للوصول إلى حل -إذا وجدت نصف ساعة فراغ من الآن إلى صباح يوم الاثنين- مع.. مع القائم على رعايتي وحمايتي..

وضحكت عينا دويس مرة أخرى وهو يستطرد قائلاً:

- إنه رجل حكيم في إدارة الأعمال؛ ولديه خبرة طيبة فيها.

وتحدثا، بعد هذا، عن موضوعات مختلفة حتى وصلا إلى نهاية رحلتهما. وكان الواضح على دانييل دويس أنه هادئ النفس، شديد الثقة بها، مؤمن في هدوء وإدراك تام، أن كل ما هو حق ينبغي أن يبقى حقاً رغم كل آل بارناكل في محيط الأسرة، وأن هذا الحق لا ينبغي التنازل عنه في كثير أو قليل حتى لو جف ذلك المحيط -وهذا في ذاته شيء عظيم- وإن لم يكن كذلك من الوجهة الحكومية.

ولما كان دويس يعرف المنزل جيداً؛ فقد صحب آرثر إليه من أقصر وأيسر طريق. وكان بيتاً لطيفاً وإن كان غريباً بعض الشيء قائماً على الطريق بجوار النهر، ويرمز تماماً للمسكن الذي ينبغي أن تقيم فيه عائلة ميجلز. كان قائماً في وسط حديقة لا شك في أنها تبدو ناضرة مزهرة في الربيع كما تبدو «بِيت» الآن في ربيع عمرها؛ وكان محاطاً بخمائل جميلة من الأشجار التي تبسط عليه ظلالها الخضراء كما كان والدا «بيت» يبسطان عليها ظل حنانهما. وكان في الأصل بيتاً كبيراً قديماً من الآجر، هُدِم جزء

منه، وتحول الجزء الباقي إلى هذه الدار الصغيرة؛ وهكذا نجد جانباً قديماً منه يرمز للوالدين السيد والسيدة ميجلز، وجانباً جديداً جميلاً يرمز لابنتهما بيت. بل كان هناك أيضاً ذلك البناء الذي أضيف إليه أخيراً، بناء المخزن الذي كان محتمياً بالبيت؛ جانب منه قاتم الزجاج حائل اللون، وجانب آخر شفاف يعكس أشعة الشمس فتبدو حيناً كوهج النار، وحيناً تبدو وادعة كقطرات الماء، وكأنه أقيم لسكنى تاتيكورام. وعلى مرمى البصر كان النهر الوادع وعبّارة، وكأنهما هما الحياة حين تعظ أهلها قائلة: أيها الصغار والكبار؛ أيها الثائرون والهادئون، أيها المولولون والقانعون: هكذا يجري التيار دائماً عاماً بعد عام، والزورق يطفو عليه دائماً، والمياه الزائفة تقبل جوانبه، والتيار ينطلق أميالاً كثيرة في كل ساعة، نبات المسار هنا، وزهور الزنبق هناك ولا شيء هنا أو هناك مضطرب أو غير مستقر في هذا الطريق الممتد إلى النهاية. هذا بينما أنتم أيها السابحون في تيار الزمن، تبلغون هذا المدى من التقلب والضياع.

لما كاد جرس البوابة يصلصل حتى أقبل السيد ميجلز لاستقبالهما. وما كاد السيد ميجلز يقبل حتى أقبلت السيدة ميجلز، وما كادت السيدة ميجلز تقبل، حتى أقبلت ابنتهما بيت، وما كادت بيت تقبل حتى أقبلت تاتيكورام. والواقع أنه لم يحدث أن تلقى زائرون مثل هذا الترحاب.

وقال السيد ميجلز لآرثر كلينام:

– ها نحن أولاء كما ترى مكدسين داخل حدود بيتنا، وكأننا لن نتمرد قط.. أعني نسافر مرة أخرى. ما أشد اختلاف الحال هنا عن مرسيليا إذ ليس هنا ضجيج أو عجيج!

وتلفت كلينام حوله ثم قال:

– حقاً إنني أرى هنا لوناً مختلفاً من الجمال.

وصاح السيد ميجلز وهو يفرك يديه بحماسة:

- ولكن، ليباركني الله، لقد كانت فترة وجودنا في المحجر الصحي هناك ممتعة، أليس كذلك؟ أتصدق أنني أتمنى لو عدت إلى هناك مرة أخرى، لأننا كنا جماعة رائعة.

وكانت تلك طبيعة السيد ميجلز التي لا تتغير، دائماً يعترض على كل شيء في أثناء السفر، ودائماً يتمنى ما كان يعترض عليه عندما لا يكون مسافراً.

وعاد السيد ميجلز يقول:

- لو أننا في فصل الصيف، وهذا ما كنت أتمناه لك حتى ترى المكان في أحسن حالاته، لما كان في مقدورك تقريباً أن تسمع نفسك وأنت تتحدث بسبب كثرة الطيور. ولما كنا أناساً واقعيين، فإننا لا نسمح لأحد بإزعاج الطيور، ولما كانت الطيور هي أيضاً واقعية، فإنها تأتي إلينا بالآلاف المؤلفة. إنني سعيد برؤيتك يا كلينام، وأرجو أن تسمح لي برفع الرسميات بيننا، أؤكد لك من قلبي أننا سعداء برؤيتك.

فقال كلينام:

- إنني لم ألقَ من قبل مثل هذا الترحيب الجميل..

ثم تذكر ما قالته له دوريت الصغيرة في غرفته، فأضاف قائلاً بإخلاص:

- إلا مرة واحدة، منذ كنا نسير معاً آخر مرة على شرفة المحجر الصحي ذهاباً وإياباً ونحن نطل على البحر الأبيض المتوسط.

فقال السيد ميجلز:

- آه! كان ذلك شيئاً رائعاً، أليس كذلك؟

وبعد أن أسبغ السيد ميجلز هذا اللون من المديح غير المباشر على مكان إقامته هذا، هز رأسه وتقدم الجميع نحو المنزل. وكان من ناحية المساحة مناسباً للأسرة لا أكثر، ومن الداخل كان -كالخارج- لطيف الشكل، حسن الترتيب مريحاً. وكان ثمة دلائل على حب الأسرة للترحال والسفر، تبدو في الأثاثات المغطاة، والستائر المسدلة؛ ولكن كان من السهل أن يلاحظ الإنسان أن من بين نزوات السيد ميجلز أن يظل البيت في أثناء غيبة الأسرة كما لو أنهم عائدون إليه في غداة اليوم التالي. أما الأشياء التي جمعها في أثناء رحلاته الكثيرة، فكانت متباينة الأنواع والأشكال بحيث لاح البيت كأنه مسكن قرصان لطيف. كان من بينها تحف من أواسط إيطاليا ومن صنعة أحدث المصانع التي تخصصت في هذا النوع. وأجزاء من موميات واردة من مصر -وربما من برمنجهام أيضاً!- ونماذج لقوارب الجندول من البندقية، ونماذج للقرى في سويسرا. وقطع من حفائر مستخرجة من معبد هرقل أو مدينة بومبي، وكأنها قطع من اللحم المفروم المحنط، ورماد من المقابر، ومواد منصهرة من بركان فيزوف ومراوح من إسبانيا وقبعات خوص من سبيزا، ونِعال من مراكش، ودبابيس شعر من توسكانايا وتماثيل من كارارا وطيلسانات من تراستافريني وقطع من المخمل والمخرمات من جنوا، وحجارة مرجانية من نابلي، وتحف من روما، وحلي من جنيف، ومصابيح عربية، ومسابح باركت كل حباتها أصابع البابا نفسه وأنواع لا حصر لها من سقط المتاع. وكان ثمة مناظر -متشابهة وغير متشابهة- لعدد كبير من الأماكن، وقد خصص السيد ميجلز غرفة صغيرة جمع فيها صور عدد من القديسين القدماء المعروفين بعروق نافرة كحبال الجلد وشعور كشعور الإله نبتون، وغضون كأنها الوشم، وملابس ذات ألوان صارخة كأنها صُنِعت لتكون مصائد لذباب. وكان السيد ميجلز يتحدث عن هذه المجموعة المصوَّرة بأسلوبه المعتاد. إنه كما قال ليس خبيراً إلا فيما يسر

نفسه، وأنه التقطها بأثمان زهيدة ثم قرر الذين رأوها أنها جميلة جداً. وقد قال أحدهم -وكان على أية حال ملماً بالموضوع- إن صورة «الحكيم يقرأ» -وكانت لوحة زيتية لعجوز يلتحف ببطانية، وتتدلى من وجهه لحية كريش البجع، وتنتشر عليه شبكة من الغضون والتجاعيد- قال إنها من رسم الفنان جيركينو. أما اللوحة المرسومة بريشة سيباستيان ديل بيومبو، فيمكنك أن تحكم عليها بنفسك لترى أنها إذا لم تكن بأسلوبه الحديث، فمن إذن يكون راسمها؟ أما لوحة تيتيان، فربما تكون بريشته، وربما لا تكون، ولكن لعله رسم خطوطها. ولما قال دانييل دويس إنه ربما لم يفعل هذا، تظاهر السيد ميجلز بأنه لم يسمعه.

وبعد أن أطلعهما السيد ميجلز على جميع مقتنياته -أو غنائمه- مضى بهما إلى غرفته الخاصة المطلة على ممر الحديقة، والتي كانت بمثابة غرفة لارتداء الملابس من جهة، وللمكتب من جهة أخرى، وكان في جانب منها، على منضدة، ميزان نحاسي لوزن الذهب، وفتحة زجاجية لدفع النقود منها إلى العملاء.

وقال السيد ميجلز مشيراً إلى الميزان والفتحة الزجاجية:

- أترنيان؟ هنا، وراء هذين وقفت خمسة وثلاثين سنة متوالية، عندما كنت لا أفكر في الترحال كما أفعل الآن، وإنما في البقاء دائماً بالبيت. ولما تركت عملي بالبنك نهائياً، طلبت أن أحتفظ بهما.. بالميزان والفتحة الزجاجية، على سبيل التذكار. وأنا أقول هذا الآن حتى لا يظن أحدكما أنني ما زلت أستغلهما للعمل «كما تتهمني بيت بذلك» وكأني مثل الملك في قصيدة العصافير الأربع والعشرين لا أكف عن عد أموالي.

وكانت نظرات كلينام قد شردت إلى صورة طبيعية لطفلتين صغيرتين كل منهما لفّت ذراعها على ذراع الأخرى. وعندئذ قال السيد ميجلز بصوت خفيض:

- أجل يا كلينام، إنهما ابنتاي التوأمان. وقد التقطت لهما هذه الصورة منذ سبعة عشر عاماً؛ أي عندما كانتا طفلتين صغيرتين كما أقول دائماً لأمهما.

فقال آرثر:

- وما اسمهما؟

- آه، طبعاً. إنك لم تسمع إلا اسم بيت. إن بيت اسمها ميني، واسم أختها ليللي.

وعندئذ قالت بيت وهي واقفة في مدخل الغرفة:

- أتصدق يا سيد كلينام أن واحدة من هاتين الطفلتين هي أنا؟

فقال آرثر وهو ينتقل بعينيه من الصورة إلى الأصل:

- يمكن القول إن الطفلتين هما أنت.. فإن الشبه بينك وبينها واضح حتى الآن. بل إني لا أستطيع أن أعرف أيهما أنت.

فهتف السيد ميجلز قائلاً لزوجته التي جاءت وراء ابنتها:

- أسمعت هذا أيتها الأم؟ هكذا الأمر دائماً يا كلينام. فإن أحداً لا يستطيع أن يميز بينهما. إن الطفلة التي على يسارك هي بيت.

وحدث أن كانت الصورة بجوار مرآة، فلما أعاد كلينام النظر إليها، رأى في أديم المرآة انعكاس الفتاة تاتيكورام وهي تمر أمام الباب، ثم تتوقف لكي تنصت إلى ما يقال، ثم تمضي في طريقها وقد استمرت على وجهها أمارات من الغضب والاحتقار حوّلت جماله إلى دمامة.

وقال السيد ميجلز:

- ولكن هيا بنا، لقد سرت مسافة طويلة، ولا شك أنه يسرك أن تخلع حذاءك. أما دويس، فأعتقد أنه لا يفكر أبداً في خلع حذائه إلا إذا قدمنا له «الشبشب».

فقال دانييل وهو يبتسم لكلينام ابتسامة لها مغزاها:

- ولِمَ لا؟

فقال ميجلز وهو يضربه مداعباً على كتفه وكأنما يرى ألا يتركه لسذاجته:

- إن هذا يرجع إلى كثرة ما يشغل تفكيره من أرقام، وعجلات، وتروس وروافع، ولوالب وأسطوانات وآلاف الأشياء الأخرى.

فقال دويس في مرح:

- في مهنتي أن الأكبر ينطوي على الأصغر. ولكن لا بأس، لا بأس! إن ما يرضيك يرضيني.

ولم يسع كلينام إلا أن يفكر، وهو جالس في غرفته بجوار المدفأة، فيما إذا كان في أعماق هذا السيد ميجلز الطيب الأمين العطوف أية ذرة من بذرة حب السيطرة والنفوذ التي أصبحت شجرة في إدارة الشؤون العامة. إن موقفه العجيب المنطوي على الترفع والتعالي نحو دانييل دويس؛ هذا الموقف الذي لا يقوم على أساس من ضعف شخصية دويس، وإنما لأن الرجل نابغة يختلف عن غيره من الرجال العاديين؛ هذا الموقف يوحي بذلك الاحتمال. ولعل هذه الفكرة كانت ستبقى شاغلة ذهن كلينام حتى يهبط في موعد العشاء فيما بعد لولا أن كان هناك موضوع آخر يستلزم التفكير فيه، وكان يشغل ذهنه منذ أمد بعيد، حتى قبل أن يحتجز في المحجر الصحي بمرسيليا، ثم عاد يراوده الآن؛ وبقوة. وكان الموضوع يتركز في هذا السؤال: هل يسمح لنفسه بالوقوع في حب بيت!

إن عمره ضعف عمرها، وغيَّر وضع ساقه التي كان يضعها على الأخرى وحاول أن يعيد نسبة عمريهما مرة أخرى، ولكنه لم يستطع أن يجعل النسبة أقل من هذا. نعم، إن عمره ضعف عمرها. حسناً! ولكنه شاب في مظهره، وشاب في سلامة جسمه وفي حيويته، وشاب في أعماق قلبه. إن الرجل، يقيناً لا يكون عجوزاً في سن الأربعين، وإن ظروف كثير من الرجال لم تتح لهم الظروف أن يتزوجوا -أو هم لم يتزوجوا طواعية- حتى بلغوا هذه المرحلة من العمر. ولكن المشكلة من ناحية أخرى ليست فيما يراه هو، وإنما فيما تراه هي.

وكان يؤمن في قرارة نفسه أن السيد ميجلز ينظر إليه في تقدير واحترام. وهو في الوقت نفسه يعرف أنه يحمل كل تقدير واحترام للسيد ميجلز وزوجته الكريمة. وكان في مقدوره أن يتصور أن عملية تقديم هذه الطفلة الجميلة الوحيدة التي يحبانها كل هذا الحب، إلى زوج أياً كان، ستكون محنة قاسية لحنانهما وحبّهما لعلهما لم يجرؤا بعد على مجرد التفكير فيها. ولكن كلما ازدادت هذه الابنة جمالاً ورقّة وجاذبية، زاد ولا شك الاحتمال في وجوب تفكيرهما في هذا الموضوع. فلماذا لا يكون تفكيرهما في صالحه، كما قد يكون في صالح غيره!

ولما وصل إلى هذه المرحلة من التفكير، عادت إلى ذهنه تلك الفكرة.. وهي أن المشكلة ليست فيما يراه الوالدان، وإنما فيما تراه هي.

وكان كلينام رجلاً منطوياً على نفسه، يخامره الشعور بالكثير من النقص. ومن ثم راح يبالغ في تصوراته عن روعة ميني، ويحط في تصوراته عن نفسه حتى بلغ به الأمر أن راحت آماله في هذه الناحية تتخلى عنه. وهكذا استقر به الرأي أخيراً، عندما استعد للهبوط إلى العشاء، بألا يسمح لنفسه أن يقع في حب بيت.

كانوا خمسة فقط حول مائدة العشاء المستديرة، وكانت الجلسة ممتعة حقاً لأنه كان هناك الكثير من الأماكن والشخصيات التي تبادلوا الحديث عنها، كما كانت روح الألفة والبِشْر تسودهم، وكان دويس جالساً إما كمتفرج على لعب الورق، وإما مُلقِياً بعبارة عن بعض تجاربه الخاصة إذا اتجه الحديث إليها.

وقال السيد ميجلز بعد أن تحدثوا عن عدد من زملائهم في السفر:

- والآنسة ويد! هل رأى أحدكم الآنسة ويد أو سمع عنها شيئاً؟

وهنا قالت تاتيكورام:

- أنا.

وكانت قد أحضرت رداءً صغيراً طلبته بيت منها، وانحنت عليها لتساعدها على ارتدائه عندما رفعت عينيها السوداوين وألقت بهذه الإجابة المفاجئة:

وهتفت سيدتها الصغيرة بيت قائلة:

- تاتي!! هل رأيت الآنسة ويد! أين؟

فقالت تاتيكورام:

- هنا يا سيدتي.

- كيف؟

وندت عن عيني تاتيكورام نظرة ملول خيّل إلى كلينام أنها تجيب بها قائلة: «بعيني هاتين» ولكنها أجابت بالألفاظ قائلة:

- قابلتها بالقرب من الكنيسة.

فقال السيد ميجلز:

- عجباً! ماذا كانت تفعل هناك؛ لا أظن أنها كانت ذاهبة إليها.

وقالت تاتيكورام:

- كانت قد أرسلت إليّ أولاً خطاباً.

فغمغمت سيدتها الصغيرة قائلة:

- أوه، تاتي ارفعي يديك عني، فإني أحس كأنما يلمسني شخص آخر.

وكانت لهجتها، وهي تقول هذا سريعة، مفاجئة لا إرادية، ولكنها لم تكن مترفعة أو فظة؟ وإنما مجرد لهجة ابنة محبوبة مدللة لا تلبث أن تضحك في اللحظة التالية. وزمّت تاتيكورام شفتيها الحمراوين الممتلئتين بقوة، وعقدت ذراعيها على صدرها، ثم قالت للسيد ميجلز:

- أتريد أن تعرف يا سيدي عن أي شيء كتبت الآنسة ويد إليّ؟

فردّ السيد ميجلز قائلاً:

- حسناً يا تاتيكورام، ما دمت قد بدأ الحديث في هذا الأمر، وما دمنا هنا جميعاً أصدقاء، فلا بأس من أن تذكري ما تريدين إذا كانت هذه رغبتك.

فقالت تاتيكورام:

- لقد عرفت، في أثناء سفرنا، أين تقيم.. وقد لاحظت أنني.. أنني..

فقال السيد ميجلز وهو يهز رأسه متطلعاً إلى تاتيكورام في تحذير خفيف:

- إنك لم تكوني معتدلة المزاج.. تريّثي قليلاً يا تاتيكورام، وعدّي من واحد إلى خمسة وعشرين..

وزمّت شفتيها مرة أخرى، وتنفست بعمق قبل أن تقول:

- كتبت إليّ تقول إنني إذا شعرت بالمذلة والإهانة..

وهنا نظرت إلى سيدتها الصغيرة ثم أردفت قائلة:

- أو أحسستُ بالقلق والاضطراب..

ومرة أخرى نظرت إلى بيت قبل أن تستطرد قائلة:

- فيمكنني أن ألجأ إليها حيث ألقى ما ينبغي من معاملة طيبة. وقد تركتني أفكر في الأمر، ثم أقابلها بجوار الكنيسة. وقد ذهبت لأشكرها.

فقالت سيدتها الصغيرة وهي ترفع يدها إلى كتفها حتى تستطيع تاتيكورام أن تمسك بها:

- تاتي، لقد أفزعتني الآنسة ويد عندما افترقنا آخر مرة، وإني لا أكاد أحتمل التفكير في أنها قد تكون قريبة مني بغير علمي يا عزيزتي تاتي.

ولما وقفت تاتي برهة بلا حراك، هتف بها السيد ميجلز قائلاً:

- هيا يا تاتيكورام! عدّي من واحد إلى خمسة وعشرين.

ولعلها عدّت عشرة عندما انحنت وقبّلت اليد التي كانت تلاطفها وتربت خدّها وتداعب خصلات شعرها الجميلة. وهكذا انصرفت تاتيكورام.

وقال السيد ميجلز وهو يدير إناء السكر نحوه؛ وكان الإناء جزءاً من تمثال زينة صغير يمثل خادم المائدة.

ها هي ذي فتاة كان يمكن أن تضيع وتُدمَّر لو لم تكن في كنف أناس واقعيين. وأنا وزوجتي نعلم -لأننا واقعيون تماماً- أن هناك فترات تمتلئ فيها نفسية هذه الفتاة بالحقد عندما ترانا متفانين هكذا في حب بيت. وذلك لأنه لا يوجد أب أو أم يتفانى في حب هذه المسكينة. وأنا لا

أحب أن يدور بنفسي شيء من مشاعر هذه الطفلة البائسة -بكل ما فيها من مرارة وسخط- عندما تسمع الوصية الخامسة من الوصايا العشر في الكنيسة يوم الأحد. وإني دائماً أميل إلى أن أذكرها بالكنيسة وأطلب منها أن تعدّ من واحد إلى خمسة وعشرين كلما استبدّ بها الغضب.

وكان لدى السيد ميجلز من خدم المائدة، عدا التمثال خادمتان جميلتان متوردتا الوجهين متألقتا العينين. وقد قال السيد ميجلز وهو ينظر إليهما:

- لماذا لا يكون لدى الإنسان أشياء جميلة يمتع بها نظره إذا لم يكن لديه شيء آخر؟ هذا ما أقوله دائماً لزوجتي.

وكان في البيت أيضاً سيدة تدعى السيد تيكيت، تقوم بأعمال الطهو وإدارة البيت إذا كانت الأسرة بالبيت، وبإدارته فقط إذا كانت الأسرة في رحلة. وقد أعلن السيد ميجلز عن أسفه لأن طبيعة عمل السيدة تيكيت لا تجعلها موجودة بالبيت في تلك الساعة، ولكنه أعرب عن أمله في أن يقدمها لضيفيه في اليوم التالي. وقال إنها تمثل جانباً هاماً في البيت، وإن جميع أصدقائه يعرفونها، وإن صورتها هي تلك المعلقة في الركن. وهي تحرص دائماً -عندما تكون الأسرة في الخارج- على ارتداء هذا الثوب الحريري وذلك الشعر الأسود المموج اللذين تظهر بهما في هذه الصورة؛ لأن شعرها الطبيعي مليء بالشيب، ثم تجلس في استرخاء بغرفة طعام الإفطار، وتضع نظارتها بين صفحتين معينتين من كتاب الإسعاف المنزلي للدكتور بيوكان، ثم تبقى ناظرة إلى الخارج من خلال الستائر طيلة اليوم حتى تعود الأسرة. والمفروض أنه لا يوجد أحد يستطيع أن يغري السيدة تيكيت على التخلي عن مكانها هذا، أو عن الاستغناء عن كتاب الدكتور بيوكان، وذلك رغم أن السيد ميجلز كان

يعتقد تماماً أنها لم تحاول أبداً أن تقرأ كلمة واحدة في ذلك الكتاب الذي أجهد الطبيب نفسه في تأليفه.

وفي المساء لعبوا معاً «البريدج» على الطريقة القديمة، وقد جلست بيت بجانب أبيها ترقب اللعبة، أو تغني لنفسها ما يطرأ على بالها من أغاني على البيانو وكانت طفلة مدللة، ولكن ماذا كان يمكن أن تكون غير هذا؟ من ذا الذي يستطيع أن يعيش مع فتاة جميلة جذابة كهذه ثم لا يخضع لنزواتها وتأثيرها عليه؟ من ذا الذي يستطيع أن يقضي أمسية في البيت دون أن يفتتن بذلك الجو الساحر البديع الذي تشيعه في الغرفة؟ كانت تلك هي خواطر كلينام رغم القرار النهائي الذي اتخذه قبل العشاء.

وأثار شرود ذهنه انتباه زميله في اللعب السيد ميجلز فقال له مدهوشاً:

– عجباً! فيم تفكر يا صديقي العزيز؟

فردّ كلينام قائلاً:

– في لا شيء.

وهنا قال ميجلز:

– إذن يجب أن تفكر في شيء في المرة التالية.

وضحكت بيت قائلة إنها تعتقد أنه كان يفكر في الآنسة ويد، فقال لها أبوها:

– ولماذا في الآنسة ويد يا بيت؟

وقال آرثر كلينام.

– نعم لماذا؟

واحمرّ وجه بيت قليلاً ثم عادت إلى البيانو.

ولما انفضّ اجتماعهم استعداداً للنوم، سمع آرثر دويس وهو يسأل المضيف هل يمكن أن يخصص له نصف ساعة للحديث على انفراد قبل الإفطار في صباح اليوم التالي؛ وأجاب المضيف أنه يقبل بكل سرور، وتلكأ آرثر قليلاً لأن لديه ما يضيفه إلى هذا الموضوع.

ولما أمسى بمفرده مع السيد ميجلز قال له:

- سيد ميجلز؟ هل تذكر حين نصحتني بالعودة فوراً إلى لندن!

- تماماً!

- وعندما قدمت إليّ نصيحة أخرى طيبة كنت في أشد الحاجة إليها يومذاك.

فأجاب السيد ميجلز قائلاً:

- إنني لا أتذكر على وجه التحديد؛ ولكنني أعتقد أننا تبادلنا حديثاً ودياً لطيفاً.

- لقد عملت بنصيحتك، ونفضت يدي من عمل كان بغيضاً إلى نفسي سنوات كثيرة؛ وأريد الآن أن أكرس مجهودي ومالي لعمل آخر.

فقال السيد ميجلز:

- حسناً! ولكنك لا تستطيع أن تحقق هذا بسرعة.

- إنني وأنا في طريقي إليك اليوم، وجدت أن صديقك السيد دويس يبحث عن شريك له في أعماله، شريك لا شأن له بالنواحي الفنية، وإنما ليقوم كما ينبغي بالأعمال التنفيذية.

فقال السيد ميجلز واضعاً يديه في جيبيه وقد نمَّ وجهه عن هيئة رجل الأعمال الجاد:

- حسناً!

- وقد قال السيد دويس عرضاً في أثناء الحديث إنه سوف يستشيرك في موضوع البحث عن شريك كهذا. فإذا كنت ترى أن وجهات نظرنا والفرص المتاحة لنا ملائمة لكل منا، فهل يمكن أن تعرض عليه رغبتي. إنني طبعاً أتحدث دون علم بالتفاصيل التي قد لا تكون ملائمة لكل منا.

فقال السيد ميجلز بذلك الحذر المعروف عن رجال الأعمال:

- طبعاً، طبعاً، لا شك في هذا.

- ولكن ستكون هناك مسألة الأرقام والحسابات..

وعاد السيد ميجلز يقول بإصرار رجل الأعمال:

- تماماً، تماماً.

- وأنا على استعداد لمناقشة الأمر إذا وافق السيد دويس، وإذا رأيت أنت هذا، ولكني سأكون شاكراً جداً لو تكرمت، في هذه الحالة، وتركتني أضع الأمر كله بين يديك.

فقال السيد ميجلز:

- كلينام! إنني أتقبل هذه الثقة بكل سرور. ودون أي اعتبار للنقاط التي ذكرتها بتحفظ باعتبارك رجل أعمال، فإن في مقدوري أن أقول لك إن هذا قد ينتهي بنا إلى شيء. وعليك أن تتأكد من شيء واحد، وهو أمانة دويس المطلقة.

- إن ثقتي بهذا هي التي دفعتني إلى أن أقرر الحديث معك في هذا الأمر.

- ولكن عليك أن ترشده، وأن توجهه، وأن توقده، لأنه من النوع المذبذب..

وكان السيد ميجلز يعني أنه رجل يبتكر أشياء جديدة، ويتخذ في الحياة وجهات جديدة. وقد أردف قائلاً:

- ولكنه أمين كقديس.. طابت ليلتك.

وعاد كلينام إلى غرفته، وجلس مرة أخرى أمام المدفأة، واستقر رأيه على أنه سعيد لتصميمه على عدم الوقوع في حب بيت. أجل، إنه سعيد حقاً لاتخاذه هذا القرار، لأنها كانت ذات جمال ورقّة واستعداد لاستقبال الحب الذي يتلاءم مع طبيعتها الرقيقة وقلبها البريء بحيث يمكنها أن تجعل أي رجل يقدم إليها مثل هذا الحب أسعد الناس وأحسنهم حظاً.

ولكن، بما أن هذا أيضاً قد يكون سبباً لأن ينتهي إلى الرأي المقابل، فقد رأى أن يتتبعه قليلاً في ذهنه، ولو لتبرير هذا القرار أمام نفسه: «لنفرض أن ذلك الرجل» هكذا راح يفكر: «كان في العشرين من عمره، أو نحو ذلك، وكان خجولاً منطوياً على نفسه بسبب الظروف التي مرت به في صباه، وكان محزون السمات بسبب ما لقيه في حياته، ويعرف أنه ينقصه الكثير من هذه الصفات الجذابة التي يعجب بها في غيره، وذلك بسبب تغرّبه في بلاد بعيدة مدة طويلة دون أن يكون بجانبه ما يخفف عنه، ودون أن تكون له أخت يقدمها إليها، ودون أن يكون له بيت خاص يحملها إليه، رجل غريب عن البلاد، لا يمتلك ثروة من أي نوع يمكن أن تعوّض كل هذه النقائص، ولا يمتاز بأي شيء إلا بالحب الشريف، وبالرغبة الكريمة في أداء الواجب. لنفرض أن رجلاً كهذا جاء إلى هذا البيت، وأخضع نفسه لفتنة هذه الفتاة الجذابة، وراح يقنع نفسه بأن في مقدوره أن يأمل في الفوز بها، فأية حماقة يمكن أن يوصف بها!».

وفتح النافذة برفق، وشرع يطل على النهر الساجي الذي كانت «العبّارة» تجري عليه عاماً بعد عام، وتياراته تنطلق بسرعة أميال كثيرة في الساعة، ونبات السمار ينمو على ضفافه هنا، وأزهار الزنبق تنمو هناك، دون أن يكون ثمة ما يوحي بالاضطراب والقلق.

لماذا يحس بالمرارة والاستياء في قلبه؟ إنها ليست حماقته كما تخيل، وليست حماقة أحد أياً كان يعرفه، فلماذا تزعجه! ومع ذلك فهو منزعج. وقد خطر له -وأي إنسان لا يخطر له مثل هذا أحياناً- إن من الأفضل له أن يسبح مع التيار كماء النهر، وأن يمزج -مثله- بين عدم الشعور بالسعادة، وعدم الشعور بالشقاء.

* * *

ليس غريما لأحد



غادر آرثر البيت صباحاً قبل الإفطار ليتجول قليلاً. وكان الجو صحواً، والوقت أمامه منفسحاً لمدة ساعة. وعبر النهر بالعبّارة، وتمشى في ممر ضيق بين المروج. فلما عاد إلى المرساة، وجد القارب في الضفة الأخرى ورأى سيداً ينادي عليه وقد وقف في انتظاره.

وكان ذلك السيد في نحو الثلاثين من العمر، حَسَن الملبس، لطيف المظهر، متين الجسم، ملوح البشرة. ولما وصل آرثر إلى الضفة وهبط إلى حافة الماء، تطلع إليه ذلك السيد برهة، ثم عاد إلى ما كان عليه حيث راح يقذف الحجارة بقدمه إلى ماء النهر على سبيل التسلية. وكان ثمة شيء في طريقة انتزاعه للحجارة بكعب حذائه وقذفها إلى الماء في المكان المطلوب، ينم -في رأي كلينام- عن القسوة. إن معظمنا في قليل أو كثير من الأحيان قد خامره مثل هذا الشعور عند رؤيته للطريقة التي يؤدي بها بعض الناس أعمالاً بسيطة مثل قطف زهرة أو إزاحة عقبة من الطريق أو حتى تدمير شيء مكروه.

وكان السيد مشغول الذهن كما يلوح على وجهه وكما يبدو من عدم اهتمامه بكلب نيوفوندلاندي جميل كان يرقبه باهتمام، ويرقب كل حجر أيضاً على التوالي، مستعداً للوثوب إلى الماء وراءه عند أية إشارة من

سيده. على أن العبّارة أقبلت دون أن يتلقى من سيده الإشارة المنشودة، ولما وصل إلى المرساة، أمسك سيده بطوقه ومضى به إليه قائلاً له:

- لا مجال للعبك هذا الصباح، إذ لا يليق أن أمضي بك إلى سيدة محترمة وأنت مبلل، أرقد هنا.

وتبع كلينام الرجل والكلب إلى العبّارة، واتخذ مجلسه فيها. وأطاع الكلب الأمر، بينما بقي صاحبه واقفاً ويداه في جيبيه وقد غدا في وقفته حاجزاً بين كلينام وبين ما وراءه من مناظر طبيعية. ووثب الكلب وصاحبه بخفة من العبّارة بمجرد أن لمس الضفة الأخرى، وابتعدا. وأحس كلينام بالرضا لافتراقه عنهما.

وأعلنت ساعة الكنيسة موعد الإفطار عندما سار في الممر المكسو بالعشب المؤدي إلى بوابة البيت. وما كاد أن يصلصل الجرس حتى فاجأه نباح مرتفع من كلب بالداخل.

وقال كلينام لنفسه «إنني لم أسمع نباح كلب في الليلة الماضية» وفتحت البوابة إحدى الخادمتين المتوردتي الوجهين؛ وقد رأى في ممر الحديقة الكلب النيوفونلاندي وصاحبه.

وقالت الخادمة ذات الوجه المضطرم بالخجل دائماً:

- إن الآنسة ميني لم تغادر غرفتها بعد أيها السيدان.

ثم قالت لصاحب الكلب قبل أن تنصرف بسرعة:

- هذا هو السيد كلينام يا سيدي.

وقال الرجل لآرثر:

- عجيب يا سيد كلينام أن نلتقي هكذا الآن.

وسرعان ما التزم الكلب السكون التام، بينما أردف صاحبه قائلاً:

- اسمح لي أقدم لك نفسي: إنني هنري جوان. إن هذا المكان جميل، وإنه ليبدو رائعاً في هذا الصباح.

ورغم ما كان في صوت الرجل من رقة، وما في سلوكه من بساطة، فقد شعر كلينام أنه ما كان ليتردد في كراهيته، لو لم يقرر عدم الوقوع في حب بيت.

وعاد هذا الجوان يقول حينما رأى آرثر يدير عينيه في المكان:

- أعتقد أن هذا المكان جديد عليك؟

- أجل تماماً. إنني لم أره إلا بعد ظهر أمس.

- آه، ولكنه لا يبدو في أجمل مظهر له الآن. لقد كان رائعاً في الربيع قبل أن يسافروا في المرة الأخيرة، وإني لأتمنى لو أنك رأيته يومذاك.

ولولا تذكر كلينام دائماً لقراره بعدم الوقوع في حب بيت، لتمنى في تلك اللحظة لو أن هذا السيد -رغم سلوكه المهذب- قد سقط في فوهة بركان أطنة.

وعاد الرجل يقول:

- لقد كان لي حظ الاستمتاع برؤيته في أحوال كثيرة خلال السنوات الثلاث الماضية، وإنه.. لفردوس.

ومرة أخرى شعر كلينام بالمرارة، رغم قراره بعدم الوقوع في حب بيت، وهو يسمع ذلك السيد يصف -بكل جرأة- المكان بالفردوس عندما رأى بيت قادمة، وذلك لكي يجعلها تشعر أنها حورية هذا الفردوس. اللعنة عليه!

آه، لشد ما يبدو وجهها مشرقاً، سعيداً! وما أجمل مسحها بيدها على الكلب، وما أسعد الكلب بها، وما أوضح ما يعبر عنه من السعادة

تورد وجهها وخفة حركاتها، وانسدال أجفانها! متى رآها كلينام تبدو هكذا؟ إنه لا يوجد ثمة مبرر يجعله يمكن أو يستطيع أن ينبغي أن يراها تبدو هكذا؟ أو أنه شعر يوماً بالأمل يراوده في أن يراها تبدو هكذا. ومع ذلك، فمتى سبق أن رآها تبدو على هذا النحو يوماً؟

ووقف على مسافة يسيرة منها. وكان ذلك الحيوان قد سار نحوها -وهو يتحدث عن الفردوس- وتناول يدها. ووضع الكلب مخالبه الكبيرة على ذراعيها، وأراح رأسه على صدرها الجميل، ورحبت هي بهما ضاحكة، وأسرفت كثيراً في مداعبة الكلب.

وأخيراً خلصت نفسها، وتقدمت إلى كلينام، ووضعت يدها في يده وتمنت له صباحاً طيباً، وبدت كأنها تريد أن تأخذ ذراعه في ذراعها لكي يصحبها إلى البيت. ولم يعترض هذا الجوان على ذلك الوضع؛ ولعله يدرك أن كليهما لا يمكن أن يكون غريباً.

وطافت سحابة ضيق على وجه السيد ميجلز السمح عندما أقبل ثلاثتهم، -أو أربعتهم إذا حسبنا الكلب الذي كان أبغض الجميع «إلا واحداً» في المجموعة- إلى مائدة الإفطار. ولكن كلينام لم يلحظ هذا، كما لم يلحظ نظرة القلق التي ارتسمت في عيني السيدة ميجلز وهي ترى ذلك الكلب.

وقال السيد ميجلز وهو يكتم زفرة في صدره:

- حسناً يا جوان! كيف حال الدنيا معك هذا الصباح؟

- كالمعتاد يا سيدي. فما زلت أنا وليون مصممين على ألا نضيِّع لحظة من زيارتنا الأسبوعية، ولذا استيقظنا مبكرين، وأقبلنا من كنجستون حيث أرابط الآن لأرسم لوحة أو اثنتين.

ثم ذكر كيف التقى بالسيد كلينام عند المرساة، وكيف جاءا معاً.

وقالت السيدة ميجلز:

- كيف حال السيدة جوان يا هنري؟

وهنا زاد انتباه آرثر للحديث.

- إن أمي بخير.. شكراً.

وعاد آرثر إلى عدم الانتباه، وأردف هنري جوان قائلاً:

- لقد تجرأت على دعوة شخص آخر إلى حفلة عشائكم الليلة، وأرجو ألا يكون في هذا ما يثقل عليك أو على السيد ميجلز، لأني لم أستطع أن أتخلص من هذا المأزق.

ثم قال مفسراً الأمر للسيد ميجلز:

- لقد كتب إليّ ذلك الشاب ليزورني، ولما كان من أسرة طيبة، فقد خطر لي أنك لن تعارض في إحضاره إلى هنا.

فقال السيد ميجلز ببرود واضح:

- ومن هو ذلك الشاب؟

- إنه أحد أفراد آل بارناكل. إنه كلارنس بارناكل، ابن تايت بارناكل، ويعمل في إدارة أبيه. وأستطيع على الأقل أن أضمن أن النهر لن يضار من زيارته، إنه لن يشعل فيه النار.

فقال ميجلز:

- أجل، أجل. من آل بارناكل؟ أليس كذلك! إننا نعرف شيئاً عن آل بارناكل هؤلاء، إنهم بحق الله في القمة. قل لي.. ما هي قرابة ذلك الشاب باللورد ديكيموس الحالي؟ لقد تزوج فخامته في عام ألف وسبعمائة وسبع وتسعين بالليدي جاميا بيلبري التي كانت الابنة الثانية

من الزواج الثالث.. لا، لقد أخطأت. تلك هي الليدي سيرافينا، ولكن الليدي جاميا هي الابنة الأولى من الزواج الثاني للإيرل ستيلستوكنج الخامس عشر من صاحبة الشرف كليمانتينا توزيلليم. حسناً. والآن قد تزوج والد هذا الشاب من آل ستيلستوكنج، وكان جده لأبيه قد تزوج ابنة عمه وهي من آل بارناكل. وكان والد هذا الوالد قد تزوج جوديلبي من آل بارناكل أيضاً.. ويبدو أني يا جوان، قد رجعت إلى الوراء كثيراً. ولكني، أريد أن أعرف مدى قرابة ذلك الشاب باللورد ديكيموس.

- هذا أمر سهل. إن والد هذا الشاب هو ابن أخت اللورد ديكيموس.

فقال السيد ميجلز في ابتهاج وقد أغمض عينيه حتى لا يشغله شيء عن متابعة شجرة هذا النسب:

- ابن أخت اللورد ديكيموس! إنك والله على حق يا جوان. إذن فهو كما تقول.

- وعلى هذا يكون اللورد ديكيموس خاله الكبير.

وفتح السيد ميجلز عينيه وقال كأنما اكتشف أمراً:

- ولكن انتظر لحظة، فإن الليدي ستيلستوكنج ستكون خالته الكبرى أيضاً؟

- طبعاً!

فقال ميجلز باهتمام كبير:

- أجل، أجل، حقاً! لسوف يسرنا أن نرى هذا الشاب. ولسوف نرحب به في بيتنا هذا المتواضع كأحسن ما نستطيع. وأعتقد أننا لن نجوع إذا شاركنا طعام العشاء.

وكان كلينام، في بدء هذا الحديث، يتوقع أن يثور السيد ميجلز ثورة بريئة، كما فعل حين التقى به في إدارة الشؤون العامة وهو ممسك بخناق السيد دويس. ولكن هذا الصديق الطيب، لم يكن يخلو -كما لا يخلو أي إنسان آخر- من رغبة التقرب إلى عليّة القوم، وهي رغبة لا يمكن أن تقضي عليها أية كمية من مساوئ إدارة الشؤون العامة. ونظر كلينام إلى دويس، ولكن هذا كان يعرف سلفاً كل ما سوف يحدث، ومن ثم اكتفى بالنظر إلى طعامه دون أن يقوم بحركة أو ينبس بكلمة.

وقال هنري جوان في ختام الحديث عن ذلك الموضوع:

- إنني شاكر لك هذا الفضل جداً، وأياً كان أمر كلارنس، فإنه إنسان لطيف، ومن أحسن الذين عرفتهم في حياتي.

وبدا أن لهنري جوان -قبل أن ينتهوا من طعام الإفطار- رأياً خاصاً في جميع الذي يعرفهم، فهم أياً كان أمرهم، أحسن وألطف وأخلص وأشرف أناس عرفهم في حياته. وقد عبر السيد هنري جوان عن رأيه هذا في كل الذين يعرفهم بقوله:

- إنني دائماً أسجل في ذاكرتي، وبغاية الدقة، كل نوازع الخير أو الشر في نفوس الذين أعرفهم. وأنا أقوم بهذا عن إدراك ووعي بحيث أستطيع أن أقول إن أكثر الناس تفاهة هم ألطفهم وأخفهم ظلاً أيضاً. وإني في وضع يمكنني من أن أذكر باطمئنان أنه لا يوجد فارق كبير -كما قد تظنون- بين الرجل الشريف والآخر الوغد.

وكان تأثيره بهذا الحديث في النفوس، أنه رغم ما أظهر من اهتمام بالبحث عن الخير في نفوس معظم الناس، لا يعرف كيف يضع هذا الخير في موضعه المناسب. ولعل هذا هو أخطر وأبغض جانب في حديثه ذاك.

ولاح أيضاً أن هذا الحديث لم يكن له قط ذلك الأثر الطيب الذي كان للحديث عن آل بارناكل. ومن ثم عادت السحابة التي لم يسبق أن

رآها كلينام تطوف بوجهه قبل ذلك الصباح، وألقت ظلها عليه مرة أخرى. وكذلك لاحظ أيضاً ظل القلق واضحاً على وجه السيدة ميجلز الوسيم. ورأى كلينام -أكثر من مرة أو مرتين- أن السيد ميجلز لم يكن يبدو سعيداً وهو يرى ابنته تمسح برفق على الكلب. بل خُيِّل إليه في لحظة معينة أن الدموع طفرت إلى عيني الوالد وهو يرى جوان الواقف في الجانب الآخر من الكلب ينحني على بيت؛ بحيث لم يسعه -أي الوالد- إلا أن يخرج من الغرفة مسرعاً. ومن الملاحظات التي شاهدها كلينام أيضاً، أو هكذا خُيِّل إليه، أن بيت لم تكن غافلة عن هذه التصرفات البسيطة كلها مما حدا بها لأن تحاول -بحنان يزيد على المعتاد- أن تؤكد لأبيها مدى حبها له، وأنها لهذا السبب حرصت على أن تسير وراء الجميع، عند ذهابهم إلى الكنيسة، وقد وضعت ذراعها في ذراع أبيها. وإن كلينام ليستطيع أن يقسم أنه -في أثناء سيره في الحديقة بعد ذلك- قد لمحها وهي في غرفة أبيها متعلقة بوالديها في حنان زائد، وملقية برأسها على كتف أبيها والدموع تنال من عينيها.

وأمطرت السماء في الفترة الأخيرة من اليوم، ومن ثم اعتكف الجميع في البيت، وراحوا يتفرجون على مقتنياته، وينفقون الوقت في الحديث. وكان لدى هنري جوان الشيء الكثير عما يقولوه عن نفسه، وكان يقوله بلهجة طريفة مسلية وقد ظهر أنه فنان محترف، وأنه سافر إلى روما بعض الوقت، ومع ذلك فقد كان يلوح عليه سمات الفنان الهاوي، وشيء من الفتور الملحوظ في حماسته للفن، وفي أهدافه الفنية مما أثار الحيرة في نفس كلينام.

وقد لجأ إلى دانييل دويس ليخرجه من حيرته، فقال له بصوت خافت وهما واقفان معاً يطلان من النافذة:

- هل تعرف السيد جوان.

– أراه هنا فقط. إنه يأتي في كل يوم أحد عندما تكون الأسرة مقيمة بالبيت.

– أعتقد أنه –مما يقول عن نفسه– فنان.

فقال دانيل دويس في لهجة خشنة:

– شيء كهذا.

فابتسم كلينام وقال:

– من أي نوع هو؟

– إنه يسير في ميدان الفنون بخطوات وئيدة هينة كالذي يتمشى في ميدان البول مول. ولست أدري هل الفنون تحتمل مثل هذا الفتور؟

وعلم كلينام، وهو يوالي تحرياته، أن لأسرة جوان علاقة بعيدة جداً بعائلة بارناكل، وأن والد السيد جوان، الذي كان في بادئ الأمر ملحقاً بإحدى المفوضيات في الخارج، قد أحيل إلى التقاعد مع معاش دائم ثم أسندت إليه المناصب في هذا المكان أو ذاك، وأنه توفي في أثناء قيامه بأحد المناصب الأخيرة؛ وقد أوصت عائلة بارناكل –التي كانت في قمة النفوذ يومذاك– الحكومة بمنح أرملته معاشاً دائماً مقداره مائتان أو ثلاثمائة جنيه في العام اعترافاً بجهوده للمصلحة العامة. ثم حدث أن أضاف عضو أسرة بارناكل الذي ولي قمة النفوذ بعد الأول، إلى مقره في هامبتون كوارت جناحاً أثار الأقاويل والشبهات حيث لا تزال تقيم فيه حتى اليوم هذه الأرملة العجوز نادبة، مع لفيف من العجائز أمثالها، انحلال الأخلاق في هذا العصر. وورث ابنها هنري آخر منصب كان لأبيه قبل وفاته؛ ولم يكن منصباً ممتاز، لأن المناصب العامة الممتازة كانت نادرة يومذاك، ولهذا لم يستطع أن يبقى فيه، لا سيما وأن ميوله الخاصة منذ بدء شبابه كانت تتجه إلى الشؤون الزراعية عامة، وإلى زراعة الشوفان

البري خاصة. وأخيراً قرر أن يكون رساماً، وذلك لأن الاشتغال بالفن يبرر الكسل من ناحية، ومن ناحية أخرى لكي يملأ نفوس آل بارناكل - الذين في القمة- بالحزن لأنهم لم يساعدوه كما ينبغي. وكانت النتيجة أن حدث على التوالي. جزع عدد كبير من سيدات المجتمع الراقي لهذا القرار، ثم تداول إنتاجه من الرسم خفية، والتأكيد بأن لوحاته لا تقل روعة عن لوحات كلود، وكيبس، وأنها فتح جديد في الفن؛ ثم اشترى اللورد دمكيمبوس صورة له، ودعا رئيس الإدارة والمجلس إلى وليمة عشاء، وقال بكل وقار وترفع:

- أتدرون أن في هذه الصورة كما يبدو لي ما ينم عن موهبة حقيقية؟

وعلى الجملة بذل أصاب النفوذ جهودهم للإعلاء من شأنه؟ ولكن هذه الجهود كلها لم تجد شيئاً، لأن الرأي العام قاومها بكل عناد ورفض الناس أن يعجبوا بصورة اللورد ديكيموس. لقد اعتاد الرأي العام على الإيمان بأنه ينبغي للإنسان الذي يسعى للمنفعة العامة -التي لا دخل لمنفعته الخاصة فيها- أن يتفانى في عمله صغيراً أو كبيراً، وأن يبذل فيه كل ما لديه من جهد وقوة، وأن ينغمر فيه قلباً وقالباً وروحاً. وهكذا أصبح السيد جوان معلقاً في الهواء كالتي رقصت على السلم، فلم يرها الذين هم في أعلى، ولم يرها الذين هم في أسفل.

تلك هي المعلومات التي عرفها كلينام عن السيد جوان في ظهر ذلك اليوم المطير وفيما بعد.

ويعد الموعد المحدد للعشاء بساعة أو نحو ذلك، أقبل السيد بارناكل الشاب مصحوباً بالمونوكل. وكان السيد ميجلز قد صرف الخادمتين -تكريماً له- واستحضر ساقيين للقيام على خدمته في تلك الليلة. ولما رأى بارناكل الشاب آرثر كلينام ارتسمت على وجهه أبلغ

أمارات الدهشة الممزوجة بالضيق، ومن ثم غمغم قائلاً بلا وعي وقبل أن يتمالك نفسه:

- من هذا بحق السماء، عجباً..

ثم انتهز أول فرصة سانحة، ومضى بصديقه هنري جوان إلى إحدى النوافذ وقال له بصوته الأخنف الذي كان جزءاً من عيوبه:

- أريد أن أتحدث معك يا جوان. اسمع. من هذا الشخص؟

- إنه صديق السيد ميجلز، ولا شأن لي به.

فقال بارناكل الشاب:

- إنه أعنف المتطرفين في هذه البلاد كما تعلم.

- أحقاً؟ كيف عرفت هذا؟

فرد بارناكل الشاب قائلاً:

- اسمع يا سيدي، لقد هاجم موظفينا في ذاك اليوم بطريقة عنيفة، ثم ذهب إلى بيت أبي وهاجمه هناك بحيث اضطر أبي إلى طرده، ثم عاد إلى إدارتي وهاجمني، اسمع، هل سبق أن رأيت رجلاً كهذا!

- ماذا كان يريد!

- قال إنه يريد أن يعرف.. ولقد اقتحم إدارتنا على غير موعد سابق وقال إنه يريد أن يعرف!

وكان من الممكن أن تؤذي نظرات الاستنكار والدهشة المطلة من عيني بارناكل الشاب المحملقتين وهو يدلي بهذا الحديث، لولا أن أعلن السيد ميجلز الانتهاء من إعداد العشاء، وكان السيد ميجلز لا يدخر جهداً في السؤال عن صحة خاله وخالته، ثم التمس منه أن يصحب السيدة

ميجلز إلى قاعة الطعام. ولما جلس إلى يمين السيدة ميجلز، لاح على السيد ميجلز الرضا والانتهاج وكأنما كانت أسرته كلها تجلس حول المائدة.

وفقد ذلك العشاء كل ما كان له من فتنة وسحر في الليلة السابقة، إذا بدا الآكلون، كالأكل نفسه، على شيء كثير من الفتور والبرود والسأم، كل هذا بسبب وجود هذا الشاب التافه الثقيل الظل، بارناكل، وكان بطبيعته لا يحسن الحديث، وقد زاد من ارتباكه وجود كلينام معه. ومن ثم كان كل همه أن يرمقه بالمونوكل بين الحين والآخر، وكانت النتيجة أن المونوكل كان يقع حيناً في وعاء حسائه أو في كأس شرابه، أو في صحن السيدة ميجلز، أو يقع وراء ظهره كحبل الجرس، فيضطر أحد الخادمين الخاصين أن يعيده إلى صدره؟ وقد أدى هذا كله إلى المزيد من ارتباكه، لا سيما عندما أصر هذا المونوكل على عدم الثبات على عينه؟ كما أن هذا الارتباك كان يتضاعف كلما نظر إلى السيد كلينام الغامض، مما جعله يضع في عينه المعلقة حيناً -أو الشوكة- أو غير هذه وتلك من أدوات المائدة. وكان هذا كله يزيد من حرج موقفه بطبيعة الحال. ولكنه، مع هذا، لم يكف عن الشعور بضرورة التطلع إلى كلينام. وكان الخوف يستبد بذلك الشاب السيئ الطالع كلما تحدث كلينام، خشية أن يدير هذا الحديث بطريقة لبقة، إلى موضوع رغبته في أن يعلم ما لا يجوز أن يعلمه.

وقد يخامرنا السؤال عندئذ فيما إذا كان أحد قد استمتع بهذه الفترة غير السيد ميجلز! ذلك أنه كان واضحاً أن السيد ميجلز سعد تماماً بوجود الشاب بارناكل. وكما حدث في الأسطورة عندما تحول إناء الماء الذهبي إلى نافورة ممتلئة حين سكب الماء منه، فكذلك بدا أن السيد ميجلز كان يحس أن هذه القطعة الصغيرة من آل بارناكل كانت ترمز على مائدته إلى متعة الجلوس مع كل أفراد هذه الأسرة الضخمة. وكانت صفاته الطيبة الصريحة الأصلية قد سجنت في حضور هذا الشاب، فأصبح

غامضاً، غير طبيعي، يحاول أن يصل إلى شيء لا سبيل إليه. أو بمعنى آخر، لم يعد على حقيقته، فما أغرب هذا الموقف من السيد ميجلز، وأين يمكن أن يجد الإنسان شخصية كهذه.

وأخيراً تحول ذلك المساء المطير من يوم الأحد، إلى ليل مطير، وعاد الشاب بارناكل إلى بيته في مركبه وهو شديد الضيق، وانصرف جوان البغيض سيراً على قدميه مصحوباً بكلبه البغيض، وبذلت بيت كل ما في وسعها طيلة اليوم لتبدو لطيفة رقيقة مع كلينام. ولكن هذا كان متحفظاً معها بعض الشيء منذ طعام الإفطار.. وقد كان من الممكن ألا يعمد إلى هذا التحفظ لو أنه أحبها.

ولما آوى إلى غرفته، وألقى بنفسه مرة أخرى على المقعد أمام المدفأة، طرق السيد دويس بابه، ودخل والقنديل في يده، وسأله عن موعد عودته غداً، وعن الوسيلة التي سيعود بها. وبعد أن تم الاتفاق على هذا الأمر، قال كلينام كلمة عن هنري جوان لدانييل دويس ولو أن جوان كان غريباً لكلينام، لما كف هذا عن التفكير فيه.

وقال كلينام إن جوان كرسام ليس بالشخص الذي يغري أسرة ميجلز للموافقة على زواجه بابنتهم.

فرد دويس قائلاً:

- لا.

وكان هذا واقفاً وقنديل غرفة نومه في يد، والأخرى في جيبه، ونظراته مركزة على ضوء القنديل، وأمارات وجهه تنم عن أن لديه ما يريد أن يقوله.

وقال كلينام:

– ظننت أن صديقنا الطيب ميجلز كان متغيراً، ومنقبض النفس عندما خرج من غرفته في هذا الصباح.

فرد دويس قائلاً:

– أجل.

– ولكن ابنته لم تكن كذلك.

وخيم الصمت على الرجلين برهة، ولكن دويس لم يلبث أن استأنف الحديث قائلاً وهو ينظر إلى ضوء القنديل.

– الحقيقة أنه صحب ابنته إلى الخارج مرتين على أمل أن يفصلها عن السيد جوان. فهو يعتقد أنها تميل إليه، وأن الشكوك المؤلمة تخامر ذهنه في جدوى هذا الزواج «وأنا في هذا أتفق مع رأيك».

– لا شك أن..

وتوقف كلينام عن إتمام الحديث عندما فاجأته نوبة من السعال، فقال له دويس دون أن ينظر إليه:

– يبدو أنك أصبت بالبرد.

وعاد كلينام يقول ببساطة:

– لا شك أنهما مخطوبان!

– لا، إنني واثق أنهما ليسا كذلك كما قيل لي. لقد حاول هذا السيد أن يتقدم لخطبتها، ولكن المحاولة لم تنته إلى شيء. ومنذ عودتهم من الخارج وهذا السيد يزورهم مرة كل أسبوع. وهذا على الأكثر. وإن ميني ليست بالفتاة التي يمكن أن تخدع أباها أو أمها. وقد سافرت أنت معهم فترة ما، ولا شك أنك لاحظت مدى قوة الرباط الذي يجمع بينهم حتى

بعد هذه الحياة. ولهذا لست أشك أنه لا توجد أية علاقات خفية -غير التي رأيناها بأعيننا- بين السيد جوان والآنسة ميني.

فهتف آرثر قائلاً:

- آه، وقد رأينا ما فيه الكفاية.

وتمنى دويس له ليلة طيبة بلهجة الرجل الذي سمع صيحة حزن -إن لم تكن صيحة بأس- صادرة من قلب إنسان حاول هو أن يضع فيه شيئاً من الأمل والتجلد. ولعل أن تكون لهجته هذه جزءاً من طبيعته الشاذة، كشذوذ النغمة في اللحن. وإلا كيف أمكنه أن يسمع ما لم يسمعه كليناm نفسه.

وتساقط المطر غزيراً على السقف، وانهمر على الأرض، وتقاطر بين الأشجار الدائمة الخضرة وبين الأغصان الجرداء من الورق نعم لقد ظل المطر ينهمر غزيراً موحشاً، فكانت ليلة من الدموع.

لو لم يكن كلينام قد قرر عدم الوقوع في حب بيت؛ ولو كان فيه الضعف الذي يسمح بالحب، ولو أنه راح شيئاً فشيئاً يقنع نفسه بأن يكرس كل حماسته الطبيعية، وكل قوى أمله، وكل ثروة تتمثل في خلقه الناضج، في سبيل هذا الهدف، لو أنه فعل هذا ووجد أن كل آماله قد ضاعت، إذن لأحس في تلك الليلة ببؤس لا يمكن الإفصاح عنه.. ولكن الذي حدث... أن المطر راح ينهمر بغزارة ووحشة.

* * *

حب دوريت الصغيرة

إن دوريت الصغيرة لم تبلغ الثانية والعشرين من عمرها دون أن تجد لها حبيباً. ذلك أنه حتى في داخل سجن مارشاليزا الموحش، لم يجد إله الحب ذو الشباب الدائم بأساً من إطلاق سهام من قوسه بين الحين والآخر، يصد بها قلبي اثنين من النزلاء.

ولكن حبيب دوريت الصغيرة لم يكن -على كل حال- من نزلاء السجن. وإنما كان الابن الأثير لحارس بوابة السجن. وكان والده يأمل -على مر الأيام- أن يورثه منصبه، فراح منذ صباه الباكر يدربه على القيام بواجبات هذا العمل والأمل يملأ صدره في أن يبق هذا المنصب متوارثاً في الأسرة. وخلال فترة الانتظار، راح الابن يعاون أمه في إدارة متجر بيع التبغ بالقرب من منعطف شارع «هو رسمونجر لين» -وكان الوالد حارساً غير مقيم- وكان موقع المتجر غير بعيد من جدران السجن.

وكان الصغير جون «واسم العائلة شفري» ابن الحارس؛ ينظر إلى دوريت الصغيرة بإعجاب وعجب عندما كانت -وهي صغيرة حقاً- تجلس على مقعدها الصغير الوثير أمام سياج المدفأة في غرفة أبيه. وكان هو يكبرها بعام واحد. وكانت لعبته المفضلة معه، حين يلعبان في الفناء، هو التظاهر بسجنها في الركن ثم التظاهر بالإفراج عنها نظير قبلات

خفيفة. ولما طالت قامته بحيث يستطيع أن يختلس النظر من ثقب ثقل قفل البوابة الرئيسة أن ينتهز كل فرصة ممكنة عندما يحمل إلى أبيه طعام الغداء أو العشاء، ويمضي هو إلى البوابة الرئيسية ويختلس النظر من قفلها، رغم البرد ليستمتع برؤية حبيبته الصغيرة.

وإذا كان الصغير جون لم يفطن إلى حقيقة مشاعره في أيام الصبا الغريرة عندما كان يستهلك أحذيته التي بلا أربطة في اللعب والجري، فإنه سرعان ما أدرك حقيقة مشاعره نحوها وتشبث بها. وهكذا كتب في عيد ميلادها التاسع عشر على الجدار المواجه لمسكنها هذه التحية بقطعة طباشير «مرحبا يا ابنة الحوريات المدللة» ولما بلغ العام الثالث والعشرين من عمره، كان في أيام الآحاد، يقدم بنفس اليد، وفي شيء من الاضطراب هدايا السيجار إلى والد سجن مارشاليزا، أي والد مليكة قلبه.

وكان الصغير جون، صغير الحجم، ضعيف الساقين، خفيف الشعر، وكذلك كانت إحدى عينيه -ولعلها العين التي كان يختلس بها النظر من ثقب القفل- ضعيفة أيضاً وتبدو أكبر من الأخرى وكأنها لا تستطيع أن تستجمع نفسها. وكان الشاب جون، عدا هذا، لطيف المعشر، كبير النفس، شاعري الإحساس وفياً واسع الصدر.

وعلى الرغم مما كان يعتريه من التواضع الذي يمنعه من الانطلاق أمام مليكة قلبه، إلا أنه كان يقلب على جميع الوجوه موضوع علاقته بها بكل أضوائه وظلاله، وكان وهو يتتبع هذه العلاقة إلى نتائجها المباركة يتبين أن كلًّا منهما مناسب للآخر. فإذا سارت الأمور على ما يرام، أمكن أن يتحدا بالزواج: هي ابنة سجن مارشاليزا، وهو حارس بوابة السجن. فإن في هذا لوناً من التكافؤ. أما إذا قُدِّر أن يكون حارساً مقيماً في السجن فإنها في هذه الحالة سوف تبقى في غرفتها التي استأجرتها داخل السجن منذ أمد بعيد، دون أن تدفع إيجاراً لها. وإن أثاثات هذه الغرفة جميلة، ومن

الممكن للمقيم فيها إذا وقف على أطراف قدميه أن يرى ما وراء أسوار السجن، فإذا أضيفت إليها تكعيبة زهور حمراء مع قفص أو اثنين للطيور المغردة، أصبحت حديقة سطح ظليلة. ولا شك أن هذه فكرة طيبة. وإنه بعد أن يرتبط معها بوشائج الزواج، سوف يجد حتى في عمله كحارس سجن شيئاً من الرقة والجمال. وخلال عزلتها عن العالم -فيما عدا عالمها الخاص- حيث يتجنبان متاعبه ومزعجاته التي لا يعرفونها إلا سماعاً من الوافدين إلى السجن من العالم الخارجي، ومع تعريشة الزهور في أعلى، والبوابة في أسفل، سوف تجري أيامهما مع تيار الزمان في دعة وأمن من العيش المستقر. وجعل الشاب جون الدموع تطفر إلى عينيه وهو يضع في نهاية هذه الصورة الجميلة قبراً في مقبرة الكنيسة المجاورة الملتصقة بجدران السجن، وعلى شاهد القبر هذه العبارات محفورة «تكريماً لذكرى جون شيفري الذي عاش ستين سنة حارساً، وخمسين سنة كبيراً لحراس سجن مارشاليزا المجاور، هو الذي غادر هذه الحياة الدنيا موفور الكرامة من الجميع، في اليوم الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر عام ألف وثمانمائة وست وثمانين بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً. وكذلك تكريماً لذكرى زوجته الحبيبة الوفية إيمي، المعروفة باسم دوريت، التي لم تستطع أن تعيش بعده أكثر من ثمان وأربعين ساعة، والتي لفظت أنفاسها الأخيرة في السجن المذكور أعلاه، وهو السجن الذي فيه وُلِدت، وفيه عاشت، وفيه ماتت».

ولم يكن والدا جون غافلين عن مشاعر ابنهما.. حقاً إن هذه المشاعر كانت في بعض الحالات النادرة تشيع الاضطراب في تفكيره وتدفعه إلى معاملة بعض العملاء في ضيق وغلظة مما يضر بسمعة المتجر، إلا أنهما رغم هذا كانا يبذلان جهدهما للوصول بهذه العلاقة إلى النتيجة المنشودة. لقد حرصت السيدة شيفري وهي سيدة حكيمة على أن تجعل زوجها يدرك أن الأمل في أن يظفر جون بمنصب الحارس بعد أبيه سوف يزداد عندما يتزوج من الآنسة دوريت التي تعتبر جزءاً من السجن والتي

تتمتع باحترام واسع النطاق بين النزلاء. وكذلك حرصت على أن تجعل زوجها يدرك أنه إذا كان لابنهما جون ميزة من ناحية مرتبه ومركزه، فإن للآنسة دوريت عائلتها. وهي -أي السيدة شيفري- تؤمن تماماً بأن النصفين يصنعان كلاً كاملاً. وكانت السيدة شيفري تتحدث كأم، وليس كشخص دبلوماسي، لكي تجعل زوجها يرى من ناحية ثالثة أن ابنهما جون لم يكن قوي الجسم في يومٍ ما، وأن غرامه قد أضناه وأرهقه بحيث لا يستطيع أحد أن يعرف ماذا قد ينتهي إليه أمره من السوء إذا اعترض أحد طريق هذه العاطفة. وكان لهذه الحجج من الأثر القوي في تفكير السيد شيفري -وهو رجل قليل الكلام- بحيث كان يحرص على منح ابنه إجازة في أيام الآحاد لكي يقضيها مع دوريت الصغيرة وليحاول، في لحظة سعيدة، أن يكاشفها بغرامه ثم يعود منتصراً. ولكن الشاب جون لم يستطع أبداً أن يستجمع شجاعته لهذه المكاشفة، فكان من ثم يعود إلى المتجر مضطرباً ضيّق الصدر مع العملاء.

وكانت دوريت الصغيرة في هذه الحالة، كما هو شأنها في جميع الحالات الأخرى، آخر من يقيم أحد لشعورها وزناً. كان أخوها وأختها على علم بالأمر، وقد اتخذا منه مجالاً للمباهاة ببقايا أسطورة عائلتهما العريقة وكانت أختها تثبت عراقة الأسرة باحتقار الشاب المسكين كلما رأته يتسكع في فناء السجن آملاً أن يرى لمحة من حبيبته؛ وكان أخوها تيب يؤكد عراقة أسرته، على طريقته الخاصة، باتخاذ هيئة الشقيق الأرستقراطي الذي كان يُقبِل على فناء السجن مختالاً يحيي بعض النزلاء بانحناءة خفيفة من رأسه المرفوع في شموخ، لم يكن هذان فقط في أسرة دوريت الصغيرة اللذين يتخذان هذا الموقف، لا.. لا. فهناك أيضاً والد سجن مارشاليزا الذي كان مفروضاً أنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع بطبيعة الحال، لأن كبرياءه الهزيلة لا تستطيع أن تهوي إلى هذا المستوى، إلا أنه كان يتقبل هدايا يوم الأحد من السيجار في سرور، وكان في بعض

الأحيان يتكرم ويتمشى في الفناء مع المُهدي -الذي كان عندئذ يمتلئ زهواً وأملاً- ويتنازل بتدخين سيجار أمامه تكريماً له. وبنفس هذا التواضع والتنازل كان يتقبل بعض المجاملات من شيفري الكبير، الذي كان دائماً يقدِّم إليه مقعده الوثير وصحيفته كلما أقبل والد سجن مارشاليزا إلى غرفة الحراسة في أثناء وجود شيفري بها. وقد زاد هذا في مجاملاته فذكر للوالد أنه في مقدوره إذا شاء أن يمشي إلى الفناء الخارجي بعد الغروب ليلقي نظرة على الشارع. وإذا كان والد مارشاليزا لا يفعل هذا، فإنما لأنه فَقَدَ كل اهتمام بما وراء أسوار السجن. وكان يقول أحياناً وهو يتقبل كل شيء يمكن أن يحصل عليه «إن شيفري هذا إنسان مهذب جداً، وعلى شيء كثير من اللباقة والأدب. كذلك أيضاً شيفري الصغير. إنما في الواقع يدركان حقيقة مركزي هنا. وبالإجمال فإن آل شيفري قوم مهذبون، وإن سلوكهم معي يرضيني ويبهجني».

وفي أثناء هذا كله كان الصغير جون، المحب الوفي، ينظر إلى أسرة دوريت في احترام وتوقير. إنه لم يحاول أبداً أن يسخر من تظاهر أفرادها بالترفع والشموخ، وإنما كان يعرب عن احترامه لكل هذه المظاهر الكاذبة المصطنعة. أما استنكاره لأية إهانة من أخيها، فقد كان يشعر تماماً -حتى لو لم يكن يجنح بطبيعته إلى السلم- بأن إطلاق لسانه أو رفع يده ضد هذا السيد المقدس يعتبر ذنباً لا يُغتفَر. وكان يشعر بالأسف لأن تفكيره النبيل يستنكر مثل هذه الإهانات. ومع ذلك كان يرى أن هذا الاستنكار لا يتعارض مع نبل تفكيره، ومن ثم كان يبذل جهده في محادثة ومجاملة ذلك الإنسان البطل.

أما والدها، وهو الكريم الذي يعيش في محنة، والإنسان المهذب اللطيف، فكان يحترمه حقاً. وكان رغم شعوره نحو أختها بأنها فتاة على شيء من الغرور والكبرياء، إلا أنه كان يراها سيدة شابة موفورة المواهب،

لا تنسى ماضيها الكريم. أما دوريت الصغيرة، فكانت بساطتها ووداعتها من الأسباب التي جعلته يشعر غريزياً بقيمتها، وباختلافها عن الآخرين، ودفع به إلى أن يحترمها ويحبها.

وكان متجر التبغ في منعطف شارع «هور سمنجر» يقوم في بناء بسيط مكوّن من طابق واحد مما جعله يستفيد بوسائل التهوية المنبعثة من أفنية سجن «هور سمنجر» القريب؛ وكانت مالية المتجر لا تكاد تحتمل تزيين واجهته بتمثال من الحجم الطبيعي لرجل اسكتلندي يدخِّن السيجار، ومن ثم اقتصر الأمر على تزيينها بتمثال صغير قائم على مصباح في مدخل الباب، كان يبدو كملاك هابط يرى أن التدخين من الضروريات.

ومن هذا المدخل المزين على هذا النحو، وبعد الفراغ من غداء مبكر مكون من اللحوم المشوية، خرج جون الصغير إلى مهمته المعتادة في يوم الأحد، ولم يكن خالي اليدين، وإنما حمل معه هدية السيجار. وكان مرتدياً -بعناية- سترة برقوقية اللون ذا ياقة من المخمل الأسود في أكبر حجم يمكن أن يناسب جسمه وصداراً حريرياً موشى بخيوط ذهبية التطريز، ومنديل رقبة شفافاً يلائم ذلك اليوم، ومرسوماً عليه مربي لطيور الدراج البنفسجية على أرضية ذهبية اللون، وسراويل مسرفة الزخرفة بخطوط رأسية جانبية بحيث بدا كل سروال على حدة كأنه قيثارة بثلاثة أوتار وقبعة عالية جداً وصلبة جداً. ولما رأت السيدة شيفري -الحكيمة- أن ابنها يحمل، عدا هذا كله، قفازاً من الجلد الأبيض، وعصا صغيرة ذات قبضة من العاج يستعين بها في سيره، ولما رأت أنه انعطف في سيره نحو اليمين وهو على هذه الهيئة، قالت للسيد شيفري، الذي كان في البيت عندئذ، إنها تظن أنها عرفت إلى أين هو ذاهب.

وكان نزلاء السجن يستقبلون عدداً كبيراً من الزائرين في أصيل ذلك اليوم، وكان والدهم ملتزماً غرفته انتظاراً للهدايا التي سوف تُقدَّم

إليه. وبعد أن قام حبيب دوريت الصغيرة بدوره في الفناء، أسرع بقلب مشوق صاعداً إلى غرفة والدها وطرق على بابها بظاهر يده.

سمع صوتاً كريماً يقول له:

- ادخل، ادخل..

وكان صوت الوالد، والدها هي، ووالد سجن مارشاليزا. وقد رآه جالساً بقلنسوته المخملية السوداء والصحيفة في يده؛ وعلى المائدة أمامه مبلغ ثلاثة شلنات ونصف تركه أحدهم عرضاً، ومقعدان معدان للزوار.. أي كان كل شيء معداً لحفلة الاستقبال.

- آه، الشاب جون! كيف حالك.

- على خير ما يرام، شكراً يا سيدي، وأرجو أن تكون كذلك.

- أجل يا جون شيفري، أجل.. ليس هناك ما يدعو للشكوى.

- لقد تجرأت يا سيدي وأحضرت..

- إه..؟

وكان والد مارشاليزا يرفع حاجبيه دائماً في هذه اللحظة، ويبدو عليه الذهول ويبتسم في شرود ذهن.

- قليلاً من السيجار يا سيدي.

- أوه..

ويتظاهر الوالد بالدهشة البالغة عندئذ، ويردف قائلاً:

- شكراً أيها الشاب جون، شكراً. ولكنني في الحقيقة أخشى أن.. لا؟! حسناً إذن، لن أقول أكثر من هذا. ضعها على رف المدفأة إذا سمحت أيها الشاب جون. اجلس، اجلس.. إنك لست غريباً يا جون.

- شكراً لك يا سيدي، أرجو أن تكون الآنسة..

وهنا راح جون يدير قبعته الكبيرة حول يده اليسرى، وكأنه يدير ببطء مصيدة فئران ثم أردف قائلاً:

- هل الآنسة إيمي بخير يا سيدي؟

- أجل يا جون، أجل.. إنها في أحسن حال، وهي في الخارج الآن.

- أحقاً يا سيدي؟

- أجل يا سيدي، لقد خرجت إيمي للنزهة، إن أبنائي الشبان يكثرون من الخروج، ولكن هذا أمر طبيعي بالنسبة لمن كان في مثل أعمارهم.. تماماً يا سيدي، لا شك في هذا.

وقال الوالد وهو ينقر -في غير وعي- بأصابعه على المائدة ويلقي بنظراته إلى النافذة:

- نزهة، نزهة، أجل، لقد خرجت إيمي للنزهة عند جسر أيرن بريدج لقد أصبحت في الأيام الأخيرة مغرمة بهذا الجسر ويبدو أنها تفضل النزهة فوقه على النزهة في أي مكان آخر.

ثم عاد إلى حديثه مع جون وقال له:

- إن والدك لا يقوم بنوبته عند البوابة الآن. أليس كذلك يا جون؟

- أجل يا سيدي. لسوف يقوم بنوبته في وقت متأخر بعد الأصيل.

وبعد دورة أخرى من قبعته الكبيرة، أردف الشاب جون قائلاً وهو ينهض:

- أخشى أن يكون الوقت قد حان لأودعك يا سيدي.

فقال الوالد في تنازل شديد:

- أبهذه السرعة؟ طاب يومك أيها الشاب جون، لا، لا.. لا داعي لأن تخلع قفازك أيها الشاب جون، صافحني به، فأنت لست غريباً هنا كما تعلم.

وهبط الشاب جون السلّم وهو جد مبتهج بما لقيه من كرم الاستقبال، وقد شاهد في أثناء هبوطه بعض النزلاء وهم في الطريق مع بعض الزائرين لتقديمهم إلى السيد دوريت الذي حدث أن كان في تلك اللحظة يهتف من فوق سياج السلم قائلاً لجون:

- شكراً جزيلاً على هديتك اللطيفة يا جون.

ولم يلبث حبيب دوريت الصغيرة أن دفع الرسم الضئيل للمرور على جسر أيرن بريدج وسار عليه يتلفت بحثاً عن حبيبته. وخشي في أول الأمر ألا تكون هناك. ولكن بينما كان يسير في اتجاه جانب ميدلسكس، رآها واقفة في سكوت تنظر إلى الماء وهي مستغرقة في أفكارها، وتساءل هو في نفسه عما قد يكون مدار تفكيرها. وكانت تمتد أمامه أكوام أسقف المنازل والمداخن التي لم يكن الدخان يتصاعد منها بنفس كثرة تصاعده في أيام الأسبوع الأخرى كما كانت تلوح عند الأفق البعيد صواري السفن وأبراج الكنائس. إه؟ لعلها كانت تفكر في هذا.

وطال استغراق دوريت الصغيرة في تفكيرها، وقد بلغ بها هذا الاستغراق أنها لم تتحرك من مكانها رغم وقوف حبيبها بجانبها فترة خالها طويلة، ورغم انسحابه مرتين أو ثلاثاً ثم عودته إلى مكانه الأول بجانبها. ومن ثم قرر أخيراً أن ينصرف لحظة ثم يعود مرة أخرى ليتظاهر بأنه رآها عرضاً ثم يتحدث إليها. وكان المكان هادئاً، ومن ثم رأى أنه إما أن يتحدث معها عندئذ وإما أن تضيع الفرصة نهائياً.

وتقدم نحوها، ولاح أنها لم تسمع خطواته إلا بعد أن أصبح بجوارها قائلاً:

- الآنسة دوريت؟

وأجفلت هي، وتراجعت عنه قليلاً وقد ارتسمت على وجهها أمارات الخوف مع شيء من النفور الذي أثار في نفسه أبلغ الاستياء.

وكانت تتجنبه من قبل أحياناً، بل في الواقع، دائماً، ومنذ مدة طويلة.. طويلة. كانت تستدير عنه، وتمضي بعيداً، في أغلب الأحيان، عندما تراه قادماً نحوها بحيث لم يكن المسكين جون يستطيع أن يظن أنه تصرف غير مقصود منها. ولكنه كان يأمل أن يكون هذا التصرف راجعاً إلى خجلها أو إلى طبيعتها المنطوية أو إلى علمها بما يضطرب في قلبه نحوها. أما نظرتها إليه الآن، فكانت تقول له بوضوح:

- كنت أفضل أن أرى أي إنسان آخر في هذه الدنيا إلا أنت.

ولكنها كانت نظرة وقتية خاطفة لم تلبث أن صرفتها قائلة بصوتها الهادئ الرقيق:

- أوه! السيد جون! أهذا أنت؟

ولكن كان يدرك حقيقة الموقف، كما أدركته هي، ومن ثم وقف الاثنان يتبادلان النظرات في ارتباك.

- أخشى يا آنسة إيمي أن أكون قد أزعجتك بحديثي معك.

- أجل.. أجل. لقد جئت إلى هنا لأتفرد بنفسي.. وكنت أظن أني كذلك.

- لقد تجرأت يا آنسة إيمي على المجيء إلى هنا لأن السيد دوريت ذكر لي عَرَضاً عندما زرته منذ قليل، أنك..

وأثارت في نفسه المزيد من الاستياء عندما راحت تتمتم بصوت يمزق نياط القلب وهي تشيح بوجهها:

- أوه أبي، أبي..

- أرجو يا آنسة إيمي ألا أكون قد أزعجتك بذكر اسم والدك الآن. أؤكد لك أنني وجدته في أحسن حال وأهدأ بال، وقد شملني بعطفه أكثر من المعتاد، ولا سيما حين قال لي إني لست غريباً عنكم. وقد أشاع في نفسي كل الرضا.

وأمام هذا الأسى العميق الذي يند عن الوصف، والذي امتلأ به قلب حبيبها راحت تغمغم قائلة وهي لا تزال تخفي عينيها بيديها وتتمايل على الجانبين كأنها تشعر بأشد الألم.

- أوه، أبي.. كيف يمكنك.. أوه، يا أبي العزيز، كيف يمكنك، كيف يمكنك أن تفعل هذا؟

ووقف الشاب المسكين يحملق فيها وقد فاض قلبه بالعطف عليها، ولكنه لم يدرِ ماذا يمكن أن يفعل، إلى أن تناولت منديلها ومسحت وجهها الذي ظل مشيحاً عنه، ثم انصرفت مسرعة. وظل هو في بادئ الأمر متسمراً في مكانه، ثم أسرع وراءها قائلاً:

- أرجوك يا آنسة إيمي! هل تتكرمين بالتوقف لحظة.. إذا كان الأمر على هذا النحو، فدعيني أنصرف. إنني سأفقد عقلي إذا خطر لي أنني تسببت في إزعاجك هكذا.

وقالت دوريت الصغيرة بعد أن توقفت حين سمعت صوته المتهدج وما ينطوي عليه من لهفة صادقة:

- أوه، إنني لا أدري ماذا أفعل، لا أدري ماذا أفعل.

وأدرك الشاب جون -الذي لم يرها من قبل إلا هادئة، وموضع الثقة ومسيطرة على نفسها منذ طفولتها- أن شيئاً ما عنيفاً قد أثار حزنها،

ولما خيل إليه أنه قد يكون السبب فيما حدث لها، أخذ يرتعد من قمة رأسه إلى قدميه. وشعر أن من واجبه أن يفسر موقفه. فلعلها أن تكون قد أساءت فهم مقاصده، أو ظنت أنه يعني شيئاً أو يريد شيئاً لم يخطر بباله لحظة. والتمس منها أن تسدي إليه أجلّ صنيع، وذلك بأن تسمح له بشرح موقفه أمامها:

- إنني أعرف تماماً يا آنسة إيمي أن أسرتك أسمى كثيراً من أسرتي وأرفع شأناً. فلا جدوى من إخفاء هذه الحقيقة.. فلم يحدث أبداً أن كان في أسرة شيفري إنسان من طبقة السادة، ولن أهبط إلى مستوى الادعاء الباطل في أمر كهذا. وأنا أعرف تماماً يا آنسة إيمي أن أخاك الرفيع الشأن، وكذلك أختك الكريمة ينظران إليّ باحتقار. إلا أنني أرى من واجبي أن أحترمهما، وأتمنى أن أنعم بصداقتهما، وأن أتطلع إليهما في مكانهما الرفيع، من مكاني المنحط، لأنني سواء كنت في متجر التبغ أو عند بوابة السجن أعرف أنني في مثل هذا المكان، ومن ثم فإني أتمنى دائماً أن يكونا في أحسن حال وأنعم بال.

وكانت في لهجة الشاب المسكين رنّة صدق ظهر من خلالها التنافر الكبير بين صلابة قبعته ورقّة قلبه -وربما رأسه أيضاً- ومن ثم راحت دوريت الصغيرة ترجوه ألا يحتقر نفسه أو مكانته، وأهم من هذا كله أن يحرر ذهنه من التفكير في أنها تعتقد أنها أرفع منه شأناً وهنا قال متلعثماً وقد هدأت نفسه شيئاً:

- يا آنسة إيمي.. إن في قلبي أمنية عزيزة كانت تتردد فيه منذ أمد بعيد منذ أجيال وأجيال كما يلوح لي وهي أن أقول لك شيئاً، فهل أقوله الآن!

وبلا وعي جفلت دوريت الصغيرة من جانبه مرة أخرى وقد طافت بوجهها لمحة من السمات السابقة، ولكنها تمالكت نفسها، ومضت بسرعة بالغة تعبر الجسر دون أن تجيب.

– هل تسمحين يا آنسة إيمي! إنني أسألك بكل تواضع، هل تسمحين أن أقول؟ إنني الآن أشعر فعلاً بالتعاسة لأني سببت لك الألم دون أي قصد مني بحق السماء! وتأكدي أنني لن أقول ما في نفسي إلا إذا سمحت لي. إنني أستطيع أن أكون شقياً بمفردي، وأن أكون بائساً وحدي فلماذا أكون سبباً في شقاء وبؤس إنسانة أفضِّل أن أسعدها ولو لحظة واحدة حتى لو ألقيت بنفسي من أعلى برج! وليس هذا بالشيء الكثير، لأني أستطيع أن أقوم به نظير بنسين.

وكان رنين البكاء في صوته، مع بهاء مظهره من العوامل التي قد تجعله يبدو مضحكاً. ولكن رقته جعلته يبدو محترماً وقد تعلمت دوريت الصغيرة منها ماذا ينبغي أن تفعل.

وردت عليه بصوت مرتعد، ولكن بأسلوب هادئ:

– أرجوك يا جون شيفري. ما دمت قد تكرمت وسألتني هل أسمح لك أن تقول ما في نفسك أم لا، فأنا أرجو ألا تقول شيئاً.

– أبداً يا آنسة إيمي؟

– أجل، أرجوك، أبداً.

فشهق الشاب جون قائلاً:

– أوه، يا إلهي!

– ولكن لعلك تسمح لي، بدلاً من هذا، أن أقول أنا لك شيئاً. أريد أن أقول لك بكل إخلاص، وبأوضح معنى مستطاع إنك حين تفكر في أمرنا، في أخي وأختي وأنا، فلا تظن قط أننا نختلف عن غيرنا؛ لأنه أياً كان أمرنا في الماضي، وهذا ما لا أكاد أعرفه، فإننا لم نعد كما كنا منذ أمد بعيد، ولن نعود إلى ما كنا عليه أبداً. إنه من الأفضل كثيراً لك، ولغيرك أيضاً لو أنك ذكرت هذا بدلاً مما تفعله الآن.

قال الشاب جون بحزن إنه سيحاول أن يستوعب في ذهنه هذا، وإن من دواعي سروره العميق أن يفعل أي شيء يرضيها.

وقالت دوريت الصغيرة:

- أما أنا، فلا تفكر في أمري إلا أقل القليل؛ وكلما قلّ تفكيرك في أمري كان ذلك أفضل، فإذا حدث وفكرت فيّ يا جون، ففكر فيّ كطفلة رأيتها تنمو بين جدران السجن، وكفتاة كثيرة الإعياء والشواغل، وكإنسانة ضعيفة منطوية على نفسها، راضية بنصيبها، لا يرعاها أحد. إنني أحب أن تذكر على وجه خاص أنني حين أغادر بوابة السجن أغدو وحيدة عزلاء.

لقد كان مستعداً لتلبية ما تريده ولكن لماذا تريد إيمي أن تجعله يتذكر هذا بصفة خاصة!

وعادت دوريت الصغيرة تقول:

- ذلك لأني أستطيع عندئذ أن أثق بأنك لن تنسى ما حدث اليوم، ولن تقول لي شيئاً آخر. إن لك من كرم الأخلاق ما يجعلني أثق بك من هذه الناحية وأنا أثق بك الآن، وسوف أثق بك دائماً وسوف أريك على الفور أنني أثق بك ثقة تامة، وأنا أحب هذا المكان الذي نتحدث فيه الآن أكثر من أي مكان آخر أعرفه.

كان لون وجهها الخفيف قد انحسر، ولكن خطر لحبيبها أن هذا اللون قد عاد وهي تستطرد قائلة:

- وربما أكون هنا كثيراً. وأنا أعرف أن من واجبي أن أقول لك هذا، لكي أتأكد تماماً أنك لن تأتي إلى هنا أبداً للبحث عني، وأنا.. وأنا واثقة منك تماماً.

فقال الشاب جون إن في مقدورها أن تعتمد عليه في هذا الشأن، ورغم إحساسه بالبؤس والشقاء، فقد كان يرى أن رغبتها قانون بالنسبة له.

وقالت دوريت الصغيرة:

- والآن وداعاً يا جون. وأنا أرجو أن تكون لك زوجة طيبة ذات يوم، وأن تعيش حياتك سعيداً. فأنا واثقة بأنك تستحق أن تكون سعيداً، وسوف تكون يا جون.

وفيما هي تمسك يده بيدها في أثناء هذه الكلمات: كان قلب جون تحت صدريته المطرزة بخيوط ذهبية، وهي مجرد خيوط براقة تافهة إذا ذكرنا الحقيقة، قد انتفخ إلى حجم قلب سيد رفيع الشأن، ولما كان جون شاباً عادياً صغيراً، فإن قلبه لم يجد في صدره المجال للانتفاخ، فانفجر باكياً.

فقالت دوريت الصغيرة في رثاء:

- أوه، لا تبكِ، لا.. لا.. وداعاً يا جون. وليبارك الله فيك.

- وداعاً يا آنسة إيمي، وداعاً..

وهكذا انصرف عنها بعد أن لاحظ أنها جلست على جانب مقعد، ولم تكتفِ بإراحة يدها فقط على الجدار الخشن، وإنما أسندت رأسها إليه أيضاً كأنها ثقيلة وكأنما الأفكار الحزينة تملأ ذهنها.

ولعلها أن تكون صورة مؤثرة من المناقضات الإنسانية، أن ترى هذا الحبيب بقبعته الكبيرة المنحدرة على عينيه، وياقة سترته المخملية المرفوعة كأنما المطر انهمر، وسترته البرقوقية اللون مزررة لتخفي الصديري الحريري ذا الخيوط الذهبية، وعصاه الصغيرة المتجهة به نحو البيت، يدلف في أسوأ الشوارع الجانبية، ويفكر في أثناء سيره في هذه العبارات الجديدة التي قد تحفر على شاهد قبر في فناء كنيسة سانت جورج:

«هنا ترقد بقايا جون شيفري، الذي لم يكن قط شيئاً يستحق الذكر، والذي مات في نهاية عام ألف وثمانمائة وست وعشرين محطم القلب، راجياً بأنفاسه الأخيرة أن يُكتَب اسم «إيمي» على بقايا جسمه. وقد حقق والداه الحزينان هذا الرجاء».

علاقتان أو ثلاث في حياة سجناء مارشاليزا



كان الأخوان ويليام وفريدريك دوريت يتمشيان جيئةً وذهاباً في فناء السجن، وطبعاً في الجانب الأرستقراطي، الخاص منه؛ لأن والد السجن كان حريصاً على أن ينأى بنفسه عن الجانب الشعبي إلا في أيام الآحاد والأعياد وغيرها من المناسبات، حيث يكون عندئذ في غاية الرقة، وحيث يضع يده على رؤوس أطفالهم، ويبارك الصغار المفلسين في بر وحدب ينمّان عن دماثة وتهذيب.. نقول إن الأخوين كانا يتمشيان معاً جيئةً وذهاباً في فناء السجن، ويبدوان في منظر لا يُنسى. إذ كان فريدريك، الطليق، ذليل الهيئة محني القامة، جاف العود، شاحب البشرة، بينما كان ويليام السجين مهيباً، شامخاً في لطف، واثقاً في رقة من مكانته، ومن ثم فإن منظر الأخوين، من هذه الزاوية فقط، كان مثيراً للدهشة والعجب.

كانا يتمشيان جيئةً وذهاباً في الفناء وفي نفس المساء الذي تقابل فيه حبيب دوريت الصغيرة بها على جسر أيرن بريدج. وكانت «أعباء الحكم» قد انتهت في ذلك اليوم، وغرفة الاستقبال قد أحسن إعدادها، والهدايا الكثيرة الجديدة قد قُدِّمت، والقطعة ذات الشلنات الثلاثة والنصف التي تُرِكت عَرَضاً على المائدة قد زادت إلى اثني عشر شلناً عَرَضاً أيضاً.. وأنعش والد سجن مارشاليزا نفسه بتدخين سيجار في أثناء تمشيه ذهاباً وجيئةً في الفناء، محاولاً أن يوائم خطواته مع خطوات أخيه

الثقيلة، حريصاً على أن يبدو متواضعاً مع ذلك الأخ المسكين، متحملاً صحبته، معرباً عن هذا الاحتمال لعيوبه بنفخات من دخان سيجاره، وكانت تتصاعد من شفتيه حلزونية حيث تختفي وراء الأسوار الشائكة. وبالإجمال كان منظره في الواقع مثيراً للعجب!

وكان أخوه فريدريك بعينه العشواء، ويده المرتعدة، وجسمه المنحني، وذهنه الحائر، يسير بجانبه في خضوع وبخطوات ثقيلة، مقراً بفضله كما اعتاد أن يقر كل شيء في هذا العالم المعقد الذي ضاع فيه. وكان يمسك كالمعتاد بيده هذه القطعة الملفوفة من الورق الأبيض، التي كان يفضها بين الحين والآخر ويتناول منها كمية لا بأس بها من السعوط. فإذا استنشقها بيد مرتعدة، نظر إلى أخيه في شيء من الإعجاب، ثم وضع يديه وراء ظهره، وسار بجانبه متعثراً حتى يتناول كمية أخرى من السعوط، أو يقف متلفتاً حوله، إذ يكون عندئذ قد افتقد قيثارته.

وكان زائرو السجن قد بدؤوا ينصرفون حين شرعت ستائر الليل تنسدل ولكن الفناء، مع هذا، ظل مزدحماً، لأن معظم النزلاء كانوا قد اجتمعوا فيه لتوديع زائريهم عند البوابة. وفيما كان الأخوان يذرعان الفناء، أخذ ويليام السجين يتلفت حوله ليتلقى التحيات ثم يردّها برفع قبعته في أدب، حريصاً في الوقت نفسه على منع أخيه الطليق من الاصطدام بأحد أو بجدار السور. ولم يكن من السهل التأثير في النزلاء كمجموع، ولكنهم جميعاً، على اختلاف نزعاتهم كانوا يجدون في الأخوين منظراً مثيراً للعجب.

قال والد سجن مارشاليزا:

- إنك في هذه الليلة مكتئب بعض الشيء يا فريدريك، فهل حدث شيء؟

فقال وقد حلق بعينيه برهة قبل أن يعود ويطرق برأسه ويسبل عينيه:

- حدث شيء؟! لا يا ويليام، لا.. لم يحدث شيء.

- لو أمكن إغراؤك بالعناية بمظهرك قليلاً يا فريدريك..

فقال فريدريك متعجلاً:

- أجل، أجل.. ولكنني لا أستطيع.. لا أستطيع، فلا داعي للحديث في هذا الشأن... لقد انتهى كل شيء.

وأرسل والد سجن مارشاليزا نظرة إلى أحد نزلاء السجن كان يمر في تلك اللحظة، وكان على علاقة طيبة به، وكأنما يريد أن يقول له «إن هذا الذي بجانبي رجل عجوز ضعيف، ولكنه أخي يا سيدي، أخي، وليس هناك أقوى من رباطة الدم» ثم يقود أخاه من كم سترته البالية بعيداً عن ذراع «طلمبة» الماء؛ والواقع أنه كان من الممكن أن تتكامل شخصيته كشقيق ناصح، وفيلسوف وصديق، لو أنه فقط أبعد أخاه عن التهلكة، بدلاً من أن يلقيه فيها.

وقال فريدريك الذي هو مدار ذلك العطف والحنان:

- أظن يا ويليام أنني متعب، ولسوف أعود إلى البيت للنوم.

فردّ الآخر قائلاً:

- يا عزيزي فريدريك، لا تدعني أحتجزك. ولا تضحِّ براحتك من أجلي.

وقال فريدريك:

- أعتقد أن السهر، والجو الحار، وتقدم السن قد أضعفت صحتي.

فرد والد سجن مارشاليزا على هذا قائلاً:

- يا عزيزي فريدريك، أتظن أنك تولي نفسك العناية الكفاية؟ أتظن أنك دقيق منظم في تصرفاتك كما هو شأني مثلاً! لا داعي للحديث في هذا الموضوع الآن. ولكنني أشك في أنك تنال كفايتك من النزهة والهواء الطلق يا فريدريك، ها هنا مجال للسير جيئةً وذهاباً، وهو تحت أمرك، فلماذا لا تستفيد منه أكثر مما تفعل الآن.

فتنهد الآخر قائلاً:

- ها! أجل، أجل، أجل.

فقال والد سجن مارشاليزا في إصرار مقرون بالحكمة والوداعة:

- ولكن لا جدوى من قولك أجل، أجل يا عزيزي فريدريك ما لم تعمل بما تقول، انظر إلى حالتي يا فريدريك، إنني أعتبر مثلاً. لقد علمتني الضرورة والأيام ماذا ينبغي أن أفعل. إنك تجدني في ساعات معينة أتمشى في الفناء، أو في غرفتي، أو في غرفة حارس السجن، أو أقرأ الصحيفة، أو أستقبل الزوار، أو أتناول الطعام أو الشراب. لقد عودت إيمي على أنني يجب «مثلاً» أن أتناول وجبات طعامي في مواعيد محدودة. وقد نمت إيمي وهي تقيم وزناً كبيراً لمثل هذه الترتيبات، وأنت تعرف أي فتاة طيبة هي.

وتنهد الأخ مرة أخرى وهو يمضي في سيره حالماً متثاقلاً يتمتم قائلاً:

- ها، أجل، أجل، أجل..

فقال والد سجن مارشاليزا وهو يضع يده على كتفه ويهزه برفق، لأن المسكين كان جد ضعيف:

- لقد قلت هذا من قبل يا أخي العزيز، وإن ما تقوله لا يعبر عن شيء كثير يا فريدريك، حتى لو كان يعني شيئاً كثيراً. إنني أتمنى لو استطعت أن أثيرك، إنك في حاجة للإثارة.

فقال الآخر وهو يرفع عينيه الخابيتين إلى وجهه:

- أجل يا ويليام، أجل. ولكنني لست مثلك.

فقال والد سجن مارشاليزا وهو يهز كتفيه في إشفاق:

- أوه، إنك قد تكون مثلي يا عزيزي فريدريك. من الممكن أن تكون إذا أردت.

ثم امتنع عن التأثير على أخيه أكثر من هذا.

وكانت عمليات التحية والوداع تدور بكثرة في جوانب الفناء كما هو الشأن دائماً في أمسيات أيام الآحاد. وهنا وهناك في الظلام، كان ثمة امرأة محزونة، أم، أو زوجة، تبكي مع نزيل جديد. وقد جاء الوقت الذي كان فيه والد السجن نفسه، يبكي في ظلال الفناء مع زوجته المسكينة. ولكن كان هذا منذ أعوام طوال. أما الآن، فلقد أصبح كمسافر على سفينة في رحلة طويلة، فلم يعد يتأثر بدوار البحر، وإنما أصبح يضيق بضعف المسافرين الجدد في هذا المجال عندما يعتلون ظهر السفينة في آخر ميناء وقفت به، ومن ثم كان يحتج ويعرب عن رأيه بأنه لا مجال في السجن للذين لا يستطيعون الحياة بلا بكاء. وكان بتصرفاته -إن لم يكن بكلماته- يؤكد استياءه من هذه المنغصات التي تفسد رتابة الحياة في السجن. ولهذا كان مفهوماً تماماً أن على الذين يضعفون ويبكون، أن ينسحبوا بعيداً عنه إذا رأوه.

وفي مساء ذلك الأحد، صحب أخاه إلى البوابة في هيئة الإنسان الصابر المتجلد الذي لا يجد بأساً في أن يغض النظر عن مظاهر البكاء حوله. وفي أضواء المصابيح القوية، كان عدد كبير من النزلاء واقفين، بعضهم يودعون الزائرين، وبعضهم بلا زائرين، وإنما وقفوا ينتظرون إغلاق البوابة، ويتبادلون الحديث معاً أو مع السيد شيفري. وبطبيعة الحال أثار

وصول والد السجن موجة من الاهتمام بينهم، فرفع حارس البوابة يده بالمفتاح إلى قبعته «في تحية قصيرة» وهو يرجو أن يكون في حالة طيبة.

وقال والد السجن له رداً على سؤاله:

- شكراً يا شيفري. إنني كذلك، وكيف حالك أنت.

فقال السيد شيفري في صوت خافت مدمدم:

- أوه، إنه في حالة طيبة.

وكانت تلك طريقته في الإجابة عن أي سؤال عن صحته إذا كان مستاءً من شيء.

- لقد زارني الشاب جون اليوم يا شيفري، وكان يبدو أنيقاً جداً أؤكد ذلك.

وهذا ما يعرفه السيد شيفري، ولكنه لا بد أن يعترف أيضاً أنه لا يريد لابنه أن ينفق كثيراً في هذا المجال. إذ ماذا أفاد من ذلك؟

لقد عاد في حالة استياء شديد، ومن الممكن أن يحصل الإنسان على الاستياء بلا مقابل!

وسأله الوالد الرحيم:

- أتقول إنه عاد مستاءً، لماذا يا شيفري!

- لأنه لم يوفَّق.. ولكن لا عليك. هل سينصرف السيد فريدريك.

- أجل يا شيفري، إن أخي سيعود إلى بيته للنوم، إنه متعب وحالته ليست كما ينبغي. طاب مساؤك يا عزيزي فريدريك.

وبعد أن صافح فريدريك أخاه، ورفع يده إلى قبعته القذرة تحية للواقفين بالقرب من البوابة، سار بخطواته الثقيلة البطيئة في طريق

الخروج منها بعد أن فتحها له شيفري، وقال والد سجن مارشاليزا مُظهِراً اهتمامه بأخيه حتى لا يصيبه مكروه:

- دع البوابة مفتوحة برهة يا شيفري حتى أراه وهو يسير في الممر ويهبط السلم. كن على حذر يا فريدريك «إنه يتمايل» خذ بالك من السلم «إنه شارد الذهن» كن حريصاً وأنت تعبر الطريق «إنني في الواقع غير مطمئن إلى سيره هكذا على غير هدى، إنه معرض جداً لأحداث الطريق».

بمثل هذه العبارات، وبوجه ينم عن القلق والإشفاق، استدار والد السجن إلى النزلاء المجتمعين بالقرب من البوابة ونظر إليهم في هيئة تدل بوضوح على أن أخاه جدير بالرثاء لأنه لا يعيش سالماً وراء بوابة مغلقة أو هذا على الأقل ما شاع بين النزلاء من نظرته إليهم.

ولكنه لم يكتفِ بهذا، وإنما -على العكس- راح يقول إنه لا يريد منهم أن يسيئوا فهمه، وإن أخاه فريدريك وهو لا شك محطم تماماً، يثير اهتمامه ويجعله يشعر براحة أكثر لو أنه كان في أمان بين أسوار السجن. ولكن لا ينبغي أن ينسى أحد، مع هذا، أن الإقامة بين أسوار السجن سنوات طويلة تحتاج إلى مؤهلات -وهو لم يقل مؤهلات عالية- وإنما مؤهلات أخلاقية. فهل يمكن القول إن أخاه فريدريك يتمتع بهذه المؤهلات الخاصة. أيها السادة لقد كان فريدريك رجلاً ممتازاً جداً، ومهذباً جداً، ورقيقاً، ومحترماً، وبسيطاً كطفل. ولكنه، وهو الذي لا يصلح لحياة في أماكن أخرى كثيرة، يستطيع أن يصلح للحياة هنا؟ لا! إن السماء نفسها تأبى أن يعيش فريدريك في هذا المكان وهو على هذا النحو من الضعف. أيها السادة، إن أي إنسان يأتي إلى هذا السجن ليعيش فيه مدة طويلة، لا بد له أن يكون قوي الشخصية ليحتمل الشيء الكثير، وليخرج من المحنة بالشيء الكثير. فهل أخوه فريدريك هو ذلك الإنسان؟ لا. لقد رأوه بأنفسهم محطماً حتى وهو طليق. لقد حطمته

ظروف الزمان. وهو ليست لديه القوة الكافية للتجلد، والمرونة لكي يبقى في هذا المكان مدة طويلة دون أن يفقد احترامه لنفسه ودون أن يتخلى عن شعوره بأنه سيد مهذب. ليس لفردريك -إن جاز له أن يقول هذا- القوة الكافية التي تجعله يرى في الاهتمامات البسيطة -مثل الواجبات والمكرمات التي يقدمها بعض النزلاء لي- دليلاً أكيداً على ما في الطبيعة البشرية من خير، وعلى روح المودة التي تشيع بين الزملاء في مجتمع واحد، وذلك دون أن يحط من قيمتها في نفس الوقت، أو ينال من حقه في الشعور بأنه إنسان كريم. أيها السادة، بارككم الله.

كانت تلك هي موعظته أو خطبته التي ألقاها على المجتمعين عند البوابة شارحاً بها موقفه من أخيه، وذلك قبل أن يستدير في اتجاه الفناء مرة أخرى، ليمضي بكبريائه البائسة أمام الزميل الذي لم يكن لديه معطف فارتدى بدلاً منه طيلسانه، والزميل الذي لم يكن لديه حذاء فانتعل (شبشباً) مما يُستعمَل على شواطئ البحار، والزميل بائع الخضار الضخم الذي يرتدي سراويل قصيرة، ولا يبالي بشيء، والزميل الكاتب النحيل الذي يرتدي معطفاً أسود بلا أزرار، وبلا آمال. أمام هؤلاء جميعاً مضى والد السجن إلى السلّم القديم الحقير، ومنه إلى غرفته القديمة الحقيرة.

وهناك كان العشاء على المائدة، وجلباب نومه الرمادي معدّاً له وموضوعاً على ظهر المقعد بجوار المدفأة. ووضعت ابنته كتاب صلواتها الصغير في جيبها، هل تراها كانت تصلي من أجل السجناء البؤساء! ثم نهضت لاستقباله.

هل عاد عمها إلى بيته إذن؟ هكذا سألته وهي تساعده على خلع سرته وتقدم له قلنسوته المخملية السوداء. نعم، لقد عاد عمها إلى بيته. هل استمتع هو بنزهته في الفناء؟ لا، ليس كثيراً يا إيمي، ليس كثيراً. لا! ألا يشعر أنه في حالة طيبة!

وفيما هي تقف وراءه، وتنحني على مقعده في حب وحنان، أخذ هو يطرق بنظراته إلى نيران المدفأة، وقد خامره شعور مثير للقلق، وكأنه طيف من العار. ولما تحدث أخيراً، جاء حديثه متقطعاً ينم عن الحيرة والارتباك:

- إن شيئاً ما.. أجل.. إن شيئاً ما يثير استياء شيفري. إنه ليس.. ها.. أعني، إنه لم يكن الليلة مجاملاً ورقيقاً كعادته. إن الأمر.. إن الأمر طبعاً بسيط. ولكنه ضايقني يا حبيبتي. إن من المستحيل أن أنسى..

وهنا راح يدير يديه في الهواء ويمعن النظر إليهما قبل أن يردف قائلاً:

- إني وأنا أعيش هنا، لا بد لي للأسف الشديد، أن أعتمد في حياتي على هؤلاء الناس، في كل ساعة، وفي كل يوم.

وكان ذراعها على كتفه، ولكنها لم تكن تنظر إليه وهو يتحدث، وإنما أحنت رأسها ونظرت إلى الجهة الأخرى. واستطرد هو يقول:

- وأنا، أنا، لا أدري يا إيمي، ماذا دهى شيفري وأثار استياءه. لقد كان بوجه عام يحترمني ويقدِّرني. أما الليلة، فكان.. كان جافاً معي. وكان هناك بعض النزلاء أيضاً. ويحي! إني إذا فقدتُ تأييد شيفري وزملائه الحراس فقد أموت هنا جوعاً.

وكان وهو يتحدث يبسط ويقبض كفيه كأنهما صمامان، كما كان شعوره البالغ بالعار طيلة الوقت يجعله ينكمش خجلاً أمام كلماته نفسها.

- إني.. آها.. إنني لا أستطيع أن أعرف السبب. وأنا واثق أنني لن أستطيع أن أعرف السبب. كان هنا ذات مرة رجل يدعى جاكسون حارس لبوابة السجن بهذا الاسم، ولا أظن أنك تذكرينه يا عزيزتي لأنك كنت صغيرة جداً، وكان له.. أعني، كان له أخ أصغر منه وهذا الأخ الأصغر كان معجباً.. ولم يزد الأمر على مجرد الإعجاب والتقدير. نعم، كان معجباً

بابنة، لا، ليست ابنة، وإنها بأخت أحد الزملاء الممتازين هنا. نعم.. كان ممتازاً جداً. وكان اسمه الكابتن مارتن؛ وقد استشارني فيها إذا كان من الضروري أن تقف ابنته، أعني أخته موقفاً.. موقفاً واضح النفور جداً من شقيق الحارس. وكان الكابتن مارتن رجلاً من الكرام الشرفاء ولهذا طلبتُ منه، أولاً، أن يذكر لي رأيه الخاص في هذا الموضوع، ولم يتردد الكابتن مارتن -الذي كان موضع احترام بالغ في الجيش- من أن يذكر لي رأيه عندئذ، وقال إنه يلوح له أن.. أن أخته لا حاجة بها لأن تبدو جد صريحة مع الشاب وأن من الممكن لها أن تجامله، وأنا غير متأكد ما إذا كانت هذه عبارة الكابتن مارتن نفسها، ولكنني أعتقد أنه قال لو أنها استطاعت أن تحتمله من أجل أبيها أعني من أجل أخيها. إنني في الحقيقة لا أكاد أدري كيف تشعَّب الحديث بي إلى هذه القصة. أظن أنني ذكرتها حين قلت إنني لا أعرف سبب تجهم شيفري، أما العلاقة بين الأمرين، فإنني لا..

وخفت صوته، لأن يد دوريت امتدت تدريجياً وأغلقت فمه، وكأنها عجزت من فرط الألم أن تسمع المزيد من حديثه. ومرّت برهة من الصمت العميق والسكون الكامل. وظل هو منكمشاً في مقعده، وبقيت هي وذراعها حول عنقه ورأسها على كتفه.

وكان عشاؤه يُطهى في إناء على النار، فلما تحركت دوريت الصغيرة من مكانها، لكي ترفعه وتضعه على المائدة أمامه. واتخذ هو مقعده المعتاد، واتخذت هي مقعدها، وشرع في تناول عشائه. وحتى تلك اللحظة، لم يكن أحدهما قد نظر في وجه الآخر. ولكنه لم يلبث أن بدأ يعرب تدريجياً عن شعوره بالاستياء: فراح أولاً يلقي بالسكين والشوكة في عنف، ويتناول الأشياء بشدة، ويقضم الخبز بقسوة وكأنه غاضب منه، وهكذا. وأخيراً دفع بصحنه بعيداً، وقال بصوت مرتفع، وبثبات عجيب:

- ماذا يهم لو أني آكل أو أموت جوعاً؛ ماذا يهم لو أن حياتي البائسة هذه انتهت الآن، أو الأسبوع التالي، أو العام التالي؟ ما قيمتي أنا في نظر أي إنسان؟ مجرد سجين بائس يعيش على الصدقات وعلى فتات الموائد؛ شقي حقير مجلل بالعار.

وفيما هو ينهض، هتفت دوريت الصغيرة وقد ركعت أمامه ورفعت يديها إليه:

- أبي! أبي!

فاستطرد يقول بصوت مضغوط وهو يرتد بعنف، وينظر إليها بوحشية كأنها فَقَدَ عقله:

- إيمي، لو استطعت أن تريني كما كانت أمك تراني، لما صدقت أبداً أنني نفس المخلوق الذي لم تريه إلا من خلال قضبان السجن.

لقد كنت شاباً مقتدراً حسن الطلعة مستقلاً بأمر نفسي. كنت هكذا بحق الله أيتها الطفلة! وكان الناس يبحثون عني، ويلتمسون صحبتي، ويحسدونني.. يحسدونني!

وحاولت أن أتمسك باليد المرتعدة التي كان يلوح بها، ولكنه قاومها ودفع يدها بعيداً.

- لو أنه كان لي فقط صورة لنفسي في تلك الأيام، حتى لو لم تكن جيدة، لكنتِ فخورة بها، نعم، كنت تفخرين بها. ولكن ليس لدي شيء من هذا. والآن دعيني أنذرك. حذار أن تجعلي أي إنسان..

ثم دار بعينيه في أسى وأردف قائلاً بصوت مرتفع:

- يحرم نفسه على الأقل من الاحتفاظ بذكرى أيام رخائه واحترامه. دعي أبناءه يعلمون كيف كان من قبل. فلولا هذا، لما عرف أبناؤه -عندما يموت- كيف كان شكل وجهه من قبل.

- أبي، أبي!

- احتقريني، احتقريني، أشيحي بوجهك عني. لا تنصتي إليّ، أغلقي فمي، اخجلي مني، ابكي من أجل.. حتى أنت يا إيمي. افعلي هذا، افعليه! فأنا أفعله لنفسي، لقد تبلّدت الآن، لقد انحدرت إلى حد لم أعد معه أهتم كثيراً حتى بهذا.

فهتفت إيمي وهي تتعلق بذراعيه وتجلسه على مقعده مرة أخرى:

- أبي العزيز، أبي الحبيب، يا حبة قلبي..

ثم تلقفت ذراعه المرفوعة وحاولت أن تلفها حول عنقها وهي تردف قائلة:

- دعها هكذا يا أبي، انظر إليّ يا أبي، قبّلني يا أبي! فكّر فيّ فقط يا أبي، لمدة لحظة واحدة قصيرة.

ولكنه استمر في الحديث بذلك العنف رغم أن صوته أخذ يهبط تدريجياً في انتحاب يدعو للرثاء:

- ومع ذلك فإنني أجد بعض الاحترام هنا. لقد استطعت أن أقاوم المحنة بعض الشيء، إني لم أسمح لنفسي بأن أُداس تحت الأقدام. اخرجي واسألي من هو أهم شخصية في هذا المكان. لسوف يقولون لك إنه أبوك. اخرجي واسألي من هو الذي لا يستطيع أحد أن يعبث به، ومن هو الذي يعامَل دائماً بالرقة والاحترام. سيقولون لك إنه أبوك. اخرجي واسألي أي جناز هنا -ولا بد أن يكون هنا، لأني أعلم أن لا يمكن أن يكون في مكان آخر- سوف يكون موضع أكثر الأحاديث، وربما، وربما أكثر الحزن من أي جناز آخر حدث في هذا المكان. سيقولون لك إنه سيكون جناز أبيك. حسناً إذن. إيمي! إيمي. هل تظنين بعد هذا أن أباك موضع احتقار من الجميع؟ أليس هناك ما يدعو إلى احترامه وتقديره؟

ألن يكون هناك ما تذكرينه به غير السقوط والانحدار؟ ألن يمكنك أن تحملي له بعض الحب عندما يموت، منبوذاً، مسكيناً!

وانخرط في بكاء عنيف ينم به عن رثائه الشديد لنفسه، وأخيراً سمح لها أن تعانقه، وأن تتولى أمره، وأن تريح رأسه الشيباء على خدها وتتركه يندب سوء حظه. وبعد هذا غيّر موضوع نواحه، ثم عقد يديه حولها وهي لا تزال تعانقه، وصاح: «أوه، إيمي، أيتها الطفلة اليتيمة العزلاء أوه»، ما أكثر الأيام التي رآها فيها وهي تسعى من أجله ومن أجل راحته! ثم عاد وتحول إلى نفسه وقال لها، في صوت واهن: كيف كان حبها له سيزداد لو أنها عرفته في أيامه الخوالي، وكيف كان يمكنه عند ذاك أن يزوّجها بسيد شاب يفخر بها لأنها ابنته، وكيف كان يمكن -وهنا بكى مرة أخرى- أن تركب أولاً بجانبه في حفلة العرس على جوادها الخاص، وكيف أن الناس -وهنا كان يعني الذين أعطوه الشلنات الاثني عشر- كانوا سيسيرون وراءهما في احترام وإجلال على الطريق المغبر.

وهكذا راح -وهو يفخر حيناً، ويرثي نفسه حيناً، وطابع السجن الرهيب يدفع أعماق روحه في كل حين- يكشف عن حالته المهينة أمام ابنته الحبيبة. ولكن لم يكن ثمة من يشهد، غيرها، دقائق هذا الشعور بالمذلة. أما زملاؤه من النزلاء الذين كانوا في تلك اللحظة جالسين في غرفهم يضحكون مما حدث بينه وبين الحارس عند البوابة، فلم يخطر ببالهم قط أنه كان يعاني هذه الحالة الأليمة داخل غرفته الكئيبة في مساء ذلك الأحد بسجن مارشاليزا.

ربما ذكر التاريخ ذات مرة قصة الابنة التي ترهّبت من أجل أبيها في السجن، كما ترهّبت أمها لأجلها من قبل. أما دوريت الصغيرة، فرغم أنها ليست من معدن الأبطال، وإنما مجرد فتاة إنكليزية عادية، فقد فعلت أكثر من هذا وهي تضمن جراح قلب أبيها على صدرها البريء، وتعيد إليه ينبوع الحب والإيمان الذي لم يجف قط أو ينحسر طيلة أعوامه العجاف.

لقد خففت عنه، وسألته الصفح والغفران إذا كانت قد عقّته أو بدت أنها عاقّة له؛ وأخبرته، وهي تقسم صادقة، أنها ما كانت لتحترمه وتقدِّره أكثر حتى لو كان الحظ يمشي في ركابه، والعالم كله يهلل له. ولما جفت دموعه، ولم يعد يبكي في حالة ضعفه، وبعد أن تحرر من ذلك الشعور بالعار واستردّ طبيعته العادية، عادت دوريت الصغيرة وأعدت له بقايا طعام العشاء مرة أخرى، ثم جلست بجانبه سعيدة إذ تراه يأكل ويشرب. ذلك لأنه عاد يجلس مرة أخرى بقلنسوته المخملية السوداء وجلبابه الرمادي وهيئته المهيبة، واستعداده للترفيه عن أي زميل من الزملاء قد يأتي في تلك اللحظة طالباً المشورة؛ وكأنه -أي الوالد- لورد شسترفيلد أو أستاذ التشريفات والأخلاق في مارشاليزا.

ولكي تشغل أفكاره دائماً، راحت دوريت الصغيرة تحدِّثه عن ملابسه حتى أبهجته وجعلته يعترف أن الملابس الداخلية التي تقترح أن تصنعها له بنفسها أفضل حقاً من تلك التي بَلِيَت والتي كانت، لأنها جاهزة، لا تناسبه قط. ولما أصبح ميّالاً للحديث، وفي حالة معنوية عالية، لفت نظرها إلى معطفه المعلق وراء الباب قائلاً إنه لا يريد، باعتباره والداً للمكان، أن يضرب مثلاً سيئاً لأبنائه الذين بدؤوا فعلاً يتراخون ويكسلون، إذا هو سار بينهم بأكمام بالية. وكذلك أبدى ملاحظاته على نعل حذائه، ولكنه أعرب عن أساه بشأن ربطة عنقه، وطلب منها أن تشتري له واحدة جديدة عندما تسمح بذلك ظروفها المالية.

وبينما كان يدخن سيجاره في هدوء وسكينة، أخذت هي تعد فراشه وترتب الغرفة الصغيرة تمهيداً للنوم، ولما كان التعب قد حلّ به بسبب تأخر الوقت، وانفعاله، فقد نهض عن مقعده، وباركها وتمنّى لها ليلة طيبة. وخلال هذه الفترة كلها لم يفكر لحظة في ثوبها أو حذائها أو فيما قد تكون هي محتاجة إليه. ولم يكن على وجه الأرض مثله أحد -إلا وهي- لا يهتم بمطالبها.

وقبّلها مرات كثيرة وهو يقول: «بارك الله فيك يا حبيبتي، وطابت ليلتك يا عزيزتي».

ولكن قلبها الرقيق كان شديد الأسى لما رأت منه في تلك الليلة، بحيث عزّ عليها الانصراف خشية أن يعود إلى نواحه وبأسه مرة أخرى، ومن ثم قالت له:

- أبي، أبي، إنني لا أشعر بالتعب، دعني أعد بعد قليل، عندما تأوي إلى فراشك، لأجلس بجانبك.

لما سألها في حنان أبوي عما إذا كانت تشعر بالعزلة، أجابت قائلة:

- أجل يا أبي.

- إذن تعالي كما تشائين يا حبيبتي.

- لسوف أكون هادئة جداً يا أبي.

فقال كأنما يمنحها الإذن كاملاً:

- لا تفكري في أمري يا عزيزتي، تعالي بكل سرور.

وبدا لها أنه يشعر النعاس حين عادت، وبينما هي تجمع جمرات نيران المدفأة بعضها إلى بعض في رفق خشية أو توقظه، إذا هو يسمعها ويسأل عن الذي في الغرفة فقالت:

- إنني إيمي يا أبي.

- إيمي، يا طفلتي، إنني أريد أن أقول لك كلمة.

ورفع نفسه قليلاً في سريره المنخفض بينما ركعت هي بجانبه ليكون وجهها قريباً منه، ووضع هو يده بين يديها. أوهّ إن يده تنم عن جماع القوة فيه كوالد لها، وكوالد للسجن!

- يا حبيبتي، لقد عشتِ حياة قاسية هنا، فلا أصدقاء، ولا ترفيه وإنما أعباء ومتاعب..

- لا تفكر في هذا يا أبي العزيز، لأني لا أفكر فيه قط.

- أنت تعلمين مركزي يا إيمي، فأنا لم أستطع أن أصنع لك شيئاً كثيراً، ولكنني صنعت كل ما كان في وسعي أن أصنعه.

فأجابت وهي تقبّله:

- أجل يا أبي العزيز، أجل، إني أعرف هذا.

فقال وقد شهقت أنفاسه قليلاً، ولم تكن شهقة بكاء، وإنما شهقة إنسان راضٍ عن قوة احتماله وصبره:

- إنني في العام الثالث والعشرين من حياتي هنا. وإن كل ما استطعت أن أفعله لأبنائي قد فعلته. إيمي، يا حبيبتي إنك أحب أبنائي الثلاثة إلى قلبي. فأنت دائماً لا تبرحين فكري. وإن كل ما أفعله لك إنما أفعله بمطلق حريتي، ودون أي تململ.

إن الحكمة التي تفتح مغاليق جميع القلوب وتكشف عن الأسرار، هي وحدها التي يمكنها أن تدرك إلى أي حد يستطيع رجل كهذا، لا سيما حين بلغ هذا المستوى من الانحدار، أن يخدع نفسه، وحسبنا القول الآن إنه رقد بأهداب مبللة، وفي هيئة جادة مهيبة، بعد أن ألقى بحياته المهينة لتكون جزءاً من حياة ابنته المتفانية التي احتملت كل آلامها، والتي كان حبها وحده هو الذي أنقذه حتى مما كان عليه من قبل.

هذه الابنة لم تكن تخامرها الشكوك، ولم توجّه إلى نفسها أية أسئلة، وإنما قنعت بأن تراه بهالة حول رأسه، وأن تهدهده للراحة بهذه العبارات الحبيبة: يا أبي العزيز، يا عزيزي الحبيب، يا أصدق وأعز وأحب إنسان.

إنها لم تترك جانبه طيلة تلك الليلة، وكأنما شعرت أنها أساءت إليه بشيء لا يمكن لحنانها أن يصلحه، فقررت أن تجلس بجواره في أثناء نومه، تقابله برفق وبأنفاس معلقة، وتهمس باسمة في حنان بالغ. وكانت أحياناً تقف جانباً كأنما تخشى أن تحول بينه وبين نيران المدفأة الخابية؛ ثم تروح ترقبه عندما يسقط ضوءها على وجهه النائم، متسائلة في نفسها عما إذا كان يبدو الآن إطلاقاً، كما كان في أيام عزّه وهناءته، أي كما حاول أن يصوِّر نفسه أمامها قبل هذا العهد الرهيب. ولما فكرت في هذا، ركعت مرة أخرى بجانب فراشه، وابتهلت قائلة:

«أوه، أنقذ حياته يا إلهي! أنقذه لي. أسبغ رعايتك على أبي العزيز الحبيب الذي تغير كثيراً، وتعذب كثيراً وخانه الحظ طويلاً..».

ولم تتخلَّ عنه إلا حين أسفر الصبح ليرعاه ويملأه بالأمل. وعندئذ قبَّلته للمرة الأخيرة وانصرفت من الغرفة الصغيرة. ولما تسللت إلى أسفل السلّم ثم عبرت الفناء الخالي، ودلفت إلى غرفتها العليا، رأت في ضوء الصباح الشاحب أسقف البيوت بمداخنها التي يتصاعد منها الدخان، والتلال الريفية البعيدة تبدو من وراء أسوار السجن. وفيما هي تفتح برفق النافذة، وتنظر ناحية الشرق إلى فناء السجن، رأت أن الأسلاك الشائكة المصبوغة باللون الأحمر فوق الأسوار قد أخذت تعكس في حمرة سقيمة أشعة الشمس وهي تصعد في السماء. وخيل إليها أن هذه الأسلاك الشائكة لم تبد قط بمثل هذه القسوة والحدّة والقضبان بمثل هذه الصلابة والثقل، والفناء بمثل هذه الكآبة والوحشة. وتخيلت شروق الشمس على الأنهار الجارية على البحار الواسعة، وعلى المروج والغابات حيث الأطيار تستيقظ على حفيف الأغصان. ثم عادت تنظر إلى مقبرة الأحياء هذه التي يعيش فيها أبوها منذ ثلاثة وعشرين عاماً، ثم انفجرت قائلة في حزن وحنان:

«لا؛ لا.. إنني لم أره قط في حياتي».

الانتقال في المجتمع

لو كان لدى الشاب جون شيفري الرغبة والقدرة على كتابة هجاء يسخر فيه من التفاخر بالأحساب والأنساب، لما احتاج في تصويره لأن يذهب بعيداً عن أسرة حبيبته كان في مقدوره أن يجد ما يريد تصويره في ذلك الأخ المتعالي، وتلك الأخت المتأنقة، اللذين انحدرا إلى أحقر مستوى، رغم ازدهائهما باسم الأسرة، واللذين لا يتورعان عن الاستجداء أو الاقتراض من أفقر الناس، والأكل من طعام أي إنسان، والإنفاق من مال أي شخص، والشرب من كأس أي مخلوق ثم تحطيمها بعد ذلك. لو أنه وصف الحقائق الأليمة في حياتهما ومحاولاتهما لإفزاع أصحاب الفضل عليهما بشبح أسرتهما المنهارة، لأصبح الشاب جون هجّاءً من الدرجة الأولى.

لقد استغل تيب حريته في الاشتغال عاملاً بصالة بلياردو. وقد بلغ من عدم اهتمامه بالطريقة التي أدت إلى إطلاق سراحه، أن كلينام لم يجد ثمة حاجة إلى الضغط على السيد بلورنيش لكي يبقي ما حدث سرّاً بينهما. فأياً كان الذي أكرمه وسدّد دَيْنه وأطلق سراحه، فإنه قد تقبَّل هذه المكرمة منه، شاكراً، وانتهى الأمر عند هذا الحد. وعلى هذا الأساس خرج من بوابة السجن ليشتغل عاملاً في صالة بلياردو. وليتردد بين الحين

والآخر على فناء السجن بمعطف أخضر «نصف عمر» له ياقة لامعة وأزرار براقة «جديدة» ويشرب البيرة على حساب النزلاء.

وكان في شخصية هذا السيد المهلهلة شيء واحد أكيد، وهو احترامه وإعجابه بأخته إيمي. ولكن شعوره هذا لم يدفعه قط إلى التضحية بلحظة راحة نفسية، أو يثقل على نفسه يوماً من أجل راحتها، ومع هذا كان يحبها بذلك الحب المدموغ بطابع سجن مارشاليزا. وبنفس هذا الطابع المارشاليزي، كان يرى بوضوح أنها تضحّي بحياتها من أجل أبيها، وأنها -في رأيه- لم تفعل شيئاً من أجله هو.

أما متى بدأ هذا الشاب المتحمس مع أخته في التلويح معاً وبشكل منظم بشبح عراقة الأسرة على رؤوس النزلاء فإن هذه القصة لا تستطيع أن تحدد بالضبط. ربما كان ذلك في الوقت الذي بدءا فيه يتناولان العشاء على حساب النزلاء. وعلى أن من المؤكد أنهما كانا كلما اشتدت بهما الحاجة والضرورة، ازداد تلويحهما بشبح عراقة الأسرة المستخرَج من قبر عارها، وكلما بدا في الجو شيء ينال منهما، ارتفع الشبح في أيديهما عالياً مرفرفاً.

وتأخرت دوريت الصغيرة في صباح يوم الاثنين لأن أباها نهض من نومه متأخراً، وكان عليها أن تعد له طعام الإفطار، ثم ترتب غرفته وتنظفها. لكن لم يكن لديها، على كل حال، ما تعمله في الخارج ومن ثم بقيت معه حتى أقبلت ماجي وعاونتها في إعداد كل شيء حوله، ثم توديعه عند ذهابه إلى نزهة الصباح -ولم تكن تزيد على عشرين ياردة- حيث يصل بعدها إلى مقهى السجن ليقرأ الصحيفة. وبعد ذلك وضعت قبعتها على رأسها وانصرفت وهي تشعر أنها تأخرت عن موعد خروجها كثيراً ولكنها اضطرت إلى تبادل الحديث المعتاد مع حارس البوابة وإلى ملاحظة أحد النزلاء القدامى وهو يلكز زميلاً جديداً وصل مساء يوم السبت قائلاً له:

- انظر ها هي ذي.

كانت تريد أن ترى أختها، ولكنها حين وصلت إلى معهد السيد كريبلز وجدت أن أختها وعمّها قد ذهبا إلى المسرح الذي يعملان فيه. ولما كان هذا الاحتمال قد خطر لها في الطريق، ولما كان رأيها قد استقر على اللحاق بهما في مثل هذه الحالة فقد اتجهت من جديد نحو المسرح الذي كان على الجانب الآخر من النهر، وعلى مسافة ليست بعيدة منه.

وكانت دوريت الصغيرة تكاد تجهل مداخل ومتعرجات المسارح كجهلها بمداخل ومتعرجات منجم ذهب. حتى إذا وجهت إلى باب صغير منزوٍ خانق الجو يبدو كأنه خجلان من اختفائه في مثل ذلك الزقاق الحقير ترددت في الاقتراب منه. وزاد في ترددها منظر نفر من السادة الحليقي الوجوه، الواضعين القبعات على رؤوسهم بطريقة عجيبة؛ الذين كانوا يتسكعون بالقرب من الباب وقد بدا عليهم أنهم لا يختلفون كثيراً عن نزلاء السجن. على أن عدم الاختلاف هذا شجعها على الاقتراب منهم وسؤالهم عن كيفية الوصول إلى الآنسة دوريت. وعندئذ أفسحوا لها الطريق إلى صالة مظلمة كأنها كانت مضاءة بمصباح كبير ضوءه غير واضح انطفأ فجأة، وفي هذه الصالة كانت تسمع من بعيد أصوات العزف على الآلات الموسيقية ووقع الأقدام الراقصة، ورأت رجلاً بدا من طابع الزرقة على وجهه أنه في حاجة شديدة إلى الهواء الطلق، جالساً في ثغرة بالركن يرقب هذا المكان المظلم كأنه عنكبوت. وقد قال لها إنه سيرسل إلى الآنسة دوريت أول سيد أو سيدة تمر به. وكانت أول سيدة مرّت بالصالة في ثوب رقص منفوش؛ بدا منه نصف جسمها واختفى النصف الآخر، وكانت في حالة من الفوضى، بحيث لاحَ أن خير ما يمكن أن يصنعه الإنسان بها هو أن يضعها تحت المكواة. ولكنها في الواقع كانت لطيفة، إذ قالت:

- هيا معي، وسوف أعثر لك حالاً على الآنسة دوريت.

وسارت دوريت الصغيرة معها، وراحت تقترب شيئاً فشيئاً مع كل خطوة في الظلام من رنين الموسيقى ووقع الأقدام الراقصة.

ووصلتا أخيراً إلى متاهة من التراب حيث كان عدد من الناس يتعثر بعضهم فوق بعض، وحيث كان ثمة خضم من شتى الأخلاط المختلفة كالدعامات والعوارض والتركيبات وقوالب الآجر والحبال والمدارج ومزيج من أضواء المصابيح الغازية مع أضواء النهار بحيث لاحَ للصغيرة دوريت أنها انتقلت إلى الجانب الخطأ من العالم. وفيما هي -بعد أن تُرِكت بمفردها- تصطدم كل لحظة بشخص أو بشيء، إذا بها لدهشتها البالغة تسمع صوت أختها وهي تقول لها:

- يا للسماء يا إيمي! ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- أردت أن أراك يا عزيزتي فاني. لأني سأكون مشغولة بالعمل غداً طيلة اليوم، وربما تكونين أنت أيضاً مشغولة..

- ولكن لماذا تأتين من الباب الخلفي، إنني لا أستعمله أبداً..

قالت هذا بلهجة لا تنم عن ترحيب كبير، ثم صحبت أختها إلى الجانب الآخر من المتاهة حيث رأت عدداً كبيراً من المقاعد والموائد المذهبة متراكم بعضها فوق بعضه وعدداً من الشابات كن جالسات يتحدثن عن أي شيء في متناول اليد. وكانت أولئك الشابات جميعاً في حاجة للوضع تحت المكواة، كما كان لكل منهن هذه القدرة العجيبة في النظر إلى أي مكان في أثناء انهماكها في الحديث.

وفيما كانت الأختان تصلان إلى ذلك المكان، إذا بغلام يضع على رأسه قبعة مربعة الزخارف، يبرز من وراء دعامة على اليسار ويقول قبل أن يعود ويختفي:

- أرجو أن تخفضن أصواتكن قليلاً يا سيداتي.

وتبعه في الحال شاب عابث. له شعر غزير أسود، ظهر من وراء الدعامة اليمنى وهو يقول قبل أن يختفي أيضاً:

- أرجو أن تخفضن أصواتكن يا عزيزاتي.

وقالت فاني لأختها:

- إن التفكير في وجودك يا إيمي بين هؤلاء المحترفات هو آخر شيء كان يمكن أن يخطر ببالي. عجباً! كيف أمكنك أن تأتي إلى هنا؟

- إنني لا أدري. إن السيدة التي أخبرتك أني هنا، هي التي جاءت بي.

- هكذا أنتن أيتها المخلوقات الصغيرة الهادئة! إنكن تعرفن كيف تشققن طرقكن إلى أي مكان، كما أعتقد. وما كنت لأستطيع أن أفعل هذا يا إيمي، رغم أني أكثر منك دراية بالعالم.

وكان من عادة الأسرة أن يقرر أفرادها -في كل مناسبة- أن دوريت الصغيرة ليست إلا مخلوقة صغيرة عادية لا تتمتع -كبقية أفراد العائلة- بالحكمة العظيمة. وكان أفراد العائلة يؤمنون بهذا الزعم حتى يبرروا لأنفسهم قبولهم لخدماتها لهم، وحتى لا يجعلوا من هذه الخدمات شيئاً كبيراً.

وقالت فاني:

- حسناً يا إيمي، ماذا تريدين مني، لا شك أنك لم تجيئي إلا وفي ذهنك شيء عني..

وكانت تتحدث إليها كأنها جَدّة صارمة رغم أن الفرق في العمر بينهما لا يزيد على سنتين أو ثلاث.

وقالت إيمي:

- إن الأمر بسيط. فمنذ أن حدثتني عن السيدة التي أهدتك السوار يا فاني.

وهنا عاد الغلام الماجن وأطل برأسه من وراء الدعامة الشمالية وقال قبل أن يختفي:

- انتبهن يا سيداتي.

وبرز الشاب العابث ذو الشعر الأسود الغزير وأطلّ برأسه من وراء الدعامة اليمنى وقال قبل أن يختفي أيضاً:

- انتبهن يا عزيزاتي.

وعندئذ نهضت الفتيات جميعاً وبدأن في تسوية ملابسهن من الخلف.

وقالت فاني وهي تحذو حذو الباقيات:

- حسناً يا إيمي، ماذا كنت تقولين..؟

- منذ أن أخبرتني عن السيدة التي أهدتك ذلك السوار الذي أطلعتني عليه وأنا أشعر بالقلق من أجلك، وأحب لو أنك زدتني معرفة بالأمر إذا شئت أن تزيدي ثقتك بي.

وقال الغلام ذو القبعة المربعة الزخارف:

- الآن يا سيداتي.

وقال الشاب ذو الشعر الأسود:

- الآن يا عزيزاتي.

وسرعان ما اختفت كل واحدة منهن، ثم إذا برنين الموسيقى يُسمَع مرة أخرى مع وقع الأقدام الراقصة.

وجلست دوريت الصغيرة على مقعد مذهّب وقد أحست بالدوار بسبب هذه المقاطعات المتوالية. وغابت أختها والباقيات فترة طويلة، وفي أثناء غيبتهن كانت تسمع صوتاً، ويبدو أنه كان صوت ذلك الشاب الأسود الشعر يقول في رتابة وانتظام مع رنين العزف الموسيقى: واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة، هيا! انتظمن يا عزيزاتي. وبعد أن كرر الصوت هذا العد، توقف، ثم عادت الفتيات بأنفاس لاهثة، واشتملن بالمطارف، وتأهبن للانصراف. وعندئذ قالت فاني لأختها بصوت هامس:

- انتظري لحظة يا إيمي ودعيهن يخرجن قبلنا.

وسرعان ما انصرفت الفتيات فيما عداهما. وخلال هذا لم يحدث شيء هام أكثر من ظهور الغلام من وراء الدعامة القديمة قائلاً:

- الحضور جميعاً في الحادية عشرة من صباح الغد يا سيداتي.

ثم ظهور الشاب الأسود الشعر من وراء دعامته القديمة قائلاً:

- الحضور جميعاً في الحادية عشرة من صباح الغد يا عزيزاتي.

وكان كل منهما ينطق بعبارته على طريقته المعتادة.

ولما أصبحتا بمفردهما، انطوى من أمامهما شيء، أو بمعنى آخر، أزيل من أمامهما شيء، وإذا بفجوة كبيرة خالية تبدو أمامهما، وإذا فاني تقول وهي تحدق في أعماق الفجوة:

- تعال الآن يا عمي.

ولما اعتادت عينا دوريت الصغيرة على ظلام الفجوة، تبينت في ركن من قاعها المعتم عمها جالساً وقيثارته في صندوقها البالي تحت ذراعه.

وبدا الرجل العجوز وكأنما نوافذ القاعة العالية بما فيها من بصيص الضوء في السماء ترمز لحظة الأسود الذي انحدر منه حتى هبط

تدريجياً إلى القاع. وكان يقضي في هذا القاع ست ليالٍ من كل أسبوع منذ سنوات كثيرة، ولم يلاحَظ عليه قط أنه رفع عينيه عن نوتته الموسيقية، كما كان المؤكد عنه أنه لم يرَ في حياته قط شيئاً من المسرحيات التي تُمَثَّل على الخشبة فوقه. ومما يقال عنه في المسرح إنه لا يعرف بالنظر أبطال وبطلات المسرحيات، وإن الممثل الهزلي قد اتخذ منه مادة للإضحاك خمسين ليلة متوالية دون أن يشعر هو بشيء، ويتبادل النجارون فكاهة عنه تقول إنه ميت دون أن يحس أنه ميت. ويقول الذين شاهدوه في فجوة الموسيقى إنه على الأرجح يقضي فيها كل حياته، ليلاً ونهاراً وأيام الآحاد وغيرها. وكثيراً ما جاملوه بأن قدموا إليه، من وراء قضبان الفجوة، بعض السعوط، فكان يفيق من ذهوله ويتقبل الهدية بأسلوب رقيق ينم عن أنه كان في سالف أيامه إنساناً مهذباً. وفيما عدا هذا، فإنه لم يكن، بأي حال من الأحوال، يشترك فيما يجري حوله أكثر من قيامه بدور العازف على القيثارة. أما في حياته الخاصة، حيث لا يوجد عزف على القيثارة، فلا يوجد شيء يقوم به على الإطلاق. ويقول بعضهم إنه فقير، ويقول غيرهم إنه بخيل موسر، أما هو فلا يقول شيئاً قط، ولا يرفع قط رأسه المطرقة! ولا يغير قط من وضع قدميه على الأرض. رغم أنه يتوقع الآن أن تنادي عليه ابنة أخيه، فإنه لا يسمعها حتى تكرر النداء ثلاث أو أربع مرات. كما أنه لم يدهش حين رأى أمامه ابنتي أخيه، بدلاً من واحدة، وإنما غمغم فقط بصوته المرتعش:

- إنني آتٍ.. إنني آت!

ثم دلف صاعداً من ممر أرضي تفوح فيه رائحة الهواء الراكد.

وبعد أن خرج ثلاثتهم من الباب الخلفي الذي كان يبدو خجلان من نفسه لأنه يختلف عن غيره من الأبواب، وبعد أن أمسك العم بذراع إيمي، شاعراً بغريزته أنه الذراع الذي يمكن أن يعتمد عليها، قالت فاني لأختها:

- إذن فأنت يا إيمي تريدين أن تعرفي عني المزيد؟

وكانت فاني جذابة وتشعر بأنها كذلك بل كان تميل إلى التبرج. ولكن شيئاً كثيراً من كبريائها العائلي كان يبدو في تظاهرها بالتنازل عن هذه الامتيازات التي تتمتع بها وبالخبرة الواسعة في حديثها مع أختها على قدم المساواة، وقالت لها أختها إيمي:

- إنني يا فاني شديدة الاهتمام بكل ما يتعلق بك.

وهنا قالت ابنة والد سجن مارشاليزا:

- إنك كذلك، إنك كذلك وإنك خير الأخوات يا إيمي. وإذا كنت أثيرك في بعض الأحيان، فأنا واثقة أنك سوف تقدِّرين كيف أحاول أن أبدو مترفعة، دائماً على عملي هنا، إنني ما كنت لأهتم بهذا لو لم تكن الأخريات من طبقة سوقية جداً، فليس بينهن واحدة من عائلة كريمة أخنى عليها الزمن إنهن جميعاً يعشن في مستواهن الطبيعي.. السوقي.

ونظرت دوريت الصغيرة إلى أختها بوداعة دون أن تقاطعها، وتناولت فاني منديلاً وراحت، بشيء من الغضب، تمسح عينيها وهي تقول:

- إنني لم أولد حيث وُلدتِ أنت يا إيمي كما تعلمين، ولعل هذا هو الفارق بيننا. وسوف أخبرك بكل شيء يا طفلتي العزيزة بعد أن نتخلص من عمّنا هذا. لسوف نتركه في ذلك المطعم الشعبي الذي سيتناول فيه غداءه.

وسارتا معه حتى وصل ثلاثتهم إلى واجهة مطعم قذر في شارع قذر، وكانت الواجهة تبدو غائمة لفرط ما يتصاعد عليها من بخار اللحوم المطهوة والخضراوات والحلوى؟ ولكن كان من الممكن أن يلمح الإنسان بين الحين والآخر ومضات من اللحم المشوي الغارق في صلصة الطماطم والبصل والمحفوظ في إناء ممتلئ بالدهن، وشريحة من اللحم

البقري مع حساء سميك يفور في إناء مماثل، وشرائح من اللحم المحشو، وقطعاً أخرى من اللحوم السمينة التي تسكب دهنها بسرعة تتناسب مع حرارة النار تحتها، وإناء ضحلاً مليئاً بالبطاطا المخلوطة بألوان من الخضار وغيرها من أطايب الطعام. وفي داخل المطعم كان ثمة حواجز خشبية يجلس وراءها هؤلاء العملاء الذين يفضلون أن يحملوا الطعام في معداتهم بدلاً من أيديهم، وأن يأكلوه في خلوة. وفتحت فاني كيس نقودها وهي تنظر إلى هذا كله، ثم تناولت منه شلناً أعطته لعمها. وتناوله عمها في يده برهة دون أن ينظر إليه، حتى إذا أدرك معنى إعطائها الشلن له غمغم قائلاً وهو يختفي ببطء وراء ضباب الواجهة:

- آه، الغداء! أجل، أجل، أجل!

وقالت فاني:

- والآن يا إيمي، تعالي معي، إن لم تكوني متعبة، إلى شارع هارلي ستريت بمنطقة كافنديش سكوير.

وكانت اللهجة التي نطقت بها ذلك العنوان الأنيق، والطريقة التي هزت بها قبعتها الجديدة -وكانت للزينة أكثر منها للاستعمال- قد أثارت العجب في نفس إيمي، ولكنها، مع هذا، أعربت عن استعدادها للذهاب إلى شارع هارلي ستريت، وإلى هناك وجهت كل منهما خطواتها. وبعد وصولهما إلى ذلك الشارع الفاخر، اتجهت فاني إلى أجمل بيت فيه وطرقت على بابه، وسألت عن السيدة ميردل. ولم يكتفِ التشريفاتي الذي فتح الباب، والذي كان يزين شعره بالمساحيق والذي كان متبوعاً باثنين من التشريفاتية مثله، لم يكتفِ بالقول بأن السيدة ميردل موجودة، وإنما طلب من فاني أن تدخل. ودخلت فاني مصطحبة أختها معها. وصعدت الاثنتان سلماً يتقدمهما التشريفاتي، ويتبعها تشريفاتي آخر، حتى تُرِكتا بمفردهما في غرفة جلوس نصف دائرية واسعة، وكانت واحدة من غرف

جلوس أخرى كثيرة، كما كان بها ببغاء خارج قفص ذهبي كان في تلك اللحظة متعلقاً بمنقاره في الأسلاك، تاركاً ساقيه الخشنتين في الهواء، قائماً بحركات أخرى بهلوانية مماثلة، وإننا لنلاحظ هذه الخاصية في طيور من نوع آخر، عندما تتسلق قفصاً ذهبي الأسلاك.

كانت الغرفة أروع وأفخر من أي شيء يمكن أن تتصوره دوريت الصغيرة.. بل يمكن أن تعتبر رائعة فاخرة في نظر أي إنسان آخر. وتطلعت إيمي إلى أختها في دهشة وكادت أن تلقي عليها سؤالاً، ولكن فاني حذرتها بنظرة حادة وأومأت إلى باب عليه ستارة يفضي إلى غرفة أخرى. وفي اللحظة التالية تحركت الستارة، ثم إذا سيدة ترفعها بيدها المزينة بخواتم كثيرة، ثم تسدلها وراءها وهي تدخل.

ولم تكن السيدة شابة ناضرة من صنع الطبيعة، وإنما كانت شابة ناضرة من صنع وصيفتها. وكانت لها عينان واسعتان جميلتان قاسيتان وشعر أسود جميل قاسٍ، وصدر ناهد جميل قاس، كانت تكشف عن معظمه، وكانت تضع حول وجهها عصابة بيضاء تنسدل من جانبي رأسها، وتنعقد تحت ذقنها، إما لأنها كانت تشعر ببرد، وإما لأن العصابة تلائم وجهها. ولو حدث أن أراد فنان أن ينحت ذقناً جميلة قاسية لما استطاع أن ينحت أجمل أو أقسى من ذقنها التي ينعقد تحتها طرفا العصابة المنمنمة.

وقالت فاني:

– هذه يا سيدة ميردل أختي.

– إنني سعيدة برؤية أختك يا آنسة دوريت. إنني لا أذكر أن لك أختاً.

فقالت فاني:

– لأني لم أذكر أمامك أن لي أختاً.

- آه.

ثم لوت السيدة ميردل إصبعها الصغيرة كأنها تريد أن تقول: «لقد ضبطتك، لأني أعرف أنك بلا أخت».

وكانت تقوم بكل حركاتها التعبيرية بيدها اليسرى، لأن يديها لم تكونا متماثلتين، وإنما كانت يدها اليسرى أنصع بياضاً وأكثر امتلاءً. وبعد أن أذنت لهما بالجلوس؛ جلست هي في تراخٍ وترف بين مجموعة من الوسائد القرمزية والذهبية على متكأ وثير بالقرب من قفص الببغاء.

وقالت وهي ترنو إلى الصغيرة ودوريت بمنظار فردي:

- أهي ممثلة محترفة أيضاً؟

- لا.

فقالت وهي تضع المنظار الفردي بعيداً:

- لا؟ إنها فعلاً لا تبدو ممثلة محترفة.

وقالت فاني في لهجة تنم عن الثبات والاحترام في وقتٍ واحد:

- إن أختي يا سيدتي سألتني -كما يحدث بين الأخوات- كيف أمكن أن أتشرف بمعرفتك. ولما كنت مرتبطة بالمجيء إليك مرة أخرى خطر لي أن في إمكاني أن أتجرأ وأصحبها معي. ولعلك تخبرينها بنفسك. إني أريدها أن تعرف.

فقالت السيد ميردل تلميحاً:

- أتظنين أن من المناسب وهي في مثل هذه السن..

فقالت فاني:

- إنها أكبر سناً مما تبدو... تكاد تناهزني في العمر.

فقالت السيدة ميردل وهي تعقد إصبعها الصغير مرة أخرى:

- من العسير أن نشرح الطبقة الاجتماعية للأشخاص الصغار، بل إنه من العسير في الواقع أن نشرحها لمعظم الناس، ولهذا يسرني أن أعرف أن أختك ليست صغيرة السن كما تبدو. وإني لأتمنى لو لم تكن الطبقة الاجتماعية على هذا النحو من التزمت والتدقيق.. أيها الطائر، سكوتاً.

وكان الببغاء قد أطلق صيحة نافذة وكأنما كان اسمه «الطبقة الاجتماعية» فأراد أن يثبت وجودها.

واستطردت السيدة ميردل قائلة:

- ولكن ينبغي أن نقبلها على ما هي عليه. إننا نعرف أنها جوفاء وتقليدية ومغرورة ومزعجة جداً. ولكن لا بد لنا من الخضوع لها ما لم تكن من الهمج سكان البحار الاستوائية، وإن كان يسرني أن أكون واحدة من هؤلاء الهمج حيث الحياة الممتعة والجو الرائع كما قيل لي. هذا هو العُرف السائد. وإن السيد ميردل من أكبر التجار الذين تمتد معاملاتهم التجارية في أوسع نطاق، ويبلغ نفوذه وثراؤه أكبر حد.. ومع ذلك فحتى هو.. أيها الطائر سكوتاً.

وكان الببغاء قد أرسل صيحة أخرى، وبدا أنه أراد أن يكمل بها عبارة السيدة ميردل بحيث رأت هي أنه لا داعي لاستكمالها. ومن ثم عادت توجه الحديث إلى دوريت الصغيرة قائلة:

- وما دامت أختك تريد أن أنهي علاقتنا الخاصة بأن أذكر لك الظروف التي كانت في جانبها إلى حد كبير، فإني لا أستطيع أن أعترض رغبتها بالتأكيد. إن لي ابناً «وكنت في زواجي الأول صغيرة جداً» أبلغ من العمر الثانية أو الثالثة والعشرين.

وزمّت فاني شفتيها، وارتسمت في عينيها نظرة فيها الانتصار وهي ترنو إلى أختها. أما السيدة ميردل فقد استطردت تقول:

– ابن في الثانية أو الثالثة والعشرين. إنه شاب طروب، والطبقة الاجتماعية تألف هذا النوع من الشباب وترحب به، لا سيما إذا كان قوي التأثير في غيره مثله. ولعله قد ورث هذه الصفة المزعجة. لأني أنا أيضاً شديدة التأثير في غيري بطبيعتي. وذلك رغم أني أضعف المخلوقات، وإن مشاعري لسريعة التأثر.

وكانت تقول هذا كله، وغيره من الأقوال، ببرود امرأة مصنوعة من الثلج. وكانت في الوقت نفسه تكاد تنسى وجود الأختين إلا بين لحظة وأخرى، كما كان يبدو أنها تخاطب شخصاً مبهماً من أشخاص الطبقة الاجتماعية. ومن أجل هذا الشخص المبهم كانت تصلح بين آنٍ وآخر ثوبها أو تعتدل في جلستها على المتكأ.

واستطردت في حديثها قائلة:

– إنه إذن قوي التأثير في غيره. ويمكن القول إن هذا ليس عيباً في ظروفنا الطبيعية، ولكننا لسنا في ظروف طبيعية. ولا شك أن هذا أمر يؤسَف له جداً، لا سيما من جانبي لأني طبيعية بغريزتي، وأتمنى لو استطعت أن أبقى هكذا. ولكن التقاليد الاجتماعية تسيطر علينا وتتحكم فينا.. سكوتاً أيها الطائر.

وكان الببغاء قد أخذته نوبة من الضحك المتواصل بعد أن لوى بعض أسلاك قفصه بمنقاره الحاد وراح يلعقها بلسانه الأسود.

وعادت السيدة ميردل تقول وهي جالسة بين وسائدها الذهبية والقرمزية حيث كانت تعيد وضع منظارها المفرد على عينيها لترى من التي توجِّه إليها الحديث:

– ليس بي حاجة للقول إنك إنسانة عاقلة موفورة التجارب مهذبة الشعور بحيث يمكنك أن تدركي أن للمسرح أحياناً مغرياته التي

تجذب مثل هذا النوع من الشباب، وأنا حين أقول المسرح فإنما أعني العاملين على خشبته من الجنس اللطيف. وعندما سمعت، من ثَمَّ، أن ابني مفتون -كما يقال- براقصة، أدركت معنى هذا في الوسط الاجتماعي، وكنت موقنة أن تلك الراقصة تعمل على مسرح الأوبرا الذي يجذب عادة شباب المجتمع الراقي.

ومرّت بيدها البيضاء على الأخرى، وقد أدركت عندئذ وجود الأختين أمامها، وكانت الخواتم الكثيرة في الأصابع يحتك بعضها ببعض فيصدر عنها صوت قاسٍ جاف. وقد استطردت تقول:

- وعندما علمت في أي مسرح أختك تعمل، كما سوف تقول لك، شعرت بالدهشة والأسى البالغ. ولكن عندما علمت أن أختك صدَّت ابني عنها، ويجب القول إذن هذا حدث على غير المنتظَر، بحيث اضطرته إلى عرض الزواج عليها، امتلأت نفسي بالجزع والألم الشديدين..

ورفعت إصبعها إلى حاجبها الأيسر وراحت تسويه قبل أن تستأنف حديثها قائلة:

- وقررت وأنا في حالة من الذهول، يمكن أن يفهمها أي إنسان عن أم من نساء الطبقة الاجتماعية، أن أذهب بنفسي إلى المسرح وأعبِّر عن رأيي للراقصة وهنا عرَّفت أختك بنفسي، وقد وجدتها.. لدهشتي البالغة، تختلف في نواحٍ كثيرة عما كنت أظن، وقد تأكدت دهشتي إلى حد كبير عندما وجدتها أيضاً تقف مني، من ناحية الحسب والنسب، موقف الند للند..

وابتسمت السيدة ميردل، أما فاني فقد قالت ووجهها يضطرم تدريجياً:

- لقد قلت لك يا سيدتي إني، رغم وجودي أمامك في تلك الظروف، أرفع شاناً إلى حدٍّ كبير من الأخريات، وإنني أعتبر نفسي من

أسرة لا تقل مكانة عن أسرة ابنك، وإن لي أخاً، لو عرف هذه الظروف، لشاركني الرأي، ولما اعتبر أن زواجي بابنك شرف كبير.

فقالت السيدة ميردل وهي ترسل نظرة جامدة باردة من وراء منظارها المفرد إلى فاني:

- آنسة دوريت! إن هذا نفس ما كنت أنوي أن أقوله لأختك بناءً على رغبتك. وإني أشكرك كثيراً لأنك ذكرت هذا بدقة وسبقتني إليه.

ثم وجهت الحديث إلى دوريت الصغيرة قائلة:

- ولما كنت سيدة مندفعة بطبيعتي، فقد أخذت فوراً من يدي سواراً ورجوت أختك أن تقبله هدية مني ورمزاً على بهجتي لتناولنا الموضوع معاً على قدم المساواة.

وكان هذا قد حدث فعلاً، لأن السيدة كانت وهي في طريقها إلى مقابلة فاني قد اشترت سواراً رخيصاً لتقدمه رشوة للفتاة.

وقالت فاني:

- وقد قلتُ لك يا سيدة ميردل إننا قد نكون منكودي الحظ، ولكننا لسنا من الطبقة السوقية.

فأيدت السيدة ميردل هذا الحديث بقولها:

- أعتقد أن هذه هي كلماتك نفسها يا آنسة دوريت.

وعادت فاني تقول:

- وقلتُ لك أيضاً إنك إذا تحدثت عن مكانة ابنك الممتازة في المجتمع، فإن من المحتمل جداً أن تكوني مخدوعة في ظنونك عن أصلي وفصلي؛ وإن مكانة أبي، حتى في المجتمع الذي يعيش فيه الآن -وأنا خير من يعرف طبيعة هذا المجتمع- مكانة عالية مرموقة معترَف بها من الجميع.

فردّت السيدة ميردل قائلة:

- هذا ما قلته بالتحديد، إن لك ذاكرة مدهشة حقاً.

- شكراً لك يا سيدتي، لعلك تتكرمين بعد هذا وتذكرين لأختي ما حدث بعد ذلك.

فقالت السيدة ميردل وهي تستعرض بنظراتها صدرها الذي بدا متسعاً لكل ألوان القسوة، وكان حديثها موجَّهاً للصغيرة دوريت:

- إن ما حدث بعد ذلك بسيط، وهو في صالح أختك، لقد شرحت الأمر بصراحة لأختك، وبيّنت لها أن من المستحيل أن يعترف المجتمع الذي نعيش فيه بالمجتمع الذي تعيش هي فيه، رغم أنه -بلا شك- لطيف. وكذلك بيّنت لها المساوئ الضخمة التي ستتعرض لها أسرتها التي تعتز بها كل هذا الاعتزاز، والتي سنجد أنفسنا مضطرين إلى النظر إليها باحتقار، وإلى النفور منها اشمئزازاً -من الوجهة الاجتماعية- وبالإجمال ركّزت كل رجائي في كبرياء أختك.

فقالت فاني وهي تلوي شفتيها وتهز رأسها بترفّع:

- إذا سمحتِ يا سيدة ميردل، دعي أختي تعلم أنني قد تشرفت بإخبار ابنك بأني لا أريد أن يكون بيني وبينه أي شيء.

فقالت السيدة ميردل مؤيدة:

- أجل يا آنسة دوريت. ربما كان الواجب أن أذكر هذا من قبل. وإذا كنت لم أفعل هذا، فربما لأن عقلي كان مشغولاً بالخوف، يومذاك، من أن يرفض ابني هذا الوضع، وأن يتمادى في التعلق بك. وقد ذكرت لأختك أيضاً، وأنا الآن أتحدث مع الأخت غير الراقصة - أن ابني لن يرث شيئاً من ثروة أبيه إذا تم مثل هذا الزواج، وأنه من ثم سيكون فقيراً

معدماً، وأنا أذكر هذا باعتباره حقيقة واقعة في القصة، وليس على اعتبار أن يكون له تأثيره في أختك، إلا هذا التأثير الذي نخضع له جميعاً والذي تمليه علينا الحكمة والذكاء والتقاليد التي تسيطر على مجتمعنا الزائف هذا، وأخيراً وبعد كلمات عنيفة وثورة أعنف من جانب أختك، انتهينا إلى الاتفاق على أنه ليس ثمة خطر، وقد تفضّلت أختك وسمحت لي بأن أعرب لها عن تقديري بإهدائها فستانين من متجر الأزياء الذي أتعامل معه.

وارتسم الأسف على وجه دوريت الصغيرة، ونظرت إلى أختها فاني باضطراب، بينما استمرت السيدة ميردل في حديثها قائلة:

- وكذلك اتفقنا على أن تشرفني بهذه المقابلة الأخيرة لكي نفترق ونحن على أحسن حال..

وهنا نهضت السيدة ميردل عن المتكأ ووضعت شيئاً في يد فاني وهي تردف قائلة:

- وبهذه المناسبة سوف تسمح لي الآنسة دوريت بأن أودعها مع أطيب التمنيات بطريقتي الخاصة هذه.

ونهضت الأختان في وقت واحد، ووقف الجميع بجوار قفص البغاء الذي كان وهو ينهش كيس بسكويت ويبصقه، يلوح كأنما يزدريهن بترقيص جسمه دون تحريك قدميه، ثم إذا هو ينقلب فجأة رأساً على عقب، ثم يروح يتسلق قفصه الذهبي الأسلاك من الخارج مستعيناً بمنقاره ولسانه الأسود.

وقالت السيدة ميردل:

- وداعاً يا آنسة دوريت مع أطيب التمنيات. لو أمكننا فقط أن نعيش في عصر آخر غير عصرنا هذا، لكان من دواعي سروري أن أتعرف بعدد من الشخصيات الجذابة الموهوبة التي أعيش في عزلة عنها الآن.

إنني شخصياً أتمنى لو استمتعت بالحياة حيناً في طبقة اجتماعية بدائية. وأذكر في عهد دراستي أنه كان هناك قصيدة عن الهنود الحمر أو شيء من هذا القبيل، فلو أمكن مثلاً أن يتحول بضعة آلاف من شخصيات المجتمع الراقي إلى هنود حمر، لكنت أول من يسجل اسمه في الحال. ولكننا كنجوم في المجتمع الراقي لا نستطيع للأسف أن نكون هنوداً، طاب صباحكما!

وهبطت الأختان السلّم وأمامهما تشريفاتي بذرور في شعره، ومن ورائهما تشريفاتي بذرور في شعره، والأخت الكبرى متشامخة، والأخت الصغيرة متواضعة، ثم إذا هما تخرجان إلى شارع هارلي ستريت -الذي كان بلا ذرور- والقائم في منطقة كافنديش سكوير.

وقالت فاني بعد أن سارت مع أختها قليلاً في صمت:

- حسناً يا إيمي، أليس لديك ما تقولينه؟

فأجابت إيمي بحزن:

- أوه، إنني لا أدري ماذا أقول. ألا تحبين ذلك الشاب يا فاني؟

- أحبه! إنه أبله تقريباً.

- إنني آسفة جداً، وأرجو ألا تغضبي.. ولكن ما دمت تسألينني عن رأيي، فإني آسفة جداً جداً لأنك قبلت أن تأخذي من هذه السيدة شيئاً.

فردّت أختها عليها وهي تهزها بقبضة عنيفة من ذراعها:

- أيتها الحمقاء الصغيرة! أليست لك روح إطلاقاً! ولكن هكذا أنت دائماً، إنك بلا كبرياء أو احترام لنفسك، فكما أنك تسمحين لذلك الشاب الحقير شيفري بالجري وراءك..

وأردفت قائلة وهي تؤكد احتقارها.

- لسوف تلقين بأسرتك في الوحل، دون أن تهتمي قط.

- لا تقولي هذا يا عزيزتي فاني، إنني أقوم بكل ما في وسعي لأسرتي.

فقالت فاني، مرددة العبارة وهي تجر أختها بسرعة:

- أتقومين بكل ما في وسعك من أجلها؟ أيمكن أن تدعي امرأة كهذه -كالتي استطعت أن تريها الآن، والتي لا مثيل لها في الوقاحة والادعاء- أن تحتقر أسرتك ثم تشكريها على هذا. أيمكن أن تفعلي هذا لو كانت، لديك أية خبرة بشؤون الحياة.

- لا يا فاني، ما كنت لأفعل هذا يقيناً.

- إذن اجعليها تدفع الثمن أيتها المخلوقة الصغيرة الحقيرة. وإلا ماذا يمكن أن تجعليها تفعل غير هذا؟ اجعليها تدفع الثمن أيتها الغبية الصغيرة، ثم اجعلي أسرتك تستفيد من هذا المال.

ولم تتحدثا بعد ذلك حتى وصلتا إلى المسكن الذي تقيم فيه فاني مع عمها. وهناك وجدتا الرجل العجوز يتدرب على العزف على قيثارته في ركن من الغرفة وهو أشد ما يكون اكتئاباً. وكان على فاني أن تعد لنفسها طعاماً من شرائح اللحم والخضار والشاي، وقد أخذت في ضيق شديد تتظاهر بإعداده، بينما كانت دوريت الصغيرة هي التي تعدّه في الواقع بهدوء. فلما جلست فاني أخيراً إلى طعامها، راحت تلقي بأدوات المائدة هنا وهناك وتقضم الخبز بغضب تماماً كما فعل والدها في الليلة السابقة.

وقالت وهي تنفجر أخيراً في بكاء حار:

- إذا كنت تحتقرينني لأني راقصة، فلِمَ دفعتني إلى احتراف الرقص؟ إن هذا من صنع يديك. كنت تريدين أن أعفر رأسي بالتراب

أمام السيدة ميردل هذه وأدعها تقول وتفعل ما تريد وتحتقر أسرتي أمامي، كل هذا لأني راقصة.

-أوه، فاني!

– وكذلك أخي تيب المسكين أيضاً. إن من حقها أن تزدريه كما تشاء لمجرد أنه اشتغل بدوائر المحاماة وبأرصفة الموانئ وما إلى ذلك. إن هذا من صنع يديك يا إيمي، وكان ينبغي على الأقل أن تسمحي بالدفاع عنه.

وخلال هذا كله، كان العم يعزف على قيثارته باكتئاب في ركن الغرفة، إلا أنه كان بين الحين والآخر يتوقف عن العزف ويحملق في الأختين في هيئة الشخص الذي سمع -في غموض- إنساناً ما يتحدث!

وعادت فاني تقول:

– ووالدك، والدك المسكين يا إيمي! إنك تتركين أمثال هؤلاء الناس يهينونه بوقاحة لأنه ليس حراً لأن يظهر ويدافع عن نفسه، فإذا كنت لا تشفقين على نفسك لأنك تخرجين للعمل، فقد كان من الممكن على الأقل، في رأيي، أن تشفقي عليه وأنت تعلمين الآلام التي عاناها منذ أمد بعيد.

وأحست دوريت الصغيرة فيما ينطوي عليه هذا الحديث من ظلم وقسوة. وقد أضافت ذكريات الليلة السابقة إلى إحساسها مزيداً من الوخز والألم. إلا أنها لم تجب بشيء، وإنما استدارت بمقعدها عن المائدة إلى المدفأة. أما العم، فبعد أن توقف عن العزف برهةً، عاد إليه بكل قوة وحماسة.

وظلت فاني في غضبها وثورتها طيلة شربها الشاي مع الخبز حتى انتهت أخيراً إلى القول عن نفسها إنها أتعس فتاة في الدنيا، وإنها تتمنى لو كانت ميتة، وتحوّل بكاؤها بعد ذلك إلى همهمة حزن، ثم نهضت ولفّت

ذراعيها حول عنق أختها، وحاولت إيمي أن تمنعها من أن تقول شيئاً، ولكن فاني قالت إنه لا بد لها وينبغي عليها أن تعتذر إليها، ومن ثم راحت تقول المرة بعد الأخرى «إنني آسفة يا إيمي» «اصفحي عني يا إيمي» وذلك بصوت كله حماسة وندم:

واستطردت تقول بعد أن جلست بجانب أختها في مودة وحب:

- ولكني في الحقيقة يا إيمي أرجو وأعتقد أنه كان يمكنك أن تنظري إلى هذا الموضوع من زاوية مختلفة لو أنك تعرفين المزيد عن الطبقة الاجتماعية الراقية.

فقالت الصغيرة الوادعة دوريت:

- ربما يمكن هذا يا فاني.

واستطردت فاني وقد أخذت تلين تدريجياً:

- أترين يا إيمي؟ فبينما أنت تعيشين هنا في حياة رتيبة مستسلمة، كنت أنا أعيش في مجتمع راقٍ. ولعلي قد بلغت فيه من المكانة أكثر مما أستحق.

فأجابت دوريت الصغيرة قائلة:

- أجل، أجل..

- وبينما أنت تفكرين في الطعام والثياب يا إيمي، كنت أفكر أنا -كما تعلمين- في مصالح الأسرة. أليس كذلك يا إيمي؟

فعادت دوريت الصغيرة تقول بوجه أكثر بشاشة من قلبها:

- أجل.

وقالت فاني:

- لا سيما وأنا كما تعلمين أتمتع بمواهب الإنسانة التي تصلح للحياة الاجتماعية الراقية، وهي حياة تختلف في كثير من مظاهرها عن غيرها من الحياة الاجتماعية الأخرى. والآن قبّليني مرة أخرى يا إيمي ونحن نتفق على أن كل شيء أصبح كما ينبغي، وأنك إنسانة هادئة أليفة طيبة محبة للحياة المنزلية.

وكانت القيثارة ترسل عويلها الحزين في أثناء هذه المحادثة. ولكن العزف لم يلبث أن توقف عندما أعلنت فاني أن الوقت قد حان للعودة إلى المسرح، وقد أعلنت هذا بانتزاعها للنوتة الموسيقية من يديه والقيثارة من فمه.

وافترقت دوريت الصغيرة عنهما عند الباب، وأسرعت عائدة إلى سجن مارشاليزا. وكان الظلام ينتشر هناك بأسرع مما ينتشر في أي مكان آخر، ومن ثم شعرت إيمي وهي تدخل الفناء كأنها تدخل خندقاً عميقاً. وكانت ظلال الأسوار تقع على كل شيء حولها، ولا سيما على الوالد الذي كان في ثوبه الرمادي وقلنسوته المخملية السوداء التي استدارت نحوها عندما فتحت باب الغرفة الصغيرة.

وقالت دوريت الصغيرة لنفسها وهي لا تزال ممسكة بالباب: «وهذه الظلال؟ ألا تقع عليّ أيضاً؟ إن فاني لم تكن مبالغة فيما قالت..».

* * *

شكوى السيد ميردل

كانت الظلال الملقاة على ذلك المسكن الفاخر، مسكن آل ميردل بشارع هارلي ستريت، كافنديش سكوير، هي فقط ظلال واجهات المساكن الفاخرة في الجانب الآخر من الشارع، وكما هو الشأن في محيط المجتمع الراقي، كانت صفوف المنازل المواجهة في شارع هارلي ستريت شديدة التحفظ بعضها نحو البعض الآخر. والواقع أن التشابه بين المساكن وما فيها من سكان قد بلغ في هذا الشأن حداً أصبح السكان معه يجلسون في ظلال بيوتهم هذه المترفة إلى موائد طعامهم المتقابلة، يحملقون إلى الجهة المقابلة بنفس ذلك الجمود النابع من مساكنهم.

إن كل إنسان يعرف هيئة ذلك الشارع، ويعرف ما هم عليه سكانه المقيمون في ظلال بيوتهم المترفة. إنه الشارع ذو المنازل العشرين المصبوبة في قالب واحد جامد، التي يُطرَق عليها بطريقة واحدة، وبمدقات متماثلة، ولها جميعاً سلالم أمامية متشابهة، وتحرسها جميعاً أسوار من نفس الطراز، ولها جميعاً سلالم حريق لا تصلح للاستعمال، وفي أعلاها جميعاً تركيبات غير صالحة للاستعمال، وكل ما فيها بلا استثناء، يعتبر مع ذلك ذا قيمة كبيرة. ثم هناك المنزل المحتاج إلى إصلاحات، والنافذة التي تبدو في بعض المنازل ذات خارجة نصف مستديرة، والمنزل الناصع الطلاء

والمنزل ذو الواجهة المجددة، والمنزل القائم عند الناصية، الذي لا شيء فيه غير غرف حادة الزوايا، والمنزل ذو الستائر المنسدلة على نوافذه دائماً، والمنزل ذو الخزان المرفوع بابه دائماً، والمنزل الذي يتردد عليه موظف جباية الضرائب العقارية فلا يجد فيه أحداً والمنزل الذي يرفض أحد شراءه، ومن ثم فهو معروض للبيع بثمن بخس، فمن ذا الذي لا يعرفه، والمنزل المزخرف الذي اشتراه ذلك السيد المتجهم الوجه ولكنه لم يستطع الإقامة فيه، فمن ذا الذي لا يعرف ذلك المنزل المسكون بالأشباح؟

وكان شارع هارلي ستريت -كافنديش سكوير- أكثر إحساساً بوجود السيد والسيدة ميردل من غيرهما. إن في الشارع دخلاء عليه، وهو لا يحس بهم، أما السيد والسيدة ميردل فإنه كان سعيداً بتشريفهما له، وكذلك كان المجتمع الراقي يحس بهما. وقد قال هذا المجتمع: «دعنا نسجلهما بيننا. دعنا نتعرف بهما».

كان السيد ميردل واسع الثراء جداً. كان رجل أعمال ضخماً. كان من الذين يقال عنهم إنهم يحوِّلون كل ما يلمسونه إلى ذهب كالملك ميداس في الأسطورة القديمة وكان بارعاً في كل شيء في شؤون المال والأعمال. وبطبيعة الحال كان عضواً في البرلمان. ولم يكن ثمة مفر من إقامته في المدينة، لأنه كان رئيساً لهذه الشركة، أو عضواً منتدباً لإدارة تلك، أو مديراً لذلك المشروع. وكان كبار المستثمرين يسألون أصحاب المشروعات «أية أسماء لديكم؟ هل بينها اسم ميردل» فإذا كانت الإجابة نفياً، فإن المستثمرين يرفضون المساهمة.

هذا الرجل العظيم المحظوظ قد زوّد زوجته، صاحبة ذلك الصدر الضخم الذي يتسع لكل أنواع القسوة، بتلك الحياة المترفة منذ خمسة عشر عاماً. ولم يكن صدر زوجته من النوع الذي يريح عليه الزوج رأسه، وإنما من النوع الذي يصلح معرضاً للجواهر. وكان السيد ميردل

يريد شيئاً يعرض عليه الجواهر، ومن ثم اشتراه لهذا الغرض. وقد كان من الممكن أن يتزوج كل من ستور[1] وموريتمر لمثل هذا الغرض أيضاً.

وقد نجح في مشروعه هذا كل النجاح؛ شأنه في كل مشروعاته الأخرى، وتألقت الجواهر كأسطع وأثمن ما تكون. وهكذا أمكن للصدر المتحرك في الوسط الاجتماعي بما عليه من جواهر أن يظفر بالإعجاب العام. وأعلن المجتمع عن رضاه وامتلأ قلب السيد ميردل بالرضا أيضاً؛ وكان من أبعد الناس اهتماماً بشؤونه الخاصة؛ وإنما كان يفعل كل شيء من أجل المجتمع، ولا يظفر لنفسه من كل أرباحه ومجهوداته إلا بأقل ما يمكن أن يظفر به إنسان لنفسه.

وبمعنى آخر، إن هذا ربما يعني أنه يحصل على كل ما يريد، لأن الإنسان الواسع الثراء في مقدوره أن يحصل على كل ما يريد. ولكن رغبته الأساسية كانت إرضاء المجتمع، أياً كان نوع الإرضاء، ثم احتمال كل مساوئه على أنها ضريبة ينبغي أن يؤديها. ولم يكن يتألق في المجتمعات، لأنه لم يكن لديه الكثير مما يقوله عن نفسه. وكان رجلاً شديد التحفظ، له رأس كبيرة عريضة ووجه تشيع فيه تلك الحمرة القاتمة التي تنم عن الأسى أكثر مما تنم عن النضارة كما يرتسم عليه دائماً ذلك الشعور بالقلق الناشئ عن اهتمامه الخاص بأطراف كمّي سترته وكأنما هذه الأطراف تعلم ما يدور بنفسه وتحاول دائماً أن تخفي يديه. وكان حديثه القليل ينم عن أنه رجل لطيف، صريح، كتوم للأسرار الخاصة والعامة، شديد التعلق بكل الذين يهتمون بشؤون المجتمع الراقي.

---

(1) من كبار تجار الجواهر في إنكلترا.

ومع ذلك فإنه هو نفسه لا يكاد يشعر بالاستمتاع في أثناء وجوده في هذا المجتمع الراقي -إذا كان هذا المجتمع عبارة عن الذين يحضرون ولائم العشاء التي يقيمها وحفلات الاستقبال والموسيقى التي تقيمها زوجته- ومن ثم فإنك على الأغلب تراه في مثل هذه الحفلات مختبئاً بجوار الجدران أو وراء الأبواب وكذلك حين يذهب هو إلى هذا المجتمع -بدلاً من أن يأتي المجتمع إليه- فإنه يبدو عندئذ متعباً، يميل بالإجمال إلى النوم. إلا أنه، مع هذا، كان دائم الاختلاط بمن فيه، دائب الحركة في وسطه، لا يمتنع قط عن إنفاق المال عليه في سخاء شديد.

وكان الزوج الأول للسيدة ميردل ضابطاً برتبة عقيد. وكانت بصدرها الأعظم قد خاضت معه مغامرة بين ثلوج أمريكا الشمالية، ثم خرجت منها بخسائر طفيفة في لون البشرة، ودون خسائر قط في البرود العاطفي.

وكان ابن هذا العقيد، هو الابن الوحيد للسيدة ميردل. وكان مخروطي الرأس، مرتفع الكتفين، أقرب في مظهره العام إلى صبي منتفخ منه إلى رجل في مرحلة الصبا. وقد أدت تصرفاته التي تنم عن الغباء الشديد إلى انتشار إشاعة بين أترابه بأن عقله تجمّد في ثلوج منطقة سانت جونز بإقليم نيوبر نزويك عندما ولدته أمه هناك، ولم يعد -أي عقله- إلى حالته الطبيعية منذ ذلك الحين. وثمة إشاعة أخرى تقول إنه سقط في أثناء طفولته، وبسبب إهمال مربيته، من نافذة مرتفعة على أم رأسه التي سمعها بعض الشهود الموثوق بهم وهي تفرقع! ومن المحتمل جداً أن تكون هاتان الشائعتان من بنات الخيال؛ ولكن هذا لا يمنع من القول بأن ذلك السيد الشاب -الذي يدعى سباركلر- لا يكف عن التقدم بعرض الزواج إلى كل أنواع الآنسات غير المرغوب فيهن، والتأكيد بأن كل واحدة منهن عرض عليها الزواج كانت «فتاة طيبة مثقفة أيضاً، لا تحب العبث أو اللغو».

وقد كان من الممكن أن يكون ابن زوجة كهذا، محدود المواهب، عبئاً ثقيلاً على كاهل رجل آخر غير السيد ميردل. ولكن هذا لم يكن يريد ابن زوجة لنفسه، وإنما أراد أن يكون له ابن زوجة للمجتمع. ولما كان السيد سباركلر قد أمضى مدة خدمته العسكرية في الحرس الملكي، كما كان يتردد على جميع أنواع السباق، وعلى جميع الولائم الاجتماعية، وعلى جميع الحفلات الراقية، ومن ثم أصبح معروفاً في الوسط الاجتماعي، فإن المجتمع الراقي لم يلبث أن اعترف به ووافق عليه. وابتهج السيد ميردل بهذه النتيجة التي استطاع أن يصل إليها رغم أن الثمن الذي دفعه من ماله في هذا السبيل كان باهظاً.

وكان ثمة وليمة عشاء مقامة في بيت آل ميردل بشارع هارلي ستريت في نفس الوقت الذي كانت فيه دوريت الصغيرة جالسة ذات ليلة بجانب أبيها تخيط قمصانه الداخلية الجديدة. وكان بين المدعوين إلى تلك الوليمة أقطاب من القصر الملكي وأقطاب من عظماء المدينة وأعيانها، وأقطاب من مجلس العموم، وأقطاب من مجلس اللوردات، وأقطاب من دوائر القضاء، وأقطاب من دوائر المحاماة، وأقطاب من رجال الدين، وأقطاب من وزارة الخزانة، وأقطاب من الحرس الملكي، وأقطاب من البحرية، وبالإجمال جميع الأقطاب الذين يصرفون شؤون الناس، أو يعرقلونها في بعض الأحيان!

وقال قطب من رجال الدين لآخر من الحرس الملكي:

– قيل لي إن السيد ميردل ظفر بصفقة ضخمة أخرى، ويقولون إن أرباحها تبلغ مائة ألف جنيه.

وسمع قطب الحرس الملكي أن المبلغ مئتا ألف.

وسمع قطب وزارة الخزانة أنه ثلاثمائة ألف.

وقال قطب من دوائر المحاماة وهو يدير نظارته بين يديه إنه ليس متأكداً من الأمر، ولكنه سمع أن المبلغ أربعمائة ألف. وبالإجمال فهي إحدى هذه الضربات الموفقة من الإحصاء والتقدير التي كان من الصعب معرفة نتيجتها. إنها إحدى هذه العمليات الذكية السريعة المصحوبة بالحظ والجرأة التي قلما يسمح بمثلها هذا العصر. ولكن هناك الأخ بيللوز الذي اشترك في العملية المصرفية الكبيرة، والذي يمكن أن يخبرنا بالمزيد في هذا الأمر. فإلى أي شيء أرجع الأخ بيللوز هذه الضربة الناجحة الجديدة!

إن الأخ بيللوز كان في طريقه ليقدم تحياته إلى الصدر الأعظم، ومن ثم لم يكن في مقدوره في أثناء مروره إلا أن يخبرهم أنه سمع عن يقين أكيد كما يلوح أن أرباح الصفقة المالية من أولها إلى آخرها تبلغ نصف مليون جنيه.

وقال قطب البحرية إن السيد ميردل رجل مدهش. وقال قطب وزارة الخزانة إنه قوة جديدة للدولة، وإن في مقدوره أن يشتري مجلس العموم برمته. وقال الأسقف إن هذا الثراء يفيض بين يدي سيد كريم مستعد دائماً للقيام بكل واجباته نحو المجتمع الراقي.

وكان سيد ميردل نفسه يأتي إلى مثل هذه الحفلات متأخراً في العادة، باعتباره رجلاً تعطّله دائماً الأعمال الضخمة اليومية التي تلفظ غيره من الأقزام. وكان في هذه المناسبة آخر من وصل. وقد قال قطب وزارة الخزانة إن أعمال ميردل تعاقبه قليلاً. وقال الأسقف إنه سعيد كلما فكر أن هذا الثراء تزخر به خزائن سيد كريم يتقبله بمثل هذه الوداعة.

ونتقل الآن إلى الذرور! فلقد بلغ من كثرة الذرور على رؤوس التشريفاتية الكثيرين أن راح يتناثر على موائد العشاء. وهكذا أخذت ذراته تمتزج بأطباق الطعام واكتست لحوم المجتمع بذرور متناثرة من

رؤوس تشريفاتية من الدرجة الأولى. وتناول السيد ميردل ذراع كونتيسة كانت مستكنة في غيابات ثوب هائل بدت فيه كأنها قلب كرنبة ضخمة. وإذا كان مسموحاً بمثل هذا التشبيه المتواضع فيمكن القول إن أطراف الثوب كانت تنثال على السلم كأنها أحمال نباتية خضراء لا يعلم أحد أي شخص صغير يحملها.

كان أمام المجتمع في تلك الوليمة كل ما يمكن، وما لا يمكن أن يشتهيه. كان أمامه كل شيء لمتعة النظر، وكل شيء لمتعة الأكل، وكل شيء لمتعة الشرب وكان المأمول أن يستمتع المجتمع بهذا كله؟ لأن نصيب السيدة ميردل من هذه الوليمة لم يكن يزيد على شلن بحساب ما تتناوله من طعام. وكانت السيدة ميردل رائعة، ويليها في الروعة رئيس الساقة في ذلك اليوم كان أبهى رجل بين المدعوين إنه لم يفعل شيئاً. وإنما كان يبدو في هيئة قَلَّ أن يبدو فيها كثير من الرجال. كان آخر تحفة قدَّمها السيد ميردل للمجتمع. إن السيد ميردل نفسه لم يكن يريده بل لقد استاء عندما شاهد ذلك الرجل العظيم أول مرة، ولكن المجتمع الذي لا يستحي كان يريده، فكان له ما يريد.

وقادت الكونتيسة الخفية صفوف المدعوين إلى الموائد، وجاء الصدر الأعظم في نهاية طابور الجمال، وغمغم قطب وزارة الخزانة بعبارة إعجاب، وأمّن عليه القطب الديني.

واشتبك قطب دوائر المحاماة في مناقشة عن المحاكمات العسكرية مع قطب الحرس الملكي. وتحدث قطب القضاء مع الأخ بيللوز. وأخذ أقطاب آخرون يتبادلون الحديث كل اثنين معاً. وجلس السيد ميردل صامتاً ينظر إلى مفرش المائدة، وفي بعض الأحيان أحد الأقطاب يوجِّه الحديث إليه عارضاً عليه وجهة نظره الخاصة في المناقشة ولكن السيد ميردل كان قلما ينتبه إلى ما يقال له، أو قد يزيد أحياناً فيخرج قليلاً من عملياته الذهنية ليقدم كأساً من الشراب لهذا أو لذاك.

وعندما نهضوا للانصراف، كان لدى الكثير من الأقطاب أشياء يريدون أن يقولوها للسيد ميردل على انفراد، ومن ثم راح يعقد جلسات خاصة سريعة في ركن من قاعة الطعام قبل أن يودعهم عند باب الخروج.

وقال قطب وزارة الخزانة إنه قد يتجرأ ويقدم تهانيه إلى واحد من أشهر الرأسماليين الإنكليز في العالم، وملك من ملوك التجارة -وكان قد نطق بهذه الكلمات المبتكرة بضع مرات في البرلمان، ومن ثم أصبحت سهلة على لسانه- بمناسبة عمليته المالية الجديدة الناجحة. وأضاف قائلاً إن استمرار انتصار أمثال هؤلاء الرجال هو انتصار ورخاء للدولة. ولم ينسَ قطب وزارة الخزانة أن يجعل السيد ميردل يفهم أنه، في هذه الناحية أيضاً، من أقطاب الوطنية.

وقال السيد ميردل:

- شكراً يا سيدي اللورد، شكراً لك، إنني أقبل تهانيك بكل فخر، وإني لشديد الابتهاج برضاك.

فابتسم قطب وزارة الخزانة وأدار السيد ميردل من ذراعه نحو ركن غرفة الطعام وقال:

- عجباً! إنني راضٍ عنك يا عزيزي السيد ميردل بلا تحفظ، وأعتقد أنني أتمنى لو أتاحت لك الظروف أن تكون عضواً في حزبنا.

وشعر السيد ميردل بمزيد الشرف..

وعاد قطب وزارة الخزانة يقول:

- لا لا لا تقل هذا. فلا ينبغي أن ينظر رجل ممتاز موفور الخبرة بعيد النظر مثلك إلى الموضوع على هذا النحو فلو أن الحظ السعيد أتاح لنا، عن طريق ظروف في صالحنا، أن نقترح على رجل عظيم مثلك ليكون معنا، وليضع نفوذه القوي في صفّنا، وأن يمنحنا خبرته وغزارة علمه،

لقدمنا إليه هذا الاقتراح على أنه واجب وطني. بل إن الواقع واجب عليه، نحو المجتمع.

وأعرب السيد ميردل عن رأيه بأن المجتمع هو قرة عينه، وأن مصالحه تسبق في الأهمية أي اعتبار آخر. وانصرف قطب وزارة الخزانة وأقبل قطب دوائر المحاماة.

وقال قطب المحاماة بأسلوبه الذي يستعمله مع المحلفين، وبنظارته المزدوجة التي يديرها بين أصابعه، إنه يرجو لو أمكن أن يلتمس له العذر إذا هو ذكر لواحد من أعظم الذين سخروا المال في خدمة الخير لا الشر، واحد ظل منذ مدة طويلة وهو يتألق في مدارج الشؤون التجارية للدولة -إذا هو ذكر بلا غاية خاصة- أو بما يقوله المحامون، «بلا منفعة خاصة» شيئاً وصل إلى مسامعه عَرَضاً. لقد طلب إليه أن ينظر في أمر بيع مزرعة ضخمة في أحد الأقاليم، الشرقية، أو على وجه الدقة -والسيد ميردل يعلم بطبيعة الحال أن المحامين يحبون الدقة في الحديث- تقع على حدود إقليمين شرقيين، وقد ثبت للمحامي الكبير أن حجة ملكية المزرعة سليمة تماماً، وأن المطلوب بيعها لرجل موفور الثراء -وهنا ازدادت وضوحاً طريقته في الحديث مع المحلفين وإدارته للنظارة المزدوجة بين أصابعه- وإن شروط البيع ستكون على جانب كبير من التيسير وقد وصلت هذه المعلومات إلى مسامع قطب المحاماة في ذلك اليوم فقط، ومن ثم قال لنفسه «سوف يكون لي شرف تناول العشاء الليلة مع صديقي المحترم السيد ميردل، ولهذا سوف أنتهز هذه الفرصة الأخيرة على أن يكون ذلك سراً بيننا»؛ وتلك الصفقة لا تحمل في طياتها فقط نفوذاً سياسياً ضخماً، وإنما تشمل أيضاً السلطة الروحية لست كنائس داخلة في نطاقها. ولكن قطب المحاماة يعرف تماماً أن السيد ميردل غير عاجز عن اكتشاف خير الوسائل لاستثمار أمواله، وغير مقصِّر في

استخدام كل مواهبه ونشاطه في هذا السبيل، إلا أن قطب المحاماة يتجرأ ويقول إنه يتساءل في نفسه: ألا يجدر برجل بلغ عن جدارة هذه المكانة والشهرة في العالم أن يمتلك هذه المزارع -لا من أجل نفسه كما يمكننا أن نقول- وإنما من أجل المجتمع، وأن يستمتع بمثل هذا النفوذ -لا ليمارسه من أجل حزبه كما يمكن أن نقول- وإنما من أجل مصالح المجتمع.

ومرة أخرى أعرب السيد ميردل عن استعداده الكامل لوضع كل مصالح المجتمع في اعتباره، ثم انصرف قطب المحاماة بنظارته المزدوجة إلى السلّم الكبير. وهنا أقبل قطب الدين منساباً في اتجاه ركن غرفة الطعام.

وقال قطب الدين إنه قد خطر له عَرَضاً أن نِعَم هذه الدنيا لا يمكن -يقيناً- أن تتحول إلى أفضل وأسعد الاتجاهات إلا إذا وقعت في أيدي العقلاء والحكماء الذين يعرفون عن يقين قيمة هذه النِّعَم -وهنا حاول قطب الدين أن يبدو هو نفسه فقيراً- ويعرفون في الوقت نفسه أهميتهم، ويعرفون أهمية تكريس هذه النِّعَم لمصالح إخوانهم في البشرية.

وأعرب السيد ميردل -في تواضع- عن يقينه بأن قطب الدين لا يمكن أن يكون يعنيه هو بالذات وإنه إذا كان يعنيه، فهو يشكره على حُسْن ظنه به.

وعندئذ تقدم قطب الدين، في اختيال، خطوة إلى الأمام كاشفاً عن ساقه اليمنى الأنيقة وكأنما يقول له: «دعك من ملابسي الدينية، إنها مجرد شكليات» ثم عرض موضوعه على صديقه الطيب قائلاً ألم يخطر ببال ذلك الصديق الطيب أن المجتمع قد يأمل من ابن من أبنائه الأثرياء الذين يعتبرون نماذج رائعة فيه، أن ينثر بعض ماله من أجل بعثة تبشيرية أو شيء من هذا القبيل في إفريقيا!

ولما أعلن السيد ميردل أن هذا الموضوع سيلقى منه كل عناية، عرض قطب الدين موضوعاً آخر فقال: ألم يهتم صديقه الطبيب يوماً بأعمال «الجمعية المتحدة للشؤون الخيرية» ولم يخطر بباله يوماً أن تحويل بعض ماله في هذا الاتجاه قد يكون له أطيب الأثر في جميع النفوس.

وردّ السيد ميردل بالإيجاب، وعندئذ شرح قطب الدين الهدف من سؤاله فقال إن المجتمع ينتظر من أمثال صديقه الطبيب هذا أن يقوموا بمثل هذه الأعمال، ولا يعني هذا أنه هو شخصياً ينتظر منهم هذا وإنما المجتمع هو الذي ينتظر هذا منهم. وعلى هذا النحو ليست «جمعيتنا المتحدة للشؤون الخيرية» هي التي تريد هذا، وإنما المجتمع هو الذي لن يهدأ له بال حتى تظفر الجمعية بما تريد. ثم راح يؤكد لصديقه الطبيب أنه يعلم تمام العلم مبلغ اهتمام هذا الصديق الطبيب بمصالح المجتمع في كل مناسبة؛ وأنه في الوقت الذي يشرح فيه مشاعر المجتمع، ويقدم فيه هذه الموضوعات، يتمنى من صميم قلبه أن يدوم عليه الرخاء، والمزيد من الثراء، وأن يستمر مستمتعاً بهذا النعيم بوجه عام.

وبعدئذ صعد قطب الدين إلى الطابق الأعلى، ولم يلبث أن تبعه بقية الأقطاب تدريجياً حتى لم يبقَ في الأسفل غير السيد ميردل. وقد ظل هذا السيد واقفاً ينظر إلى غطاء المائدة حتى شعر أن كبير السقاة يوشك أن ينفجر من فرط الاستياء، فمضى ببطء وراء الباقين حتى ضاع في خضم الصاعدين إلى الطابق الأعلى. وحققت السيدة ميردل ما أرادت بعرض مجوهراتها على المجتمع، وحقق المجتمع ما جاء من أجله، وشرب السيد ميردل من الشاي ما قيمته قرشان في أحد المشارب، وهكذا حقق أكثر مما أراد.

وكان بين أقطاب السهرة طبيب مشهور كان يعرف كل شخص ويعرفه كل شخص. وعند دخول هذا الطبيب، شاهد السيد ميردل جالساً يشرب الشاي في ركن، فلمسه بذراعه، وهنا أجفل السيد ميردل واستدار نحوه قائلاً:

- أوه، أهذا أنت؟

- هل أنت أحسن اليوم؟

فقال السيد ميردل:

- لا، لست أحسن.

- يؤسفني أنني لم أرك هذا الصباح، أرجوك أن تأتي غداً أو تدعني آتي إليك.

فردّ السيد ميردل قائلاً:

- حسناً، سوف آتي إليك غداً في أثناء مروري بعيادتك.

وكان قطب الدين وقطب المحاماة واقفين كمستمعين فقط في أثناء هذا الحوار. فلما انغمر السيد ميردل بين المدعوين، أبديا ملاحظاتهما على الموضوع للطبيب. قال قطب المحاماة إن هناك حداً للإجهاد الفكري لا يستطيع الإنسان أن يتجاوزه، وأن هذا الحد يختلف باختلاف أنسجة وخصائص التكوين الجسماني كما سبق في مناسبات كثيرة أنه لاحظ بين عدد كبير من زملائه المثقفين، ولكن إذا تجاوز الإنسان حد الإجهاد مسافة يسيرة، فإن يصاب بحالة انقباض وعسر الهضم. وإذا لم يكن في حديثه إقحام لنفسه على أسرار العلاج والطب المقدسة -قال هذا بطريقته مع المحلفين وبإدارته للنظارة المزدوجة بين أصابعه- فيمكنه القول إن هذه هي حالة السيد ميردل. وقال قطب الدين إنه عندما كان في مرحلة الشباب اعتاد أن يكتب مواعظه في أيام السبت، وهي عادة ينبغي أن يقلع عنها كل أبناء الكنيسة الشبان، لأنه كان يشعر نتيجة لهذا بالانقباض الناشئ -في رأيه- من الإجهاد الذهني. وكان يعالج هذه الحالة بصفار بيضة طازجة بعد أن تضربه السيدة الطيبة التي كان يقيم يومذاك في

مسكنها، بشراب الشيري الممزوج بجوزة الطيب والسكر الناعم. ورغم أن قطب الدين لا يجب أن يفرض مثل هذه الوصفة الساذجة على أستاذ عظيم خطير الشأن في علم العلاج، إلا أنه يتساءل: ألا يمكن أن يعرض هذا العلاج اللطيف لرفع الروح المعنوية للسيد ميردل إذا كانت حالته ناشئة من الإجهاد الفكري!

وقال الطبيب:

- أجل، أجل، إنكما على صواب. ولكن يمكنني القول أيضاً إن السيد ميردل لا يعاني من شيء، إنه يتمتع بصحة جيدة وبمعدة قوية، وبتماسك صلب. أما عن الأعصاب، فإن السيد ميردل بارد الطبع، قوي الاحتمال، ويمكن القول إنه منيع على الأذى مثل آشيل. فكيف يظن رجل كهذا أنه ليس كما ينبغي؟ إن هذا أمر يدعو إلى العجب. إلا أنني لم أجد به شيئاً، ولعله يشكو من علة كامنة في أغوار النفس. ولكنني لا أستطيع أن أجزم. إنما أقول فقط إنني لم أجد به شيئاً.

ولكن لم يكن ثمة ما يشكو منه أقل شكوى بخصوص ذلك الصدر الذي يعرض الجواهر الكريمة منافساً بها جواهر أخرى مماثلة على صدور أخرى. ولم يكن ما يشكو منه أقل شكوى بخصوص الشاب سباركلر الذي كان يحوم حول الغرف باذلاً جهده في البحث عن سيدة شابة منبوذة تكون على شيء من الغباء. ولم يكن ثمة ما يشكو منه أقل شكوى بخصوص آل بارناكل وآل ستلنسوكنج الذي كانت جموع منهم كاملة بين الحاضرين، أو على أي واحد آخر من المدعوين. وحتى على نفسه كان ظل الشكوى بسيطاً جداً وهو يتحرك بين الحشود متقبلاً تحياتهم.

علة السيد ميردل، أن الاتصال الدائم الذي يجمع بين السيد ميردل والمجتمع يجعل من الصعب على الإنسان أن يتصور كيف يمكن

أن يكون للسيد ميردل علة لا يعرف أحد عنها شيئاً. هل يعاني من علة كامنة في أغوار النفس، وهل سيهتدي إليها أحد؟ صبراً! وفي الوقت ذاته فإن ظلال أسوار سجن مارشاليزا كان لها في الواقع تأثير مقبض يمكن ملاحظته على أسرة دوريت في أية لحظة من لحظات دوران الشمس في فلكها.

* * *

لغــز

لم تكن مشاعر الود تزداد في قلب والد سجن مارشاليزا نحو السيد كلينام مع ازدياد زيارات هذا الأخير له. ذلك أن إمساك يده في موضوع «الواجبات» والتكريم لم يكن مما يثير أحاسيس الإعجاب في ذلك الصدر الأبوي، بل على العكس كان يملأ هذا الصدر الحساس بالاستياء وباعتبار هذا الموقف من المواقف التي تنم عن نقص واضح في مجال المروءة والذوق السليم. وقد أخذ الشعور بالاستياء الناشئ من اكتشافه بأن السيد كلينام لا يتميز بهذه الرقة التي كان يظنها متوافرة فيه، بدافع من طبيعته الطيبة، يغلف عقله الأبوي فيما يختص بذلك السيد. وقد تمادى الوالد في هذا إلى حد قوله -في محيط أسرته- إنه يخشى ألا يكون السيد كلينام رجلاً ذا مزايا رفيعة. وذكر أنه كان سعيداً -في حدود إمكانياته كزعيم وممثل للسجن- عند استقباله للسيد كلينام حينما جاء ليقدم تحياته؛ ولكنه وجد أنه لم يستطع أن يألفه شخصياً. لقد بدا له أن ثمة شيئاً «لا يعرفه» ينقصه. على أن الوالد، مع هذا كله، لم يكن ليقصِّر في التظاهر بالترحيب بالسيد كلينام، بل على العكس كان يسرف في تشريفه بهذا الترحيب؛ ولعل الأمل كان يراوده في أن السيد كلينام -رغم كونه رجلاً لا يتمتع بهذا الذكاء والألمعية اللذين يجعلانه يكرر أريحيته السابقة- ربما لا يزال في نطاق طبيعته جانب من المروءة التي تبدو عند اللزوم.

وفي الوقت نفسه كان السيد كلينام قد أصبح بين نزلاء السجن زائراً مرموقاً باعتباره أولاً السيد الغريب الذي احتُجِز في السجن عَرَضاً في ليلة زيارته الأولى، وثانياً باعتباره السيد الغريب الذي يتحرى عن شؤون والد مارشاليزا والفكرة الحمقاء تراوده لإطلاق سراحه، وثالثاً باعتباره السيد الغريب الذي يهتم بطفلة مارشاليزا. ولم يكن السيد كلينام يدهش لما يلقاه من ترحيب السيد شيفري عندما يكون قائماً بنوبته في حراسة البوابة، ذلك لأنه كان يرى الفارق بسيطاً بين ترحيب السيد شيفري، وترحيب غيره من حراس بوابات السجون. إلا أنه حدث في أصيل ذات يوم معين أن أدهشه السيد شيفري فجأة، مما جعله يبدو مختلفاً كثيراً عن غيره من الحراس.

وقد استطاع السيد شيفري، بوسائله الخاصة، أن يتخلص من النزلاء المتسكعين بجوار بوابة السجن، حتى إذا أقبل السيد كلينام للخروج، وجده قائماً بالحراسة بمفرده.

قال السيد شيفري على حدة وفي لهجة سرية:

- معذرة يا سيدي، في أي اتجاه سوف تمضي؟

وردّ كلينام وهو يرى، في دهشة، السيد شيفري وكأنه رمز للصمت وهو يقف واضعاً مفتاح البوابة على شفتيه:

- عن طريق الجسر..

- معذرة مرة أخرى يا سيدي، ولكن ألا يمكن أن تمضي عن طريق هورسهان جرلين. ألا يمكن بأية وسيلة أن تجد الوقت الكافي للذهاب إلى هذا العنوان؟

ثم سلّمه بطاقة صغيرة مطبوعة للتوزيع تحمل اسم «شيفري وشركائه، تجار التبغ ومستوردي أحسن أنواع السيجار من هافانا،

والمتابغ من البنغال، والتبغ ذا النكهة الرائعة من كوبا، والسعوط الممتاز.. إلخ.. إلخ..».

وقال السيد شيفري، على حدة أيضاً:

- إن الأمر لا يتعلق بتجارة التبغ، وإنما هي زوجتي في الواقع. إنها تريد أن تتحدث معك يا سيدي عن موضوع يخص..

وأجاب السيد شيفري بإيماءة من رأسه على نظرة السيد كلينام المتوجسة قبل أن يتم كلمته قائلاً:

- يخصها..

- سوف أضع في الاعتبار رؤية زوجتك فوراً.

- شكراً يا سيدي. شكراً جزيلاً. إن الأمر لن يستغرق منك أكثر من عشر دقائق. أرجو أن تسأل عن السيدة شيفري!

ثم أتمّ السيد شيفري تعليماته بعد أن أخرج السيد كلينام من البوابة، عن طريق الفتحة المتحركة التي يرقب من ورائها الزائرين كلما عنَّ له هذا.

ومضى آرثر كلينام، والبطاقة في يده، إلى العنوان المكتوب عليها. وما لبث أن وصل إليه. وكان المتجر بناءً صغيراً جلست فيه سيدة لطيفة تعمل في شغل الإبرة وراء منصة البيع. أما السلع الموجودة في المتجر فكانت تتكون من أوعية صغيرة للتبغ، وصناديق صغيرة للسيجار، ومجموعة صغيرة من المتابغ وإناء صغير أو اثنين من السعوط، وأداة صغيرة مثل «البيسة» الحذاء للغَرْف منها.

وذكر آرثر اسمه قائلاً إنه جاء بناءً على رغبة السيد شيفري بخصوص شيء يتعلق -كما يعتقد- بدوريت الصغيرة. ولم تلبث السيدة

شيفري أن وضعت شغل الإبرة جانباً ونهضت عن مقعدها وراء منصة البيع، وهزت رأسها في أسى وقالت:

- يمكنك أن تراه الآن إذا تنازلت واختلست النظر إليه.

وبهذه الكلمات الغامضة؛ تقدمت الزائر إلى غرفة صغيرة وراء المتجر، لها نافذة تشرف على فناء خلفي صغير. وفي ذلك الفناء، كان ثمة ملاءات مغسولة ومفارش موائد تحاول «عبثاً لقلة الهواء» أن تظفر بالجفاف على حبل أو اثنين؛ وبين هذه الأشياء المرفرفة، جلس على مقعد شاب ضئيل الحجم محزون السمات وكأنه آخر بحار تُرِك على سطح سفينة مهجورة عاجزة عن رفع أشرعتها.

وقالت السيدة شيفري:

- هذا ابننا جون.

وحتى لا يبدو كلينام مقصِّراً في الاهتمام بالأمر، سألها قائلاً عما تراه يفعل هناك.

وعادت السيدة شيفري تهز رأسها من جديد وتقول:

- هذا هو الترفيه الوحيد الذي يلجأ إليه. إنه يأبى أن يخرج، حتى إلى الفناء عندما لا يكون به غسيل منشور. ولكن عندما يكون ثمة غسيل يحجب نظرات الجيران، فإنه يجلس هكذا لساعات. نعم.. يجلس ساعات. يقول كأنما هو يجلس في خمائل.

ومرة أخرى هزت السيدة شيفري رأسها، ووضعت طرف مريلتها بأسلوب الأمهات على عينيها، ثم عادت بزائرها إلى المتجر حيث قالت له:

- أرجوك أن تجلس يا سيدي. إن الآنسة دوريت هي السبب فيما أصاب ابننا جون يا سيدي. إنه يحطم قلبه من أجلها. وإني لأتمنى أن

تكون لي حرية السؤال ما إذا كان يمكن أن يكن ذا فائدة لأبويه وهو جامد هكذا كالتمثال.

وألقت السيد شيفري التي كانت وسيمة المنظر، وموضع احترام سكان شارع هورسهان جرلين لرقة مشاعرها وحُسْن حديثها، بهذه العبارات في صوت حزين، ثم سرعان ما عادت تهز رأسها وتكفكف دموعها.

واستطردت تقول:

- سيدي، إنك قد تعرَّفت بالأسرة، وجعلت نفسك مهتماً بها، وأصبح لك نفوذ في محيطها. فإذا كان في مقدورك أن تأخذ على عاتقك أن تملأ بالسعادة قلبي شاب وفتاة، فدعني من أجل ابننا جون، ومن أجلهما معاً، أتوسل إليك أن تفعل.

فردّ آرثر قائلاً في حيرة:

- لقد اعتدت في الفترة القصيرة التي عرفتها فيها أن أنظر إلى دوريت الصغيرة.. لقد اعتدت أن أنظر إلى الآنسة دوريت في ضوء يختلف تماماً عن نظرتك إليها مما حدا بك لأن تأخذيني على حين غرة. فهل هي تعرف ابنك؟

فقالت السيدة شيفري:

- لقد نشآ معاً.. ولعبا معاً.

- هل هي تعرف ابنك على أنه مغرم بها؟

فقالت السيدة شيفري في لهجة انتصار:

- أوه، بارك الله فيك يا سيدي. إنها ما كانت لتراه أبداً في يوم أحد دون أن تعرف هذه الحقيقة. إن عصاه وحدها كان يمكنها أن تقول لك هذا منذ أمد بعيد إذا لم يكن ثمة من يقوله غيرها. إن الشبان أمثال جون

لا يمسكون عصياً ذوات مقابض عاجية لغير هدف. كيف عرفت هذا بنفسي في أول الأمر؟ بنفس الطريقة[1].

- لعل الآنسة دوريت لا تستطيع، مثلك، أن تعرف مشاعره بهذه الطريقة؟

فقالت السيدة شيفري:

- إذن فهي تعرفها بالكلمة المنطوقة.

- هل أنت واثقة؟

فقالت السيدة شيفري:

- سيدي! إنني واثقة ومتأكدة بنفس ثقتي وتأكدي بأني مقيمة في هذا البيت الآن. إني أرى بعيني ابني وهو يخرج وأنا في هذا البيت؛ وأرى بعيني ابني وهو يعود وأنا في هذا البيت.. وأنا أعرف أنه قد أحبها.

وكانت السيد شيفري تستمد من تكرار عباراتها قوة لتأكيد ما تريد أن تقوله لغيرها. أما آرثر فقد قال لها:

- هل يمكن أن أسألك عن الأسباب التي أدت بابنك إلى هذه الحالة من اليأس التي تثير في نفسك كل هذا القلق؟

فقالت السيدة شيفري:

- لقد حدث هذا في نفس اليوم الذي رأيت فيه ابني جون بعيني وهو يعود. إنه لم يعد كما كان العهد به في هذا البيت منذ ذلك الحين. إنه لم يعد كما كان العهد به خلال السنوات السبع التي عشناها منذ أن أقمنا في هذا الحي.

---

(1) تقصد منذ رأته يمسك عصا ذات مقبض عاجي - المترجم.

وكانت طريقة السيدة شيفري هذه في قوة التعبير توحي للمستمع بأنها تقسم على صدق كل ما تنطق به.

- هل يمكن أن أتجرأ وأسألك عن وجهة نظرك في هذا الموضوع.

فقالت السيدة شيفري:

- يمكنك؟ وسوف أجيبك بكل صراحة وصدق ويقين، نفس يقيني بوقوفي في هذا المتجر. إن كل إنسان يقدِّر ابننا جون ويتمنى له الخير. كان يلعب معها وهو طفل عندما كانت وهي طفلة تلعب في ذلك الفناء، ومنذ ذلك الحين وهو يعرفها. وكان يخرج في أصائل أيام الآحاد بعد أن يكون قد فرغ من طعام الغداء في هذه الغرفة نفسها، ليلتقي بها، بناءً على موعد معها أو بلا موعد، لأني لا أستطيع أن أجزم. وعرض عليها الزواج، ولكن أخاها وأختها ينظران إلى نفسيهما على أنهما من الطبقة العليا، ومن ثَمَّ فهما ضد ابننا جون. أما والدها، فإن له نظرته الخاصة عن نفسه، ويأبى أن يشاركه أحد في ابنته. وبسبب هذه الظروف ردّت على ابننا جون قائلة «لا يا جون، لا أستطيع أن أحقق رغبتك. فليس في نيتي قط أن أصبح زوجة، وإنما في نيتي أن أكرِّس حياتي لأسرتي. وداعاً. ابحث لك عن فتاة أخرى جديرة بك، وانسني!» تلك هي الطريقة التي قُدِّر بها عليها أن تبقى دائماً جارية لأولئك الذين لا يستحقون أن يكون لهم جارية تكرس حياتها من أجلهم. وعلى هذا النحو انتهى الأمر بابننا جون، فلم يعد يرضى إلا بتعريض نفسه لنزلات البرد بالجلوس بين الغسيل المنشور وإلا بالجلوس في ذلك الفناء، نفس الفناء الذي أريته لك، وكأنه حطام بشري يدمي قلب الأم!

وهنا أشارت السيدة الطيبة إلى نافذة صغيرة يمكن رؤية ابنها من خلالها وهو جالس محزون بين الغسيل المنشور، ثم عادت وهزت رأسها ومسحت دموعها والتمست منه من أجل الصالح المشترك

للشابين أن يستخدم نفوذه للوصول إلى ما يقلب هذا الحدث الأليم إلى حدث مشرق بهيج.

لقد بلغ من يقين هذه السيدة في إدراكها لحقيقة الأمر، كما بلغ من صدق الأوضاع التي لا يمكن إنكارها فيما يختص بظروف دوريت الصغيرة وعائلتها أن كلينام لم يستطع أن يتخذ جانب دوريت في هذه الحالة.. لقد وصل به الأمر أنه أضفى عليها من الاهتمام الخاص، الذي كلما نما وازداد.. أبعدها عن طبيعة الأشياء العادية المحيطة به مما جعل كلينام يشعر بالاستياء والاستنكار الذي يبلغ حد الألم كلما افترض أنها تبادل الحب شاباً مثل شيفري هذا الصغير الجالس في الفناء أو أي شاب من نوعه. ومن ناحية أخرى كان يناقش نفسه قائلاً إنها لا تزيد عليه في شيء سواء أحبته أو لم تحبه، وإن من الخيال السقيم لا الشفيق أو العطوف، أن يصنع منها حورية آدمية على حساب عزل عواطفها عن الذين لا نعرف غيرهم. ولكن، مع هذا، فإن شبابها، ومنظرها الرقيق، وأخلاقها الوادعة، وجاذبية صوتها الحنون ونظراتها، والأشياء الكثيرة التي أثارت بها اهتمامه خارج نطاق شخصيتها، والاختلاف القوي بينها وبين الذين حولها.. كل هذا لا يتفق، ويصر على ألا يتفق، مع فكرته هذه الجديدة.

وبعد أن أدار هذا كله في ذهنه، أخبر السيدة شيفري المحترمة -أخبرها وهي لا تزال في الحقيقة تتحدث- أن من الممكن الاعتماد عليه لبذل كل ما يستطيع من جهد، في كل وقت، للعمل على إسعاد الآنسة دوريت، ولتحقيق رغائب قلبها إن كان في مقدوره أن يفعل هذا، وإن كان في إمكانه أن يعرف هذه الرغائب وفي الوقت نفسه حذرها من المظاهر والافتراضات، وأوصاها بالتزام الصمت والسرية خشية أن يؤدي الأمر إلى تعاسة الآنسة دوريت، ثم نصحها بوجه خاصة للعمل جاهدة على اكتساب ثقة ابنها، وبذلك يمكنها أن تتأكد من حقيقة الأمور. واعتبرت السيدة شيفري أن التحذير الأخير لا معنى له، ولكنها

قالت إنها ستحاول. وهزت رأسها كأنها لم تظفر بالراحة النفسية التي كانت تتوقعها من هذه المقابلة، ولكنها مع هذا شكرت له اهتمامه الكريم بالأمر، ثم افترقا على مودة، ومضى آرثر في سبيله.

وأخذت زحمة الطريق تصطدم بزحمة الأفكار في رأسه مما جعل الزحمتين تثيران ارتباكه فتجنب جسر لندن، وانعطف إلى اتجاه أهدأ نحو جسر أيرن بريدج. ولكنه ما كاد يضع قدمه عليه حتى رأى دوريت الصغيرة تسير أمامه. وكان اليوم لطيفاً، والنسيم فيه رقيقاً، ومن ثم بدا أنها جاءت في تلك اللحظة لاستنشاق الهواء. وكان قد تركها قبل ساعة تقريباً في غرفة أبيها.

وكانت تلك فرصته جاءت في وقتها وتلاءمت مع رغبته في ملاحظة وجهها وسلوكها عندما لا يكون أحد آخر قريباً منها. وأسرع في خطوه، ولكنه رآها قبل أن يصل إليها، تستدير برأسها نحوه، فقال لها:

– هل فاجأتك!

فأجابت في تردد:

– ظننت أني عرفت خطواتك.

– أعرفتها يا دوريت الصغيرة؟ إنك ما كنت تتوقعين أن تسمعيها.

– إنني لم أتوقع أن أسمع أي خطو. لكنني حين سمعت صوت أقدام خطر لي أنها تشبه خطواتك.

– هل ستسيرين إلى أبعد من هذا؟

– لا يا سيدي، إنني أتمشى هنا فقط لمجرد الترويح البسيط.

وسارا معاً، واستردت هي شعورها بالاطمئنان إليه، ونظرت إلى وجهه وهي تقول بعد أن تلفتت حولها:

- إنه أمر عجيب جداً. ولعلك لا تكاد تفهمه. إنني أحياناً أشعر أن من قلة الاحتفال أن أتمشى هنا.

- من قلة الاحتفال!

- أن أرى النهر، وكل هذه السماء، وكل هذه الأشياء الكثيرة، وكل هذه الحركة والمظاهر المتباينة، ثم العودة إليه، كما تعلم، لأراه في نفس المكان البغيض المقبض.

- آه، أجل. ولكن يجب أن تذكري أنك عند عودتك إليه تحملين معك روح وتأثير هذه الأشياء للترفيه عنه.

- أحقاً؟ إنني أرجو هذا! أخشى يا سيدي أن تكون مسرفاً في خيالك عني بحيث تضفي عليّ كل هذه القوة والمقدرة. فإذا كنت أنت في السجن، فهل كان في مقدوري أن أحمل إليك مثل هذا الترفيه؟

- أجل أيتها الصغيرة دوريت. إني واثق من هذا.

وأدرك من اختلاجة شفتيها، ومن سحابة الاضطراب التي مرّت على وجهها، أن أفكارها تحولت إلى أبيها. والتزم الصمت بضع لحظات حتى يمكنها أن تسترد هدوءها. وإن هذه دوريت الصغيرة! المرتعدة على ذراعه، أبعد ما تكون توافقاً مع نظرية السيدة شيفري، ولكنها مع هذا لم تكن منيعة على الخاطر الجديد الذي انبثق عندئذ في نفسه، وهو أنه قد يكون هناك شخص آخر على مر الأيام الخالية من كل أمل، وهذا خاطر جديد أيضاً!

واستدارا، وقال كلينام:

- ها هي ذي ماجي آتية.

ونظرت دوريت الصغيرة، ودُهِشت، ثم واجهت مع آرثر ماجي التي توقفت تماماً حين رأتهما. وكانت تجري متواثبة مشغولة الذهن

بحيث لم تعرفهما إلا عندما استدارا وواجهاها. وقد بلغ من إحساسها بالمفاجأة أن سلّتها نفسها بدت كأنها تشاركها هذا الإحساس.

- ماجي. لقد وعدتني أن تبقي بالقرب من أبي.

- كنت أنوي هذا يا أمي الصغيرة، إلا أنه لم يُسمَح لي. إذا رأى أن يصرفني فلا بد لي أن أفعل. فإذا رأى وقال: «ماجي. أسرعي وعودي بهذا الخطاب، وسأعطيك ستة بنسات إذا كانت الإجابة مُرْضِية» فيجب أن آخذه. يا إلهي يا أمي الصغيرة، ما أتفه هذا الشيء الذي تقوم به فتاة في العاشرة من عمرها. وإذا حدث وكان السيد تيب مقبِلاً وأنا خارجة! وإذا قال لي: «إلى أين ذاهبة يا ماجي» وإذ قلت له: «إني ذاهبة إلى كذا أو كذا» وإذا قال لي: «لسوف أحاول أنا أيضاً» ثم يمضي إلى المقهى ويكتب رسالة، وإذا قال لي: «خذي هذه أيضاً إلى نفس المكان، وإذا كانت الإجابة مُرْضِية فسوف أعطيك شلناً» فإني لا أكون مخطئة يا أمي.

وأدرك آرثر من عيني دوريت الصغيرة المنكستين، أنها عرفت من هو الشخص الذي ترسل إليه هذه الرسائل.

وقالت ماجي:

- إنني ذاهبة إلى كذا وكذا، هناك إلى هذا الشخص أنا ذاهبة. نعم إني ذاهبة إلى كذا وكذا، ولا شأن لك أنت يا أمي الصغيرة بهذا الموضوع. وإنما هو أنت..

واستدارت نحو آرثر وأردفت قائلة:

- يحسن بك أن تأتي يا كذا وكذا.. ودعني أسلمها لك.

فقال كلينام بصوت منخفض:

- لا داعي لهذا التدقيق يا ماجي. سلميها إليّ هنا.

فردّت قائلة بصوت هامس واضح جداً:

- حسناً إذن. تعال إلى الجانب الآخر، من الطريق. إذ لا يجب أن تعرف أمي الصغيرة شيئاً عن هذا الموضوع. وما كانت لتعرف لو أنك يا كذا وكذا مضيت في طريقك بدلاً من التسكع في هذا المكان. وليست هذه غلطتي، إذ يجب أن أفعل ما طُلِب مني. وكان على أفراد الأسرة أن يخجلوا من أنفسهم لأنهم أخبروني بهذا.

وعبر كلينام الطريق معها إلى الجانب الآخر، وفضّ الرسالتين بسرعة. وقد جاء في رسالة الوالد أنه وجد نفسه على حين غرة في وضع جديد بعد أن خاب ظنه في الإعانة التي يتلقاها من بلدية المدينة وهي التي كان يعتمد عليها إلى حد كبير فتناول قلمه -وهو الذي قيدته ظروف حجزه التعسة مدة ثلاث وعشرين سنة (تحت هذا الرقم خطان) من أن يكون في الحالة التي ينبغي أن يكون عليها. نقول تناول قلمه ليلتمس من السيد كلينام أن يقرضه مبلغ ثلاثة جنيهات ونصف مقابل الكمبيالة التي يرجو أن يقدمها إليه. أما رسالة الابن، فقد جاء فيها أنه يعرف أن السيد كلينام سيرضيه أن يعرف أنه قد حصل أخيراً على عمل دائم مرضٍ إلى حد كبير، ومصحوب بكل مقومات النجاح الكامل في الحياة. إلا أن عجز مخدومه المؤقت عن دفع متأخرات مرتبه حتى اليوم -وقد اعتمد مخدومه في هذه الظروف على الأريحية التي يعتقد أنها لا تعوز أي إنسان نحو أخيه الإنسان- هذا بالإضافة إلى سلوك شائن لصديق غادر، مع الارتفاع الحاضر في أسعار المؤن، قد أودى به، هذا كله، إلى حافة الخراب إلا إذا استطاع قبل الساعة السادسة إلا ربعاً من مساء اليوم أن يجمع ثمانية جنيهات. ولعل السيد كلينام سوف يسعد حين يعلم أنه استطاع عن طريق شهامة عدد كبير من الأصدقاء الذين لهم ثقة كبيرة في أمانته أن يجمع هذا المبلغ فيما عدا شيئاً بسيطاً لا يتجاوز جنيها وسبعة عشر شلناً

وأربعة بنسات، وأنه على استعداد لأن يرد هذا القرض البسيط خلال شهر مع جميع الفوائد المناسبة.

وردّ كلينام فوراً على هاتين الرسالتين، مستعيناً بقلمه الرصاص وأوراق مفكرته. وقد أجاب الوالد إلى طلبه، واعتذر عن إجابة مطلب الابن. وكلف ماجي بالعودة بالإجابتين بعد أن أعطاها شلناً تعويضاً عن الشلن الذي كانت ستأخذه من الابن لو أنها حملت إليه الرد المُرْضي.

ولما عاد إلى دوريت الصغيرة واستأنفا السير معاً، قالت له فوراً:

- أرى أنه من الخير أن أمضي.. أن أمضي إلى البيت.

فقال كلينام:

-لا تبتئسي، لقد رددت على الرسالتين. إنهما لا شيء. وأنت تعرفين ما هما. إنهما لا شيء.

فردت قائلة:

- ولكنني أخشى أن أتركه.. أخشى أن أترك أي واحد منهم. وعندما أنصرف عنهم يسيئون التصرف، ولكنهم لا يقصدون هذا، حتى ماجي.

- إن هذه المسكينة قامت بمهمة بريئة جداً. وهي حين حاولت إخفاءها عنك كانت تظن بلا شك أنها فقط تجنبك الشعور بالقلق.

- نعم. أرجو هذا، أرجو هذا. ولكن يحسن أن أعود إلى البيت! أول أمس فقط قالت لي أختي إنني من فرط تعودي على السجن أصبحت أحمل طابعه وسماته. ولا بد أن الأمر كذلك. وأنا واثقة أن الأمر لا بد أن يكون كذلك كلما رأيت هذه الأشياء. إن مكاني هناك، وأنا فيه أحسن حالاً. وإنها لقسوة مني أن أكون هنا بينما في استطاعتي أن أقوم بأي شيء هناك. طاب يومك. يحسن بي كثيراً أن أكون هناك في البيت..

وكانت اللهجة المعذبة التي أفضت بها هذا كله، وكأنها فجرت ذاتها من قلبها المكبوت، جعلت من العسير على كلينام أن يذود دموعه عن عينيه وهو يراها ويسمعها.

وصاح بها متوسلاً:

- لا تقولي عنه بيتاً يا طفلتي. إنه ليؤلمني دائماً أن أسمعك تسمين هذا السجن بيتاً.

- ولكنه بيت، وإلا ماذا يمكن أن يكون غير هذا؟ ثم لماذا ينبغي أن أنساه ولو للحظة واحدة؟

- إنك لا تنسينه قط يا عزيزتي دوريت الصغيرة.

- هذا ما أرجوه، أوه، هذا ما أرجوه! ولكن من الأحسن لي أن أبقى هناك.. إنه الأحسن أن أبقى، وأوجب، وأدعى إلى السعادة. وأرجوك ألا تأتي معي، دعني أذهب بمفردي. طاب يومك، وليباركك الله، وشكراً.. شكراً..

وشعر أنه من الخير أن يحترم رجاءها، فلم يتحرك في أثناء انصرافها عنه بسرعة، فلما غابت عن نظره، استدار بوجهه نحو المياه، ووقف يفكر.

كان يمكن أن تحزن في أي وقت من الأوقات حين تعلم بأمر هاتين الرسالتين ولكن أثمة من يدعو لأن يبلغ بها الحزن هذا الحد البالغ؟

لا..

لقد حزنت عندما رأت أباها يستجدي تحت ستار مهلهل من الكرامة. وعندما التمست منه ألا يعطيه شيئاً. ولكن حزنها لم يكن كهذه المرة. ذلك أن شيئاً ما قد زاد من شدة حساسيتها بالأمر. فهل ثمة الآن

في حياتها شخص لا أمل لها ولا سبيل في الوصول إليه؟ أم أن هذا الخاطر المريب قد طرأ على ذهنه وهو يرى هذه العلاقة القائمة بين النهر الكدر الجاري تحت الجسر، وبين نفس النهر في مجراه ذاك الأعلى بخريره الرتيب وهو يداعب جانب زورق العبّارة وبتياره الساري في رفق بسرعة عدة أميال في الساعة، وحيث نرى هنا نبات السهار، وهناك أزهار الزنبق، وحيث لا يوجد ما يثير الشك أو القلق.

وفكر مدة طويلة في طفلته المسكينة دوريت الصغيرة، هناك. فكر في عودتها إلى البيت، وفكر فيها في أثناء الليل وفكر في أمرها عندما يشرق الصباح، مرة أخرى. وكانت المسكينة دوريت الصغيرة تفكر فيه بأشد إخلاص، أجل، بأشد إخلاص! وهي في ظلال سجن مارشاليزا.

*   *   *



الآنسة تدور



دفع السيد ميجلز نفسه إلى حالة من النشاط السريع فيما يتعلق بموضوع مفاوضة دانييل دويس الذي عهد به كليننام إليه، وسرعان ما جعله يتخذ الهيئة العملية ثم مضى لزيارة كليننام ذات يوم في التاسعة صباحاً ليقدم إليه تقريره. وقد بدأ الحديث في الموضوع قائلاً:

- إن دويس شديد الاغتباط برأيك، ولا يريد أكثر من أن تختبر بنفسك الجوانب العملية لمشروعه وتستوعبها تماماً. وقد سلمني جميع المفاتيح لأدراج دفاتر حساباته. وها هي ذي تصلصل في جيبي. وإن الأمر الوحيد الذي عهد به إليّ هو قوله «دع السيد كليننام يتزود بكل الوسائل التي تجعله يقف معي على قدم المساواة في معرفة كل ما أعرفه أنا. فإذا لم ينته الأمر بيننا إلى شيء فلا ريب أنه سيحترم ثقتي به. وما لم أكن واثقاً من هذا في بادئ الأمر، فلا داعي لأن يكون بيني وبينه شيء».

وأردف السيد ميجلز قائلاً:

- وهكذا أصبح دانييل دويس كما ترى بين يديك.

- إنه شخصية جديرة بالتبجيل جداً.

- أجل، بكل تأكيد، ولا شك في ذلك. قد يكون غريب الأطوار شيئاً، ولكنه محترم. بل الواقع أنه غريب الأطوار جداً.

ثم أردف السيد ميجلز قائلاً وهو شديد الغبطة بغرابة أطوار صديقه:

- هل تصدق يا كلينام أني أمضيت فترة صباح كاملة في ذلك الذي اسمه حوش..

- بليدنج هارت؟

- صباح بأكمله في حوش بليدنج هارت قبل أن أغريه بالحديث عن الموضوع؟

- كيف كان ذلك؟

- كيف كان ذلك يا صديقي؟ إنني ما كدت أذكر اسمك بخصوص هذا الموضوع حتى رفض فوراً.

- رفض فوراً بشأني.

- إنني ما كدت أذكر اسمك يا كلينام حتى قال: «لا، هذا لن يجدي!». فسألته قائلاً: ماذا يعني بذلك، فقال إن الأمر لا جدوى منه يا ميجلز على أية حال. لماذا لن يجدي أبداً؟ إنك لا تكاد تصدقني يا كلينام..

وهنا ضحك السيد ميجلز لنفسه واستطرد يقول:

- لقد ظهر أن الأمر لن يجدي لأنك عندما كنت تسير معه في الطريق إلى توتنهام تطرقت إلى حديث ودي أشار خلاله إلى رغبته في اتخاذ شريك، حاسباً في نفس الوقت أنك مستقر من الناحية المالية استقرار كاتدرائية سانت بول في مكانها. ومن ثم قال: «ولهذا فربما يعتقد السيد كلينام الآن -إذا أنا قبلت اقتراحه- أن لديّ أهدافاً خفية شريرة من وراء حديث كان صريحاً واضحاً. وهذا ما لا أستطيع احتماله.. بل ما لا تستطيع كبريائي أن تحتمله..».

- إني أفضل أن أرتاب..

فقاطعه السيد ميجلز قائلاً:

- طبعاً، طبعاً. إن هذا ما ذكرته له. ولكن الأمر استغرق صباحاً بأكمله لبلوغ هذا الهدف. وإني لأشك هل كان من الممكن لرجل آخر غيري -وهو يجبني منذ قديم الزمن- أن يستطيع إقناعه بالموافقة. حسناً يا كلينام، وبعد أن تغلبت على هذه العقبة، أصر على أنه ينبغي عليّ، قبل أن أتصل بك، أن أقرأ أوراقه ودفاتره لأكوّن رأيي الخاص عن الموضوع. وقد ألقيت نظرة على أوراقه وكوّنت رأيي. وعندئذ قال لي: «هل أنت بشكل عام مع المشروع أم ضده!» فقلت: «معه» فقال: «حسناً، يمكنك الآن يا صديقي الكريم أن تتيح الوسائل للسيد كلينام لكي يكوّن رأيه. ولكي أمكّنه من تكوين رأي مستقل وبكل حرية تامة، قررت أن أغادر المدينة لمدة أسبوع».

وأردف السيد ميجلز قائلاً:

- وقد ذهب فعلاً. وهذه هي النتيجة المثمرة للموضوع.

فقال كلينام:

- إذا تركت لي حرية التعبير الرفيع فيجب أن أقول عن سلوكه هذا وعن..

فقال السيد ميجلز متمماً:

- غرابة أطواره في رأيي..

ولم تكن هذه على وجه التحديد هي الكلمة التي أراد كلينام أن يقولها، إلا أنه أبى أن يقاطع صاحبه هذا البشوش.

وأردف السيد ميجلز قائلاً:

- والآن يمكنك أن تبدأ النظر في هذه الشؤون في أقرب وقت تراه مناسباً. وقد تعهدت أن أشرح لك ما قد يستلزم التفسير، ولكن على أن أكون محايداً تماماً ولا أزيد.

وبدءا في اتخاذ الخطوات التمهيدية بعد ظهر اليوم نفسه في حوش بليدنج هارت. وكان من السهل على العين الخبيرة أن تلمح بعض التصرفات البسيطة الشاذة في طريقة دويس عند تدبير أموره. إلا أنها -أي التصرفات- كانت دائماً تنطوي على بعض الأساليب الفذة لتبسيط بعض المعضلات، وعلى بعض الوسائل العادية المؤدية إلى الهدف المنشود. وكذلك كان من الواضح جداً أن حساباته كانت متخلفة وأنه كان في حاجة إلى مساعدة لتنمية إمكانيات مشروعه ولكن جميع نتائج مجهوداته خلال أعوام كثيرة كانت مسجلة ومؤكدة بكل وضوح. فلم يكن بينها شيء يمكن أن يلتوي على الفحص والتحري، وإنما كان كل شيء في إهابه العملي الأصيل وفي حالة لا تعوزها الأمانة وإن أعوزها التنسيق. وكانت الحسابات والقيودات المدونة بخط يده في كثير من المواضع مكتوبة بخشونة وفي غير دقة بالغة، إلا أنها كانت دائماً واضحة ومؤدية إلى الغرض منها مباشرة وقد خطر ببال آرثر أن أي عمليات أخرى من هذا النوع تبدو أكثر ترتيباً ونظاماً -مثل سجلات إدارة الشؤون العامة- قد تكون أبعد كثيراً عن الفائدة ما دام الغرض منها أن تكون أبعد كثيراً عن الأفهام.

وقد أتاح الانكباب المستمر على الدراسة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام أن يلم إلماماً كاملاً بكل الجوانب الأساسية التي ينبغي أن يعرفها. وكان السيد ميجلز تحت أمره طيلة الوقت، مستعداً دائماً لتوضيح أية نقطة غامضة بتلك الدقة التي لازمته في عمله كصراف سابق في مصرفه. وكانا قد اتفقا فيما بينهما على المبلغ المناسب لشراء نصف المشروع، وبعدئذ أبرز السيد ميجلز ورقة أن دانيل دويس قد حدد فيها المبلغ الذي يقيِّم به هذا

النصف. وكان تقييمه أقل مما اتفق عليه الاثنان. وهكذا عندما عاد دانييل وجد أن كل شيء ممهد للاتفاق.

قال وهو يصافح السيد كلينام باحترام:

- أستطيع الآن أن أقسم يا سيد كلينام أني لو حاولت البحث في كل مكان عن شريك، لما وجدت -في رأيي- شريكاً مناسباً لي مثلك.

فقال كلينام:

- وهذا هو رأيي أيضاً.

وأضاف السيد ميجلز قائلاً:

- ورأيي أنا عنكما أنكما جد متلائمين. فأنت يا كلينام عليك بتفكيرك المتزن أن تكبح جماحه، وأنت يا دانييل عليك أن تكب على أعمالك بـ...

فقال دانييل مقاطعاً وهو يبتسم في هدوء.

- بتفكيرك غير المتزن.

- يمكنك أن تقول هذا، إذا شئت - وسيكون كل منكما الساعد الأيمن للآخر. وها هو ذا ساعدي الأيمن أقدمه لكما بصفتي رجلاً عملياً.

وتمت الصفقة خلال شهر، وقد تركت هذه الصفقة آرثر مالكاً لمبلغ خاص لا يتجاوز بضع مئات قليلة من الجنيهات، ولكنها فتحت أمامه الطريق إلى مستقبل يجمع بين العمل والأمل. واحتفل الأصدقاء الثلاثة بهذه المناسبة السعيدة بتناول الغداء معاً، ومنح عُمّال المصنع وزوجاتهم وأولادهم عطلة يوم حيث تناولوا الغداء احتفالاً أيضاً بالمناسبة، حتى سكان حوش بليدنج هارت كان لهم نصيبهم من الوليمة ومن اللحم الكثير. ولكن ما كاد أن ينصرم شهران حتى عاد كل شيء في

حوش بليدنج هارت إلى ما كان عليه، ونسي الجميع هذه المناسبة السعيدة، ولم يحدث من التغييرات الناتجة عن هذه الشركة الجديدة أكثر من كتابة هذين الاسمين على قوائم المدخل «دويس وكليناًم» هذا بينما كان يلوح، حتى لكليناًم نفسه، أن أعمال هذه الشركات كانت تدور في ذهنه في مدة أعوام.

وكان مكتب الحسابات الذي خصص له، غرفة من الخشب والزجاج في نهاية بناية المصنع الطويلة الخفيضة المزدحمة بالمنصات والآلات والأدوات والروابط والعجلات. وكانت هذه كلها عندما تدور الآلة البخارية تندفع هنا وهناك كأنما هي مكلفة بمهمة انتحارية لسحق كل شيء وتمزيق أوصال المصنع إرباً. وكانت أبواب الاتصال المسحورة الكبيرة في الأرضية وفي السقف الذي يعلوه المصنع، تسمح بمرور بصيص من الضوء في هذه الغرفة، وهو بصيص أعاد إلى ذهن كليناًم كتاب الأطفال المصور الذي ورد فيه شيء من ذلك البصيص الضوئي المماثل الذي كان أول شاهد عيان على جريمة قابيل ضد أخيه هابيل. وكان الضجيج معزولاً عن مكتب الحسابات إلى حد ما، بحيث لم يكن يصل منه إليه إلا طنين متصل تتخلله أحياناً أصوات صلصلة وارتطام. وكان العُمّال الكادحون بارعين في سحب أعواد الحديد والصلب التي كانت تتراقص على كل منصة، وتنبثق كالفقاعات من كل ثغرة في الألواح. وكان الوصول إلى المصنع عن طريق سلّم درجي موضوع في أسفل الفناء الخارجي، وكان هذا السلّم يقوم أيضاً كدرئية -أو ساتر- لحجر المسن الذي تشحذ عليه الآلات. وكان كل شيء بالمجمل يبدو في نظر كليناًم غريباً وعملياً في وقتٍ واحد، ولكنه كان أيضاً نوعاً من التغير المستحب، وكان كثيراً ما يشعر وهو يرفع عينيه من الدفاتر الأولى التي كان عليه أن يبدأ بها تنظيم العملية كلها، إلى هذه الأشياء، بالبهجة والرضا لأدائه هذا العمل الجديد عليه.

وفيما كان يرفع عينيه هكذا ذات يوم، إذا هو يفاجأ برؤية قلنسوة تصعد ذلك السلم الدرجي، وتبعت هذه الرؤيا العجيبة قلنسوة أخرى. ثم لاحظ بعد ذلك أن القلنسوة الأولى كانت على رأس عمّة السيد «ف»، وأن القلنسوة الثانية كان على رأس فلورا التي لاح أنها ساعدت العمة على صعود السلّم الشديد الانحدار بمشقة بالغة.

ورغم أن كلينام لم يغتبط كثيراً برؤية هاتين الزائرتين، فإنه لم يتوانَ عن فتح باب مكتب الحسابات، وتخليصهما من المصنع. وهي عملية إنقاذ جاءت في وقتها، لأن عمة السيد «ف» كانت قد تعثرت فعلاً ببعض الأدوات وأوشكت أن تفسد الآلة البخارية بالجعبة الشبكية المتينة التي كانت تحملها.

وقالت فلورا بأنفاس لاهثة:

– يا لله يا آرثر، أو يا سيد كلينام كما ينبغي أن أقول.. ما أشق عملية الصعود إلى هنا وإن كنت لا أدري كيف سنهبط دون سلّم إطفاء الحريق، هذا عدا ما نال عمة السيد «ف» من كدمات بسبب تعثرها على الدرجات.. كل هذا وأنت هنا بين هذه الآلات والأجهزة دون أن تخبرنا!

وخلال هذا كانت عمة السيد «ف» تدلك رسغ قدمها الغالي بمظلتها وترمق ما حولها شزراً.

وعادت فلورا تقول:

– ما أقساك لأنك لم تأتِ لزيارتنا مرة أخرى منذ ذلك اليوم، وذلك رغم أنه ليس من المتوقع طبعاً أن يكون في بيتنا ما يغريك بالزيارة، إذ لا شك أن لديك من المشاغل ما هو أكثر إمتاعاً. ترى هل هي شقراء أم سمراء أم زرقاء العينين أو أن لونها أسود! أتوقع أنها قد تكون أي شيء ما دامت تختلف عني في كل شيء لأني كما أعلم تماماً كنت صدمة

مؤلمة لك، وإن لك الحق تماماً في أن تتعلق دون شك ولكن لا عليك فيما أقول لأني شخصياً لا أعرف ماذا أقول، يا الله!

وكان هو خلال هذا قد وضع لهما مقعدين في مكتب الحسابات، وفيما كانت فلورا تلقي بنفسها على مقعدها، أسبغت على كلينام نظرتها القديمة تلك ثم استطردت تقول:

- ثم تصور رؤيتنا للافتة دويس وكلينام، ترى من يكون دويس هذا؟ لا شك أنه رجل لطيف ومتزوج، وربما.. وربما له ابنة، أليس هذا حقاً؟ إذن يستطيع الإنسان أن يفهم معنى هذه الشركة ويدرك حقيقة الهدف منها. ولا تحدثني بشيء عنها، لأني أعرف أنه ليس من حقي أن أسألك لا سيما وقد انقطع الرباط الذهبي الذي صيغ بيننا يوماً، وحسناً ما حدث.

ووضعت فلورا يدها على يده في رقة وصوبت إليه إحدى نظراتها الغزلة السابقة وأردفت تقول:

- يا عزيزي آرثر.. آه، إنها حكم العادة.. إن سيد كلينام أنسب وألطف كثيراً لا سيما في هذه الظروف. وأنا أرجو أن تلتمس لي العذر لجرأتي في اقتحام المكان عليك هكذا، ولكنني رأيت أنه يمكن أن أعتمد على الأيام القديمة التي ذهبت ولن تعود للقيام مع عمة السيد «ف» بزيارتك لتقديم التهنئة إليك مع أطيب الأماني.

فقال كلينام:

- إنني سعيد جداً برؤيتك، وأشكرك يا فلورا كل الشكر على تذكرك لي.

فردّت فلورا قائلة:

- أكثر مما أستطيع أن أقوله بنفسي على كل حال. لأني قد أكون قد مت ودفنت بالتأكيد عشرين مرة وما قد يستتبع هذا كله قبل أن تتذكرني

أو تتذكر أي شيء عني، إلا أني أريد مع هذا أن أقدم ملاحظة واحدة.. تفسيراً واحداً..

فقال آرثر في جزع:

– يا عزيزتي السيدة فنشنج.

– أوه، لا تناديي بهذا الاسم البغيض، قل فلورا.

– فلورا، هل يستلزم الأمر أن تشقي على نفسك من جديد بالدخول في التفسيرات؟ أؤكد لك أن الأمر لا يحتاج إلى شيء منها، وأنا راضٍ عن هذا الوضع.. كل الرضا.

وهنا حدثت عملية تحويل في مجرى الحديث، وذلك عندما نطقت عمة السيد «ف» بهذه العبارة التزمتية الرهيبة.

إن على طريق دوثر علامات للطريق.

وكانت هذه السيدة ترسل هذه القذائف بروح من العداء القاتل للجنس البشري، بحيث لم يدر السيد كلينام كيف يدفعها عن نفسه، لا سيما وقد كان فعلاً في حالة من الارتباك الذهني بسبب تشريف هذه السيدة المحترمة بالزيارة رغم كراهيتها الشديدة له. ولم يسعه إلا أن ينظر إليها في قلق وهي جالسة تفوح من أنفاسها المرارة والاحتقار وتبدو كأنها ترنو إلى شيء بعيد.. بعيد. أما فلورا فقد تلقت هذه العبارة وكأنها أنسب وأليق شيء، ثم قالت بصوت مرتفع إن العمة السيد «ف» طاقة روحية كبيرة وتشجعت هذه السيدة الممتازة إما بهذا الإطراء أو بما في نفسها من استنكار شديد، فأضافت قائلة:

– دعه يتلقها إذا استطاع.

ثم أشارت بحركة سريعة قوية من جعبتها الشبكية المتينة -وكانت شيئاً لها حجم كبير ومظهر القذيفة- إلى كلينام وكأنها تعني أنها تلقي بهذه العبارة التهديدية إلى ذلك المسكين.

واستأنفت فلورا الحديث قائلة:

- ملاحظة واحدة أخيرة. فقد كنت أنوي أن أقول إني أريد أن أقدم تفسيراً أخيراً، وما كنت أنا وعمة السيد «ف» لنأتي إليك في ساعة العمل، لأن السيد «ف» كان أيضاً من رجال الأعمال، وذلك رغم أن تجارة الخمور لا تزال تعتبر من الأعمال، وستظل من الأعمال مهما حاولت أن تسميها، ومن ثم كان السيد «ف» يتمتع بعادات رجال الأعمال بدليل أنه كان يصر على أن يكون «شبشبه» فوق الحصيرة دائماً في الساعة السادسة إلا عشر دقائق بعد الظهر وحذاؤه داخل سياج المدفأة في تمام الساعة الثامنة إلا عشر دقائق صباحاً في كل الظروف الجوية، سواء كان الجو مشرقاً أو قاتماً. لهذا ما كنا لنزورك بغير إذن، دون حافز قائم على النية الطيبة ونرجو أن يقابَل بنية طيبة يا آرثر أعني يا سيد كلينام، لأن هذا أنسب كثيراً حتى لو كانت لافتة «دويس وكلينام» تبدو أكثر واقعية.

فقال آرثر مبتهلاً:

- أرجوك ألا تقولي شيئاً في مجال الاعتذار. فأنت دائماً على الرحب والسعة.

- جميل منك جداً أن تقول هذا يا آرثر.. لا أستطيع أن أتذكر سيد كلينام إلا بعد أن أنطلق بكلمة آرثر، فقد كانت تلك عادتي في الأيام التي ذهبت إلى الأبد، وإنه لحق وصدق أن الذكريات الحبيبة تعيد إلى الأذهان الأيام التي ذهبت عندما يربط النوم الناس بسلسلته في سكون الليل.. جميل منك جداً، ولكن كان الأجمل، والأصح في رأيي، لو أنك، قبل أن

تدخل في هذا العمل، أرسلت إلى أبي كلمة أو بطاقة.. ولا أقول إليّ أنا رغم أنه كان هناك الوقت، ولكن هذا قد مضى، ولم يعد أمامنا الآن غير الحقيقة الصلبة.. ولكن يا إلهي، لا عليك من هذا كله.. ولا داعي لأن تعترف بشيء.

حتى فواصل العبارات بدت أنها تتطاير من حديث فلورا في تلك المناسبة. ومن ثم كانت أكثر ثرثرة وتشتتاً في الحديث مما كانت عليه في المقابلة السابقة.

واندفعت تقول:

- وذلك رغم أن شيئاً آخر في الحقيقة ليس متوقعاً، ولماذا يتوقع شيء؟ وإذا لم يكن ثمة شيء متوقع، فلماذا نتوقع شيئاً، وأنا أبعد ما أكون عن لومك أو لوم أي شخص آخر عندما كادت أمك وأبي أن يزهقا روحينا بالمضايقات حتى قطعا الوعاء الذهبي بيننا، أعني الرباط وأستطيع أن أقول إنك تفهم ما أعني وإذا لم تفهم فأنت لم تخسر شيئاً كثيراً ولن يهمك الأمر كثيراً، وسوف أتجرأ وأقول: إنهما عندما قطعا الرباط الذهبي الذي كان يربطنا معاً وألقيا بنا إلى نوبات من البكاء على الأريكة حتى كدنا أن نختنق أو هذا على الأقل ما حدث لي فقد تغير كل شيء وبقبولي الزواج من السيد «ف» كنت أعرف أني أفعل هذا وأنا مفتوحة العينين ولكنه كان في حالة من الاضطرابات في حالة من الانقباض بحيث أشار دون وعي إلى النهر أو إلى شيء من الصيدلية وقد فعلت هذا الخير الجميع.

- يا عزيزتي فلورا... لقد انتهينا من هذا من قبل. وتم كل شيء على ما ينبغي.

فردت فلورا قائلة:

- من الواضح جداً أن هذا هو رأيك، لأنك تأخذ الأمر بكل هدوء. ولولا أني واثقة بأنك ذهبت فعلاً إلى الصين، لظننت أنك ذهبت

إلى المناطق القطبية، إنك يا عزيزي السيد كلينام على حق على كل حال ولا أستطيع أن ألومك، ولكن فيما يتعلق بشركة «دويس وكلينام» القائمة في إحدى ممتلكات أبي هنا والتي سمعنا عنها من بانكس، ولولاه لما عرفنا عنها شيئاً، فإني لا أعترض عليها...

- لا، لا، لا تقولي هذا.

- إن عدم الاعتراف بهذا يعتبر لغواً يا آرثر -دويس وكلينام- أسهل وأقل مضايقة في نظري من السيد كلينام.. عندما أعرف هذا، وعندما تعرفه أيضاً ولا أستطيع إنكاره.

- ولكنني أنكره يا فلورا. ولسوف أقوم بزيارة ودية لك في القريب العاجل.

فطوحت فلورا برأسها وقالت:

- آه. أظن هذا!

ثم أرسلت إليه نظرة أخرى من نظراتها القديمة وأردفت قائلة:

- على كل حال عندما أخبرنا بانكس قررت أنا وعمة السيد «ف» أن نأتي ونزورك عندما حدث أن ذكر بابا اسمها -وكان هذا قبل ذلك- أمامي وقال إنك مهتم بأمرها قالت عندئذ يا الله! لماذا لا يعجل بأمره معها بدلاً من التأجيل.

وقال كلينام وقد استبدت به الحيرة تماماً عندئذ:

- هل تعنين بهذا الحديث عمّة السيد «ف»..

- يا إلهي يا آرثر... دويس وكلينام أسهل حقاً بالنسبة للذكريات القديمة من ذا الذي سمع عن عمة السيد «ف» تقوم بأشغال الإبرة وتعمل باليومية.

- تعمل باليومية؟ أتقصدين بحديثك دوريت الصغيرة؟

فردت فلورا قائلة:

- أجل طبعاً. وإنه لأعجب اسم بين جميع الأسماء العجيبة التي سمعتها، مثل مكان ما في الريف بأرجوحة أو مهر محبوب، أو جرو أو طائر أو شيء مما يباع في محلات البذور لزرعه في الحديقة أو آنية زهور...

وعندئذ قال آرثر في اهتمام فجائي بالحادثة:

- إذن فقد تكرم السيد كاسبي يا فلورا وذكر أمامك اسم دوريت الصغيرة، أليس كذلك؟ فماذا قال؟

فردت فلورا قائلة:

- أوه، إنك تعرف حالة أبي وكيف يثير الضيق بجلسته الأنيقة وإدارة إبهاميه الواحد فوق الآخر حتى يجعلك تشعر بالدوار إذا ركزت نظراتك عليه، لقد قال ونحن نتحدث عنك... ولست أدري من الذي بدأ الحديث في هذا الموضوع يا آرثر «أعني دويس كلينام» ولكنني واثقة أنني لم أبدأه أو هذا على الأقل ما أرجوه ولكن يجب حقاً أن تلتمس لي العذر إذا أنا تماديت في الاعتراف بهذا الأمر.

فقال آرثر:

- طبعاً، بكل تأكيد.

- إنك متلهف جداً؟

ثم لوت شفتيها وتوقفت فجأة في حياء فاتن بعد أن قالت:

- هذا ما يجب أن أعترف به. لقد قال أبي إنك تحدثت عنها في أسلوب ينم عن الاهتمام الشديد، وقلت أنا ما ذكرته لك الآن وهذا هو كل شيء.

فقال آرثر في شيء من الاستياء:

- هذا كل شيء؟

- فيما عدا أن بانكس قال لنا إنك اشتركت في هذا المشروع، وقد أقنعنا بصعوبة أن الشريك هو أنت حقاً وعندئذ قالت العمة السيد «ف» إننا سوف نأتي لزيارتك ونسأل ما إذا كان من الأفضل للجميع أن تتم خطبتك لها في بيتنا عندما تشاء لأني أعرف أنها تتردد كثيراً على والدتك، وأن لوالدتك مزاجاً حاداً يا آرثر -يا دويس وكلينام- وإلا لما أمكن أبداً أن أتزوج السيد «ف» ولبقيت حتى هذه اللحظة... ولكن يبدو أنك انزلقت إلى الكلام الفارغ.

- إنه لكرم كبير منك يا فلورا أن تفكري في هذا.

فردّت المسكينة فلورا بإخلاص واضح ظهر أنه أنسب لها من تلك النظرات الصبيانية، قائلة إنها سعيدة برأيه هذا. وقد قالت هذا بحرارة بالغة جعلت كلينام يتمنى لو استطاع أن يضحي بالشيء الكثير لينتزع الذكريات القديمة من خيالها ويلقي بها إلى البحر نهائياً.

وقال أخيراً:

أعتقد يا فلورا أن العمل الذي يمكن أن تقدميه للصغيرة دوريت، والعطف الذي يمكن أن تسبغيه عليها...

فقالت فلورا بسرعة:

- أجل، وسوف أفعل.

- إني واثق من هذا... سيكون عوناً وسنداً كبيراً لها، وأشعر أنه لا يحق لي في أن أخبرك بما أعرفه عنها، لأني حصلت على هذه المعلومات بصفة خاصة وفي ظروف تحتم عليّ الكتمان. ولكنني لا أستطيع أن أعرب

لك عن مدى اهتمامي بهذه المخلوقة الصغيرة واحترامي لها، وإنك لا تكادين تتصورين إلى أي حد امتلأت حياتها بالمحن والتضحيات... وحب الخير في هدوء. وأنا لا أكاد أفكر فيها -فضلاً عن الحديث عنها- حتى أشعر بالتأثر الشديد دعي هذا الشعور يعبر لك عما كان يمكن أن أقول، وانشري عليها جناح صداقتك مع جزيل شكري.

ومرة أخرى مد يده بصراحة إلى فلورا المسكينة، ومرة أخرى لم يسع المسكينة فلورا إلا أن تصافح هذه اليد براحة أيضاً، ولكنها رأت أن المصافحة علناً لا قيمة لها، فقررت أن تضفي عليها شيئاً من السرية والغراميات القديمة، فأخفت يده بعد أن تناولتها تحت طرف وشاحها، ولكن، كم كان استياؤه من هذه الحركة، وكم كانت بهجتها. ثم إذا بها تهتف بحرارة بالغة حين رفعت عينيها إلى واجهة المكتب الزجاجية حيث رأت شخصين يقتربان:

– هذا أبي!! سكوتاً يا آرثر، أناشدك الله.

ثم أسرعت متعثرة إلى مقعدها وهي تحسن -إلى حد مدهش- تمثيل دور العذراء التي توشك على الإغماء من فرط المفاجأة والخوف.

وخلال هذا كان والدها البطريرك يقترب بهدوء وابتسام من مكتب الحسابات وراء بانكس، وفتح بانكس الباب له، وأدخله، انزوى كالمعتاد في ركن بالغرفة.

وقال البطريرك بابتسامته الرضية:

– سمعت من فلورا أنها آتية للزيارة.. آتية للزيارة.. ولما كنت في الخارج رأيت أن آتي أيضاً.. ورأيت أن آتي أيضاً.

وكانت الحكمة الرحيمة التي توج بها هذا الحديث -وهي في ذاتها لم تكن رائعة- بواسطة عينيه الزرقاوين، ورأسه اللامعة، وشعره الأبيض

الطويل، لها تأثير مهيب. وبدا أنها جديرة بأن تدوّن بين أعظم المأثورات التي قالها أعظم الناس. وكذلك بدا كأنه قام بمعجزات من الرحمة عندما قال لكلينام في أثناء جلوسه على المقعد المقدم إليه:

– وإنك لتدخل في عمل جديد يا سيد كلينام؟ أرجو لك النجاح يا سيدي، أرجو لك النجاح.

وقال آرثر بعد أن رد عليه بما يناسب المقام:

– كانت السيدة فنشنج تقول لي يا سيدي.

وهنا لاحظ أن أرملة السيد فنشنج -أي فلورا- أخذت تحتج بالإشارة على استخدامه لهذا الاسم المحترم، ولكنه استطرد قائلاً:

– إنها تأمل أن تستخدم بين الحين والآخر الشابة التي تقوم بأشغال الإبرة والتي سبق أن زكيتها لأمي؛ وكنت أشكر لها هذا الصنيع.

وأدار البطريرك رأسه متمهلاً نحو بانكس، ووضع هذا المساعد المفكرة التي كان مستغرقاً فيها جانباً، وأسرع يقول:

– أنت لم تزكها كما تعلم، وكيف كان يمكنك هذا؟ إنك لا تعرف شيئاً عنها... نعم لا تعرف. لقد ذكر الاسم أمامك، فوافقت عليه، هذا ما فعلت.

فقال كلينام:

– حسناً! ما دامت قد أثبتت أنها جديرة بكل تزكية فالأمر عندئذ سواء. فقال بانكس:

– إنك مسرور لأنها أثبتت جدارتها، ولو حدث العكس لما كان عليك ثمة ملام. وعلى هذا فلا فخر لك في هذا الشأن، كما أنه لا ملام

عليك لو كان ثمة ما يدعو إلى ملام. إنك لم تقدم ضماناً. وأنت لا تعرف عنا شيئاً.

فقال آرثر موجهاً سؤالاً كيفما اتفق:

- إذن فأنت لا تعرف شيئاً عن أسرتها!

فردّ بانكس قائلاً:

- أعرف شيئاً عن أسرتها؟ كيف يمكنني أن أعرف شيئاً عن أسرتها! إن أحداً لم يسمع عنها شيئاً قط. وأنت لا تستطيع أن تعرف شيئاً عن أناس لم يسمع أحد عنهم شيئاً. أليس كذلك؟ إنك لا ترى هذا طبعاً!

وكان البطريرك خلال هذا كله جالساً في وقار يبتسم، ويومئ برأسه أو يهزها في إشفاق، حسب مقتضى الحال.

وقال بانكس:

- أما عن الشهادة، فأنت تعرف بوجه عام معنى هذه الشهادة. إنها ما تراه عينك، ليس غير! انظر إلى سكانك هنا في الحوش. إنهم جميعاً مستعدون لأن يشهد بعضهم لبعض إذا تركتهم يفعلون. وما الجدوى في هذا؟ إن الشهادة لن تكون أفضل إذا قام بها اثنان بدلاً من واحد. إن واحداً يكفي. إن الشخص العاجز عن دفع الإيجار سيأتي بشخص آخر عاجز عن الدفع مثله ليضمن أنه قادر على الدفع. مثل رجل بساقين من الخشب، يأتي برجل آخر بساقين من الخشب ليضمن أنه بساقين طبيعيتين. ولكن هذا لا يتيح لأي منهما القدرة على الاشتراك في مباراة للمشي. بل إن أربع سيقان خشبية أشق عليك من اثنتين إذا كنت في غنىً عنها جميعاً.

واختتم السيد بانكس حديثه بذلك النفخ المألوف عنه.

وسادت فترة من الصمت المؤقت، قطعتها عمة السيد «ف» التي كانت جالسة منتصبة في حالة إغمائية منذ ملاحظتها الأخيرة العامة. لقد

مرت الآن بانتفاضة سريعة تمهد بها لإغلاق عبارة تفاجئ أعصاب غير المعتادين عليها، وبلهجة تنم عن أشد العداء، قالت:

- إنك لا تستطيع أن تعرف رأساً من ذيل مقبض نحاسي لا شيء عليه، إنك لم تستطع أن تفعل هذا عندما كان عمك جورج على قيد الحياة، وإنك أقل استطاعة بعد وفاته.

ولم يتوان السيد بانكس عن الإجابة بهدوئه المعتاد:

- أحقاً يا سيدتي؟ ليحفظني الله! إنني مندهش إذ أسمع هذا!

ورغم حضور ذهنه، فقد ترك حديث عمة السيد «ف» أثراً مقبضاً في نفوس المجتمعين القلائل. أولاً لأنه كان من المستحيل إنكار أن رأس كلينام البريء كان المقصود بهذه العبارة المهينة، وثانياً لأن أحداً لا يعرف من ذا يكون العم جورج المشار إليه، أو أية ظاهرة روحية سوف تبدو حاملة هذا الاسم.

ولهذا قالت فلورا -وهي لا تزال على شيء من الزهو والفخر بعمة زوجها الراحل- إنها، أي عمة السيد «ف» «على شيء كثير من الحيوية اليوم، وإنها ترى من الأفضل أن ينصرفا» ولكن عمة السيد «ف» أثبتت حيويتها الموفورة برفضها لذلك الاقتراح، وإعلان رغبتها في عدم الانصراف، مضيفة إلى ذلك بتعبيرات كثيرة سيئة أنه إذا أراد -وكان الواضح جداً أنها تقصد كلينام- أن يتخلص منها، فعليه «أن يلقي بها من النافذة» ثم أعربت بحماسة عن رغبتها في أن تراه يقوم بهذه المهمة.

وخلال هذه الورطة، كبس السيد بانكس -الذي كان دهاؤه كفئاً لكل طارئ في شؤون البطريرك- قبعته على رأسه، وانزلق خارجاً من باب مكتب الحسابات، ثم انزلق داخلاً مرة أخرى بعد لحظة وقد بدا عليه انتعاش مصطنع وكأنما أمضى في الريف بضعة أسابيع، ثم قال وهو يحك

رأسه في دهشة بالغة «عجباً يا سيدتي، أهذه أنت؟ كيف حالك يا سيدتي؟ إنك تبدين رائعة اليوم يا سيدتي. إنني سعيد برؤيتك، شرفيني بذراعك يا سيدتي؛ لسوف نتمشى قليلاً معاً، أنت وأنا، هذا إذا شرفتني بصحبتك».

وعلى هذا النحو من المصاحبة، هبطت عمة السيد «ف» السلّم الخاص لمكتب الحسابات في بسالة ونجاح كبير. ثم نهض السيد كاسبي البطريركي السمت في هيئة الذي أدى واجبه ثم تبعهما متردداً، تاركاً ابنته تقول وهي تتبع الجميع بدورها لحبيبها السابق في ذهول وهمس -وكانت تستمتع بهذا جداً- إنهما شربا كأس الحياة حتى الثمالة، ثم أردفت قائلة في تلميح خفي إن السيد «ف» الراحل كان في قاعها.

ولما انفرد السيد كلينام بنفسه مرة أخرى، أخذت تستبد به الشكوك القديمة عن علاقة أمه بدوريت الصغيرة، كانت هذه الشكوك في ذهنه، مازجة نفسها بأعماله التي كان يؤديها آلياً عندما رأى ظلاً يسقط على الأوراق أمامه، فرفع رأسه ليعرف مصدره. وكان المصدر هو السيد بانكس. لقد جاء بقبعته المزحلقة إلى الوراء على أذنيه وكأنما خصلات شعره الشائك قد انتصبت كالزنبرك وألقت بها إلى الوراء، وبعينيه الصغيرتين السوداوين المليئتين بالفضول الحاد، وبأصابع يده اليمنى في فمه ليتمكن من قرض أظافره، وبأصابع يده اليسرى في جيبه كاحتياط لعملية قرض أخرى، بهذا كله ألقى السيد بانكس ظله من وراء الزجاج على الأوراق والدفاتر أمام كلينام.

وسأل السيد بانكس بحركة استفسارية من رأسه، هل يستطيع أن يدخل مرة أخرى؟ وردّ كلينام بإيماءة من رأسه بالإيجاب، وشقّ السيد بانكس طريقه ووقف بجوار المكتب، معتمداً عليه بذراعيه، ثم بدأ المحادثة بالنفخ والنخر:

قال كلينام:

- أرجو أن تكون عمة السيد «ف» قد هدأت.

فقال بانكس:

- كل شيء على ما يرام يا سيدي.

- من سوء الحظ أن أثير في صدر هذه السيدة حقداً عنيفاً. أتعرف لماذا؟

فقال بانكس:

- هل هي تعرف لماذا؟

- وأنا لا أظن.

وتناول مفكرته، وفتحها، وطواها، وألقى بها في قبعته التي كانت موضوعة بجانبه على المكتب، وراح ينظر إليها وهي في مكانها بقاع القبعة؛ كل هذا في هيئة الذي يفكر في شيء خطير. وأخيراً عاد يقول:

- سيد كلينام. إنني في حاجة إلى معلومات يا سيدي.

فسأل كلينام:

- عن الشركة؟

- لا.

- عن أي شيء إذن يا سيد بانكس، هذا بفرض أنك تريدها مني.

- أجل يا سيدي، أجل. إني أريدها منك، إذا استطعت أن أقنعك بتقديمها لي. أ. ب. ت. ث. ج. ح. حا حب حت وهكذا بترتيب القاموس دوريت.. هذا هو الاسم يا سيدي.

ثم أرسل بانكس ذلك الصفير المعروف عنه، وانقضّ على أظافر يده اليمنى. ونظر آرثر يتأمله، وردّ بانكس النظرة عليه بمثلها، وأخيراً قال آرثر:

- إنني لا أفهم ما تعني يا سيد بانكس.

- هو الاسم الذي أريد أن أعرف المعلومات عنه.

- وماذا تريد أن تعرف؟

- كل ما تستطيع أن تريد أن تذكره.

ولكن هذا الحديث المفهوم عن رغبات السيد بانكس لم يصدر عنه دون هذه الأصوات النافخة الناخرة التي تصاحب كل حديث له عادة.

- هذه زيارة فريدة يا سيد بانكس، وإنه ليلوح لي أن من الغريب جداً أن تأتي إلى الحديث في موضوع كهذا.

فردّ بانكس قائلاً:

- إن الأمر كله قد يكون غريباً.. قد يكون خارجاً عن المألوف، ومع ذلك لا يخرج عن نطاق العمل. إنه في إيجاز عمل. وأنا رجل الأعمال. وإلا فأي عمل لي في هذه الدنيا غير التمسك بالعمل؟ لا شك في ذلك.

وعاد كلينام يركز نظراته باهتمام على وجه السيد بانكس، وقد عاده الشك القديم فيما إذا كان هذا الرجل الجاف البارد جاداً أم لا. لقد بدا كالعهد به: قذراً حقيراً دائماً، متعجلاً ملهوفاً دائماً. لم يستطع أن يفطن إلى أية نبرة تنم عن السخرية يمكن أن تلتقطها الأذن في صوته.

وقال بانكس:

- والآن، لكي أضع هذا العمل في مكانه الصحيح، أقول إنه لا يخص مخدومي.

- هل تعني بكلمة مخدومك السيد كاسبي.

وأومأ بانكس برأسه ثم قال:

- أجل، مخدومي، وهذا هو الموضوع. سمعت في بيت مخدومي اسماً.. اسم شابة يريد السيد كلينام أن يخدمها. وكان أول من ذكر هذا الاسم لمخدومي هو المدعو بلورنيش من سكان الحوش، وذهبت إلى بلورنيش، وسألت بلورنيش في الواقع عن المعلومات. ورفض بلورنيش أن يزودني بما أريد من معلومات رغم أنه متأخر في دفع إيجار مسكن ستة أسابيع. وكذلك رفضت زوجته السيدة بلورنيش؛ وأحالني كلاهما إلى السيد كلينام، وهذا هو الموضوع.

- وبعد!

فردّ بانكس قائلاً:

- وبعد يا سيدي. لقد جئت إليه. وهأنذا.

وبخصلات شعره الشائك المنتصب في أنحاء رأسه، وبأنفاسه اللاهثة المترددة بقوة، تراجع السيد بانكس المشغول إلى الوراء خطوة وكأنما ليكشف عن جرمه كله كاملاً، ثم عاد وتقدم مرة أخرى متنقلاً بنظراته السريعة بين قبعته حيث توجد مفكرته، وبين وجه كلينام.

- سيد بانكس. حتى لا أقتحم عليك نطاق سريّتك، سأكون واضحاً معك بقدر ما أستطيع. دعني أوجه إليك سؤالين: الأول..

فقال بانكس رافعاً إصبعه السبابة القذر بظفره المكسور:

- حسناً! إني أعرف السؤال: إنه ما هو مقصدك؟

- تماماً.

فقال بانكس:

- مقصدي، طيب. لا شأن له بمخدومي. ولا أستطيع التعبير عنه الآن. إنه مقصد غريب بعض الشيء. ولكنه طيب. أريد أن أخدم شابة اسمها دوريت.

ثم أردف قائلاً وهو لا يزال رافعاً سبابته محذراً:

- الأفضل أن أعترف بمقصدي ما دام طيباً.

- ثانياً، وأخيراً. ماذا تريد أن تعرف؟

والتقط بانكس مفكرته قبل أن يفرغ كلينام من السؤال، وأودعها بعناية في جيب صدريته الداخلي وزرّره عليها، كل هذا وهو يحملق في وجه كلينام. وأخيراً أجاب بعد وقفة ونفخة:

- أريد معلومات إضافية من أي نوع.

ولم يستطع كلينام أن يكتم ابتسامة، بينما أخذ ذلك السيد بانكس اللاهث النافخ ينتظر الإجابة ويرقبه كأنما ينتهز الفرصة لينقض عليه وينتزع منه كل ما يريد قبل أن يتمكن كلينام من الإفلات. وكانت لهفته -أي لهفة بانكس- تثير في الذهن الكثير من التساؤل. ولكن كلينام قرر -بعد تفكير قليل- أن يزوده بنوع من المعلومات العامة التي يمكنه أن يخبره بها، موقناً تماماً أن السيد بانكس إذا فشل في الحصول على هذه المعلومات منه، فسوف يحاول الحصول عليها من مصدر آخر.

ولهذا فإنه ذكر السيد بانكس أولاً بتطوعه في القول إنه ليس لمخدومه شأن في الموضوع، وإن مقاصده هو طيبة -وهما قولان كررهما مرة أخرى بكل حماسة ذلك السيد الضئيل القذر- ثم أخبره بعد ذلك بصراحة أنه فيما يتعلق بسلالة آل دوريت أو مكان إقامتهم السابق فليس لديه معلومات يقدمها. وأن معرفته بالأسرة لا يتجاوز نطاق معلوماته بأنها هبطت كما يبدو الآن إلى خمسة أفراد: هم شقيقان أحدهما أعزب،

والآخر أرمل له ثلاثة أبناء. أما أعمار أفراد الأسرة جميعاً فقد ذكرها لبانكس بأرقام تقريبية بقدر ما استطاع أن يخمّن. وأخيراً وصف له حالة أبي سجن مارشاليزا، والظروف الزمنية والأحداث التي عرفته بتلك الشخصية. وكان السيد بانكس ينصت بانتباه كبير إلى هذا كله وهو يزداد نفخاً ونخراً كلما ازداد اهتماماً بالأمر؛ وقد لاح عليه أنه كان يستمد أشد الانفعالات السارة من أشد أجزاء القصة إيلاماً؟ وقد فتنه بصفة خاصة ذلك الحديث عن سجن ويليام دوريت الطويل.

وقال آرثر:

- وفي النهاية يا سيد بانكس، لم يبقَ إلا أن أقول هذا. إن لدي أسباباً تخص غيري تجعلني أوجز في الحديث بقدر الإمكان عن أسرة دوريت، لا سيما في بيت أمي -وهنا أومأ السيد بانكس برأسه- وأحاول الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها. وإن رجل أعمال مخلصاً مثلك... إه!

وكان السيد بانكس قد أطلق فجأة إحدى نفخاته بقوة غير عادية. وأجاب قائلاً:

- لا شيء.

- إن رجل أعمال مخلصاً مثلك يدرك تماماً معنى الصفقة العادلة. وأنا أريد أن أعقد معك صفقة عادلة. فكما أخبرتك بما أعرف عن أسرة دوريت، أريد منك أن تخبرني بكل ما ستعرفه عنها، إن كان ذلك في مقدورك.

وأردف كلينام قائلاً:

- ولعل عدم وضعي هذا الشرط في أول الأمر يجعلك تأخذ عني فكرة لا تسر كثيراً كرجل أعمال. ولكنني أفضل أن تكون كلمة الشرف

هي أساس المعاملة. لقد رأيت الكثير من الأعمال تعقد بشروط دقيقة حتى أصبحت -إن شئت الحقيقة يا سيد بانكس- شديد الضيق بها.

وضحك السيد بانكس قائلاً:

- إنها صفقة يا سيدي، وسوف تجدني مستمسكاً بها.

وبعد ذلك وقف برهة ينظر إلى كلينام، ويقرض أظافره العشرة على التوالي هذا بينما كان -كما يبدو بوضوح- يركز ما سمعه في ذهنه ويستعيده بحرص قبل أن تضيع فرصة استعادة ما قد يكون قد نسيه. وأخيراً قال:

- حسناً جداً. والآن أريد أن أقول لك طاب يومك، لأن اليوم هو موعد تحصيل الإيجارات في الحوش؛ وبهذه المناسبة؛ إن رجلاً أجنبياً يعرج على عصا..

فقال كلينام:

- أجل، أجل.. إنك تطلب أحياناً ضامناً أو شاهداً. فهمت!

فأجاب بانكس قائلاً:

- إذا كان في مقدوره أن يدفع يا سيدي، فخذ منه كل ما تستطيع أن تظفر به، واحتفظ بكل ما لا تضطر إلى إعادته. هذه هي الأعمال. إن الأجنبي الأعرج ذا العصا يريد استئجار غرفة عليا في الحوش. فهل هو مناسب!

فقال كلينام:

- إنني مسؤول عنه.

فقال بانكس وهو يدوّن شيئاً في مفكرته:

- هذا يكفي. إن كل ما أريده من حوش بليدنج هارت هو نص العقد. إني أريد كما ترى التمسك بالعقد. وعلى الساكن أن يدفع الإيجار أو يقدم ما يمتلكه. هذه هي عبارة السر في الحوش. إن ذلك الأجنبي الأعرج ذا العصا يزعم أنك أرسلته إلينا، ولكن في مقدوره -إن كان الأمر هكذا- أن يزعم أن المغولي العظيم قد أرسله. كان كما أعتقد في المستشفى؟

- أجل. كان قد أصيب في حادثة، وخرج من فوره الآن.

فقال بانكس:

- إن إدخال رجل إلى المشفى يجعله كلاً عليك! هكذا قيل لي.

ومرة أخرى أطلق إحدى نفخاته، أما كلينام فقد أجاب ببرود:

- وهكذا قيل لي أيضاً.

وكان بانكس عندئذ قد أصبح مستعداً للانصراف، ومن ثم اندفع دون أية إشارة أو تحية أخرى وراح يهبط السلم وهو ينفخ كعادته، ثم إذا به في حوش بليدنج هارت قبل أن يلوح لأحد أنه غادر مكتب الحسابات.

وظل سكان بليدنج هارت طيلة يومهم وهم في حالة بالغة من الهم والقلق في أثناء مرور بانكس عليهم، مطلقاً فيهم لسانه بسبب المتأخر من الإيجارات، ومطالباً بتنفيذ نصوص العقود، موزعاً إنذارات الإخلاء أو الحجز، مطارداً العاجزين عن الدفع ناشراً أمامهم ووراءه أمواجاً من الفزع. وكانت جماعات الناس -المشدودين بعضهم إلى بعض بالكارثة- يتسكعون أمام كل بيت يعرفون أن بانكس بداخله، وينصتون إلى شذرات من أحاديثه مع سكانه. فإذا انتشر النبأ أنه هابط على السلم، فإنهم كثيراً ما يعجزون عن التفرق بسرعة، فإذا هو يفاجئهم بالوقوف بينهم مطالباً إياهم بالمتأخرات، مسمّرة أقدامهم إلى المكان. وظلت أسئلة السيد بانكس الثقيلة تتردد في جوانب الحوش في أثناء بقية اليوم كله.

وكان هو يرفض أن يقبل أية اعتذارات، أو ينصت إلى أية شكايات أو يستمع إلى أية وعود بالإصلاحات أو يهتم بشيء إلا بالحصول على المال بلا قيد أو شرط. وهكذا ظل معكراً حياة الحوش أشد التعكير بانطلاقه في جانبه هنا وهناك وفي أغرب الاتجاهات، والعرق يتفصد من جبينه والنفخ يشتد على شفتيه والقذارة تزداد على ملابسه في كل لحظة. ولم يعد جو الحوش إلى هدوئه المعتاد إلا بعد ساعتين من رؤية السيد بانكس وهو ينطلق في الأفق نافخاً في أعلى السلم إلى الخارج.

وعُقِدت اجتماعات كثيرة في أماكن الاجتماعات المعروف في الحوش في تلك الليلة وقد اتفقت الآراء جميعها في أثناء هذه الاجتماعات على أن السيد بانكس رجل قاسٍ لا يمكن التعامل معه، وأن من المؤسف جداً أن يضع سيد كريم مثل السيد كاسبي مهمة تحصيل الإيجارات في يديه دون أن يعرفه قط على حقيقته. ذلك لأنه -هكذا قال سكان الحوش- إذا قام رجل كريم له مثل هذا الرأس بشعرها ذاك، وله مثل هاتين العينين، بتحصيل إيجاراته بنفسه، فلن يكون هناك ما يدعو إلى الهم أو القلق، كما أن الأمور يمكن أن تتخذ وجهاً آخر.

وفي تلك اللحظة من تلك الساعة من ذلك المساء بالذات، كان البطريرك الذي سبق أن ذهب في الصباح إلى الحوش لزيارة السيد كلينام بكل هيله وهيلمانه جالساً في مرساه الآمن بالبيت يقول وهو يدير إبهاميه:

- إنه محصول يومي رديء جداً يا بانكس... محصول يومي رديء جداً. وإنه ليلوح لي يا سيدي، وأنا أصر على تقديم هذه الملاحظة إنصافاً لنفسي، إنه كان ينبغي عليك أن تأتي بالمزيد جداً من المال... بالمزيد جداً من المال.

* * *

قراءة الطالع



تلقت دوريت الصغيرة في ذلك المساء نفسه زيارة من السيد بلورنيش الذي أعرب عن رغبته الخاصة في الحديث إليها على انفراد، عن طريق سلسلة من السعال المتتابع الذي أوضح تماماً أن والدها -فيما يتعلق بعملها كخياطة- ينطبق عليه المثل المعروف القائل إن الذي لا يرى ما يجري أمامه هو الأعمى تماماً.

وهكذا ظفر منها بمقابلة على درجات السلم خارج الباب، حيث قال لها مدمدماً:

- لقد زارتنا سيدة في البيت اليوم يا آنسة دوريت. وكانت معها سيدة عجوز كأنها ثعلبة رهيبة.. من النوع الذي يقضم رأس الإنسان.. ويحي!

ولم يستطع بلورنيش الوادع أن يحرر ذهنه في أول الأمر من عمة السيد «ف». وقد أردف قائلاً في سبيل الاعتذار عن نفسه:

- لأنها، كما أؤكد لك، أبشع الناس منظراً.

وأخيراً انتزع نفسه، بعد جهد جهيد، من ذلك الموضوع حتى استطاع أن يقول:

ولكنها ليست في العير ولا النفير الآن. أما السيدة الأخرى فهي ابنة السيد كاسبي. وإذا لم يكن السيد كاسبي رجلاً موفور الثراء، فلن يكون هذا بسبب خطأ من السيد بانكس. لأنه عن طريق بانكس لا بد أن يكون ثرياً.. وهو ثري فعلاً.

وكان السيد بلورنيش رغم غموض حديثه بعض الشيء، يجب أن يؤكده بالتكرار. وقد استطرد يقول:

– أما لماذا جاءت إلينا، فلكي تقول إنه إذا أمكن للآنسة دوريت أن تأتي إلى العنوان المدوَّن في هذه البطاقة، وهو عنوان منزل السيد كاسبي حيث يوجد لبانكس مكتب في الجزء الخلفي منه، فإنه يسرها أن تستخدمها. وقد أكدت قولها إنها صديقة عزيزة قديمة للسيد كلينام، وترجو أن تثبت فائدتها كصديقة، لصديقته، هذه هي كلماتها. وقد أرادت أن تعرف هل يمكن للآنسة دوريت أن تذهب إليها غداً صباحاً، فقلت إني سأراك يا آنسة، وأسألك، ثم أعود إليها هذه الليلة لأقول نعم، أو.. إذا كنت مشغولة غداً، متى تذهبين.

فقالت دوريت الصغيرة:

– يمكنني الذهاب غداً. شكراً لك. وإن هذا العطف منك كبير ولكنك دائماً عطوف.

وبعد أن أنكر السيد بلورنيش أفضاله تواضعاً، فتح الباب لها لكي تعود إلى الغرفة، ثم تبعها متظاهراً بكل جرأة أنه لم يخرج إطلاقاً وذلك حتى لا يثير الشك في صدر والدها إذا كان قد لاحظ شيئاً. ولكن الوالد لم يظهر بتغاضيه الوديع شيئاً من الاهتمام على كل حال. وبعد محادثات قصيرة مزج فيها بلورنيش صفته السابقة كزميل في السجن، بميزته الحالية كصديق متواضع من الخارج عاد مرة أخرى إلى عمله كنقّاش

استأذن وانصرف ثم قام بجولة في أنحاء السجن قبل مغادرته نهائياً، حيث شاهد لعبة «الإسكتلز» وقد امتزجت في صدره مشاعر النزيل القديم الذي لديه من الأسباب الخاصة ما يجعله يعتقد أنه قد يكون مقدَّراً عليه أن يعود مرة أخرى.

وفي بكور الصباح، تركت دوريت الصغيرة ماجي في أيدٍ أمينة، واتجهت إلى المقر البطريركي. واتخذت طريق «أيرن بريدج» رغم أنه كلفها بنساً وسارت في هذا الجانب من طريقها أكثر تمهلاً من سيرها في أي جانب آخر. وقبل الثامنة صباحاً بخمس دقائق، كانت يدها على مقرعة الباب البطريركي، وكانت أي المقرعة، على ارتفاع لا تكاد تصل إليه يدها إلا بصعوبة.

وسلمت بطاقة السيدة فنشنج للسيدة الشابة التي فتحت لها الباب، فقالت لها السيدة الشابة إن «الآنسة فلورا» -وكانت فلورا بعد عودتها إلى بيت أبيها قد استردت الاسم الذي عاشت به طول حياتها هناك- لم تخرج بعد من غرفة نومها، ولكن يمكنها -أي دوريت- إذا سمحت أن تتفضل بالدخول إلى غرفة جلوس الآنسة فلورا. ومضت إلى غرفة جلوس الآنسة فلورا كأنما الواجب يحتم عليها هذا، حيث وجدت مائدة إفطار مُعدَّة لاثنين، وعليها صينية إضافية معدَّة لطعام شخص واحد وبعد أن غابت السيدة الشابة لحظات، عادت لتقول لدوريت أن تفضل بالجلوس بجوار المدفأة، وأن تخلع قبعتها وأن تعتبر نفسها في بيتها. ولكن دوريت الصغيرة -الخجول- التي لم تكن معتادة أن تجعل نفسها كأنها في بيتها في مثل هذه المناسبات لم تدرِ كيف تفعل هذا؟ وهكذا ظلت جالسة بجوار الباب عندما أقبلت فلورا مسرعة بعد نصف ساعة.

إن فلورا لشديدة الأسف لتأخرها في الحضور، ثم لماذا -بحق الله- بقيت دوريت جالسة هكذا في البرد بينما كانت فلورا تتوقع أن تراها

جالسة بجوار المدفأة تقرأ الصحيفة! ألم تحمل إليها تلك الفتاة المهملة رسالتها، وهل ظلت حقاً طيلة الوقت جالسة بقبعتها؟ وإنها لترجو -بحق الله- أن تسمح لفلورا أن تأخذها عنها! وبعد أن أخذت فلورا القبعة بكل سماحة ممكنة، فوجئت بالوجه الذي كان تحتها بحيث قالت:

- ما أجمله من وجه صغير يا عزيزتي!

ثم ضغطته بين يديها كأرقّ ما يكون الضغط.

وكانت تلك كلمات وتصرفات موقوتة، ذلك أن دوريت الصغيرة ما كادت تفكر في مدى عطفها، حتى اندفعت فلورا إلى مائدة الإفطار متحمسة للعمل، ثم انفجرت حتى أذنيها في حديث مسهب قائلة:

- الواقع أني شديدة الأسف إذ أتأخر هذا الصباح دون كل صباح لأني كنت أريد وأرغب في الاستعداد للقائك عندما تأتين ولأقول لك إن أي شخص يهم آرثر كلينام نصف هذا الاهتمام يهمني أيضاً بنفس المقدار، ومن ثم كان ينبغي أن أرحب بك من كل قلبي وأكون سعيدة جداً؛ وبدلاً من هذا لم يستدعوني فبقيت أغط في نومي إذا شئت الحقيقة وإذا لم تكوني أيضاً تحبين لحم الدجاج البارد أو لحم الخنزير الساخن وكلاهما لا يحبهما الكثير من الناس فيما عدا اليهود الذين يتمسكون جداً بمبادئهم التي يجب أن نحترمها وإن كان يجب عليّ أيضاً أن أقول إنهم كان يجب أن يتمسكوا بهذه المبادئ بنفس القوة عندما يبيعون لنا سلعاً مزيفة على أنها حقيقية تساوي مبلغاً كبيراً من المال.. لسوف أكون في الحقيقة جد مستاءة.

وشكرتها دوريت الصغيرة قائلة في حياء إنها عادة تكتفي بقطعة خبز بالزبدة مع الشاي.. ولكن فلورا قالت وهي تدير الإبريق بطريقة تنم عن الإهمال الشديد مما جعلها تجفل حين تناثرت قطرات من الماء الساخن على عينيها عندما انحنت لتنظر داخل إناء الشاي:

- أوه، هراء يا طفلتي العزيزة، إنني لا أستطيع أن أقنع بهذا. فقد جئت هنا على أساس أنك صديقة ورفيقة كما تعلمين إذا سمحت أن تكون لنا الحرية لأن نكون هكذا ولا بد لي في الواقع من أن أخجل من نفسي إذا أمكن أن نأتي على أساس آخر، وعدا هذا فقد تحدث آرثر كلينام على هذا الأساس. إنك متعبة يا عزيزتي!

- لا يا سيدتي.

فقالت فلورا:

- إن شحوب وجهك يدل على أنك سرت مسافة طويلة قبل طعام الإفطار، وأستطيع القول إنك تقيمين في مكان بعيد وكان ينبغي أن تأتي راكبة. ويحي، ويحي، ألا من شيء يمكن أن يفيدك؟

- الواقع أنني على ما يرام يا سيدتي، وإني أشكرك مرة وثانية، ولكنني على ما يرام.

فقالت فلورا:

- إذن اشربي شايك أرجوك. وجناح هذه الدجاجة، وهذه الشريحة من اللحم، ولا تبالي بأمري أو تنتظريني لأني دائماً أحمل هذه الصينية بنفسي إلى عمة السيد «ف» التي تفطر في سريرها وهي سيدة عجوز لطيفة وبارعة أيضاً، إن صورة السيد «ف» هي الموضوعة وراء الباب وهي تشبهه كثيراً لولا الجبين الكبير. أما العمود والأرضية الرخامية والسياجات والجبل الموجود في الصورة فأنا لم أره في حياتي قريباً منه كما لا أظن أن ثمة جبالاً في تجارة الخمور، كان رجلاً ممتازاً ولكنه لم يكن من ذلك النوع.

ونظرت دوريت الصغيرة إلى الصورة وهي تتابع -في غير دقة- ما يقال عن هذا العمل الفني. واستطردت فلورا تقول:

– كان السيد «ف» شديد التعلق بي بحيث لم يكن يحتمل ابتعادي عن ناظريه وذلك رغم أني لا أستطيع طبعاً أن أعرف إلى أي مدى كان حبه هذا سيستمر لو لم يمت وأنا ما زلت عروساً. كان محترماً وإن لم يكن شاعرياً، وواقعياً أكثر منه خيالياً.

ونظرت دوريت الصغيرة إلى الصورة مرة أخرى. وكان الرسام قد صوّر الرأس تصويراً يمكن أن يقال عنه من وجهة النظر الفكرية، قريب الشبه من تصويرات شكسبير.

واستطردت فلورا تقول وهي مشغولة بإعداد الخبز المحمّر لعمة السيد «ف».

– إن النزعة الخيالية على كل حال كما قلت للسيد «ف» بصراحة عندما عرض الزواج عليّ ولعلك ستعجبين حين تسمعين أنه عرض عليّ الزواج سبع مرات، مرة في مركبة مأجورة، ومرة في زورق، ومرة في مقصورة مسرح، ومرة فوق حمار عند آبار تانبريدج، والمرات الباقية على ركبتيه. إن النزعة الخيالية قد طارت مع أيام آرثر كلينام الأولى بعد أن فَصَلنا آباؤنا وابتعد كل منا عن الآخر كما ينفصل التمثال عن القاعدة وهكذا احتلت الواقعية العرش، وقد قال السيد «ف» متفضلاً جداً إنه يفهم هذا تماماً بل ويفضل هذا الوضع للأمور، ومن ثم أعطيته كلمتي وتم الزواج وهكذا كانت حياتي كما ترين يا عزيزتي، ومع ذلك فنحن لا ننكسر ولكن ننحني، أرجوك أن تفطري جيداً ريثما أمضي أنا بالصينية.

واختفت تاركة دوريت الصغيرة تمعن التفكير في معاني كلماتها هذه المبعثرة ثم لم تلبث أن عادت مرة أخرى، وأخيراً بدأت في تناول إفطارها وهي لا تكف عن الحديث طيلة الوقت.

قالت فلورا وهي تضع ملء ملعقتين من سائل بني اللون يشبه في رائحته البراندي في قدح شايها:

- أترين يا عزيزتي، إنني مضطرة لأن أحرص على تنفيذ تعليمات الطبيب رغم أن مذاق الشاي عندئذ يكون أبعد شيء عن اللذة وذلك لأني مخلوقة ضعيفة الصحة وكان من الممكن ألا أسترد صحتي بعد الصدمة التي تلقيتها بسبب كثرة بكائي في الغرفة المجاورة بعد افتراقي عن آرثر هل تعرفينه منذ مدة طويلة.مكتبة سُر مَن قرأ

وما إن فهمت دوريت الصغيرة أن هذا السؤال موجّه إليها -إذ كان في حاجة إلى بعض الوقت لأن سرعة رئيستها الجديدة في الحديث جعلتها تتخلف كثيراً عن متابعتها- حتى أجابت أنها عرفت السيد كلينام منذ عودته.

وعادت فلورا تقول:

- طبعاً بالتأكيد لم يكن في مقدورك أن تعرفيه قبل ذلك إلا إذا كنت في الصين أو تراسلت معه وكلاهما غير محتمل. لأن الناس المتعودين على السفر تتلون وجوههم بالسمرة على نحو ما وليس هذا شأنك إطلاقاً. أما عن التراسل فعن أي شيء؟ هذا هو الواقع إلا إذا كان عن الشاي، إذن ففي بيت والدته كانت أولى معرفتك به؟ إنها سيدة حكيمة جداً ومنصفة ولكنها عنيفة جداً.. كان ينبغي أن تكون أماً لذي القناع الحديدي.

فقالت دوريت الصغيرة:

- لقد كانت السيد كلينام شفيقة بي.

- أحقاً؟ إني واثقة من سعادتي إذ أسمع هذا لأن من الطبيعي - باعتبارها أماً لآرثر كلينام- أن تبتهج مشاعري وأنا أسمع رأياً عنها أحسن مما سمعت من قبل. وذلك رغم أني لا أعرف ماذا تظن بي عندما أذهب لزيارتها كما أفعل أحياناً بكل تأكيد حيث تجلس محملقة في وجهي كالقدر الراكب مركبة -وهي مقارنة مزعجة طبعاً- لأنها مريضة ولا ذنب لها في المرض.. فأنا لم أعرف قط ولا أستطيع أن أتصور.

وتلفتت دوريت الصغيرة حولها في تردد ثم قالت:

- هل أجد عملي في أي مكان يا سيدتي؟ هل أستطيع الحصول عليه؟

فقالت فلورا وهي تتناول قدحاً آخر من الشاي مع الجرعات التي وصفها لها الطبيب:

- أيتها الحورية الصغيرة البارعة. ليس هناك أي داعٍ للتعجل وإنه ليحسن أن نبدأ بائتمان بعضنا البعض على أسرار صديقنا المشترك -وهي كلمة جد باردة مني على الأقل لم أكن أقصدها- أما التعبير الأنسب جداً فهو الصديق المشترك.. بدلاً من أن نعمد إلى الرسميات التي ربما تجعل مني -لا منك- شبيهاً بالصبي الإسبرطي الذي عضّه الثعلب، وهو مثال أرجو أن تعذريني على تقديمه دون أمثلة الأولاد المتعبين من كل نوع الذين يقحمون أنفسهم في المجتمعات، وأعتقد أن ذلك الصبي الإسبرطي أكثرهم شقاوة.

وظلت دوريت الصغيرة جالسة تنصت بوجه شديد الامتقاع، وأخيراً قالت:

- ألا يحسن بي أن أعمل في أثناء هذا الحديث. إن في مقدوري أن أعمل وأنتبه لما يقال أيضاً.. وأنا أفضل هذا إذا أمكن.

وقد أعربت بلهفتها عن مدى قلقها لبقائها بلا عمل حتى جعلت فلورا تقول لها مجيبة وهي تقدم لها سلة مليئة بمناديل اليد البيضاء:

- حسناً يا عزيزتي، ليكن لك ما تفضلين.

ووضعت دوريت الصغيرة السلة بجانبها في سرور، ثم تناولت منديلاً حريمياً صغيراً «ولضمت» إبرتها وبدأت في التطريز.

وقالت فلورا:

- ما أبرع أصابعك. ولكن هل أنت واثقة بأنك على ما يرام؟

- أوه أجل، حقاً!

وضعت فلورا قدميها على سياج المدفأة، وأعدت نفسها للانطلاق في حديث عاطفي طويل. وقد بدأته فوراً وهي تطوح برأسها، وتتنهد بطريقة مقنعة، مستغلة إلى أبعد حد حركات حاجبيها، ملقية بين الحين والآخر بنظراتها إلى الوجه الهادئ المنحني على العمل.

قالت:

- ينبغي أن تعلمي يا عزيزتي.. ولكنني لا أشك في أنك تعلمين فعلاً لا لأنني ذكرته لك بطريقة عامة، وإنما لأني أشعر أني أحمل على جبيني بحروف نارية طابع ذلك الذي اسمه ماذا بحيث إني قبل أن أقدم للمرحوم السيد «ف» كنت مخطوبة لآرثر كلينام -وأنا أقول السيد كلينام أمام الناس بحكم التقاليد ولكني هنا أقول آرثر- وكنا في بعضنا البعض الواحد للآخر، وكان ذلك إشراقة الحياة وكان تصميماً مقيماً وكان نشوة وكان كل شيء آخر من هذا القبيل في أعلى درجة، فلما تمزق هذا كله إرباً تجمدت عواطفنا ولم يسع آرثر إلا أن يرحل إلى الصين، وأغدو أنا العروس الحجرية للمرحوم السيد «ف».

وأبهجت فلورا نفسها إلى حد كبير وهي تنطق بهذه الكلمات، ثم استطردت تقول:

- لن أحاول أن أصور مشاعرنا في ذلك الصباح عندما كان كل شيء جامداً في أعماقي وعمة السيد «ف» تتبعنا في مركبة زجاجية النوافذ لا بد أنها -منطقياً- لم يحسن إصلاحها وإلا لما انكسرت بعد شارعين من البيت مما جعل عمة السيد «ف» تُعاد إلى البيت محمولة في مقعد من القش كما يحدث في مهرجانات الخامس من شهر نوفمبر.. يكفي القول إن

الإخطار الرسمي تم في غرفة الطعام بالطابق الأسفل حيث أسرف أبي في تناول السالمون المخلل ومرض أسابيع، وذهبت مع السيد «ف» في جولة بالقارة الأوربية ولما وصلت إلى كاليه تصارع الناس للوصول إلينا على رصيف الميناء حتى فرقوا بيننا وإن لم تكن تلك هي الفرقة النهائية.

واستمرت العروس الحجرية في الحديث -وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها- بأشد غبطة وبطريقة طواقة كانت في بعض الأحيان مثيرة للدم واللحم.

- لسوف أسدل غلالة على تلك الحياة الحالمة، لقد كان السيد «ف» في حالة معنوية طيبة، وكانت شهيته طيبة وقد أحب الطعام واعتبر الخمر خفيفة وإن كانت لذيذة وكل شيء كان على ما يرام، وعدنا إلى مسكن بالقرب من رقم 30 شارع لندن دوكس بمنطقة ليتل جوسلنج حيث استقر بنا المقام، وقبل أن نكتشف أمر الخادمة التي كانت تبيع ريش النعام من السرير الإضافي، إذا داء النقرس الطائر إلى أعلى يحلق آخذاً معه السيد «ف» إلى عالم آخر.

ونظرت أرملته إلى صورته وهزت رأسها ومسحت عينيها واستطرت تقول:

- إنني أقدس ذكرى السيد «ف» كرجل محترم وزوج من أخلص الأزواج، يكفي فقط أن تذكر نبات الهليون حتى يظهر أو تلمح باسم أي شيء صغير رقيق لتشربه حتى يأتي كالسحر في زجاجة شراب، وليست هذه نشوة وإنما راحة، وقد عدت إلى بيت أبي وعشت في أمان إن لم أكن في سعادة في أثناء بضعة أعوام حتى أقبل أبي ذات يوم منساباً في رفق وقال إن آرثر كلينام ينتظرني في الطابق الأسفل، وقد هبطت إليه ووجدته ولا تسأليني كيف وجدته إلا أنه لم يزل بلا زواج وبلا تغيير.

وكان من الممكن أن توقف هذه الأحاديث الغامضة التي كانت فلورا تسدلها حول نفسها عندئذ أصابع أخرى غير الأصابع الرشيقة التي كانت تعمل بجوارها، لقد استمرت تعمل بلا توقف، والرأس المشغول منحنياً عليها يراقب الغرز.

وقالت فلورا:

- ولا تسأليني إذا كنت لا أزال أحبه أم لا يزال هو يحبني أو ماذا ستكون عليه النهاية أو متى، إننا محاطون بنظرات رقيبة وربما كان مقدَّراً علينا أن نذوب فُرْقة، ومن المحتمل ألا يجتمع شملنا أبداً فلا كلمة ولا نفس ولا نظرة يجب أن تكشف سرّنا وإنما يجب أن يكون كل شيء سراً مكتوماً كالقبر فلا تعجبي من ثم حتى إذا رأيتني أبدو -بالمقارنة- باردة مع آرثر أو يبدو آرثر -بالمقارنة- بارداً معي لأن لدينا أسباباً خطيرة ويكفي أن كلانا يفهم الآخر.. صه!

كل هذا قالته فورا في حماسة شديدة وكأنما هي حقاً تؤمن به. ولم يكن ثمة شك كبير في أنه حين تدفع نفسها إلى مثل هذه الحالة الأسطورية تؤمن فعلاً بكل ما تقوله عندئذ.

وكررت فلورا القول:

- صه! لقد ذكرت لك الآن كل شيء، واستقرت الثقة المتبادلة بيننا تماماً صه، ومن أجل آرثر سأكون دائماً صديقة لك يا ابنتي العزيزة وباسم آرثر يمكنك أن تعتمدي عليّ دائماً.

ووضعت الأصابع الرشيقة العمل جانباً، ونهضت الفتاة الصغيرة وقبّلت يدها فقالت لها فلورا وقد عادت إلى طيبة قلبها الطبيعية حيث استفادت جداً من هذا التغير:

- إنك باردة جداً. لا تشتغلي اليوم وأنا واثقة أنك لست على ما يرام وواثقة أنك لست قوية البنية.

- الأمر فقط يرجع إلى شعوري بأني قد غمرت إلى حد الارتباك بعطفك وعطف السيد كلينام الذي عهد بي إلى واحدة يعرفها ويحبها منذ مدة طويلة.

وقالت فلورا التي كان لها ميل محدد لأن تكون دائماً صادقة مع نفسها إذا أتاحت لهذه النفس الفرصة لأن تفعل هذا.

- حسناً جداً يا عزيزتي. ويحسن كذلك أن تتركي هذا الآن وشأنه، لأني لا أستطيع أن أقول كل شيء، ولكن هذا لا يمنع من أن تنامي قليلاً!

فقالت دوريت الصغيرة بابتسامة شاحبة:

- إن لي من القوة ما يكفي لأن أفعل ما أريد أن أفعله دائماً، وسوف أكون في حالة طيبة حالاً. لقد غمرتني بجميلك، هذا هو كل شيء. وإذا بقيت بجوار النافذة قليلاً فسوف أسترد هدوئي.

وفتحت فلورا النافذة، وأجلستها على مقعد بجوارها، وانسحبت بلباقة إلى مكانها الأول. وكان يوماً كثير الهواء، ومن ثم سرعان ما أنعش الهواء وجه دوريت الصغيرة وهو يرفرف عليها. وخلال لحظات قليلة جداً عادت إلى سلة عملها، وظلت أصابعها الرشيقة كالعهد بها دائماً.

وفي أثناء قيامها بالعمل بهدوء سألت فلورا هل أخبرها السيد كلينام أين تقيم؟ ولما أجابت فلورا بالنفي، قالت دوريت الصغيرة إنها تدرك لماذا التزم الرقة في هذا الشأن، ولكنها تشعر عن يقين أنه سيوافقها حين تفضي بسرّها إلى فلورا، وأنها من ثم ستفعل هذا بعد إذن فلورا. ولما تلقت إجابة مشجعة، ركزت قصة حياتها في كلمات قليلة عن نفسها، وأسهبت في الحديث الطيب عن أبيها، وأنصتت فلورا إلى هذا بحنان طبيعي ينم عن فهم الموقف ودون أن يكون فيه أي شرود ذهني.

ولما حان موعد الغداء، وضعت فلورا ذراع عهدتها الجديدة في ذراعها، وصحبتها هابطة السلم إلى الطابق الأسفل حيث قدمتها إلى

البطريرك والسيد بانكس اللذين كانا فعلاً في غرفة الطعام يستعدان للبدء فيه، وكان غداء عمة السيد «ف» أُعِدَّ كالمعتاد في غرفتها. وكان استقبال كل من هذين السيدين لدوريت مطابقاً لشخصيته. فبدا على البطريرك أنه يسدي إليها أجلّ خدمة بقوله إنه سعيد برؤيتها... أما السيد بانكس فقد أرسل نفخته المعتادة على سبيل التحية.

وكان لدوريت في هذا الجو الجديد أن تشعر بأشد الخجل أياً كانت الظروف لا سيما بسبب إلحاح فلورا عليها لتتناول كأساً من الخمر وتأكل أحسن ما يُقدَّم إليها. ولكن شعورها بالحرج ازداد إلى حد كبير بسبب السيد بانكس. فقد كان سلوك ذلك السيد يوحي إلى ذهنها في أول الأمر أنه قد يكون من الذين يلتقطون صور غيرهم، ذلك لأنه كان يمعن النظر إليها، كما كان يرمق بين الحين والآخر المفكرة الصغيرة الموضوعة بجانبه. ولكن عندما لاحظت أنه لا يرسم شيئاً، وإنما راح يتحدث عن شؤون العمل فقط، بدأت الشكوك تخامرها في أنه يمثل بعض دائني أبيها، وأن قيمة الديون الخاصة بهم مرصودة في تلك المفكرة. وعلى هذا الاعتبار كانت نفخات السيد بانكس تعبر عن الضيق ونفاد الصبر، وكل نخرة عالية غدت مُطالِبة بالدفع.

ولكنها مرة أخرى لم تلبث أن خدعت بتصرفات السيد بانكس نفسه، التي تنم عن التناقص والشذوذ. وكانت قد نهضت عن المائدة منذ نصف ساعة وعاد إلى العمل بمفردها. وكانت فلورا قد ذهبت «الترقد قليلاً» في الغرفة المجاورة حيث تصادف أن فاحت، بعد انسحابها، رائحة شراب في أنحاء المنزل.

وكان البطريرك مستغرقاً في النوم وفمه الذي ينطق بالبر مفتوحاً تحت منديل أصفر في غرفة الطعام. وفي هذه الفترة الهادئة ظهر السيد بانكس أمامها برفق، وأومأ لها برأسه في ثورة وهو يقول في صوت خافت:

- أتشعرين بالسأم قليلاً هنا يا آنسة دوريت؟

فقالت دوريت الصغيرة:

- لا، شكراً يا سيدي.

فعاد السيد بانكس يقول وهو يتسلل إلى الغرفة ببطء:

- إنك مشغولة كما أرى. ما هذه الأشياء يا آنسة دوريت؟

- مناديل.

فقال بانكس:

- أهي كذلك حقاً؟ لم أكن أظن أنها كذلك.

ولم يكن بأي حال ينظر إلى المناديل، وإنما إلى دوريت الصغيرة وقد استطرد يقول:

- لعلك تتساءلين من أكون، هل أخبرك؟ إنني قارئ طالع.

وبدأت دوريت الصغيرة عندئذ تظن به الجنون. وعاد بانكس يقول:

- إنني مملوك جسماً وروحاً لمخدومي. وقد رأيت مخدومي وهو يتناول طعام الغداء في الطابق الأسفل. ولكنني أقوم بقليل من قراءة الطالع أحياناً، وبصفة خاصة... بصفة خاصة جداً يا آنسة دوريت.

ونظرت دوريت الصغيرة إليه في ريبة لا تخلو من الجزع، بينما أردف هو قائلاً:

- أرجو لو أمكن أن تقدمي لي كف يدك، فإني أحب أن ألقي عليه نظرة ولا تجعليني أشعر أني مزعج لك.

ولكنه كان مزعجاً بحيث تمنت لو لم يكن بالغرفة؛ إلا أنها وضعت عملها في حجرها برهة ثم مدت يدها اليسرى وقمع الخياطة «الكستبان» فيها.

وقال بانكس وهو يلمس كفها بسبابته الباردة في رفق:

- إن طالعك طالع كدح وعمل، هه! ولكن لأي شيء غير هذا خُلِقنا؟ لا شيء. هاللو...

وأردف قائلاً وهو يحملق في الخطوط:

- ما هذه القضبان؟ إنها سجن. وما هذا الجلباب الرمادي والقلنسوة السوداء؟ إنه الوالد. وما هذه الكلاريونيت؟ إنها العم. وما حذاء الرقص هذا! إنه الأخت. ومن هذا الضليل هنا وهناك في بلادة وخمول؟ إنه الأخ. ومن هذا الذي يفكر من أجلهم جميعاً؟ عجباً! إنه أنت يا آنسة دوريت.

والتقت نظراتها بنظراته حين رفعت عينيها إليه في عجب، وقد خطر لها أنه، رغم حدة نظراته، يبدو أكثر رقة وبشاشة مما كانت تظن عندما رأته في أثناء طعام الغداء. وتركزت عيناه مرة أخرى على كفها، ومن ثم ضاعت الفرصة لتأكيد أو تصحيح هذا الإحساس عنه.

وعاد السيد بانكس يقول وهو يتتبع خطاً في كفها بإصبعه الغليظ:

- والآن ليكن الشيطان هنا إذا لم أكن أنا في هذا الركن. ماذا أريد هنا؟ ماذا يكمن ورائي؟

ومضى بإصبعه في بطء على معصمها، وحول المعصم، متظاهراً بالنظر إلى ظاهر اليد ليرى ما وراءها.

وسألته دوريت الصغيرة باسمة:

- هل ثمة ضرر؟

فقال بانكس:

- بعض سوء الحظ! ما قيمة هذا في رأيك؟

- ينبغي أن أسألك هذا. فلست أنا قارئة الطالع.

فقال بانكس:

- صدقت! ما قيمة هذا؟ لسوف تعيشين لتري يا آنسة دوريت.

وبعد أن أطلق اليد في بطء تدريجي، دسّ كل أصابعه في شوائك شعره حتى انتصبت في كامل وضعها، وعاد يقول ببطء:

- تذكري ما أقول يا آنسة دوريت. سوف تعيشين لتري.

ولم يسعها إلا أن تظهر دهشتها البالغة، ولو لمجرد معرفته لكل هذا عنها. وأشار هو نحوها قائلاً:

- آه! لا.. ليس هذا ما أريد يا آنسة دوريت. إطلاقاً.

وتطلعت إليه وهي أكثر دهشة مما كانت، وفي شيء من الخوف كأنها تريد منه تفسيراً لكلماته الأخيرة.

فقال بانكس وهو يقلد -في جد بالغ- نظرتها وتصرفاتها التي تنم عن الدهشة، وكان تقليده يبدو عجيباً غريباً:

- ليس هذا. لا تفعلي هذا، لا تفعلي هذا عندما تريني في أي مكان أو في أي وقت. فأنا لا شيء. لا تهتمي بأمري، ولا تتحدثي عني، ولا تبالي بي. هل توافقين يا آنسة دوريت؟

فردّت الصغيرة دورت قائلة وهي مندهشة تماماً:

- إنني لا أكاد أدري ماذا أقول، لماذا؟

- لأنني قارئ طالع. بانكس الغجري. إنني لم أذكر لك بعد الكثير عن طالعك يا آنسة دوريت، كما لم أذكر لك ما ورائي في ظاهر يدك هذه الصغيرة لقد قلت لك سوف تعيشين لتري. هل اتفقنا يا آنسة دوريت؟

- اتفقنا على أنني...

- على أنك لا تبالين بأمري خارج هذا المكان إلا إذا بدأت أنا. لا تحفلي بي عندما أحضر أو أتصرف. وهذا أمر سهل جداً. فأنا لا أفتقد ولست بالوسيم ولا بالعشير الكريم، إنني فقط آلة تحصيل في يد مخدومي ولا حاجة بك لأكثر من أن تقولي لنفسك «آه، هذا هو بانكس الغجري في قراءته للطالع. لسوف يخبرني ببقية طالعي ذات يوم. لسوف أعيش لأعرفه» هل اتفقنا يا آنسة دوريت.

فقالت دوريت الصغيرة في تردد بعد أن أربكها إلى حد كبير:

- أجل... أعتقد هذا ما دمت لا تسيء إلى أحد.

- حسناً!

ثم ألقى نظرة على جدار الغرفة المجاورة وانحنى إلى الأمام مردفاً:

- مخلوقة كريمة، وسيدة ذات مبادئ، ولكنها عديمة الاكتراث كثيرة الكلام يا آنسة دوريت.

ثم فرك يديه كأنها كانت المقابلة مُرْضية جداً في نظره، ومضى نحو الباب بأنفاسه اللاهثة، وأومأ برأسه متودداً وخرج.

وإذا كانت دوريت الصغيرة قد شعرت بأبلغ الحيرة من هذه التصرفات الصادرة من هذا الصاحب الجديد، ومن إيجاد نفسها طرفاً في هذه الاتفاقية العجيبة، فإن حيرتها لم تخف بالظروف التي أعقبت هذا كله. ففضلاً عن انتهاز السيد بانكس كل فرصة متاحة له في بيت السيد

كاسبي لكي يرسل إليها نظراته ونفخاته التي لها دلالتها -وإن لم يكن هذا بالشيء الكثير بعد الذي صدر منه- فإنه بدأ في الاختلاط بحياتها اليومية. فكانت تراه في الشارع باستمرار. وإذا ذهبت إلى بيت السيد كاسبي، كان هو دائماً هناك، وعندما تذهب إلى بيت السيدة كلينام، يمضي هو إليه زاعماً أي شيء وكأنما لتبقى دائماً تحت رقابته. وكان قد مر أسبوع عندما رأته ذات ليلة -لدهشتها- عند البوابة يتحدث مع الحارس المناوب الذي دلت جميع الظواهر على أنه واحد من معارفه الودودين. وكانت دهشتها التالية أن وجدته مألوفاً داخل السجن، إذ سمعت أنه يقدم نفسه مع بقية الزائرين في حفلة الاستقبال التي يقيمها أبوها كل يوم أحد، كما رأته يسير وذراعه في ذراع صديق من نزلاء السجن في الفناء، كما علمت -عن طريق الأقوال المتواترة- أنه ظفر بنجاح ضخم ذات ليلة بين أعضاء النادي الاجتماعي الذين يجتمعون في الاستراحة، وذلك بالحديث الذي ألقاه عليهم عن السجن، وبالأغنية التي غناها، وبالجالونات الخمسة من البيرة التي وزعها على المجتمعين، وتقول الإشاعات المجنونة إنه وزع أيضاً نحو خمس وعشرين أقة من الجمبري. وكان تأثير هذه الظواهر على السيد بلورنيش عندما كان يراها في أثناء زياراته الوفية للسجن، قد ترك في نفس دوريت الصغيرة من الأثر ما لا يضارعه إلا هذه الظواهر نفسها. لقد بدا أن هذه الظواهر قد جمدته وعقدت لسانه فكان لا يستطيع إلا أن يحملق، وفي أحيان قليلة يغمغم أن سكان حوش بليدنج هارت ما كانوا ليصدقوا أن هذا هو بانكس، ولكنه لم يكن ينطق بكلمة أكثر من هذا، أو يأتي بحركة أكثر من هذا حتى للصغيرة دوريت. وتوّج السيد بانكس تصرفاته الغامضة هذه بالتعرف على تيب بطريقة مجهولة، وسار متمشياً ذات يوم أحد مع ذلك السيد في فناء السجن واضعاً ذراعه في ذراعه. وخلال هذا كله لم يكن يهتم إطلاقاً بدوريت الصغيرة إلا مرة أو مرتين عندما حدث وكان قريباً منها، ولم يكن ثمة أحد بالقرب منها، إذ قال

وهو يمر بجانبها مرسلاً نظرة مودة ونفخة تشجيع «بانكس الغجري قارئ الطالع».

وظلت دوريت الصغيرة تعمل وتكدح كالمعتاد، متعجبة لهذا كله، ولكنها احتفظت بعجبها هذا، كما كانت تفعل منذ صباها في الاحتفاظ بأعبائها الثقال داخل صدرها. وكان ثمة تغيير قد تسلل، وظل متسللاً، إلى ذلك القلب الصبور. فكانت تبدو في كل يوم أكثر انطواءً عما كانت في اليوم سابق. وكانت أهم رغباتها -في نظرها- أن تدخل السجن أو تخرج منه دون أن يشعر بها أحد، وأن تمضي في أي مكان آخر دون أن يلمحها أحد.

وكانت تشعر بالرضا أيضاً حين تأوي إلى غرفتها -وما أعجبها من غرفة ملائمة لرقّتها وطبيعتها الشابة- كلما أمكنها دون إهمال لواجباتها. وكان ثمة أوقات بعد الظهر، عندما تكون خالية من العمل، وعندما يأتي الزائرون للعب الورق مع أبيها، حيث يمكنها أن تتفرغ لنفسها. وعندئذ تنفلت عبر الفناء، وتصعد درجات السلّم إلى غرفتها وتأخذ مكانها بجوار النافذة. وكم من الصور المتوافقة كانت تتخذها تلك الشوائك فوق جدار السجن، وكم من الأشكال الخفيفة كانت تلك القضبان تنسج نفسها فيها، وكم من اللمسات الذهبية كانت تتساقط على الصدأ، كل هذا في أثناء جلوس دوريت الصغيرة مشغولة الفكر. وكان ثمة صور متعرجة جديدة تتحول أحياناً إلى أشكال قاسية عندما تراها من خلال نوبة الدموع. ولكن سواء كانت تلك الصور جميلة أو قاسية، فلم يكن يسعها إلا أن تنظر إليها في أثناء وحدتها، وتطوف بنظراتها فوقها وتحتها وخلالها رائية كل شيء بذلك الطابع الثابت.

كانت غرفة دوريت الصغيرة مجرد علية «غرفة عليا»، وعلية في سجن مارشاليزا. ورغم جمال ترتيبها، فقد كانت في ذاتها رديئة، ولم يكن يميزها غير النظافة والهواء الطلق. ذلك لأن كل قطعة زينة يمكن أن

تشتريها كانت تحملها إلى غرفة أبيها. ومع هذا فقد كانت تشعر نحو هذه الغرفة البائسة بحب متزايد، وكان الجلوس فيها بمفردها قد أصبح من ألوان الراحة الأثيرة لديها.

وعلى هذا النحو حدث ذات يوم بعد الظهر، في أثناء تصرفات بانكس الغامضة أن كانت جالسة إلى نافذة غرفتها عندما سمعت خطوات ماجي المعروفة لديها جيداً تصعد السلّم. وأحست بأشد القلق خشية أن تكون ماجي آتية لاستدعائها. وكلما ازدادت خطوات ماجي صعوداً واقتراباً، ازدادت رعشتها وارتباكها. وقد بلغ من اضطرابها أنها لم تستطع أن تقول شيئاً عندما ظهرت ماجي أخيراً.

وقالت وهي تلهث:

- أرجوك يا أمي الصغيرة. يجب أن تنزلي لتريه. إنه هنا.

- من يا ماجي؟

- من! السيد كلينام طبعاً. إنه في غرفة والدك. وقد قال لي: ماجي، هل تتكرمين وتذهبين لتقولي إنني حضرت.

- إنني لست على ما يرام يا ماجي، ويحسن ألا أنزل. لسوف أرقد لأنام أنظري إنني أرقد الآن لأريح رأسي. أرجوك أن تقولي له إنك تركتني هكذا وإلا لذهبت إليه.

فقالت ماجي المحملقة:

- حسناً! ليس من اللياقة يا أمي الصغيرة، أن تديري وجهك!

وكانت ماجي شديدة الحساسية ضد الامتهانات الشخصية، وبارعة جداً في ابتداعها، ومن ثم أردفت قائلة:

- أو تضعين يديك على وجهك أيضاً؟ إذا كنت لا تحتملين النظر إلى شيء مسكين مثلي، فالأنسب أن تقولي لها هذا فوراً، دون أن تنبذيها

هكذا وتجرحي مشاعرها وتحطمي قلبها وهي لا تزال في العاشرة من عمرها.. المسكينة.

- إنني أفعل هذا لأريح رأسي يا ماجي.

فقالت ماجي بلهجة عتاب:

- حسناً، إذا كنت تبكين لتريحي رأسك يا أمي الصغيرة فدعيني أبكي أنا أيضاً. لا تنفردي بالبكاء لنفسك. ألا يعتبر هذا جشعاً..

ثم سرعان ما راحت تنشج بالبكاء.

وقد أمكن بشيء من الصعوبة إغراؤها للعودة بذلك العذر -ولكن الوعد بسرد قصة عليها، وهي إحدى متعها الكبيرة منذ طفولتها- بشرط أن تركز كل حواسها في مهمتها، وأن تترك سيدتها الصغيرة لشأنها لمدة ساعة أخرى، مع خوف ماجي من أن تكون قد تركت طبيعتها الطيبة في بئر السلّم، قد أتى ثمره. وهكذا انطلقت وهي تردد لنفسها طيلة الطريق مضمون الرسالة لتستوعبه في ذهنها، ثم عادت في الوقت المحدد وأعلنت قائلة:

- أستطيع أن أقول لك إنه كان شديد الأسف. وقد أراد أن يرسل طبيباً، ولسوف يعود غداً مرة أخرى. أؤكد لك، ولست أظن أنه سينام مستريحاً الليلة بعد أن سمع عن رأسك يا أمي الصغيرة. أوه، ويحي هل كنت تبكين؟

- أظن أني بكيت قليلاً يا ماجي.

- قليلاً؟ أوه!

- ولكن كل شيء انتهى الآن.. انتهى إلى خير يا ماجي. وإن رأسي الآن أحسن كثيراً وأهدأ. وإني مستريحة تماماً وسعيدة لأني لم أنزل.

وعانقتها طفلتها الضخمة المندهشة بحنان؛ وبعد أن سوّت لها شعرها وغسلت جبينها وعينيها بالماء البارد -وهي مهمة تعودت يداها الغليظتان القيام بها في براعة- عادت تعانقها وتحضنها وهي منتشية بما بدا على وجه دوريت من بشاشة، ثم أجلستها في مقعدها بجوار النافذة. وفي مواجهة هذا المقعد، وبمجهودات منتشية، لم يكن ثمة حاجة إليها، جرّت الصندوق الذي كانت تتخذه مقعداً لها في مناسبة إنصاتها للقصص، وجلست عليه، واحتضنت ركبتيها بذراعيها، وقالت بشهية عارمة نحو القصص وبعينين محملقتين:

- والآن يا أمي الصغيرة، هيا إلى قصة حلوة.

- عن أي شيء ستكون يا ماجي؟

فقالت ماجي:

- لتكن عن أميرة! ولتكن أميرة رائعة. تفوق كل خيال كما تعلمين.

وفكرت دوريت الصغيرة برهة، ثم بدأت الحديث وقد ارتسمت على وجهها المضطرم بالشمس الغاربة، ابتسامة حزينة:

- ماجي، كان فيما كان ملك جميل، وكان لديه كل ما يتمناه وأكثر كثيراً. كان لديه الذهب والفضة والماس والياقوت والكنوز من كل نوع. وكان لديه القصور و...

فقاطعتها ماجي قائلة وهي لا تزال تحتضن ركبتيها:

- والمستشفيات. وليكن له مستشفيات، لأنها جد مريحة. مستشفيات فيها كثير من الدجاج.

- نعم. كان لديه الكثير منها، والكثير من كل شيء.

فقالت ماجي:

- الكثير من البطاطس المشوية مثلاً؟

- الكثير من كل شيء.

فأرسلت ماجي ضحكة خفيفة وهي تزيد ما احتضان ركبتيها قائلة:

- مرحى! أليس هذا رائعاً!

- وكان للملك ابنة كانت أعقل وأجمل أميرة في الوجود. وعندما كانت طفلة فهمت جميع دروسها قبل أن يعلمها إياها مدرسوها. ولما كبرت كانت أعجوبة العالم. وقد حدث أن كانت بالقرب من القصر الذي تعيش فيه هذه الأميرة كوخ تقيم فيه امرأة صغيرة الجسم فقيرة. وكانت تقيم فيه بمفردها.

فقالت ماجي وهي تلعق شفتيها:

- امرأة عجوز.

- لا. لم تكن عجوزاً، وإنما شابة تماماً.

فقالت ماجي:

- ترى ألم تكن خائفة. استمري أرجوك.

- وكانت الأميرة تمر بالكوخ كل يوم تقريباً. وكلما مرّت به في مركبتها الجميلة، رأت المرأة الصغيرة الفقيرة جالسة تعمل على مغزلها، فكانت تنظر إلى المرأة الصغيرة والمرأة الصغيرة تنظر إليها. وهكذا حدث ذات يوم أن أوقفت الأميرة مركبتها على مسافة يسيرة من الكوخ، وهبطت منها، وسارت إليه واختلست النظر من بابه إلى الداخل، وهناك رأت، كالمعتاد، المرأة الصغيرة جالسة تعمل على مغزلها، ونظرت هذه إلى الأميرة، ونظرت الأميرة إليها.

فقالت ماجي:

- كأنما تحاول كل منهما أن تجعل الأخرى تطرف أولاً. أرجوك أن تستمري يا أمي الصغيرة.

- وكانت الأميرة أميرة رائعة لديها القدرة على كتم الأسرار، وقد قالت للمرأة الصغيرة: لماذا تحتفظين به هناك. وقد بيّن هذا السؤال أن الأميرة تعرف لماذا تعيش المرأة الصغيرة بمفردها في الكوخ عاملة على مغزلها، وقد ركعت هذه عند قدمي الأميرة والتمست منها ألا تكشف سرها. ومن ثم قالت الأميرة إنني لن أكشف سرك أبداً. دعيني أره. وعندئذ أغلقت المرأة الصغيرة المصراع الخشبي لنافذة الكوخ، وأحكمت إغلاق الباب، ثم فتحت -وهي ترتعد من قمة رأسها إلى قدميها خشية أن يشك فيها أحد- باباً لمكان سري جداً، وأطلعت الأميرة على شبح.

فقالت ماجي:

- ويحي!

- وكان شبح شخص مات منذ أمد بعيد... شبح شخص ذهب بعيداً ولن يعود أبداً. وكان مشرقاً عند النظر إليه. وكانت المرأة فخورة به من صميم قلبها على أنه كنز عظيم. وبعد أن تأملته الأميرة قليلاً، قالت للمرأة الصغيرة: وهل أنت تحرسين هذا كل يوم؟ فأغضت ببصرها وهمست قائلة: نعم. وعندئذ قالت الأميرة: اذكري لي السبب. وعلى هذا أجابت الأخرى لأنه لم يحدث أن مرّ أحد في ذلك الطريق مثله في الكرم والشهامة، وكان ذلك في بداية الأمر. وقالت أيضاً إن أحداً لا يفتقده، وإن أحداً لا يتضرر منه، وإن ذلك الشخص قد ذهب إلى أولئك الذين كانوا ينتظرونه...

فقاطعتها ماجي قائلة:

- إذن فقد كان ذلك الشخص رجلاً.

وقالت دوريت الصغيرة بوداعة: نعم، إنها تعتقد هذا، ثم استطردت قائلة:

- لقد ذهب إلى أولئك الذين كانوا ينتظرونه، وإن ذلك التذكار قد سرق أو احتفظ به دون الجميع. وقالت الأميرة آه! وعندما يموت صاحب الكوخ سوف يكتشف التذكار فيه! فقالت المرأة الصغيرة لا، فعندما يحين ذلك الوقت سوف يهبط التذكار بهدوء إلى قبره حيث لن يعثر عليه أحد قط.

فقالت ماجي:

- آه، بالتأكيد. أرجوك أن تستمري.

- وقد دهشت الأميرة جداً عند سماعها هذا كما قد تظنين يا ماجي!

فقالت ماجي: طبعاً...

- وهكذا قررت أن تراقب المرأة الصغيرة وترى ما سوف يحدث. وفي كل يوم كانت تمر بالكوخ في مركبتها الجميلة وترى المرأة الصغيرة جالسة دائماً بمفردها تعمل على مغزلها. وكانت تنظر إلى المرأة الصغيرة والمرأة الصغيرة تنظر إليها. وأخيراً حدث ذات يوم أن رأت عجلة المغزل واقفة، ولم يكن ثمة أثر للمرأة الصغيرة. ولما قامت الأميرة بالسؤال عن سبب وقوف حركة المغزل، وأين ذهبت المرأة الصغيرة، قيل لها إن المغزل توقف عن العمل لأنه ليس هناك من يعمل عليه بعد أن ماتت المرأة الصغيرة.

وقالت ماجي:

- كان ينبغي أن يأخذوها إلى المستشفى، وعندئذ كانت تشفى من المرض.

- وبعد أن بكت الأميرة قليلاً جداً على فَقْد المرأة الصغيرة، جففت دموعها وهبطت من المركبة عند المكان الذي سبق أن أوقفتها فيه، ومضت إلى الكوخ واختلست النظر إليه من الباب. ولم يكن ثمة أحد الآن ينظر إليها، أو تنظر إليه، ومن ثم دخلت فوراً لتبحث عن الشبح المكتنز. ولكنها لم تجد له أثراً في أي مكان، وعندئذ علمت أن المرأة الصغيرة أصدقتها القول، وأن الشبح لن يزعج أحداً، وأنه هوى بهدوء إلى قبره، وأنه وهي قد استقرا في مثواهما الأخير. هذا هو كل شيء يا ماجي.

وكان الضوء الأحمر للشمس الغاربة ينعكس على وجه دوريت الصغيرة عندما وصلت هكذا إلى نهاية قصتها، مما جعلها ترفع يد لتحجبه عنها.

وسألت ماجي قائلة:

- هل كان يجب أن تكون عجوزاً؟

- المرأة الصغيرة؟

- آه!

فقالت دوريت الصغيرة:

- لا أدري. ولكن الأمر كان سيبقى كما هو حتى لو ظلت المرأة عجوزاً إلى الأبد.

- أحقاً! حسناً. أعتقد أن الأمر كما تقولين.

ثم جلست تحملق وتفكر.

وظلت جالسة فترة طويلة شاخصة النظر حتى رأت دوريت الصغيرة أن تبعدها عن صندوقها، فنهضت هي وراحت تطل من النافذة. وفيما كانت تلقي بنظراتها إلى الفناء، رأت بانكس يدخل إليه ويختلس النظر إليها بركن عينه وهو يمر فيه.

وقالت ماجي التي كانت قد انضمت إلى دوريت الصغيرة وراحت تميل على كتفها عند النافذة:

- من هذا يا أمي الصغيرة! إني أراه يأتي ويذهب كثيراً.

فقالت دوريت الصغيرة:

- سمعت أنه يدعى قارئ الطالع. ولكنني أشك فيما إذا كان هل يستطيع أن يذكر الكثير من الناس شيئاً عن ماضيهم أو حاضرهم.

فقالت ماجي:

- ألم يكن في مقدوره أن يذكر للأميرة طالعها؟

ونظرت دوريت الصغيرة مفكرة في غياهب السجن المظلمة، ثم هزت رأسها، فقالت ماجي:

- ولا طالع المرأة الصغيرة؟

فقالت دوريت الصغيرة وأشعة الشمس الغاربة تتألق عليها بسطوع شديد:

- لا. ولكن هيّا نبتعد عن النافذة.

* * *

متآمرون، وغيرهم

كان المسكن الخاص للسيد بانكس يقع في بنتوفيل حيث كان يقيم في الطابق الثاني لرجل من رجال الأعمال -أعمال في أضيق نطاق- كان لمسكنه باب داخلي غير باب الشارع، قائم على زنبرك، وينفتح بصوت يشبه صوت الفخ، وكان يضع على واجهة المسكن هذه اللافتة المضيئة «راج: مندوب عام، ومحاسب، ومحصِّل ديون».

وكانت هذه اللافتة، المهيبة ببساطتها، تضيء حديقة أمامية صغيرة تطل على طريق زراعي مترب حيث كانت أوراق الشجر المليئة بالغبار تعيش مختنقة مدلاة الرؤوس. وكان يقيم في الطابق الأول أستاذ خطاط كان يزين سياج الحديقة بلوحات زجاجية لنماذج خطية مختارة تبين كيف كان تلاميذه قبل ستة دروس، ثم كيف أصبحوا بعد هذه الدروس الستة، وكان سكن السيد بانكس محدوداً بغرفة نوم واحدة كبيرة، وكان قد تفاوض واتفق مع السيد راج -صاحب المسكن- على أنه مقابل زيادة معينة ومحددة في الإيجار -له الحق في تناول الطعام مع الأسرة أيام الآحاد، على أن يكون هذا الطعام إفطاراً، أو غداءً، أو شاياً أو عشاءً كل وجبة على حدة، أو كلها مجتمعة، خفيفة أو كاملة. وأن يكون هذا مع السيد والآنسة راج «ابنته» في غرفة الاستقبال الخلفية.

وكانت الآنسة راج سيدة لا تملك إلا القليل الذي حصلت عليه -مع شهرة واسعة في المنطقة- عن طريق قلبها الذي تحطم بعنف وعواطفها التي تمزقت على يد خباز متوسط العمر، مقيم في المنطقة؛ وكانت قد اضطرت إلى أن ترفع عليه دعوى -بوساطة مكتب السيد راج والدها- مطالبة فيها بتعويض عن خسائرها التي سببها لها حين نكث بوعده للزواج منها. ولم تقتصر محنة الخباز على اضطراره إلى دفع المبلغ الذي حكم به عليه ومقداره عشرون جنيهاً، وباعتباره المسؤول عما أصاب الآنسة راج من أضرار، وإنما ضل يعاني الشيء الكثير من مضايقات شبان بنتوفيل. أما الآنسة راج، التي تمتعت بجلال القانون والتي استثمرت المبلغ في سندات الائتمان العام، فقد أصبحت موضع التقدير والاعتبار.

وفي أثناء الإقامة مع السيد راج الذي كان له وجه أبيض مستدير كأنما انسحبت منه دماء الخجل منذ مدة طويلة والذي كانت رأسه ذات الشعر الأصفر المشعث كمكنسة مدفأة قديمة، وفي أثناء الإقامة مع الآنسة راج التي كانت البقع الصغيرة الشبيهة بأزرار القميص تملأ وجهها، والتي كانت جدائلها الصفراء أقرب إلى الرثاثة منها إلى الفخامة؛ في أثناء إقامة السيد بانكس مع هذين الشخصين، كان عادة يتناول غداءه معهما أيام الآحاد منذ أعوام قليلة، وكان يتمتع مرتين في الأسبوعين أو نحو ذلك بوجبة مسائية مكونة من الخبز والجبن الهولندي والخمر. وكانت الآنسة راج لا تشعر بأي خوف على نفسها من السيد بانكس باعتباره أحد القليلين جداً الصالحين للزواج. وكان هو متحصناً ضدها بهذه الفكرة المزدوجة «إن ما حدث لن يتكرر» و«إنه لا يستحق أن تهتم بأمره» ومن ثم راح -وهو محصن بهذا الدرع المزدوج- يقيم مع الآنسة راج على وفاق.

وكان حتى ذلك الحين لم يستغل غرفته في بنتوفيل في قليل من العمل أو في أي عمل قط، إلا في النوم. أما وقد أصبح الآن قارئ الطالع،

فإنه كثيراً ما كان ينفرد بعد منتصف الليل مع السيد راج في غرفة المكتب الأمامية، وحتى بعد هذه الساعات غير المناسبة، كان يسهر في غرفة نومه على ضوء الشموع. ورغم أن أعماله كمحصل لأموال مخدومه لم تقل، ورغم أن هذا العمل لم يكن مفروشاً بالورد بقدر ما هو مفروش بالأشواك، فإن نوعاً جديداً من الأعمال كان يثقل كاهله دائماً. ومن ثم فإنه ما إن يفرغ من أعماله الخاصة بالبطريرك ليلاً، حتى يبدأ في عمل آخر.

وكان الانتقال من معرفة السيد شيفري الوالد، إلى معرفة السيدة شيفري اللطيفة والابن الحزين، قد يبدو عملاً سهلاً؛ ولكن سواء كان سهلاً أو غير سهل، فسرعان ما قام به السيد بانكس. لقد استقر في حضن تجارة التبغ خلال أسبوع أو أسبوعين من ظهوره لأول مرة في السجن. وقد حرص بوجه خاص على أن يوطد علاقته ويحسن التفاهم مع الشاب جون. وفي هذه المحاولة أمكنه أن ينجح في استدراج ذلك الشاب المحزون من عزلته، وإغرائه على القيام ببعض المهام السرية التي كان بسببها قد بدأ يختفي في فترات غير محدودة ولمدد قد تطول إلى يومين أو ثلاثة. وكان يمكن للسيدة شيفري -الفطنة- والتي تعجبت كثيراً لهذا التغيير أن تحتج على تعطل العُمّال في المتجر. ولكنها لم تفعل لسببين قويين أولاً: لأن ابنها جون قد نشط إلى الاهتمام الكبير بهذا العمل الذي كان المفروض أن تكون نوبات غيابه بداية له -وقد رأت أن هذا شيء مفيد لروحه المعنوية الهابطة. وثانياً: لأن السيد بانكس واثق -فيما بينه وبينها- على أن يدفع لها -مقابل استغلاله لأوقات ابنها- مبلغاً محترماً بمعدل سبعة شلنات ونصف شلن في اليوم. وكان هو الذي فكر في هذا الاقتراح وعرضه بهذه الشروط المرضية قائلاً: «إذا كان ابنك يا سيدتي أضعف من أن يقبل هذا الأجر، فليس ثمة ما يدعو لأن ترفضي أنت، ألا ترين. والشغل بيني وبينك يا سيدتي شغل. هذا هو المبلغ».

أما ماذا كان رأي السيد شيفري في هذه الشؤون، أو ماذا كان يعرف عنها على وجه التحديد، فإنه لم يذكر هذا بنفسه قط. وقد سبق القول إنه كان رجلاً قليل الكلام. ومن الممكن القول هنا إنه اكتسب عادة نابعة من مهنته وهي وضع كل شيء في مكان مغلق. وكان يغلق نفسه بنفس العناية التي يغلق بها السجن على المدينين. وحتى عاداته في تناول الطعام كانت جزءاً من عاداته العامة. ولكن لمن يكن ثمة شك -أياً كان الأمر- في أنه كان يحتفظ بفمه مغلقاً كما يحتفظ بباب السجن. إنه لم يكن يفتحه قط بغير مناسبة وإذا احتاج الأمر لأن يقول شيئاً، فإنه كان يفتحه قليلاً، ويبقيه مفتوحاً المدة الكافية لأداء الغرض، ثم يغلقه مرة أخرى. وكما كان يفعل لتوفير التعب عند بوابة السجن، وذلك حين كان يبقي زائراً يريد الانصراف بضع لحظات عندما يرى زائراً آخر مقبلاً في الفناء لينصرف ومن ثم يكون فتح الباب مرة واحدة كافياً لخروج الاثنين، كذلك كان يفعل عادة بالاحتفاظ بعبارة في نفسه إذا شعر أن هناك عبارة أخرى يريد أن يقولها حتى ينطق الاثنين معاً. وإذا كان في مقدور مفتاح بوابة السجن أن يكشف عن سلوك وسيرة الحراس الذين يعملون، فإن في مقدورنا أن نجد مفتاحاً يكشف عن سريرة السيد شيفري ويظهرها على وجهه.

أما السيد بانكس، فإنه لم يحدث في تاريخ إقامته بمنطقة بنتوفيل أن دعا أحداً للغداء معه. إلا أنه دعا ذات يوم الشاب جون، بل لقد أشرف به على حافة الخطر الناجم من سحر الآنسة راج بسبب إسرافه في إعداد الوليمة. وكان يوم الأحد قد تحدد موعداً للوليمة. وفي هذه المناسبة حشت الآنسة راج بيديها فخذ ضأن بالمحار وأرسلت به إلى الخباز -ليس الخباز إياه- وإنما خباز منافس له. وكذلك أعدت ألواناً من الطعام من البرتقال والتفاح والبندق. وأحضر السيد بانكس شراب الروم في مساء يوم السبت لإسعاد قلب الزائر.

على أن هذه الذخيرة من الترحيب المادي لم تكن المظهر الأساسي في استقبال الزائر. وإنما أهم مظهر في ذلك الاستقبال كان الجو العائلي الزاخر بالعطف والحنان، الذي افتقده منذ مدة طويلة. فعندما أقبل الشاب جون في النصف بعد الواحدة، دون عصاه ذات المقبض العاجي وصدريته ذات الوشي الذهبي، ووجهه المكسو بغيوم الأحزان، قدمه السيد بانكس إلى السيد راج وابنته بشعريها الأصفر، قائلاً إنه الشاب الذي كثيراً ما حدثها عن غرامه بالآنسة دوريت.

وقال السيد راج مركزاً حديثه بصفة خاصة على هذا الموضوع:

- إنني سعيد بهذه الفرصة الطيبة التي أدت بي إلى معرفتك يا سيدي. إن عواطفك تشرفك. وأنت شاب. ومن المحتمل أن تعيش حتى تنسى! وإذا كان لي أن أعيش حتى أنسى عواطفي الخاصة يا سيدي...

وكان السيد راج كثير الكلام، ومعتبراً من الذين يحسنون الحديث إلى غيرهم. وقد استطرد يقول:

- إذا كان لي أن أعيش حتى أنسى عواطفي، فإني مستعد أن أترك خمسين جنيهاً في وصيتي للرجل الذي يقضي على حياتي.

ولما تنهدت الآنسة راج، قال أبوها:

- هذه ابنتي يا سيدي. آنستاسيا، إنك لست جاهلة بظروف هذا الشاب العاطفية. إن لابنتي محناتها في هذا الشأن يا سيدي. ومن ثم فإن في مقدورها أن تفهم عواطفك.

ولم يسع الشاب جون إلا أن يعرب عن شكره وتقديره لهذا العطف البالغ الذي قوبل به. وعندئذ قال السيد راج:

- إن ما أحسدك عليه يا سيدي هو.. دعني أتناول قبعتك، إن المشاجب عندنا قليلة للأسف، ولهذا سأضعها في الركن ولن يدوس

عليها أحد، إن ما أحسدك عليه يا سيدي هو روعة عواطفك. إنني أنتمي إلى مهنة تفتقد فيها أحياناً هذه الروعة العاطفية.

وأجاب الشاب جون، بعد أن كرر شكره، إنه يرجو فقط أن يكون قد أدى واجبه، وقام بما يبين مدى تعلقه بالآنسة دوريت. إنه أراد ألا يكون أنانياً. وهو يرجو ألا يكون كذلك. أراد أن يفعل كل ما في وسعه ليخدم الآنسة دوريت، ومنها إبعاد نفسه عن نظرها، وهو يرجو أن يكون قد نجح في هذا. إن هذا أقل ما في وسعه أن يفعل، ويرجو أن يكون قد فعله.

فقال السيد راج آخذاً يده في يده:

- سيدي. إنك شاب يسعد الإنسان أن يتعرف به. إنك شاب أتمنى لو استطعت أن أضعك في قفص الشهود لكي تحول عقول المشتغلين بالقانون إلى النواحي الإنسانية. وأنا أرجو أن تكون قد جئت معك بشهيتك، وأن تنوي أن تجيد اللعب بالشوكة والسكين.

فقال جون:

- شكراً يا سيدي. إنني لا آكل كثيراً في الوقت الحاضر.

فانتحى السيد راج به جانباً وقال له:

- هذه نفس حالة ابنتي يا سيدي. فعندما تعرضت للاعتداء على عواطفها ومشاعرها النسوية، وأصبحت المدعية بالحق المدني في قضية راج، وهو كنز، كان في مقدوري يا سيد شيفري أن أقدم الدليل لو خطر لي أنه يستحق التقديم على ما نالها من ضرر، عن طريق كمية الطعام التي كانت ابنتي تأكلها في تلك الفترة والتي لم تكن تزيد عن عشر أوقيات في الأسبوع.

فقال جون في تردد وكأنما يرى أن في اعترافه شيئاً من العار:

- إن الأمر معي أسوأ من هذا قليلاً يا سيدي.

فقال السيد راج بابتسامة جدلية وحركة من يده:

- ولكن لم يكن في حالتك وحش في هيئة بشر. لاحظ هذا يا سيد شيفري، لم يكن ثمة وحش في هيئة بشر.

فقال الشاب جون:

- لا يا سيدي، بالتأكيد. ولا شك أني كنت سأحزن كثيراً لو كان فيها.

فقال السيد راج:

- إن العواطف هي ما ينبغي أن أتوقع أن أراها موفورة في مباذلك المعروفة. ولا شك أنها ستترك أثرها العميق في نفس ابنتي يا سيدي لو أنها سمعتها. وبما أني أرى أمامي فخذ ضأن، فإني سعيد لأنها لم تسمعها، وإلا لما أكلت شيئاً. أرجوك يا سيد بانكس، بهذه المناسبة، أن تجلس في مواجهتي، وأنت يا عزيزتي اجلسي في مواجهة السيد شيفري. وعسى أن نكون -والآنسة دوريت معنا- جد شاكرين لما سوف تنعم به الآن.

ولولا لمسة الفكاهة في حديث السيد راج الحاد وهو يلقي بهذه المقدمة للوليمة، لأمكن أن يظن أحد أن من المتوقع أن تكون الآنسة دوريت بينهم. وأدرك بانكس الفكاهة بطريقته العادية، وانقض على الطعام أيضاً بنفس طريقته العادية. وأقبلت الآنسة راج على فخذ الضأن -ربما بشهية الذي يريد أن يعوض ما فاته- وإذا الفخذة سرعان ما تغدو عظاماً. واختفت تماماً وبنفس السرعة كمية من الخبز المكسو بالزبدة وأعقبتها، بنفس الطريقة في الاختفاء، كمية كبيرة من الجبن والفجل، ثم جاء دور الحلوى.

وعندئذ أيضاً، وقبل تقديم الماء وشراب الروم، ظهرت مفكرة السيد بانكس وكانت الإجراءات العملية التي أعقبت هذا قصيرة وغريبة،

وأقرب في طابعها إلى نوع من التآمر. لقد راح السيد بانكس يتصفح مفكرته التي امتلأت صفحاتها عندئذ، في إمعان ودراسة، ويلتقط منها فقرات قصيرة كان ينقلها على قصاصات منفصلة من الورق فوق المائدة؛ وخلال هذا كان السيد راج يرقبه بانتباه شديد، بينما استغرق الشاب جون في تأملاته الخاصة. ولما فرغ السيد بانكس -الذي كان يبدو في هيئة كبير المتآمرين- من نقل فقراته، نظر إليها مراجعاً، وصححها، وطوى مفكرته، وأمسك بالقصاصات في يده على هيئة أوراق اللعب وقال:

- والآن. هنا فناء كنيسة في بدفوردشير. من يأخذه؟

فردّ السيد راج قائلاً:

- أنا آخذه يا سيدي إذا لم يكن هناك مزايد.

وأعطاه السيد بانكس ورقته، ثم عاد ينظر في يده ويقول:

- وهنا أيضاً تحقيق شرعي في يورك. من يأخذ هذا.

فقال السيد راج:

- إنني غير خبير بيورك.

فقال السيد بانكس:

- إذن، ربما يسمح السيد شيفري ويقبل هذا.

ولما وافق الشاب جون، أعطاه السيد بانكس ورقته، ثم عاد يستشير قائلاً:

- وهنا كنيسة في لندن. ربما يحسن أن آخذ أنا هذه، والكتاب المقدس لعائلة، ربما يحس أن آخذ هذا أيضاً. وبهذا يكون لي اثنان...

واستطرد بانكس يقول وهو ينفخ فوق الأوراق:

- وهنا كاتب في ديرهام لك يا جون. وملاح عجوز في دنستابل من أجلك يا سيد راج. اثنان لي. أليس كذلك؟ نعم اثنان لي. وهنا حجر. ثلاثة لي. وجنين ميت. أربعة لي. وقد تم الآن كل شيء.

وبعد أن وزع أوراقه على هذا النحو، بهدوء تام وبصوت خفيض تماماً، نفخ السيد بانكس وهو يمد يده إلى جيبه الداخلي حيث تناول منه كيساً من قماش التيل. ومن هذا الكيس تناول بجمع يده مبلغاً من المال لنفقات السفر وجعله جزأين صغيرين، دفع بهما إلى صاحبيه الذكرين قائلاً في اهتمام:

- إن المال يجعل السفر سريعاً... سريعاً جداً.

وهنا قال الشاب جون:

- لا يسعني إلا أن أؤكد لك يا سيد بانكس أنني شديد الأسف بسبب الظروف التي تجعلني عاجزاً عن دفع نصيبي من النفقات، أو تتيح لي الوقت المناسب لأقطع هذه المسافات سيراً على الأقدام. لأنه لا شيء كان يرضيني أكثر من إنهاك نفسي بالمسير بلا أجر أو جزاء.

وكان عدم اهتمام ذلك الشاب بالأمر يبدو مثيراً للضحك في نظر الآنسة راج مما اضطرها لأن تنسحب من الغرفة وتجلس على السلّم حتى تفرغ جعبتها من الضحك. وخلال هذا راح السيد بانكس، وهو ينظر إلى الشاب جون في شيء من الإشفاق، يطوي كيس القماش ببطء وتأمل وكأنما يقطع عنقه، وفيما هو يعيده إلى جيبه، عادت الآنسة راج إلى الغرفة وقدمت إلى كل منهم كأس شراب بعد أن مزجت الروم بالماء، ولم تنسَ نفسها. وبعد أن تناولوا جميعاً كؤوسهم، نهض السيد راج، ومدّ ذراعه بكأسه إلى وسط المائدة، داعياً بهذه الحركة الثلاثة الباقين لأن يمسكوا كؤوسهم على هذا النحو، ويعربوا بهذا عن اتحادهم في حلقة تآمرية،

وكان لهذه المراسم تأثيرها إلى حد ما وكان من الممكن أن تظل على جديتها إلى النهاية لو لم يحدث أن نظرت الآنسة راج، وهي ترفع كأسها إلى شفتيها إتماماً للمراسم نحو الشاب جون، ذلك أن سمات عدم الاهتمام البادية على وجهه والمثيرة للضحك جعلتها تفقد زمامها وتنثر بعض شراب الروم والماء حولها، وتنسحب بسرعة وارتباك.

كانت تلك هي الوليمة -الأولى من نوعها- التي أقامها السيد بانكس في بنتوفيل، وكان ذلك هو نوع الحياة الحافلة العجيبة التي كان يحياها السيد بانكس. وكانت الفترات الوحيدة التي يتخفف فيها من أعبائه -في أثناء يقظته- والتي ينعش فيها نفسه بالذهاب إلى أي مكان أو التحدث عن أي شيء في غير تعمق أو شمول هي الفترات التي يكشف فيها عن اهتمامه الواضح بالأجنبي الأعرج ذي العصا المقيم في حوش بليدنج هارت.

وكان ذلك الأجنبي -المدعو جون بابتست كافالليتو- والمسمى في الحوش السيد بابتست، رجلاً ضئيل الجسم، خفيف الصوت، سهل المعاملة، بشوشاً. لعل انجذاب بانكس إليه جاء عن طريق المفارقة بينهما. وكان رغم وحدته وضعفه وضآلة عدد الكلمات الضرورية جداً للتحدث بها مع الذين حوله، يمضي مسايراً أقداره بطريقة خفيفة تعتبر جديدة في تلك النواحي. وكان رغم طعامه القليل، وشرابه الأقل، ولا شيء من الملابس غير ما يرتديه وغير ما أحضره مربوطاً في أصغر صرة رأتها عين، يمضي ويبدو بوجه مشرق وكأنه في أيسر الحالات، عندما أخذ يطلع لأول مرة ذهابا وجيئةً في الحوش؛ مكتسباً في وداعة رضاء الجميع بابتسامته التي كانت تكشف أسنانه البيضاء.

وكان من أصعب الأمور على الأجنبي -سواء كان أعرج أو سليماً- أن يشق طريقه بين سكان حوش بليدنج هارت. فهم أولاً يعتقدون -على

نحوٍ ما- أن كل أجنبي يحمل بين ثيابه سكيناً. وهم ثانياً يرون أن من المبادئ الدولية السليمة أن من الخير له أن يعود إلى وطنه. إنه لم يخطر ببالهم قط أن يتساءلوا عن عدد مواطنيهم الذين سوف يعودون إلى البلاد من مختلف أنحاء العالم إذا اعتنق الناس جميعاً هذا المبدأ، إنهم فقط يعتبرون هذا المبدأ إنكليزياً قلباً وقالباً. وهم من ناحية ثالثة يعتقدون أن من النوازل السماوية التي تحيق بالأجنبي ألا يكون إنكليزياً، وأن جميع المصائب التي تقع على رأس وطنه لأنه يفعل أشياء لا تفعلها إنكلترا، ولأنه لا يفعل أشياء تفعلها إنكلترا. وليس من شك في أنهم دُرِّبوا منذ أمد بعيد على اعتناق هذا الرأي على أيدي آل بارناكل وآل ستلستونج الذين كانوا يؤكدون لهم دائماً -رسمياً وغير رسمي- أن كل دولة عجزت عن وضع نفسها تحت إشراف هاتين العائلتين الكبيرتين، لا يحق لها أن تأمل في الاستمتاع بالعناية الربانية. والعجيب أن أفراد هاتين العائلتين بعد أن بذروا هذا الاعتقاد في نفوس سكان بليدنج هارت أصبحوا ينظرون -فيما بينهم وبين أنفسهم- إلى هؤلاء السكان في تحقير وازدراء باعتبارهم أشد الناس تعصباً في الوجود.

وهذا يمكن -من ثم- أن يسمى الوضع السياسي لسكان بليدنج هارت. ولكن لديهم اعتراضات أخرى على بقاء الأجانب في الحوش. فهم يؤمنون أن حالة الأجانب المادية سيئة دائماً. ورغم أن حالتهم هم أيضاً سيئة فإن هذا لم يخفف شيئاً من قوة اعتراضهم. وهم يعتقدون أن الأجانب مسلحون دائماً، ورغم أنهم هم يضربون حتى تكسر جماجمهم إذا أساؤوا الصنيع. فإن هذا لا يتم إلا بآلة ثالمة، ولا أهمية لهذا. وهم يعتقدون أن الأجانب لا أخلاق لهم دائماً، ورغم أنهم هم يرتكبون بين الحين والآخر بعض الخطايا في وطنهم، كما يقع بينهم حادث طلاق بين آنٍ وآخر، فليس لهذا أية قيمة أيضاً. وهم يعتقدون أن الأجانب تنقصهم روح الكفاح، مع أنهم يساقون كالقطعان أمام فرسان اللورد ديكوماس

نايت بارناكل بأعلامهم المشرعة ونشيد «احكمي يا بريطانيا» يدوي أمامهم. وحتى لا نستطرد إلى حد الإملال، فإن لديهم اعتقادات أخرى كثيرة من هذا النوع.

وكان على الأجنبي الأعرج ذي العصا أن يشق طريقه بقدر ما يستطيع ضد هذه العقبات، ولم يكن يفعل هذا بلا أي نصير، لأن السيد آرثر كلينام كان قد أوصى به آل بلورنيش -وكان يسكن في أعلى بيتهما- ولكن الأمر مع هذا كان جد شاق. إلا أن سكان بليدنج هارت كانوا، على كل حال، طيبين، فبعد أن رأوا ذلك الأجنبي الضئيل يعرج هنا وهناك مرحاً، باسم الوجه، لا يؤذي أحداً ولا يشرع سكيناً ولا يرتكب خطايا بشعة، ويكاد يقتصر في طعامه على النشويات والألبان، ويلعب مع أبناء السيدة بلورنيش. وفي ذات مساء بعد أن رأوه يفعل هذا كله، بدؤوا يفكرون في أنه على الرغم من كونه لا يستطيع أن يأمل قط أن يغدو إنكليزياً ذات يوم، فمن العسير، مع هذا، أن يلقوا على أم رأسه عبء هذه الكارثة. لقد بدؤوا يكيفون أنفسهم مع مستواه وينادونه باسم «السيد بابتست» ولكن مع معاملتهم له كطفل، وضحكهم العريض على إيماءاته المرحة وإنكليزيته الصبيانية، لا سيما عندما لا يأبه لهذا، فيشاركهم الضحك أيضاً. وكانوا يتحدثون إليه بأصوات مرتفعة جداً وكأنه أصم تماماً. وكانوا يكوِّنون له الجمل -من أجل تعليمه اللغة على أصولها- كالتي كان يوجهها الهمج إلى الكابتن كوك أوفرايداي إلى روبنسون كروزو.

وكانت السيدة بلورنيش بصفة خاصة بارعة في هذا الفن، وقد بلغت الشهرة العريضة بقولها له دائماً «أنا أرجو أن تعود رجلك إلى سابق عهدها سريعاً» وكان سكان بليدنج هارت يعتبرون هذه الجملة جد قريبة من اللغة الإيطالية. بل إن السيدة بلورنيش نفسها بدأت تظن أن لديها ميلاً طبيعياً نحو هذه اللغة. ولما ازدادت صلته بالناس، بدؤوا يضمنون

عباراتهم التعليمية له بعض أسماء الأدوات المنزلية. فكان كلما ظهر في الحوش، هتفت النسوة الواقفات بالأبواب عليه قائلات: «سيد بابتست - إبريق شاي» «سيد بابتست - صندوق زبالة» «سيد بابتست - مضرب عجين» «سيد بابتست - إناء القهوة» وفي نفس الوقت كن يعرضن عليه هذه الأدوات، ويملأن نفسه شعوراً بمصاعب اللغة الإنكليزية المهولة.

في مثل هذه المرحلة من ظروفه، وفي نحو الأسبوع الثالث من إقامته بدأ اهتمام السيد بانكس يتجه نحو هذا الأجنبي الضئيل. ولما صعد ذات يوم إلى عليته مصحوباً بالسيدة بلورنيش كمترجمة له، وجد السيد بابتست بلا أية أثاث غير سرير على الأرضية، ومائدة، ومقعد، وكان يقوم بعمليات نحت ونقش بأبسط الآلات وفي أسعد الحالات النفسية الممكنة.

وقال له السيد بانكس:

- الإيجار أيها الصديق العتيق.

وكان الإيجار معدّاً ومطوياً في قصاصة ورق، فسلّمه إليه فوراً، ثم صنع بأصابع يده اليمنى رقماً يدل على خمسة شلنات، ثم قطع بإصبعه خطاً في الهواء وكأنما يشير إلى نصف شلن.

وقال السيد بانكس وهو يتأمله في عجب:

- أوه. أهكذا؟ إنك عميل مريح. حسناً جداً، إنني لم أكن أتوقع هذا.

وهنا تدخلت السيدة بلورنيش في تنازل كبير وشرحت الأمر للسيد بابتست قائلة «هو مسرور. هو سعيد بحصوله على المال».

وابتسم الرجل الضئيل وأومأ برأسه. وبدا وجهه المشرق جذاباً جداً في نظر السيد بانكس الذي سأل السيدة بلورنيش قائلاً:

- كيف حال ساقه؟

فقالت السيدة بلورنيش:

- أوه! إنه أحسن كثيراً. ونتوقع في الأسبوع التالي أن يترك عصاه نهائياً.

ولما كانت الفرصة أنسب من أن تضيع، فقد أخذت السيد بلورنيش تستعرض مواهبها الرائعة، فراحت تشرح -في زهو مغتفر- الأمر للسيد بابتست قائلة «هو يرجو أن تعود رجلك إلى سابق عهدها سريعاً».

وقال السيد بانكس وهو يتأمله بإعجاب كأنه دمية آلية:

- إنه إنسان مرح أيضاً. كيف يعيش؟

فردّت السيدة بلورنيش قائلة:

- لقد تبين أن له مقدرة عجيبة في نحت وصنع هذه الأزهار التي تراه يعمل فيها.

ورفع السيد بابتست. وهو يرقب وجهيهما في أثناء الحديث بعض نماذج عمله. وترجمت السيدة بلورنيش بأسلوبها الإيطالي قائلة بنيابة عن السيد بانكس: «هو مسرور. جداً جداً».

وقال السيد بانكس:

- هل يستطيع أن يعيش من هذا العمل؟

- إنه يستطيع أن يعيش على القليل جداً يا سيدي، ومن المنتظر مع مرور الوقت أن يتمكن من الحصول على دخل طيب جداً. لقد عهد إليه السيد كليناملم بهذا العمل، كما كان يتيح له أعمالاً أخرى إضافية في المصنع المجاور. وهو على العموم يصنع هذه الأزهار له كلما عرف أنه في حاجة إلى شيء منها.

فقال السيد بانكس:

- وماذا يفعل بنفسه عندما لا يكون مشغولاً بالعمل فيها؟

- لا شيء كثير يا سيدي، بسبب عجزه -كما أظن- عن المشي كثيراً. ولكنه يتجول في الحوش، ويتبادل الحديث مع السكان دون أن يهتم كثيراً بأن يفهم عنهم أو يفهموا عنه، ويلعب مع الأطفال، ويجلس في الشمس، بل إنه يجلس في أي مكان، وكأنه جالس على مقعد «وثير» ويغني، ويضحك.

فقال السيد بانكس مردداً:

- يضحك؟ إنه يبدو لي كأن كل سن من أسنانه لا تكف عن الضحك.

فقالت السيدة بلورنيش:

- ولكن حينما وصل إلى أعلى درجات السلّم في نهاية الحوش، فإنه يختلس النظرات بعيداً بطريقة عجيبة! ومن ثم يظن الإنسان أنه يختلس النظرات بعيد نحو بلاده، ويظن بعضنا أنه يختلس النظر إلى أحد لا يريد أن يراه، وبعضنا لا يعرف ماذا يظن.

ولاحَ أن السيد بابتست فهم بوجه عام حديثها، أو لعل ذكاءه أدرك معنى تمثيلها لحركة اختلاس النظر. وأياً كان الأمر فقد أغمض عينيه وطوح برأسه في هيئة الرجل الذي لديه من الأسباب ما يكفي لتبرير تصرفاته، ثم قال بلغته الخاصة إن الأمر لا يهم:

- ألترو.

وقال بانكس:

- ما معنى ألترو؟

فقالت السيدة بلورنيش:

- إنها نوع من أنواع التعبير العام يا سيدي.

فقال السيد بانكس:

- أحقاً؟ حسناً... إذن ألترو إليك يا صديقي العزيز، طاب مساؤك. ألترو.

وكرر السيد بابتست بلهجته المرحة هذه الكلمة مرات كثيرة، وردّ عليه السيد بانكس بالمثل وبلهجته الباردة. ومنذ ذلك الحين أصبح من عادة بانكس -الغجري- كلما عاد إلى بيته ليلاً منهمكاً أن يمر على حوش بليدنج هارت، وأن يصعد بهدوء الدرجات، ويطل برأسه من باب مسكن السيد بابتست فإذا وجده في غرفته، قال له:

- هاللو أيها الصديق! ألترو!

وعلى هذا كان السيد بابتست يرد وهو يبتسم ويومئ برأسه مرات كثيرة:

- ألترو يا سيدي، ألترو... ألترو...!

وبعد هذه المحادثة المركزة جداً، كان السيد بانكس يقفل عائداً وقد بدت عليه الخفة والانشراح.

* * *

الحالة الذهنية لغير ذي شأن



لو لم يتخذ آرثر كلينام هذا القرار الحاسم الحكيم لمنع نفسه من الوقوع في حب بيت، لعاش في حالة من الارتباك الشديد الذي ينطوي على معارك عنيفة مع قلبه. ولعل أبسط هذه المعارك هو نوع من الخصومة التي تستعر في داخله وتتراوح بين ميل إلى كراهية السيد هنري جوان إن لم يكن الأمر نفوراً كاملاً، وبين إحساس خفيف بأن الأمر لا يستحق هذا كله. إن الطبع الكريم لا يميل عادة إلى الكراهية القوية كما أنه لا يميل إلى الاعتراف بها حتى في هدوء. ولكن عندما يجد أن سوء النية توشك أن تسيطر عليها، وأن في مقدوره أن يتبين في الوقت نفسه أن سوء النية لا تصدر عن مبرر معقول، فإن مثل هذا الطبع الكريم يغدو حزيناً.

ولهذا كان من الممكن أن يعكر السيد هنري جوان صفو تفكير كلينام، وأن يشغل باله أكثر جداً من أي أشخاص أو أشياء أخرى أحسن وأبهج، وذلك لولا حكمة ذلك القرار السابق ذكره. وعلى أية حال فقد لاح أن السيد جوان تحوّل إلى عقل السيد دانييل دويس. ذلك أنه كان يحدث في جميع المناسبات أن يتولى السيد دويس عادة مهمة الحديث -دون كلينام- كلما تبادلا معاً أحاديثهما الودية. وكانت هذه الأحاديث تجري بينهما كثيراً الآن وذلك بعد أن اشترك هذان الشريكان في الإقامة معاً في

جانب من منزل واسع الأرجاء في شارع هادئ بحي من الأحياء القديمة المحافظة بالمدينة لا يبعد كثيراً عن بنك لندن القريب من سور المدينة.

وكان السيد دويس قد ذهب إلى توتيكنهام لقضاء اليوم، واعتذر كلينام عن الذهاب. وما إن عاد السيد دويس حتى أطل برأسه من باب غرفة جلوس السيد كلينام ليلقي عليه تحية المساء. وعندئذ قال له كلينام:

- ادخل... ادخل.

فرد دويس قائلاً وهو يدخل:

- أرى أنك كنت تقرأ فخطر لي أنك ربما لا تحب أن يزعجك أحد.

وما كان كلينام ليعرف ماذا يقرأ لولا إصراره الواضح على القراءة. والواقع أنه لم يلقِ نظرة على الكتاب خلال الساعة السابقة رغم وجوده مفتوحاً أمامه وقد طواه بسرعة قائلاً:

- هل هم بخير!

فقال دويس:

- أجل. إنهم بخير إنهم جميعاً بخير.

وكان لدانييل عادة قديمة عُمّالية، وهي وضع منديل جيبه في قبعته. وقد تناول هذا المنديل ومسح به جبينه وهو يكرر الحديث قائلاً ببطء:

- إنهم جميعاً بخير. وأعتقد أن الآنسة ميني بصفة خاصة على أحسن حال.

- هل ثمة زائرون في الكوخ!

- لا. ليس ثمة زائرون.

فسأل كلينام بمرح:

- وكيف أمضيتم الوقت، أنتم الأربعة.

فردّ شريكه قائلاً:

- كنا خمسة. إذ كان ذلك الذي اسمه ماذا... هناك.

- من هو؟

- السيد هنري جوان.

فهتف كلينام بحيوية غير عادية:

- آه. بالتأكيد، لقد نسيته.

وقال دانييل دويس:

- لعلك تذكر أني قلت إنه دائماً يزورهم في أيام الآحاد.

فرد كلينام قائلاً:

- أجل، أجل، إنني أتذكر الآن.

وراح دانييل دويس يكرر الحديث قائلاً ببطء وهو لا يزال يمسح جبينه:

- نعم، كان هناك. كان هناك. أوه، نعم، كان هناك. وكلبه كان هناك أيضاً.

فقال كلينام معلقاً:

- إن الآنسة ميجلز شديدة التعلق... بالكلب.

فقال شريكه موافقاً:

- تماماً. إنها أكثر تعلقاً بالكلب مني أنا بصاحبه.

- أتعني السيد...

- أعني السيد جوان بكل تأكيد.

وتخللت الحديث فترة صمت أمضاها كلينام في ملء ساعته. وأخيراً قال:

- لعلك تعجلت بعض الشيء في حكمك، إن أحكامنا بوجه عام في رأيي....

فقال دويس:

- معرضة لأن تتأثر بكثير من الاعتبارات التي تكون -ونحن لا نكاد نعرف- غير منصفة، ومن ثم يجب أن نكون على حذر منها. فمثلاً السيد...

وبهدوء قال السيد دويس الذي كان عليه دائماً -تقريباً- أن ينطق بالاسم:

- جوان.

- إنه شاب ووسيم ولين العريكة وموفور الذكاء وموهوب وقد شاهد الشيء الكثير من مختلف مظاهر الحياة. ولعله من الصعب أن يجد الإنسان سبباً منزهاً للشعور بعدم الرضا نحوه.

فردّ شريكه قائلاً:

- ولكن لا يصعب هذا عليّ كما أظن يا كلينام. فإني أرى أنه يثير في جو بيت صديقي القديم قلقاً في الوقت الحاضر، وأخشى أن يغدو هذا القلق حزناً في المستقبل. إني أراه يزيد التجاعيد العميقة على وجه صديقي كلما ازداد اقتراباً من ابنته وكلما ازداد تطلعاً إلى وجهها. وعلى الجملة أراه ينسج شبكته حول هذه المخلوقة الحلوة الحنون التي لن يستطيع أبداً إسعادها.

فقال كلينام بلهجة تكاد تنم عن شعور بالألم:

- إننا لا نعرف أنه لن يجعلها سعيدة.

فردّ شريكه قائلاً:

- إننا لا نعرف أن الكرة الأرضية ستبقى مائة سنة أخرى، ولكننا نعتقد أن هذا احتمال كبير.

فقال كلينام:

- حسناً.. حسناً. يجب أن نتذرع بالأمل، أو يجب على الأقل أن نحاول أن نكون منصفين إن لم نكن كرماء، والفرصة غير متاحة لنا في هذه الحالة لأن نكون. إننا لن نزدري هذا السيد لأنه نجح في وصاله مع هذه المخلوقة الحلوة التي كنا نطمع في وصالها. ونحن لن نناقش حقها في أن تسبغ حبها على الشخص الذي تراه أهلاً له.

فقال دويس:

- ربما يا صديقي، وربما أيضاً أن تكون أصغر سناً، وأكثر تدليلاً، وأشد ثقة وأقل خبرة من أن تحسن التصرف في هذا الشأن.

فقال كلينام:

- إن هذا سيكون أبعد كثيراً عن قدرتنا على تصحيحه.

فهز دانييل دويس رأسه في جد وردّ قائلاً:

- أخشى هذا.

فقال كلينام:

- وعلى هذا، في إيجاز، يجب علينا أن نقرر أن الأمر لا يستحق أن نسيء القول في السيد جوان. وإنه لأمر حقير أن نبرر أي شعور بالتعصب ضده. وإني، من ناحيتي، مصمم على عدم تحقيره.

فردّ الآخر قائلاً:

- إنني لست واثقاً تماماً من نفسي، ومن ثم، فإني أحتفظ بحقي في النفور منه. ولكن إذا لم أكن واثقاً من نفسي، فإني واثق منك يا كلينام، وأعرف أي رجل مستقيم أنت، وإلى أي مدى أنت جدير بالاحترام. طابت ليلتك يا صديقي ويا شريكي.

وهزّ يده وهو يقول هذا، وكأنما ثمة شيء خطير يكمن في أعماق محادثتهما هذه، ثم افترقا.

وكانا خلال هذه الفترة قد زارا الأسرة في مناسبات كثيرة، ولاحظ أن مجرد الحديث عرضاً عن السيد جوان -عندما لا يكون بينهم- يعيد إلى وجه السيد ميجلز تلك السحابة التي أطفأت إشراقة الابتسامة المرتسمة عليه في صباح اليوم الذي التقى به فيه مصادفة عند العبّارة. ولو أن كلينام اعترف لنفسه بوجود هذه العاطفة المحرمة في أعماق صدره، لكانت تلك الفترة من فترات المحنة في حياته. ولكن هذه العاطفة تحت هذه الظروف والواقعية لم تكن في الحقيقة شيئاً.. أي شيء.

وعلى هذا النحو أيضاً، فلو أن قلبه خفق بهذه العاطفة المحرمة، لكان من المحتمل أن يكون صراعه الخفي مع عقله في أثناء هذه الفترة لا ينطوي إلا على شيء من الفضل. وإن جهده الدائم لعدم الوقوع في ظاهرة جديدة من ظواهر الخطيئة الماحقة في تجربته هذه وهي السعي الدائم نحو الأهداف الأنانية بكل الوسائل الحقيرة الوضيعة؛ وإنما التمسك، بدلاً من هذا، بالمبادئ العليا للشرف والشهامة قد يكون في هذا كله شيء قليل من الفضل. وفي تصميمه حتى على عدم تجنب بيت السيد ميجلز، خشية أن يسبب -عن طريق راحته الذاتية الأنانية- أية آلام بسيطة للابنة قد تنشأ عن حدوث نفرة بينها وبين أبيها، وهي نفرة يعتقد أن أباها سيأسف لها.. في هذا كله قد لا يكون إلا شيء قليل من الفضل. ومثل هذا الفضل

القليل قد يكون أيضاً في إخلاصه المتواضع وهو يضع نصب عينيه دائماً ما يمتاز به السيد جوان عنه في صغر السن، وفي جاذبية الشكل والسلوك. إنه موقن بهذا كله، وبأكثر منه، وبطريقة تنم عن الرجولة والثبات وتجنب الادعاء هذا بينما الألم في أعماقه -وهو ألم يطبع حياته وتاريخه- جد عنيف، قد يدل على تمتعه بنوع هادئ من قوة النفس. ولكن بعد هذا القرار الذي اتخذه، فلا يمكن طبعاً أن يكون له مثل هذه الأفضال.. ومثل هذه الحالة الذهنية لم تكن تهم أحداً.. أي أحد.

ولم يكن السيد جوان يهتم كثيراً بما إذا كانت هذه الحالة الذهنية تهم أحداً أو لا تهم. لقد احتفظ بوقار تصرفاته التام في كل المناسبات وكأنما مجرد الظن بأن السيد كلينام قد يناقش في نفسه هذا الأمر الخطير، يعتبر احتمالاً شاذاً بعيداً عن كل تصور. وكان دائماً يعامل كلينام بالدعة والبشاشة، وهي معاملة قد تكون في ذاتها -إذا افترضنا أنه لم يتخذ هذا القرار الحكيم- عنصراً من عناصر القلق في حالته الذهنية هذه.

قال السيد هنري جوان في أثناء زيارته لكلينام في اليوم التالي:

- لقد أسفت جداً لأنك لم تكن معنا أمس. إذ أننا أمضينا يوماً لطيفاً على شاطئ النهر هناك.

فقال آرثر إنه قد سمع عن هذا. فردّ هنري جوان قائلاً:

- من شريكك؟ يا له من صديق عزيز عتيق.

- إنني أكنّ له احتراماً بالغاً.

فقال جوان:

- إنه بحق الله ألطف مخلوق. ما أشد نضارته، ونشاطه، وإيمانه بأشياء عجيبة!

وهنا أحس كليـام في لهجة الحديث بنبرات لم يكن لها وقع رقيق على أذنه، ولكنه أهملها مكرراً القول بأنه يكنّ للسيد دويس تقديراً كبيراً.

- إنه جذاب! وإن رؤيته وهو يعيش حالماً حتى هذه المرحلة من حياته دون أن يضع شيئاً في طريقه أو يلتقط شيئاً، لأمر بهيج! إن الحرارة لتملأ قلب الإنسان وهو يراه هكذا جاداً، بسيطاً، طيب القلب! أقسم لك يا سيد كليـام أن الإنسان ما يشعر أنه جد دنيء شرير إذا قورن بمثل هذا الإنسان البريء. إنني أتحدث عن نفسي، ودعني أضف إلى هذا، أني لا أضمك إلينا، لأنك أيضاً لست متصنعاً.

فقال كليـام في ارتباك:

- شكراً على هذا المديح. وأرجو أن تكون أنت أيضاً.

فردّ الآخر قائلاً:

- لا، لا. وإذا شئت الصراحة، فأنا كذلك إلى حدٍّ ما. إنني لست دعياً كبيراً. اشترِ لوحة من لوحاتي وأنا أؤكد لك، بيني وبينك، أنها لن تساوي الثمن. اشترِ صورة لرسام آخر، فنان كبير يفوقني جداً، فإن الاحتمال كبير جداً في أنك كلما زدته ثمناً ازداد احتيالاً. إنهم جميعاً هكذا.

- جميع الرسامين؟

- الرسامون والكُتّاب والوطنيون وجميع الذين يسترعون انتباه الرأي العام. أعط أي رجل معروف عشرة جنيهات فيساوي في نظرك هذا القدر. أعطه ألف جنيه فيساوي في نظرك هذا القدر. وكذلك الحال لو أعطيته عشرة آلاف جنيه، أي أنه كلما ازداد النجاح، ازدادت قيمة الإنسان.

ثم أردف جوان قائلاً بحماسة:

- ولكن أي عالم رائع هذا؟ أي عالم لطيف مدهش محبوب هذا؟

فقال كلينام:

– كنت أعتقد أن هذا المبدأ الذي ذكرته ينطبق أساساً على...

فقطعه جوان قائلاً وهو يضحك:

– على آل بارناكل.

– على السادة السياسيين الذين يتنازلون بالعمل في إدارة الشؤون العامة.

فقال جوان وهو يضحك مرة أخرى:

– آه، لا تقس على آل بارناكل، إنهم أصحاب أعزاء! حتى الصغير المسكين كلارنس، الذي وُلد في الأسرة أبله. إنه ألطف وأعز إنسان أحمق. وأقسم لك أنه لا يخلو أيضاً من براعة وإن كان هذا يدهشك.

فقال كلينام بجفاء:

– نعم يدهشني جداً.

فصاح جوان بهذه اللهجة البارعة التي تحول كل شيء في العالم الواسع إلى الاستخفاف:

– ومع هذا كله، ورغم أني لا أستطيع أن أنكر أن إدارة الشؤون العامة قد تغرق معها كل إنسان وكل شيء، إلا أن هذا على الأرجح لن يكون في زماننا؛ إنها على أية حال مدرسة للسادة.

فقال كلينام وهو يهز رأسه:

– أخشى أن تكون مدرسة خطيرة، مثيرة للاستياء، باهظة التكاليف بالنسبة للذين يلحقون أبناءهم بها.

فقال جوان مازحاً:

- إنك شخص رهيب. وإنني أستطيع أن أفهم كيف أفزعت ذلك الحمار الصغير، كلارنس، أكثر الأغبياء معزة وتقديراً، وأنا في الواقع أحبه، وكيف كدت تطير عقله. ولكن حسبنا حديثاً عنه، وعن الباقين منهم. إنني أريد أن أقدمك إلى أمي يا سيد كلينام. فأرجو أن تتكرم وتتيح لي هذه الفرصة.

وكان كلينام، وتلك هي حالته الذهنية، لا يريد أن يفعل هذا. ولكنه لم يكن يدري كيف يعتذر. وأردف جوان قائلاً:

- إن أمي تعيش أبسط حياة ممكنة في مسكن موحش من الآجر الأحمر بمنطقة هامبتون كوارت. فإذا حددت الموعد، واقترحت اليوم الذي أصحبك فيه لتناول العشاء هناك فسوف يكون الملل من نصيبك والمتعة من نصيبها. هذا هو الوضع في الواقع.

ماذا كان في وسع كلينام أن يقول بعد هذا؟ إن طبيعته الانطوائية كانت تشمل الشيء الكثير من البساطة التي لم تعقدها أو تلوثها الأيام. ومن ثم لم يستطع ببساطته ووداعته إلا أن يقول إنه يسعده أن يضع نفسه تحت أمر جوان. وهكذا تحدد الموعد. ولشد ما كان يخشى اقتراب اليوم المحدد، فلما جاء أخيراً لم يرحب به وهو يمضي مع جوان إلى هامبتون كوارت.

كان السكان المحترمون لذلك الحي المحترم يبدون في تلك الأيام كأنهم يعيشون في معسكرات عصرية لجماعات الغجر. ذلك أنه كان يخيم على مساكنهم جو ينم عن حياة مؤقتة وكأنما يعد السكان أنفسهم للرحيل في أي وقت يجدون فيه مكاناً أفضل. وكذلك كان يسودهم شعور عام بعدم الرضا عن أنفسهم، وكأنما قد ساءهم كثيراً أنهم لم يجدوا بعد مكاناً أفضل كثيراً. وكانت الستائر والسجف الرقيقة تبدو بوضوح أو غير وضوح كلما فتحت الأبواب. وكانت بعض الحجب غير المسدلة تماماً تكشف عن دهاليز معقودة تؤدي إلى غرف الطعام، وتحجب أركاناً

مظلمة ينام فيها غلمان الخدم بين الشوك والسكاكين، وكان ثمة سدائل وضعت لكي توهمك أنه لا شيء يوجد وراءها. وألواح زجاجية ترجوك ألا تراها وأشياء كثيرة مختلفة الأشكال تبدو كأنما ليس ثمة علاقة بينها وبين هذا السر الخطير - السرير! وفتحات سرية في الجدران هي في الواقع مستودعات للفحم، وفتحات أخرى محجوبة تؤدي إلى مطابخ صغيرة. وكان هذا كله يستلزم الكثير من التحفظات الذهنية واللباقة في المعاملة. فكان الزائرون مثلاً يحملقون في عيون المضيفين متظاهرين بأنهم لا يشمون رائحة الطهو على مسافة ثلاثة أقدام منهم. وإذا رأى الزائرون أنفسهم أمام أبواب خزانات تُرِكت مفتوحة عرضاً كان عليهم أن يتظاهروا بعدم رؤية الزجاجات وإذا سمع الزائر وهو جالس وراء ستار من قماش رقيق اثنين من الخدم -فتى وفتاة- يتبادلان في الجانب الآخر من الستار الشتائم والسباب بصوت مرتفع، فعليه أن يجلس متظاهراً بأن السكون التام يخيم حوله. وليس ثمة نهاية لمثل هذه المجاملات الاجتماعية التي كان يتبادلها دائماً ويتقبلها بعضهم من بعض هؤلاء الغجر الأرستقراطيون!

وكان بعض هؤلاء البوهيميين ذوي أمزجة حادة بسبب إحساسهم الدائم بالضيق والمرارة الناشئين عن محنتين ذهنيتين: أولاً شعورهم بأنهم لا ينالون حقهم كاملاً من الطبقة العامة، وثانياً شعورهم بأن الطبقة العامة قد سُمِح لها بدخول المنطقة. وكان ثمة عدد قليل من الناس يعانون الشيء الكثير بسبب هذه الخطيئة الثانية الكبرى، لا سيما في أيام الآحاد، عندما يتوقع البعض أن تنفتح الأرض وتبتلع هذه الطبقة عامة. ولكن هذا الحدث المنشود لم يقع بعد، ولا شك أن عدم وقوعه يرجع إلى شيء من الخلل الخطير في نظام الوجود!

وكان يقوم على حراسة باب السيدة جوان خادم عاش سنوات كثيرة في محيط الأسرة، وكان يحمل بين جنبيه غضباً ضد الرأي العام،

بخصوص وظيفة في مصلحة البريد كان يتوقع أن ينالها منذ حين، ولكنه لم يظفر بها بعد. وكان يعلم تماماً أن الطبقة العامة لا يمكن أن تدخله بين صفوفها، ومن ثم كان يجتر دائماً غضبه لشعوره بأنه مطرود من محيطها. وبسبب هذا الإحساس بالإهانة -وربما بسبب بعض الضيق المالي وعدم حصوله على أجره بانتظام- أصبح مهملاً في نفسه، سوداوياً في تفكيره؟ ولما رأى أن كلينام واحداً من ظالميه السادة الذين أخنى عليهم الدهر، أخذ يستقبله في عداء.

ولكن السيدة جوان استقبلته على كل حال في شيء من التنازل. وقد وجدها سيدة عجوزاً مهيبة ذات جمال غابر، ولكن بقي منه ما جعلها تستغني عن وضع بعض الذرور على أنفها، وبعض الظلال تحت عينيها، وكانت مترفعة في معاملتها له. وكذلك كان الأمر مع سيدة أخرى عجوز، سوداء الحاجبين، عالية الأنف، في هيأتها ولا شك شيء ما حقيقي وإلا لما كان لها وجود، ولكن هذا الشيء الحقيقي لم يكن بالتأكيد شعرها أو أسنانها أو قوامها أو لون بشرتها! وكذلك كان الأمر مع رجل عجوز أشيب له هيئة يجمع فيها بين الوقار والسخط. وكان الاثنان قد دُعِيا للعشاء أيضاً. ولكن بما أنهم جميعاً قد عرفوا كيف تعامل السفارات الإنكليزية في مختلف بقاع الأرض رعاياها باحتقار لا حد له، كما تفعل إدارة الشؤون العامة مع المواطنين، وإلا لأصبحت سفارات دولة أخرى، فكذلك أحس كلينام أن الجميع كانوا ينظرون إليه على هذا النحو.

وتبين أن السيد العجوز الوقور هو اللورد لانكاستر ستلستوكنج الذي عينته إدارة الشؤون العامة سنوات كثيرة كممثل للملكية البريطانية في خارج البلاد. وقد استطاع هذا «الثلاجة» النبيل أن يجمد الحياة في كثير من البلاطات الملكية في عهده. وقد بلغ من نجاحه الكامل في هذا الشأن أن أصبح مجرد ذكر اسم أي رجل إنكليزي كافياً لأن تصاب بالبرد مَعِدات الأجانب الذين كان لهم شرف تذكره بعد مدة زمنية لا تقل عن ربع قرن.

إنه الآن متقاعد، ومن هنا قبل أن يكرم بالحضور للعشاء، مرتدياً ربطة عنق ثقيلة بيضاء كأنها قطعة من الثلج وكان ثمة همس يدور حول اختلاط أنساب أطقم المائدة من أطباق وصحون، ولكن «الثلاجة» النبيل، وهو قطعاً أفضل من كل صحن أو طبق جعل كل شيء بحضوره ممتازاً. وحسبه أن ظلل العشاء بوجوده، وبرّد الخمور، وجمّد الحساء، وأذبل الخضار.

وكان ثمة شخص آخر فقط في الغرفة. وكان خادماً صغيراً ميكرسكوبي الهيئة، وكان يعمل مع الرجل الساخط الذي لم يظفر بوظيفة في مصلحة البريد. وحتى ذلك الشاب، إذا أمكن فك أزرار سترته وتعرية قلبه كان من الممكن أن يرى -باعتباره قريباً من بعيد لأسرة بارناكل- وهو يعد نفسه لوظيفة حكومية.

وكانت السيدة جوان، بذلك الطابع الحزين على وجهها، والذي تسبب من انحدار ابنها هنري من وظيفة بالبلاط الملكي إلى امتهان فن حقير بدلاً من تأكيد أرستقراطية العائلة كفرد من آل بارناكل، تقود الحديث على العشاء في الأيام السوداء. وفي هذه الآونة فقط عرف كلينام لأول مرة في حياته أية محاور صغيرة يدور حولها هذا العالم الكبير.

قال السيد جوان بعد أن اعترف الجميع بانحلال الذي شاع في زمنهم:

- لو أن جون بارناكل تخلى فقط عن فكرته التعسة في تهدئة الجماهير، لانتهى كل شيء إلى خير، ولأمكن في رأيي إنقاذ البلاد.

ووافقت على هذا السيدة العجوز ذات الأنف المرتفع، ولكنها أضافت إلى هذا قولها إنه لو كان أوغسطس ستلستوكنج أصدر بوجه عام أوامره لسلاح الفرسان مع التعليمات بالهجوم، لأمكن في رأيها إنقاذ البلاد.

ووافق على هذا «الثلاجة» النبيل، ولكنه أضاف قائلاً إنه لو أمكن لويليام بارناكل وتيودور ستلستوكنج -عندما كوّنا اتحادهما الخالد الذكر- أن يكمما بجرأة أفواه الصحف، وأن يوقعا العقاب على كل رئيس تحرير يجرؤ على مناقشة تصرفات أي موظف رسمي في الداخل أو في الخارج، لأمكن في رأيه إنقاذ البلد.

وتم الاتفاق على أن البلاد «وهي كلمة أخرى مرادفة لعائلتي بارناكل وستلستوكنج» في حاجة إلى إنقاذ، ولكن كيف حدث أن أصبحت في حاجة إلى إنقاذ، فهذا هو الشيء غير الواضح. ولقد وضّح فقط أن الموضوع كان يدور حول جون بارناكل، وأوغسطس ستلستوكنج، وويليام بارناكل، وتيودور ستلستوكنج، وتوم أوديك أو هاري بارناكل أو ستلستوكنج، لأنه لم يكن ثمة شخص آخر غير الجمهور. وكان ذلك هو جانب الحديث الذي ترك في نفس كلينام -كرجل لم يتعود عليه- أسوأ الأثر؛ مما جعله لا يدري هل من اللائق أن يبقى جالساً، صامتاً، يسمع عن شعب كبير وهو يُختَزل إلى مثل هذا الحيز الضيق. ولكنه حين تذكر، على أية حال، المناقشات البرلمانية التي لم تكن تدور -قلباً وقالباً- إلا عن -وبين- جون بارناكل، وأوغسطس ستلستوكنج، ووليام بارناكل، وتيودور ستلستوكنج، وتوم أوديك أو هاري بارناكل أو ستلستوكنج، دون أحد آخر، فقد رأى أنه يقول شيئاً لصالح الجمهور، ظناً منه أن الجمهور قد تعوّد على هذا الوضع.

وبدا أن السيد هنري جوان كان يشعر ببهجة خفية شريرة في التلاعب بالمتحدثين الثلاثة وتعريض بعضهم لبعض، وفي رؤية كلينام وهو يجفل عن سماعه لما يقولونه. ولما كان يشعر باحتقار شديد لهذه الطبقة التي طردته من صفوفها، والتي أبت أن تبقي عليه بينها، فإنه لم يكن يهتم قط بما يجري في حياتها. وكانت حالته الذهنية النشطة تستمد -كما يبدو-

نوعاً من الابتهاج لما كان يلوح على كلينام من ارتباك وشعور بالعزلة بين هذه الصحبة الطيبة، ولو أن كلينام كان في تلك الحالة لا يتنابز فيها أحد دائماً، لخامره الشك في الأمر؛ ولاعتبر مثل هذا الشك نوعاً من الصنعة حتى وهو جالس إلى المائدة.

وخلال ساعين، كان «الثلاجة» النبيل قد ألقى عدداً من التنبؤات السياسية الجادة عن موضوعات تاريخية لا يقل عمرها عن خمسة قرون، ثم انتهى بشرب فنجان شايه الذي تجمد برداً، ثم سكن وهو في أقل درجة من درجات حرارته.

وكانت السيدة جوان قد اعتادت في أيام سطوتها أن تبقى بجانبها مقعداً وثيراً خالياً لتدعو إليه عبيدها المخلصين، الواحد بعد الآخر، وتضفي عليهم، في أثناء جلساتهم القصيرة معها، شآبيب من عطفها، وإلى هذا المقعد أشارت إلى كلينام بمروحتها لكي يقترب وجلس. وأطاع الأمر، وجلس على المقعد الذي كان قد أخلاه عندئذ، اللورد لاكاستر ستلستوكنج.

وقالت السيدة جوان:

– سيد كلينام. بصرف النظر عن سعادتي بتعرفك بي، في هذا البيت غير المناسب الذي يشبه الثكنة، فإن هناك موضوعاً أكاد أموت شوقاً للتحدث معك فيه. إنه موضوع يتعلق -كما أعتقد- بالظروف التي سعد فيها ابني بمعرفتك لأول مرة.

ومالَ كلينام برأسه باعتبار أن هذه الحركة هي الإجابة المناسبة على ما لم يفهمه بعد.

وقالت السيد جوان:

– والآن هل هي جميلة حقاً.

ولم يجد كلينام صعوبة كبيرة في أن يبتسم ويقول:

- من؟

فردت قائلة:

- أوه! أنت تعرف. هذه التي تشغل خيال هنري. خياله البائس. حسناً، إذا كان من الأمانة أن أذكر اسمها، فإني أقول الآنسة ميكلز، أعني الآنسة ميجلز.

فقال كلينام:

- إن الآنسة ميجلز جميلة جداً.

فردّت السيدة جوان قائلة وهي تهز رأسها:

- إن الرجال عادة يخطئون في هذه الشؤون بحيث أستطيع أن أعترف لك بصراحة أني أشعر بأي شيء إلا بالثقة في رأيهم في هذا الشأن، حتى هذه الأيام. وذلك رغم أن الأمر لا يخلو من أهمية حين نرى هنري منجذباً إليها بكل هذا الثقل. أعتقد أنه التقط هؤلاء الناس في روما.

ولم يكن في هذه العبارة ما يسيء إلى أحد إساءة بالغة، ومن ثم قال كلينام:

- معذرة إذا أنا لم أستطع أن أفهم هذه الكلمات.

فقالت السيدة جوان وهي تنقر بعصوات مروحتها المطوية -وكانت مروحة خضراء كبيرة تستعملها كستار ليديها- على مائدتها الصغيرة:

- التقط هؤلاء الناس. أعني التقى بهم، عثر عليهم، اصطدم بهم.

- الناس؟!

- نعم. آل ميجلز.

فقال كلينام:

- الواقع أنني لا أستطيع أن أعرف أين قدم صديقي السيد ميجلز السيد هنري جوان إلى ابنته أول مرة.

- إنني واثقة أنه التقطها في روما، ولكن دعك من السؤال أين.. في مكان ما. والآن -وهذا بيني وبينك تماماً- هل هي من صميم الطبقة الشعبية؟

فردّ كلينام قائلاً:

- الواقع يا سيدتي أنني نفسي من صميم الطبقة الشعبية بحيث لا أستحق أن أحكم.

فقالت السيد جوان وهي تنشر المروحة:

- عظيم جداً، وبهيج جداً. ومن هذا أستطيع أن أفهم أنك تعتقد في ذات نفسك أن سلوكها يضاهي جمالها!

فانحنى كلينام بعد لحظة جمود؛ فأردفت قائلة:

- هذا شيء يطمئن النفس، وأرجو أن تكون على صواب. هل أخبرني هنري أنك تنقلت معهم في أثناء السفر؟

- لقد ترحلت حيناً مع صديقي السيد ميجلز وزوجته وابنته خلال بضعة شهور، ولعل قلب أحد ما لم ينفطر لهذه الذكريات.

- هذا شيء يطمئن حقاً، لأنه لا بد أن تكون قد اختبرتهم جيداً. أترى يا سيد كلينام. لقد طال أمر هذا الموضوع دون أن يحدث أي تحسن. ولهذا أجد راحة بالغة في الحديث عنه مع واحد واسع الخبرة به مثلك. وأنا واثقة أن هذه نعمة... بركة.

فرد كلينام قائلاً:

- ولكن معذرة، فأنا لست موضع سر السيد هنري جوان، بل أنا أبعد ما أكون عن الخبرة في هذا الموضوع كما تحسبينني: وإن غلطتك هذه تجعل موقفي دقيقاً جداً، لأنه لم يحدث أن تبادلت مع السيد هنري جوان كلمة واحدة في هذا الموضوع.

وألقت السيدة جوان نظرة على الطرف الآخر من الغرفة حيث كان ابنها يلعب الإيكارتيه «لعبة من ألعاب الورق» على الأريكة مع السيدة العجوز التي كانت تنصح باستخدام الفرسان في الهجوم.

وقالت السيدة جوان:

- لست موضع سره؟ لا... لا كلمة تبادلتها معه؟ لا. هذا ما يمكن أن أتخيله. ولكن هناك نوعاً من الثقة المتبادلة دون حديث يا سيد كلينام. وبما أنكما كنتما معاً على اتصال وثيق بهؤلاء الناس، فلا يسعني غير اليقين بأن مثل هذا النوع من الثقة قام بينكما. ولعلك قد سمعت أنني عانيت أشد الآلام النفسية بسبب احتراف هنري لذلك الفن...

وهنا هزّت كتفيها وأردفت قائلة:

- وهو فن محترم جداً كما ينبغي أن أقول، وإن بعض الفنانين يعتبرون -كفنانين- من الشخصيات الممتازة تماماً. ومع هذا فلم يحدث في محيط الأسرة أن تجاوز الأمر محيط الهواية. وإنه لضعف مغفور أن يشعر أحدنا بميل قليل إلى...

وفيما كانت السيدة جوان تقطع حديثها لتتنهد بعمق، لم يستطع كلينام أن يمنع نفسه من التفكير -رغم إصراره على أن يظل شهماً- في أنه ليس ثمة خطر كبير في تجاوز الأسرة لنطاق الهواية، حتى رغم ما قد حدث.

واستطردت الأم تقول:

- إن هنري قوي الإرادة عنيد. وبما أن هؤلاء الناس يبذلون كل جهد ممكن لاصطياده، فأنا لا أستطيع أن أركن إلى أمل كبير يا سيد كلينام، في القضاء على هذه العلاقة. وأنا أفهم أن ثورة الفتاة ستكون صغيرة جداً. وكان في مقدور هنري أن يعقد زواجاً أحسن بكثير. إذ لا يكاد يكون ثمة شيء يعوض هذه العلاقة. ومع ذلك فإنه يتصرف من تلقاء نفسه. فإذا لم أجد أي تحسن خلال فترة قصيرة، فلن يسعني إلا الاستسلام والانتفاع بهؤلاء الناس بقدر الإمكان. إنني جد شاكرة لك ما أخبرتني به.

وفيما هي تهز كتفيها. انحنى لها كلينام بجمود مرة أخرى.

وبعد أن طافت بوجهه حمرة تنم عن القلق، وشاع التردد في سلوكه، قال بصوت أكثر خفوتاً:

- سيدة جوان، إنني لا أدري كيف أقوم بواجب أرى أنه يقع على عاتقي، ولكني أطمع في كرم تقديرك للأمر وأنا أقوم به. إن هناك سوء فهم من جانبك... سوء فهم ضخم إذا أمكن لي أن أتجرأ وأقول هذا، سوء فهم يحتاج، كما يبدو لي، إلى تصحيح. لقد ظننت أن السيد ميجلز وأسرته يبذلون كل جهد ممكن... أعتقد أنك قلت...

فقالت السيدة جوان مكررة وهي تنظر إليه بعناء وقد جعلت المروحة الخضراء بين وجهها والمدفأة:

- كل جهد ممكن...

- لاصطياد السيد هنري جوان؟

فأومأت السيدة برأسها ببرود. فقال كلينام:

- ولكن هذا بعيد جداً عن حقيقة الأمر، وإني لأعرف أن السيد ميجلز غير سعيد بسبب هذا الموضوع، وقد جعل في طريقه كل عقبة ممكنة على أمل أن يضع له حداً.

وطوت السيدة جوان مروحتها الخضراء الكبيرة، ودقت بها على ذراع المقعد ثم فتحت شفتيها بابتسامة وقالت:

- طبعاً، طبعاً، هذا ما أعنيه تماماً.

وتفرس آرثر في وجهها ملتمساً بعض الإيضاح لما تعنيه. وأخيراً قالت:

- هل أنت جاد حقاً يا سيد كلينام؟ ألا ترى!

ولم يكن كلينام يرى شيئاً. وقد اعترف بهذا. فقالت السيدة جوان في احتقار:

- عجباً! ألست أعرف ابني! ألست أعرف أن هذه هي الطريقة المثلى لاصطياده! أو لا يعرف آل ميجلز هؤلاء هذه الحقيقة على الأقل كما أعرفها أنا. أوه، إنهم دهاة يا سيد كلينام، والواضح أنهم قوم عمليون! وأعتقد أن السيد ميجلز كان يعمل في مصرف. ولا شك أن هذا المصرف قد استفاد كثيراً إذا كانت للسيد ميجلز اليد الطولى في إدارته. الواقع أنه أحسن تدبير الأمر جداً.

فقاطعها آرثر قائلاً:

- إنني أرجوك وأبتهل إليك يا سيدتي..

- أوه، سيد كلينام، أيمكن أن تكون ساذجاً إلى هذا الحد.

ولشد ما كان يشعر بالألم وهو يسمعها تتحدث بهذا الأسلوب المترفع، ثم وهو يراها تربت شفتيها بمروحتها، مما جعله يقول بحماسة شديدة:

- صدقيني يا سيدتي أن هذا ظلم، إنه شك ليس له أي أساس.

فقالت السيدة جوان مرددة القول:

- شك؟ ليس في الأمر شك يا سيد كلينام بكل تأكيد. لقد تم الأمر عن تدبير محكم في الواقع، ويبدو أنك خدعت تماماً.

ثم ضحكت، وعادت تربت بمروحتها على شفتيها وتطوح برأسها كأنما تضيف قائلة:

- لا تقل لي. إنني أعرف أن أمثال هؤلاء الناس يفعلون أي شيء لينالوا شرف مثل هذه المصاهرة.

وفي هذه اللحظة المناسبة، ألقيت أوراق اللعب جانباً، وأقبل هنري جوان عبر الغرفة قائلاً:

- إذا أمكن يا أمي أن تسمحي للسيد كلينام بالانصراف، فأرجو أن تفعلي، لأن أمامنا مسافة طويلة يجب أن نقطعها، وقد أمسى الوقت متأخراً.

وعندئذ نهض السيد كلينام واقفاً، لأنه لم يكن أمامه إلا أن يفعل هذا. وظلت السيدة جوان حتى اللحظة الأخيرة وهي تنظر إليه بنفس النظرة، وبنفس الابتسامة التي تنم عن الاحتقار:

وقال جوان لآرثر بعد أن أغلق باب البيت وراءهما:

- لقد طالت جلستك إلى حد كبير مع أمي. وأرجو مخلصاً ألا تكون قد أضجرتك.

فقال كلينام:

- لا، مطلقاً.

وكان لديهما مركبة صغيرة مكشوفة، وسرعان ما استقلّاها في طريق العودة إلى البيت. وأشعل جوان -وهو يقود المركبة- سيجاره

ورفض كلينام أن يدخن. ورغم كل محاولاته، فقد كان يستغرق في حالة من شرود الذهن مما يجعل جوان يقول مرة أخرى:

- أخشى كثيراً أن تكون أمي قد أضجرتك.

وللإجابة عن هذا أيقظ نفسه ليقول:

- لا، مطلقاً.

ثم عاد إلى استغراقه الذاتي.

وفي مثل هذه الحالة الذهنية التي لم تكن لتثير القلق في نفس أحد، كان استغراقه في التفكير يدور بصفة أساسية حول ذلك الرجل الجالس بجانبه. كان يفكر في ذلك الصباح عندما رآه لأول مرة ينتزع الحجارة بكعب حذائه، ثم يتساءل: «هل ينوي أن يقذف بي بعيداً عن طريقه بنفس الروح القاسية المستهترة». وكان يفكر: هل تراه قام بتقديمه إلى أمه لأنه يعرف ماذا كانت ستقول، على هذا يكشف موقفه أمام منافس له، ومن ثم يحذره بطريقة لبقة دون أن يتحدث معه في هذا الموضوع حديثاً خاصاً؟ وكان يفكر: وحتى لو كان هذا هدفه، فهل تراه جاء به إلى بيت أمه يتلاعب بعواطفه المكبوتة؛ وليعذبه؛ وكان يعوق تيار هذه التأملات أحياناً سيل من الشعور بالعار، يحمل إليه الاحتجاج من طبيعته الصريحة، ويقول له إن اعتناقه لهذه الشكوك، ولو للحظة عابرة، لا يتناسب مع النهج الإيثاري الرفيع الذي قرر أن يتمسك به. وكان الصراع في أعماقه يشتد عنفاً في تلك الأوقات، حتى إنه كان إذا رفع عينيه ورأى عيني جوان، يجفل مرتبكاً كأنها أساء إليه على نحوٍ ما.

وإذا نظر إلى الطريق المظلم وما حوله من أشياء غامضة، عاد إلى الاستغراق في أفكاره تدريجياً ليقول لنفسه:

- ترى إلى أين يمضي، وهو وأنا، على طريق الحياة الأظلم. ما هو المصير الذي ينتظرنا، وينتظرها على المدى الغامض.

وأدى تفكيره فيها إلى إحساس جديد بالاضطراب الممتزج بلواذع التأنيب بأن إحساسه بالكراهية له لا يتفق مع إخلاصه هو لها، وأن التحامل ضده بمثل هذه البساطة يجعله -أي كلينام- أقل جدارة بها مما كان من قبل.

وقال جوان:

- يبدو بوضوح أنك في حالة ضيق نفسي، وإني أخشى كثيراً أن تكون أمي قد أضجرتك بشكل فظيع.

فقال كلينام:

- لا. مطلقاً. صدقني. فليس في الأمر شيء... لا شيء.

* * *

خمسة.. و.. عشرون



كانت نوازع الشك تتردد كثيراً في نفس كلينام وتثير قلقه في تلك الفترة عندما علم أن السيد بانكس يرغب في جمع المعلومات الخاصة بأسرة دوريت. وكان يخشى أن يكون ذلك راجعاً إلى شكوكه التي أفضى بها إلى أمه عقب عودته من غيبته الطويلة خارج البلاد. ماذا عرف السيد بانكس فعلاً عن أسرة دوريت، وما هو المزيد الذي أراد أن يعرفه، ولماذا يشغل رأسه المشغول دائماً بأمرهم على الإطلاق؟ هذه هي الأسئلة التي طالما حيرته. إن السيد بانكس لم يكن بالرجل الذي يضيع وقته وجهده في أبحاث يدفعه إليها فضول تافه. ومن ثم لم يكن لدى كلينام أي شك في أنه يسعى إلى هدف معين، وكان كثيراً ما يستغرقه التفكير الجاد فيما ينبغي أن يفعل إذا حقق السيد بانكس -ببراعته- هذا الهدف، وكشف بوسائله الخاصة عن أسباب خفية هي التي حدت بأمه إلى الأخذ بيد دوريت الصغيرة.

ولا يعني هذا أنه تردد قط سواء في رغبته أو في تصميمه على إصلاح الخطأ الذي حدث في عهد أبيه، إذا ظهرت حقيقة هذا الخطأ وكان في الإمكان إصلاحه. إن سحب هذا الظلم المفترض التي خيمت على رأسه منذ وفاة أبيه، كانت مبهمة غامضة الهيئة بحيث يمكن أن تكون نتيجة لحقائق أبعد ما تكون عن رأيه فيها. ولكن إذا ثبت أن لهواجسه أساساً سليماً، فإنه على استعداد في أية لحظة لأن يقدم كل ما

يمتلك، وأن يبدأ الحياة من جديد. وكما أن التربية القاسية التي عاناها في طفولته لم تترسب قط في أعماق نفسه، فكذلك كانت الفقرة الأولى من مبادئه الأخلاقية تحتم عليه أن يبدأ حياته بتواضع واقعي، وأن يثبت قدميه جيداً على الأرض، وأن يدرك تماماً أنه لن يستطيع أبداً أن يحلق في السماء بأجنحة من الكلام، الواجب على الأرض، وردّ الحقوق على الأرض، والتحرك على الأرض، هذه هي أولاً، كالخطوات الأولى نحو الصعود إلى مرتفع شديد الانحدار. وقد كانت البوابة إلى هذه الحياة عسيرة، والطريق ضيقاً، أشد عسراً وضيقاً من طريق عام واسع ممهد بالأعمال التافهة، والتكرارات الفارغة، والنظر إلى الناس على أنهم هباء، وإطلاق الأحكام الجزافية على غيرهم... هذه كلها مواد رخيصة لا تكلف شيئاً.

لا... لم يكن خوفاً نابعاً من الأنانية ذلك الذي أشاع القلق في نفسه، وإنما هو الخوف من أن يعجز بانكس عن إدراك التفاهم القائم بينهما، حتى إذا اكتشف شيئاً فربما اتخذ إجراء دون أن يخبره به. ومن ناحية أخرى كان كلما تذكر حديثه مع بانكس، والسبب البسيط الذي جعله يظن أن هناك احتمالاً يجعل هذه الشخصية العجيبة تتعقب أسرار آل دوريت، رأى في بعض أحيان أنه بالغ في هذه التصورات. وكان صراعه في هذا الخضم الفكري، كصراع السفن الشراعية في التيارات المتقاطعة، يدفع به هنا وهناك دون أن يصل به إلى شاطئ الأمان.

ولم يكن إبعاد دوريت الصغيرة عن بيئتها التي اعتادت عليها ليصلح شيئاً. لقد كانت تبقى في الخارج كثيراً، وتظل في غرفتها الخاصة طويلاً، بحيث بدأ يفتقدها ويشعر بفراغ أصم في مكانها. لقد كتب إليها ليسأل هل هي أحسن حالاً، فردّت عليه جد شاكرة قائلة له إن عليه ألا يقلق من أجلها، لأنها في أحسن حال؟ ولكن فترة طويلة مضت -منذ أن تعرف عليها- دون أن يراها.

وعاد إلى بيته ذات مساء بعد مقابلة مع أبيها الذي قال إنها خرجت لتقوم ببعض الزيارات، وهذا ما كان يقوله دائماً عندما تكون مشغولة بالعمل الشاق لتشتري له عشاءه، وفي بيته وجد السيد ميجلز في حالة اهتياج يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، فلما فتح الباب، توقف السيد ميجلز واستدار يواجهه قائلاً:

- كلينام.. تاتيكورام.

- ماذا حدث؟

- فُقِدت.

فهتف كلينام في دهشة:

- يا للسماء، ماذا تعني؟

- لم تعد حتى الرقم خمسة وعشرين. لم تستطع أن تفعل هذا. توقفت عند الرقم ثمانية، ثم هربت.

- تركت منزلك؟

فقال السيد ميجلز وهو يهز رأسه:

- على ألا تعود إليه قط. إنك لا تعرف مدى عنف شخصية هذه الفتاة وكبريائها. إن فرقة من الجياد لا تستطيع الآن أن تعيدها. وإن قضبان وأقفال الباستيل لا تستطيع أن تحتجزها.

- كيف حدث هذا. أرجوك أن تجلس وتخبرني.

- أما عن كيف حدث هذا، فليس من السهل أن أسرده. لأنه لا بد أن يكون لك هذا المزاج التعس لتلك الفتاة المتهورة نفسها قبل أن تدرك الحقيقة كاملة ولكن الأمر حدث على هذا النحو: كنت أنا وبيت وأمها نكثر الحديث عن موضوع ما في الأيام الأخيرة. ولن أخفي عنك يا

كلينام أن هذه الأحاديث لم تكن من النوع المشرق البهيج الذي كنت أتمنى. كانت تدور حول سفرنا إلى الخارج مرة أخرى. والواقع أن لي هدفاً في رغبتي في هذا السفر.

وخفق قلب كلينام بسرعة. واستطرد السيد ميجلز يقول بعد برهة صمت:

- إنه هدف لن أخفيه عنك أيضاً يا كلينام. فإن لابنتي العزيزة ميولاً خاصة تثير في نفسي الأسف. ولعلك تخمن من هو الشخص الذي تدور حوله هذه الميول. إنه هنري جوان.

- إنني لم أفاجأ بسماع هذا.

فقال السيد ميجلز وهو يزفر بعمق:

- حسناً. كنت أرجو الله ألا تسمع هذا قط. وعلى أية حال فهذا ما حدث. لقد حاولت مع الأم بكل جهد ممكن أن نسيطر على الموقف يا كلينام. لقد حاولنا معالجة الأمر بالنصيحة الهادئة، وحاولنا الاعتماد على الوقت، وحاولنا التفرقة، ولكن بلا جدوى. وكانت أحاديثنا الأخيرة تدور حول موضوع السفر إلى الخارج لمدة عام آخر على الأقل عسى أن تنتهي هذه الفرقة الطويلة بالقضاء على هذا الموضوع. ولكن بيت تشعر لهذا السبب بالتعاسة، وأنا وأمها نشعر بالتعاسة من أجلها.

وقال كلينام إنه يستطيع بسهولة أن يصدق هذا.

واسترد السيد ميجلز يقول بلهجة تنم عن الاعتذار:

- حسناً. إنني أعترف كرجل واقعي، وأنا واثق أن أمها تعترف كامرأة واقعية، أننا في المحيط العائلي، نضخم متاعبنا ونجعل من الحبة قبّة، وذلك بطريقة المفروض أنها تثير ضجر الناس المتفرجين... أعني الأغراب كما تعلم يا كلينام. ولكن سعادة بيت أو شقاءها مسألة موت أو

حياة بالنسبة لنا. ولعل أن يكون لنا العذر -كما أرجو- في تضخيمنا للأمر. وعلى أية حال كان هذا الوضع يمكن أن تحتمله تاتيكورام، ألا ترى هذا؟

فقال كليناام بلهجة تنم عن تأكيده لهذا الرأي:

- إنني أرى هذا حقاً.

فقال السيد ميجلز وهو يهز رأسه في حزن:

- لا يا سيدي. إنها لم تستطع أن تحتمل هذا الموقف. لقد بلغ من تململ هذه الفتاة وثوراتها، وعنف الصراع الذي يمزقها من الداخل أن كنت أقول لها بهدوء المرة بعد الأخرى كلما مررت بها: «خمسة.. و.. عشرون يا تاتيكورام.. خمسة.. و.. عشرون» ولشد ما تمنيت من صميم قلبي لو أنها استمرت تعد خمسة.. و.. عشرين ليل نهار. وعندئذ ما كان ليحدث هذا.

وراح السيد ميجلز -الذي كان محياه عندئذ أكثر دلالة على طيبة قلبه حتى مما كان يبدو عليه في أوقات البِشر والبهجة- يمسح وجهه ابتداءً من جبينه حتى ذقنه، ثم يهز رأسه مرة أخرى قائلاً:

- لقد قلت للأم -ولم يكن هذا ضرورياً لأنها كانت ستفكر فيه بنفسها- إننا أناس واقعيون يا عزيزتي، ونحن نعرف قصتها، ونرى في هذه الفتاة البائسة بعض انعكاسات لما كان يصطرع في قلب أمها حتى قبل أن تخرج هذه المخلوقة المسكينة إلى العالم. لسوف نتغافل عن طبعها الحاد أيتها الأم، لن نعمل على ملاحظته في الوقت الحاضر يا عزيزتي. لسوف ننتهز فرصة إحدى إساءاتها في وقت آخر لتقويمها وهكذا لزمنا الصمت. ولكن رغم كل هذا، فقد بدا أن الأمر لا بد أن يحدث. ومن ثم اندلعت ثورتها ذات ليلة.

- كيف، ولماذا؟

فقال السيد ميجلز وقد اضطرب قليلاً بسبب هذا السؤال، لأنه كان أشد حرصاً على تخفيف موقفها بالنسبة لموقف العائلة:

- إذا سألتني لماذا، فأنا أستطيع فقط أن أحولك إلى ما قلته الآن عن المحادثة التي دارت بيني وبين الأم. أما عن كيف، فقد كنا ألقينا على بيت تحية المساء أمامها في حنان شديد كما يجب أن أعترف، وصحبت هي بيت إلى الطابق الثاني، لأنها كما تذكر، وصيفتها الخاصة. ولعل بيت كانت -بسبب حالتها النفسية الضيقة- أقل مجاملة ولباقة عن المعتاد في طلب الخدمات منها، ولكنني أعرف أنه ليس لي أي حق في أن أقول هذا، فقد كانت بيت دائماً رقيقة مجاملة.

- إنها أرق آنسة في الدنيا.

فقال السيد ميجلز وهو يصافحه:

- شكراً يا كلينام. إنك كثيراً ما رأيتهما معاً. حسناً. ثم لم نلبث أن سمعنا هذه الفتاة التعسة تاتيكورام صاخبة غاضبة، وقبل أن نتمكن من السؤال عما حدث، عادت بيت إلينا ترتعد وتقول إنها خائفة منها. وفي أعقابها مباشرة جاءت تاتيكورام في غضب ملتهب، وأخذت تقول لنا وهي تضرب الأرض بقدميها: «إنني أكرهكم أنتم الثلاثة. إنني ممتلئة، إلى حد الانفجار بكراهية هذا البيت».

- وعلى هذا قلت...

فقال السيد ميجلز بهذا اليقين البسيط الصريح الذي يمكن أن يسيطر حتى على يقين السيدة جوان نفسها:

- أنا؟ لقد قلت فقط «عدّي من واحد إلى خمسة وعشرين يا تاتيكورام».

وعاد السيد ميجلز يمسح وجهه مرة أخرى ويهز رأسه في هيئة تنم عن الأسف الشديد.

- وكان قد بلغ من تعوّدها على هذا يا كلينام، أنها حتى عندئذ ورغم ثورتها الجامحة التي لم نشهد لها مثيلاً، توقفت فجأة، وحملقت في وجهي وراحت تعد «كما أدركت» حتى الرقم ثمانية. ولكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها لتعد أكثر من هذا. لقد انهارت المسكينة عندئذ، ألقت بالسبعة عشر الباقية أدراج الرياح. ثم إذا هي تنفجر. قالت إنها تزدرينا، وإنها كانت شقية معنا وإنها لا تستطيع أن تحتمل، ولن تستطيع أن تحتمل وإنها قررت الرحيل، قالت إنها أصغر سناً من سيدتها الصغيرة، وإنها لا تستطيع أن تبقى لترى دائماً أنها -أي سيدتها- هي المخلوقة الوحيدة التي تتمتع بالحب والحنان والاهتمام إلا أنها لن تفعل، إنها لن تفعل، إنها لن تفعل! وماذا نظن أنها -أي تاتيكورام- قد تكون لو أنها نعمت في طفولتها بالرعاية والحنان مثل سيدتها الصغيرة؟ إنها تكون عندئذ مثلها! آه، وربما أفضل منها خمسين مرة. وقالت إننا عندما كنا نتظاهر بحبها، فإنما كنا نتعالى عليها، هذا ما كنا نفعله، كنا نتعالى عليها بحيث نُشعِرها بالمذلة والعار. وكل من في المنزل كان يفعل الشيء نفسه. إنهم جميعاً يتحدثون عن آبائهم وأمهاتهم وإخوتهم وأخواتهم. وكانوا يحبون أن يكثروا من هذا الحديث أمامها وقد كانت هناك السيدة تيكيت، أمس فقط، عندما كان حفيدها الصغير معها.. لقد كانت تضحك وحفيدها يحاول أن ينطق بهذا الاسم التعس «تاتيكورام» الذي أطلقناه عليها، والذي طالما ضحكنا عليه، ومن ذا الذي لم يضحك عليه! ثم من نكون نحن حتى نطلق عليه اسم كلب أو قط؟ ولكنها لم تهتم. إنها لن تتقبل المزيد من المنافع منا. إنها سوف تقذف باسمها في وجوهنا وترحل. إنها سوف تهجرنا في هذه اللحظة ولن يستطيع أحد أن يمنعها، ولن نسمع عنها بعد ذلك أبداً.

وكان السيد ميجلز قد سرد هذا كله بحماسة شديدة تكاد تكون طبق الأصل لما حدث بحيث بلغ تقريباً من الاضطرام والاهتياج عند فراغه من الحديث ما كانت عليه الفتاة كما وصفها.

وقال وهو يمسح وجهه:

- آه، حسناً. لم يكن ثمة فائدة من محاولة التحدث منطقياً مع تلك المخلوقة الثائرة اللاهثة، والله يعلم كيف كانت قصة أمها، ومن ثم قلت لها بهدوء إنه لا ينبغي أن تخرج في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، وقدمت إليها يدي، وصحبتها إلى غرفتها، وأغلقت أبواب البيت. ولكنها هربت هذا الصباح.

- ولم نعد نعرف عنها أكثر من هذا؟

فردّ السيد ميجلز قائلاً:

- أجل. لقد أمضيت اليوم كله بحثاً عنها. لا بد أنها خرجت في ساعة مبكرة جداً، وفي هدوء بالغ. إنني لم أجد لها أثراً في أي مكان حولنا.

فقال كلينام بعد لحظة تفكير:

- مهلاً! إنك تريد أن تراها؟ إنني أظن هذا؟

- أجل. بكل تأكيد. إنني أريد أن أتيح لها فرصة أخرى. وإن بيت والأم تريدان أن تتيحا لها فرصة أخرى. وأنت نفسك...

وقال السيد ميجلز بلهجة استدراجية، وكأنما الدافع إلى غضبه لم يكن صادراً عنه:

- تريد أن تتيح لهذه الفتاة المسكينة الهوجاء فرصة أخرى يا كلينام. إني أعرف.

فقال كلينام:

- لو أني لم أرغب لبدا الأمر عجيباً وقاسياً حقاً ما دمتم جميعاً غافرين لها. إن ما كنت أنوي أن أسألك عنه، هل فكرت في تلك الآنسة ويد؟

- أجل. ولم أفكر فيها إلا بعد أن بحثت في جميع المناطق المجاورة، ولم يخطر ببالي أن أفكر في الآنسة ويد لولا أني وجدت بيت والأم -عند عودتي إلى البيت- تعتقدان أن تاتيكورام لا بد قد ذهبت إلى الآنسة ويد. وعندئذ، طبعاً، تذكرت ما قالت في ذلك اليوم على مائدة العشاء عندما زارتنا أول مرة.

- ألديك فكرة عن أين يمكن أن تعثر على الآنسة ويد.

فردّ السيد ميجلز قائلاً:

- إذا شئت الحقيقة، فإنني لم آتِ إليك إلا لأن كل أفكاري أصبحت مشوشة مضطربة بشأن هذا الموضوع. إن في بيتي واحداً من هذه الإحساسات الغريبة التي تشيع أحياناً في البيوت بطريقة خفية، بحيث يبدو أنه لا أحد التقطها بشكل واضح من أحد آخر، ومع ذلك يبدو أن كل شخص قد التقطها بطريقة ما عن شخص آخر ثم أطلقها مرة أخرى؛ هذا الإحساس الغريب يقول لنا إنها تعيش أو كانت تعيش في هذه المنطقة.

ثم سلم إلى كلينام قصاصة ورق كتب عليها اسم شارع جانبي موحش بمنطقة جروفنتر بالقرب من بارك لين.

فقال آرثر ناظراً إليها:

- لا يوجد هنا رقم بيت.

فردّ صاحبه قائلاً:

- لا يوجد رقمٍ يا عزيزي كليتام؟ لا يجد شيء على الإطلاق! بل إن اسم الشارع نفسه قد تذروه الرياح لأن أحداً من قومي، كما أؤكد لك، لا يعرف من أين أتت هذه الورقة. ولكن الأمر على كل حال يستحق البحث. ولما كنت أفضِّل القيام بالبحث جماعة بدلاً من أن أنفرد به، ولما كنت أيضاً زميل سفر لتلك المرأة الجامدة، خطر لي أنه ربما...

وأتمّ كلينام الجملة له بأن تناول قبعته مرة أخرى قائلاً إنه مستعد.

وكان الوقت عندئذ في فصل الصيف؛ وكان المساء حاراً متربا مكفهراً. وركب الاثنان إلى أول شارع أكسفورد، وبعد أن هبطا هناك، غاصا بين عدد من الشوارع الكبيرة ذات الفخامة الكئيبة، وشوارع أخرى صغيرة تحاول أن تكون فخمة، فلم تستطع إلا أن تزداد كآبة. وكان منها عدد كبير يتداخل كالمتاهة بالقرب من بارك لين، ومجاهل من البيوت الضيقة بأروقتها ومرافقها الهمجية العتيقة وكانت تسود الشفق منازل رهيبة قام على تصميمها رجل مختل العقل في زمن أعوج، لا تزال تطالب بإعجاب الأجيال التالية، ومصممة على أن تظل هكذا حتى تنهار؛ وثمة منازل طفيلية بشيع التقلص في كل هيكلها ابتداءً من ردهاتها الخارجية القزمية المنشأة على طراز القصور الكبيرة في الميدان إلى النوافذ المحشورة لغرف النوم المطلة على المباءات في منطقة الحظائر، هذه المنازل كانت تجعل المساء مقبضاً. ومساكن متهالكة لا يُعرَف لها طراز إلا أنه لا يوجد فيها شيء مريح غير الرائحة الكريهة، وكانت تبدو كأنها النتيجة النهائية لبنايات كبيرة ظلت تتقلص وتتقلص حتى أمست هكذا، وكانت بخارجاتها الإضافية وشرفاتها المرتكزة على أعمدة من الحديد الرفيع تبدو كأنها تستريح باشمئزاز على عكازات. وهنا وهناك كانت تطل على الشارع، واجهة بيت كأنما اجتمع فيها علم الأنساب كله، وكأنما هي

أسقف يلقي محاضرة عن الغرور. والحوانيت -وعددها قليل- لم تكن ذات مظهر جذاب، لأنها لم تكن تهتم إطلاقاً بالرأي العام. فصانع الفطائر كان يعرف زبائنه المقيدين في دفتره، ومن ثم كان هادئ النفس من هذه الناحية، مكتفياً بعرض عدد قليل من الأسطوانات الزجاجية في واجهة المحل، وفي هذه الزجاجات كان ثمة قطرات من زيت القرنفل، مع بضع كعكات من كعك الزبيب القديم الموضوع كعينة. وكان عدد كقليل من البرتقال يكون كل ما يحتويه متجر خضراوات في نظر إنسان سوقي التفكير، وكانت سلة مجدولة من العشب سبق لها أن احتوت على كمية من بيض الزقزاق هي كل ما يقدمه الفراخ للدهماء. وبدا كأن كل شخص في تلك الشوارع -وكانت هذه هي الحالة دائماً في مثل هذه الساعة وذلك الفصل- قد خرج مدعواً لتناول العشاء في الخارج بينما لا يبدو أن هناك أحداً قد دعاهم إلى العشاء.

وفي مداخل البيوت كان يتلكأ عدد من التشريفاتية بملابس ملونة ورؤوس بيضاء وكأنهم سلالة منقرضة لطيور رهيبة. والسقاة، وهم رجال منفردون متحفظو السمات، كانوا يبدون غير مطمئنين إلى غيرهم من السقاة. وكان مرور المركبات في الحي قد توقف في ذلك اليوم، وظلت مصابيح الشارع مضاءة، ووقف السائرون الصغار الأشرار بملابسهم الضيقة جداً، وسيقانهم الملتوية كالتواء عقولهم، كل اثنين معاً، يمضغون أعواد القش، ويتبادلون الأسرار الخبيثة. والكلاب المرقطة التي كانت تخرج مع المركبات، والتي تعودت على ما فيها من أبهة وترف، بحيث بدا كأنه تنازل من جانبها في خروجها دون هذه المركبات، لكي تصحب المساعدين في ذهابهم وإيابهم لأداء المهمات. وهنا وهناك كان ثمة حانة منعزلة لم يكن يبدو عليها أنها في حاجة لأن تقوم على أكتاف الناس، كما يبدو أنها لا ترغب في أن يتردد عليها كثيراً غير طائفة معينة من السادة.

كان هذا الاكتشاف الأخير قد تم على يد الصديقين هما يقومان بتحرياتهما. ولكنهما لم يجدا هناك، أو في أي مكان، امرأة تعرف باسم الآنسة ويد لها علاقة بذلك الشارع الذي يبحثان عنه. وكان أحد من تلك الشوارع الطفيلية، طويلاً، ضيقاً، موحشاً، كئيباً كأنه موكب جنازة طويل من الآجر والملاط.

وكانا قد سألا في عدد من البوابات الصغيرة، حيث رأيا في إحداهما شاباً محزون السمات واقفاً في أعلى درجات خشبية شديدة الانحدار، يلتقط الشعيرات من ذقنه، ولكنهما لم يستطيعا الظفر بأية معلومات. لقد سارا على طول الشارع في جانب منه، ثم عادا على الجانب الآخر، وخلال هذا الوقت كان اثنان من باعة الصحف الصاخبين، يعلنان عن حادث عجيب لم يقع ألبتة، وما كان ليقع أبداً، وينفذان بأصواتهما الخشنة إلى الغرف السرية. ولكنهما، أي كلينام وصاحبه، لم يخرجا بطائل. وأخيراً وقفا في المنعطف نفسه الذي بدآ منه البحث وكان الليل قد تكاثف، ولكنهما لم ينتهيا إلى شيء.

وحدث أنه كان في ذلك الشارع بيت حقير مرا به عدة مرات، وكان يبدو خالياً، وعلى نوافذه لافتات الإيجار. وكانت هذه اللافتات التي تشبه في اختلافها اختلاف الأشخاص في موكب جنازة، تكاد تكون لوناً من الزخرفة. ولعل هذا لأنها تبقي البيت في الذهن منفصلاً عن غيره، أو ربما لأن السيد ميجلز نفسه أعلن في مروره على البيت مرتين قائلاً: «من الواضح أنها لا تقيم هنا» والآن قد اقترح كلينام أن يعودا ويحاولا البحث في ذلك البيت قبل أن ينصرفا نهائياً. ووافق السيد ميجلز، فعادا إليه.

وطرقا عليه مرة، وصلصلا جرسه مرة، دون جدوى. وقال السيد ميجلز وهو يرهف السمع «خالٍ» وقال كلينام «مرة أخرى» ثم طرق

عليه ثانية. وبعد هذه الطرقة، سمعا حركة في أسفل البيت، ثم لم يلبثا أن سمعا شخصاً ما يصعد بخطوات متثاقلة نحو الباب.

وكان مدخل البيت الضيق مظلماً بحيث استحال عليهما أن يريا بوضوح أي نوع من الناس فتح لهما الباب. ولكن الذي بدا لهما أنها امرأة عجوز فقال لها كلينام:

- معذرة لإزعاجك، هل تسمحين وتذكرين لنا أين تقيم الآنسة ويد؟ وردّ الصوت الآتي من الظلام على حين غرة قائلاً:

- إنها تقيم هنا.

- أهي موجودة بالبيت الآن!

ولما لم يسمعا إجابة، عاد السيد ميجلز يسأل قائلاً:

- أرجوك، هل هي بالبيت الآن؟

وبعد برهة صمت أخرى، قال الصوت فجأة:

- أعتقد أنها كذلك. يحسن بكما أن تدخلا، وسوف أسأل.

وبدا كأنهما سجنا في ذلك البيت المظلم، بينما ابتعدت عنهما تلك الشخصية وهي تقول بصوت أكثر ارتفاعاً:

- تعاليا من فضلكما، إنكما لن تتعثرا في أي شيء.

وراحا يتحسسان طريقهما صاعدين سلّماً إلى ضوء خافت ثبت أنه ضوء مصباح الشارع منساباً من نافذة، وأخيراً تركتهما تلك الشخصية في غرفة مغلقة مكتومة الهواء.

وقال السيد ميجلز بخفوت:

- هذا عجيب.

وقال كلينام موافقاً بنفس الصوت:

- عجيب جداً. ولكننا نجحنا، وهذا هو المهم. ها هو ذا ضوء آتٍ.

وكان الضوء مصباحاً، وحاملة المصباح كانت امرأة عجوزاً، قذرة جداً، وعجفاء مغضنة جداً. وقد قالت بنفس الصوت الذي سبق أن سمعاه:

- إنها بالبيت. وسوف تأتي فوراً.

وبعد أن وضعت المصباح على المائدة، نفضت يديها على مريلتها، وهي عملية لو قامت بها إلى الأبد لما نظفتها، ثم نظرت إلى الزائرين بعينين خابيتين، ثم تراجعت إلى الخارج.

وكان يبدو أن السيدة التي جاءا لزيارتها -إن كانت هي الساكنة الحالية للبيت- قد اتخذت سكنها كما لو كانت تقيم في خان شرقي لمبيت القوافل. فقد كانت الغرفة كلها مكونة من سجادة صغير مربعة في وسطها، وعدد من قطع الأثاث التي كان واضحاً أنها لا تنتمي إلى الغرفة في شيء، وكمية مهوشة من حقائب السفر المختلفة الأحجام والأنواع. وكان لأحد السكان السابقين المنتظمين لتلك الغرفة الصغيرة الخانقة الجو، منضدة مذهبة ومرآة حائط كبيرة. أما المنضدة فقد بهت لونها حتى غدت كأنها أزهار العام السابق، وأما المرآة فقد تعكر أديمها بحيث بدا كأنه بطريقة سحرية قد احتفظ بكل أنواع الضباب وبكل الأجواء الرديئة التي انعكست عليه. وكان أمام الزائرين لحظة أو اثنتان ليتطلعا حولهما، عندما فتح الباب وأقبلت الآنسة ويد.

كانت تماماً كما افترقا عنها آخر مرة. نفس الوسامة، ونفس الهيئة المتهكمة الباردة. ولم تظهر أية دهشة عند رؤيتها لهما، لا ولا أي انفعال، وإنما التمست منهما أن يجلسا، وقد كشفت برفضها أن تتخذ لنفسها مقعداً، أنها تعرف فوراً الغرض من زيارتهما. ومن ثم قالت:

– إنني أعتقد أنني أعرف السبب الذي من أجله حَبَوْتُماني بهذه الزيارة. ويمكننا أن ندخل في الموضوع فوراً.

فقال السيد ميجلز:

– إن السبب إذن يا سيدتي هو تاتيكورام.

– هذا ما خطر لي.

وقال السيد ميجلز:

– آنسة ويد. هل تتكرمين وتخبريننا ما إذا كنت تعرفين أي شيء عنها.

– بالتأكيد. فأنا أعرف أنها هنا، معي.

فقال السيد ميجلز:

– إذن اسمحي لي يا سيدتي أن أعرفك أنني سكون سعيداً جداً لو استرددتها، وإن زوجتي وابنتي ستكونان سعيدتين بعودتها إليهما. لقد عاشت معنا منذ مدة طويلة. ونحن لا ننسى حقوقها علينا. وأنا أرجو أن أعرف كيف يمكن أن نصل إلى تفاهم.

فردت قائلة بصوت متزن هادئ:

– أنت ترجو أن تعرف كيف تصل إلى تفاهم... في أي شيء؟

وهنا تدخل آرثر كلينام في الحديث حين رأى صديقه السيد ميجلز مرتبكاً فقال:

– أعتقد أن صديقي يا آنسة ويد يشير إلى النوبات المفاجئة من الشعور بالإجحاف التي تعتري الفتاة المسكينة أحياناً وتجعلها تنسى الذكريات الطيبة.

وابتسمت السيدة وهي تدير نظرتها إليه، وقالت فقط:

- أحقاً.

وظلت بعد هذه الكلمة واقفة بجوار المائدة في هدوء تام وثبات كامل مما جعل السيد ميجلز يحملق فيها بشيء من الدهشة والافتتان حتى إنه لم يستطع النظر إلى كلينام ليجعله يتحدث مرة أخرى. وبعد لحظات من الانتظار -والحرج الشديد- عاد آرثر يقول:

- ربما كان من الأحسن لو استطاع السيد ميجلز أن يراها يا آنسة ويد.

فقالت:

- هذا ممكن بسهولة. تعالي يا طفلتي.

وفتحت باباً وهي تقول هذا، ثم قادت الفتاة بيدها إلى الغرفة وكان من دواعي العجب الشديد رؤيتهما واقفتين معاً: بأصابعها الطليقة وهي تعبث بصدر ثوبها في شيء من التردد، وفي شيء من الانفعال، والآنسة ويد بوجهها الساجي ترنو إليها باهتمام. ولكن كان يمكن للرائي أن يلحظ بوضوح شديد أن ثباتها نفسه كالحجاب الذي يكشف عن القوام الذي يغطيه، فينم عن العاطفة الحارة المتقدة التي تتسم بها طبيعتها.

وقالت بنفس الصوت الهادئ الذي تحدثت به من قبل:

- اسمعي. ها هو ذا مولاك وسيدك. وهو راغب في أن يستردك يا عزيزتي إذا كنت تقدرين هذا الصنيع وتؤثرين الذهاب معه، إنك تستطيعين أن تكوني، مرة أخرى، دمية لابنته، وجارية لمسراتها ونزواتها ولعبة في البيت تظهر ما في الأسرة من نوازع الخير. يمكنك أن تعودي إلى اسمك المضحك مرة أخرى، اسمك الذي يتسلون به لنبذك وعزلك، كما ينبغي أن تنبذي وأن تعزلي عن الجميع، وذلك بسبب مولدك كما تعلمين،

ويجب ألا تنسي مولدك. يمكنك أن تعودي إلى ابنة هذا السيد، يا هاربيت، لتبقي دائماً أمامها كرمز حي على سموها وتواضعها الكريم، يمكنك أن تستردي كل هذه المنافع، وكثيراً غيرها من نفس النوع الذي أستطيع القول إنك تتذكرينه وأنا أتحدث الآن، والذي سوف تفقدينه عندما تلوذين بي، يمكنك أن تستردي كل شيء بقولك لهذين السيدين كم خضعت وكم ندمت، وبالعودة معهما لتتالي الصفح والغفران. فما رأيك يا هاربيت، هل ستفعلين.

وأجابت الفتاة -التي أخذ الغضب يشتد بها تدريجياً ووجهها يضطرم تحت تأثير الكلمات- قائلة وهي ترفع عينيها السوداوين المتألقتين برهة وتقبض بيدها على طيات الثوب الذي كانت تكمشه:

- إنني أفضل الموت على أن أفعل هذا.

وتلفتت الآنسة ويد حولها باسمة وهي لا تزال واقفة بجانبها ممسكة بيدها ثم قالت:

- أيها السيدان! ماذا ستفعلان إزاء هذا؟

وكان الاستياء الشديد الذي غمر السيد ميجلز المسكين وهو يسمع تصرفاته وبواعثه تحور بهذا الشكل، قد منعه من أن يتدخل بكلمة حتى الآن. إلا أنه استرد أخيراً قدرته على الحديث فقال:

- تاتيكورام، وسوف أناديك حتى الآن بهذا الاسم يا فتاتي الطيبة، لأني مدرك أني لم أعن شيئاً إلا العطف عندما أطلقته عليك، ومدرك أنك تعلمين هذا...

فقالت الفتاة وهي ترفع عينيها إليه مرة أخرى وتكاد تمزق نفسها بيدها المشغولة.

- إنني لا أعلم...

فقال السيد ميجلز:

- لا... ليس الآن ربما، وعينا هذه السيدة مركزتان عليك يا تاتيكورام.

وأردف يقول بعد أن نظرت الفتاة إليها برهة:

- وهذا التأثير القوي الذي تمارسه عليك. لا، ليس الآن ربما، ولكن في وقت آخر. تاتيكورام، إنني لن أسأل هذه السيدة هل هي تؤمن بما قالته حتى في سورة الغضب والحقد التي أعرف وصديقي على السواء أنها كانت تسيطر على حديثها، وذلك رغم أنها كانت تكبت نفسها بذلك التصميم الذي يجعل كل من يراها مرة لا ينساها على الأرجح. وأنا لن أسألك مع تذكرك لبيتي وكل ما ينتمي إليه هل تؤمنين أنت بهذا. وإنما سأقول لك فقط إنه ليس عليك أن تخضعي لي أو لأحد من أهل بيتي، وليس ثمة ما يدعو لأن تلتمسي الصفح منا. إن كل ما أريد منك أن تفعليه، أن تعدي حتى الرقم خمسة وعشرين يا تاتيكورام.

فنظرت إليه برهة؛ ثم قالت بوجه متجهم:

- إنني لن أفعل. أرجوك يا آنسة ويد أن تبعديني عن هنا.

ولم يكن ثمة سبيل في تلك اللحظة إلى تخفيف الصراع المحتدم في أعماق نفسها. لقد كان مركزاً بين التحدي الغاضب، وبين التحدي العنيد.

وكان وجهها المضطرم، ودمها المتوقد، وأنفاسها اللاهثة، كلها تقف ضد إتاحة الفرصة لها لكي تتراجع. ومن ثم كانت تكرر قائلة بصوت خفيض ثقيل.

- لن أفعل، لن أفعل، لن أفعل. أفضل أن أُمزّق إرباً أولاً. لسوف أمزق نفسي إرباً أولاً.

ووضعت الآنسة ويد، التي أطلقت يد الفتاة، يدها على عنقها برهة كأنها تحميها، ثم قالت وهي تلتفت حولها بنفس ابتسامتها السابقة، وبنفس رنين صوتها السابق:

- أيها السيدان. ماذا ستفعلان إزاء هذا.

فهتف السيد ميجلز متوسلاً بيد ملهوفة ومعقباً على ما قيل:

- أوه تاتيكورام، تاتيكورام. اسمعي صوت هذه السيدة. انظري إلى وجهها، وفكري فيما يمتلئ به قلبها، وفي المستقبل الذي يمتد أمامك أياً ما قد يكون تفكيرك يا طفلتي، فإن سيطرة هذه السيدة عليك... وهي سيطرة مثيرة لجهتنا، ويمكننا أن أتمادى فأقول ومثيرة لفزعنا، قائمة على أساس من انفعالات أشد قسوة من انفعالاتك، ومن مزاج أعنف من مزاجك. فماذا يمكن أن تكون إحداكما للأخرى؟ وماذا يمكن أن تكون النتيجة.

فقالت الآنسة ويد بلا أي تغير في صوتها أو سلوكها:

- إنني وحيدة هنا أيها السيدان، فقولا كل ما تريدان.

فقال السيد ميجلز:

- إن على هذه الطفلة المخدوعة أن تلتزم الأدب في هذه المرحلة. وأنا أرجو ألا تحرم منه نهائياً حتى رغم الإساءة البالغة التي ترتكبينها في حقها أمامي. ومعذرة إذا أنا ذكرتك على مسمع منها -وهذا ما يجب أن أقول- أنك كنت غامضة في نظرنا جميعاً، وأنه لم يكن ثمة توافق بيننا وبينك عندما شاء سوء حظها أن تعرفك. إنني لا أعرف من أنت؟ ولكنك لا تخفين ولا تستطيعين أن تخفي روح الشر الكامنة في أعماقك. فإذا حدث وكنت امرأة تستمد بهجتها الملتوية -لأي سبب كان- من جعل أخت لها في الإنسانية شقية مثلها، وقد بلغت السن التي عرفت فيها شيئاً كهذا، فأنا أحذرها منك، أو أحذرك من نفسك.

وقالت الآنسة ويد بهدوء:

- أيها السيدان! عندما تفرغان من الحديث، فربما يمكنك يا سيد كلينام أن تقنع صديقك...

فقال السيد ميجلز بقوة:

- ليس قبل أن أبذل مجهوداً آخر. تاتيكورام، يا طفلتي المسكينة العزيزة، عدي إلى الرقم خمسة وعشرين.

فقال كلينام بصوت خفيض وتوكيدي:

- لا ترفضي فرصة الأمل والاستقرار التي يتيحها لك هذا الرجل الطيب. لوذي بأصحابك الذين لم تنسيهم بعد، أعيدي التفكير مرة أخرى.

فقالت الفتاة وصدرها يعلو بالانفعال ويدها على عنقها وهي تتحدث:

- لن أفعل. ابتعدي بي يا آنسة ويد.

فقال السيد ميجلز:

- تاتيكورام. مرة أخيرة. إن كل ما أريده منك يا طفلتي هو أن تعدي حتى الرقم خمسة وعشرين.

فوضعت يديها بقوة على أذنيها، مسدلة بهذه الحركة العنيفة خصلات شعرها الأسود اللامع في اضطراب، ثم أدارت وجهها في تصميم نحو الجدار. أما الآنسة ويد، التي كانت ترقبها في أثناء هذا الرجاء الأخير بتلك الابتسامة العجيبة اليقظة، وبتلك اليد الضاغطة على صدرها، كما سبق أن راقبتها في أثناء ثورتها النفسية في مرسيليا، فقد وضعت عندئذ ذراعها حول خصرها وكأنها هي تستولي عليها إلى الأبد.

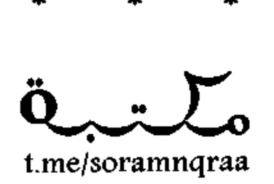
وكان ثمة أمارات واضحة من الانتصار على وجهها عندما استدارت به لتطرد الزائرين، قائلة:

- بما أن هذه هي المرة الأخيرة التي سيكون لي فيها هذا الشرف، وبما أنك تحدثت عن جهلك من أكون، وأيضاً عن الأساس لنفوذي هنا، فلعلك تعلم أنه قائم على حالة مشتركة. فأنا تماماً -من ناحية المولد- مثل لعبتك هذه المحطمة، إنها بلا اسم، وكذلك أنا. إن مأساتها مأساتي، ولم يبقَ لدي ما أزيد على هذا.

كان هذا الحديث موجهاً إلى السيد ميجلز الذي غادر البيت حزيناً. وفيما كان كليمام يتبعه، قالت له بنفس الهدوء الظاهري، وبنفس طبقة الصوت، ولكن بابتسامة لا تُرى فقط إلا على الوجوه القاسية: ابتسامة خفيفة ترفع جانبي الأنف، ولا تكاد تلمس الشفاه، ولا تتسع تدريجياً، وإنما تختفي فوراً بعد أن تؤدي غرضها:

- لعل زوجة صديقك العزيز السيد جوان، كما أرجو، تلتمس السعادة من الفارق بين مولدها وبين مولدي ومولد هذه الفتاة، ومن الحظ السعيد السامي الذي ينتظرها.

* * *



اختفاء غير ذي شأن



لم يطمئن السيد ميجلز إلى المحاولات التي بذلها لاسترداد الفتاة تاتيكورام. ومن ثم أرسل خطاب احتجاج -لم يكن فيه غير النوايا الطيبة- إليها، وإلى الآنسة ويد أيضاً. ولكنه لم يتلقَّ رداً على رسالته، لا ولا على رسالة أخرى كتبها إلى الفتاة العنيدة سيدتها الشابة السابقة، التي كان يمكن أن تذيبها، لو كان ثمة شيء يمكن أن يفعل هذا، وكانت الرسائل الثلاث كلها قد أعيدت إلى بيت السيد ميجلز بعد ذلك بأسابيع لرفض استلامها. ومن ثم أناب عند السيدة ميجلز لكي تجرب القيام بزيارة أخرى. ولما عجزت هذه السيدة الجليلة عن الحصول على إذن بالزيارة، ولما رفضت رغبتها لمقابلة الآنسة ويد باستمرار، عاد السيد ميجلز يلتمس المشورة مرة أخرى من آرثر فيما ينبغي أن يفعل. وكل ما نتج عن تعاونهما معاً في هذا الشأن، هو اكتشافه أن البيت الخالي قد تُرِك في عهدة السيدة العجوز، وأن الآنسة ويد قد رحلت، وأن البقايا والنفايات من الأثاث قد اختفت، وأن السيدة العجوز لا ترفض قبول أي عدد من أنصاف الريالات مع شكر الواهب بلطف دون أن يكون لديها معلومات يمكن أن تقدمها نظير هذه النقود أكثر من عرضها الدائم لمطالعة سجل بأسماء الأثاثات الثابتة الذي تركه سمسار البيوت الشاب في الصالة.

ورغم هذا الإخفاق، فقد أبى السيد ميجلز أن ينفض يديه من هذه الجاحدة وأن يتركها لليأس، آملاً أن تغلب جوانبها الطيبة على ميولها الشريرة، ومن ثم راح، لمدة ستة أيام متوالية، ينشر إعلانات بارعة التورية في الصحف الصباحية مؤداها أنه إذا أرادت فتاة معينة هجرت بيتها أخيراً بلا تبصّر، أن تعود إلى عنوانه في توتيكنهام، فإن كل شيء سوف يعود إلى ما كان عليه، ولا خوف عليها من الملام أو التوبيخ. ولكن النتائج غير المنتظرة لهذا الإخطار لم تلبث أن أظهرت للسيد ميجلز المستاء لأول مرة في حياته، أن هناك مئات من الفتيات يتركن بيوتهن بلا تبصر كل يوم. ذلك لأن حشوداً من الفتيات كن يجئن إلى توتيكنهام، حتى إذا رأين أنهن لا يقابَلن بالترحاب المنشود، طالبن -بوجه عام- تعويضاً عما تجشمنه من متاعب، بالإضافة إلى مطالبتهن بأجر المركبة للعودة. ولم يكن هؤلاء قط هم العملاء غير المدعوين الذين جلبهم الإعلان. ذلك أن حشوداً أخرى من كُتّاب رسائل الاستجداء، الذين كانوا -كما يبدو- يترقبون في لهفة دائماً أية فرصة كهذه لإرسال خطاباتهم، أخذوا يكتبون قائلين إنهم بعد أن قرؤوا، الإعلان رأوا، وهم مطمئنون؛ أن يطلبوا مبالغ مختلفة، تتراوح بين عشرة شلنات وخمسين جنيهاً: لا لأنهم يعرفون أي شيء عن الفتاة الموجه إليها الإعلان، وإنما لأنهم يشعرون أن تقديم هذه الهبات لهم قد يريح إلى حد كبير نفسية المعلن. وكذلك انتهز عدد كبير من أصحاب المشروعات هذه الفرصة ليراسلوا السيد ميجلز فمثلاً كانوا يكتبون إليه قائلين إنهم -بعد أن لفت بعض الأصدقاء أنظارهم إلى الإعلان- يقررون أنهم إذا سمعوا أي شيء عن الفتاة المشار إليها، فإنهم لن يترددوا في إخطاره فوراً، وأنهم في الوقت نفسه، يرجون أن يتكرم بتمويلهم بالمبالغ اللازمة لاستكمال نوع جديد تماماً من المضخات، حيث ينتهي الأمر بأسعد النتائج للجنس البشري.

وكان السيد ميجلز وأسرته قد بدؤوا تحت هذه المثبطات المجتمعة، ينفضون أيديهم من أمر تاتيكورام باعتبارها لن تعود، عندما أقبلت عليهم الشركة الجديدة النشيطة دويس وكلينام بصفتهم الشخصية ذات يوم سبت لقضاء عطلة الأسبوع في الكوخ حتى يوم الاثنين. وقد ذهب الشريك الأكبر بالمركبة، وذهب الشريك الأصغر معتمداً على عصاه.

وكان ثمة أشعة ساجية من شمس المغيب، صيفاً، تنساب عليه وهو يقترب من نهاية المطاف، وتتجاوزه إلى المروج الممتدة على طول النهر الساري. وكان يخامره ذلك الشعور بالسكينة، وبالإحساس بالتخفف من عبء ثقيل، وهو الإحساس الذي يوقظه سكون الريف في صدور سكان المدن، وكان كل شيء أمام ناظريه جميلاً ساجياً. وكان الورق الأخضر الغزير للشجر، والعشب النضير المتمازج مع الزهور البرية، والجزر الخضراء الصغيرة في مجرى النهر، وأحواض نبات السمار والزنابق البيضاء الطافية على سطح الماء، والأصوات البعيدة في الزوارق، التي كانت تنساب إليه في عذوبة على أجنحة نسائم الليل وفوق المياه الضاحكة، كل هذا كان تعبيراً عن الراحة والهدوء. وكان في هذه الأصوات التي تنساب بين الحين والآخر من وثبة سمكة أو حفيف مجداف، أو زقزقة طائر لم يرقد على البيض بعد، أو نباح بعيد لكلب، أو خوار بقرة، في هذه الأصوات كانت تشيع أنفاس الراحة التي بدا أنها تغمره مع كل نفحة شذى تعطر الهواء الذكي.

وكانت الخطوط الطويلة الحمراء، والذهبية في المساء، والمجاز الباهر للشمس الغاربة، كلها لون من السكينة الإلهية. وعلى قمم الأشجار القرمزية، البعيدة هناك، وعلى الرؤوس الخضراء القريبة التي كانت ظلالها تزحف ببطء، كان ثمة سكون مماثل. وبين المعالم الطبيعية وظلالها على الماء، لم يكن ثمة فوارق. إذ كان كل منهما ساجياً صافياً،

وكان وهو زاخر بسر الموت والحياة الخفي، زاخراً أيضاً بيقين الأمل الذي يفعم قلب الناظر بالأمن لأنه على ألطف وأرق ما يكون الجمال.

وتوقف كلينام، لا لأول مرة من مرات كثيرة، ليتلفت حوله، ويدع ما يراه يترسب في أعماق نفسه كما كانت الظلال، عند النظر إلينا، تبدو وهي تزداد عمقاً في الماء. ثم راح يستأنف سيره ببطء عندما رأى أمامه في الممر شخصاً لعله كان قد حسبه فعلاً مظهراً من مظاهر المساء وتأثيراته.

كانت ميني هناك، بمفردها. وكانت في يدها بعض الأزهار، وبدا أنها وقفت في مكانها لا تريم عندما رأته، انتظاراً له. وكان وجهها نحوه وقد لاحَ أنها كانت آتية من الجهة المقابلة. وكان في تصرفاتها شيء من التردد لم يسبق لكلينام أن رآه عليها، وفيما هو يقترب منها خطر بباله فوراً أنها جاءت إلى هذا المكان خاصة للحديث معه.

وأعطته يدها وقالت:

- إنك تعجب إذ تراني هنا بمفردي؟ ولكن جمال المساء جعلني أتجول إلى أبعد مما كنت أقصد أولاً. وقد خطر لي أن من المحتمل أن أراك، وهذا ما زادني ثقة. فإنك دائماً تأتي من هذه الجهة. أليس كذلك.

وفيما كان كلينام يقول إن هذا هو طريقه المحبوب، أحس بيدها تنتفض في يده، وبالأزهار تهتز.

- هل تسمح لي أن أقدم إليك واحدة منها يا سيد كلينام. لقد جمعتها وأنا خارجة من الحديقة. بل الواقع أني كنت أجمعها لك تقريباً، إذ ظننت أن من المحتمل أن ألقاك. لقد وصل السيد دويس منذ أكثر من ساعة. وقال لنا إنك في الطريق إلينا.

وارتعدت يده هو عندما تقبل منها زهرة أو اثنتين شاكراً. وكانا عندئذ في طريق مظلل بالشجر. وسواء كان الانعطاف إليه من جانبه أو من جانبها، فلم تكن ثمة أهمية كبيرة للأمر. إنه لم يعرف قط كيف حدث هذا.

وقال كلينام:

- إن الجو هنا هادئ جداً، ولكنه لطيف في مثل هذه الساعة، ونحن إذا مررنا في هذه الظلال العميقة ثم خرجنا من ذلك القوس الضوئي في الطرف الآخر، نكون قد وصلنا إلى العبّارة وإلى الكوخ من أفضل طريق كما أظن.

وكانت بملابسها البسيطة المكونة من قبعة حديقة وثوب صيفي خفيف، مع شعرها الكستنائي الغزير المنسدل طبيعياً على كتفيها، وعينيها المدهشتين المرفوعتين إلى عينيه برهة وقد امتزجت فيها نظرات التقدير له والثقة به مع لون من الأسى الوادع من أجله، كانت بهذا وذاك على جمال يلائم إحساسه بالسكينة -أو لا يلائمه، فهو لا يدري أيهما على وجه التحديد- بحيث عاد يفكر في ذلك القرار الحاسم الذي طالما فكر فيه من قبل.

وقطعت الصمت المؤقت بسؤالها ما إذا كان يعرف أن أباها يفكر في القيام برحلة أخرى إلى الخارج؟ فقال إنه قد سمع شيئاً من هذا القبيل. ثم قطعت صمتاً آخر مؤقتاً حين أضافت قائلة بشيء من التردد إن أباها قد تخلى عن الفكرة.

وهنا فكر في نفسه فوراً «إنها ستتزوجان».

وقالت وهي تزداد رقّة في ترددها، وبصوت بلغ من خفوته أن أحنى رأسه لكي يسمعها:

- سيد كلينام. إنني أحب جداً أن أضع ثقتي فيك إذا تكرمت وقبلتها. وكنت أحب أن أفعل هذا منذ مدة طويلة... لأني.. لأني كنت أشعر أنك أصبحت صديقاً عزيزاً لنا.

- كيف يمكن إلا أن أكون فخوراً بهذه الثقة في أي وقت! أرجو أن تفعلي، أرجوك أن تثقي بي.

فردت قائلة وهي ترفع عينيها في صراحة إلى وجهه:

- ما كان يمكنني أن أخشى قط من الثقة فيك. وأعتقد أنه كان ينبغي أن أفعل هذا منذ وقت طويل، ولكنني لم أكن أدري كيف أفعل. بل إني الآن لا أكاد أعرف كيف أفعل هذا.

فقال آرثر كلينام:

- إن لدى السيد جوان ما يجعله يشعر بالسعادة. فليبارك الله في زوجته وفيه!

وبكت وهي تحاول أن تشكره. وراح هو يطمئنها، وتناول يدها الموضوعة على ذراعها والأزهار فيها ترتعد، ثم أخذ منها بقية الأزهار ورفعها إلى شفتيه. وفي تلك اللحظة، بدا له أنه استسلم أخيراً للأمل الضائع الذي سبق أن ومض في قلبه مسبباً له الكثير من الآلام والقلق. ومنذ ذلك الحين أصبح في نظر نفسه بالنسبة لكل أمل أو مشروع من هذا النوع رجلاً أكبر سناً من أن يعالج مثل هذا الجانب من الحياة.

ووضع الأزهار في صدريته وسار معها برهة وجيزة في بطء وصمت تحت الأشجار الوارفة. ثم سألها بصوت يجمع بين العطف والمرح هل ثمة شيء آخر تريد أن تقوله له باعتباره صديقاً لها ولوالدها، وأكبر منها بعدد كبير من السنين؟ هل هناك أية ثقة أخرى تريد أن تضعها فيه، أو أية خدمة تحب أن تطلبها منه، أو أي شيء ساعد على هناءتها وإنه يتمنى لو منحته غبطة أبدية باعتقاده أن في مقدوره أن يقدم إليها شيئاً من هذا.

وكانت على وشك أن تجيب عندما تأثرت فجأة ببعض إحساس خفي من الأسى والعطف.. ماذا يمكن أن يكون؟ ومن ثم قالت وهي تنفجر باكية مرة أخرى:

- أوه، سيد كلينام. يا سيد كلينام الطيب الرحيم، أرجوك أن تخبرني أنك لا تعتب عليّ في شيء.

فقال كلينام:

- أعتب عليك يا أعز فتاة! أنا أعتب عليك! لا.

وبعد أن أمسكت ذراعه بكلتا يديها، وتطلعت في ثقة إلى وجهه وهي تتمتم بكلمات شكر سريعة من صميم قلبها، وكان هذا كله صادراً عن إحساس باللهفة، بدأت تسترد هدوءها تدريجياً وهي يتلقى بين الحين والآخر كلمة تشجيع منه في أثناء مسيرهما ببطء وصمت تقريباً تحت الأشجار الظليلة.

وأخيراً قال كلينام وهو يبتسم:

- والآن يا ميني جوان، ألا تسألينني شيئاً.

- أوه، إن لدي الكثير الذي أريده منك.

- حسناً! هذا ما أرجوه! وإني لهذا غير مستاء.

- أنت تعلم كم أنا محبوبة في البيت، وكم أنا أحب من في البيت. ولعل من العسير عليك أن تراني يا سيد كلينام.

وأردفت قائلة في اهتياج نفسي شديد:

- أغادر البيت بمحض إرادتي واختياري. وذلك رغم أني أحب البيت جداً. فقال كلينام:

- أنا واثق من هذا. أتحسبينني أشك في ذلك.

- لا لا، ولكنه لأمر عجيب، حتى في نظري، أن أحتمل هجر البيت رغم كل ما أكنه له من حب، رغم كل ما أتمتع فيه من حب. يلوح لي أن في هذا جحوداً ونكراناً.

فقال كلينام:

- يا طفلتي العزيزة. هذا من سنن التطور الطبيعي وتغيير الأيام. كل البيوت تترك هكذا.

- نعم، أعرف. ولكن ليست كل البيوت تترك هكذا بفراغ أصم كما سيكون الحال في بيتي عندما أرحل. وليس هذا يعني أنه لا يوجد بنات أحسن وألطف وأنضج مني؛ فأنا لست شيئاً كبيراً؛ ولكن والديّ جعلا مني شيئاً كبيراً.

وفاض قلب بيت العطوف بالانفعال، فراحت تبكي وهي تصور ما سوف يحدث قائلة:

- أنا أعرف أي تغيير سوف يحس به أبي في أول الأمر، وأعرف أنني لا يمكن أن أكون في أول الأمر أي شيء كما كنت في هذه السنوات الكثيرة. وفي هذه الحالة يا سيد كلينام، في هذه الحالة أكثر من أي وقت آخر أرجوك وأتوسل إليك أن تتذكره، وأن تبقى بجانبه بين الحين والآخر كلما وجدت بعض الوقت، وأن تخبره أنك تعرف أنني كنت أكثر حباً له -عندما تركته- من أي وقت آخر في حياتي. لأنه ليس ثمة إنسان -وقد قال لي هذا بنفسه عندما تحدث إليّ في صباح اليوم- ليس ثمة إنسان يحبه ويثق به أكثر منك.

وسقط مفهوم ما حدث بين الابنة والوالد، كحجر ثقيل في مياه بئر قلب كلينام، فارتفعت المياه إلى عينيه. وقال ببشاشة -ولكن ليست البشاشة التي حاول أن يلون بها حديثه- إن هذا ما ينبغي أن يحدث، وإنه يعدها بأن يفعل هذا مخلصاً.

وقالت بيت وقد ازدادت تأثراً وازدادت حسناً في حزنها البريء مما جعل كلينام لا يستطيع أن يتمالك نفسه، فراح يحصي -لهذا السبب- الأشجار القائمة بينهما وبين الضوء المتلاشي وهي تقل تدريجياً في العدد:

- وإذا كنت لا أتحدث عن أمي، فلأنها أكثر فهماً للموضوع، وسوف تفتقدني بشعور مختلف، كما ستنظر إلى المستقبل بطريقة مغايرة. ولكنك تعرف أي أم عزيزة متفانية هي، وسوف تتذكرها بعنايتك أيضاً، أليس كذلك؟

وطلب كلينام منها أن تثق به... أن تثق به لأداء كل ما تريده.

وعادت هي تقول:

- وكذلك يا عزيزي السيد كلينام، فلأن أبي وشخصاً آخر لا داعي لذكر اسمه لا يتبادلان حتى الآن الاستلطاف وحسن التفاهم، وأرجو أن يتم هذا مع الزمن، ولأن من عامل الواجب والكرامة والسعادة التي تحتمها حياتي الجديدة أن تجمع بينهما في مودة وليكون كل منهما مصدر سعادة للآخر ووضع فخره ومناط حبه لأن كلاًّ منهما يكنّ لي أعمق الحب؛ أوه، ربما أنك رجل طيب أمين؛ فحاول عند رحيلي عن البيت -وسوف أرحل إلى مكان بعيد- أن تحرك عواطف أبي نحوه بعض الشيء، وأن تستخدم نفوذك لكي يبقى دائماً في ذهن أبي بعد أن يتحرر من التعصب ضده وينظر إليه في وضعه الحقيقي. هل ستفعل هذا ما أجلي باعتبارك صديقاً كريم القلب؟

يا لبيت المسكينة، المخدوعة، المخطئة الظن! فمتى أمكن إجراء مثل هذه التغييرات في العلاقة الطبيعية بين الناس بعضهم ببعض! متى أمكن أن يتم مثل هذا التوفيق بين الخلافات المتأصلة. لقد بذلت محاولات كثير في هذا الشأن من جانب بنات أخريات يا ميني ولكنها لم تنجح قط، لم ينتج عنها شيء قط إلا الفشل.

هذا ما خطر ببال كلينام، وهذا ما لم يفعله، ولكن الوقت قد فات، لأنه تعهد أن يفعل كل ما طلبته منه، وإنها لتعلم تماماً أنه سيفعل.

وكانا الآن عند آخر شجرة في الطريق الظليل، وهنا توقفت وسحبت ذراعها، ثم قالت له وهي ترفع عينيها إلى عينيه وتلمس بيدها التي كانت قبل لحظات تريحها على ذراعه، إحدى الأزهار الموضوعة في صدريته تأكيداً لرجائها:

- يا عزيزي السيد كلينام، إنني في سعادتي هذه -لأني سعيدة رغم رؤيتك لي باكية- لا أستطيع أن أترك أية سحابة بيني وبينك، فإذا كان قد حدث مني شيء يستحق أن تغفره لي... شيء لم أفعله عن قصد، وإنما أية متاعب ربما أكون قد سببتها لك دون أن أعني، أو دون أن يكون في وسعي تجنب إثارتها، فأرجو أن تغفر لي الليلة من صميم قلبك الكريم.

وانحنى ليلتقي بالوجه البريء الذي ارتفع إليه دون إجفال، وقبّله، وأجاب قائلاً إن الله يعلم أنه لم يحدث منها ما يستحق أن يغفره لها، وفيما هو ينحني ليلتقي بالوجه البريء مرة أخرى، همست له قائلة:

- وداعاً!

وكرر لها هذه الكلمة مودعاً كل آماله القديمة، كل الشكوك المضطربة لغير ذي شأن وفي اللحظة التالية غادر الشارع الظليل وذراع كل منهما في ذراع الآخر كما دخلاه. وبدا أن الأشجار تنطبق وراءهما في الظلام، وكأنما هي قطعة مجسمة من ماضٍ انتهى:

وكانت أصوات السيد والسيدة ميجلز ودويس تسمع مباشرة وهم يتحدثون بالقرب من بوابة الحديقة. فلما سمع كلينام اسم بيت يتردد بينهم، هتف قائلاً:

- إنها هنا، معي.

وسرت في الجو بعض أصوات تنم عن العجب والضحك حتى ظهروا جميعاً ثم توقفت تماماً حين أقبلوا معاً وهنا انفلتت بيت بعيداً في هدوء.

وراح السيد ميجلز ودويس وكلينام يتمشون -في صمت- ذهاباً وجيئةً على ضفة النهر لمدة لحظات في ضوء القمر الصاعد. وتلكأ دويس أخيراً متخلفاً ثم عاد إلى البيت، وظل السيد ميجلز وكلينام يروحان ويجيئان بضع لحظات أخرى دون حديث حتى قطع الأول حبل الصمت قائلاً:

- آرثر..

وكانت تلك أول مرة منذ تعارفهما يناديه باسمه المجرد:

- هل تذكر قولي لك ونحن نتمشى ذات صباح حار مطلين على ميناء مرسيليا أن توأم بيت، التي ماتت، تبدو لي ولأمها أنها تنمو معها وتتغير كما تغيرت!

- حسناً!

- هل تذكر قولي لك إن أفكارنا لم تستطع أبداً أن تفرق بين هاتين الأختين التوأمين، وأن بيت أياً كانت، فإن الأخرى كذلك في خيالنا؟

- أجل. حسناً!

فقال السيد ميجلز وقد تطامن كثيراً:

- آرثر، إنني أسرف الليلة في هذا الخيال. أشعر الليلة، يا صديقي العزيز كأنما أحببت أنت طفلتي التي ماتت، بكل حنان، وأنك فقدتها بعد أن أصبحت مثل بيت الآن.

فغمغم كلينام قائلاً وهو يضغط على يده:

- شكراً لك.. شكراً لك.

وبعد قليل، قال السيد ميجلز:

- ألا تدخل؟

- بعد قليل.

وانصرف السيد ميجلز، وبقي كلينام بمفرده، وبعد أن تمشى على ضفة النهر في ضوء القمر الساجي نحو نصف ساعة، وضع يده في صدريته وتناول في رفق باقة الأزهار. ولعله قد وضعها على قلبه، ولعله قد وضعها على شفتيه، ولكن المؤكد أنه انحنى على حافة الشاطئ، وفي رفق ألقى بها إلى الماء الساري؛ وانطلق بها التيار بعيداً وهي تبدو في ضوء القمر، شاحبة، كالأطياف.

وكانت الأضواء ساطعة داخل البيت عندما دخل، وسرعان ما بدت الوجه التي كانت تتألق عليها، بما فيها وجهه... مبتهجة في هدوء. وتحدثوا عن موضوعات كثيرة، ولم يحدث أن كان لشريكه قط مثل هذه الذخيرة من الأحاديث لإزجاء الوقت... ثم إلى الفراش، وإلى النوم. وكما كانت الأزهار تطفو على سطح النهر شاحبة، كالأطياف في ضوء القمر، كذلك كان مصير أشياء أعظم سبق أن كانت في صدورنا وقريبة من قلوبنا عندما انفصلت عنا لتطفو على البحار الأبدية.

* * *

السيدة فلنتونش تواصل أحلامها



ظل بيت المدينة محتفظاً بكل كآبته خلال هذه المراحل كلها، وبقيت المريضة بداخله على حالها الذي لم يتغير من الحياة. الصباح والظهر والمساء، ثم الصباح والظهر والمساء، كل يأتي في دوره، حاملاً طابعه الرتيب، ودائماً نفس الدورة الملول لنفوس الآلة الدائرة، مثل شيء بطيء يعمل كالساعة.

وقد يتطرق إلى الذهن أن للمقعد المتحرك ذكرياته وأحلام يقظته المتعلقة بما حوله، كأي مكان خصص لإقامة مخلوق آدمي. ولا شك أنه كان في طابور هذه الذكريات والأحلام الممتد على مدى الأيام الكئيبة، الكثير من صور الشوارع المخربة والبيوت المتغيرة كما سبق أن كانت عندما عرفتها صاحبة المقعد في أول الأمر، والكثير من هيئات وصور الناس كما أن عهدها أيضاً بهم مع شيء يسير من التجاوز، أو لا شيء، لمرور الزمن منذ أن شوهدوا آخر مرة. وإن من ظواهر النقص عند المقعدين من المرضى، والانحرافات العقلية عند الاعتزاليين، أن يتمنوا أن تقف الحياة في الساعة التي تلفظهم فيها الحياة، وأن يحسبوا أن البشرية همدت تماماً عندما همد نشاطهم، وأن يعجزوا عن معرفة أية تغييرات تحدث خارج نطاق نظرتهم بأكثر مما تمليه عليهم أجسامهم المعروقة وحياتهم المنكمشة.

أية مناظر ولاعبين أكثر من غيرهم كانت السيدة الصارمة تستعيدهم في ذاكرتها وهي جالسة من فصل إلى فصل في غرفتها الوحيدة

المظلمة؟ إن أحداً غيرها لا يعرف. ربما كان من الممكن للسيد فلنتونش، القائم على خدمتها يومياً، كأنه قوة آلية لا مركزية، أن يستخرج هذه الذكريات لو أنها كانت أقل مقاومة. ولكن الواقع أنها كانت أقوى من أن يفعل معها هذا. أما فيما يتعلق بآفري.. السيدة فلنتونش، فقد كان حسبها انشغالاً أن ترقب زوجها وسيدها المبجل، وسيدتها العاجزة بوجه كله الدهشة الخالصة، وأن تروح وتجيء في البيت بعد الغروب ومريلتها على رأسها ترهف السمع دائماً إلى تلك الأصوات الغريبة التي كانت أحياناً تسمعها، ولا تخرج أبداً من حالتها هذه التي تسير فيها نائمة حالمة بالأشباح والأرواح.

ولكن آفري تبينت فجأة أن الأعمال المنزلية تكاثرت عليها أخيراً عندما ترك زوجها عمله في مكتبه الصغير داخل البيت، ومن ثم غدت ترى أشخاصاً يأتون إلى البيت أكثر جداً مما كان يحدث منذ أعوام طوال. ولكن هذا قد لا يثير الضيق، لأن البيت ظل مهجوراً مدة طويلة. إلا أنه كان يرسل خطابات، ويستقبل وافدين، ويمسك دفاتر، ويراسل غيره، وأكثر من هذا كان يذهب إلى مكاتب حسابات أخرى، وإلى أرصفة الموانئ وأحواض السفن وإلى إدارة الجمرك وإلى قهوة راواي، وقهوة أورشليم، وإلى البورصة ومن ثم كان كثير الدخول والخروج. وبدأ أيضاً في المساء يتردد أحياناً –عندما تعرب السيدة كلينام عن عدم رغبتها في وجوده معها– على حانة قريبة ليقرأ عن أخبار السفن وأسعار القفل في الصحف المسائية. بل ويتبادل أحياناً المجاملات مع ربابنة سفن الشحن الذين يترددون على تلك الحانة. وفي وقت محدد من كل يوم، كان يعقد مع السيدة كلينام مؤتمراً للنظر في الشؤون العملية، وقد لاح لآفري التي كانت دائماً تتحسس طريقها مرهفة السمع والنظر، أن الاثنين البارعين يقومان بأعمال تدر أرباحاً كثيرة.

وكانت الحالة الذهنية التي انتهت إليها زوجة السيد فلتونش الذاهلة قد بدأت الآن تلوح في كل نظراتها وتصرفاتها، مما جعل الاثنين البارعين ينظران إليها باحتقار شديد، ويريان أنها -وهي لم تكن يوماً ما ذكية في نظرهما- توشك أن تصبح بلهاء. وكان السيد فلتونش عند الزواج قد أصدر أوامره إليها قائلاً لها إنها إذا أرادت أن تعيش معه في سلام كزوجة، فعليها ألا تنادي باسمه المجرد، ولعل السبب في هذا يرجع إلى أنها لم تكن ذات طابع تجاري، أو لعل أن يكون السبب خوفه من أن يشك العملاء في حسن تقديره للأمور باتخاذها زوجة له. وكان نسيانها لهذه الأوامر بين الحين والآخر، يضاعف من حالة ذهولها، لأن السيد فلتونش كان من عادته أن ينتقم منها بسبب هذا النسيان، بأن يثب وراءها على درجات السلم ويهزها بعنف، مما جعل أعصابها تضطرب ولا تجزم متى قد تتعرض لمثل هذه المفاجأة في المرة التالية.

وكانت دوريت الصغيرة قد فرغت من عمل يوم طويل في غرفة السيدة كلينام وراحت تجمع بعناية خيوطها وأدوات عملها قبل العودة إلى البيت. وكان السيد بانكس الذي أدخلته عندئذ آفري إلى غرفة السيدة كلينام، يسأل هذه الأخيرة عن حالتها الصحية، مازجاً السؤال بهذه العبارة قائلاً إنه «حين وجد نفسه مصادفة في هذه المنطقة» قرر أن يدخل ليسأل -نيابةً عن مخدومه- كيف حالها. وكانت السيدة كلينام تنظر إليه وقد عقدت ما بين حاجبيها بقوة، ثم قالت:

- إن السيد كاسبي يعلم أنني لست معرضة لتغيرات صحية. إن التغيير الذي أنتظره هنا هو التغيير الكبير.

فردّ السيد بانكس قائلاً وقد شردت نظراته إلى جسم دوريت الصغيرة الراكعة على ركبتيها تجمع خيوطها وأدوات عملها من فوق السجادة:

- حقاً، يا سيدتي؟ إنك تبدين في حالة طيب جداً.

فردّت قائلة:

- إنني أحتمل ما يجب أن أحتمل، وعلى الإنسان أن يفعل ما لا بد أن يفعل.

فقال السيد بانكس:

- شكراً يا سيدتي، هكذا أيضاً رأيي في الحياة.

فسألته السيد كلينام قائلة:

- إنك كثيراً ما تكون في هذه الناحية. أليس كذلك؟

فقال بانكس:

- أجل يا سيدتي. كثيراً فعلاً.. في العهد الأخير. إنني أتردد كثيراً على هذه الناحية في الوقت الحاضر بسبب هذا الشيء أو ذاك.

- ألتمس من السيد كاسبي وابنته ألا يثقلا على نفسيهما بإرسال من يسأل عني. فعندما يريدان أن يرياني، فهما يعلمان أنني هنا لاستقبالهما. لا داعي لأن يتعبا نفسيهما بإرسال أحد، ولا داعي لأن تتعب نفسك بالحضور.

فقال السيد بانكس:

- ليس ثمة أدنى تعب يا سيدتي. والواقع أنك تبدين في حالة طيبة جداً يا سيدتي.

- شكراً، وطاب مساؤك.

وكان الطرد المصحوب بالإصبع المشير إلى الباب صريحاً وجافياً بحيث لم يجد السيد بانكس وسيلة لإطالة الزيارة. وأخيراً عبث بشعره في مرح شديد وألقى نظرة أخرى على دوريت الصغيرة وقال:

- طاب مساؤك يا سيدتي. لا تهبطي معي يا سيدة آفري، فأنا أعرف الطريق إلى الباب.

ثم خرج نافخاً. وأخذت السيدة كلينام وهي تريح ذقنها على يدها، تشيعه بنظرات كلها الانتباه والشك القاتم. ووقفت آفري بجانبها تنظر إليها وكأنما انعقد لسانها.

وأخذت نظرات السيدة كلينام تتحول في بطء وتفكير من الباب الذي انصرف منه السيد بانكس إلى الصغيرة دريت الناهضة عن السجادة وظلت المرأة المريضة وذقنها تزداد ثقلاً على يدها وعيناها يقظتان عابستان، تركز النظر عليها حتى استرعت انتباهها. واضطرم وجه دوريت تحت هذه النظرة الفاحصة، وأغضت بعينيها. وظلت السيدة كلينام جالسة في انتباه وسكون.

وأخيراً قطعت حبل الصمت وقالت:

- أيتها الصغيرة دوريت، ماذا تعرفين عن ذلك الرجل.

- إنني لا أعرف عنه شيئاً يا سيدتي أكثر من رؤيتي له هنا أو هناك وحديثه معي.

- وماذا قال لك؟

- إنني لم أفهم ماذا قال، إنه رجل عجيب! ولكنه لم يكن خشناً أو بغيضاً.

- ولماذا جاء ليراك هناك؟

فقالت دوريت الصغيرة بصراحة تامة:

- إنني لا أعرف يا سيدتي.

- أتعرفين أنه يأتي إلى هنا ليراك؟

فقالت دوريت الصغيرة:

- لقد خطر لي هذا. ولكنني لا أستطيع أن أعرف لماذا يأتي إلى هنا أو إلى أي مكان آخر لهذا؟

وأغضت السيدة كلينام بعينيها إلى الأرض، وجلست مستغرقة في التفكير وقد بدا وجهها القوي الصارم كأنها مركزة ذهنها على شيء كما سبق أن ركزته على الرجل الذي انصرف منذ لحظات. ومرت لحظات قبل أن تنتبه من تفكيرها وتسترد وضعها الجامد.

خلال هذا كانت دوريت الصغيرة تنتظر الإذن بالانصراف ولكنها كانت تخشى أن تزعجها بحركة منها، وأخيراً تجرأت وتحركت عن الموضع الذي وقفت فيه منذ قيامها عن السجادة، ثم سارت برفق حول المقعد المتحرك، ووقفت بجانبه لتقول:

- طابت ليلتك يا سيدتي.

ومدت السيدة كلينام يدها، ووضعتها على ذراعها. ووقفت دوريت الصغيرة مترددة وقد ارتبكت تحت هذه اللمسة. ولعل في ذهنها الآن بعض ذكريات سانحة من قصة الأميرة.

وقالت السيدة كلينام:

- أخبريني أيتها الصغيرة دوريت، هل لديك صديقات كثيرات الآن!

- قليلات جداً يا سيدتي، ليس لي إلا أنت، والآنسة فلورا، وواحدة أخرى.

فقالت السيدة كلينام وهي تشير مرة أخرى إلى الباب بإصبعها المستقيم:

- وذاك الرجل؟

- أوه، لا يا سيدتي.

- ربما صديقة من صديقاته إذن!

فقالت دوريت الصغيرة وهي تهز رأسها بحماسة:

- لا يا سيدتي، لا. ليس لي صديق على شاكلته قط، ولا صديق ينتمي إليه بأي شكل.

فقالت السيدة كلينام وهي تكاد أن تبتسم:

- حسناً! إن هذا ليس من شأني. وإنما أسأل فقط لأني مهتمة بأمرك، ولاعتقادي أني صديقة لك عندما لا يكون هناك من يخدمك، أليس الأمر كذلك؟

- أجل يا سيدتي، إنه حقاً كذلك. لقد حضرت إلى هناك كثيراً، ولولا عملي الذي تسمحين لي به، لأعوزنا كل شيء.

فقالت السيدة كلينام وهي تنظر إلى الساعة التي كانت لزوجها السابق، والتي ظلت دائماً على المائدة:

- أعوزكم؟ هل أنتم كثيرون؟

- لم يبقَ إلا أبي وأنا الآن. أعني أبي وأنا فقط اللذين نعيش بانتظام على ما أحصل عليه من أجر.

فقالت السيدة كلينام في أناة، وهي تدير الساعة المرة بعد الأخرى في تفكير:

- هل عانيتم الشيء الكثير من الحرمان؟

فقالت دوريت الصغيرة بصوتها الناعم ولهجتها الوادعة غير الشاكية:

- كانت الحياة أحياناً جد قاسية، ولكنني أعتقد أنها لم تكن - نسبياً- أقسى علينا دون الكثيرين غيرنا.

فردّت السيدة كلينام قائلة بسرعة:

- أحسنت القول! فهذه هي الحقيقة. إنك فتاة طيبة فطنة، وكذلك أنت فتاة بارة تقرين بالجميل، وإلا فإني جد مخطئة.

فقالت دوريت الصغيرة:

- إن من الطبيعي جداً أن يكون الإنسان كذلك. وليس ثمة أي فضل في أن يكون الإنسان هكذا. هذا هو رأيي حقاً.

وهنا جذبت السيدة كلينام وجه دوريت الصغيرة وقبّلت جبينها برقّة لم تحلم آفري الحالمة أبداً أن سيدتها تتمتع بها. وقالت السيدة كلينام:

- والآن اذهبي أيتها الصغيرة دوريت، وإلا تأخرت يا طفلتي المسكينة.

إن مديرة البيت آفري في كل أحلامها التي رأتها منذ أن كرست نفسها للأحلام، لم ترَ قط حلماً مدهشاً كهذا. وأحست بالوجع في رأسها وهي تفكر في أنها قد تجد البارع الآخر يقبل دوريت الصغيرة في المرة التالية، وبعدئذ يتعانق البارعان ويذرفان دمع الحنان على الجنس البشري كله. وأذهلتها الفكرة تماماً وهي تهبط مع دوريت الصغيرة لتغلق الباب وراءها بإحكام.

وفيما هي تفتحه لتخرج دوريت الصغيرة منه، وجدت السيد بانكس يروح ويجيء في الفناء خارج البيت بدلاً من أن ينصرف إلى حال سبيله كما ينبغي أن يحدث لو أنه كان في مكان أقل إثارة للدهشة، وبين ظواهر أقل إثارة للعجب. وما إن رأى دوريت الصغيرة حتى مرّ أمامها بسرعة وقال وإصبعه على أنفه، وقد سمعته آفري بوضوح:

- بانكس الغجري، بانكس قارئ الغيب.

ثم انصرف. وهتفت آفري قائلة:

- ليرحمنا الله. ها هو ذا غجري قارئ غيب قد دخل في الأمر أيضاً. فماذا بعد ذلك؟!

ووقفت بالباب المفتوح منذهلة بهذا اللغز في أمسية مطيرة راعدة. وكانت السحب تمرق بسرعة، والرياح تندفع في شكل زوابع وتصفق بعض مصاريع النوافذ في البيوت المجاورة التي انفتحت، عابثة بأغطيات المداخن الصدئة ودوارات الريح، مندفعة في دوران حول فناء كنيسة مجاورة وكأنما تريد أن تطلق المواطنين الموتى من قبورهم. ولاحَ الرعد الخفيض المدمدم في كل أنحاء السماء في وقت واحد كأنما يهدد بالانتقام لهذه المحاولة الفاضحة قائلاً «دعوهم في مرقدهم، دعوهم في مرقدهم!»

وظلت آفري التي كان خوفها من الرعد والبرق لا يضارعه إلا خوفها من البيت المسكون بما فيه من ظلام كئيب غير طبيعي، واقفة مترددة في الدخول حتى انتهى الأمر بانصفاق الباب بسبب هبة عنيفة من الرياح، وانغلاقه وهي في الخارج. وهنا هتفت آفري وهي تضرب كفاً بكف إزاء هذا الحلم الذي فاق جميع أحلامها إزعاجاً.

- ماذا أفعل الأن؟ ماذا أفعل الآن؟ وقد أصبحت السيدة كليثام بمفردها في الداخل دون أن تستطيع أن تهبط وتفتح الباب إلا إذا استطاع هذا الموتى في مقبرة الكنيسة؟

وراحت في هذه المحنة تجري هنا وهناك عدة مرات في الفناء المرصوف المسوّر وقد وضعت مريلتها على رأسها كالقلنسوة لتحميها من المطر، وكان من العسير أن نعرف لماذا توقفت عندئذ وانحنت لتنظر إلى الداخل من ثقب الباب وكأنما يمكن أن تفتحه عين. ولكن هذا لم يكن أقل مما يفعله معظم الناس في مثل هذه الظروف. وهذا ما فعلته.

وجفلت فجأة -وهي في هذا الوضع- وقد ندت عنها نصف صرخة حين شعرت بشيء على كتفها. وكانت لمسة يد.. لمسة يد رجل.

وكان الرجل في ملابس سفر، وعلى رأسه قبعة تدور عليها قطعة فراء، وعباءة ثقيلة. وكان يبدو أجنبي الهيئة، غزير الشعر والشارب، وكان لون الشعر أسود فاحماً إلا عند أطرافه الشعثاء حيث يشيع فيه بعض الاحمرار، وكان له أنف مرتفع معقوف. وقد ضحك حين رأى آفري تجفل وتصرخ؛ وعندما ضحك ارتفع شاربه إلى ما تحت أنفه، وهبط أنفه إلى ما فوق شاربه.

وسألها قائلاً بإنكليزية عادية:

- ماذا جرى؟ ما الذي أفزعك؟

فلهثت آفري قائلة:

- أنت.

- أنا يا سيدتي؟

فقالت آفري:

- والليل المكفهر، وكل شيء. وعدا هذا، لقد أغلقت الرياح الباب دوني ولم يعد في مقدوري الدخول.

فقال السيد الذي أنصت إلى هذا ببرود:

- هه! أحقاً. أتعرفين أحداً باسم كلينام في هذه الناحية؟

فهتفت آفري قائلة وقد دفعها السؤال إلى أن تضرب كفاً بكف مرة أخرى:

- ليباركنا الله! أعتقد أنني أعرف. أعتقد أنني أعرف.

- في هذه النواحي؟

فهتفت آفري وقد أغريت بإلقاء نظرة أخرى إلى الداخل من ثقب الباب:

- هنا. هنا في هذا البيت! وإنها الآن بمفردها في غرفتها، فاقدة القدرة على استعمال أطرافها، وعاجزة عن الحركة لمساعدة نفسها أو مساعدتي، هذا والبارع الآخر في الخارج، فليغفر الله لي.

وأردفت آفري هاتفة وقد دفعتها هذه الاعتبارات الجديدة إلى النوائب في اهتياج:

- هل أنا في الطريق رأساً إلى فقدان عقلي؟

واتخذ السيد موقفاً ينم عن الاهتمام بعد أن رأى الأمر يتعلق به، فتراجع خطوة وألقى نظرة على البيت، وسرعان ما حطت نظرته على النافذة الطويلة الضيقة للغرفة الصغيرة القريبة من باب الصالة. ثم سأل قائلاً بهذه الابتسامة الغريبة التي لم يسع آفري إلا أن تركز نظراتها عليها:

- أين قد تكون هذه السيدة التي فقدت القدرة على استعمال أطرافها يا سيدتي؟

فقالت آفري:

- هناك فوق.. عند هاتين النافذتين.

- هه! إنني من حجم متوسط، ولكن لا يمكن أن يكون لي شرف الوصول إلى هذه الغرفة دون سلّم. والآن بصراحة يا سيدتي، لأن الصراحة جزء من طبيعتي، هل أفتح لك الباب؟

فصاحت آفري قائلة:

- أجل، باركك الله يا سيدي من أجل مخلوقة عزيزة، وأرجو أن تفعل هذا فوراً؛ لأن من المحتمل أنها تنادي عليّ في هذه اللحظة، أو ربما اشتعلت النار بها لتقضي عليها؟ فليس هناك حدّ لما قد يحدث لها، وإن عقلي يوشك أن يطير كلما فكرت في هذا كله.

وقال وهو يهدئ من لهفتها بيد بيضاء ناعمة:

- مهلاً يا سيدتي الكريمة! لقد انتهى وقت العمل اليوم كما أظن!

فهتفت آفري قائلة:

- أجل، أجل، أجل منذ مدة طويلة.

- دعيني إذن أتقدم باقتراح عادل، لأن العدل جزء من طبيعتي. لقد هبطت الآن من سفينة بريد كما ترين.

وأطلعها عندئذ على ملابسه المبللة، وحذائه المشرب بالماء، وكانت هي قد لاحظت من قبل أنه أشعث أغبر كأنما انتهى من رحلة عنيفة، وأنه من فرط البرد لا يستطيع منع أسنانه من الاصطكاك. واستطرد هو يقول:

- لقد هبطت فوراً من سفينة بريد يا سيدتي، وتعطلت في الطريق بسبب الجو.. الجو اللعين. وكانت نتيجة هذا أن تعطلت عن القيام ببعض أعمال هامة كان ينبغي أن أقوم بها خلال ساعات العمل. وأقول أعمالاً هامة لأنها أعمال مالية. والآن إذا أمكنك أن تجدي أي شخص مسؤول في هذه الناحية يمكن القيام بها مقابل فتح الباب، فإني سأفتحه، أما إذا كان ثمة اعتراض على هذا الاقتراح، فإني...

وبنفس الابتسامة قام بحركة تدل على التراجع.

وأعربت آفري -وهي جد سعيدة بهذا الاقتراح عن موافقتها. وعندئذ طلب السيد منها أن تتكرم بحمل عباءته عنه، ثم اندفع عدواً

نحو النافذة الطويلة الضيقة، ووثب إلى قاعدتها، وتسلق الآجر إليها، وما هي غير لحظة حتى كانت يده ترفع برواز النافذة، وبدت عيناه رهيبتي الشكل جداً وهو يضع ساقه داخل الغرفة ثم يستدير وينظر إلى آفري مما جعلها تتساءل -في فزع مفاجئ- كيف يمكن أن تمنعه لو أنه صعد فوراً إلى السيدة المريضة وقتلها؟

ولم يكن لديه، لحسن الحظ، مثل هذا الهدف. لأنه لم يلبث أن عاد وظهر بعد لحظة عند باب البيت قائلاً وهو يسترد العباءة ويرتديها:

- والآن يا سيدتي العزيزة، إذا تكرمت و... ما هذا بحق الشيطان؟

كانت أعجب الأصوات، وبدا بوضوح أنها جد قريبة بسبب هذه الهزة الغريبة التي أحدثتها في الهواء، مع ذلك كانت خافتة كأنها آتية من بعيد.. وكانت رعدة، ودمدمة، وصوت ارتطام شيء خفيف جاف.

- ما هذا بحق الشيطان؟

فقالت آفري التي أمسكت بذراعه:

- إنني لا أعرف ما هذا. ولكنني سمعت ما يشبهه المرة بعد الأخرى.

ولاح لها أنه لا يمكن أن يكون رجلاً شجاعاً كما خطر لها عند مفاجأتها الحالمة به وخوفها منه، ذلك لأن شفتيه المرتعدتين فقدتا لونهما تماماً، وبعد أن أرهف السمع برهةً، قال ساخراً:

- ياه! هذا لا شيء! والآن يا سيدتي العزيزة، أظن أنك تحدثت عن شخصية ما بارعة، فهل تتكرمين وتقدمينني إلى هذه العبقرية؟

وكان يمسك بالباب كأنما يستعد لإغلاقه دونها إذا هي عجزت عن الاستجابة له.

وهمست له قائلة:

- إذن لا تقل شيئاً عني أو عن الباب.

- ولا كلمة.

- ولا تتحرك من هنا، ولا تلفظ بكلمة إذا سمعتها تنادي في أثناء انطلاقي إلى ما وراء ذلك المنعطف.

- سيدتي، سأبقى كتمثال.

وكان الخوف الشديد قد استبد بآفري من أن يتسلل صاعداً بمجرد أن تدير له ظهرها، بحيث عادت إلى البوابة، بعد أن غابت عن نظره، لتختلس النظر إليه. فلما رأته واقفاً في سكون على العتبة وهو أقرب إلى الخارج منه إلى الداخل، كأنما لا يحب الظلام ولا يرغب في النفاذ إلى أسراره، اندفعت نحو الشارع التالي، وأرسلت تستدعي السيد فلتونش من الحانة، فأقبل هذا فوراً، وفي أثناء عودتهما معاً -السيدة في المقدمة، والسيد فلتونش وراءها يداعبه الأمل في اللحاق بها قبل أن تدخل البيت- رأيا السيد واقفاً في نفس المكان في الظلام، وسمعا صوت السيدة كلينام القوي وهي تنادي من غرفتها:

- من هناك؛ ما هذا؟ لماذا لا يجيب أحد؟ من ذا هناك تحت؟

* * *

كلمة سيد كريم

عندما راح السيد فلتونش وحرمه يصعدان -وهما يلهثان- إلى باب البيت القديم في شفق المساء، وأرميا وراء آفري بلحظة، أجفل الغريب متراجعاً وهو يهتف قائلاً:

- ويح نفسي؟ عجباً! لماذا جئت إلى هنا.

وردّ السيد فلتونش -الذي كانت هذه الكلمات موجهة إليه- على دهشة الغريب بمثلها كاملة. لقد راح يحملق في وجهه بدهشة خالصة، وتطلع من فوق كتفه كأنما يتوقع أن يرى أحداً ما واقفاً وراءه دون أن يشعر به. وعاد يحملق في وجه الغريب مرة أخرى، معقود اللسان من فرط أنه لا يدري ماذا يعني بحضوره. ونظر إلى زوجته طالباً التفسير، فلما لم يتلقَّ منها شيئاً، انقضَّ عليها وهزها بعنف جعل قلنسوتها تسقط من فوق رأسها قائلاً من بين أسنانه وهو يفعل هذا بتهكم شديد:

- آفري، يا امرأتي! يجب أن تأخذي جرعة، يا امرأتي، هذه إحدى خدعك! لقد عدت إلى أحلامك مرة أخرى! عن أي شيء هذه المرة؟ ومن هو، وما معنى هذا: تكلمي وإلا خنقتك، فهذا هو الاختيار الوحيد الذي أسمح به لك.

وعلى فرض أنه كان في مقدور آفري أن تختار شيئاً في تلك اللحظة، فإنها كانت، قطعاً، ستختار الخنق. لأنها لم تجب بمقطع واحد على هذه المناشدة، إلا بتحريك رأسها في عنف من الخلف إلى الأمام وبالعكس، مستسلمة لعقوبتها، أما الغريب فقد التقط قلنسوتها في شيء من الشهامة وتدخّل في الأمر.

قال وهو يضع يده على كتف أرميا الذي توقف وأطلق سراح ضحيته:

- اسمح لي. شكراً. ومعذرة، إنني أعرف من هذه الملاعبة أنكما زوجان. ها ها. من دواعي البهجة دائماً أن يرى الإنسان هذا اللون من الملاعبة قائماً. اسمع! هل لي أن أقول إن شخصاً ما في الدور العلوي المظلم قد أمسى شديد الفضول لمعرفة ماذا يجري هنا!...

وذكرت هذه الإشارة إلى صوت السيدة كلينام، السيد فلنتونش أن يخطو إلى الصالة وأن يرفع عقيرته قائلاً:

- كل شيء على ما يرام. إنني هنا، وسوف تصعد آفري إليك بالضوء.

ثم أردف قائلاً لآفري المضطربة التي كانت تضع القلنسوة على رأسها:

- هيا أسرعي واصعدي إلى فوق.

ثم استدار نحو الغريب وقال له:

- والآن يا سيدي، تفضل وقل ماذا تريد.

فقال الغريب:

- أخشى أن أزعجك بطلب قنديل.

فوافق أرميا قائلاً:

- صدقت. كنت سأفعل هذا. أرجوك أن تبقى كما أنت ريثما آتي بواحد.

وكان الزائر واقفاً في مدخل الباب، ولكنه استدار قليلاً داخل البيت المظلم عندما استدار إليه السيد فلتونش، وراح يتبعه بنظراته وهو يمشي إلى الغرفة الصغيرة حيث راح يتحسس فيها بحثاً عن الصندوق[1] الفسفوري فلما عثر عليه، وجده رطيباً، وغير صالح للاستعمال. وهكذا راح عود الثقاب بعد الآخر، من العيدان التي يقدمها، يرسل إلى وجهه المتفرس ضوءاً مكتوماً، وينثر على يديه شذرات شاحبة من نيران صغيرة، ولكنها لم تكن كافية لإشعال القنديل. وراح الغريب -منتهزاً فرصة هذه الومضات الخاطفة المضيئة لوجهه- يحملق فيه بإمعان وتعجب. وكان أرميا -بعد أن أشعل القنديل في النهاية- يعلم أنه -أي الغريب- كان يفعل هذا، وذلك حين رأى آخر ظل من ظلال مراقبته المختلسة ينقشع عن وجهه وهو يشرق بهذه الابتسامة الملتوية التي كانت جزءاً لا يتجزأ من تعبيراته.

وقال أرميا وهو يغلق باب البيت ويمعن التفرس بدوره في وجه الغريب الباسم:

- أرجو أن تتكرم وتدخل إلى مكتب حساباتي. أؤكد لك أن كل شيء على ما يرام.

ثم قطع حديثه ليرد على الصوت في الدور العلوي الذي لم تكن صاحبته راضية رغم وجود آفري معها وحديثها اللطيف إليها.

وعاد يقول للغريب:

---

(1) يقصد علبة الثقاب.

- ألم أقل لك إن كل شيء على ما يرام؟ ليحفظ الله هذه المرأة، أليس في رأسها عقل إطلاقاً.

فقال الغريب معلقاً:

- أهي جبانة؟

فقال السيد فلتونش وهو يدير رأسه ليرد في أثناء سيره في المقدمة بالقنديل:

- جبانة؟ أؤكد لك يا سيدي أنها أكثر شجاعة من تسعين رجلاً في كل مائة.

- رغم أنها مقعدة؟

- مقعدة منذ أعوام كثيرة. هذه السيدة كلينام. وهي الوحيدة التي بقيت في البيت تحمل هذا الاسم الآن. وهي شريكتي أيضاً.

وبعد أن قال شيئاً على سبيل الاعتذار وهو يعبر الصالة، مؤداه أنهم لم يعتادوا في مثل هذه الساعة من الليل أن يستقبلوا أحداً، وأنهم دائماً يغلقون عليهم الباب. وقاد السيد فلتونش الطريق إلى مكتبه الخاص الذي كان له مظهر مكتب أعمال فعلاً. وهنا وضع الضوء على المكتب وقال للغريب بلهجة جافة ملتوية.

- أوامرك؟

- إن اسمي بلاندواز.

فقال أرميا:

- بلاندواز؟ إنني لا أعرف هذا الاسم.

فردّ الآخر قائلاً:

- خطر لي أنك ربما علمت بشيء من باريس.

فقال أرميا:

- إنني لم أتلقَّ من باريس أي شيء بخصوص أي شخص اسمه بلاندواز.

- لا؟

- لا.

ووقف أرميا في الوضع المحبب إليه. وفيما كان السيد بلاندواز الباسم يفتح عباءته ليمد يده إلى جيب صدريته، إذا به يتوقف ليقول وقد ارتسمت «ضحكة» في عينيه اللتين بدتا جد متقاربتين في نظر أرميا.

- لشد ما أنت شبيه بصديق لي؟ حقاً إن الشبه ليس تاماً كما خطر لي برهة عندما فتحت لي الباب في الظلمة، إذ حسبت أنك هو، وهذا ما ينبغي أن أعتذر عنه، وأرجو أن تسمح لي بذلك. وإن استعدادي للاعتراف بأخطائي هو -كما أرجو- جزء من طبيعتي الصريحة، إلا أن الشبه، مع ذلك، كبير.

فقال أرميا بالتواء:

- أحقاً! ولكنني لم أتلقَّ أي خطاب تعريف من أي مكان بخصوص أي شخص اسمه بلاندواز.

فقال الغريب:

- أهكذا؟

فقال أرميا:

- نعم هكذا.

وتناول السيد بلاندواز -دون أن يحفل كثيراً بهذا الإغفال من جانب مراسلي بيت كلينام وشركائه- مفكرة من جيب صدريته، واختار منها رسالة وقدمها إلى السيد فلنتونش قائلاً:

- لا شك أنك على علم بهذا الخط. ولعل الرسالة تتحدث عن نفسها ولا تحتاج إلى تعريف. وإنك لأقدر جداً في الحكم على مثل هذه الأمور مني. وإنه لمن سوء حظي أن أكون واحداً من الذين يقول العالم عنهم -في استبداد- إنهم سادة كرام أكثر مني كواحد من رجال الأعمال.

وتناول السيد فلنتونش الرسالة وقرأها، وكانت مؤرخة في باريس. وقد جاء فيها: «إننا نقدم إلكم، بناءً على رغبة عميل لشركتنا نكن له كل تقدير، السيد بلاندواز، من هذه المدينة» إلخ..إلخ «ونضيف كذلك أنه لو أمكن أن تشرفوا السيد بلاندواز عند رؤية رسوماته بمبلغ أقصاه خمسين جنيهاً إنكليزياً...إلخ... إلخ».

وقال السيد فلنتونش:

- حسناً جداً. تفضل بالجلوس. إننا على استعداد لأن نقدم إليك أقصى ما في وسع بيتنا التجاري -ونحن نقوم بأعمالنا في الوقت الحاضر يا سيدي بطريقة محافظة على نطاق ضيق- وإنه ليسعدنا أن نسدي إليك كل مساعدة ممكنة. وألاحظ من تاريخ هذه الرسالة أن الوقت كان متسعاً لكي نخطر بها. لعلك جئت في سفينة بريد تأخرت عن موعدها ورسالة الإخطار فيها.

فقال السيد بلاندواز وهو يمسح بيده البيضاء على أنفه المرتفع المعقوف.

- لقد جئت فعلاً في سفينة بريد تعطلت عن موعدها يا سيدي، ودفعت الثمن من رأسي ومعدتي اللذين خضخضهما بعنف ذلك الجو

اللعين غير المحتمل. وإنك لترى حالتي السيئة الآن بعد نصف ساعة من مغادرتي للسفينة. لقد كان ينبغي أن أكون هنا منذ ساعات، وعندئذ لم يكن ثمة موجب لأن أعتذر، وأرجو أن تسمح لي بالاعتذار عن حضوري على هذا النحو الذي قد يخيف، لا، لقد قلت بهذه المناسبة، إنه لا يخيف.. معذرة مرة أخرى.. السيدة الجليلة السيد كلينام المقعدة في غرفتها بالدور العلوي.

وكان اختياله وترفعه الذي بدا فيه كأنه يتنازل بالحديث مع السيد فلنتونش، قد تترك هذا وذاك أثره في نفسية هذا الأخير بحيث بدأ فعلاً يظن أنه أمام شخصية رفيعة المقام حقاً. وبمثل هذا الإحساس الذي لم يخف في أعماق نفسه، قال وهو يحك ذقنه، أي شيء يمكن أن يتشرف بأدائه للسيد بلاندواز هذه الليلة بعد ساعات العمل.

فردّ ذلك السيد وهو يهز كتفيه بالعباءة عليهما:

– عجباً! يجب أولاً أن أستبدل ملابسي، وآكل وأشرب، ثم أسكن في مكان ما. وأرجو أن تتكرم وتنصحني -باعتباري غريباً تماماً- أين هذا المسكن. أما مسألة النقود فلا أهمية لها إطلاقاً حتى الغد. وكلما كان المسكن قريباً، كان أفضل. وإذا أمكن فليكن مجاوراً.

وبدأ السيد فلنتونش يقول ببطء:

– لا يوجد في هذه النواحي القريبة أي فندق يليق بسيد له سجاياك.

فقاطعه السيد بلاندواز قائلاً وهو يطرقع أصابعه:

– دعك من سجاياي الآن يا سيدي العزيز. إن المواطن الخبير بشؤون العالم ليست له سجايا معينة. إن كوني، في حالتي السيئة هذه، سيداً كريماً بحق السماء، فهذا ما لا أنكره. ولكن ليست لي سجايا من نوع خاص لا

يتكيف مع الظروف. غرفة نظيفة، وطبق ساخن للعشاء، وزجاجة خمر ليس من اللازم أن تكون سامة تماماً، هي كل ما أريد الليلة. ولكنني أريد هذا كله دون أن أقوم بأية حركة تزيد على الشيء الضروري للحصول عليه.

فقال السيد فلنتونش في تمهل أكثر من المعتاد ونظرته تلتقي لمدة لحظة بعيني السيد بلاندواز المتألقتين الحائرتين:

- توجد حانة ومقهى بالقرب من هنا يمكن إلى حد ما أن أنصح بها، ولكنها بلا نظام معين.

فقال السيد بلاندواز.

- إنني أتسامح في هذه الحالة. تكرم ودلّني على هذه الحانة وقدمني إلى صاحبها -إذا لم أكن مزعجاً جداً- وسوف أكون جد شاكر لك.

وعندئذ تناول السيد فلنتونش قبعته، وأضاء الطريق عبر الصالة للسيد بلاندواز مرة أخرى. وفيما هو يضع الشمعة في حالة لها، خطر له أن يصعد ويخبر المريضة المقعدة بأنه سيغيب خمس دقائق. ومن ثم قال له الزائر بعد أن سمع هذا منه:

- تكرم إذن واحمل بطاقتي إليها، كما أرجو أن تضيف إلى هذا أني سأكون سعيداً إذ أرى السيدة كلينام وأقدم إليها احتراماتي الخاصة وأعتذر عما أحدثته من اضطراب في هذا الركن الهادئ، هذا إذا رأت أن تحتمل زيارة رجل غريب لها لمدة لحظات قليلة بعد أن يغير ملابسه المبللة ويتزود بشيء من الطعام والشراب.

وحمل أرميا هذه الرسالة، ثم قال عند عودته:

- سوف يسرها أن تراك يا سيدي، ولكن إحساسها بأن غرفتها -كمريضة- تخلو من المشوقات، جعلها تطلب مني أن أقول لك إنها لا تتشبث بما عرضت عليها إذا رأيت أن تعيد التفكير في الأمر.

فقال بلاندواز الشهم:

– أعيد التفكير في الأمر؟ إن في هذا امتهاناً لسيدة، وامتهان سيدة لا يتفق مع الشهامة الواجبة مع النساء. والشهامة مع النساء جزء من طبيعتي!

وبعد أن أعرب عن نفسه هكذا، ألقى بطرف عباءته الموحل على كتفه، ومضى مع السيد فلتتونش إلى الحانة، مصطحباً معه حمالاً في الطريق كان يحمل حقيبة سفره الكبيرة وينتظر بها خارج البوابة.

وكانت الحانة تدار بطريقة لطيفة وادعة. وفيها أبدى السيد بلاندواز من روح التنازل والتفضل ما لا حد له. لقد بدا أن هذه الروح ملأت إلى حد الازدحام البار الصغير الذي استقبلته فيه الأرملة صاحبة الحانة وابنتاها، وأنها كانت أكبر جداً من الغرفة الضيقة الملوحة الجدران ذات لوحة «البجتلة»[1] التي عرضت لإقامته في أول الأمر، وأنها طابقت إلى حد الكمال الغرفة الصغيرة الخاصة بجلوس الأسرة في أيام الإجازات، فأعطيت له أخيراً. وهنا جلس السيد بلاندواز بملابسه الجافة وقميصه المعطر، وشعره الأملس، والخاتم الكبير في كل سبابة، وسلسلة الساعة الكبيرة، ينتظر طعام العشاء، وهو يتمايل على قاعدة النافذة وقد جمع ركبتيه إلى أعلى، وبدا في هذه الحالة –كما تبدو الجوهرة بعد صقلها– شبيهاً إلى حد يثير العجب والفزع بذلك المدعو السيد ريجود الذي جلس ذات مرة ينتظر الإفطار وهو راقد على النشز الصخري في الزنزانة ذات القضبان الحديدية بأحد سجون مرسيليا الرهيبة.

---

(1) لعبة ذات تسع كرات ومؤشر.

وكان نهمه في تناول الغداء، قريباً جداً من نهم السيد ريجود في تناوله ذلك الإفطار. وكذلك كانت طريقته في الحرص على جمع كل المأكولات حوله والتهام بعضها بعينيه أثناء التهام الباقي بفكيه، وكذلك أيضاً كان ينم عن نفس طبيعته الأنانية الوحشية الكامنة في أعماقه عن طريق إهماله الكامل لغيره. هذا الإهمال الذي بدا في بعثرته للطرف النسائية البسيطة في الأثاث هنا وهناك، وقذفه للوسائد اللطيفة تحت قدميه التماساً للمزيد من الراحة، وضغطه الشديد على الأغطية الرقيقة بجسمه الكبير ورأسه الأسود الضخم، وكان للأيدي المتحركة بنعومة والمنهمكة في العمل بين الأطباق نفس تلك الليونة الخبيثة القديمة التي كانت تقبض على القضبان. حتى إذا لم يعد قادراً على المزيج من الأكل وقد جلس يمتص أصابعه الرقيقة الواحد بعد الآخر ويمسحه أعلى المفرش، كان لا ينقص الصورة لكي تتم إلا أن يستبدل بالفراش أوراق العنب!

على هذا الرجل الذي يرتفع شاربه ويهبط أنفه بأشد الابتسامات الشيطانية، وبعينيه المسطحتين اللتين تبدوان كأنهم تنتميان إلى شعره المصبوغ، واللتين لهما تلك القدرة الطبيعية على انعكاسهما للضوء المرتد من عملية مماثلة على هذا الرجل وضعت الطبيعة الصادقة دائماً، التي لا تعمل بلا هدف قط، هذه العلامة: احترس منه! ولن يكون ذنب الطبيعة إذا لم يثمر هذا التحذير. في هذه الحالة لن يكون ثمة ملام عليها قط.

وبعد أن فرغ بلاندواز من طعامه، ومن تنظيف أصابعه، تناول من جيبه سيجاراً، ثم رقد مرة أخرى على قاعدة النافذة، وراح يدخنه في تمهل وهو -بين الحين والآخر- يناجي الدخان عند انسيابه من شفتيه الرفيعتين في سلسال رفيع:

- بلاندواز، لسوف تقلب المائدة على المجتمع، يا طفلي الصغير! ها ها، يا للسماء المقدسة، لقد أحسنت البداية يا بلاندواز، إنك في ساعة

العسرة أستاذ ممتاز في الإنكليزية أو الفرنسية! إنك رجل تحبه العائلات وترحب به! إنك سريع البديهة، خفيف الظل، مرن، جذاب السلوك، حسن المظهر؛ وبالإجمال كسيِّد كريم! وكسيِّد كريم سوف تحيا يا ولدي الصغير، وكسيِّد كريم سوف تموت! لسوف تنتصر أياً كان اتجاه اللعبة، لسوف يعترفون جميعاً بكفاءتك يا بلاندواز. لسوف تُخضِع المجتمع الذي أساء إليك جداً، لروحك القوية. ويح نفسي، إنك قوي الشكيمة عن حق وعن طبيعة يا بلاندواز!

بمثل هذه الغمغمة المهدئة للنفس راح هذا السيد يدخن سيجاره ويشرب من زجاجة خمره. فلما فرغ منهما، اتخذ لنفسه وضع الجلوس؛ اختتم مناجاته قائلاً:

– مهلاً إذن! يا بلاندواز، أيها العبقري، استجمع كل ذكائك حولك.

ثم نهض وعاد إلى بيت كلينام وشركائه.

واستقبلته عند الباب المديرة آفري، التي كانت –بناءً على تعليمات سيدها– قد أوقدت شمعتين في الصالة، وثالثة على السلم؛ ومضت به إلى غرفة السيدة كلينام، وكان الشاي قد أُعِدَّ فيها مع بعض الترتيبات التي كانت تجري عادة عند استقبال الزوار المنتظر حضورهم. وكانت هذه الترتيبات بسيطة في أعظم المناسبات، لا تتجاوز قط استعمال طاقم الشاي الصيني، وتغطية الفراش بأغطية حريرية قاتمة مقبضة. أما فيما عدا هذا، فقد ظل كل شيء كما هو: الأريكة الشبيهة بالتابوت والنطع فوقها، والسيدة في ملابس الحداد والترمل كأنها مُعَدَّة لتنفيذ حكم الإعدام عليها، والنار التي تعلوها طبقة من الرماد الرطيب، وقاعدة المدفأة بكومة أخرى من الرماد، والإبريق ورائحة الصبغة السوداء. كل شيء ظل كما هو منذ خمسة عشرة عاماً.

وقدم السيد فلتونش السيد الذي يحمل رسالة توصية إلى بيت كلينام وشركائه. وأحنت السيدة كلينام -التي كانت الرسالة موضوعة أمامها- رأسها والتمست منه أن يجلس، وراح كل منهما يتفرس في وجه الآخر. ولكن هذا لم يكن غير فضول طبيعي.

- إنني أشكرك يا سيدي لتفكيرك في امرأة عاجزة مثلي. إن القليلين فقط من الذين يأتون لبعض الأعمال هنا، هم الذين يسبغون تقديرهم على واحدة تعيش في عزلة تامة. وإنه من اللغو أن ينتظر الإنسان غير هذا. فالبعيد عن العين، بعيد عن الفكر. وإذا كنت أعترف بالجميل للذين يشذون عن هذه القاعدة، فإني لا أشكو من الذين يطبقونها.

وقال السيد بلاندواز، بكل رقة وتهذيب، إنه يخشى أن يكون قد أزعجها بمجيئه في مثل هذا الوقت غير المناسب. ولهذا السبب قدم اعتذاراته للسيد -والتمس المعذرة- ولكنه لم ينل شرف معرفة الاسم.

- إن للسيد فلتونش علاقة بالبيت التجاري منذ أعوام كثيرة.

وقال السيد بلاندواز إنه الخادم المطيع الوفي للسيد فلتونش وإنه يرجو السيد فلتونش أن يتأكد تماماً من أنه يحمل له كل تقدير واحترام.

وقالت السيدة كلينام:

- بعد أن مات زوجي، وبعد أن آثر ابني الاشتغال بعمل آخر، لم يعد لبيتنا التجاري القديم هذا من يمثله إلا السيد فلتونش.

وهنا قال ذلك السيد بدهاء:

- وماذا تسمين نفسك؟ إن لك تفكير رجلين.

فاستطردت تقول بعد لمحة خفيفة من عينيها في اتجاه أرميا:

- إن جنسي لا يؤهلني لأن أحمل مسؤولية جانب من عبء العمل، حتى لو كانت لدي المقدرة. ومن ثم فقد جمع السيد فلتونش بين

مصالحه ومصالحي، وقام بإدارة العمل. إنه لم يعد كما كان من قبل. ولكن بعض أصدقائنا القدامى، وأهمهم كاتبو هذه الرسالة، تكرموا ولم ينسونا، ومن ثم استعدنا القدرة على أن نعمل ما يعهدون به إلينا بكل ما نستطيع من إجادة. ولكن هذا، على أي حال، لا يهمك كثيراً. هل أنت إنكليزي يا سيدي؟

فقال السيد بلاندواز وهو يبسط ساقه ويضرب عليها:

- لا يا سيدتي، إنني لم أولد، ولم أنشأ في إنكلترا. إنني بلا وطن. إنني أنحدر من عدة بلاد.

- لقد طفت كثيراً في العالم؟

- أجل يا سيدتي؟ لقد ذهبت هنا وهناك وإلى كل مكان بحق السماء.

- لعلك متحرر من الارتباطات. لست متزوجاً؟

فقال السيد بلاندواز وهو يخفض حاجبيه بشكل كريه:

- سيدتي، إنني أقدس جنسك، ولكنني لست متزوجاً، ولم أكن قط.

وحدث أن آفري الواقفة إلى المائدة بجانبه تصب الشاي، أن التفتت إليه في حالة الذاهلة وهو ينطق بهذه الكلمات، فخيل إليها أنها رأت في عينيه أمارات جذبت عينيها بحيث لم تعد قادرة على تحويلهما. وكان نتيجة هذا التخيل أن بقيت تحملق فيه وإبريق الشاي في يدها، ثم انتقل شعورها بالقلق منها إليه أيضاً، ثم إلى كل من السيد فلنتونش والسيدة كلينام، وهكذا مرت لحظات مخيفة كانوا جميعاً يحملقون خلالها في ارتباك دون أن يعرفوا لماذا.

وكانت سيدتها أول من تحدثت فقالت:

- آفري، ماذا حدث لك؟

فقالت آفري ويدها الأخرى ممتدة إلى الزائر:

- إنني لا أعرف. لست أنا.. وإنما هو.

- ماذا تعني هذه المرأة الطيبة؟

قالها السيد بلاندواز هاتفاً وقد امتقع وجهه واضطرب، وراح ينهض ببطء وقد تألقت في عينيه أمارات من الغضب الرهيب الذي لا يتنافى بشكل مدهش مع قوة كلماته الخفيفة:

- كيف يمكن فهم هذه المخلوقة الطيبة؟

فقال السيد فلنتونش وهو يدير نفسه بسرعة نحوه:

- إن هذا غير ممكن. إنها لا تعرف ماذا تعني. إنها بلهاء، مشردة الفكر. لسوف تأخذ جرعة. سوف تأخذ جرعة كبيرة. هيا اذهبي يا امرأتي.

ثم أردف قائلاً في أذنها:

- هيا اذهبي وأنت تعلمين أنك آفري وقبل أن أنقض عليك وأعجنك.

وأدركت آفري الخطر الذي يتهدد شخصها، فتخلت عن الإبريق عندما أمسك به زوجها، ثم وضعت المريلة على رأسها، واختفت في لمح البصر. وعادت الابتسامة تدريجياً إلى وجه الزائر وهو يجلس مرة أخرى.

وقال أرميا وهو يصب الشاي بنفسه:

- أرجو أن تلتمس لها العذر يا سيد بلاندواز. إنها تتأخر صحياً وتوشك أن تنهار.. هذا هو حالها. أتريد سكراً يا سيدي؟

- شكراً لك. إنني لا أريد شاياً... معذرة على ملاحظتي لهذه الساعة، ولكنها ساعة مدهشة جداً.

وقربت مائدة الشاي إلى الأريكة مع بقاء فسحة بينها وبين مائدة السيدة كلينام الخاصة. وكان السيد بلاندواز -في شهامته- قد نهض ليقدم للسيدة شايها، وكان طبق خبزها المحمر قد قُدِّم إليها من قبل. وكان في أثناء وضعه الفنجان في مكان مناسب لها قد رأى تلك الساعة موضوعة أمامها دائماً، فجذبت انتباهه. وتطلعت السيدة كلينام إليه فجأة.

وقال وهو يأخذ الساعة في يده:

- هل تأذنين لي؟ شكراً. ساعة جيدة من الطراز القديم. ثقيلة للاستعمال، ولكنها أصيلة ضخمة. إنني شغوف بكل أصيل. هكذا أنا، لأني أنا نفسي أصيل. هاه! ساعة سيد كريم بمظروفين من الطراز القديم. هل أخرجه من المظروف الخارجي. شكراً لك. أجل. بطانة من الحرير القديم المطرز بالخرز! كثيراً ما رأيت هذه الأشياء بين العجائز الهولنديين والبلجيكيين. أشياء لطيفة!

وقالت السيدة كلينام:

- إنها أيضاً من طراز قديم.

- جداً. ولكن هذه البطانة ليست في قدم الساعة كما أظن؟

- أعتقد هذا.

فقال السيد بلاندواز معلقاً وهو يرفع عينيه بابتسامته مرة أخرى:

- أعجب شيء كيف كانوا يكتبون بهذه الشفرة المعقدة ! فمثلاً هذه الحروف د.ن.ف. قد تعني أي شيء.

- إنها الحروف.

وكان السيد فلنتونش الواقف منتبهاً خلال هذه الفترة وفنجان الشاي في يده على استعداد لأن يجرع محتوياته، قد بدأ يفعل هذا. وكان دائماً يملأ فمه تماماً قبل أن يفرغه في جرعة واحدة!

وقال السيد بلاندواز وهو يغلق مظروف الساعة مرة أخرى:

- لست أشك في أن «د.ن.ف.» كانت مخلوقة رقيقة محبوبة جذابة شقراء. وإني لأقدس ذكراها على هذا الفرض. ومن سوء حظ سكينتي الذهنية فأنا أسرع في تقديس النساء. ولعل أن يكون هذا رذيلة، ولعله أن يكون فضيلة. ولكن ثلاثة أرباع طبيعتي تنحصر في تقديس النساء وصفاتهن الممتازة.

وكان السيد فلنتونش عندئذ قد صب لنفسه فنجاناً آخر من الشاي الذي ابتلعه في جرعات كما فعل من قبل وعيناه متجهتان إلى السيدة المقعدة.

وقالت ملتفتة إلى السيد بلاندواز:

- قد تكون خالي البال هنا يا سيد، ولكن هذه الحروف لا تعني كما أعتقد أي اسم لأحد.

فقال السيد بلاندواز بشكل عرضي:

- لعلها شعار!

- إنها تعني عبارة، وأعتقد أنها كانت دائماً تعني: «لا تنسى».

فقال السيد بلاندواز وهو يعيد الساعة ويتراجع إلى الوراء نحو مقعده الأول:

- وبطبيعة الحال لم تنسى!

ولم يكتف السيد فلنتونش -وهو يفرغ فنجانه الثاني- بتناول جرعة أكبر من أية جرعة أخرى سبقتها، وإنما تناولها في وضع جديد، أي أنه جعل رأسه تنحدر إلى الوراء، والفنجان مرفوع إلى شفتيه بينما عيناه لا تزالان متجهتين إلى السيدة المقعدة. وكانت له تلك القوة المعبرة في

الوجه، وتلك القدرة على تركيز وجمع كل ما لديها من حزم وإصرار؛ اللذين يمثلان في حالتها ما تمثله الإيماءة والحركة في حالة غيرها. وكان ذلك واضحاً وهي ترد قائلة بحديثها القوي المقصود:

- لا يا سيدي، إنني لا أنسى. إن هذه الحياة الرتيبة المملة التي عشتها منذ أعوام كثيرة لا تتيح لي فرصة النسيان. وإن الذي يعيش حياته هدفها تأديب النفس خليق ألا ينسى. وإن الشعور -وهو شعور نحس به جميعاً، نحن أبناء آدم- بأن لنا من الخطايا ما يجب أن نكفر عنه لننشر السلام بيننا، لا يبرر الرغبة في النسيان. ولهذا لقد طردت من ذهني فكرة النسيان منذ أمد بعيد، ولم أعد أنسى، أو لي رغبة في النسيان.

وكان السيد فلنتونش في اللحظات الأخيرة يهز الثفل في قاع الفنجان بحركة دائرية، وأخيراً جرع محتوياته دفعة واحدة، ثم وضعه في صينية الشاي بعد أن فرغ منه نهائياً، ثم استدار بعينيه إلى السيد بلاندواز كأنما يسأله ما رأيه في هذا.

وقال السيد بلاندواز بانحناءته الرقيقة ويده البيضاء على صدره:

- لقد استكمل التعبير عن كل شيء يا سيدتي، وذلك بكلمة «طبيعياً» التي أفخر بأن يكون لدي من إدراكها وتقديرها لأني دون هذا التقدير لا أكون بلاندواز ما يجعلني أستعملها.

فردت قائلة:

- معذرة يا سيدي إذا أنا شككت في طبيعة أمر سيد معتاد على المرح وتغيير الجو والمجاملة واحترام غيره، والحصول على احترامه.

- آه، سيدتي، بحق السماء!

- إذا أنا شككت في طبيعة أمر سيد كهذا حين لا يفهم تماماً ما يخصني في ظروفي هذه. ولكنني لا أفرض عليك مبدأً معيناً...

ثم نظرت إلى كومة الكتب الباهتة الجامدة الموضوعة أمامها، وأردفت قائلة:

- لأنك ستمضي في طريقك، وستتحمل على رأسك كل النتائج، عندما أقول لك هذا: إنني أحدد طريقي بوساطة مرشدين.. مرشدين ثبتت جدارتهم وكفاءتهم - بحيث لا يمكن أن تغرق سفينتي معهم، لا يمكن، وإنني إذا لم أكن مهتمة بالمعنى الذي تحمله هذه الأحرف الثلاثة، لما كنت في نصف هذه الحال المحزنة التي أنا فيها الآن.

وكم كانت عجيبة في قدرته على انتهاز الفرصة للجدل مع غريم ما خفي. ولعلها بإحساسها الأفضل كانت تستدير دائماً نحو نفسها ونحو ردهاتها. وقد عادت تقول:

- إذا أنا نسيت جهالاتي في حياة الصحة والحرية، كان من الممكن أن أشكو من هذه الحياة التي قُدِّرت علي الآن. ولكن هذا ما لا أفعله قط، وما لم أفعله. فلو أني نسيت أن هذا المسرح، مسرح الأرض، قد قصد به عمداً أن يكون مسرح كآبة، ومشقة، ومحنة قاسية للمخلوقات التي صنعت من ترابها، لأمكن أن أشعر بالميل إلى تفاهاتها. ولكن ليس لدي مثل هذا الميل. ولولا أنني لم أعرف أننا -جميعاً- موضع -وهذا على حق تماماً- غضب رهيب لا بد أن ينفث، وأن كل مقاومة له لا تجدي، لأمكن أن أذوب حزناً وأنا أرى الفارق بيني -في سجني هنا- وبين الناس الذين يمرون أمام البوابة هناك. ولكنني أعتبر هذا نوعاً من الرضا والقبول لأن الاختيار وقع عليّ لأهدئ هذا الغضب بما أقوم به هنا، ولأعرف ما ينبغي أن أعرفه هنا عن يقين، وأن أصل إلى ما يجب الوصول إليه هنا ولولا هذا لما كان لمرضي المزمن أي معنى في نظري. من هنا فأنا لا أنسى، ولن أنسى شيئاً. ومن هنا فأنا راضية وأقول إنني أحسن حالاً من الملايين غيري.

وفيما هي تنطق بهذه الكلمات، وضعت يدها على الساعة واستردتها إلى مكانها المحدد تماماً الذي كانت عليه دائماً فوق المائدة الصغيرة. وظلت جالسة بعد ذلك لحظات ويدها تلمسها، وهي تنظر إليها في ثبات وفي شيء من التحدي.

وكان السيد بلاندواز، خلال هذه المحاضرة، ينصت بانتباه مركِّزاً نظراته على السيدة، ماسحاً -في تفكير- على شاربه بيديه، أما السيد فلنتونش الذي ظل متململاً بعض الشيء، فقد تدخل في الحديث عندئذ قائلاً:

- كفى، كفى، كفى، إن هذا مفهوم تماماً يا سيدة كلينام. وقد أحسنت الحديث في الناحية الدينية. وأظن أن السيد بلاندواز ليس من النوع المتدين.

فقال ذلك السيد في احتجاج وهو يطرقع أصابعه:

- على العكس يا سيدي! معذرة، إن التدين جزء من طبيعتي، إنني حساس وغيور، ومرهف الضمير، وواسع الخيال! فإما أن أكون هذا كله يا سيد فلنتونش، وإما لا شيء.

وكان ثمة لمحة من الشك على وجه السيد فلنتونش بأنه لا شيء وهو يراه ينهض مختالاً عن مقعده، وكان من خصائص مثل هذا الرجل، كما هو الشأن مع جميع الرجال الذين على شاكلته، أن كل شيء يعمله، لا ينحرف في عمله ولو بمقدار شعرة أحياناً، ويقترب من السيدة كلينام ليستأذن في الانصراف.

وعندئذ قالت له:

- لقد أغريت بالحديث عن نفسي وأمراضي بما قد يبدو لك نوعاً من أنانية امرأة عجوز يا سيدي، وذلك رغم أن إشارتك العارضة هي

التي دفعتني إلى هذا. وبهذه الروح الطيبة التي دفعتك إلى زيارتي، أرجو أن تتجاوز عن ذلك. لا تمتد حتى إذا سمحت...

لأنه كان كما يبدو ينوي أن يفعل هذا. واستطردت هي قائلة:

– لسوف يسعد السيد فلنتونش أن يقدم إليك أية خدمة. أنا أرجو أن تكون إقامتك في هذه المدينة مصدراً لإرضائك.

وشكرها السيد بلاندواز، وقبّل يدها مرات كثيرة. ثم قال ببشاشة مفاجئة وهو يتلفت حوله عندما اقترب من الباب:

– هذه غرفة قديمة لقد انشغلت إلى حد أني لم ألحظها، إنها غرفة قديمة أصيلة.

فقالت السيدة كلينام بابتسامتها المتجمدة:

– إنه بيت قديم أصيل. ودكان متواضع ولكنه أثر من الآثار القديمة.

وصاح الزائر قائلاً:

– حقاً! ولو أن السيد فلنتونش يتكرم ويصحبني في جولة إلى الغرف في أثناء انصرافي، لعجزت عن شكره. إنني أهيم شغفاً بالبيوت القديمة. وإنني لأشغف بأشياء كثيرة، ولكن البيوت القديمة على رأسها إنني أحب وأدرس كل الآثار الجميلة بمختلف أنواعها. ولهذا يقولون إنني نفسي أثري. وليس ثمة كفاءة في أن يكون الإنسان قطعة أثرية فربما كان لي كفاءات أخرى كثيرة. ولكني قد أكون كذلك مصادفة. فأرجو شيئاً من العطف والمراعاة.

وقال أرميا وهو يتناول الشمعة:

– أقول لك مقدماً يا سيد بلاندواز، سوف نجدها كئيبة جداً وعارية، ولا تستحق رؤيتك لها.

ولكن السيد بلاندواز لم يفعل إلا أن ضحك وهو يضربه بمودة على ظهره وهكذا قبَّل المدعو بلاندواز يدها مرة أخرى للسيدة كلينام، ثم انصرف من الغرفة مع السيد فلنتونش الذي قال له عند المهبط:

- إنك لست مهتماً بالصعود إلى الدور الأعلى.

- بالعكس يا سيد فلنتونش، إذا لم يكن هذا متعباً لك، فسوف أكون سعيداً جداً.

ومن ثم راح السيد فلنتونش يزحف صاعداً على السلم ومن ورائه مباشرة السيد بلاندواز. وصعد إلى غرفة النوم الكبيرة العليا التي أمضى فيها آرثر ليلته الأولى عقب عودته. وهنا قال له أرميا:

- ما رأيك يا سيد بلاندواز أرجو أن تجد فيها ما يستحق عناء الصعود إليها. أما أنا، فلا.

ولما كان السيد بلاندواز منتشياً، فقد سارا خلال غرف أخرى من هذا النوع، وممرات، ثم هبطا عبر السلم مرة أخرى. وخلال هذا، لاحظ السيد فلنتونش أنه وجد الزائر لا يطيل النظر قط إلى أية غرفة بعد أن يلقي عليها نظرة سرعة، وإنما وجده دائماً ينظر إليه، هو السيد فلنتونش. ولما اكتشف هذا في ذهنه، استدار وهما على السلم ليتأكد. وعندئذ التقى بعينيه فوراً، وفي اللحظة التي تركزت عينا كل منهما في عيني الآخر، انطلق الزائر ضاحكاً بهذه الحركة البغيضة من أنفه وشاربه، كما كان يفعل دائماً في كل لحظة مماثلة منذ غادرا غرفة السيدة كلينام. وكانت ضحكة شيطانية خافتة.

ولما كان السيد فلنتونش أقصر قامة من الزائر فقد وجد نفسه -من الناحية الجسمانية- في وضع غير مُرْضي وهو يرى الآخر ينظر إليه من أعلى شزراً. وقد ازداد هذا الإحساس وهو يهبط السلم ويغدو بطبيعة الحال أكثر هبوطاً بدرجة أو درجتين. ومن ثم أرجأ النظر مرة أخرى إلى

السيد بلاندواز حتى يزول هذا التفاوت العارض بدخولهما معاً غرفة السيد كلينام الراحل. ولكن عندما استدار حينئذ فجأة ليواجهه، وجد نظراته الشزراء لم تتغير.

وابتسم السيد بلاندواز قائلاً:

- بيت قديم رائع جداً... مليء بالأسرار. ألم تسمع قط أصوات أشباح فيه؟

فردّ السيد فلنتونش قائلاً:

- أصواتاً! لا!

- أو رأيت فيه عفاريت؟

فقال السيد فلنتونش وهو يلتوي بجسمه أمام السائل:

- لا، لم نتعرف بشيء له هذا الاسم أو هذه الصفات.

- ها ها! ها هي ذي صورة هنا، كما أرى.

وكان مستمراً في النظر إلى السيد فلنتونش كأنه هو الصورة.

- إنها صورة، كما لاحظت يا سيدي.

- هل يمكن أن أسأل صورة من هي يا سيد فلنتونش؟

- صورة السيد كلينام، المتوفى، زوجها.

فقال الزائر:

- لعله كان المالك الأول لتلك الساعة القيِّمة.

واستدار السيد فلنتونش -الذي كان قد نظر إلى الصورة- وواجه الزائر مرة أخرى، ومرة أخرى وجد نفسه معرَّضاً لنفس النظرة ونفس الابتسامة ومن ثم أجاب بجفاء:

- أجل يا سيد بلاندواز. كانت ملكه، وملك عمه من قبل، ولا يعلم غير الله من كان مالكها قبله. وهذا كل ما أستطيع أن أقوله لك عن تاريخ نسبها.

- إنها شخصية قوية مدهشة يا سيد فلنتونش... صاحبتنا تلك في الطابق العلوي.

فقال أرميا وهو يستدير مرة أخرى نحو الزائر -كما فعل طيلة المحادثة بينهما- وكأنه آلة لولبية لم تبلغ غايتها، ذلك لأن الآخر لم يتغير قط، وكان هو يشعر دائماً بأن عليه أن يتراجع قليلاً!

- أجل يا سيدي. إنها سيدة مدهشة، قوية الشكيمة، قوية العقل.

وقال بلاندواز:

- لا بد أنهما كانا سعيدين جداً.

فقال السيد فلنتونش مستديراً نحوه مرة أخرى:

- من؟

فلوح السيد بلاندواز بسبابته اليمنى نحو غرفة السيدة المقعدة وباليسرى نحو الصورة، ثم وقف عاقداً ذراعيه خلف ظهره، مفسحاً ما بين ساقيه، يبتسم للسيد فلنتونش، بأنفه الزاحف وشاربه المتراجع.

وقال السيد فلنتونش مجيباً.

- أعتقد أنهما كان سعيدين كمعظم الأزواج الآخرين. ولكني لا أجزم ولا أعرف. فإن البيوت أسرار.

فهتف بلاندواز قائلاً بسرعة:

- أسرار؟ قل هذا مرة أخرى يا ولدي.

قال السيد فلنتونش الذي كان الزائر قد انتفخ أمامه فجأة حتى كاد أن يلمس وجهه بصدره المطوط.

– أقول.. أقول إن البيوت أسرار.

فصاح الآخر قائلاً وهو يضربه على كتفيه ويطوح به إلى الأمام وإلى الخلف.

– أجل، أجل، ها ها، إنك على صواب. أجل، أجل... أسرار؟ يا للسماء. إن أسرار الشيطان نفسه في بعض البيوت يا سيد فلنتونش.

وبهذا، وبعد أن ضرب السيد فلنتوش على كتفيه مرات كثيرة وكأنما هو، بطريقة ودية مرحة؛ يستظرف نادرة ألقاها، ثم رفع ذراعيه، وألقى برأسه إلى الوراء، وعقد يديه وراءه، وانفجر في ضحك عريض. وكان عبثاً أن يحاول السيد فلنتونش أن يلتوي نحوه مرة أخرى، لأنه لم يعد ثمة مزيد من الضحك.

وقال بلاندواز بعد أن فرغ من الضحك:

– أرجو أن تتكرم عليّ بالشمعة برهة، ودعنا نلقِ نظرة على زوج هذه السيدة المدهشة. هاه.

ثم أمسك الشمعة على مدى الذراع وأردف قائلاً:

– إنني أرى هنا أيضاً وجهاً قوي الإرادة وإن لم يكن من نفس الطبيعة. ويبدو كأنما هو يقول: ماذا؟ لا تنسَ. أليس كذلك يا سيد فلنتونش؟ إنه يقول هذا، بحق السماء يا سيدي.

وفيما هو يعيد الشمعة إليه، نظر في وجهه مرة أخرى، ثم قال وهو يمضي متمهلاً إلى الصالة معه، إنه بيت قديم جذاب حقاً، وإنه أحد البيوت التي أبهجته كثيراً بحيث ما كان ليفوته التفرج عليه نظير مائة جنيه.

وظل وجه السيد فلنتونش الجامد غير القابل للكثير من التغيرات محتفظاً بجموده طيلة كل هذه التصرفات الفريدة من جانب السيد بلاندواز وهو التي كانت تشمل تغييرات عامة في سلوكه فتجعله أحياناً أكثر غلظة وخشونة وأشد عنفاً واندفاعاً مما كان من قبل. واستمر السيد فلنتونش محتفظاً بهدوئه الظاهري رغم ما قد يبدو عليه من امتعاض خفيف كلما أسرف الآخر في إظهار مودته بالضرب على الكتفين. ولما وصلا في فرجتهما إلى الغرفة الصغيرة الضيقة في جانب الصالة، وقف السيد فلنتونش فيها يرمق السيد بلاندواز ثم يقول له بهدوء:

– إنني سعيد بابتهاجك يا سيدي. إنني لم أكن أتوقع هذا. لأنك تبدو في حالة معنوية عالية.

فردّ بلاندواز قائلاً:

– في حالة معنوية رائعة. شرفاً إني لم أشعر في حياتي بمثل هذا الانتعاش النفسي. ألم تشعر في حياتك ببعض التوجسات يا سيد فلنتونش؟

فردّ ذلك السيد قائلاً:

– أؤكد لك أنني لا أعرف ماذا تعني بهذا التعبير يا سيدي.

– أعني ألا تشعر في حالتنا هذه يا سيد فلنتونش توقعات غير محددة لمباهج مقبلة؟

فقال السيد فلنتونش في جد شديد:

– لا أستطيع القول إن مثل هذه المشاعر تخامرني الآن. وإذا أحسست بمجيئها، فسوف أذكرها.

فقال بلاندواز:

– ولكنني أنا، أنا يا ولدي، أشعر الليلة. بالتوجس بأن علاقتنا الليلة ستزداد. ألا تحس بدبيب هذا الشعور.

فقال السيد فلنتونش متعمداً استفتاء نفسه:

- لا.. لا أستطيع القول إني أشعر.

- إن لدي إحساساً عميقاً بأننا سوف نرتبط معاً بعلاقة قوية، ألم يخامرك بعد إحساس من هذا النوع؟

فقال السيد فلنتونش:

- لا، ليس بعد.

وتناوله السيد بلاندواز من كتفيه مرة أخرى، وراح يطوح به قليلاً بالطريقة المرحة السابقة، ثم وضع ذراعه في ذراعه، ودعاه إلى تناول زجاجة خمر معه كأي صديق عزيز.

وقَبِل السيد فلنتونش الدعوة بلا أدنى تردد، وسارا معاً إلى الحانة التي نزل بها بلاندواز. وكان سيرهما تحت وابل من المطر الغزير، الذي كان يتساقط على النوافذ والأسقف والأفاريز منذ هبوط الظلام. وكان الرعد والبرق قد توقفا منذ أمد بعيد، ولكن المطر كان عنيفاً. وعند وصولهما إلى غرفة السيد بلاندواز بالحانة، أمر هذا السيد الشهم بإحضار زجاجة خمر، وكان يمحق كل شيء رقيق يستطيع أن يجمعه بأصابعه الناعمة الجميلة. ثم كور نفسه على قاعدة النافذة، بينما اتخذ السيد فلنتونش مقعداً في مواجهته مع وجود مائدة بينهما. واقترح السيد بلاندواز أن يشربا الخمر في أكبر الكؤوس الموجودة بالحانة، ووافقه السيد فلنتونش على هذا.

وامتلأت الكأسان، وقرع السيد بلاندواز في مرح شديد حافة كأسه العليا بقاع كأس السيد فلنتونش، ثم قاع كأسه بحافة كأس السيد فلنتونش العليا، ثم شرب نخب العلاقة الوطيدة التي يتنبأ بها. واستجاب السيد فلنتونش إليه في وقار، وشرب كل ما استطاع الحصول عليه من خمر، دون أن يقول شيئاً. وكان بلاندواز كلما قرع الكأسين إحداهما

بالأخرى، وكان يفعل هذا في كل دورة شرب، قام السيد فلنتونش بدوره بثبات في هذه العملية ومضى يشرب خمره وخمر صديقه في وقتٍ واحد لا يميز بينهما.

وبالإجمال وجد السيد بلاندواز أن الخمر بدلاً من أن تطلق لسان السيد فلنتونش المتحفظ، تزيده صمتاً. وأكثر من هذا كان عليه مظهر الشخص المستعد أن يظل على هذا النحو من الشرب طيلة الليل، أو إذا سمحت الظروف، طيلة اليوم التالي. والليلة التالية، هذا بينما قد بدأ السيد بلاندواز يشعر بوضوح أن الخمر قد أخذت تتلاعب بعقله. ومن ثم فضّ هذه الجلسة في نهاية الزجاجة الثالثة.

وقال السيد فلنتونش في هيئة رجل الأعمال عند الانصراف:

– لسوف تأتي غداً لتسحب النقود.

فقال الآخر وهو يأخذ خناقه بيديه:

– ويحك لسوف أسحب النقود غداً، لا تخف. إلى اللقاء يا عزيزي فلنتونش، خذ هذا عند الافتراق.

وهنا عانقه عناق أهل الجنوب، وقبّل خديه بقوة، وقال:

– إنها كلمة شرف من سيد كريم، بحق الرعود، لسوف تراني مرة أخرى.

ولم يذهب في اليوم التالي، رغم وصول الإخطار عنه. ولما سأل السيد فلنتونش عنه ليلاً وجد أنه –لدهشته– قد دفع حساب إقامته في الحانة وعاد إلى أوروبا عن طريق كاليه. ومع هذا فقد أعرب وجه أرميا عن اليقين الأكيد بأن السيد بلاندواز سوف يبر بعهده في هذه المرة، وأنه سوف يظهر مرة أخرى.

الطيف

قد يمر أي إنسان، في أي يوم، في شوارع العاصمة المزدحمة برجل عجوز شاحب مغضن هضيم، وهو قد يظن أنه سقط من بعض النجوم، إذا كان في السماء من النجوم الكئيبة ما يسقط عنها مثل هذا الوميض الخابي، يزحف في طريقه في هيئة الخائف وكأنما هو مرتبط وعلى شيء من الخوف من الضجيج والصخب. هذا الرجل العجوز هو دائماً عجوز صغير الحجم. فلو أنه كان يوماً عجوزاً كبير الحجم، فقد انكمش إلى رجل عجوز ضئيل الجرم. ولو أنه كان عجوزاً ضئيل الجرم دائماً فقد ازداد انكماشاً وضآلة. وكان معطفه من لون وطراز لم يحدث أن كان لهما مثيل في أي زمان أو مكان. والواضح أنه لم يكن مفصلاً له، ولا لأي فرد معين. إن بعض منشآت البيع بالجملة قد قاست على القدر خمسة آلاف معطف من هذا النوع، وأعار القدر هذا العجوز واحداً من هذه المعاطف القديمة باعتباره واحداً من طابور لا ينتهي من العجائز. إن له دائماً أزراراً كبيرة من معدن كميد لا تشبه أية أزرار أخرى، ويضع هذا الرجل العجوز على رأسه قبعة. إنها منكمشة ومطبقة ومع ذلك فهي قبعة عنيدة لم تكيف نفسها قط مع رأسه المسكين.

ولم يكن لقميصه الخشن، ولا لمنديل رقبته الغليظ أية سمة فردية، شأنهما في ذلك شأن المعطف والقبعة. كان لهما نفس الطابع الذي يدل على

أنهما ليسا له، وليسا لأحد غيره. ومع هذا فإن هذا الرجل العجوز يرتدي ملابسه هذه في هيئة الإنسان الذي لم يتعود أن يرتدي الملابس ويعد نفسه للخروج إلى المجتمع، وكأنما هو قد أمضى الجانب الأكبر من عمره مرتدياً جلباباً وقلنسوة النوم. وهكذا أصبح كالفأر الريفي في العام الثاني من المجاعة الذي جاء لزيارة فأر المدينة، فراح في خوف يشق طريقه إلى بيته بالمدينة عبر حشود من القطط في الشوارع.

وهو يرى في بعض الأحيان، في أيام العطلات بعد الأصائل، يسير في حالة عجز أكثر قليلاً، وعيناه العجوزان تتألقان بضوء خابٍ ضعيف.

وفي هذه الحالة يكون العجوز الضئيل سكران. وإن كمية قليلة جداً يمكن أن تسكره. بل يمكن أن يترنح ويسقط فاقد الوعي بنصف قدح من الشراب.

وإن كثيراً ما يدفئ دمه بعض المعارف المشفقين –وعادة يكونون معارف عرضيين– ببعض أقداح البيرة، فتكون النتيجة أن تمر فترة أطول من المعتاد عند عودته مرة أخرى. وكان الرجل العجوز الضئيل، عائداً إلى المصنع الذي يشتغل ويقيم فيه حيث لا يدعه المشرفون عليه يكثر من الخروج إذا حسّن سلوكه، وذلك رغم أنهم قد يسمحون له بكثرة الخروج إذا عرف أن الأعوام الباقية له قليلة، وإذا ساء سلوكه، فإنه يسجن في مكان ضيق مع تسعة عشر شخصاً مثله، رائحة كل واحد منهم تشبه رائحة الجميع.

وكان والد السيدة بلورنيش رجلاً عجوزاً ضئيلاً هضيماً كأنه طائر منتوف الريش؛ وكان من قبل يشتغل فيما يسمى بصناعة شد الآلات الموسيقية، إلا أنه تعرض للكثير من سوء الحظ، وكان دائماً لا يكاد يعرف طريقه في الحياة، أو يراه، أو ينتفع به، أو يفعل به أي شيء إلا أن يجده مسدوداً دائماً. هذا الرجل، والد زوجة بلورنيش، لجأ من تلقاء نفسه

للعمل في ذلك المصنع الذي أقامه القانون لمن يريد أن يسدد دَيْنه أو دَيْن غيره، وكان يمنح العامل بنسين في اليوم، وهي عملية رديئة في عالم الاقتصاد السياسي. وكان غرضه من هذا أن يسوّي الديون التي أودت بالسيد بلورنيش إلى سجن مارشاليزا. وقبل أن يقع السيد بلورنيش في هذه المشكلات، كان حموه العجوز ناندي -كان هذا اسمه دائماً في المصنع، ولكن اسمه بين سكان حوش بليدنج هارت هو العجوز السيد ناندي- يجلس في الركن بجوار مدفأة السيد بلورنيش، ويتناول الطعام والشراب من خزانة السيد بلورنيش؛ وكان لا يزال يأمل في أن يعود إلى هذه المكانة المنزلية عندما يتبسم الحظ لزوج ابنته. وخلال هذا، وفي أثناء إصرار الحظ على عدم الابتسام، فقد احتفظ العجوز بعمله في المصنع مُصِرّاً على أن يبقى واحداً من الرجال العجائز الضئال الأجسام في مثابة للعجائز الضئال المشتركي الصفات والسمات.

ولكن لم يكن أي مظهر للفقر عليه، أو أي معطف يرتديه من طراز ليس له مثيل، أو أية مثابة خاصة للعجائز يقيم بها، لم يكن شيء من هذا يمكن أن يخفف قط شيئاً من إعجاب ابنته به. كانت السيدة بلورنيش فخوراً بمواهب أبيها كما كان من المحتمل أن تكون لو أن هذه المواهب قد جعلت أباها قاضي القضاة. وكان يقينها الأكيد في وداعته ورقّة أخلاقه كما يمكن أن يكون لها مثله لو أنه كان كبير الياوران. وكان الرجل العجوز الصغير المسكين يعرف بعض الأغاني الخفيفة البسيطة التي مضى عليها زمن بعيد، عن كلووفيليس وستريفون الذين جرحوا على يد ابن فينوس. ولم يكن في رأي السيدة بلورنيش شيء من موسيقى الأوبرا يضارع هذه الترنيمات الأهلية البسيطة التي يفضي بها عن ذات نفسه، وكأنه أورغن صغير خافت محطم يعزف عليه طفل. وفي أيام عطلته من المصنع، وهي أيام كأنها ومضات من الضوء في عالمه الكئيب بين العجائز، كانت السيدة بلورنيش تشعر بالبهجة وبالأسى في وقت واحد حين تقول

له بعد أن يشبع من اللحم ويشرب من الخمر ما يساوي نصف بنس «غنّ لنا أغنية يا أبي» وعندئذ كان يغني لهم أنشودة كلو، وإذا كان في حالة نفسية طيبة، يردفها بأغنية فيليس أيضاً. أما أنشوة ستريفون فكان قلما يغنيها منذ عاش في الملجأ. وكانت السيدة بلورنيش عندئذ تعلن أنها لا تعتقد قط أن هناك من يغني كأبيها، ثم تمسح عينيها.

ولو أنه كان قد جاء في هذه المناسبات من البلاط الملكي، لا، بل لو أنه كان أحد الدبلوماسيين الإنكليز عاد إلى وطنه منتصراً من بلاط ملك أجنبي ليظفر بألوان التقدير والتكريم على فشله الأخير الهائل، لما أمكن للسيدة بلورنيش أن تبلغ هذا الحد من النشوة وهي تطوف به في «حوش بليدنج هارت» قائلة وهي تقدمه لهذا الجار أو ذاك «هذا هو أبي، لسوف يعود أبي قريباً ليقيم معنا دائماً ألا يبدو أبي في أحسن حال. إن أبي لا يزال يغني كأحسن ما يكون. إنك ما كنت لتنساه قط لو أنك سمعته الآن» أما السيد بلورنيش فقد تزوج هذه الألوان من المعتقدات عند زواجه بابنة السيد ناندي، وعجب في نفسه كيف أن سيداً عجوزاً موهوباً كهذا لم يستطع أن يجمع ثروة. لقد أرجع هذا، بعد كثير من التأمل، إلى أن عبقريته الموسيقية لم تنم علمياً في شبابه. ولهذا كان يقول لنفسه: «وإلا لماذا كان يعمل في صناعة شد الآلات الموسيقية، ما دام موهوباً على هذا النحو، ذلك في اعتباري هو السر».

وكان للعجوز ناندي نصير... نصير واحد. نصير كان كريماً جداً معه، كما كان يعامله بتقدير عظيم كأنما يقول للجميع إنه لا يستطيع أن يستغل بساطة الرجل وفاقته ليستهين به كما يتوقعون. وكان العجوز ناندي قد تردد بضع مرات على سجن مارشاليزا للاتصال بالسيد بلورنيش في أثناء إقامة هذا الأخير القصيرة به، وهناك ظفر لحسن حظه بمعرفة والد هذه الإصلاحية الأهلية، واستطاع تدريجياً وعلى مر الأيام أن يتخذ منه نصيراً.

وكان السيد دوريت يستقبل هذا الرجل العجوز وكأنه تابع في إحدى إقطاعياته القديمة. وكان يقدم إليه بعض ألوان التكريم وكأنما جاء إليه يحمل ولاء بعض سكان الإقطاعيات البعيدة التي لا يزال مستأجروها في حالة بدائية. وكان يبدو كأنما كانت تأتي لحظات يستطيع فيها أن يقسم أن ذلك الرجل كان من أتباعه القدامى المعروفين بالولاء والإخلاص. وكان حين يذكره، يتحدث عنه عرضاً باعتباره أحد مستأجري أراضيه القدامى وكان يشعر بأعظم الغبطة لرؤيته، وفي التعليق على حالته الصحية البائسة بعد انصرافه.. وكان يلوح في نظره أنه من دواعي العجب أن يستطيع ذلك المخلوق المسكين أن يرفع رأسه على الإطلاق وهو يعمل «في مصنع يا سيدي، إصلاحية، ليس فيها خلوة ولا زوار، ولا منتدى، ولا احترام، ولا خصوصية: شيء لا يطاق».

وكان اليوم عيد ميلاد العجوز ناندي، ومن ثم سمحوا له بالخروج والواقع أنه لم يقل لهم إنه عيد ميلاده، وإلا لما سمحوا له بالخروج لأنه لم يكن ينبغي أن يولد أمثال هؤلاء العجائز. وسار كالمعتاد في الشوارع نحو حوش بليدنج هارت. وهناك تناول طعام الغداء مع ابنته وزوجها وغنّى لهما أنشودة فيليس. وما كاد أن يفرغ منها حتى أقبلت دوريت الصغيرة لترى كيف حالهم جميعاً.

قالت السيدة بلورنيش:

– يا آنسة دوريت. ها هو ذا أبي، ألا يبدو في أحسن حال؟ أليس صوته جميلاً.

وأعطته دوريت الصغيرة يدها وقالت باسمة إنه مضى عليها مدة طويلة لم تره فيها.

فقالت السيدة بلورنيش قد ارتسم الحزن على وجهها:

- أجل. إنهم في الواقع يقسون عليه كثيراً ولا يدعونه ينال نصف ما يستحق من الترفيه والهواء الطلق اللازم له. ولكنه سوف يعود إلى البيت نهائياً عما قريب. أليس كذلك يا أبي؟

- نعم يا عزيزتي، هذا ما أرجو... في الوقت الذي يشاء الله.

وهنا ألقى السيد بلورنيش محاضرة كان قد سبق أن أعدها كلمة كلمة لمثل هذه المناسبات. وكانت مصوغة في هذه العبارات التالية:

- جون إدوارد ناندي. سيدي، طالما أنه يوجد نزر يسير من الطعام أو الشراب من أي نوع تحت هذا السقف، فإن لك نصيبك منه على الرحب والسعة. وطالما أنه يوجد تحت هذا السقف قبضة من الوقود وركن للمبيت، فإن لك نصيبك على الرحب والسعة. وإذا حدث ولم يكن ثمة شيء تحت هذا السقف، فإن لك نصيبك منه كما لو كان تحته شيء قليل أو كثير. هذا ما أعنيه، وما لا أخدعك فيه؛ وعلى هذا لم يبقَ إلا أن نرجوك، ومن ثَمَّ فلماذا لا تفعل هذا؟

وكان والد السيدة بلورنيش يجيب بصوته الرفيع عن هذا الحديث الحار الذي كان السيد بلورنيش يلقيه وكأنما قد أنشأه، ولا شك أنه فعل، بجهد كبير.

- شكراً جزيلاً يا توماس، وأنا أعرف جيداً حسن نواياك التي تدفعني إلى شكرك عليها مرة أخرى. ولكن لا يا توماس، لن يكون هذا حتى يحين الوقت الذي لا يجوز فيه أن آخذ اللقمة من أفواه أطفالك، وليكن رأيك في هذا ما يكون، فإن أطفالك في الطريق إلى النمو سريعاً. لا يا توماس، لا.

وعادت السيدة بلورنيش التي كانت مشيحة بوجهها قليلاً وتمسح عينيها بطرف مريلتها، للاشتراك في المحادثة، فقالت للصغيرة

دوريت إن الوالد كان ينوي الذهاب إلى مارشاليزا ليقدم تحياته إلا إذا كانت تعرف سبباً يجعل هذه الزيارة غير مقبولة.

وأجابت دوريت الصغيرة:

- إنني ذاهبة رأساً إلى البيت، فإذا جاء معي فسوف يسرني أن أرعاه... يسرني جداً.

وكانت دوريت الصغيرة شديدة الرعاية لمشاعر الضعفاء وقد أردفت قائلة:

- صحبته.

وهتفت السيدة بلورنيش قائلة:

- ها يا أبي، ألست شاباً مرحاً إذ يمضي في نزهة مع الآنسة دوريت. دعني أربط منديل عنقك في أنشوطة لطيفة جميلة، لأنك أنت لطيف جميل يا أبي دون غيرك من الناس.

وبهذه الفكاهة البنوية، راحت تسوي هندامه، ثم عانقته بحب، ثم تقف بالباب وطفلها الضعيف بين يديها، وطفلها القوي يهبط السلّم متعثراً، تنظر إلى أبيها وهو ينصرف وذراع دوريت الصغيرة في ذراعه.

وسارا بخطوات بطيئة، ومضت دوريت الصغيرة به عن طريق جسر أيرن بريدج حيث أجلسته هناك ليستريح قليلاً، وقد أطلا معاً على الماء وتحدثا عن حركة السفن، وتحدث العجوز عما يمكن أن يفعله لو أن سفينة مليئة بالذهب جاءت إليه، وكان مشروعه أن يصحب بلورنيش وزوجته وأولاده للإقامة معه في جناح فاخر بفندق راقٍ حيث يعيشون بقية حياتهم متمتعين بخدمة النادل لهم، وكان ذلك اليوم من أيام أعياد ميلاده الخاصة. ولما أصبحا على مسيرة خمس دقائق من غايتهما، إذا بهما

يلتقيان بفاني وهي خارجة من منعطف شارعها وقد ارتدت قبعتها الجديدة في طريقها إلى نفس المكان. وصاحت فاني في دهشة:

– ليرحمني الله يا إيمي، إنك لا تعنين هذا قط!

– أعني ماذا يا عزيزتي فاني.

فردّت الأخرى في لهجة تنم عن الاستنكار الشديد:

– كان يمكن أن أصدق الشيء الكثير عنك، ولكن لم يخطر ببالي أبداً أن هذا يحدث منك.

فصاحت دوريت الصغيرة قائلة في دهشة وألم:

– فاني!!

– أوه! لا تصيحي بي هكذا أيتها الحقيرة الصغيرة. لا! كيف أمكنك أن تسيري في الشوارع، وفي وضح النهار، مع متسول.

وأطلقت الكلمة الأخيرة كأنها قذيفة من مدفع هوائي.

– أوه، فاني!

– قلت لك لا تصيحي بي. لأني لن أقبل هذا منك! إني لم أعرف شيئاً كهذا قط. إنه لشيء فظيع هذه الطريقة التي تصرين بها على جلب العار علينا في كل مناسبة أيتها المخلوقة الصغيرة الشريرة.

فقالت دوريت الصغيرة برقّة بالغة:

– هل يشين أحداً أن يرعى مثل هذا الرجل العجوز المسكين.

فردّت أختها قائلة:

– أجل يا آنسة. وكان ينبغي أن تعرفي هذا. بل أنت تعرفين أنه كذلك. وأنت تفعلين هذا لأنك تعلمين أنه يشين. إن أهم بهجة في

حياتك أن تذكري أسرتك بمحنتها. والبهجة الغالية لوجودك هي أن تصاحبي من هم دونك. ولكن إذا لم يكن لديك على كل حال شعور بآداب السلوك، فإن لدي هذا الشعور. وعلى هذا أرجو أن تسمحي لي بالسير على الجانب الآخر من الطريق بلا إزعاج.

قالت هذا ووثبت عبر الشارع إلى الجانب الآخر، أما العار العجوز الذي كان قد ابتعد خطوة، أو اثنتين لأن دوريت الصغيرة في دهشتها أطلقت ذراعه حين بدأت فاني الحديث معها، والذي كان المارة يصطدمون به ويلعنونه في ضيق لوقوفه في طريقهم، عاد إلى صاحبته في شبه دوار وهو يقول:

– أخشى ألا يكون قد حدث شيء لأبيك المبجل يا آنسة. أرجو ألا يكون قد حدث شيء في محيط أسرتك المبجلة!

فردّت دوريت الصغيرة قائلة:

– لا، لا. شكراً لك. أعطني ذراعك ثانيةً يا سيد ناندي، لسوف نغدو هناك في أسرع وقت.

وهكذا راحت تتحدث إليه كما تحدثت من قبل. ثم وصلا إلى البوابة حيث وجدا السيد شيفري قائماً بالحراسة فدخلا.

وقد حدث عندئذ أن كان أبو سجن مارشاليزا يتمشى نحو البوابة عندما دخلا منها وذراع كل منهما في ذراع الآخر. فلما التقت نظراته بهما، ظهرت عليه أشد أمارات الانفعال والاضطراب الذهني، ثم إذا به يستدير ويسرع إلى مدخل إقامته ويصعد السلم غير حافل تماماً بالعجوز ناندي الذي كان واقفاً في احترام وقبعته في يده كما كان يفعل دائماً في حضرة الآخر الكريمة.

وأسرعت دوريت الصغيرة وراء أبيها، تاركة البائس العجوز الذي تطوعت في لحظة نحس أن تأخذه تحت رعايتها، بعد أن وعدته في تعجل بالعودة إليه، ثم هناك، على درجات السلّم وجدت فاني تتبعها وهي تنتفض بكبرياء جريح. ووصل الثلاثة إلى الغرفة في وقت واحد تقريباً. وجلس الوالد في مقعده، وطمر وجهه بين يديه، وغمغم متوجعاً.

وقالت فاني:

- طبعاً.. له الحق. يا لأبي المسكين المُعنَّى. والآن أرجو أن تكوني قد صدقت يا آنسة.

وصاحت دوريت وهي تنحني فوقه:

- ماذا بك يا أبي؟ هل أشقيتك يا أبي... لست أنا... أرجو هذا.

فقالت فاني:

- ترجينه حقاً؟ أهكذا! إنك... يا...

ثم توقفت برهة لتبحث عن تعبير قوي مناسب:

- أيتها الصغيرة إيمي ذات التفكير الشعبي. يا ابنة السجن الوفية.

وأوقف الوالد هذه التوبيخات الغاضبة بحركة من يده، وبكى، ثم رفع وجهه وهز رأسه الحزين لابنته الصغرى وقال:

- إيمي، إنني أعرف أنك حسنة النية، ولكنك نفذت إلى أعماق نفسي.

فقالت فاني القاسية:

- حسنة النية! خاوية النية! سيئة النية، تهبط بقيمة العائلة بسبب النية.

وصاحت دوريت الصغيرة وهي ترتعد في امتقاع:

- أبي! إنني جد آسفة. أرجوك أن تغفر لي. أخبرني ماذا حدث حتى لا أعود إليه ثانية.

وصاحت فاني قائلة:

- كيف أيتها التافهة الصغيرة الحقيرة لا تعرفين ماذا حدث. لقد قلت لك فعلاً، ولهذا لا تتحدي الأصول بمحاولة الإنكار.

وقال الوالد وهو يمسك بمنديل جيبه ويمسح به على وجهه بضع مرات، ثم يقبض عليه في اختلاج عصبي باليد التي سقطت بين ركبتيه:

- كفى يا إيمي. لقد بذلت ما في وسعي لأجعلكم ممتازين هنا. لقد بذلت كل ما أستطيع لأحتفظ لكم بمكانة هنا. ولعلي قد نجحت، ولعلي لم أنجح، ولعلك تعرفين هذا، ولعلك لا تعرفين، إنني لا أقدم رأياً. قد تحملت كل شيء هنا إلا المذلة - وهذا ما أعفيت منه لحسن الحظ إلى يومنا هذا.

وهنا فتحت قبضته المختلجة نفسها، وعاد يضع منديل جيبه على عينيه مرة أخرى. وراحت دوريت الصغيرة ترقبه في أسى وندم وهي جالسة على الأرض بجانبه واضعة يدها -في ابتهال- على ذراعه. ومرة أخرى أنشب أصابعه في منديل جيبه وهو يتحرر تدريجياً من حالة حزنه ويقول:

- لقد أعفيت لحسن حظي من المذلة حتى يومنا هذا، ففي أثناء كل متاعبنا بقيت في أعماق نفسي هذه الروح، وهذا الخضوع لها إذا صح هذا التعبير.. من أولئك الذين حولي، مما أعفاني من المذلة. أما في هذا اليوم، بل في هذه اللحظة، فإني أشعر بها بكل حدة.

فقالت فاني العاتبة:



- طبعاً؟ كيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا، وأنت تعطفين وتخرجين في الطرقات مع متسول «مدفع هوائي مرة أخرى».

وصاحت دوريت الصغيرة قائلة:

- ولكن، أبي العزيز! إنني لا أبرر لنفسي جرحي لمشاعرك العزيزة! والله يعلم أني لا أفعل هذا!

ثم عقدت يديها في حالة من الأسى العميق وأردفت قائلة:

- إني لا أفعل شيئاً غير الرجاء والابتهال أن تهدأ وتتجاوز عما حدث. ولو لم أكن أعلم أنك نفسك كنت شفيقاً بالرجل العجوز، وكثير الاهتمام بأمره ويسعدك دائماً أن تراه، لما جئت معه إلى هنا. إن ما فعلته لسوء حظي قد فعلته عن غير قصد. إني ما كنت لأدفع دمعة إلى عينيك عمداً يا أبي الحبيب!

وكان قلب دوريت الصغيرة يكاد ينفطر وهي تقول هذا:

- لأي شيء يمكن أن يعطيه العالم لي، أو لأي شيء يمكن أن يأخذه العالم مني.

وبدأت فاني تبكي وهي نصف غاضبة وقد ندت عنها شهقة تنم عن بعض الندم وراحت تقول -كشأنها دائماً عندما تكون بين الغضب والندم، وبين السخط على نفسها والسخط على غيرها- إنها تتمنى لو أنها ماتت.

وخلال هذا أخذ أبو مارشاليزا ابنته الصغرى إلى صدره وراح يربت عليها قائلاً في مرح عصبي:

- كفى، كفى، لا تقولي أكثر من هذا يا إيمي، لا تقولي أكثر من هذا يا طفلتي العزيزة. لسوف أنسى هذا بأسرع ما أستطيع. لسوف يكون في مقدوري أن أطرد هذا كله عن ذهني؛ إنه لحق تماماً أنه يسعدني دائماً أن

أرى صديقي المتقاعد القديم، كما، كما.. أنني، أنني.. أبسط من العطف والرعاية على.. هه.. على هذا الحطام البشري.. وأعتقد أنه قد يكون لي أن أقول هذا دون خروج عن اللياقة، بقدر ما أستطيع في ظروفي هذه. والواقع تماماً أن هذه هي الحالة يا طفلتي العزيزة. وإني في الوقت نفسه أحتفظ بعملي هذا، بقوة الروح إذا جاز لي استعمال هذا التعبير بالروح المناسبة. وأن هناك بعض الأشياء التي..

وهنا توقف ليشهق باكياً قبل أن يستطرد قائلاً:

- تعترض مع هذا، وتجرح هذه الروح.. تجرحها بقسوة. ومن هذه -إذا كان لي أن أغلق هذا الموضوع بالصراحة- رؤيتي لابنتي، ابنتي أنا، ابنتي أنا، وهي آتية إلى هذا السجن من الشوارع العامة باسمة! وذراعها في ذراع.. أوه يا إلهي.. ذراع تابع.

وعند إشارته في الحديث إلى صاحب المعطف الذي لا طراز له ولا تفصيل، عاد السيد التعس يشهق بصوت لا يكاد يُسمع وقد رفع في الهواء يده القابضة بعصبية على منديل الجيب. ولعل مشاعره المهتاجة كانت ستمضي في انطلاقاتها الأليمة لولا أن سمع نقر على الباب كان عندئذ قد تكرر مرتين، وقد هتفت فاني آذنة للطارق بالدخول، وكانت لم تزل تتمنى لو أنها ماتت، ثم تمادت في هذا وأضافت الرغبة في الدفن.

وقال الوالد في صوت متغير ملطف:

- آه، الشاب جون. ما هذا أيها الشاب جون!

- خطاب لك يا سيدي، تُرِك في هذه اللحظة بغرفة الحراسة. ومعه رسالة وقد خطر لي، حين وجدت نفسي هناك يا سيدي، أني قد آتي به إلى غرفتك.

وكان اهتمام المتحدث موزعاً إلى حد كبير بمنظر دوريت الصغيرة المحزن وهي جالسة عند قدمي والدها مشيحة برأسها.

وقال الوالد:

- أحقاً يا جون! شكراً لك.

- والخطاب من السيد كلينام يا سيدي -إنه الرد- والرسالة أيضاً من السيد كلينام يا سيدي وهو يقدم فيها تحياته ويقول إنه سوف يسعد نفسه بزيارتك بعد ظهر هذا اليوم آملاً أن يراك وأن يرى كذلك...

وازداد انتباهه توزعاً وهو يردف قائلاً:

- الآنسة إيمي.

- آه.

احمرّ وجه الوالد قليلاً حين نظر داخل الخطاب، وكانت فيه ورقة مالية، وربت على رأس إيمي من جديد وقال مردفاً:

- شكراً لك أيها الشاب. تماماً. أشكرك على اهتمامك بالأمر جداً. ألا أحد في الانتظار؟

- لا يا سيدي، لا أحد ينتظر؟

- شكراً لك يا جون. كيف حال أمك، أيها الشاب جون.

- شكراً يا سيدي. إنها ليست كما يمكن أن نحب لها أن تكون، والواقع أننا جميعاً هكذا فيما عدا أبي. ولكنها على خير حال يا سيدي.

- احمل لها تحياتنا أرجوك. تحياتنا القلبية إذا سمحت يا جون.

- شكراً لك يا سيدي، سوف أفعل.

ومضى السيد شيفري -الأصغر- إلى حال سبيله، بعد أن أنشأ في تلك اللحظات في ذهنه عبارة تذكارية جديدة لنفسه، مؤداها أنه هنا يرقد جثمان جون شيفري، والذي في مثل هذا اليوم، قد رأى معبودة

حياته في حالة حزن ودموع، ولما شعر أنه عاجز عن احتمال هذا المنظر المؤلم، عاد أدراجه فوراً إلى مسكن والديه الحزينين حيث وضع حداً لوجوده بحركة تهورية.

وقال الوالد بعد أن أغلق الشاب جون الباب.

- إيمي... لنضع حداً لهذا الموضوع.

وكانت اللحظات الأخيرة قد حسّنت نفسيته إلى حد كبير، فأصبح بشوشاً وهو يردف قائلاً:

- أين صاحبنا المتقاعد العجوز كل هذه المدة؟ يجب ألا نتركه لنفسه أكثر من هذا وإلا سوف يظن أننا لا نرحب به، وإن هذا ليسوءني. هل تأتين به يا طفلتي أم أفعل أنا.

فقالت دوريت الصغيرة وهي تحاول أن تضع حداً لبكائها:

- إذا لم يكنْ لديك مانع يا أبي.

- بالتأكيد سوف أذهب أنا يا عزيزتي. لقد نسيت أن عينيك فيهما أثر البكاء. حسناً. ابتسمي يا إيمي. لا تقلقي من أجلي. لقد عدت إلى حالتي الطبيعية اذهبي إلى غرفتك وأصلحي من نفسك لاستقبال السيد كلينام.

فردت دوريت الصغيرة قائلة وهي تجد المزيد من المشقة لاستعادة هدوئها.

- إنني أفضل البقاء في غرفتي يا أبي.. وأفضل على الأكثر ألا أرى السيد كلينام.

- أوه، لا ، لا يا عزيزتي.. هذه حماقة. إن السيد كلينام سيد جد مهذب.. جد مهذب. إنه متحفظ بعض الشيء أحياناً. ولكنني أقول إنه

مهذب جداً. إنني لا أستطيع التفكير في أنك لن تكوني هنا لاستقبال السيد كلينام يا عزيزتي، لا سيما بعد ظهر هذا اليوم.

ومن ثم اذهبي وأصلحي من شأنك يا إيمي، اذهبي وأصلحي من شأنك كأية فتاة طيبة.

وعلى هذا النحو من التوجيه، أطاعت دوريت الصغيرة أباها ونهضت، ولم تتوقف وهي تنصرف غير لحظة لكي تطبع على وجه أختها قبلة الصلح. وعندئذ قالت تلك السيدة الشابة -التي أحست بالكثير من الإزعاج الفكري وبأن رغبتها في الموت قد تلاشت- إنها تفضل لو أن ذلك العجوزناندي يموت على أن يأتي ويزعجهم، كأي بائس منفر مزعج شرير يسيء العلاقات بين أختين.

أما أبو مارشاليزا، الذي كان عندئذ يغمغم بلحن أغنية، ويضع قلنسوته المخملية السوداء مائلة على أحد جانبي رأسه مما يدل على مدى ارتفاع روحه المعنوية، فقد هبط إلى الفناء، ووجد صاحبه العجوز المتقاعد واقفاً والقبعة في يده، بمدخل البوابة كما كان طيلة الوقت، فقال له بتلطف بالغ:

- تعال يا ناندي. تعال إلى غرفتي. إنك تعرف الطريق. لماذا لم تأت إليها؟

وتمادى في هذه المناسبة إلى حد أن قدم إليه يده قائلاً:

- كيف حالك يا ناندي؟ هل أنت بخير.

وقد رد ناندي على هذا بقوله:

- شكراً لك يا سيدي المعظم، إني بكل خير بعد أن رأيتك يا سيدي المعظم.

وفيما هما يسيران في الفناء، قدمه أبو مارشاليزا إلى أحد النزلاء الجدد قائلاً:

- صديق لي قديم، أحد المحالين على المعاش القدامى.

ثم أردف قائلاً في اهتمام بالغ:

- غط رأسك يا عزيزي ناندي، ضع القبعة عليها.

ولم تتوقف رعايته عند هذا الحد، وإنما أمر ماجي بإعداد الشاي وطلب منها أن تشتري نوعاً معيناً من كعك الشاي وزبداً طازجة، وبيضاً ولحماً بارداً وكمية من الجمبري. ومن أجل شراء هذا كله أعطاها ورقة مالية من فئة الجنيهات العشرة مشدداً عليها التعليمات لكي تحرص على إحضار الباقي. وبعد أن تم اتخاذ معظم هذه الترتيبات، وبعد أن عادت ابنته إيمي بأعمال تطريزها، جاء كلينام الذي استقبله الوالد بكل تكريم، ودعاه إلى الاشتراك معهم في تناول الطعام. ثم قال:

- إيمي يا حبيبتي، إنك تعرفين السيد كلينام أكثر مني. وأنت كذلك يا فاني يا عزيزتي، تعرفين السيد كلينام.

وأومأت له فاني في ترفع وكبرياء. وكان هذا هو الوضع الذي تصرف على اتخاذه في مثل هذه المناسبات. ذلك أنها كانت تحس أن هناك مؤامرة واسعة النطاق هدفها إهانة الأسرة بعدم تقدير ظروفها أو التجاوب معها كما ينبغي. وهذا السيد كلينام واحد من المتآمرين في رأيها. وعاد الوالد يقول:

- وهذا يا سيد كلينام -إذ يجب أن تعرف- أحد أتباعي المتقاعدين العجوز ناندي، وهو رجل جد مخلص عجوز، «وكان دائم الحديث عنه كشيء بالغ القِدَم رغم أنه كان لا يصغره بأكثر من سنتين أو ثلاث» وبهذه

المناسبة إنك تعرف بلورنيش كما أظن؟ أعتقد أن ابنتي إيمي قد ذكرت لي أنك تعرف المسكين بلورنيش.

فقال كلينام:

- آه، أجل.

- حسناً يا سيدي، هذا هو والد السيدة بلورنيش.

- أحقاً، إني سعيد برؤيته.

- لسوف تزداد سعادة لو عرفت الكثير من مؤهلاته يا سيد كلينام.

فقال آرثر وهو يشعر في نفسه بالرثاء لذلك العجوز المستسلم المحني:

- أرجو أن أعرفها عن طريق معرفتي به.

وقال أبو مارشاليزا معلقاً:

- إنه في إجازة يوم، وقد جاء لزيارة أصدقائه الذين يسرهم دائماً أن يروه.

ثم أضاف قائلاً من وراء يده:

- إن المسكين في ملجأ عُمّالي، وقد خرج اليوم بتصريح.

وخلال هذا الوقت كانت ماجي -وتعاونها بهدوء أمها الصغيرة- قد أعدت المائدة ووضعت الطعام. ولما كان الجو حاراً والسجن مكتوماً جداً، فقد تركت النوافذ مفتوحة على مصاريعها. وقال الوالد بابتهاج وبصوت قريب من الهمس:

- لو أن ماجي بسطت الصينية على قاعدة النافذة تلك، لأمكن لتابعي القديم أن يتناول شايه هناك بينما نتناوله نحن هنا.

وهكذا، بهذه الهوة بينه وبين الصحبة الكريمة، وهي هوة يبلغ اتساعها نحو قدم، وضع والد السيدة بلورنيش في مكانه الطبيعي. أما السيد كلينام فإنه لم يشهد قط مثل هذه الرعاية الجليلة من جانب الوالد الآخر، والد مارشاليزا. وقد استغرق في تأملاته لأعاجيبها.

ولعل أشدها عجباً تلك الطريقة الحماسية التي كان يعدد بها عيوب الرجل العجوز المتقاعد وألوان عجزه، كأنما هو حارس كريم يقدم تعليماته عن حالة الانحلال التي يعانيها حيوان مسالم يعرضه على الجميع.

وهكذا راح يقول له:

– ألم تستعد بعد لمزيد من اللحم البارد ياناندي؟ عجباً، ما أبطأك.

ثم يروح يشرح للجميع قائلاً:

– إن آخر سن له توشك أن تسقط يا للمسكين.

وفي مرة أخرى قال:

– لا تريد الجمبري يا ناندي!

فلما لم يتلقَّ إجابة عاجلة أردف قائلاً:

– إن سمعه قد أصبح ضعيفاً جداً، ولسوف يصاب بالصمم قريباً.

وفي وقت آخر سأله قائلاً:

– أتكثر من السير يا ناندي في الفناء داخل أسوار ذلك المكان الذي تقيم فيه؟

– لا يا سيدي لا. ليس لديّ ميل كبير إلى هذا.

فقال أبو مارشاليزا موافقاً:

– نعم، نعم بالتأكيد. هذا أمر طبيعي جداً.

ثم أخبر الجماعة على حدة:

- إن الساقين على وشك العجز.

وفي ذات مرة سأل العجوز بهذه السماحة الخادعة عن عمر أصغر أحفاده، فردّ العجوز ببطء قائلاً وهو يضع الشوكة والسكين ليفكر:

- جون إدوارد وكم عمره يا سيدي، دعني أفكر الآن.

ونقر أبو مارشاليزا على جبينه وقال:

- الذاكرة ضعيفة.

وعاد العجوز يقول:

- جون إدوارد يا سيدي؟ الواقع أنني نسيت. إنني لا أستطيع أن أجزم الآن يا سيدي ما إذا كان عمره سنتين وشهرين أم سنتين وخمسة أشهر. إما أن يكون هذا وإما ذاك.

فقال له أبو مارشاليزا في تسامح لا حد له:

- لا تزعج نفسك بإجهاد ذهنك لهذا السبب.

ثم قال للجماعة:

- الواضح أن تفكيره يضمحل. إن الرجل العجوز يصدأ بسبب الحياة التي يحياها.

وكلما كثرت الاكتشافات التي يقنع نفسه بوجودها في العجوز، ازداد ما يلوح ميلاً إليه، ولما نهض عن مقعده بعد الشاي ليحيي العجوز عند انصرافه؛ وكان هذا الأخير قد خشي أن يكون قد أنفق من وقت السيد المعظم كثيراً، وقف أبو مارشاليزا منتصب القامة بادي القوة بقدر ما يمكن، ثم قال وهو يضع في يد العجوز شلناً:

- إننا لا نسمي هذا شلناً ياناندي كما تعلم، وإنما نسميه علبة تبغ.

- سيدي المعظم، إني أشكرك. إنه يكفي لشراء التبغ. شكري وتحياتي للآنسة إيمي والآنسة فاني. وأتمنى لك ليلة طيبة يا سيد كلينام.

وقال الوالد:

- لا تنسنا يا ناندي. يجب أن تأتي لزيارتنا مرة أخرى كلما نلت الإذن بالخروج بعد الظهر. لا يجب أن تخرج دون أن ترانا وإلا شعرنا بالغيرة. طابت ليلتك يا ناندي. كن على حذر وأنت تهبط السلم يا ناندي. إن الدرجات متآكلة وغير منتظمة.

ثم وقف بعد هذا على منبسط الدرج يرقب العجوز وهو يهبط. فلما عاد إلى الغرفة قال في وقار وأمارات الغبطة على وجهه:

- منظر يثير الحزن يا سيد كلينام، إلا أن من دواعي العزاء أن يدرك الإنسان أنه هو نفسه لا يشعر بهذا. إن العجوز المسكين مجرد حطام مؤلم. لقد تحطمت فيه روح المقاومة وذهبت -طحنت- وسحقت تماماً يا سيدي.

ولما كان كلينام هدف يدعو للبقاء، فقد استجاب في حديثه لهذه الأحكام، ثم وقف إلى النافذة مع القاضي بها. بينما أخذت ماجي وأمها الصغيرة تغسلان أدوات الشاي وتعيدانها إلى مكانها. ولاحظ كلينام أن صاحبه كان يقف بجانبه إلى النافذة في هيئة ملك يحف به الجلال الممزوج بالغبطة والبِشر، وأنه حين كان يرفع أحد رعاياه في الفناء نظره إليه، كان رده على تحيته أقرب ما يكون إلى المباركة.

ولما وضعت دوريت الصغيرة شغل إبرتها على المائدة استعداداً للعمل، ووضعت ماجي شغلها على السرير؛ بدأت فاني تربط قبعتها تمهيداً لانصرافها. أما آرثر فقد ظل باقياً، لأنه لم يبلغ بعد الهدف من

الزيارة. وعندئذ فتح الباب دون أدنى صوت، ودخل السيد تيب. وقبّل إيمي عندما همّت بالنهوض لاستقباله، وأومأ برأسه لفاني، وأومأ بها لأبيه، وقطب جبينه للزائر دون أن يزيد، ثم جلس.

وقالت دوريت الصغيرة بوداعة وقد صدمها هذا التصرف:

- يا عزيزي تيب، ألا ترى.

فردّ تيب قائلاً:

- أجل، إني أرى يا إيمي، إذا كنت تشيرين إلى وجود أي زائر لديكم هنا، إذا كنت تشيرين إلى هذا.

ثم هزّ رأسه دون تأكيد نحو كتفه أقرب إلى كلينام وأردف قائلاً:

- نعم.

- أهذا كل ما تقوله؟

- هذا كل ما أقوله، وأظن.

وتوقف الشاب المستهتر برهة قبل أن يضيف قائلاً:

- إن الزائر سوف يفهمني، عندما أقول إن هذا كل ما لدي من أقوال. وعلى الجملة أظن أن الزائر سوف يفهم أنه لم يعاملني كسيد محترم.

فقال السيد المشار إليه بهدوء:

- إنني لا أفهم هذا.

- لا؟ إذن لكي أوضح لك الأمر، أرجو أن أجعلك تدرك أنه عندما أقدم ما أعتبره التماساً مكتوباً بأسلوب لائق، التماساً ضرورياً، التماساً رقيقاً، إلى شخص ما، طالباً خدمة صغيرة مؤقتة في مقدوره أن

يؤديها بسهولة.. أتفهم.. في مقدوره أن يؤديها بسهولة، ثم عندما يرد هذا الشخص عليّ كتابة معتذراً، فأنا أعتبر أنه لم يعاملني كسيد محترم.

وما إن سمع أبو مارشاليزا -الذي كان يتأمل ابنه في صمت- هذا الحديث حتى راح يقول بغضب:

- كيف تجرؤ عليّ؟

ولكن ابنه أسكته ثم قال:

- لا تسألني يا أبي كيف أجرؤ؟ لأن هذا لغو. أما عن الموقف الذي اخترت أن أتخذه من ذلك الشخص الموجود هنا. قد كان ينبغي أن تفخر بالروح التي أملته عليّ!.

وصاحت فاني قائلة:

- أعتقد هذا.

وقال الوالد:

- أهي الروح المناسبة؟ أجل.. الروح المناسبة. الروح اللائقة. هل وصل الأمر إلى هذا -إلى حد أن يعلمني ابني- كيف أتصرف؟

- أرجوك يا أبي ألا تهتم بهذا الأمر أو تتشاجر بسببه. لقد قررت تماماً أن ذلك الشخص الموجود هنا لم يعاملني كسيد محترم. وهذه هي نهاية الموضوع.

فقال الوالد:

- ولكن ليس لهذا الموضوع نهاية يا سيدي. ولكن لن تكون له نهاية. هل قررت هذا؟ هل قررت هذا؟

- أجل. فعلت. إذ ما جدوى الاستمرار فيه على هذا النحو؟

فردّ الوالد قائلاً بحرارة بالغة:

- لأنه ليس من حقك أن تقرر شيئاً فظيعاً.. شيئاً خاطئاً، شيئاً مشيناً. لا يا سيد كلينام، أرجو المعذرة يا سيدي. لا تطلب مني أن أتوقف فإن الأمر هنا ينطوي على مبدأ عام يعلو حتى على كل اعتبارات الضيافة. إنني أعارض في القرار الذي اتخذه ابني.. إنني أنفر منه شخصياً.

فقال الابن من وراء كتفه:

- عجباً، ما شأن هذا بك يا أبي؟

- ما شأنه بي يا سيدي؟ هه.. إن لي روحاً لا تستطيع أن تحتمله. فأنا..

ثم تناول منديل جيبه مرة أخرى ومسح به وجهه وعاد يقول:

- قد تعرضت لهذا السبب إلى كل إهانة وتحقير. ولنفرض أنني نفسي قد أضطر في بعض الأحيان -بعض الأحيان- إلى تقديم التماس... التماس مكتوب بأسلوب مناسب، التماس رقيق، التماس ضروري، إلى شخص ما من أجل خدمة مؤقتة. ولنفرض أن هذه الخدمة يمكن أن تؤدّى بسهولة ولكنها لم تُؤَدَّ، وأن ذلك الشخص اعتذر لي عن أدائها، فهل يجوز أن يقول لي ابني، إنني من ثم عوملت بما لا يليق لسيد كريم وإنني.. ها... قد استسلمت لهذا.

وحاولت ابنته إيمي أن تهدئ من نفسه، ولكنه أبى بكل وسيلة أن يهدأ. قال إن حرارته النفسية قد ارتفعت؛ وإنه لن يستطيع احتمال هذا.

لقد أراد مرة أخرى أن يعرف هل يجوز لابنه أن يخبره بهذا في عقر بيته وفي وجهه؟ أيمكن أن يحتمل هذه الإهانة ممن تجري دماؤه في عروقه؟

فقال له ابنه في أسى:

- إنك تعرض نفسك لهذا كله ثم تشكو بنفسك من جرح كرامتك. فإن ما قررته في نفسي لا شأن له بك. وإن ما قلته لا يمسك في شيء. فلماذا تعرض نفسك لشؤون غيرك؟

فردّ الوالد قائلاً:

- أقول لك إن لهذا كل الشأن بي. وإني أبين لك، بكل استنكار، أن... ها.. هيه.. دقة مركز أبيك وظروفه الخاصة يجب أن تحرسك تماماً يا سيدي -إذا لم يكن ثمة شيء آخر- في تطبيقك لهذه المبادئ غير الطبيعية. وعدا هذا، فإن لم تكن باراً يا سيدي، إذا تخليت عن واجبك، فإنك على الأقل تكون.. غير مسيحي؟ فهل أنت ملحد؟ وهل من المسيحية في شيء أن تلعن وتتحمل على شخص ما لأنه يعتذر إليك هذه المرة عن أداء ما تريد، بينما قد يمكن لهذا الشخص نفسه أن يستجيب لك في المرة التالية. هل من المسيحية ألا.. ألا تحاول معه مرة أخرى؟

وكان قد تحمس دينياً حتى توهج وسطع.

وقال السيد تيب ناهضاً:

- إنني أدرك تماماً أنني لن أجد الإنصاف والمنطق في حديثي معكم هذه الليلة، ومن ثم فإن خير ما أستطيع أن أفعله هو أن أنصرف. طابت ليلتك يا إيمي. لا تستائي؛ فإني آسف جداً إذ جرى هذا كله هنا، وأنت هنا، وأقسم لك أني آسف فعلاً، ولكنني لا أستطيع أن أتخلى تماماً عن كرامتي، حتى من أجلك يا عزيزتي.

بهذه الكلمات وضع قبعته على رأسه وانصرف مصحوباً بفاني التي لم ترَ أن كرامتها تتعارض مع انصرافها عن كلينام دون أن تحييه بأكثر من نظرة اعتراض وتحدٍّ تبين له فيها أنها كانت تعرف دائماً أنه واحد من المتآمرين الكثيرين عليهم.

وبعد انصرافهما، بدا على أبي مارشاليزا الميل إلى الاستغراق في حالة اليأس والقنوط مرة أخرى، وقد كاد أن يفعل، لولا أن أقبل بعد لحظة أو اثنتين أحد زملائه لكي يصحبه إلى استراحة السجن.

وكان الزميل هو نفس ذلك السيد الذي رآه كلينام في الليلة التي اضطر فيها للمبيت عرضاً داخل السجن، والذي كان دائم الشكوى من مدير السجن لأنه لا يحسن توزيع «الرصيد» كما ينبغي. لقد جاء إلى الغرفة باعتباره مندوباً لمرافقة «الوالد» إلى «عرشه» وكانت تلك إحدى المناسبات التي وعد فيها الوالد أن يشارك زملاءه في بعض أوقات لهوهم. ومن ثم قال لكلينام:

- أترى يا سيد كلينام. هذه هي بعض واجبات مركزي هنا. ولكنه واجب عام! وليس هناك من يحترم الواجب العام أكثر مني.

وطلب كلينام منه ألا يتأخر لحظة عن موعده.

وقال الوالد لابنته:

- إيمي يا عزيزتي إذا أمكنك أن تقنعي السيد كلينام بالبقاء فترة أخرى، فإني أستطيع عن يقين أن أترك لك شرف الاعتذار إليه عما حدث، ولعلك قد تستطيعين أن تفعلي شيئاً لمحو هذه الأشياء السخيفة التي حدثت منذ تناول الشاي من ذهنه.

وأكد له كلينام أن شيئاً مما حدث لم يترك أثراً في ذهنه، ومن ثم فلا حاجة إلى هذا كله.

وقال الوالد وهو يرفع قلنسوته السوداء ويقبض على يد كلينام بطريقة يعرب له فيها عن استلامه للرسالة والخطاب وما فيه:

- يا سيدي العزيز. ليباركك الله.

وهكذا، أخيراً تحقق هدف كلينام من البقاء، وأمسى في مقدوره أن يتحدث مع دوريت الصغيرة في غير وجود أحد لأن ماجي لم تمكن أحداً.

مزيد من قراءة الطالع



جلست ماجي إلى عملها مرتدية قلنسوتها الضخمة البيضاء بحواشيها المدلاة التي كانت تخفي الوضع الجانبي لوجهها، وكانت عينها الكليلة التي تعمل بها في الجانب الذي توجد به النافذة. وكانت بقبعتها ذات الحواشي المرفرفة وبعينها الكفيفة قد أصبحت في شبه عزلة عن أمها الصغيرة الجالسة في مواجهة النافذة. وكانت وطأة الأقدام الثقيلة في الفناء قد خفتت كثيراً منذ أن اتخذ أبو مارشاليزا مجلسه في الاستراحة التي اتجه إليها معظم النزلاء لسماع الموسيقى وللشراب أما القلائل الذين لم يكن حب الموسيقى يجري في دمائهم، أو الذين لم يكن لديهم نقود في جيوبهم، فقد أخذوا يتسكعون هنا وهناك. وكانت المناظر القديمة المألوفة.. منظر الزوجة الزائرة الحزينة، والسجين الذي لم يألف بعد حياة السجن لا تزال ترى عند الأركان كأنها قطع ممزقة من نسيج العنكبوت، وكذلك كانت ترى مثل هذه المناظر المحزنة في أركان أماكن أخرى. وكانت تلك أهدأ فترة مرت بالسجن فيما عدا ساعات الليل التي يستغل فيها النزلاء فوائد النوم.

وكانت نوبات الضرب بالأيدي على الموائد في الاستراحة تدل بين الحين والآخر على نهاية كل فقرة ناجحة من فقرات البرنامج الموسيقي، أو على استجابة القبول التي يعرب بها «الأولاد» عن رضاهم بقرع

الكؤوس في صحة أبيهم! وأحياناً كان أحد المغنين يرتفع صوته فوق الجميع فيستدل المستمع على أنه فَقَد وعيه من السُّكْر، وأنه راح يحسب نفسه في رحبة صيد، أو مع ظبي، أو فوق الجبال أو بين البراري، ولكن مدير السجن كان يسرع ويستخدم تجاربه في مثل هذه الأمور ليضع حداً لها.

وفيما كان آرثر كلينام يتقدم ليجلس بجوار دوريت الصغيرة، ارتعدت هذه في قوة بحيث كان من العسير عليها أن تمسك بالإبرة.

ووضع كلينام يده برفق على شغلها وقال:

- يا عزيزتي دوريت الصغيرة، دعيني أضع هذا جانباً.

فأسلمته له، ووضعه جانباً، وكانت يداها عندئذ تتشابكان بحركة عصبية، ولكنه تناول إحداها وقال:

- لم أرك في القريب إلا نادراً أيتها الصغيرة دوريت!

- كنت مشغولة يا سيدي.

فقال كلينام:

- ولكنني سمعت اليوم فقط، بمحض الصدفة، عن اشتغالك مع هؤلاء القوم الطيبين القريبين مني فلماذا لم تأتِ إليّ إذن؟

- إنني.. إنني لا أدري. أو على الأصح ظننت أنك قد تكون مشغولاً أيضاً. فأنت عادة مشغول الآن، أليس كذلك؟

ورأى جرمها الصغير المرتعد، ووجهها المطرق، وعينيها اللتين أغضت بهما بمجرد أن رفعتهما إليه.. رآهما بإحساس فيه من الحنان بقدر ما فيه من القلق والاهتمام.

- يا طفلتي، لشد ما تغيرت أحوالك؟

ولم يعد في مقدورها الآن أن تسيطر على الرعشة التي انتابتها فسحبت برفق يدها ووضعتها على يدها الأخرى، وجلست أمامه برأسها المطرق، وجسمها المرتعد بقوة.

وقال كلينام في صوت مفعم بالعاطفة:

- يا صغيرتي العزيزة دوريت.

وانفجرت باكية. والتفت ماجي فجأة، وظلت تحملق نحو دقيقة على الأقل، ولكنها لم تتدخل. وتريث كلينام فترة وجيزة قبل أن يعود إلى الحديث قائلاً:

- إنني لا أستطيع احتمال رؤيتك وأنت تبكين؛ ولكنني أرجو أن يكون هذا تخفيفاً عن قلب فاضَ بالأحزان.

- إنه كذلك يا سيدي. ولا شيء غير هذا.

- حسناً، حسناً. لقد خشيت أن تكوني قد تألمت أكثر مما يجب بسبب ما حدث هنا الآن. إن ما حدث لا أهمية له، إطلاقاً. إنني فقط سيء الحظ بسبب حضوري في الوقت غير المناسب. دعي أحزانك تذهب مع دموعك فإنها ليست جديرة بقطرة منها.. بقطرة واحدة منها. ليحدث مثل هذا الهراء خمسين مرة في اليوم، مع موافقتي عليه في غبطة في سبيل أن تتجنبي لحظة واحدة من ألم النفس أيتها الصغيرة دوريت.

وكانت الآن قد تشجعت فقالت بصوت أقرب ما يكون إلى صوتها الطبيعي:

- لشد ما أنت كريم. وحتى لو لم يكن هناك ما يدعو إلى الخجل والأسف، فقد كان من غير اللائق أن..

فقاطعها كلينام باسماً وهو يلمس بيده شفتيها:

- سكوتاً! إن النسيان بالنسبة لك -أنت يا من تذكرين الكثير والكثير- سيكون شيئاً جديداً عليك حقاً. هل أذكرك بأنني لست -ولم أكن قط شيئاً- إلا الصديق الذي قبلت أن تثقي به؟ لا. إنك تذكرين هذا. أليس كذلك؟

- لقد حاولت أن أفعل هذا وإلا لحنثت بالعهد الآن عندما كان أخي المخطئ هنا. لسوف تدرك ظروف تربيته في هذا المكان، ومن ثم لن تقسو في الحكم عليه كما أعرف.. يا للمسكين!

وحين رفعت عينيها وهي تقول هذه الكلمات، تأملت وجهه بإمعان أكثر مما فعلت من قبل، ثم قالت وقد تغيرت لهجتها بسرعة:

- هل كنت مريضاً في الأيام الأخيرة يا سيد كليمنام؟

- لا!

فعادت تسأله بلهفة:

- أو مرضت لمحنة أو لألم نفسي.

وأحس كلينام عندئذ بأنه لا يجري على وجه التحديد كيف يجيب، وأخيراً قال:

- كنت إذا شئت الحقيقة، أعاني بعض الاضطراب. وقد زال كل شيء الآن. هل تبدو آثار الاضطراب واضحة عليّ إلى هذا الحد. كان ينبغي أن أكون أكثر تجلداً وضبطاً للنفس. لقد ظننت أنني كذلك. يجب أن أتعلمها منك، لأنك خير من يعلمها لي.

ولم يخطر بباله ألبتة أنها ترى فيه ما لا يستطيع أحد قط أن يرى. ولم يخطر بباله ألبتة أن في الدنيا عينين يمكن أن تنظرا إليه بنفس القوة والتألق اللذين تنظران بهما إليه.

واستطرد هو يقول:

- ولكن هذا يحدو بي إلى شيء أريد أن أقوله. ولهذا فلن أراوغ وأستطرد في أحاديث لا أول لها ولا نهاية. وعدا هذا فإنه من دواعي السرور والشرف أن أفضي بذات نفسي إلى صغيرتي العزيزة دوريت. ودعيني إذن أعترف فأقول إنني وقد نسيت الرزانة والاتزان، ونسيت كم بلغت من العمر؛ ونسيت أن الوقت لمثل هذه الشؤون قد ذهب مع أعوام كثيرة من الملل والسعادة القليلة التي صنعت منها حياتي .. نسيت هذا كله وتوهمت أني أحب فتاة ما.

فسألته دوريت الصغيرة قائلة:

- هل أعرفها يا سيدي!

- لا يا طفلتي.

- أليست هي السيدة التي تترفق بي من أجلك!

- فلورا، لا، لا.. هل ظننت..

فقالت دوريت الصغيرة وكأنها تحدِّث نفسها أكثر مما تحدثه:

- إنني لم أظن هذا قط. بل لقد عجبت له بعض الشيء..

فقال كلينام وهو يعود إلى شعوره الذي كان يحس به في أثناء وجوده في طريق الشجر في ليلة الأزهار.. شعوره بأنه رجل كهل نفض يديه من الحب:

- حسناً. وقد عرفت خطأي وفكرت في الأمر ملياً.. بل في الواقع فترة طويلة، ثم أصبحت أكثر فهماً. وعندئذ أحصيت سنوات عمري، وتأملات من أكون، ونظرت إلى الماضي، ثم إلى المستقبل، وتبينت أني سأهرم بعد سنوات تبينت أني صعدت التل، وتجاوزت القمة المسطحة، وبدأت في الهبوط السريع.

لو أنه فقط علم مبلغ الألم الحاد الذي سببه للقلب الصبور بحديثه هذا، بينما كان يريد في الواقع أن يخفف عنه وأن يخدمها.

وعاد يقول:

- لقد تبينت أن اليوم الذي يمكن أن تكون فيه مثل هذه العاطفة لائقة بي، أو مفيدة لي، أو باعثة للأمل والسعادة في حياتي أو في حياة أي شخص متصل بي، قد ذهب ولن تسطع شمسه مرة أخرى أبداً.

أوه! لو أنه عرف.. لو أنه عرف! لو أنه يستطيع أن يرى الخنجر في يده والجراح المؤلمة التي يحدثها في قلب دوريت الصغيرة، الوفي الدامي!

- انتهى هذا كله، وأعرضت بوجهي عنه. لماذا أتحدث عن هذا للصغيرة دوريت؟ لماذا أبين لك، يا طفلتي، مسافة السنين التي تقوم بيننا، وأذكرك بأنني قد تجاوزت -بقدر ما في عمرك من سنين- الوقت الذي لا يزال ممتداً أمامك.

- لأنك، كما أرجو، تثق بي. لأنك تعلم أنه لا شيء يمسك دون أن يمسني، لأنه لا شيء يمكن أن يجعلك سعيداً أو غير سعيد دون أن يجعلني -أنا المعترفة بفضلك- كذلك.

وسمع رنين انفعال في صوتها؛ ورأى اللهفة على وجهها، وشاهد عينيها الصافيتين الصادقتين، ولمح صدرها اللاهث الذي ما كان ليتردد في أن يعرض نفسه بكل سرور ليتلقى -بدلاً من صدره- طعنة قاتلة، وهي تصيح عند الاحتضار «إنني أحبه!». ومع ذلك فلم يخطر بذهنه قط أي وميض من حقيقة الأمر، لا. وإنما رأى فقط المخلوقة الصغيرة المتفانية وهي في حذائها البالي، وفي ثوبها العادي، وفي مسكنها داخل السجن، مجرد فتاة في جسم طفلة، لها روح بطولية وكان ضوء قصة حياتها قد حجب كل شيء آخر عنه.

- وليس لهذه الأسباب كلها أيتها الصغيرة دوريت وإنما لسبب آخر أيضاً فأنا لكل هذه الفوارق والاختلافات ولكوني أكبر سناً منك جداً، أصلح ما أكون صديقاً وناصحاً لك. أعني أنني في هذا الوضع يمكن أن أكون بسهولة موضع ثقتك، وعلى هذا ينبغي أن يزول أمامي أي شعور بالحرج أو التوتر قد يخامرك. فلماذا حرصت على الابتعاد عني أخيراً؟ أخبريني.

فقالت دوريت الصغيرة بضعف:

- إنني هنا أحسن حالاً. وهنا مكاني ومجال خدماتي، إنني أحسن حالاً هنا إلى حد كبير.

- هكذا قلت في ذلك اليوم، على الجسر. وقد فكرت في هذا كثيراً بعد ذلك. أليس لديك سر يمكن أن تأتمنيني عليه.. سر ينطوي على الأمل والراحة إن أمكن.

فقالت دوريت الصغيرة في شيء من القلق:

- سر؟ لا. ليست لي أسرار.

وكانا يتحدثان بصوت خافت، لأن طبيعة الحديث كانت تقتضي هذا وليس لمنع ماجي من سماعه وهي تقوم بعملها: وفجأة حملقت ماجي نحوهما مرة أخرى وفي هذه المرة قالت:

- أمي الصغيرة؟

- نعم يا ماجي.

- إذا لم يكن لديك سر خاص تخبرينه به، فحدثيه عن الأميرة، فقد كان لها سر كما تعلمين.

فقال كليناام في شيء من الدهشة:

- أكان للأميرة سر؟ أية أميرة تعنين يا ماجي؟

فقالت ماجي:

- ويحي! كيف تعمل على إزعاج طفلة في العاشرة. كيف تحاول الإيقاع بهذه المسكينة على هذا النحو! من قال إن للأميرة سراً.. إنني لم أقل هذا قط.

- أرجو المعذرة. لقد ظننت أنك قلت.

فقالت ماجي وهي تعقد ذراعيها على صدرها كأنها تعانق نفسها:

- لا، إنني لم أفعل. وكيف يمكن أن أقول هذا بينما كانت هي التي تريد أن تعرف السر؟ إنها المرأة الصغيرة التي كان لها سر، وكانت دائماً تعمل على مغزلها. ومن ثم قالت الأميرة لها؛ لماذا تحتفظين به عندك، فقالت الأخرى: لا.. لا أحتفظ. فقالت الأخرى أي الأميرة: بل تحتفظين به. ومن ثم ذهبت الاثنتان إلى الخزانة، وهناك رأياه. ولم ترضَ المرأة الصغيرة أن تنتقل إلى المستشفى، فماتت. أنت تعرفين القصة يا أمي الصغيرة، حدثيه بها، لأنه كان سراً لطيفاً.

ونظر آرثر إلى دوريت الصغيرة طالباً عونها لكي يفهم هذا، ثم إذا هو يدهش حين رآها في حالة من الخجل والاضطراب. ولكن عندما قالت له إنها قصة خرافية أنشأتها وقصتها على ماجي ذات يوم، وأنه ليس فيها ما يجعلها تخجل إذا هي أعادت سردها على أي شخص آخر، حتى لو استطاعت أن تتذكرها؟ حين قالت هذا، ترك آرثر الموضوع عند هذا الحد.

إلا أنه عاد إلى موضوعه الأول، فراح أولاً يرجوها أن تراه مرات أكثر وأن تذكر أنه من المستحيل أن يوجد أحد يهتم أكثر منه بمصالحها أو يصر على أن يؤدي كل ما في وسعه في سبيل سعادتها. فلماذا ردت عليه بحرارة قالت إنها تعرف هذا جيداً، وإنها لن تنسى ذلك أبداً. وعندئذ تناول بالحديث النقطة التالية الدقيقة وهي تدور حول الشك الذي كان يخامره.

فقال وهو يأخذ يدها مرة أخرى ويتحدث بصوت أخفض مما تحدث به من قبل، بحيث لم يكن في وسع ماجي أن تسمعه حتى وهي معهما في الغرفة الصغيرة.

– كلمة أخرى أيتها الصغيرة دوريت. لشد ما تمنيت أن أقول هذا لك. وقد تحينت الفرص كثيراً. ولا تبالي بي أنا الذي قد أكون والداً أو عماً لك بحكم السن. فكري فيّ دائماً باعتباري رجلاً عجوزاً وأنا أعرف أن جميع اهتماماتك مركزة في هذه الغرفة، وأنه لا شيء إطلاقاً يمكن أن يغريك للتخلي عن أداء واجباتك هنا. ولو لم أكن واثقاً من هذا، لالتمست منك، قبل الآن، ومن والدك أن أنفق عليك في مكان آخر أنسب. ولكن لعل لك ميلاً ولن أقول إن هذا الميل موجود الآن وإن كان هذا ممكناً -وربما يكون فيما بعد- أقول لعل لك ميلاً إلى شخص آخر، وإن هذا الميل يتعارض مع عواطفك في هذا المكان.

فهزت رأسها قد شحب وجهها جداً. فعاد يقول:

– لعل الأمر كذلك أيتها الصغيرة دوريت.

– لا، لا، لا.

وكانت تهز رأسها بعد كل مقطع نفي تنطق به، وبهيئة تدل على الشعور بالعزلة ظل يذكره طويلاً فيما بعد لقد جاء الوقت الذي تذكر فيه هذا الشعور بعد مدة طويلة داخل جدران السجن، بل داخل هذه الغرفة ذاتها.

- ولكن إذا حدث هذا يوماً، فأخبريني به يا طفلتي العزيزة.. ائتمنيني على الحقيقة وأشيري إلى مناط عواطفك، وعندئذ سوف أحاول بكل ما أكنه لك من تقدير واحترام ووفاء وإخلاص أن أقدم إليك يا صغيرتي الحبيبة دوريت خدمة كبرى.

- شكراً لك. شكراً لك ولكن.. لا.. لا.. لا..!

قالت هذا وهي تنظر إليه ويداها المرهقتان بالعمل مطوية إحداهما على الأخرى وبنفس لهجة الاستسلام التي تحدثت بها من قبل.

- إنني لا أضغط عليك لأكون موضع ثقتك الآن وإنما أنا أرجو منك فقط أن تضعي ثقتك الكاملة في شخصي.

- وهل أستطيع أن أفعل أقل من هذا، وأنت على هذا النحو من الكرم؟

- إذن فسوف تثقين بي ثقة كاملة؟ لن تخفي عني إذن أي سر يزعجك أو يكدر خاطرك!

- أجل.

- وليس لديك سر من هذا النوع الآن!

فهزت رأسها. ولكن وجهها كان شديد الامتقاع.

- عندما أرقد الليلة لأنام، وترتد خواطري، ولسوف ترتعد فعلاً، لأن شأنها هكذا كل ليلة، حتى عندما لم أكن قد رأيتك.. إلى هذا المكان الحزين، فإني ربما أعتقد أنه لا توجد وراء هذه الغرفة وساكنها أحزان تحز في عقل دوريت الصغيرة!

وبدا كأنها تعلقت في هذه الكلمات -وهذا ما تذكره أيضاً مدة طويلة بعد ذلك- وقالت وقد أشرق وجهها بعض الشيء:

- أجل يا سيد كلينام، أجل.. ربما كان هذا.

وكانت السلالم العتيقة التي لا تبطئ عادة في الإعلان عن صعود أحد عليها أو هبوطه وقد أخذت تصر الآن تحت وقع خطوات سريعة، ثم إذا صوت آخر يسمع فوقها، وكأنها ثمة آلة بخارية بها من البخار أكثر من حاجتها، تشق طريقها إلى الغرفة. وفيما هي تقترب، كانت تقترب بسرعة - أخذت تعمل بنشاط ولما طرقت على الباب، بدا أنها انحنت وراحت تنخر عند ثقب القفل.

وقبل أن تفتح ماجي الباب، فتحه السيد بانكس من الخارج، ووقف بلا قبعة، وبرأسه العاري في أشعث حال، ينظر من فوق كتف ماجي إلى كلينام ودوريت الصغيرة. وكان يحمل في يده سيجارة مشتعلة ويبدو عليه جو التدخين وشرب البيرة.

وقال معلقاً بأنفاس لاهثة:

- بانكس الغجري، قارئ الطالع.

ووقف يبتسم في قذارة، ويرسل أنفاسه نحوهم في أعجب هيئة، وبدلاً من أن يكون محصل الإيجارات لمخدومه، قد أصبح المالك المنتصر لسجن مارشاليزا ومدير سجن مارشاليزا، وللحراس ولجميع النزلاء. وفي أثناء شعوره هذا الكامل بالرضا عن نفسه، وضع السيجار بين شفتيه -وكان يبدو عليه أنه لا يدخن- ثم جذب منه نَفَساً قوياً وهو يغمض عينه اليمنى لهذا الغرض؛ ثم إذا هو يروح في نوبة من الارتعاد

والاختلاج والاختناق، وحتى وهو خلال هذه النوبة، ظل يردد عبارته المحبوبة التي يقدم بها نفسه:

- بانكس الغجري، قارئ البخت.

وقال بانكس أخيراً:

- إنني أمضي السهرة مع النزلاء. وقد غنيت واشتركت في ترديد أغنية الرمال البيضاء والرمال السمراء، وإذا كنت لا أعرف شيئاً عن هذه أو تلك، فلا يهمك. فإني مستعد للمشاركة في كل شيء ما دمت أرفع صوتي بما فيه الكفاية.

وظنه كلينام في أول الأمر مخموراً. ولكنه سرعان ما لاحظ أنه على الرغم من أنه قد لا يحتمل الجعة فتسوء حالته -أو تتحسن- فإن أساس انفعاله لم يكن ناشئاً من الجعة أو من أية خمور أخرى مستقطرة من الشعير أو الحنطة.

وعاد بانكس يقول:

- كيف حالك يا آنسة دوريت؟ لقد خطر لي أنك قد لا تبالين إذا أنا أقبلت لرؤيتك لحظة. لقد سمعت من السيد دوريت أن السيد كلينام هنا. كيف حالك يا سيدي؟

وشكره كلينام، وقال إنه سعيد إذ يراه على هذه الحالة من المرح.

فقال بانكس:

- مرح؟ إنني في أحسن حال يا سيدي. لن أستطيع البقاء لحظة، وإلا افتقدوني، وأنا لا أريدهم أن يفتقدوني.. إه.. يا آنسة دوريت.

وبدا أنه يستعد إحساساً من الغبطة لا ينقطع من توجيه حديثه نحوها. ومن النظر إليها، وفي الوقت نفسه كان يعبث بشعره ويرفعه إلى أعلى وكأنه عينات سوداء من الببغاوات الصغيرة!

وعاد يقول:

– لقد كنت هنا منذ نصف ساعة، وعرفت أن السيد دوريت قد اتخذ مجلس الرئاسة، فقررت أن أذهب وأعاونه. وكان الواجب أن أكون الآن في حوش بليدنج هارت. ولكن في مقدوري أن أزعج سكانه غداً.. إه يا آنسة دوريت.

وتألقت عيناه كالكهرباء، وبدا كأن شعره يتألق وهو يعبث به. وكان في تلك الحالة من الشحن الزائد الذي قد يتوقع الإنسان أن يرى الشرر يتطاير منه إذا لمست قبضة يد أي جزء في جسمه.

وقال بانكس:

– صحبة رائعة هنا.. إه، يا آنسة دوريت؟

وكانت على شيء من الخوف منه، ومترددة فيما يجب أن تقول له، وضحك قائلاً وهو يومئ برأسه نحو كلينام:

– دعك منه يا آنسة دوريت. إنه واحد منا. لقد اتفقنا على أن تتجاهليني أمام الناس، ولكن هذا لا ينطبق على السيد كلينام إنه واحد منا، إنه يعرف السر. أليس كذلك يا سيد كلينام.

وكان انفعال هذا المخلوق العجيب قد بدأ ينتقل بسرعة في كلينام. ولاحظت دوريت الصغيرة هذا في عجب، ورأت أنهما يتبادلان النظرات السريعة.

وقال بانكس:

- كنت أريد أن أبدى ملاحظة، ولكنني نسيت ما هي. أوه، صحبة رائعة هنا، لقد قدمت لهم الشراب جميعاً على حسابي.. إه يا آنسة دوريت.

فردت قائلة وقد لاحظت أنهما تبادلا نظرة سريعة أخرى:

- هذا كرم بالغ منك.

- لا، لا، عفواً. إنني في الطريق لاستلام ممتلكاتي؛ وهذه هي الحقيقة. ومن ثم أستطيع أن أكون مسرفاً في الكرم. وأعتقد أني سأقدم لهم هنا الشيء الكثير. الموائد تمد في الفناء، والخبز يقدم بالسلال والمتابغ بالإبالة، والتبغ بالصناديق واللحم المشوي والحلوى لكل واحد. وربع من الخمر القوية لكل رأس، وقدح من النبيذ أيضاً إذا شاء كل منهم. وإذا سمحت السلطات بذلك.. إي يا آنسة دوريت.

وكانت دوريت الصغيرة تعاني نوبة من الارتباك بسبب تصرفاته أو على الأصح بسبب ازدياد فهم كلينام لتصرفاته لأنها كانت تنظر إليه بعد كل مرة يوجه بانكس فيها الحديث إليها وهو مستمر في العبث بشعره، حتى إنها كانت تحرك شفتيها بالإجابة دون أن تنطق بكلمة واحدة:

وعاد بانكس يقول:

- آه، وبهذه المناسبة، لسوف تعيشين حتى تري ماذا كتب في كفك هذه الصغيرة.. لسوف يحدث هذا، سوف يحدث يا عزيزتي. إه يا آنسة دوريت.

ثم أمسك فجأة عن الحديث. أما من أين كان يأتي بهذه الشوائك الجديدة في شعره التي كانت الآن تتطاير في كل أنحاء رأسه كأنها مجموعات من الشرر المتطاير في حفلة صواريخ كبرى، فذلك هو السر العجيب.

ورجع إلى ذلك الحديث قائلاً:

- ولكنهم سوف يفتقدونني، ولست أريد منهم أن يفتقدوني، وأنت يا سيد كلينام، لقد عقدنا معاً اتفاقاً. وقد قلت لك إنك سوف تجدني ملتزماً به، وسوف تجدني ملتزماً به الآن إذا أنت خرجت من الغرفة لمدة لحظة. يا آنسة دوريت أرجو لك ليلة طيبة أرجو لك حظاً طيباً يا آنسة دوريت.

وصافح يدها بسرعة، وراح يهبط السلم، وتبعه كلينام مسرعاً حتى كاد أن يصطدم به في المنبسط الأخير ويدفعه إلى الفناء.

وسأله كلينام قائلاً بعد أن اندفعا معاً إلى الفناء:

- ماذا تريد بحق السماء؟

- انتظر لحظة يا سيدي، هذا هو السيد راج. ودعني أعرفه بك.

وبهذه الكلمات قدم إليه رجلاً آخر بلا قبعة، ولكن كان أيضاً بسيجار، وأيضاً تحيط به هالة من رائحة التبغ، ورغم أنه لم يكن في حالة انفعال مثل بانكس، إلا أنه كان في حالة أقرب ما تكون إلى الخبل لو لا أنها كانت تبدو التزاماً إذا قورنت بهياج بانكس الذي قال:

- سيد كلينام، سيد راج. انتظرا لحظة. هلم إلى «الطلمبة».

مضوا إلى «الطلمبة». وهناك وضع السيد بانكس رأسه تحت فوهتها راجياً من السيد راج أن يدير مقبضها وبعد أن أجاب السيد راج

هذا الرجاء، عاد السيد بانكس ينخر وينفخ، وله الحق. ثم جفف نفسه بمنديله وقال لاهثاً للسيد كلينام الذي وقف مدهوشاً:

- إنني الآن أصفى ذهناً. ولكن بحق السماء، إن سماع والدها وهو يلقي أحاديثه من مقعد الرياسة ونحن نعرف عنه ما نعرف، ورؤيتها هي في تلك الغرفة بذلك الثوب ونحن نعرف عنها ما نعرف، ليكفي أن.. آه، انحنِ لأقفز فوق ظهرك يا سيد راج.. إلى أعلى يا سيدي.. حسناً!

وفي تلك اللحظة، وداخل سجن مارشاليزا، وفي ظلال المساء، وثب السيد بانكس، دون الناس جميعاً، عبر رأس وكتفي السيد راج المقيم ببتنون فيل، والمندوب العام، والمحاسب، والمحصل للديون، وبعد أن هبط واقفاً، أمسك بالسيد كلينام من عروة سترته، وقاده إلى ما وراء «الطلمبة»، وأخرج لاهثاً من جيبه حزمة أوراق.

وكذلك أخرج السيد راج من جيبه وهو يلهث حزمة أوراق.

وقال كلينام هامساً:

- مهلاً.. هل اكتشفت شيئاً!

فقال السيد بانكس مجيباً وهو يؤدي حركة لا تستطيع لغة أن تعبر عنها:

- نعتقد هذا.

- هل يتضمن الاكتشاف أحداً؟

- ماذا تعني يا سيدي؟

- أعني هل يورط أو يؤذي أحداً؟

- لا مطلقاً.

فقال كلينام لنفسه «حمداً لله» ثم أردف قائلاً:

- أطلعني عليه.

فقال بانكس وهو يتحرَّ بحرارة، باسطاً الأوراق، متحدثاً في كلمات صادرة عن أنفاس من الضغط العالي السريع:

- إن عليك أن تدرك أين شجرة النسب وأين الجدول رقم 4 يا سيد راج؟ آه، حسناً. ها هو ذا كل شيء. عليك أن تفهم أننا حتى هذا اليوم قد أتممنا كل شيء تماماً. ولسوف يكون الأمر قانونياً خلال يوم أو يومين أو إذا شئت أسبوعاً على الأكثر، لأننا عملنا من أجل هذا ليلاً ونهاراً أياماً لا أدري عددها. سيد راج أنت تعلم كم أمضينا في هذا العمل. لا بأس. لا تقل إنك فقط سوف تربكني. لسوف تخبرها أنت يا سيد كلينام. ولكن لا تفعل حتى نأذن لك. أين ذلك المجموع الأولي. آه، ها هو ذا. إليك يا سيدي، إن هذا ما سوف تحمله إليها. وإلى والدها أبي مارشاليزا.

* * *

شكوى السيدة ميردل



استسلمت السيدة جوان للقدر المحتوم، وذلك بالاستفادة بقدر ما تستطيع بآل ميجلز هؤلاء، وإخضاع فلسفتها للأمر الواقع الذي تنبأت باحتمال وقوعه بعد مقابلتها مع آرثر كلينام، وهكذا قررت بلباقة ألا تعارض في زواج ابنها. وفي فترة وصولها إلى هذا القرار، وبعد وصولها بالسلامة إلى هذا القرار، لم تكن على الأرجح متأثرة بعواطف الأمومة فحسب، وإنما بثلاثة اعتبارات سياسية أخرى.

ولعله أن يكون الاعتبار الأول، من هذه الثلاثة، أن ابنها لم تبد عليه أقل نية ليطلب موافقتها، أو أي دليل ينم عن عدم قدرته على التصرف في هذا الأمر بنفسه؛ والثاني أن المعاش الممنوح لها من وطنها الشاكر «ومن أحد آل بارناكل» سوف يتحرر من مطالب ابنها مهما كانت بسيطة، وذلك عندما يتزوج هنري من الابنة الوحيدة المحبوبة لرجل في حالة ميسورة جداً. والاعتبار الثالث أن ديون هنري يجب أن تسدد على يد والد زوجته بعد عقد الزواج مباشرة. ويضاف إلى هذه الحكمة المثلثة الجوانب أن السيدة جوان لم تعرب عن موافقتها إلا بعد أن عرفت أن السيد ميجلز تخلى عن معارضته في هذا الزواج، وأن هذه المعارضة كانت العقبة الوحيدة في طريق الزواج منذ مدة طويلة. كل هذه الاعتبارات

أدارتها في ذهنها الذكي أرملة المرحوم السيد جوان الذي كان مندوباً حكومياً لغير شيء معين.

إلا أنها احتفظت بين الأقارب والمعارف بكبريائها الشخصية، وبكبرياء دماء بارناكل التي تجري في عروقها، وذلك عن طريق التظاهر والادعاء بأن ما حدث ليس إلا ضربة من سوء الحظ، وأنها تألمت مما حدث أشد الألم، وأن الأمر كله ليس إلا وهماً قوياً يسيطر على هنري، وأنها عارضت فيه مدة طويلة، ولكن ماذا في وسع الأم أن تفعل.. وهكذا. وكانت قد استدعت فعلاً آرثر كلينام ليشهد على هذه المزاعم، باعتباره صديقاً لأسرة ميجلز. ثم أتبعت هذا بالعمل للتضييق على الأسرة نفسها للغرض ذاته. ففي المقابلة الأولى بينها وبين السيد ميجلز، وضعت نفسها في موضع الأم العاجزة التي اضطرت للاستسلام بلباقة أمام الضغط الشديد. ثم استطاعت -بكل أدب وتهذيب- أن تتظاهر بأنها هي -وليس هو- التي اعترضت طويلاً، ثم وافقت أخيراً، وأنها من ثم هي التي ضحت لا هو. واستطاعت أن تقنع السيد ميجلز بهذا الزعم، وبنفس الأدب والتهذيب، كما قد يفعل الحاوي في بعض ألاعيبه البارعة. ولما قدم إليها ابنها زوجته المقبلة، عانقتها قائلة:

- يا عزيزتي. ماذا فعلت بهنري حتى سحرته هكذا؟

وفي الوقت نفسه سمحت لبعض قطرات من دموعها أن تنحدر وتكتسح أمامها نثرات قليلة من مساحيق الزينة فوق أنفها، باعتبارها دليلاً مؤثراً عما تعانيه في أعماق نفسها لكي تتظاهر بهذا الهدوء الذي تخفي به سوء حظها.

وكانت السيدة ميردل تحتل مقعداً في الصف الأول بين صديقات وأصدقاء السيدة جوان التي كانت تزهو بأنها من سيدات المجتمع وأن لها

علاقات خاصة وشخصية بهذه القوة ذات النفوذ. حقاً إن بوهيميي[1] حي هامبتون كوارت كانوا -بلا استثناء- يشمخون بأنوفهم أمام السيد ميردل باعتباره حديث عهد بالثراء «محدثاً»، ولكنهم لم يلبثوا أن حفظوا هذه الأنوف حين سجدوا على وجوههم ليعبدوا ثروته. ومن ثم غدوا أقرب ما يكونون في هذه الناحية إلى أقطاب وزارة الخزانة، والمحاماة، والكنيسة، وجميع الباقين.

وإلى هذه السيدة ميردل، ذهبت السيدة جوان لزيارتها وللتخفيف عن ذات نفسها بعد أن أعربت عن موافقتها الكريمة المذكورة أعلاه. وقد مضت لهذا الغرض في شوارع المدينة في مركبة ذات جواد واحد كانت بلا احترام تدعى في تلك الحقبة من التاريخ الإنكليزي «علبة الحبوب»[2]. وكانت ملكاً لأحد صغار سماسرة الأعمال الذي كان يقودها بنفسه، كما كان يؤجرها باليوم، أو بالساعة، لمعظم الناس العجائز في حي هامبتون كوارت بالاس، وكان المتفق عليه في هذا الشأن، أن كل ما يتعلق بالمركبة يعتبر ملكاً خالصاً للعميل المستأجِر في أثناء فترة الإيجار، وأن على السمسار ألا يعترف لأحد بأي حق فيها إلا حق العميل المستأجِر. وهكذا كان الأمر مع آل بارناكل في إدارة الشؤون العامة، الذين يعتبرون أكبر سماسرة في الوجود، إذ كانوا دائماً يتظاهرون بأنهم لا يعرفون عملاً إلا الذي في متناول أيديهم.

وكانت السيد ميردل بالبيت، جالسة في متكئها المفروش بالوسائد الذهبية والقرمزية، والببغاء على جذع مجاور يرقبها برأس مائل وكأنما يظنها ببغاء آخر فاخراً من نوع أضخم. وأقبلت السيدة جوان عليها

---

(1) العاطلون بالوراثة.

(2) Pill-Box

بمروحتها الخضراء المحبوبة التي خففت بعض الأضواء المتساقطة على ألوان الوسائد الصارخة.

وقالت السيدة جوان وهي تربت ظاهر يد صديقتها بهذه المروحة بعد محادثة قصيرة.

– يا روحي العزيزة. إنك عزائي الوحيد. إن موضوع هنري الذي سبق أن ذكرته لك تقرر أن يتم. فما رأيك الآن؟ إنني أكاد أموت شوقاً لأعرف، لأنك تمثلين وتعربين عن رأي المجتمع تماماً. واستعرضت السيدة ميردل صدرها الأعظم الذي اعتاد المجتمع أن يستعرضه حتى إذا اطمأنت إلى أن واجهة ثراء السيد ميردل متجاوبة تماماً مع واجهة أي جواهري في لندن، أجابت قائلة:

– أما عن زواج الرجل يا عزيزتي، فإن المجتمع يرى أنه ينبغي على الرجل أن يسترد ثروته بهذا الزواج. المجتمع يطالبه بأن يستفيد من هذا الزواج. المجتمع يطالبه بأن عليه أن يجد مسكناً جميلاً عن طريق هذا الزواج. إن المجتمع لا يرى للزواج من فوائد غير هذا، اهدأ أيها الطائر.

ذلك لأن الببغاء في قفصه فوقها، الذي كان مشرفاً على المؤتمر كأنه حكم –والواقع أنه كان يبدو كذلك– أفسد عبارتها الأخيرة بصرخة منه.

وقالت السيدة ميردل وهي تثني بأناقة الإصبع الصغير في يدها الأثيرة لديها لتجعل ملاحظاتها أكثر أناقة بهذه الحركة الأنيقة:

– وهناك حالات يكون فيها الرجل غير شاب وغير رشيق، ولكنه غني، ولديه مسكن جميل فعلاً. وهذا أمر آخر.. وفي مثل هذه الحالات.

وهزت السيدة ميردل كتفيها الناصعي البياض، ووضعت يدها على معرض الجواهر لتمنع سعلة خفيفة وكأنها تضيف إلى حديثها هذه

العبارة «عجباً! إن الرجل يبحث عن مثل هذه الزوجة يا عزيزتي» ولكن البيغاء صرخ مرة أخرى فوضعت نظارتها على عينيها لتنظر إليه وتقول:

- أيها الطائر اهدأ.

ثم أردفت قائلة:

- ولكن الشبان، وأنت تعلمين يا حبيبتي ماذا أعني بكلمة الشبان -إذ أعني أبناء الناس الذين لا تزال الحياة ممتدة أمامهم- يجب أن يضعوا أنفسهم في موضع أفضل بالنسبة للمجتمع عن طريق الزواج وإلا فلن يستطيع المجتمع الصبر عليهم إذا هم تصرفوا بحماقة.

وأردفت السيدة ميردل قائلة وهي تتراجع متكئة على وسائدها وتعيد نظارتها إلى مكانها:

- إن هذا يبدو سوقياً جداً، أليس كذلك؟

فقالت السيدة جوانا في تأثر واضح:

- ولكن هذه هي الحقيقة.

وردت السيدة ميردل قائلة:

- ليس ثمة مجال للمناقشة في هذا الأمر يا عزيزتي، لأن المجتمع قد عقد العزم في هذا الشأن، وليس ثمة ما يقال بعد ذلك. فلو أننا كنا في حالة أكثر بدائية، لو أننا عشنا تحت أسقف من أوراق الشجر، واحتفظنا بالأبقار والغنم والمخلوقات بدلاً من أرصدة البنوك -وقد يكون هذا ممتعاً، لأني ريفية المزاج بطبيعتي إلى حد ما يا عزيزتي لما كان ثمة بأس. ولكننا لا نعيش تحت أوراق الشجر، ولا نحتفظ بأبقار ولا غنم ولا مخلوقات. وإني في بعض الأحيان أجهد نفسي تماماً في توضيح هذا الفرق لإدموند سباركلر.

وأجابت السيدة جوان قائلة عندما ورد اسم هذا الشاب، وهي تنظر من فوق مروحتها الخضراء:

- إنك يا حبيبتي تعلمين الحالة التعسة في الريف. أولئك البؤساء التابعين لجون بارناكل..! وأنت من ثم تعرفين الأسباب التي من أجلها أصبحت أفقر حالاً من الفأر.

فابتسمت السيدة ميردل وقالت:

- من فأر الكنيسة؟

فقالت السيدة جوان:

- كنت أفكر في المثل الآخر عن الكنيسة أيضاً، وكلاهما يغني. وإنه لمن اللغو أن نخفي -على هذا الأساس- أن هناك فارقاً كبيراً بين وضع ابني وابنك، ويمكنني أن أضيف أيضاً أن لهنري موهبة.

فقالت السيدة ميردل بكل رقة:

- ليس لإدموند مثلها.

ومضت السيدة جوان في حديثها قائلة:

- وإن هذه الموهبة باتحادها مع خيبة الأمل قد أدت به إلى اتخاذ مهنة.. آه ويحي يا عزيزتي، إنك تعرفين. وبما أن هذا هو الفرق في وضع هنري، فالمسألة هي: ما هو أقل مستوى اجتماعي يمكن أن يتزوج هنري منه، ويمكن أن أقبله مرغمة.

وكانت السيدة ميردل مشغولة بتأمل ذراعيها «وكانا ذراعين شكلهما جميل وأصلح ما يكونان للأساور» مما جعلها تتوقف عن الإجابة برهة. ولما تنبهت أخيراً حين شعرت بالسكون المخيم، طوت ذراعيها، ونظرت، ببديهة سريعة رائعة، في وجه صديقها، وقالت متسائلة:

- نعم.. نعم وماذا بعد؟

وقالت السيدة جوان بلهجة أقل عذوبة مما كانت من قبل:

- وبعد يا عزيزتي يسعدني أن أعرف رأيك في هذا الموضوع.

وهنا انفجر الببغاء الذي كان واقفاً على ساق واحدة منذ صرخته الأخيرة في نوبة من الضحك وهو يتشقلب في صعود وهبوط على ساقيه، ثم انتهى إلى الوقوف على ساق واحدة مرة أخرى، ثم توقف برهة ليسمع الإجابة وقد لوى رأسه بقدر ما يمكن أن تلتوي.

وقالت السيدة ميردل:

- قد يبدو الأمر نوعاً من السلب إذا سألت ماذا سوف يظفر ابنك من العروس ولكن لعل المجتمع يبيح هذا النوع من السلب أحياناً كما تعلمين يا عزيزتي.

فقالت السيدة جوان:

- أعتقد مما استطعت أن أعرفه، أن هنري قد يتخلص من الديون.

فقالت السيدة ميردل من خلال نظارتها:

- أهي ديون كثيرة؟

فقالت السيدة جوان:

- أعتقد هذا.

فعلت السيدة ميردل قائلة بلهجة هادئة:

- أفهم أنك تعنين الأمر المعتاد! حسناً.

- وأن والدها سوف يعطيها راتباً يبلغ نحو ثلاثمائة جنيه في العام أو ربما أكثر من هذا.. وهذا في إيطاليا.

فقالت السيدة ميردل:

- أوه، هل سيذهبان إلى إيطاليا!

- لكي يدرس هنري. ولا حاجة بك لأن تعجزي عن التخمين يا عزيزتي فإن ذلك الفن الفظيع.

حقاً.. إن السيدة ميردل تسرع لكي تجنب مشاعر صديقتها المحزونة المزيد من الآلام، فقالت إنها تفهم، ولا داعي للمزيد من القول.

وقالت السيدة جوان وهي تهز رأسها في يأس:

- وهذا كل شيء.. كل شيء.

وكررت السيدة جوان هذه العبارة وهي تنشر مروحتها الخضراء برهة وتربت به على ذقنها، وكانت هذه الذقن في طريقها إلى الازدواج، ومن ثم يمكن أن يقال عنها الآن ذقن ونصف:

- هذا كل شيء.. وعند وفاة والديها، أظن أنها سوف ترث المزيج من الإيراد. ولكن كيف السبيل إلى ضمان هذا؟ إني لا أدري. فإنهما قد يعيشان إلى الأبد. إنهما يا عزيزتي من النوع الذي يمكن أن يفعل هذا.

وهنا أدركت السيدة ميردل، التي كانت تعرف عن يقين حقيقة أمر صديقات المجتمع، وأمهات المجتمع، وبنات المجتمع، وسوق الزواج في المجتمع، وكيف يسيطر المال عليه، وأي نوع من التفكير والتعبير والأخذ والرد يجري للحصول على أكبر المشترين، وأي أنواع المساومات والدناءات تجري فيه، أدركت في أعماق صدرها العريق أن العروس صيد ثمين. وبما أنها أدركت أيضاً ما يراد منها أن تقول، وحقيقة ما يجب أن تفعل إزاء هذا الوضع، فقد أخذت هذه المهمة بين ذراعيها برفق، وقررت أن تقول ما يراد منها أن تقول بكل لباقة. ومن ثم قالت وهي تتنهد بمودة:

- أهذا كل شيء يا عزيزتي؟ حسناً، حسناً! إن الذنب لا يقع عليك. ليس هناك ما تلامين عليه. يجب أن تتزودي بقوة الفكر لمواجهة الأمر الواقع والانتفاع به إلى أقصى حد.

وقالت السيدة جوان:

- لقد بذلت أسرة الفتاة كل ما في جهدها -كما يقول المحامون- لاصطياد هنري.

فقالت السيدة ميردل:

- طبعاً، لقد فعلوا يا عزيزتي...

- وبذلت كل ما في وسعي لإعاقة هذا الأمر، وأجهد نفسي صباحاً وظهراً ومساءً للبحث عن الوسائل التي تمنع هنري من هذا الزواج.

فقالت السيدة ميردل:

- لا شك أنك فعلت يا عزيزتي.

وانتهى هذا كله إلى غير جدوى، تحطم كل شيء عند قدمي. والآن أخبريني يا حبيبتي. هل أنا في النهاية على حق وأنا أوافق مضطرة كل الاضطرار على زواج هنري من أسرة ليست من أسر المجتمع، أم ترين أنني تصرفت بضعف لا يُغتفَر؟

وللإجابة عن هذا الرجاء المباشر، أكدت السيدة ميردل للسيدة جوان -وكأنها في الحديث كاهنة المجتمع- أن لها العذر كل العذر وأن من حقها أن تجد المواساة والعطف، وأنها خاضت أعنف معركة ثم خرجت من أتونها صافية نقية.

وخرجت من هذا المؤتمر السيدة جوان التي كانت تعرف حقيقة الأوضاع في المجتمع، وتعرف أن السيدة ميردل تعرف حقيقة هذه

الأوضاع، وأن المجتمع نفسه يعرف هذه الحقيقة كذلك، نقول، خرجت، كما دخلت، بنفس حالة الوقار والانشراح.

وكان المؤتمر قد عقد في الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر، أي عندما كانت منطقة هارلي ستريت، وكافنديش سكوير تصلصل بأجراس المركبات وما إليها. وكانت قد بلغت هذه المرحلة عندما عاد السيد ميردل من عمله اليومي الذي يجعل الاسم الإنكليزي يزداد ويزداد احتراماً في جميع أنحاء العالم المتحضر، وموضع تقدير الأوساط التجارية في الدنيا الواسعة، وقادراً على الجمع بين البراعة ورأس المال.

ذلك أنه على الرغم من أن أحداً لا يعرف على وجه التحديد ما هو عمل السيد ميردل فيما عدا كونه يكوم المال، فإن هذه هي الصفات التي يصفه بها الجميع في كل المناسبات الرسمية؛ وهي التي ينبغي أن تقبلها دون أية مناقشة؛ وكأنها الأسطورة القديمة عن الجمل وثقب الإبرة بعد وضعها في أسلوب جديد مهذب.

ولكن السيد ميردل، أمام هذا العمل الضخم الذي أسبغ عليه، كان يبدو سوقي المظهر بعض الشيء أو على الأصح كأنما حدث مصادفة في أثناء أعماله الواسعة النطاق، استبدل برأسه، رأس شخص أقل شأناً. لقد أوجد نفسه أمام السيدتين بعد أن قام بجولة اضطرارية داخل مقره دون هدف معين إلا الهروب من رؤية رئيس السقاة.

قال وهو يتوقف فجأة في ارتباك:

– أرجو المعذرة. لم أكن أعلم أن أحداً هنا غير الببغاء.

ودخل –على أية حال– بعد أن قالت السيدة ميردل «يمكنك أن تدخل» وبعد أن قالت السيدة جوان إنها كانت على وشك الانصراف وقد نهضت لتستأذن؛ ثم وقف يطل من نافذة بعيدة، وقد عقد يديه تحت

كمي قميصه في اضطراب، قابضاً على رسغيه كأنما يسوق نفسه إلى زنزانة الحجز. واستغرق -في هذا الوضع- فيما يشبه السبات الذي تنبه منه على صوت زوجته وهي تنادي عليه من متكئها بعد انقضاء نحو ربع ساعة على انفرادهما معاً في الغرفة.

قال وهو يستدير نحوها:

- إه، أجل. ماذا حدث؟

فقالت السيدة ميردل مكررة سؤاله:

- ماذا حدث؟ إن ما حدث كما أعتقد هو أنك لم تسمع كلمة واحدة من شكواي.

فقال السيد ميردل:

- شكواك؟ إنني لم أكن أعلم أنك تعانين من شيء يدعو للشكوى، مم تشكين؟

فقالت السيدة ميردل:

- أشكو منك.

فقال المستر ميردل:

- تشكين مني؟ ماذا.. ماذا.. ماذا يمكن أن يكون موضع شكواك مني يا سيدة ميردل؟

لقد استغرق بانطوائه وذهوله وشرود تفكيره برهة طويلة ليصوغ سؤاله. وفي شيء من المحاولة الخفيفة التي أراد أن يقنع بها نفسه أنه سيد البيت، اختتم حديثه بتقديم إصبعه السبابة إلى طائر الببغاء الذي أعرب عن رأيه في هذا الموضع بأن غاص بمنقاره فيه.

وقال السيد ميردل وهو يضع إصبعه الجريح في فمه:

- كنت تقولين يا سيدة ميردل إن لك شكوى ضدي.

فقالت السيدة ميردل:

- إنها شكوى لا أكاد أستطيع أن أوضح عدالتها أكثر من تأكيدها بأن أعيد ترديدها. ولكأنما أنا قد ذكرتها لحائط. بل كان من الأفضل جداً لي لو أني ذكرتها للببغاء، فإنه على الأقل كان سيصرخ.

فقال السيد ميردل وهو يتخذ لنفسه مقعداً:

- إنك لا تريدين مني أن أصرخ كما أظن؟

فردت السيدة ميردل قائلة:

- الواقع أنني لا أجزم. ولكن هذا كان أفضل من أن تبقى هكذا ذاهلاً شارد الذهن. إن الإنسان في هذه الحالة يعلم أنك تدرك لما يجري حولك.

فقال السيد ميردل بتثاقل:

- إن الإنسان قد يصرخ دون أن يدرك ما حوله يا سيدة ميردل.

فردت السيدة ميردل قائلة:

- ويمكن أن يعاند كما يحدث لك الآن دون أن يصرخ. فتلك هي الحقيقة الواقعة. وإذا كنت تريد أن تعرف الشكوى التي أشكوها منك، إني أقولها لك في هذه الكلمات الواضحة البسيطة: وهي أنه لا ينبغي لك أن تعيش في المجتمع الراقي إلا إذا استطعت أن تكيف نفسك للحياة فيه.

ورفع السيد ميردل يديه إلى ما قد يكون على رأسه من شعر، ثم بدا كأنما هو يجذب نفسه إلى أعلى حينما وثب واقفاً وصاح قائلاً:

- عجباً يا سيدة ميردل بحق كل ما في الدنيا من قوى شريرة! من صنع للمجتمع أكثر مما صنعت؟ أترين هذه الغرف يا سيدة ميردل؟ أترين هذا الأثاث والرياش يا سيدة ميردل؟ أتنظرين إلى المرآة وتشاهدين نفسك يا سيدة ميردل؟ أتعرفين ثمن هذا كله، ومن هو الذي دفعه ولمن؟ ومع ذلك تقولين لي إنني لا ينبغي أن أندمج في الوسط الاجتماعي، أنا الذي أنثر المال عليه بهذا الشكل؟ أنا، الذي يكاد يقال عني إنني.. إنني أعلق نفسي في عربة مياه مليئة بالذهب ثم أمضي لأنثره على المجتمع كل يوم من أيام حياتي.

فقالت السيدة ميردل:

- أرجوك ألا تكون عنيفاً يا سيد ميردل.

فقال السيد ميردل:

- عنيفاً! إنك قلت ما يكفي ليجعلني يائساً. إنك لا تعرفين نصف ما أفعله لأكيِّف نفسي مع المجتمع. إنك لا تعرفين شيئاً عن التضحيات التي أبذلها له.

فردت السيدة ميردل قائلة:

- إنني أعرف أنك تستقبل أعظم الناس في البلد، وأعرف أنك مندمج مع كل الأوساط الراقية في البلاد، وأعتقد أنني أعرف -وأقول هذا في الواقع حتى لا أعي أي شيء بقولي أعرف أعرف- من هو الذي يدعم حياتك فيه يا سيد ميردل.

فرد ذلك السيد وهو يمسح وجهه المربد الذي اجتمعت فيه الحمرة مع الصفرة:

- سيدة ميردل، إنني أعلم هذا تماماً كما تعلمينه، فلو لم تكوني زهرة المجتمع ولو لم أكن أنا محسناً للمجتمع، لما اجتمعنا معاً قط. وأنا

حين أقول محسن إليه فإنما أعني الشخص الذي يزوده بكل أنواع الأشياء الغالية لكي يأكل ويشرب ويمتع النظر. ولكن أن تقولي لي إنني لا أصلح له بعد كل ما فعلته من أجله بعد كل ما فعلته من أجله..

وكرر السيد ميردل العبارة الأخيرة بتأكيد عنيف جعل زوجته ترفع أجفانها إليه. وعاد يقول:

- بعد كل.. بعد كل! ثم تأتين وتقولين لي إنني لا أصلح للاندماج فيه، حقاً إنه لجزاء جميل!

فردت السيدة ميردل قائلة باتزان:

- قلت إنه ينبغي أن تعد نفسك له بأن تكون أكثر وعياً وأقل انشغالاً. فإنها لسوقية مؤكدة أن تحمل دائماً أعباء حملك على كاهلك كما تفعل عادة.

فسألها السيد ميردل قائلاً:

- وكيف أحمل أعباء عملي على كاهلي يا سيدة ميردل؟

فقالت السيدة ميردل:

- كيف تحمل أعباء عملك؟ انظر إلى نفسك في المرآة.

وأدار السيد ميردل عينيه رغماً عنه نحو أقرب مرآة، ثم تساءل قائلاً ببطء وإصرار عما إذا كان الإنسان يمكن أن يسأل عن سوء حالته المضمية؟

فقالت السيدة ميردل:

- إن لك طبيباً.

- إنه لا يفيدني في شيء.

فغيرت السيدة ميردل موقفها وقالت:

- وعدا هذا، فإن سوء الحالة الهضمية كلام فارغ. إنني لا أتحدث عن جهازك الهضمي، وإنما أتحدث عن سلوكك.

فردّ زوجها قائلاً:

- سيدة ميردل. إنني أعتمد عليك في هذا. فأنت المسؤولة عن السلوك، وأنا المسؤول عن المال.

فقالت السيدة ميردل وهي تتراخى بين وسائدها:

- إنني لا أتوقع منك أن تأسر الناس. إنني لا أريد منك أن تتعب نفسك أو تحاول أن تكون جذاباً، وإنما أنا أرجوك ببساطة ألا تهتم بشيء، أو تبدو أنك لا تهتم بشيء.. كما يفعل كل إنسان آخر.

فسألها السيد ميردل قائلاً:

- وهل قلت يوماً إنني مهتم بشيء؟

- لا! ولو أنك قلت هذا لما أنصت إليك أحد. ولكن هذا ما يبدو عليك.

فسألها السيد ميردل قائلاً بسرعة:

- يبدو عليّ ماذا؟

- قلت لك هذا الآن. إنه يبدو عليك أنك تحمل على كاهلك أعباء أعمالك ومشروعاتك حيثما تذهب، بدلاً من تركها في المدينة أو في

أي مكان خاص بها. أو هكذا تتظاهر.. والتظاهر يكفي تماماً. ولا أطلب أكثر من هذا. أما الآن، فإنك تبدو أكثر انشغالاً بأعمالك اليومية وحساباتك وضرائبك مما ينبغي، كما لو كنت نجاراً.

فقال السيد ميردل وهو يكبت شيئاً كآهة توجع:

- نجاراً؟ إنني ما كنت لأهتم كثيراً لو أنني نجار يا سيدة ميردل.

فاستطردت السيدة ميردل تقول متجاهلة تلك الملاحظة المنحطة:

- وإن شكواي هي أن هذا لا يتفق مع الوسط الاجتماعي، وأن عليك أن تصلح هذا الوضع يا سيد ميردل. وإذا كان لديك أي شك في تقديري، فاسأل إدموند سباركلر حتى.

وكان باب الغرفة قد فُتِح عندئذ فلاحت السيدة ميردل تتأمل رأس ابنها من خلال نظارتها، ثم قالت:

- إدموند، إننا نريدك هنا.

وكان السيد سباركلر قد أطل برأسه فقط ليلقي نظرة على الغرفة دون أن يدخل -وكأنما كان يبحث في أنحاء البيت عن تلك السيدة الشابة التي تتحرى الجد-. فلما سمع حديث أمه، أتبع رأسه بالجسم، ثم وقف أمامها. وشرحت السيدة ميردل الموضوع له بكلمات قليلة بسيطة تتناسب مع إدراكه.

وقال ذلك السيد الشاب بعد أن تحسس في قلق ياقة قميصه كما يتحسس نبضه، وكأنما هو مريض بالوهم «إنه لاحظ هذا بين الأصدقاء».

وقالت السيدة ميردل في انتصار:

- لقد سمع إدموند سباركلر الأصدقاء يتحدثون عن هذا. ولا شك أن كل إنسان قد سمع هذا أيضاً.

ولكن هذه الشهادة في الواقع لم تكن منصفة. ذلك لأن السيد سباركلر كان على الأرجح آخر شخص في أي اجتماع لأية أنواع بشرية يمكن أن يدرك حقيقة ما يجري أمامه.

وعادت السيدة ميردل تقول وهي تلوح بيدها الأثيرة نحو زوجها:

- وأستطيع القول إن إدموند سباركلر سوف يقول كيف سمع هذه الملاحظات عنك.

فقال السيد سباركلر بعد أن تحسس نبضه كما فعل من قبل:

- إنني لا أستطيع.. لا أستطيع أن آخذ على عاتقي القول كيف حدث هذا، لأن ذاكرتي ضعيفة جداً. ولكن عندما كنت مع شقيق فتاة رائعة الجمال -ومتعلمة أيضاً- وخالية تماماً من كل حماقة وكلام فارغ - في الفترة المشار إليها-.

وهنا قالت له السيدة ميردل في شيء من نفاد الصبر:

- دعك الآن من الأخت.. ماذا قال أخوها؟

فأجاب السيد سباركلر قائلاً:

- لم يقل شيئاً يا سيدتي. كان مثلي في الصمت، لا يكاد يجد مثلي ما يقوله.

فقالت السيدة ميردل:

- لا بد أن شخصاً ما، أياً كان، قال شيئاً.

فقال السيد سباركلر:

- أؤكد لك أنني لم أقل شيئاً على الإطلاق.

- ولكن قل لنا ماذا قيل.

- أشار أحدهم إلى الرئيس -وهذا التعبير ليس من عندي- قائلاً إن الناس أحياناً يمتدحونه بطريقة لطيفة لكونه واسع الثراء، وملماً تماماً بأحوال السوق والبنوك، ولكن عبء الأعمال يبدو واضحاً عليه، وكأنما هو يحمل أعماله فوق ظهره، مثل اليهودي بائع القماش الذي يحمل أكثر من طاقته.

فقالت السيدة ميردل وهي تنهض وثوبها الحرير الواسع يطفو حولها:

- وهذا على وجه التحديد ما أشكو منه. إدموند، أعطني ذراعك لأصعد.

ولما تُرِكَ السيد ميردل بمفرده ليفكر فيما ينبغي أن يفعل ليصلح موقفه من المجتمع، راح ينظر على التوالي من النوافذ التسع، فيلوح له أنه يرى تسعة فراغات من الخواء والعدم. وبعد أن تسلى على هذا النحو، صعد إلى الطابق العلوي وتطلع بإمعان إلى جميع السجاجيد على أرضيات الطابق الأول وكأنما هي أعماق مظلمة تتجاوب مع نفسيته المحزونة. وراح يجوس خلال جميع الغرف كما كان يفعل دائماً، وكأنه آخر إنسان على الأرض من حقه أن يقترب منها. لتعلن السيدة ميردل بكل قواها بأنها أمضت في البيت ليالي كثيرة في أثناء الموسم الاجتماعي، ولكنها لن تستطيع أن تعلن بأقوى وأحق من إعلان السيد ميردل أنه لم يشعر قط بأنه عاش في بيته يوماً.

وأخيراً التقى برئيس السقاة، وكان منظر هذا الخادم الفاخر يقضي على البقية الباقية منه دائماً. فلما انطفأ تماماً على يد هذا المخلوق العظيم، تسلل إلى غرفة ملابسه، وهناك بقي منعزلاً فيها حتى ركب للعشاء مع السيدة ميردل في مركبتها الخاصة الفاخرة. وعلى مائدة العشاء كان موضع حسد وإعجاب الجميع باعتباره إنساناً واسع القوة والنفوذ، والتف حوله أقطاب الخزانة، والمحاماة، ورجال الدين. وبعد ساعة من منتصف الليل، عاد إلى بيته وحيداً، وهناك، في الصالة، سرعان ما انطفأ أمام رئيس السقاة، كأنه ضوء من القش، وأخيراً مضى إلى الفراش وهو يتنهد.

* * *

حشد من آل بارناكل

أصبح السيد هنري جوان وكلبه من الزوار الدائمين لدار السيد ميجلز، وكان يوم الزواج قد تحدد، وكذلك استقر الأمر على أن يكون عدد كبير من آل بارناكل بين المدعوين لهذه المناسبة، وذلك لكي يمكن لمثل هذه العائلة الكبيرة الرفيعة أن تكسب الشيء الكثير من لألائها على الزواج الذي كان من المنتظر أن يستقبله الوسط الاجتماعي بغير حماسة.

ولكن تجمع كل أفراد أسرة بارناكل بعضهم ببعض يعتبر من المستحيلات لسببين: أولاً لأنه لا توجد بناية يمكن أن تتسع لكل أفراد وأقارب هذه الأسرة المبجلة. وثانياً لأنه أينما يوجد فناء مربع من الأرض التابعة للحكم الإنكليزي تحت الشمس أو القمر؛ ويقوم فيه مكتب عام، فسوف تجد أحد آل بارناكل ملتصقاً به. ولا يوجد ملاح مغامر يستطيع أن ينصب علماً على أية قطعة من الأرض، ثم يستولي عليها باسم الحكومة البريطانية إلا وسرعان ما تتدخل إدارة الشؤون العامة في أمر هذا الاكتشاف بمجرد إعلانه وترسل أحد آل بارناكل بتفويض رسمي. وهكذا كان أفراد آل بارناكل في كل أنحاء العالم، وفي جميع الاتجاهات الأربعة.

ولكن بينما لا يمكن حتى لفن بروسبيرو المجيد نفسه أن يستدعي جميع آل بارناكل من كل بقعة محيط أو يابسة لا يوجد فيها شيء «غير

الشر» وكل شيء يوضع في الجيوب، فقد كان من الممكن تماماً جمع عدد كبير منهم على كل حال. وهذا ما تعهدت السيدة جوان أن تقوم به. هكذا راحت تكثر من زيارة السيد ميجلز لتضيف إلى القائمة أسماء جديدة، ولتعقد المؤتمرات مع ذلك السيد كلما وجد في وقته فراغاً، كما كان شأنه عادة في تلك الفترة، لفحص وتسديد ديون زوج ابنته المقبل، وذلك في غرفة المنصة والميزان.

وثمة مدعو معين لحفلة الزواج كان السيد ميجلز أكثر اهتماماً ورغب في وجوده من أي كبير في آل بارناكل ينتظر حضوره، وذلك رغم أنه يدرك تماماً الشرف الذي سيناله بوجود آل بارناكل في الحفلة. وذلك المدعو هو كلينام. وكان كلينام قد قطع على نفسه عهداً مقدساً بين الأشجار في ليلة الصيف تلك، وكان يرى بحكم شهامته، أن هذا العهد يفرض عليه التزامات لا بد أن يفي بها. وكان يدرك أنه لن يعجز قط عن هذا الوفاء طالما أنه ينسى نفسه ليؤدي كل خدمة لها ممكنة في جميع المناسبات. وقد بدأ هذا بقوله للسيد ميجلز ببشاشة ورداً على دعوته.

- لسوف أحضر طبعاً.

أما شريكه دانييل دويس، فقد كان حجر عثرة في طريق السيد ميجلز، إذ إنه كان يرى، في قلق شديد، أن خلط دانييل مع الرسميين من آل بارناكل قد يؤدي إلى انفجار حتى على مائدة الإفطار في يوم الزواج. ولكن السيد دويس أراحه من هذا القلق عندما جاء لزيارته في توتيكنهام ليلتمس ويرجو -باعتباره صديقاً قديماً عزيزاً- أن يعفى من الدعوة، قائلاً:

- لأنه ما دام الوضع بيني وبين هؤلاء السادة، هو أنني أقوم بواجبي نحو الناس وفي خدمة الناس، بينما أن واجبهم نحوي هو أن يمنعوني من القيام بهذا عن طريق إنهاكي وبث اليأس في نفسي، فإني أرى

من الأفضل ألا أشترك معهم في طعام أو شراب حتى لا أبدو أنني مشترك معهم في الرأي أيضاً.

وابتسم السيد ميجلز من شذوذ صاحبه وغرابة أطواره، وأسبغ عليه من الحماية أكثر من المعتاد حين قال له:

- حسناً، حسناً يا دان، لسوف يكون لك ما تريد.

أما كلينام فكان -كلما اقترب الموعد- يحاول أن يبين للسيد هنري جوان بكل الوسائل الهادئة الصادقة أنه راغب بكل صراحة وإخلاص في أن يعقد معه أي نوع من الصداقة يحب أن يقبله. وكان السيد جوان، من ناحيته يعامله بطريقته السهلة التي تنم عن الثقة وإن لم يكن فيها أي نوع من الثقة إطلاقاً.

وقد حدث أن قال في أثناء حديثهما ذات يوم عندما كانا يسيران بالقرب من الكوخ قبل الزواج بأسبوع:

- أترى يا كلينام؟ إنني رجل خاب أمله. وأنت تعرف هذا فعلاً.

فقال كلينام في شيء من الحرج:

- أقسم لك أنني لا أكاد أعرف كيف هذا.

فردّ جوان قائلاً:

- عجباً! إنني أنتمي إلى قبيلة أو عشيرة أو أسرة، أو رابطة أو ما شئت أن تسمي كان يمكنها أن تيسر لي سبل الحياة بخمسين طريقة، ولكنها قررت ألا تفعل هذا إطلاقاً. وهكذا تراني مجرد فنان بائس فقير.

وقال كلينام:

- ولكنك من ناحية أخرى...

إلا أن جوان قاطعه قائلاً:

- نعم، نعم أعرف. لقد أسعدني الحظ وأحبتني فتاة جميلة جذابة أحبها بكل قلبي.

وهنا قال كلينام لنفسه «وهل لديك قلب!» ولكنه ما كاد يقول هذا حتى شعر بالخجل من نفسه.

واستطرد هنري جوان قائلاً:

- كما وجدت والد زوجة رائعة طيباً كريماً. ولكن كانت لدي أهداف ومشروعات مغسولة وممشطة في رأسي، عندما كان هناك من يغسل رأسي ويمشطها في الطفولة، وقد حملت هذه الأهداف والمشروعات معي إلى المدرسة عندما كنت أغسل وأمشط رأسي بنفسي، وهأنا الآن دونها، ومن ثم فأنا رجل خائب الأمل.

وعاد كلينام يقول لنفسه ويشعر بالخجل مرة أخرى لهذا السبب: هل هذا الشعور بخيبة الأمل في الحياة تأكيد لما هو معروف من أن العروس حملت إلى أسرة العريس ثروة كبيرة وضعها هذا فعلاً لخدمة هوايته؟

وهل ثمة ما يبشر بالنجاح في هذا السبيل على أي حال؟

وقال بصوت مسموع:

- لست خائب الأمل إلى حد الشعور بالمرارة كما أظن.

فضحك جوان قائلاً:

- لا، لا. ليس إلى هذا الحد. إن أهلي لا يستحقون هذا، وإن كانوا لطافاً أحمل لهم كل مودة وحب. وعدا هذا فمن الغبطة أن أبين لهم أنني أستطيع أن أعيش دونهم، وأن في مقدورهم الذهاب إلى الشيطان جميعاً.

وعدا هذا مرة أخرى، فإن معظم الناس يشعرون بخيبة الأمل على نحو ما، ويتأثرون بهذا الشعور. ولكنه بالإجمال عالم لطيف جميل، وأنا أحبه.

وقال آرثر:

- إنه يمتد أمامك الآن سهلاً عذباً.

فصاح الآخر بحماسة:

- عذباً كماء هذا النهر الصافي. وإني بحق الله لممتلئ إعجاباً به وبالرغبة في الدخول معه في سباق. إنه لأحسن العوالم، وهوايتي! إنها لأحسن الهوايات! أليس كذلك!

فقال كلينام:

- إنك ممتلئ النفس بالبشر والطموح كما أرى.

فأضاف جوان قائلاً وهو يضحك:

- وبالحيلة. لا داعي لأن ننسى الحيلة. إنني أرجو ألا أفشل في هذا. ولكن.. لشد ما أخشى أن يفسد شعوري بخيبة الأمل كل شيء. إنني قد لا أستطيع أن أواجهه بالجد اللازم. وبيني وبينك أعتقد أن هناك خطراً في أن يمنعني الشعور بالمرارة من القيام بهذا.

فسأله كلينام قائلاً:

- القيام بماذا؟

- بالوقوف على قدمي. بمساعدة نفسي بدوري كما يساعد الرجل الذي أمامي نفسه بدوره ويقدم نحوي وعاء التبغ. إن الاستمرار في التظاهر بالانكباب على العمل والدراسة والتذرع بالصبر وتكريس الحياة للفن، والانقطاع أياماً كثيرة عن العالم من أجله، والتخلي عن كثير من

المباهج في سبيله والحياة فيه، وغير هذا كله، وبالإجمال القيام بالواجب طبقاً للأصول المرعية.

فقال آرثر منطقياً:

- ولكنه من الخير للإنسان أن يحترم عمله أياً كان، وأن يرى نفسه مرتبطاً للارتفاع به ومطالبة غيره بالاحترام الواجب له. أليس كذلك؟ وإن عملك يا جوان قد يحتاج منك إلى هذا كله فعلاً. وأعترف أنني أرى أن كل الفنون يلزمها هذا.

فقال الآخر متوقفاً لينظر إليه وكأنما لا يستطيع أن يمنع نفسه من الإعجاب به.

- يا لك من رجل كريم يا كلينام؟ ما أروعك! إنك لم تشعر يوماً بخيبة الأمل. إن هذا واضح عليك جداً.

وشعر كلينام أنها قسوة منه لو كان يعني ذلك حقاً، ومن ثم أصر في نفسه على الاعتقاد بأنه لم يعن هذا. أما جوان، فإنه، بلا انتظار، وضع يده على كتفه واستطرد يقول في خفة وضحك:

- كلينام، إنني لا أحب أن أفسد عليك خيالاتك البديعة، وإني مستعد لدفع أي مبلغ من المال -إن كان لدي شيء منه- لأعيش في هذه الظلال الوردية. ولكن ما أصنعه في عملي، فإنما لكي أبيعه. فلو أننا لا نريد أن نبيعه نظير أكبر أجر ممكن الحصول عليه، لما كان علينا أن نفعله. ولكونه عملاً، فيجب أن يعمل. ولكن هذا شيء سهل جداً وكل ما عدا ذلك فهو لغو وهراء. والآن فها هي ذي إحدى المنافع؛ أو المساوئ، الناتجة عن معرفتك لرجل خائب الأمل. إنك تسمع منه الحقيقة.

وأياً كان ما سمعه كلينام، وسواء استحق هذا الاسم أو ذاك، فقد نفذ إلى أعماق ذهنه، ثم استقر فيه بجذوره بحيث بدأ يخشى أن يغدو

جوان مثار قلق دائم له، وأنه حتى الآن لم يستفد شيئاً من تضحيته بنفسه وبكل ما بذل في هذا الشأن من جهود وقلق وتناقضات. لقد وجد أن المعركة لا تزال قائمة في صدره بين تعهده لأن يجعل جوان عند حسن ظن السيد ميجلز دائماً، وبين اضطراره إلى معرفة الحقيقة عن جوان، وهي أنه لا خير فيه إطلاقاً. كما أنه لم يستطع أن يوائم بين شعوره النقي وضميره الحي وبين مخاوفه. من أن يكون قد شوَّه طبيعة جوان وتحامل عليها بتذكير نفسه دائماً بأنه لم يحاول أبداً أن يكتشف الجوانب الطيبة فيه، وأنه كان في مقدوره أن يتجنب معرفة الجوانب السيئة وهو مطمئن. ذلك لأنه لم يكن يستطيع أن ينسى أبداً ما حدث، وأنه كان يعلم أنه كسره جوان يوماً لا لشيء إلا لأنه اعترض طريقه.

وبدأ الآن -وهذه الأفكار تهاجمه- يتمنى أن يتم الزواج، وأن يرحل جوان وعروسه الشابة؛ وأن يترك لنفسه لكي يبر بعهده، ويقوم بالمهمة الكريمة التي أخذها على عاتقه. وكان ذلك الأسبوع الأخير، في الواقع، فترة حرجة لجميع من في البيت. فكان السيد ميجلز يبدو مشرق الوجه أمام بيت أو جوان. ولكن كلينام كثيراً ما رآه جالساً بمفرده أمام المنصة والميزان شارد الفكر، وكثيراً ما رآه ينظر إلى الحبيبين وهما في الحديقة أو في أي مكان -عندما لم يكن مرئياً منهما- بذلك الوجه المفكر الذي كأنما سقط عليه جوان كالغمة. وخلال الترتيبات التي كانت تجري بالبيت استعداداً للمناسبة الكبيرة، كان ثمة أشياء كثيرة من ذكريات الرحلات التي قام بها الوالد والأم والابنة تنقل من أماكنها وتمر من يد إلى يد. وفي بعض الأحيان، وبين هذه الشواهد الساكنة للحياة التي عاشوها معاً، لم يكن أحد حتى بيت يملك نفسه من النواح والبكاء. وكانت السيدة ميجلز -أكثر الأمهات حركة وانشغالاً- تقوم بأعمالها وهي تغني وتبهج كل شخص. ولكن كان -لهذه الروح المسكينة- أوقاتها التي تهرب فيها إلى غرف المخزن لتنخرط في البكاء حتى تحمرّ

عيناها. ثم تخرج زاعمة أن مظهرها هذا يرجع إلى رائحة البصل المخلل والفلفل، ثم تروح تغني بأعذب مما كانت تفعل من قبل. أما السيدة تيكيت التي لم تجد بلسماً لذهنها المعذب بين أورواق بوخان العلاجية، فقد عانت الشيء الكثير من الانقباضات النفسية، ومن ألم الذكريات وهي ترفع كل ما كان يذكرها بطفولة ميني. وعندما كان الحزن يغلبها على أمرها، كانت تبعث خفية إلى الوالدين لتقول إنها في حالة لا تصلح للخدمة داخل الغرف، ثم تأوي إلى المطبخ حيث تتعزى بذكريات «طفلتها» وتباركها، وتعانق طيفها، وتدعو لها، وتهنئها بين دموعها وأدوات المطبخ والأواني والأوعية وبقايا الفطائر كل هذا بحنان الخادمة العجوز الوفية، وهو حنان صادق حقاً.

ومرت الأيام كما لا بد لها أن تمر. وجاء يوم الزواج كما لا بد أن يجيء. ومعه جاء كل آل بارناكل الذين دعوا للحفلة.

كان هناك السيد تايت بارناكل من إدارة الشؤون العامة والمقيم بشارع ميوز ستريت جروفنر سكوير، مع زوجته الغالية السيدة تايت بارناكل أوستلستوكنج سابقاً، التي طالما جعلت يوم الربع بطيئاً في حلوله، ومع البنات الثلاث الغاليات الآنسات بارناكل المشحونات بالمواهب المُعَدَّة للانطلاق، ولكنها لم تنطلق بعد بذلك الدوي والبريق المنتظر، وإنما لا تزال في الانتظار وكان هنا أيضاً بارناكل الأصغر، من إدارة الشؤون العامة كذلك، تاركاً مهام الدولة -التي كان مفروضاً أن تظل على نحو ما تحت رعايته- ترعى نفسها بنفسها. ولكن هذا ألا يعني أنها تركت بلا حماية تماماً حتى مع ابتعاده عنها وكان هناك أيضاً الشاب بارناكل الجذاب المنتمي إلى الجانب المشرق من الأسرة والموظف أيضاً بإدارة الشؤون العامة، ضاحكاً، لطيفاً، باذلاً خدماته للمناسبة، معاملاً إياها بطريقته المرحة وكأنها جزء من قسم الكنيسة في إدارة «كيف تعطل هذا». وكان

هناك ثلاثة آخرون من شباب آل بارناكل من ثلاث إدارات مختلفة، العاطلين عن كل فهم، جاهلين بكل آداب السلوك ناظرين إلى الزواج على أنه لون من ألوان اللهو والعبث.

ولكن كان هناك صيد أكبر من هذا كله. كان هناك اللورد ديكليموس نايت بارناكل نفسه، تحف به رائحة إدارة الشؤون العامة، وبين جنباته يضرع شذى البلاغات الرسمية. نعم، كان هناك اللورد ديكيموس تايت بارناكل الذي بلغ ذرى المناصب الحكومية على أجنحة فكرة نكراء. وتلك هي، أيها السادة، أنني ما زلت في حاجة بعد لأعرف أنه من الملائم للوزير في هذه البلاد الحرة أن يضع القيود على الإحسان، وأن يقوض أركان الكرم، وأن يسلسل الروح العامة، وأن يعرقل كل مشروع وأن يثبط همة كل معتمد على نفسه بين الناس. وكان هذا يعني، بعبارات أخرى، أن ذلك السياسي الكبير، كان يريد دائماً أن يعرف ربان السفينة كيف يفعل أي شيء إلا الإثراء عن طريق التجارة في الخبز والسمك على الشاطئ، تاركاً البحارة البارعين أن يحافظوا على بقاء السفينة فوق سطح الماء، بنزح الماء دائماً من داخلها دون حاجة إليه. وعلى أساس هذا الاكتشاف المقدس، اكتشاف نظرية «كيف تعطل هذا» الرائعة بلغ اللورد ديكيموس قمة المجد بين آل بارناكل. ثم دع أي عضو مخدوع في أي من مجلس البرلمان يحاول أن يقاوم نظرية «كيف تعطل هذا» بتقديم مشروع قانون لهذا الغرض، فإنك لن تلبث أن ترى هذا المشروع يموت ويدفن عندما ينهض اللورد ديكيموس تايت بارناكل في مكانه ويقول بوقار واستنكاره السامي يحلق حوله كما يحلق هتاف إدارة الشؤون العامة حوله، إنه لا يزال يقال له، أيها السادة إن من الملائم له، كوزير في هذه البلاد الحرة أن يضع القيود على الإحسان؛ وأن يقوض أركان الكرم، وأن يسلسل الروح العامة، وأن يعرقل كل مشروع، وأن يثبط همة كل معتمد على نفسه بين الناس. إن اكتشاف هذه الآلة الخاصة بالملاءمة، هو نفسه

اكتشاف سر الحركة الدائمة في ميدان السياسة. إنها لا تبلى أبداً رغم استمرارها في الحركة في جميع نواحي الإدارات الحكومية.

وكان هناك، مع صديقه النبيل وقريبه اللورد ديكيموس، ويليام بارناكل الذي قام بتلك العملية المشهورة، عملية إدماج آل بارناكل بآل تيودور ستيلستوكج والذي كان يحتفظ دائماً بوصفه من تركيباته الخاصة لعملية كيف تعطل هذا. فكان في بعض الأحيان يمارسها مع متحدث برلماني فيقول له: «أولاً، أرجو منك يا سيدي أن تخبر المجلس عن إحدى السوابق التي يمكن أن تسير على هداها» وفي بعض الأحيان كان يطلب من العضو المحترم أن يذكر له رأيه عن هذه السابقة، وفي أحيان أخرى كان يخبر العضو المحترم أنه -أي ويليام بارناكل- سوف يبحث عن مثل هذه السابقة وفي معظم الأحيان كان يسحق العضو المحترم في الحال حين يخبره أنه لا يوجد لهذا الأمر أو ذاك سابقة ولكن السوابق واللواحق كانت -في جميع الأحوال- كجوادي حرب مدربين أحسن تدريب لخدمة إدارة الشؤون العامة. ومهما بذل العضو المحترم، البائس من محاولات لكي يقنع بلا جدوى -وفي خلال ربع قرن- ويليام بارناكل ليفعل هذا أو ذاك؛ فإن ويليام بارناكل ظل يلجأ إلى المجلس -ولو بعباراته القديمة- وإلى البلاد، متسائلاً هل يجوز له أن يتهور في عمل هذا أو ذاك. إذا حدث واستطاع العضو المحترم البائس، رغم كل شيء، وضد طبيعة الأمور، أن يقدم سابقة على عمل ما مفيد، فإن ولیام بارناكل عندئذ يشكر العضو المحترم بطريقة تثير عليه هتافات السخرية والتهكم، ثم يحسم المعركة بينهما بأن يقول له في وجهه إنه لا توجد سابقة لهذه السابقة! وربما قد يقوم اعتراض على أن حكمة ويليام بارناكل ليست من النوع الرفيع، وأن وسائلها في الدفاع والمغالطة مكشوفة كلها؛ ومع ذلك فإن قاعدة السوابق واللواحق تظل مثار فزع معظم المعترضين من الناس.

وكان هناك أيضاً بارناكل آخر، موفور النشاط، قفز خلال عشرين منصباً في توالٍ سريع. وكان دائماً يحتل اثنين أو ثلاثة في وقت واحد، وكان موضع احترام شديد باعتباره المخترع لفن كان يمارسه بنجاح يستدر الإعجاب في جميع الإدارات البارناكلية. وكان ذلك عندما وجه إليه سؤال برلماني عن موضوع معين، فأجاب عن موضوع آخر. لقد أفادت هذه الطريقة إلى حد كبير، ورفعت من قدره عالياً في إدارة الشؤون العامة.

وكان هناك أيضاً نثار من آل بارناكل البرلمانيين الأقل شأناً الذين لم يكونوا قد ظفروا بعد بمناصب ثابتة، فبقوا يتلمسون طريقهم لإثبات جدارتهم. وكان هؤلاء «البرناكليون» يجثمون على درجات السلالم، ويختبئون في الممرات، منتظرين الأوامر ليحضروا الجلسات أو لكيلا يحضروها، وخلال هذا كانوا يبذلون كل جهودهم في الصفير والهتاف والزعيق تحت إشراف كبار الأسرة؛ وكانوا يضعون على الأوراق مقترحاتهم الزائفة ليعترضوا بها طريق مقترحات غيرهم، ثم يطيلون في مناقشة الموضوعات غير المرغوب فيها حتى ساعة متأخرة من الليل أو حتى مرحلة متأخرة من الدورة البرلمانية؛ ثم إذا هم بعد ذلك يصيحون بوطنية مزعومة أن الوقت قد فات، ثم يذهبون إلى الأرياف، كلما طُلب منهم الذهاب، وهناك يقسمون على أن اللورد ديكيموس قد أنقذ الصناعة من الانهيار، والتجارة من أزمة، وأنه ضاعف من إنتاج محصول القمح، وزاد محصول الشعير إلى أربعة أمثال، ومع كميات لا حد لها من الذهب من الخروج من البنك. وكان هؤلاء «البارناكليون» يوزعون بأيدي رؤساء الأسرة كما توزع أوراق اللعب، تحت مناضد اللعب، لينثروا في المجتمعات العامة، وحفلات العشاء، حيث يشهدون كل أنواع الشهادات بكل ما يؤدى من خدمات أقاربهم العظماء الموقرون ويشربون نخب جميع أفراد آل بارناكل. وكانوا يقفون -تنفيذاً لمثل هذه الأوامر للقيام بكل أنواع الدعاية للانتخابات، ويتخلون عن مقاعدهم في البرلمان عند أقل إشارة ولأبسط الأسباب

وأخف الشروط، ليجلس عليها غيرهم. وكانوا يقومون بكل أنواع الفساد والرشوة والسمسرة ويبتلعون الأكوام من الأقذار متظاهرين بأنهم يفعلون هذا كله من أجل الصالح العام، ولم يكن ثمة قائمة في جميع أقسام إدارة الشؤون العامة، أو أماكن قد تخلو في أي مكان خلال نصف قرن من الزمان، ابتداءً من وزير الخزنة إلى قنصل في الصين، ثم إلى حاكم عام الهند إلا وتجد بين المرشحين لهذه المناصب أسماء بعض أو كل هؤلاء «البارناكليين» المتعطشين المتكالبين. وكان من الضروري أن يرصع حفلة الزواج أي طبقة من آل بارناكل. وكان المنتظر أن يكون عددهم نحو عشرين أو ثلاثين منهم بالإضافة إلى ما قد يحضر من أعضاء «الفرقة»! ولكن الترصيع كان حشداً في كوخ السيد ميجلز ملأها عن آخرها، وقد قام أحد آل بارناكل، يساعده آخر من آل بارناكل، بعقد الزواج. ووجد اللورد ديكيموس تايت بارناكل أن من الملائم أن يصحب السيدة ميجلز إلى مائدة الإفطار.

ولم تكن الوليمة مُرْضية وطبيعية كما كان المنتظر أن تكون. فالسيد ميجلز المحاط بهؤلاء المدعوين الكبار، لم يكن راضياً عنه ولم تتحسن حالته عندما رأى أن السيدة جوان راضية عن نفسها وكان الزعم بأن السيد ميجلز ليس هو الذي اعترض على ذلك الزواج، وإنما الاعتراض كان من جانب عظمة الأسرة، وأن عظمة الأسرة قد تكرمت وتنازلت بالموافقة، وإن هناك الآن جواً من التهدئة، كان هذا كله يشع في الحفلة وإن كان أحداً لا يتحدث عنه علانية. وكان آل بارناكل من جانبهم يشعرون أنهم سينفضون أيديهم من آل ميجلز بعد أن تنتهي هذه المناسبة الحاضرة، وكان آل ميجلز من جانبهم يشعرون بمثل هذا أيضاً. ثم راح جوان يؤكد حقوقه باعتباره رجلاً خائب الأمل يحمل في قلبه المرارة ضد أسرته؛ ولعله جعل أمه تدعو أفراد الأسرة إلى الحفلة لكي يشعروا بالاستياء شأنه دائماً مع كل شيء كريم. راح يؤكد هذا كله بأن أخذ يعلن

عن فاقته وعن هوايته بكل جرأة أمامهم، ويخبرهم بأنه يرجو مع مرور الوقت أن يطمئن على معاشه عن طريق زوجته، وأنه يرجو من أي منهم «يكون أسعد حالاً منه» يريد شراء لوحة أن يتكرم ويتذكر الرسام الفقير. وتبين أن اللورد ديكيموس الذين كان أعجوبة زمانه في مجلسه البرلماني، أكثر المدعوين اختيالاً في الحفلة، لقد تمنى السعادة للعروسين بسلسلة من التفاهات تجعل شعر أي حواري أو مؤمن ينتصب على رأسه. وكان يتواثب بخفة فيل صغير أحمق بين متاهات من العبارات الزاعقة التي ينطلق فيها دون أن يعرف كيف يخرج منها. أما السيد تايت بارناكل فلم يسعه إلا الشعور بأن بين المدعوين شخصاً يمكن أن يزعج جلسته الأبدية أمام رسام عالمي مثل السيد توماس لورانس، في وضع حكومي كامل، إذا كان من الممكن أن يحدث هذا الإزعاج: هذا بينما راح بارناكل الأصغر يتصل مستنكراً باثنين من الشبان المدعوين، وكانا من أقاربه، قائلاً لهما إن هاهنا شخصاً سبق أن جاء إلى إدارة الشؤون العامة دون تحديد موعد سابق؛ وقال إنه يريد أن يعرف، كما يعرفان، وأنه إذا بدأ في السؤال الآن، كما قد يحدث «لأنك لا تستطيع أن تعرف ماذا يمكن أن يحدث من شخص متحرر في اللحظة التالية» وأراد أن يعرف في هذه اللحظة، فإن الموقف، كما يعرفان سوف يغدو حرجاً. أليس كذلك؟

وكان أبهج جانب في الحفلة حتى ذلك الحين، في نظر كلينام، هو في الوقت نفسه أشدها إيلاماً. فعندما عانق كل من السيد والسيدة ميجلز ابنتهما بيت في الغرفة ذات الصورتين، حيث لم يكن أحد من المدعوين فيها، وقبل أن يذهبا معها إلى عتبة الباب التي لن تعود أبداً فتخطو عليها مرة أخرى كما كانت من قبل، بيت الحبيبة الوحيدة المدللة، لم يكن هناك ما هو أكثر طبيعية وبساطة من اجتماعهم هم الثلاثة معاً على هذا النحو. لقد تأثر جوان نفسه وأجاب على قول السيد ميجلز له «أوه جوان، حافظ

عليها، حافظ عليها» قائلا في جد: «لا تحطم قلبك يا سيدي، لسوف أحافظ عليها بحق السماء!».

وهكذا بالعبرات الأخيرة، وبكلمات الحب الأخيرة، وبنظرات الثقة الأخيرة إلى كلينام لكي يفي بوعده، تراخت بيت في المركبة، وبتلويحة من يد زوجها، انطلقا إلى دوفر. وعندئذ لشد ما كانت دهشة المدعوين الكبار المطلين من النوافذ حين رأوا السيدة تيكيت تبرز كالشبح من مخبئها وهي في ثوبها الحريري وضفائرها السوداء اللامعة لتقذف على المركبة المنطلقة بزوج من الأحذية القديمة كان لها.

وبعد أن تحرر المدعوون المذكورون من قيود الحفلة، بادر كبار آل بارناكل إلى مغادرتها مسرعين، إذ تبين لهم عندئذ أن عليهم أن يرسلوا مجموعة أو اثنتين من البريد، وقد خشوا أن يصل هذا البريد إلى غايته، فكان لا بد لهم أن يعرقلوا وصوله ويجعلوه كالهولندي الثائر عبر المحيطات، كما كان هناك عدد كبير من الأعمال الهامة مهددة بالإنجاز، وتفرق كل منهم إلى سبيله، مظهرين للسيد والسيدة ميجلز بطريقة غير مباشرة أن ما قاموا به عندهم، إنما قاموا به على سبيل التضحية من أجل مصالح السيد والسيدة ميجلز وهذا نفس ما يفعلونه دائماً للسيد جون بول في مناصبهم الرسمية، حين يتكرمون على ذلك المسكين بخدماتهم.

وتركت فجوة صماء بائسة في البيت، وفي قلوب الأب والأم وكلينام. ولاذ السيد ميجلز بذكر واحدة لمساعدته، وقد أفادته كثيراً. لقد قال لكلينام:

– إنه من دواعي الرضا يا كلينام أن ينظر الإنسان إلى الوراء.

فقال كلينام:

– إلى الماضي؟



- نعم. ولكني أعني المدعوين.

لقد أحس في أثناء الحفلة بالكثير من الكآبة والانقباض، ولكن هذا قد أفاده الآن حقاً. وقد كرر هذه العبارة في أثناء فترة الليل:

- إن من دواعي الرضا أن يكون الإنسان بين أمثال هؤلاء المدعوين الكبار.

* * *

مـــاذا كـــان وراء السيــد بـانكس مكتوبا على يد دوريت الصغيرة



كان ذلك الوقت هو الذي كشف فيه السيد بانكس -بناءً على الاتفاق المعقود بينه وبين كلينام- عن كل تفاصيل قصة الغجرية، وأخبره عن طالع دوريت الصغيرة. كان والدها وارثاً بحكم النسب لمزرعة كبيرة ظلت غير معروفة المآل مدة طويلة، وغير مُطالَب بها، فتراكمت إيراداتها عاماً بعد عام. وقد أصبح حقه فيها الآن واضحاً، وليس ثمة من يعترض طريقه، وإن أبواب مارشاليزا غدت مفتوحة أمامه، وإن أسوار مارشاليزا أصبحت تحت قدميه، وإن الأمر لم يعد يحتاج لأكثر من توقيعه لكي يصبح واسع الثراء.

وكان السيد بانكس في تعقبه للميراث حتى يصل إلى صاحبه، قد أظهر حكمة لا يكدرها شيء، وصبراً وسرية لا سبيل إلى مغالبتها.

وقد قال لكلينام:

- لم يكن يخطر ببالي يا سيدي ليلة أن تعاهدنا معاً، وحين قلت لك أي نوع من الجباة أنا، إن هذا سوف يحدث. ولم يخطر ببالي يا سيدي عندما قلت لك إنك لست من آل كلينام في كورنوال، أنه سيأتي اليوم الذي أقول لك فيه من هم آل دوريت في دورستشير.

ثم أخذ بعد ذلك يسرد التفاصيل، فيقول كيف إنه بعد أن سجل الاسم في مفكرته، وجد نفسه ينتبه إلى هذا الاسم فقط ثم كيف إنه لما وجد اسمين متشابهين، بل وينتميان إلى مكان واحد دون أن تربطهما أية وشائج من القربى بعيدة أو قريبة، ومن ثم لم يهتم بالأمر كثيراً إلا بالتفكير فيما ينتهي إليه حال الحائكة الصغيرة من تغيير عجيب مدهش إذا ظهر أن لها الحق في الحصول على ثروة ضخمة. ثم كيف أنه رأى أن يبحث احتمالات الأمر لأنه لاحظ شيئاً غير طبيعي في هيئة هذه الحائكة الصغيرة الهادئة، وقد سرّه هذا الشيء وأثار فضوله. ثم كيف راح يتحسس طريقه خطوة خطوة، و«يفرزه يا سيدي» -على حد تعبير السيد بانكس- حبة حبة، ثم كيف انقلب الأمر في أولى خطوات كفاحه الذي وصفه بهذا التعبير الجديد، والذي كان يؤكد هذا الوصف بإغماض عينيه عند النطق به وهزّ شعره.. من الأضواء المفاجئة والآمال إلى الظلام المفاجئ بلا آمال. فعاد أدراجه المرة بعد الأخرى ثم كيف تعرف بالمسؤولين في السجن حتى يستطيع أن يدخل ويخرج كما يفعل كل الداخلين والخارجين، وكيف أن الشعاع الأول من الأمل قُدِّم إليه، بلا وعي من السيد دوريت نفسه ومن ابنه، وكان قد تعرف بكل منهما بسهولة، وأصبح يتحدث معهما كثيراً وبلا تكليف «ولكن كان دائماً يفرز حديثهما كما تلاحظ» -على حد تعبير السيد بانكس- وكيف أنه استمد منهما -دون أن يرتابا في شيء- المعلومات عن نقطتين أو ثلاث بخصوص تاريخ الأسرة، الذي كان يوحي بأشياء أخرى بعد أن بدأ هو يتبع استدلالاته الخاصة. ثم كيف وضح في النهاية للسيد بانكس أنه اكتشف وارثاً حقيقياً لثروة ضخمة، وأن هذا الاكتشاف لا يحتاج إلا لاستكمال بعض الإثباتات القانونية. وكيف أنه، لهذا السبب جعل صاحب مسكنه، السيد راج، يقسم على كتمان السر، ثم اتخذ منه شريكاً لعملية التحري والفرز. ثم كيف استخدما جون شيفري ليكون كاتبهما ومندوبهما الوحيد

بعد أن رأيا إلى أي حد يبلغ تفانيه في حب دوريت الصغيرة. ثم كيف أنهم حتى هذه الساعة لم يكشفوا السر لأحد رغم اعتراف السلطات المالية والقضائية بنجاحهم في هذا المجهود. واختتم السيد بانكس حديثه قائلاً:

– وذلك لأنه لو فشل كل شيء في آخر يوم، أو في اليوم قبل الأخير عندما أطلعتك على الأوراق في فناء السجن، فلن يكون هذا الفشل صدمة حزن أو ضياع مال لأحد غيرنا.

وتذكر كلينام –الذي كان يصافح بانكس بلا انقطاع طيلة الحديث تقريباً أن يقول بناءً على هذا، وفي دهشة لم تخفف منها هذه الحقائق العجيبة:

– يا عزيزي السيد بانكس، لا شك أن هذا قد كلفك الكثير من المال.

فقال بانكس المنتصر:

– كثيراً فعلاً يا سيدي وذلك رغم أننا حاولنا الاقتصاد في الإنفاق بقدر الإمكان وكانت هذه التكاليف مشكلة فعلاً.

فقال كلينام وهو يصافحه مرة أخرى:

– مشكلة؟ إذن أين المشكلات الأخرى التي هزمتها ببراعة في أثناء قيامك بالموضوع كله؟

فقال بانكس المبتهج وهو يضع شعره في حالة انتشاء كحالته:

– سوف أخبرك كيف تغلبت على هذه المشكلة. أولاً أنفقت كل ما كان لدي من مال مدخَّر؛ ولم يكن بالشيء الكثير.

فقال كلينام:

– إنني آسف لهذا. وإن كان لم يعد يهم الآن. ثم ماذا فعلت بعد ذلك؟

فأجاب بانكس قائلاً:

- ثم اقترضت مبلغاً من مخدومي.

- من السيد كاسبي؟ إنه رجل عجوز لطيف.

فقال بانكس بسلسلة من النخرات الدالة على التهكم:

- إنه رجل عجوز نبيل، أليس كذلك؟ عجوز كريم، عجوز أمين، عجوز محسن، عجوز طيب عطوف؟ عشرون في المائة هي الفائدة التي سأدفعها له على المبلغ المقترَض منه. ولكننا لا نقرض المال، بفائدة أقل من هذا.

وأحس آرثر بشيء كئيب كأنه يريد أن يفسد عليه سعادته؛ وعاد السيد بانكس يقول وهو يبدو سعيداً جداً بالصفات التي يبتكرها:

- لقد قلت لذلك العجوز المتدين إلى حد التزمت إن في يدي مشروعاً صغيراً، وإن الأمل في نجاحه كبير، قلت له إن الأمر في نجاحه كبير، وإنه يحتاج إلى رأس مال بسيط. واقترحت عليه أن يقرضني المال بضمان مرتبي، وقد فعل، بفائدة عشرين في المائة، لأنه أصرّ على التمسك بهذه الفائدة كما هو شأنه في إدارة أعماله، ثم أضاف هذه الفائدة على المبلغ المقترَض في الكمبيالة ليبدو أنه الأصل. فلو أني فشلت في مهمتي، لبقيت محصِّلاً عنده سبع سنوات بنصف أجر مع مضاعفة عدد ساعات العمل. ولكنه بطريرك أنموذجي، وإن من الفائدة للإنسان أن يخدمه بهذه الشروط أو بأية شروط.

ولم يستطع آرثر قط أن يعرف عن يقين ما إذا كان بانكس يقول هذا جاداً أم هازلاً.

واستطرد بانكس يقول:

- ولما فرغ هذا المال المقترَض، وقد فرغ رغم أني كنت أستقطره وكأنه قطرات دماء، أدخلت السيد راج في السر. وعرضت أن أقترض من السيد راج أو من ابنته -وكلا الأمرين سواء، لأنها كانت قد جمعت بعض المال من قضية تعويض- وأقرضني ما أريد بفائدة عشرين في المائة وكان يرى أنها فائدة مرتفعة جداً. والسيد راج رجل أحمر الشعر، وهو يحلقه دائماً، أما قبعته فهي عالية القمة، ضيقة الحافة ولا ينبثق عنه من الأريحية والكرم أكثر مما ينبثق عن أي دبوس.

فقال كلينام:

- لا بد أن يكون تعويضك عن هذا كله كبيراً يا سيد بانكس.

فقال بانكس:

- إنني أرتاب في الحصول عليه. وأنا لم أعقد في هذا الشأن صفقة. وإني مدين لك بالفضل في هذا. وقد سددت هذا الدَّيْن. والمال حين يُنفَق في موضعه يأتي بالثمرة الطيبة بعد حين. فإذا سددنا كمبيالة السيد راج، فإن ألف جنيه تعتبر ثروة بالنسبة لي. وسوف أضع هذه المسألة بين يديك. وإني أعهد إليك بحمل هذه الأنباء كلها إلى الأسرة بالطريقة التي تراها أفضل من غيرها وسوف تكون الآنسة إيمي دوريت مع السيدة فنشنج هذا الصباح، وخير البر عاجله. ولم يكن في الإمكان تقديم البر قبل الآن.

جرت هذه المحادثة في غرفة نوم السيد كلينام، بينما كان في فراشه لم يزل. ذلك لأن السيد بانكس كان قد طرق على الباب، وشق طريقه إلى الداخل في ساعة مبكرة جداً من الصباح. ثم راح دون أن يجلس أو يظل في مكان واحد، يفرغ عن ذات نفسه بكل هذه التفاصيل -المؤيدة بعدد مختلف من الوثائق- وهو بجوار السرير. وقد قال الآن إنه «سوف يذهب لزيارة السيد راج» الذي بدا من حالته الذهنية المهتاجة أنه يريد أن يقفز

فوق ظهره مرة أخرى. ومن ثم جمع أوراقه كلها في حزمة، ثم صافح كليننام بحرارة مرة ثانية، وانطلق بكل سرعته هابطاً السلم، ومنه إلى الخارج وهو يزفر.

قرر كليننام بطبيعة الحال أن يذهب رأساً إلى بيت السيد كاسبي، ومن ثم ارتدى ملابسه وانصرف بسرعة حتى إنه وجد نفسه في منعطف الشارع البطريركي قبل وصول دوريت الصغيرة بنحو ساعة. ولكنه لم يأسف لأن هذا أتاح له فرصة تهدئة نفسه بالتمشي بعض الوقت على مهل.

ولما عاد إلى الشارع وطرق على الباب بالمقرعة النحاسية اللامعة، قيل له إنها جاءت، ثم أفسح له الطريق إلى غرفة إفطار فلورا. ولم تكن دوريت الصغيرة بها، وإنما كانت فلورا التي أعربت عن أشد دهشتها لرؤيته.

لقد صاحت تلك السيدة قائلة:

- يا إلهي الرحيم يا آرثر - دويس وكليننام. من ذا كان يفكر قط في رؤية مثل هذا المنظر. وأرجوك ألا تؤاخذني على هذا الإزار، لأني وحق الله لم ألبسه قبل الآن أبداً ثم إن رسوماته قد حال لونها وهذا أسوأ، ولكن صديقتنا الصغيرة تصنع، وإن كنت في غير حاجة لأذكر هذا لك لأنك لا بد تعرف أن هناك شيئاً اسمه «الجونلة» وتم الاتفاق على أن يكون قياسها بعد الإفطار وهذا هو السبب وإن كنت أريد ألا تكون منشّاة بهذا الشكل.

فقال آرثر:

- كان ينبغي أن أعتذر عن حضوري للزيارة المفاجئة في هذه الساعة المبكرة. ولكنك سوف تلتمسي العذر إذا عرفت السبب.

فردت السيدة فنشنج قائلة:

- في الأيام التي ذهبت ولن تعود يا آرثر.. معذرة.. يا دويس وكليننام فهذا على التحديد أصح. ورغم أن بُعد هذه الأيام يجعل المنظر

يبدو أجمل وأفتن، على الأقل إنني لا أعني هذا وإن كنت أعنيه فأعتقد أن الأمر يتوقف جداً على طبيعة المنظر، ولكنني أهيم في الحديث مرة أخرى وقد طيرت أنت كل أفكاري من رأسي.

ونظرت إليه بقوة ثم استطردت تقول:

- في الأيام التي ذهبت ولن تعود كما كنت أريد أن أقول، كان الأمر يبدو عجيباً حقاً يا آرثر كلينام -دويس كلينام طبعاً وبلا اختلاف- أن تعتذر عن مجيئك هنا في أي وقت، ولكن هذا مضى وانتهى، والشيء الذي يذهب لا يعود إلا إذا كان محنطاً كما كان المرحوم السيد «ف» يقول عن الخيار المخلل في الكحول لهذا لم يكن يأكله.

وكانت تعد الشاي عندما أقبل آرثر، وقد أسرعت عندئذ بالفرار من هذه العملية، وراحت تقول في همس وخفية وهي تغلق فتحة الإبريق:

- إن أبي جالس في الغرفة الخلفية يتناول طعامه من البيض الطازج ويقرأ صحيفة الصباح، ولا حاجة به لأن يعرف قط أنك هنا، وصديقتنا الصغيرة فأنت تعلم تماماً أن من الممكن أن نأتمنها على الأسرار عندما تهبط بعد أن تفرغ من التفصيل على المائدة في الدور العلوي.

وأخبرها آرثر عندئذ، وفي أقل عدد ممكن من الكلمات، أنه لم يأت إلا لزيارة الصديقة الصغيرة، ثم أخبرها بالغرض الذي جاء من أجله. فلما سمعت فلورا هذا النبأ المذهل، شبكت يديها وأخذت ترتعد وتذرف دموع التعاطف والبهجة باعتبارها إنسانة طيبة القلب حقاً.

وقالت فلورا وهي تضع يديها على أذنيها وتمضي نحو الباب:

- دعني بحق السماء أبتعد عن الطريق أولاً. وإلا فسوف أفقد عقلي وأصرخ وأجعل كل واحد في أسوأ حال، هذا ولشد ما كانت تبدو المخلوقة الصغيرة العزيزة في هذا الصباح لطيفة نظيفة كريمة، ومع ذلك

كانت على هذا النحو من الفقر والآن تصبح صاحبة ثروة هي جديرة بها حقاً! وهل يمكنني أن أذكر هذا لعمة السيد «ف» يا آرثر وليس يا دويس وكلينام هذه المرة فقط وإلا فلن يكون هناك داعٍ لأن أقولها أبداً.

وأومأ كلينام برأسه آذناً لها بالانصراف لأن فلورا لم تتح له فرصة التعبير بالحديث. وأومأت فلورا له بدورها شاكرة وانصرفت مسرعة من الغرفة.

وكانت خطوات دوريت الصغيرة قد بدأت تُسمَع على السلّم عندئذ، وما هي غير لحظة حتى كان بالباب. ورغم كل ما بذله من محاولات ليبدو وجهه هادئاً، فإنه لم يستطع أن يرسم عليه الأمارات الطبيعية. ومن ثم هتفت دوريت الصغيرة عندما رأته قائلة وقد ألقت القماش من يديها:

- سيد كلينام. ماذا حدث؟

- لا شيء، لا شيء، لم تحدث مصيبة ما. قد جئت لأقول لك شيئاً. وهو شيء على جانب كبير من الحظ السعيد.

- الحظ السعيد؟

- حظ مدهش!

ووقفا عند النافذة، وتركزت عيناها المتلألئتان بالضوء، على وجهه. ووضع ذراعه حولها حين رأى احتمال تهالكها على الأرض. ووضعت هي يدها على ذراعه لكي تستريح عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى لتحتفظ بوضعيهما نسبياً حتى لا يتغير تركيز نظراتها عليه بتغير موضع كل منهما. وبدا أن شفتيها تكرران:

- حظ مدهش!

وكرر هو العبارة بصوت مرتفع ثم قال:

- يا عزيزتي دوريت الصغيرة. إن أباك!

واضطرم الوجه الشاحب الجامد عند سماعها هذه الكلمة، وطافت به ألوان مختلفة من الأمارات. وكانت كلها أمارات تنم عن الألم. وكان يود لو أنه ضم الجسم الصغير إليه أكثر، ولكنه رأى في عينيها رجاء بألا يتحرك.

- إن أباك يستطيع أن يسترد حريته خلال أسبوع. إنه لا يعرف هذا ويجب أن نمضي إليه رأساً لنخبره بذلك. لسوف يسترد أبوك حريته خلال أيام قليلة. لسوف يسترد أبوك حريته خلال ساعات قليلة تذكري أن من الواجب أن نذهب إليه مباشرة لكي نخبره بهذا.

وتنبهت هي للأمر، ثم أغمضت عينيها، ثم عادت وفتحتهما بينما استطرد هو يقول:

- وليس هذا هو كل الحظ السعيد. ليس هذا هو كل الحظ المدهش يا عزيزتي دوريت الصغيرة. هل أقول لك المزيد.

ورسمت بشفتيها كلمة!

- نعم.

- لن يكون أبوك فقيراً جداً عندما يسترد حريته إنه لن يحتاج إلى شيء. هل أخبرك بالمزيد! تذكري! إنه لا يعرف شيئاً عن هذا. يجب أن نذهب إليه فوراً لنخبره بالأمر.

وبدا أنها تلتمس منه أن ينتظر قليلاً، فضمّها بذراعها إليه، وبعد برهة سكون، انحنى بأذنه ليرهف السمع ثم قال:

- هل تطلبين مني أن أستمر؟

- نعم.

- سوف يكون غنياً. سوف يكون غنياً. إن هناك ثروة في انتظاره ليتسلمها كميراث له. لسوف تكونون جميعاً منذ الآن أغنياء جداً. يا أشجع وأحسن الأبناء إني أشكر الله الذي أحسن لكم الجزاء.

وفيما كان يقبّلها، أدارت رأسها نحو كتفيه، ورفعت ذراعها نحو عنقه، وهتفت:

- أبي! أبي! أبي.

ثم سقطت مغشياً عليها.

وهنا عادت فلورا لتعني بها، وترفرف حولها وهي راقدة على الأريكة، مازجة خدماتها العطوف بفقرات لا معنى لها من الحديث بطريقة مختلطة بحيث لم يكن أحد يعلم ما إذا كانت تصر على أن يتناول سجين مارشاليزا ملعقة من الإيرادات التي لا يطالب بها أحد أم هي تهنئ والد دوريت الصغيرة على ميراثه البالغ مائة وخمسين ألف زجاجة نشادر، أم أنها تشرح كيف يمكن وضع خمسة وسبعين ألف نقطة «كولونيا» على خمسين ألف رطل من قطع السكر، ثم ترجو دوريت الصغيرة لكي تتناول هذا المنبه البسيط. أم هي تغسل جبيني دويس وكلينام بالخل، وتهوي على وجه عمة السيد «ف». لم يكن في مقدور أحد له ذرة من التفكير السليم أن يعرف على وجه التحديد ماذا كانت تفعل أو تقول من هذا كله. وفوق هذا كله كان ثمة سيل نوعي من الفوضى ينصب من غرفة النوم المجاورة حيث كانت عمة السيد «ف» كما يلوح من رنين صوتها أنها في وضع أفقي تنتظر إفطارها. ومن نفس هذا الاتجاه كانت السيدة تسمع وهي تقذف بلذعاتها كلها وجدت من يسمعها، مثل «لا تصدقي أن هذا من صنعه!» و«ولا داعي لأن يُرجِع الفضل في هذا إلى نفسه» و«لسوف يمضي وقت طويل في رأيي قبل أن يتنازل عن شيء من ماله» وكان المقصود بهذا كله

حرمان كلينام من نصيبه في هذا الاكتشاف ولإرضاء مشاعر الكره المتأصلة التي تحملها عمة السيد «ف» لآرثر.

ولكن لهفة دوريت الصغيرة للذهاب إلى أبيها، وحمل الأنباء السعيدة إليه وعدم تركه في السجن دقيقة أطول مع وجود هذه السعادة التي لم يعرفها بعد في انتظاره، كانت أجدى في إفاقتها من كل براعة وعناية يمكن أن يُمارَسا معه. وكانت أولى كلماتها إلى آرثر هي:

- تعال معي إلى أبي العزيز. أرجو أن تأتي وتخبر أبي العزيز.

أبوها.. أبوها.. لم تكن تتحدث إلا عنه، ولم تكن تفكر إلا فيه. وعندما ركعت وراحت تسكب روحها دعاءً وشكراً وهي مرفوعة اليدين فإنما كان دعاؤها وشكرها من أجل أبيها.

وفاضت مشاعر فلورا الرقيقة عند هذا المنظر، فاندفعت بين الأقداح والصحون تسكب هذا الفيض من الدموع والحديث.

قال وهي تشهق باكية:

- إنني أقرر أنني لم أتأثر في الصميم هكذا منذ موقف أبيك وأمك يا آرثر -لا دويس وكلينام- ولكن أعطِ هذه الصغيرة الغالية قدحاً من الشاي واجعلها تضعه على شفتيها على الأقل أرجوك يا آرثر. بل إن مرض السيد «ف» الأخير لم يكن هكذا لأن مرض النقرس ليس من أمراض الأطفال وإن كان مؤلماً للجميع، وكان السيد «ف» ضحية له إذ كان يضع ساقه في جبيرة ويدير تجارة الخمر التي لم تكن تشتعل أسعارها فجأة لمن كانوا يشرفون على سوقها فيما بينهم بطريقة ما، فلا عجب! وإن الأمر ليبدو كحلم وأنا لا أفكر في شيء هذا الصباح، ثم إذا بي الآن أمام كنوز المال أليس كذلك؟ ولكن لا بد أن يكون كذلك لأنك يا حبيبتي كما تعلمين لن تستطيعي أبداً أن تجمعي ما يكفي من القوة لتخبريه بكل شيء

حتى لا يصاب بشيء. ولذلك يجب أن تحاولي معرفة تعليمات طبيب الأسرة لأنه على الرغم من أن طعمه ليس مستساغاً إلا أني أرغم نفسي على تعاطيه والشعور بالاستفادة منه، ولعلك لا تفعلين وتسألين لماذا فأقول لك إنني أفعل هذا بدافع من الواجب، وسوف يهنئك الجميع بعضهم بحرارة وبعضهم بلا حرارة وكثيرون منهم سيهنئونك من صميم قلوبهم ولكن ليس بينهم من يفعل أكثر مني أؤكد لك إذ أهنئك من أعماقي وإن كنت أشعر أنني أتعثر في الحديث وأبدو حمقاء، وسيحكم عليّ بهذا آرثر لا دويس وكلينام لهذا فوداعاً يا عزيزتي وليبارك الله فيك وأرجو لك كل السعادة ومعذرة على جرأتي في القول إن الثوب لن يتم صنعه بيد حائكة أخرى وإنما سيبقى هكذا تذكاراً يسمى دوريت الصغيرة وإن كنت لا أعرف لماذا أطلق عليك هذا الاسم ولن أعرف الآن أبداً.

وعلى هذا النحو ودّعت فلورا عزيزتها. وشكرتها دوريت الصغيرة وعانقتها المرة بعد المرة، وأخيراً غادر البيت مع كلينام واستقلت مركبة معه إلى سجن مارشاليزا.

كان شعوراً عجيباً ذلك الذي خامرها وهي تمضي راكبة خلال هذه الشوارع القديمة القذرة مع الإحساس بأنها تحلق فوقها إلى عالم واسع من الثراء والأبهة. ولما قال لها آرثر إنها سرعان ما سوف تركب مركبتها الخاصة في شوارع جد مختلفة عندما تختفي عنها كل هذه التجارب المألوفة، بدا عليها الخوف. ولكن عندما استبدل بها أباها وأخبرها كيف سيركب في مركبته الخاصة، وكيف سيبدو رائعاً مهيباً، انحدرت بسرعة عن عينيها دموع الفرح والتفاخر البريء. ولما رأى آرثر كلينام أن السعادة التي تتألق في ذهنها تنعكس عليه، حرص على أن يقصر حديثه عن ذلك الوالد. وهكذا مضيا في إشراق خلال الشوارع البائسة القريبة من السجن ليحملا إليه الأنباء الرائعة.

ولما أدخلهما السيد شيفري -الذي كان قائماً على البوابة- رأى على وجهيهما شيئاً ملأ نفسه بالدهشة. لقد وقف يشيعهما بنظراته وهما يسرعان إلى داخل السجن كأنما قد رأى أنهما عادا وكل منهما يصحب شبحاً. ونظر وراءهما أيضاً اثنان أو ثلاثة من النزلاء أيضاً، ثم لم يلبثوا أن يكونوا -بعد انضمامهم إلى السيد شيفري- جماعة على سلم جوسق الحراسة. وقد سرت بينهم الهمسات الخفية بأن والد مارشاليزا سوف يظفر بحريته. وما هي غير لحظات حتى سمع هذا الهمس في أقصى غرفة بالسجن.

وفتحت دوريت الصغيرة الباب من الخارج، ودخل الاثنان وكان الوالد جالساً في جلبابه القديم الرمادي، وقلنسوته القديمة السوداء في ضوء الشمس بجانب النافذة يقرأ صحيفته. وكانت نظارته في يده، وكان قد التفت نحوهما في تلك اللحظة حين دهش، ولا شك أولاً عند سماعه وقع خطواتها على السلّم، إذ كان لا يتوقع حضورها قبل المساء، ثم دهش مرة أخرى حين رأى آرثر كلينام معه. وفيما هما يتقدمان نحوه أدهشته جداً نفس تلك الأمارات التي كانت على وجهيهما والتي سبق أن لفتت أنظار النزلاء في الفناء. ولم ينهض ولم يتكلم وإنما وضع النظارة والصحيفة على المنضدة بجانبه، وراح ينظر إليهما بفم مفتوح قليلاً، وشفتين مرتعدتين.. ولما بسط آرثر يده إليه لمسها، ولكن ليس كما اعتاد أن يفعل، ثم استدار إلى ابنته التي جلست ملتصقة به وقد وضعت يديها على كتفه وتطلعت بإمعان إلى وجهه وقالت:

- أبي! لشد ما سعدت هذا الصباح.

- سعدت يا عزيزتي؟

- على يد السيد كلينام يا أبي. لقد حمل إليّ أسعد وأعجب نبأ عنك! ولو لم يعدّني بموفور عطفه ورقّته لسماعه.. لو لم يعدّني له يا أبي، لما استطعت في رأيي أن أحتمله.

وكان انفعالها النفسي بالغاً، وراحت الدموع تنحدر على وجهها، ووضع هو يده فجأة على قلبه وتطلع إلى كلينام الذي قال له:

- هدئ من نفسك يا سيدي، وانتظر بعض الوقت لتفكر. لتفكر في أسعد وأبهى حدث في الحياة. وإننا جميعاً نسمع عن المفاجئات السعيدة. إنها بلا نهاية يا سيدي. حقاً إنها نادرة. ولكنها لا تنقطع.

- سيد كلينام. لا تنقطع؟ لا تنقطع!

ثم لمس بيده صدره ليقول: «لي أنا؟».

فردّ كلينام قائلاً:

- لا.

وسأل الوالد قائلاً:

- أية مفاجأة؟

ثم توقف عن الحديث برهة وهو لا يزال واضعاً يسراه على قلبه، بينما أخذ بيمناه يضع نظارته في مستوى واحد تماماً مع سطح المنضدة قبل أن يردف قائلاً:

- أي نوع من المفاجأة في انتظاري؟

- دعني أجب عليك بسؤال آخر. أخبرني يا سيد دوريت. ما هي المفاجأة التي لا تكاد تتوقع حدوثها، والتي تُعتبَر أحب المفاجئات إليك في الوقت نفسه: لا تخش أن تتصورها أو أن تتحدث بها.

ونظر الوالد بثبات إلى كلينام؟ وفيما هو ينظر إليه هكذا، بدا كأنه يتحول إلى رجل عجوز مهدم. وكان ضوء الشمس ساطعاً على جدار السجن وراء النافذة، وعلى الشوائك في أعلاه. ومد الوالد يده التي كانت على قلبه وأشار إلى الجدار. وقال كلينام:

- لقد تحطم.. انتهى.

وبقي الوالد في نفس الوضع، ينظر بثبات إليه. وعاد كلينام يقول في تمهل ووضوح:

- وأصبح لديك بدلاً منها الأسباب التي تجعلك تستمتع بأمتع وأبهج الأشياء التي كانت هذه الجدران تحرمك منها. سيد دوريت ليس هناك أدنى شك في أنك ستظفر بالحرية وبالرخاء الموفور خلال أيام قليلة. إني أهنئك بكل قلبي على هذا الانقلاب الطيب في دورة الحظ، وعلى المستقبل السعيد الذي سوف تُحمَل إليه عاجلاً هذا الكنز الذي منحك الله إياه هنا -إنه الكنز الذي يفضل كل أموال في الدنيا يمكن أن تحصل عليها- وهذا الكنز بجانبك الآن.

وبهذه الكلمات ضغط على يده، ثم أطلقها، أما ابنته التي كانت تلصق وجهها بوجهه، منذ أحاطته في لحظة رخائه بذراعها، كما سبق أن أحاطته في أيام بأسائه بحبها وكدحها وإخلاصها، وسكبت قلبها الحاني اعترافاً بالجميل، وأملاً وبهجة، ونشوة مباركة.. كل هذا من أجله.

وأخذت تقول:

- لسوف أراه كما لم أره من قبل قط. سوف أرى حبيبي الغالي قد زالت عنه الغمّة. سوف أراه كما رأته أمي المسكينة منذ أمد بعيد. أوه، يا حبيبي، يا حبيبي أوه، أبي، أبي! شكراً لله، شكراً لله!

واستسلم لقبلاتها عناقها! ولكنه لم يردهما بأكثر من أن وضع ذراعه حولها، كما أنه لم يقل شيئاً. وإنما أصبحت نظراته الثابتة موزعة بينها وبين كلينام، ثم بدأ يرتعد وكأنما يشعر ببرد شديد. وقال آرثر للصغيرة دوريت إنه سيذهب إلى مشرب السجن ليحضر زجاجة خمر، ثم انطلق ليحضرها بأسرع ما يستطيع. وفيما كانت تحضر من المخزن إلى المنصة،

راح عدد من النزلاء المهتاجين يسألونه عما حدث وعندئذ أخبرهم بسرعة أن السيد دوريت أصاب ثروة كبيرة.

ولما عاد والزجاجة بيده، وجدها قد وضعت أباها في مقعده الوثير، وفكت أزرار قميصه ومنديل عنقه. وملأ كأساً من الشراب وقدماها إلى شفتيه. وبعد أن جرع قليلاً منها، تناولها وشرب الباقي بنفسه. ولم يلبث بعد ذلك أن تراخى في مقعده وراح يبكي وقد جعل منديل يده على وجهه.

وبعد أن استمر هذا الحال فترة ما، رأى كلينام أن من الخير أن يشغل تفكيره عن المفاجأة الأساسية، بسرد تفاصيلها. ومن ثم راح ببطء وفي صوت هادئ يحدث بها كأحسن ما يستطيع، ويطيل في الحديث عن دور بانكس في هذا الأمر.

وقال الوالد وهو ينهض فجأة ويدور بسرعة داخل الغرفة:

– لسوف.. لسوف.. ها.. نعوضه بكرم يا سيدي. تأكد يا سيد كلينام أن كل شخص كان له دور في هذا الأمر سوف يُجزَل له العطاء. ولن يقول أحد يا سيدي العزيز، إنه لم ينل حقه كاملاً مني. ولسوف أرد إليك القروض.. التي أخذتها منك بكل سرور. وإني أرجو في أقرب وقت ممكن أن أعرف مقدار القروض التي أخذها ابني منك.

ولم يكن ثمة غاية من دورانه داخل الغرفة، ولكنه لم يثبت في مكان واحد مع هذا وهو يستطرد قائلاً:

– لسوف أذكر كل شخص. لن أخرج من هنا دون أن أسدد جميع ديوني ولسوف يكافأ كل الذين كانوا كرماء معي ومع أسرتي. سيكافأ شيفري، وسيكافأ الشاب جون. إنني أريد بصفة خاصة وأنوي أن أنصرف بسخاء يا سيد كلينام.

وقال آرثر وهو يضع كيس نقوده على المائدة:

- هل تسمح لي أن أقدم أية مبالغ للطوارئ يا سيد دوريت؟ لقد رأيت أنه يحسن بي أن أحضِّر مبلغاً من المال لهذا الغرض.

- شكراً لك يا سيدي، شكراً لك. إنني أتقبل بكل سرور في الوقت الحاضر ما لم أكن أستطيع أن أتقبله قبل ساعة إلا محرجاً. إنني شاكر لك فضل تقديم هذا المبلغ المؤقت الذي جاء في وقته تماماً - في وقته تماماً.

وقبضت يده على المبلغ وراح يدور به في الغرفة وهو يستطرد قائلاً:

- أرجو أن تتكرم يا سيدي وتضيف هذا المبلغ إلى المبالغ السابقة التي أشرت إليها الآن. ولا تنسَ إذا سمحت أن تضيف إليها المبالغ التي على ابني. ويكفي أن تذكر لي شفوياً المجموع الكلي لهذه المبالغ.

ووقعت نظراته في تلك اللحظة على ابنته، فتوقف برهة ليقبِّلها ويربت على رأسها وهو يقول:

- من الضروري أن نجد صانعة أزياء نسائية يا عزيزتي لنسرع في تغيير ملابسك هذه العادية جداً. كما يجب أن نفعل أيضاً شيئاً مع ماجي التي لا تكاد تبدو في هيئة لائقة. وكذلك أختك يا إيمي. وأخي، عمك، أعتقد أن هذا سوف يخرج المسكين من سباته. يجب أن نرسل من يستدعيهم فوراً. يجب أن نخبرهم بهذا. يجب أن نسوق إليهم الخبر بحذر، ولكن يجب أن يتم هذا فوراً، إن من واجبنا نحوهم ونحو أنفسنا منذ هذه اللحظة ألا نجعلهم يشتغلون بأي شيء.

وكانت تلك أول مرة يبين فيها أنه على علم بأنهم كانوا يشتغلون في سبيل الرزق.

وكان في الغرفة لا يزال يدور بجوانبها ممسكاً بالكيس، عندما ارتفعت الهتافات في الفناء. فقال كليننام وهو يطل من النافذة:

- لقد انتشرت الأنباء فعلاً. هل نخرج إليهم يا سيد دوريت؟ إنهم ملهوفون جداً إليك، والواضح أنهم يريدون هذا.

فقال وهو يزداد تردداً في الغرفة أكثر مما كان يفعل من قبل:

- إنني، ها، هه أعترف أنني كنت أتمنى يا إيمي يا عزيزتي، لو أمكن لي أولاً أن أغير ملابسي، وأن أشتري ساعة وسلسلة، ولكن إذا لم يكن بد من أن أفعل هذا، فلا بد أن أفعله. زرري ياقة قميصي يا عزيزتي. وأنت يا سيد كلينام، هل تتكرم.. هه.. وتناولني منديل العنق الأزرق الموضوع في الدرج الذي عند مرفقك؟ زرري معطفي عند الصدر يا حبيبتي. فإنه يبدو أعرض عند التزرير.

وبيده المرتعدة دفع بشعره الأشيب إلى الوراء ثم استعان بكل من كلينام وابنته، وظهر في النافذة معتمداً على ذراع كل منهما. وهتف له النزلاء بحرارة، وقبّل هو يده إليهم في عطف ورعاية ولما انسحب إلى داخل الغرفة مرة أخرى، قال:

- يا للمساكين.

وكان صوته مفعماً بالرثاء لحالتهم البائسة.

وكانت دوريت الصغيرة ملهوفة جداً لكي يرقد ويهدئ من نفسه. ولما حدثها آرثر عن رغبته في الذهاب إلى بانكس حتى يظهر الآن بأسرع ما يستطيع ويتابع مهمته السعيدة إلى نهايتها، التمست منه في همس أن يبقى معها حتى يغدو أبوها في تمام الراحة والهدوء. ولم يكن بحاجة إلى تكرار الالتماس، وأعدت هي سرير أبيها، ورجته أن يرقد عليه ولكن لم يستطع أحد خلال نصف ساعة أخرى أو أكثر أن يغريه بأن يفعل شيئاً إلا تجواله في الغرفة ومناقشة نفسه في جميع الاحتمالات عن موافقة أو معارضة مدير السجن للسماح لجميع النزلاء في الوقوف بنوافذ بناء

الإدارة المطلة على الشارع، ليشاهدوه وهو يرحل مع أسرته نهائياً في مركبة، ولا شك أن هذا، كما قال، سيكون منظراً لا يُنسى بالنسبة لهم. ولكنه بدأ يتخاذل تدريجياً ويتعب، وأخيراً تمدد على الفراش.

وأخذت ابنته الوفية مكانها بجانبه، وراحت تروح عليه وتبرد جبينه، وبدا عليه أنه يستغرق في النوم، وكيس النقود في يده دائماً، عندما انتصب جالساً فجأة وقال:

– سيد كلينام، أرجوك المعذرة. هل لي أن أفهم يا سيدي العزيز، أن في مقدوري.. هه.. أن في مقدوري أن أخرج من البوابة في هذه اللحظة وأتمشى قليلاً!

فأجاب كلينام على غير إرادة منه:

– لا أظن يا سيد دوريت. إن هناك بعض إجراءات معينة يجب أن تُستكمَل. ورغم أن وجودك هنا في ذاته إجراء، فإني أخشى أن أقول إنه إجراء يجب مراعاته فترة أخرى وجيزة:

وهنا ذرف الوالد الدمع مرة أخرى:

فقال كلينام ليهوِّن عليه:

– إنه لن يستغرق أكثر من ساعات قليلة.

فردّ قائلاً بانفعال مفاجئ:

– ساعات قليلة! إنك تتحدث ببساطة عن الساعات يا سيدي، ما مقدار الساعة يا سيدي في رأيك بالنسبة لرجل يختنق من أجل الهواء؟

وكانت تلك عباراته الأخيرة لذلك الوقت. لأنه بعد أن ذرف دموعاً أخرى واشتكى في تذمر من أنه لا يستطيع أن يتنفس، راح يستغرق ببطء في النوم. وكان لدى كلينام الشيء الكثير الذي يشغل تفكيره

وهو جالس في الغرفة الساكنة يرقب الوالد في سريره، بينما كانت الابنة تروح على وجهه.

وكانت دوريت الصغيرة مشغولة الفكر أيضاً. فبعد أن مسحت على شعر أبيها الرمادي برفق ولمست جبينه بشفتيها، تحولت بنظراتها إلى آرثر الذي اقترب منها حتى تحدثه في همس، عن الموضوع الذي كان يشغل تفكيرها. فقالت له:

- سيد كلينام، هل عليه أن يدفع كل ديونه قبل أن يخرج من هنا؟

- لا شك. كلها.

- كل ديونه التي من أجلها سُجِن هنا طول عمري أو أكثر؟

- لا شك.

وطافت بعينيها لمحات من التردد والشك. لمحات لا تعبر عن الرضا والاقتناع ، أراد بدافع الفضول أن يستشفها فقال:

- هل أنت سعيدة لأنه سيفعل هذا؟

فسألته دوريت الصغيرة في أسى:

- هل أنت؟

- أنا؟ جداً.

- إذن فيجب كما أرى أن أكون كذلك.

- أما كنت كذلك؟

فقالت دوريت الصغيرة:

- يلوح لي أن من القسوة أن يفقد من حياته كل هذه السنوات، وأن يعاني كل هذا الشقاء، ثم يدفع أخيراً كل ديونه. يلوح لي أن من القسوة أن يسدد الدَّيْن بالمال والحياة معاً.

فبدأ كلينام يقول:

- يا طفلتي العزيزة..

فقاطعته قائلة في توسل ودعة:

- نعم أعرف أني مخطئة، فلا تسيء بي الظن. إن هذا الإحساس قد نما هنا معي.

إن السجن الذي كان من الممكن أن يفسد أشياء كثيرة قد طبع تفكير دوريت الصغيرة بأشياء كثيرة غير هذا. ولكنها بسبب حالة الاضطراب الناشئة من شدة حنانها على السجين المسكين، أبيها، استطاع كلينام لأول مرة، ولآخر مرة أن يلقي هذه الومضة من طابع السجن عليها.

فكر في هذا، وقرر ألا يقول كلمة أخرى، ومع هذا التفكير، رأى نقاءها وطيبة قلبها يشعّان أمامه في أبهى ضوء. إن هذه الومضة قد زادت من بهائها.

ويبدو أنها أرهقت بانفعالاتها، وخدرت بالسكون المخيِّم على الغرفة فراحت يدها تبطئ تدريجياً في حركة الترويح، وتخاذلت رأسها على الوسادة بجانب رأس أبيها. ونهض كلينام برفق، وفتح الباب وأغلق، بلا صوت، وغادر السجن حاملاً روح السكينة معه إلى الشوارع الصاخبة.

* * *

سجن مارشاليزا يصبح يتيما



وأخيراً جاء اليوم الذي كان على السيد دوريت وأسرته أن يرحلوا فيه عن السجن إلى الأبد، وأن يتوقف سيرهم إلى الأبد أيضاً فوق حجارة أفاريزه المتآكلة.

ورغم أن فترة الانتظار كانت قصيرة، إلا أنه أمعن في التذمر من طولها، وحمل كثيراً على السيد راج باعتباره المسؤول عن التأخير. وكان يعامل السيد راج بشموخ ويهدد باستخدام شخص آخر. وكان قد رجا من السيد راج ألا ينظر إليه في ضوء المكان الذي وجده فيه، وإنما عليه أن يؤدي واجبه، وأن يؤديه بسرعة. وكان قد أخبر السيد راج أنه يعرف ألاعيب المحامين والمندوبين القضائيين، وأنه لن يخضع لأي نوع من الخداع. ولما حاول ذلك السيد أن يؤكد في تواضع أنه يبذل كل ما يسعه من جهد، قالت له الآنسة فاني في كبرياء إنها تريد أن تعرف ما إذا كان في وسعه أن يفعل أقل من هذا عندما قال أكثر من عشر مرات إن المال ليس هو العقبة، ثم أعربت عن شكها في أنه قد نسي إلى من يتحدث!

أما مدير السجن، الذي كان مديراً له عدة سنوات، والذي لم يسبق أن وقع بينه وبين السيد دوريت أي خلاف، فإن هذا الأخير لم يلبث أن بدأ يعامله بعنف. فعندما ذهب هذا المدير بنفسه ليقدم تهانيه إلى

السيد دوريت، عرض بلا مقابل غرفتين في مبنى إقامته لكي يشغلهما السيد دوريت إلى حين رحيله. وشكره السيد دوريت عندئذ وأجاب بأنه سوف يفكر في الأمر؛ ولكن ما كاد ينصرف المدير حتى جلس السيد دوريت وكتب خطاباً شديد اللهجة، ذكر فيه أنه، أي المدير؛ لم يحدث قط في مناسبة سابقة أن شرفه بالتهاني «وكان ذلك حقاً، وإن لم يكن في الواقع قد حدث شيء يستحق التهنئة عليه» وأنه من ثم يرجو بالنيابة عن نفسه وعن أسرته قبول رفضه لعرض المدير مع تقديم كل ما يلزم من الشكر النابع من طبيعة حرة وشخصية مستقلة.

ورغم أنه لم يظهر على أخيه إلا وميض خاب من الاهتمام بما حدث مما يجعل من المشكوك فيه جداً أنه قد فهم شيئاً، فقد وضعه السيد دوريت بين مختلف صانعي الملابس والقبعات والأحذية الذين استدعاهم بنفسه إلى السجن، وأمر أن تؤخذ عنه ملابسه القديمة وتُحرَق. ولم تكن الآنسة فاني أو السيد تيب في حاجة إلى توجيهات للظهور بما ينبغي من أناقة وأبهة. وكان الثلاثة قد أمضوا فترة الانتظار في أحسن فندق قريب، وذلك رغم قول الآنسة فاني إنه أحسن فندق نسبياً. ومع هذا السكن الفاخر استأجر السيد تيب مركبة وجواداً وسائساً، وطاقماً فاخراً، وكان يرى عادة لمدة ساعتين أو ثلاث وهو يروح ويجيء بالمركبة في أبهة بشارع بورو هاي ستريت أمام فناء مارشاليزا. وكذلك كثيراً ما كانت ترى هناك مركبة صغيرة مأجورة، ذات جوادين، وكانت الآنسة فاني في هبوطها منها وركوبها فيها تستعرض أمام بنات مدير السجن ألواناً مختلفة من القبعات الفاخرة.

وخلال هذه الفترة كانت قد تمت عمليات كثيرة؛ من بينها خطاب أمر به السيد إدوارد دوريت وكلاءه المحامين بمكتب السيدين بيدل وبول في مونيومنت يارد، ليرسل إلى السيد آرثر كلينام المحترم خطاباً،

محتوياً على أربعة وعشرين جنيهاً وتسعة شلنات وأربعة بنسات؛ وهو المبلغ الذي يرى الموكل أنه كان مديناً به للسيد كلينام بعد إضافة الفوائد إليه باعتبار نسبتها خمسة في المائة سنوياً. وفي أثناء قيام المحامين بيدل وبول بهذه المهمة، أخطرهما موكلهما أن يذكرا السيد كلينام بأنه وقد تم تسديد الدَّيْن -بما فيه رسوم الدخول إلى السجن- لم يطلب منه هذا، وأن هذا الدَّيْن ما كان ليقبل لو أنه قدمه باسمه وبلا مقابل. وفي نهاية الخطاب طالب المحاميان باستلام إيصال مع بقائهما دائماً الخادمين المخلصين. وكان ثمة أعمال أخرى كثيرة يجب أن تتم خلال فترة تيتّم سجن مارشاليزا القصيرة، على يدي السيد دوريت، الذي ظل والداً له مدة طويلة. وكانت معظم هذه الأعمال تدور حول الالتماسات التي قدمها إليه النزلاء طالبين مبالغ صغيرة متفاوتة من المال. وقد استجاب لهذه الالتماسات بكل أريحية، ودون أي تقصير في الرسميات. فكان أولاً، ودائماً، يكتب خطاباً لصاحب الالتماس يحدد له موعداً للمقابلة في غرفته، ثم يستقبله بين أكوام كبيرة من السجلات والمستندات، ثم يقدم مع كل نفحة -لأنه كان يقول إن كل حالة من هذا النوع هي نفحة، وليست قرضاً- عدداً كبيراً من النصائح الطيبة التي مؤداها أنه الوالد الراحل عن سجن مارشاليزا، يرجو أن يُذكَر طويلاً باعتباره أنموذج الرجل الذي قد يستطيع أن يحتفظ بالكرامة والتقدير العام حتى في السجن.

ولم يشعر النزلاء بالحسد أو الغيرة. فقد استحوذ على تقديرهم التقليدي ذلك الزميل الذي احتمل السجن كل هذه المدة، فإن الحدث كان في صالح السجن، وجعله مشهوراً في الصحف. ولعل الكثيرين منهم فكروا أيضاً -على غير وعي كامل- أن ما حدث كان يمكن في لعبة الحظ أن يكون من نصيبهم، أو أنه قد يحدث لهم يوماً ما. ومن ثم كان شعورهم نحو ما حدث طيباً جداً. ولكن قليلاً منهم شعروا بالانقباض حين تذكروا أنهم سيخلفون في السجن، وسيتركون فقراء. ولكن حتى هؤلاء

لم ينفسوا على الأسرة حظها السعيد. وكان من الممكن أن يكون شعور الحسد أكثر في أوساط أرقى. ويبدو أنه من المرجح أن بيئة المال أقل كرماً من النزلاء الذين يعيشون على رزق يوم بيوم، ومن يد المرابي إلى وجبة الغداء.

وقدموا إليه خطاباً وضعوه في إطار أنيق زجاجي، لم يعرض هذا الخطاب فيما بعد بقصور الأسرة أو يحفظ في أوراقها. وعلى هذا الخطاب رد السيد دوريت رداً كريما وفي هذا الرد أكد لهم -بلهجة ملكية- أنه تلقى خطابهم وهو موقن بما فيه من إخلاص، ثم حثهم مرة أخرى لكي ينهجوا سبيله -الذي لا شك كان يسعدهم أن يفعلوا لو وقع لهم مثلما وقع له من حظ سعيد- وانتهز تلك الفرصة نفسها ليدعوهم إلى حفلة جامعة سيقيمها في فناء السجن حيث يتشرف بشرب كأس لوداعهم في صحة وسعادة جميع الذين سيتركهم وراءه.

ولم يتناول بشخصه الطعام في هذه الحفلة العامة، التي أقيمت في الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت وجباته تأتيه من الفندق في السادسة، ولكن ابنه تكرم واتخذ مجلسه على رأس المائدة الرئيسية حيث أظهر الشيء الكثير من اللطف والعطف. أما هو فقد اكتفى بالتجول بين المدعوين والاهتمام بهذا أو ذاك منهم، والاطمئنان على أن اللحوم من النوع الذي أمر به، وأن كل شيء على ما ينبغي. وبالإجمال كان كالأمير أو السيد الإقطاعي، في العصور القديمة عندما يكون في حالة نفسية طيبة نادرة. وفي نهاية الوليمة، طلب من المدعوين أن يشربوا معه كأساً من شراب ماديرا القديمة، ثم قال إنه يرجو أن يكونوا قد استمتعوا بالوليمة، وأكثر من هذا، أن يزيدوا استمتاعهم بقية السهرة، وإنه يرجو لهم الخير، وإنه يرحب بهم في أي وقت. ولما شربوا في صحته بالهتاف والتهليل، لم يستطع أن يحتفظ بأبهته أو بهيأته الإقطاعية، عندما حاول أن يرد شاكراً، فانهار كأي شخص أجير في صدره قلب، وبكى أمامهم جميعاً. وبعد هذا

النجاح الكبير، الذي ظنه فشلاً قدم إليهم، السيد شيفري وإخوانه الحراس، الذين كان قد سبق أن منح كلاً منهم عشرة جنيهات، والذين كانوا مشرفين على الوليمة. وتحدث السيد شيفري في هذه المناسبة قائلاً إنه إذا كان عليك أن تسجن أحداً، فاسجنه، ولكن عليك أن تعرف، من الوجهة الإنسانية أنه رجل وأنه أخ إلى الأبد. وبعد أن انتهوا من قرع الكؤوس، تكرم السيد دوريت وشاركهم اللعب، فلعب إحدى ألعاب الورق «الإسكتل» مع أقدم نزيل بعده، ثم ترك النزلاء يواصلون ألعابهم.

ولكن كل هذه الأحداث كانت سابقة على آخر يوم. وأخيراً جاء اليوم الذي كان عليه وعلى الأسرة أن يرحلوا عن السجن إلى الأبد، وأن يتوقف مسيرهم إلى الأبد أيضاً على حجارة الأفاريز المتآكلة.

وكانت ساعة الظهيرة هي المحددة للرحيل، وفيما هي تقترب كان النزلاء جميعاً خارج الغرف، والحراس موجودين، وكان هؤلاء السادة الأخيرين مرتدين ملابسهم الرسمية، ومعظم النزلاء في أحسن مظهر يمكن أن تسمح لهم به الظروف بل لقد ارتفع علمان أو ثلاثة، وتحلى الأطفال بألوان وأشكال من الشرائط، أما السيد دوريت فقد حافظ في هذه الفترة العصيبة على هيئة من الوقار والمهابة. وقد حرص على أن يولي كثيراً من عنايته لأخيه الذي كان موقفه في هذه المناسبة الخطيرة مثاراً لقلقه الشديد.

قال له:

- يا عزيزي فريدريك، لو أنك أعطيتني ذراعك، فسوف نمر معاً بين أصدقائنا. أعتقد أنه من المناسب أن نمضي معاً يا عزيزي فريدريك وذراع كل منا في ذراع الآخر.

فقال فريدريك:

- هاه! نعم، نعم، نعم، نعم.

- وإذا أمكن، يا عزيزي فريدريك، إذا أمكنك، دون أن تجهد نفسك، تبدي قليلاً، ومعذرة يا فريدريك، من التألق على تصرفاتك..

فقال الآخر وهو يهز رأسه:

- ويليام، ويليام، إن عليك أنت أن تقوم بكل شيء. أما أنا فلا أعرف كيف. لقد نسيت كل شيء.. نسيت كل شيء.

فردّ ويليام قائلاً:

- ولكن يا عزيزي، فإنه لهذا السبب، لا لشيء آخر، يجب أن تحاول أن تستنهض نفسك. وإن ما نسيته يجب أن تبدأ في تذكره الآن يا عزيزي فريدريك فإن مركزك...

فقال فريدريك:

- إه!

- مركزك يا عزيزي فريدريك.

- مركزي أنا؟

ثم نظر أولاً إلى نفسه، ثم إلى أخيه، ثم تنفس بعمق وهتف قائلاً:

- هاه، بالتأكيد، نعم، نعم، نعم.

- إن مركزك يا عزيزي فريدريك مركز عظيم الآن. إن مركزك يا أخي مركز كريم. وأنا أعرف أنك بطبعك النقي سوف تحاول أن تكون جديراً به يا عزيزي فريدريك وأن تزينه. نعم، أن تزينه لا أن تحط منه.

فقال الآخر بضعف وتنهيد:

- ويليام. لسوف أفعل أي شيء تريد يا أخي طالما أن ذلك في مقدوري. وأرجو أن تتعطف وتتذكر أن مقدرتي محدودة جداً. فماذا تريد مني أن أفعل اليوم يا أخي؟ قل ما هو. فقط قل ما هو.

- لا شيء يا عزيزي فريدريك. إن الأمر لا يستحق أن يثقل على قلبك الكريم.

فردّ الآخر قائلاً:

- أرجو أن تثقل عليه. إنه لن يشعر بأي ثقل يا ويليام حين يقوم بأي عمل يستطيع من أجلك.

فمرّ ويليام بيده على عينيه وغمغم قائلاً بكل غبطة:

- ليبارك الله في كل ما يتصل بك يا أخي العزيز المسكين.

ثم أردف قائلاً بصوت مرتفع:

- حسناً يا عزيزي فريدريك، فلو أنك فقط تحاول -في أثناء خروجنا- أن تبدو متنبهاً لما يجري.. وأنك تفكر في..

فردّ الشقيق المستسلم:

- في أي شيء تنصحني أن أفكر؟

- أوه، يا عزيزي فريدريك، كيف أستطيع أن أجيبك، إنني أستطيع فقط أن أعرف ماذا أفكر فيه عندما أترك هؤلاء الناس.

فصاح أخوه قائلاً:

- هذا ما أريد. هذا سيساعدني.

- لقد تبين لي أني أفكر، يا عزيزي فريدريك، بشعور مختلط تسيطر عليه العواطف الرقيقة، فيما سوف يفعلون دوني!

فردّ أخوه قائلاً:

- حقاً، نعم، نعم، نعم، لسوف أفكر في هذا ونحن نخرج، سأفكر فيما سيفعلون دون أخي! هؤلاء المساكين! ماذا سيفعلون دونه!

ودقت الساعة الثانية عشرة، وأعلن عن وصول المركبة إلى الفناء الخارجي، وهبط الأخوان على السلّم وذراع أحدهما في ذراع الآخر. ومن ورائهم المحترم إدوارد دوريت «تيب سابقاً» وفي ذراعه أخته فاني، ثم السيد بلورنيش وماجي التي عهد إليها إزالة كل حاجيات الأسرة التي تقرر إزالتها، حاملة الصرر واللفائف لشحنها على عربة.

وفي الفناء وقف النزلاء والحراس. وفي الفناء، كان السيد بانكس والسيد راج اللذان جاءا ليشاهدا آخر لمسة في عملهما الناجح. وفي الفناء وقف الشاب جون يصنع لنفسه شاهداً جديداً يوضع على قبره عندما يموت محطم القلب. وفي الفناء وقف السيد كاسبي البطريركي وقد بدا عظيم السماحة بحيث أخذ كثير من النزلاء المتحمسين يمسكون بيديه بحرارة، والنساء من أقارب الكثيرين من هؤلاء النزلاء يقبّلون يده، دون أن يشك أحد أنه يتظاهر بهذا كله. وفي الفناء كان الحشد المعتاد من الذين يجتمعون للفرجة في مثل هذه المناسبة. وفي الفناء وقف الرجل ذو الشكوى المشكوك فيها بخصوص الرصيد الذي اختلسه مدير السجن. وكان قد استيقظ في الخامسة صباحاً ليستكمل نسخ صورة من شكواه هذه الغامضة، كان قد عهد بها إلى السيد دوريت باعتبارها وثيقة كبيرة الأهمية سوف تذهل الحكومة وتؤدي إلى سقوط مدير السجن. وفي الفناء وقف المفلس الذي كانت كل جهوده تؤدي به إلى الوقوع في الدَّيْن، والذي كان يدخل السجن بنفس الجهد الذي يبذله السجين ليخرج منه هو موضع التقدير والتهنئة، وبينما يظل ذلك المفلس بجرمه الضئيل،

وهيأته الدنيئة ولهفته العارمة للنجاة من الدَّيْن، وهو لا يجد إلا بمشقة مندوباً يضمنه دون توبيخ أو تقريع. وفي الفناء وقف الرجل ذو الأبناء الكثيرين والأعباء الكثيرة التي أدهش فشله كل إنسان. وفي الفناء كان الرجل الذي لا أبناء له والذي كان كثير الموارد والذي أدهش فشله كل إنسان. وكان هناك الأشخاص الذين كانوا يريدون الخروج دائماً في الصباح، ولكنهم دائماً يؤجلونه، وكان هناك الأشخاص الذين جاؤوا بالأمس وكانوا أكثر حسداً للسيد دوريت من الآخرين القدامى. وكان هناك البعض الذين راحوا -لدناءة نفوسهم- يتخاضعون وينحنون أمام زميلهم المحظوظ وأسرته وكان هناك آخرون الذين راحوا يفعلون هذا عن إخلاص، لأن عيونهم التي اعتادت ظلام السجن والفاقة لم تستطع احتمال نور هذه الشمس الساطعة. وكان هناك كثيرون من الذين دخلت شلناتهم جيبه ليشتري اللحم والشراب، ولكن لم يعد بينهم الآن الطفيلي الذي يمكن أن يكون صديقاً رحب به السيد دوريت لشدة حاجته إليه. وقد لوحظ بوضوح أن هؤلاء المسجونين كانوا على شيء من الخجل والحذر من الزميل الذي سيخرج بهذه الأبهة، وبدا عليهم الميل للاقتراب من البوابة والشعور بالزهو عند مروره بهم.

وبين هؤلاء المتفرجين، تقدم الموكب الصغير، وعلى رأسه الأخوان، في بطء نحو البوابة. وكان السيد دوريت، في استسلامه لخيالاته الواسعة، يشعر، دون أن تستغرقه الخيالات، بالعظمة والحزن وهو يفكر فيما سوف يفعل هؤلاء البؤساء دونه. وكان يربت على رؤوس الأطفال مثل السيد روجر كوثرلي عند ذهابه إلى الكنيسة وكان يتحدث إلى الواقفين في المؤخرة بأسمائهم المجردة. وكان يبدو متنازلاً في معاملته للجميع، ويلوح أنه يسير من أجلهم، محاطاً بهذه الكلمات الذهبية الأسطورية «اطمئنوا يا أبنائي، وتجلّدوا!».

وأخيراً أعلنت ثلاثة هتافات أنه مر من البوابة وأن سجن مارشاليزا قد صار يتيماً. وقبل أن يتلاشى صدى الهتافات على جدران السجن، كانت الأسرة قد استقلّت المركبة، واتخذ التابع مكانه منها.

وعندئذ فقط، وليس قبل هذا، صاحت الآنسة فاني على حين غرة:

- يا إلهي الرحيم، أين إيمي.

وكان والدها قد ظن أنها مع أختها. وكانت أختها قد ظنت أنها هنا أو هناك، وكانوا جميعاً واثقين أنهم سوف يجدونها -كشأنهم دائماً- جالسة بهدوء في مكانها المناسب في الوقت المناسب، ولعل أن كان خروجهم هو التصرف الوحيد الذي قاموا به بعد اجتماع شملهم دون معاونة منها.

ولعل دقيقة قد انصرمت في استيعاب هذه النقاط عندما صاحت فاني، التي كانت تشرف من مقعدها في المركبة على الممر الضيق الطويل المؤدي إلى البوابة، بلهجة استنكار وضيق:

- أستطيع الآن يا أبي أن أقول إن هذه فضيحة.

- أية فضيحة يا فاني؟

وكررت القول:

- أستطيع أن أقول إنها فضيحة فظيعة. إنها تكاد تكفي، حتى في هذا الوقت، أن تجعل الإنسان يتمنى الموت، ها هي هذه الطفلة إيمي بثوبها الرث القبيح القديم، الذي تصر على ارتدائه، والذي رجوتها المرة بعد المرة وابتهلت إليها أن تخلعه! فكانت المرة بعد الأخرى تعترض، ثم وعدت أن تغيّره اليوم، قائلة إنها أرادت أن ترتديه ما دامت باقية هنا معك، وهذا بطبيعة الحال شيء خيالي بحت وهراء من أدنى نوع. وها هي

هذه الطفلة إيمي تفضحنا جميعاً، في اللحظة الأخيرة، وفي آخر لحظة بالخروج معنا في هذا الثوب أخيراً، ومع ذلك السيد كلينام أيضاً!

وقد ثبتت هذه الإساءة بعد أن فرغت فاني من حديثها، وذلك عندما ظهر كلينام عند باب المركبة حاملاً دوريت الصغيرة المغشي عليها بين ذراعيه قائلاً بصوت لم يكن يخلو من الرثاء والعتاب:

- لقد نسيتموها. وقد أسرعت إلى غرفتها (التي عرّفني بها السيد شيفري) حيث وجدت الباب مفتوحاً وهي ملقاة على الأرض مغشياً عليها، الطفلة العزيزة. لقد بدا أنها صعدت لتغيِّر ثوبها، فأغمي عليها من فرط الانفعال. ولعل السبب أن يكون الهتاف، أو لعل ما حدث كان أسرع مما توقعت. حافظي على هذه اليد الباردة البائسة، آنسة دوريت. لا تدعيها تسقط.

وردت الآنسة دوريت وقد انفجرت باكية:

- شكراً لك يا سيدي. أعتقد أنني أعرف كيف أفعل هذا إذا سمحت لي. افتحي عينيك يا عزيزتي إيمي.. إنني حبيبتك! أوه، إيمي، إيمي، إنني مستاءة حقاً، وخجلى من نفسي، أفيقي لنفسك يا حبيبتي! أوه، لماذا لا تنطلق المركبة. أرجوك يا أبي، دعهم ينطلقوا بها.

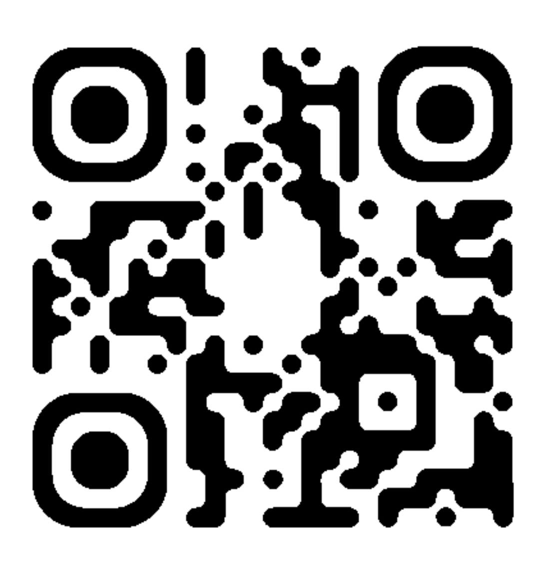
وهنا صاح التابع بعد أن جعل نفسه بين السيد كلينام وباب المركبة قائلاً:

- عن إذنك يا سيدي.

ثم وثب إلى سلم المركبة التي انطلقت بهم.

* * *

تستمر الحكاية في الجزء الثاني
انتظرها من مكتبة قريبا ..



فهرس


مكتبة
t.me/soramnqraa

LITTLE DORRIT روايات



دوريت الصغيرة

تشارلز ديكنز

شخصيّة «**دوريت الصغيرة**» مستوحاة بواسطة «**ماري آن كوبر**» (ني ميتون)، الّتي كان يزورها **ديكنز** في بعض الأحيان هي وعائلتها.

هي رواية متسلسلة تمّ نشرها بين 1855و1857، وتناقش جوانب القصور لدى الحكومة والمجتمع في تلك الفترة. تركّز غضب **ديكنز**، في هذه الرواية، على المؤسّسات المسؤولة عن سجن المدينين المتعثّرين الّذين لا يستطيعون العمل ليتمكنوا من سداد ديونهم، وكان سجن «**مارشاليزا**» هو المسؤول عن هذه الحالات، وهو السجن الّذي سجن فيه والد ديكنز نفسه؛ وينصبّ معظم النقد، في هذه الرواية بالتحديد، على شبكة الأمان الاجتماعيّ: الصناعة والعلاج وسلامة العمّال وبيروقراطيّة وزارة الخزانة البريطانيّة والتفريق بين الناس استنادًا إلى انعدام التواصل بين الطبقات.



ISBN 978-6589-09-859-1



الأهلية

الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2020
الغلاف: [illegible] ☎ 95297109 7 00962